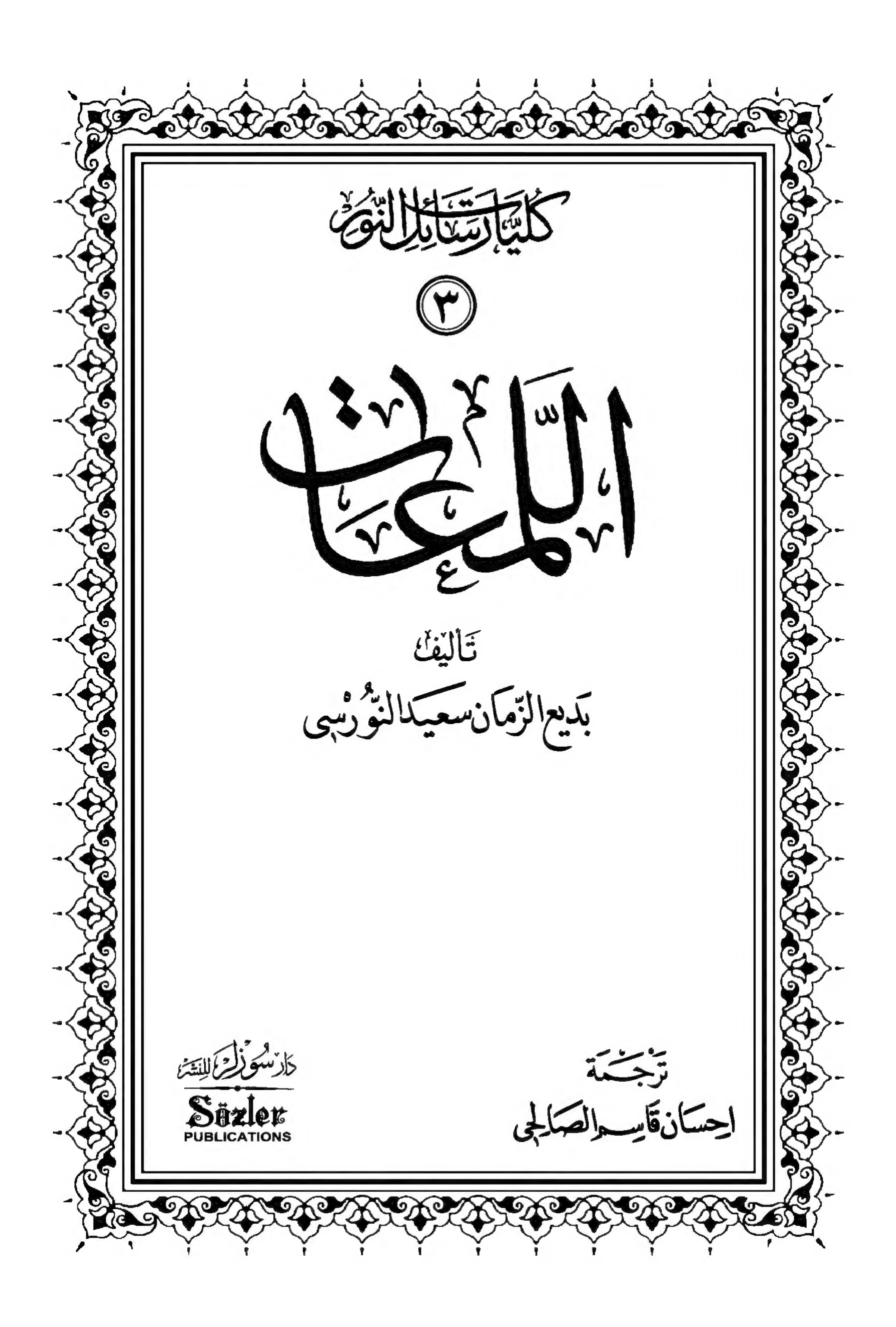

كليات رسائل النور
٣
اللمعات
تأليف
بديع الزمان سعيد النورسي
ترجمة
احسان قاسم الصالحي
دار سوزلر للنشر
Sözler
PUBLICATIONS


اللَّمَعات

عنوان الكتاب :	TITLE :
اللمعات	LEM`ALAR
تأليف :	AUTHOR :
بديع الزمان سعيد النّورسيّ	BEDIUZZAMAN SAID NURSI
ترجمة :	TRANSLATED BY :
إحسان قاسم الصالحي	IHSAN KASIM SALIHI
الترقيم الدولي : ٣-٠٥-٥٣٢٣-٩٧٧	ISBN : 977-5323-05-3
رقم الإيداع : ١٧٨٦/ ٩٣	ARCHIVE NO : 93 / 1786
الطبعة : السادسة (٢٠١١)	EDITION : SIXTH (2011)

الناشر :	PUBLISHER :
شركة سوزلر للنشر	SÖZLER PUBLICATIONS
العنوان :	ADDRESS :
٣٠ شارع جعفر الصادق	30 Gafar El-Sadek St.
الحي السابع- مدينة نصر- القاهرة	7th Nasr City Cairo
جمهورية مصر العربية	Egypt
تليفاكس: ٢٢٦٠٢٩٣٨ (٢٠٢)+	Tel&Fax: +(202) 22602938

www.sozler.com.tr

e-mail: darsozler@gmail.com


بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنبياء:٨٧)

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (الأنبياء:٨٣)

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (التوبة:١٢٩)

﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (آل عمران:١٧٣)

(لا حولَ ولا قوةَ إلّا بالله العَليِّ العَظيمِ)[1]

(يا بَاقي أنت البَاقي.. يا بَاقي أنت الباقي)

﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ﴾ (فصلت:٤٤)

هذا القسم الأول من «المكتوب الحادي والثلاثين» يتضمن ست لمعات تبين كلٌّ منها نوراً من أنوارٍ كثيرة للكلمات المباركة المذكورة التي لقراءتها ثلاثاً وثلاثين مرة في كل وقت فضائلُ كثيرة ولاسيما بين المغرب والعشاء.

(١) انظر: البخاري، المغازي ٣٨، الدعوات ٥١، ٦٨، القدر ٧؛ مسلم، الذكر ٤٤-٤٦.

اللمعة الأولى

إنَّ مناجاة سيدنا يونس بن متّى -على نبينا وعليه الصلاة والسلام- هي من أعظم أنواع المناجاة وأروعِها، ومن أبلغِ الوسائل لاستجابة الدعاء وقبوله.[1]

تتلخص قصتُه المشهورة بأنه عليه السلام قد أُلقيَ به إلى البحر، فالتقمه الحوتُ، وغشيَتْه أمواجُ البحر الهائجةُ، وأسدل الليلُ البهيم ستارَه المظلمَ عليه. فداهَمَته الرهبةُ والخوف من كل مكان وانقطعت أمامَه أسبابُ الرجاء وانسدت أبوابُ الأمل.. وإذا بمناجاته الرقيقة وتضرعه الخالص الزكي: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الأنبياء:٨٧) يُصبح له في تلك الحالة واسطةَ نجاة ووسيلة خلاص.

وسر هذه المناجاة العظيم هو أنَّ الأسباب المادية قد هَوت كلياً في ذلك الوضع المرعب، وسقطت نهائياً فلم تحرّك ساكناً ولم تترك أثراً، ذلك لأنَّ الذي يستطيع أن ينقذه من تلك الحالة، ليس إلّا ذلك الذي تنفُذُ قدرتُه في الحوت، وتهيمن على البحر وتستولي على الليل وجوّ السماء؛ حيث إنَّ كلاً من الليل الحالك والبحر الهائج والحوت الهائل قد اتفق على الانقضاض عليه، فلا يُنجيه سببٌ، ولا يخلّصه أحدٌ، ولا يوصله إلى ساحل السلامة بأمان، إلّا مَن بيده مقاليد الليل وزمام البحر والحوت معاً، ومَن يسخّر كلَّ شيء تحت أمره.. حتى لو كان الخلقُ أجمعين تحت خدمته عليه السلام ورهن إشارته في ذلك الموقف الرهيب، ما كانوا ينفعونه بشيء!.

أجل لا تأثير للأسباب قط.. فما إن رأى عليه السلام بعين اليقين ألّا ملجأ له من أمره تعالى إلّا اللواذ إلى كنف مسبّب الأسباب، انكشف له سرُّ الأحدية من خلال نور التوحيد

(١) انظر: الترمذي، الدعوات ٨١؛ أحمد بن حنبل، المسند ١/ ١٧٠.

الساطع، حتى سخّرتْ له تلك المناجاةُ الخالصة الليلَ والبحرَ والحوتَ معاً، بل تحوّل له بنور التوحيد الخالص بطنُ الحوت المظلم إلى ما يشبه جوفَ غواصة أمينة هادئة تسير تحت البحر، وأصبح ذلك البحرُ الهائج بالأمواج المتلاطمة ما يشبه المتنـزّه الآمن الهادئ، وانقشعت الغيومُ عن وجه السماء -بتلك المناجاة- وكشف القمرُ عن وجهه المنير كأنه مصباح وضيء يتدلى فوق رأسه..

وهكذا غدت تلك المخلوقاتُ التي كانت تهدّده وتُرعبه من كل صوبٍ وتضيّق عليه الخناق، غدت الآن تُسفر له عن وجه الصداقة، وتتقرب إليه بالودّ والحنان، حتى خرج إلى شاطئ السلامة وشاهدَ لُطف الرب الرحيم تحت شجرة اليَقطين.

فلننظر بنور تلك المناجاة إلى أنفسنا.. فنحن في وضع مخيف ومرعب أضعاف أضعاف ما كان فيه سيدنا يونس عليه السلام، حيث إن:

ليلَنا الذي يخيّم علينا، هو المستقبل.. فمستقبلُنا إذا نظرنا إليه بنظر الغفلة يبدو مظلماً مخيفاً، بل هو أحلك ظلاماً وأشد عتامة من الليل الذي كان فيه سيدنا يونس عليه السلام بمائة مرة.

وبحرَنا، هو بحر الكرة الأرضية، فكل موجة من أمواج هذا البحر المتلاطم تحمل آلاف الجنائز، فهو إذن بحر مرعب رهيب بمائة ضعف رهبة البحر الذي أُلقي فيه عليه السلام.

وحوتَنا، هو ما نحمله من نفس أمارة بالسوء، فهي حوت يريد أن يلتقم حياتنا الأبدية ويَمحَقَها. هذا الحوتُ أشد ضراوة من الحوت الذي ابتلع سيدَنا يونس عليه السلام؛ إذ كان يمكنه أن يقضي على حياة أمدُها مائة سنة، بينما حوتُنا نحن يحاول إفناء مئات الملايين من سني حياة خالدة هنيئة رغيدة.

فما دامت هذه حقيقةَ وضعنا، فما علينا إذن إلّا الاقتداء بسيدنا يونس عليه السلام والسير على هديه، مُعرضين عن الأسباب جميعاً، مُقبلين كلياً على ربنا الذي هو مسبّب الأسباب متوجهين إليه بقلوبنا وجوارحنا، ملتجئين إليه سبحانه قائلين: ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَـٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ مدركين بعين اليقين أنْ قد ائتمر علينا -بسبب غفلتنا وضلالنا- مستقبلُنا الذي يرتقبنا، ودنيانا التي تضمنا، ونفوسُنا الأمّارة بالسوء التي بين

جنبينا، موقنين كذلك أنه لا يقدر أن يدفع عنا مخاوفَ المستقبل وأوهامه، ولا يزيل عنا أهوال الدنيا ومصائبها، ولا يُبعد عنا أضرار النفس الأمّارة بالسوء ودسائسها، إلّا مَن كان المستقبلُ تحت أمره، والدنيا تحت حُكمه، وأنفسُنا تحت إدارته.

تُرى مَن غيرُ خالق السماوات والأرضين يعرف خلجات قلوبنا، ومَن غَيرُه يعلم خفايا صدورنا، ومَن غَيرُه قادر على إنارة المستقبل لنا بخلق الآخرة، ومَن غيرُه يستطيع أن ينقذنا من بين ألوف أمواج الدنيا المتلاطمة بالأحداث؟!. حاشَ لله وكلّا أن يكون لنا منجٍ غيرُه ومخلّصٌ سواه، فهو الذي لولا إرادتُه النافذة ولولا أمرُه المهيمن لَما تمكّن شيءٌ أينما كان وكيفما كان أن يمد يدَه ليغيث أحداً بشيء!.

فما دامت هذه حقيقةَ وضعنا فما علينا إلّا أن نرفع أكفّ الضراعة إليه سبحانه متوسلين، مستعطفين نظرَ رحمته الربانية إلينا، إقتداءً بسر تلك المناجاة الرائعة التي سخّرت الحوتَ لسيدنا يونس عليه السلام كأنه غواصة تسير تحت البحر، وحوّلت البحرَ متنـزّهٍ جميلٍ، وألبَست الليلَ جلباب النور الوضيء بالبدر الساطع. فنقول: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ .. فنلفت بها نظرَ الرحمة الإلهية إلى مستقبلنا بقولنا: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ ونلفتها إلى دنيانا بكلمة: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ ونرجوها أن تنظر إلى أنفسنا بنظر الرأفة والشفقة بجملة: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ . كي يعمّ مستقبلنا نور الإيمان وضياء بدر القرآن، وينقلب رعبُ ليلنا ودهشتُه إلى أمن الأُنس وطمأنينة البهجة. ولتنتهي مهمةُ حياتنا ونختتم وظيفتَها بالوصول إلى شاطئ الأمن والأمان دخولا في رحاب حقيقة الإسلام، تلك الحقيقة التي هي سفينة معنوية أعدّها القرآن العظيم، فنبحر بها عباب الحياة، فوق أمواج السنين والقرون الحاملة لجنائز لا يحصرها العد، ويقذفها إلى العدم بتبدل الموت والحياة وتناوبهما الدائبين في دنيانا وأرضنا. فننظر إلى هذا المشهد الرهيب بمنظار نور القرآن الباهر، وإذا هو مناظر متبدّلة، متجددة، يُحَوِّل تجدُّدُها المستمر تلك الوحشة الرهيبة النابعة من هبوب العواصف وحدوث الزلازل للبحر إلى نظرٍ تقْطر منه العبرةُ، ويبعث على التأمل والتفكر في خلق الله. فتستضيء وتتألق ببهجةِ التجدد ولطافةِ التجديد. فلا تستطيع عندها نفوسُنا الأمّارة على قهرنا، بل نكون نحن الذين نقهرُها بما منَحنا القرآن الكريم من ذلك

السر اللطيف، بل نمتطيها بتلك التربية المنبثقة من القرآن الكريم. فتُصبِح النفسُ الأمّارة طوعَ إرادتنا، وتغدو وسيلةً نافعة ووساطةَ خير للفوز بحياة خالدة.

الخلاصة: إنَّ الإنسان بما يحمل من ماهية جامعة يتألم من الحمّى البسيطة كما يتألم من زلزلة الأرض وهزّاتها، ويتألم من زلزال الكون العظيم عند قيام الساعة. ويخاف من جرثومة صغيرة كما يخاف من المذنبات الظاهرة في الأجرام السماوية. ويحب بيتَه ويأنس به كما يحب الدنيا العظيمة. ويهوى حديقته الصغيرة ويتعلق بها كما يشتاق إلى الجنة الخالدة ويتوق إليها.

فما دام أمرُ الإنسان هكذا، فلا معبودَ له ولا ربَّ ولا مولى ولا منجىً ولا ملجأ إلّا مَن بيده مقاليدُ السماوات والأرض وزمام الذرات والمجرات، وكل شيء تحت حُكمه، طوعَ أمره.. فلابد أن هذا الإنسان بحاجة ماسة دائماً إلى التوجّه إلى بارئه الجليل والتضرع إليه اقتداءً بسيدنا يونس عليه السلام. فيقول:

﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ .

﴿سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾

اللمعة الثانية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٣)

هذه المناجاةُ اللطيفة التي نادى بها رائدُ الصابرين سيدُنا أيوب عليه السلام مجرّبةٌ، وذاتُ مفعول مؤثّر، فينبغي أن نقتبس من نور هذه الآية الكريمة ونقول في مناجاتنا: «ربِّ إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين».

وقصة سيدنا أيوب عليه السلام المشهورة، نلخصها بما يأتي:

إنه عليه السلام ظل صابراً ردحاً من الزمن يكابد ألَمَ المرض العضال، حتى سرت القروحُ والجروحُ إلى جسمه كله، ومع ذلك كان صابراً جلداً يرجو ثوابَه العظيم من العلي القدير. وحينما أصابت الديدانُ الناشئة من جروحه قلبَه ولسانَه اللذين هما محلُّ ذكر الله وموضعُ معرفته، تضرّع إلى ربّه الكريم بهذه المناجاة الرقيقة: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ خشية أنْ يصيب عبادتَه خللٌ، ولم يتضرع إليه طلباً للراحة قط. فاستجاب الله العلي القدير لتلك المناجاة الخالصة الزكية استجابةً خارقة بما هو فوق المعتاد، وكشف عنه ضرَّه وأحسنَ إليه العافيةَ التامة وأسبغَ عليه ألطافَ رحمته العميمة.

في هذه اللمعة خمس نكات.

النكتة الأولى

إنه إزاء تلك الجروح الظاهرة التي أصابت سيدَنا أيوبَ عليه السلام، توجد فينا أمراضٌ باطنية وعللٌ روحية وأسقامٌ قلبية، فنحن مصابون بكلّ هذا. فلو انقلبنا ظاهراً بباطن وباطناً بظاهر، لظهرنا مُثقَلين بجروحٍ وقروحٍ بليغة، ولَبَدَت فينا أمراضٌ وعللٌ أكثر بكثير مما عند سيدنا أيوب عليه السلام، ذلك لأن: كلَّ ما تكسبه أيدينا من إثم، وكلَّ ما يلج إلى أذهاننا من شبهة، يشقّ جروحاً غائرةً في قلوبنا، ويفجّر قروحاً دامية في أرواحنا.. ثم إن جروحَ سيدنا أيوب عليه السلام كانت تهدّد حياتَه الدنيا القصيرة بخطر، أما جروحُنا المعنوية نحن فهي تهدد حياتَنا الأخروية المديدة بخطر.. فنحن إذن محتاجون أشد الحاجة إلى تلك المناجاة الأيوبية الكريمة بأضعافِ أضعاف حاجته عليه السلام إليها. وبخاصة أن الديدان المتولدة من جروحه عليه السلام مثلما أصابت قلبَه ولسانَه، فإن الوساوس والشكوك -نعوذ بالله- المتولدة عندنا من جروحنا الناشئة من الآثام والذنوب تصيب باطنَ القلب الذي هو مستقرُّ الإيمان فتزعزعُ الإيمانَ فيه، وتمسّ اللسانَ الذي هو مترجم الإيمان فتُسلبه لذةَ الذكر ومتعتَه الروحية، ولا تزال تنفّره من ذكر الله حتى تُسكته كلياً.

نعم، الإثمُ يتوغل في القلب ويمدّ جذورَه في أعماقه، وما ينفك ينكُتُ فيه نكتاً سوداء حتى يتمكن من إخراج نور الإيمان منه، فيبقى مظلماً مقفراً، فيغلظ ويقسو.

نعم، إن في كل إثم وخطيئةٍ طريقاً مؤدياً إلى الكفر، فإن لم يُمحَ ذلك الإثم فوراً بالاستغفار يتحول إلى دودة معنوية، بل إلى حية معنوية تعض القلبَ وتؤذيه.

ولنوضح ذلك بما يأتي:

مثلاً: إن الذي يرتكب سراً إثماً يُخجَل منه، وعندما يستحي كثيراً من اطلاع الآخرين عليه، يثقُل عليه وجودُ الملائكة والروحانيات، ويرغب في إنكارهم بأمارة تافهة.

ومثلاً: إن الذي يقترف كبيرة تُفضي إلى عذاب جهنم. إنْ لم يتحصّن تجاهها بالاستغفار، فما إنْ يسمع نذيرَ جهنم وأهوالَها يرغب من أعماقه في عدم وجودها، فيتولد لديه جرأةٌ لإنكار جهنم من أمارة بسيطة أو شبهة تافهة.

ومثلاً: إن الذي لا يقيم الفرائضَ ولا يؤدي وظيفةَ العبودية حق الأداء وهو يتألم من توبيخ آمره البسيط لتقاعسه عن واجب بسيط، فإنّ تكاسله عن أداء الفرائض إزاء الأوامر المكررة الصادرة من الله العظيم، يورثه ضِيقاً شديداً وظلمةً قاتمةً في روحه، ويسوقُه هذا الضيقُ إلى الرغبة في أن يتفوّه ويقول ضمناً: «ليته لم يأمر بتلك العبادة!» وتثير هذه الرغبةُ فيه الإنكارَ، الذي يُشمّ منه عداءً معنوياً تجاه ألوهيته سبحانه!، فإذا ما وردت شبهةٌ تافهة إلى القلب حول وجوده سبحانه، فإنه يميل إليها كأنها دليل قاطع. فينفتح أمامَه بابٌ عظيمٌ للهلاك والخسران المبين. ولكن لا يدركُ هذا الشقي أنه قد جعل نفسه -بهذا الإنكار- هدفاً لضيق معنوي أرهبَ وأفظعَ بملايين المرات من ذلك الضيق الجزئي الذي كان يشعر به من تكاسله في العبادة، كمن يفرّ من لسع بعوضة إلى عض حية!

فليُفهَم في ضوء هذه الأمثلة الثلاثة سرّ الآية الكريمة:

﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين: ١٤).

النكتة الثانية

مثلما وُضّح في «الكلمة السادسة والعشرين» الخاصة بالقدر: إن الإنسان ليس له حق الشكوى من البلاء والمرض بثلاثة وجوه:

الوجه الأول: أنَّ الله سبحانه يجعل ما ألبسَه الإنسانَ من لباس الوجود دليلا على صنعته المُبدعة، حيث خلقه على صورة نموذج (موديل) يفصّل عليه لباسَ الوجود، يبدّلُه ويقصُّه ويغيّرُه، مبيناً بهذا التصرف تجليات مختلفة لأسمائه الحسنى. فمثلما يستدعي اسمُ «الشافي» المرضَ، فإن اسم «الرزاق» أيضاً يقتضي الجوعَ. وهكذا فهو سبحانه مالكُ المُلك يتصرف في مُلكه كيف يشاء.

الوجه الثاني: أنَّ الحياة تتصفّى بالمصائب والبلايا، وتتزكّى بالأمراض والنوائب، وتجد بها الكمال وتتقوى وتترقى وتسمو وتثمر وتنتج وتتكامل وتبلغ هدفَها المراد لها، فتؤدي مهمتَها الحياتية. أما الحياةُ الرتيبة التي تمضي على نسق واحد وتمر على فراش الراحة، فهي أقربُ إلى العدم الذي هو شرّ محضٌ منه إلى الوجود الذي هو خيرٌ محض. بل هي تُفضي إلى العدم.

الوجه الثالث: أنَّ دار الدنيا هذه ما هي إلّا ميدانُ اختبار وابتلاء، وهي دارُ عمل ومحل عبادة، وليست محلَّ تمتّع وتلذذ ولا مكان تسلّم الأجرة ونيل الثواب.

فمادامت الدنيا دارَ عمل ومحلَّ عبادة، فالأمراضُ والمصائب عدا الدينية منها وبشرط الصبر عليها تكون ملائمةً جداً مع ذلك العمل، بل منسجمةً تماماً مع تلك العبادة، حيث إنها تمد العملَ بقوة وتشدّ من أزر العبادة، فلا يجوز التشكّي منها، بل يجب التحلي بالشكر لله بها، حيث إن تلك الأمراضَ والنوائب تحوّل كلَّ ساعة من حياة المصاب عبادةً ليوم كامل.

نعم، إن العبادة قسمان: قسم إيجابي وقسم سلبي..

فالقسم الأول معلوم لدى الجميع، أما القسم الآخر فإن البلايا والضر والأمراض تجعل صاحبَها يشعر بعَجزه وضَعفه، فيلتجئ إلى ربه الرحيم، ويتوجّه إليه ويلوذ به، فيؤدي بهذا عبادة خالصة. هذه العبادة خالصةٌ زكيّةٌ لا يدخل فيها الرياءُ قط. فإذا ما تجمّل المصابُ بالصبر وفكّر في ثواب ضرّه عند الله وجميلِ أجره عنده، وشكَر ربَّه عليها، تحولت عندئذ كلُّ ساعة من ساعات عمره كأنها يومٌ من العبادة، فيغدو عمرُه القصير جداً مديداً طويلاً، بل تتحول –عند بعضهم– كلُّ دقيقة من دقائق عمره بمثابة يوم من العبادة.

ولقد كنتُ أقلق كثيراً على ما أصاب أحد إخوتي في الآخرة وهو «الحافظ احمد المهاجر»(*) بمرض خطير، فخطر إلى القلب ما يأتي: «بشّره، هنّئه، فإن كلَّ دقيقة من دقائق عمره تمضي كأنها يومٌ من العبادة».. حقاً إنه كان يشكر ربَّه الرحيم من ثنايا الصبر الجميل.

النكتة الثالثة

مثلما بينّا في «الكلمات» السابقة أنه إذا ما فكّر كلُّ إنسان فيما مضى من حياته فسَيردُ إلى قلبه ولسانه «وا أسفاه»، أو: «الحمد لله». أي إما أنه يتأسف ويتحسر، أو يحمد ربَّه ويشكره. فالذي يقطّر الأسف والأسى إنما يكون بسبب الآلام المعنوية الناشئة من زوال اللذائذ السابقة وفراقها، ذلك لأن زوالَ اللذة ألَمٌ، بل قد تورث لذةٌ زائلةٌ طارئةٌ آلاماً دائمة مستمرة، فالتفكر فيها يُعصِر ذلك الألَمَ ويُقطّر منه الأسف والأسى، بينما اللذةُ المعنوية والدائمة الناشئة من زوال الآلام المؤقتة التي قضاها المرء في حياته الفائتة، تجعل لسانَه ذاكراً بالحمد والثناء لله تعالى.. هذه

حالةٌ فطرية يشعر بها كل إنسان، فإذا ما فكر المصاب -علاوة على هذا- بما أدّخر له ربُّه الكريم من ثوابٍ جميل وجزاءٍ حَسن في الآخرة وتأملَ في تحوُّل عمره القصير بالمصائب إلى عمر مديد فإنه لا يصبر على ما انتابه من ضُرّ وحده، بل يرقى أيضاً إلى مرتبة الشكر لله والرضا بقَدَره، فينطلق لسانُه حامداً ربَّه وقائلاً: «الحمد لله على كلِّ حال سوى الكفر والضلال».

ولقد سار مثلا عند الناس: «ما أطولَ زمنَ النوائب!». نعم، هو كذلك ولكن ليس بالمعنى الذي في عُرفِ الناس وظنِّهم من أنه طويل بما فيه من ضيق وألَم، بل هو طويلٌ مديد كالعمر الطويل بما يُثمر من نتائج حياتية عظيمة.

النكتة الرابعة

لقد بينّا في «المقام الأول للكلمة الحادية والعشرين»: أنَّ الإنسان إنْ لم يشتّت ما وهَبه البارئ سبحانه من قوةِ الصبر، ولم يبعثرها في شعاب الأوهام والمخاوف، فإنّ تلك القوة يمكن أن تكون كافيةً للثبات حيال كل مصيبة وبلاء، ولكن هيمنةَ الوهم وسيطرةَ الغفلة عليه والاغترارَ بالحياة الفانية كأنها دائمة.. يؤدي إلى الفتّ من قوة صبره وتفريقها إلى آلام الماضي ومخاوف المستقبل، فلا يكفيه ما أودعه الله من الصبر على تحمّل البلاء النازل به والثبات دونه، فيبدأ ببث الشكوى حتى كأنه يشكو الله للناس، مبدياً من قلة الصبر ونفاده ما يشبه الجنون. فضلاً عن أنه لا يحق له أن يجزع جزعَه هذا أبداً؛ ذلك لأن كل يوم من أيام الماضي -إن كان قد مضى بالبلاء- فقد ذهب عسرُه ومشقتُه وتركَ راحتَه، وقد زال تعبُه وألَمُه وترك لذتَه، وقد ذهب ضنكُه وضيقُه وثبت أجرُه، فلا يجوز إذن الشكوى منه، بل ينبغي الشكر لله تعالى عليه بشوق ولهفة. ولا يجوز كذلك الامتعاضُ من المصيبة والسخط عليها بل ينبغي ربطُ أواصر الحب بها؛ لأن عمر الإنسان الفاني الذي قد مضى يتحول عمراً سعيداً باقياً مديداً بما يعاني فيه من البلاء. فمن البلاهة والجنون أن يبدد الإنسانُ قسماً من صبره ويهدره بالأوهام والتفكر في البلايا التي مضت والآلام التي ولّت. أما الأيام المقبلة، فحيث إنها لم تأت بعدُ ومجهولةٌ مبهمة، فمن الحماقة التفكرُ فيها من الآن والجزعُ عمّا يمكن أن يصيب الإنسان فيها من مرض وبلاء. فكما أنه حماقةٌ أن يأكل الإنسانُ اليوم كثيراً من الخبز ويشرب كثيراً من الماء لما يمكن أن يصيبَه من الجوع والعطش في الغد أو بعد غد، كذلك التألّم والتضجرُ من الآن لما يمكن أن يُبتلى به في

المستقبل من أمراض ومصائب هي الآن في حكم العدم، وإظهار الجزع نحوها دون أن يكون هناك مبرر واضطرار، هو بلاهةٌ وحماقة إلى حدٍّ تسلب العطفَ على صاحبها والإشفاق عليه. فوق أنه قد ظلم نفسه بنفسه.

الخلاصة: إن الشكر مثلما يزيد النعمةَ، فالشكوى تزيد المصيبةَ وتسلب الترحم والإشفاقَ على صاحبها.

لقد ابتُلي رجل صالح من مدينة «أرضروم» بمرض خطير وبيل، وذلك في السنة الأولى من الحرب العالمية الأولى، فذهبتُ إلى عيادته وبثَّ لي شكواه:

- لم أذُق طعمَ النوم منذ مائة يوم.

تألمتُ لشكواه الأليمة هذه، ولكن تذكرتُ حينها مباشرة وقلت:

- «أخي! إن الأيام المائة الماضية لكونها قد ولّت ومضت فهي الآن بمثابة مائة يوم مُسرِّة مفرحة لك، فلا تفكر فيها ولا تشكُ منها، بل انظر إليها من زاوية زوالها وذهابها، واشكر ربك عليها. أما الأيام المقبلة فلأنها لم تأتِ بعدُ، فتوكّل على رحمة ربك الرحمن الرحيم واطمئن إليها. فلا تبكِ قبل أن تُضرَب، ولا تخف من غير شيء، ولا تمنح العدمَ صبغةَ الوجود. اصرف تفكيرك في هذه الساعة بالذات، فإن ما تملكه من قوة الصبر تكفي للثبات لهذه الساعة. ولا تكن مثلَ ذلك القائد الأحمق الذي شتّت قوته في المركز يميناً وشمالاً في الوقت الذي التحقت ميسَرةُ العدو إلى صفوف ميمنة جيشه فأمدَّتْها، وفي الوقت الذي لم تكُ ميمنةُ العدو متهيئة للحرب بعد.. فما إن علِم العدو منه هذا حتى سدّد قوةً ضئيلة في المركز وقضى على جيشه.

فيا أخي لا تكن كهذا، بل حشِّد كل قواك لهذه الساعة فقط، وترقَّب رحمة الله الواسعة، وتأمل في ثواب الآخرة، وتدبّر في تحويل المرض لعمرك الفاني القصير إلى عمر مديد باق، فقدِّم الشكرَ الوافر المسرّ إلى العلي القدير بدلاً من هذه الشكوى المريرة».

انشرح ذلك الشخص المبارك من هذا الكلام وانبسطت أساريرُه حتى شرع بالقول: «الحمد لله. لقد تضاءل ألمي كثيراً».

النكتة الخامسة

وهي ثلاث مسائل

المسألة الأولى:

إنَّ المصيبة التي تعدّ مصيبةً حقاً والتي هي مُضرةٌ فعلاً، هي التي تصيب الدين. فلابد من الالتجاء إلى الله سبحانه والانطراح بين يديه والتضرع إليه دون انقطاع. أما المصائبُ التي لا تمس الدين فهي في حقيقة الأمر ليست بمصائبَ، لأن قسماً منها:

تنبيهٌ رحماني يبعثه الله سبحانه إلى عبده ليوقظَه من غفلته، بمثل تنبيه الراعي لشياهه عندما تتجاوز مرعاها، فيرميها بحجر، والشياه بدورها تشعر أن راعيها ينبهها بذلك الحجر ويحذّرها من أمر خطير مضر، فتعود إلى مرعاها برضى واطمئنان. وهكذا النوائبُ الظاهرة فإن الكثير منها تنبيه إلهي، وإيقاظ رحماني للإنسان.

أما القسم الآخر من المصائب فهو كفارةٌ للذنوب.[1]

وقسم آخر أيضاً من المصائب هو منحةٌ إلهية لتطمين القلب وإفراغ السكينة فيه، وذلك بدفع الغفلة التي تصيب الإنسانَ، وإشعاره بعجزه وفقره الكامنين في جبلته.

أما المصيبة التي تنتاب الإنسان عند المرض -فكما ذكرنا آنفا- فهي ليست بمصيبة حقيقية، بل هي لطفٌ رباني لأنه تطهيرٌ للإنسان من الذنوب وغسلٌ له من أدران الخطايا، كما ورد في الحديث الصحيح: (**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى، إِلَّا حَاتَّ الله عَنْهُ خَطَايَاهُ، كَمَا تَحَاتُّ وَرَقُ الشَّجَرِ**).[2]

وهكذا فإن سيدنا أيوب عليه السلام لم يدعُ في مناجاته لأجل نفسه وتطميناً لراحته، وإنما طلب كشفَ الضر من ربه عندما أصبح المرضُ مانعاً لذكر الله لساناً، وحائلاً للتفكر في ملكوت الله قلباً. فطلب الشفاء لأجل القيام بوظائف العبودية خالصةً كاملة. فيجب علينا نحن أيضاً أن نقصد -بتلك المناجاة- أول ما نقصد: شفاءَ جروحنا المعنوية وشروخنا الروحية

---

(١) انظر: البخاري، المرضى ١؛ مسلم، البر ٥٠-٥٢؛ الترمذي، تفسير سورة النساء ٢٤؛ أحمد بن حنبل، المسند ٢/ ٣٠٣، ٣٣٥، ٤٠٢.

(٢) البخاري، المرضى ٢، ١٤، تفسير سورة ابراهيم ١؛ مسلم، صفة المنافقين ٦٤؛ الدارمي، الوضوء ٤٥.

القادمة من ارتكاب الآثام واقتراف الذنوب، وعلينا الالتجاء إلى الله القدير عندما تحُول الأمراضُ المادية دون قيامنا بالعبادة كاملة، فنتضرع إليه عندئذ بكل ذل وخضوع ونستغيثه دون أن يبدر منا أيُّ اعتراض أو شكوى، إذ مادمنا راضين كل الرضا بربوبيته الشاملة فعلينا الرضا والتسليم المطلق بما يمنحه سبحانه لنا بربوبيته.. أما الشكوى التي تومئ إلى الاعتراض على قضائه وقدَره، وإظهارِ التأفف والتحسر، فهي أشبه ما يكون بنقدٍ للقدر الإلهي العادل واتهامٍ لرحمته الواسعة.. فمن ينقد القدرَ يصرعه ومَن يتهم الرحمةَ يُحرم منها. إذ كما أن استعمال اليد المكسورة للثأر يزيدها كسراً، فإن مقابلة المبتلى مصيبته بالشكوى والتضجر والاعتراض والقلق تضاعف البلاء.

المسألة الثانية:

كلما استعظمتَ المصائب المادية عظُمَت، وكلما استصغرتَها صغُرت. فمثلاً: كلما اهتم الإنسان بما يتراءى له من وهْم ليلاً يضخم ذلك في نظره، بينما إذا أهمله يتلاشى. وكلما تعرض الإنسان لوكر الزنابير ازداد هجومُها وإذا أهملها تفرقت.

فالمصائب المادية كذلك، كلما تعاظمها الإنسان واهتم بها وقلق عليها تسربت من نافذة الجسد إلى القلب واستقرت فيه، وعندها تتنامى مصيبةٌ معنوية في القلب وتكون ركيزةً للمادية منها فتستمر الأخيرة وتطول. ولكن متى ما أزال الإنسانُ القلقَ والوهم من جذوره بالرضا بقضاء الله، وبالتوكل على رحمته، تضمحل المصيبةُ المادية تدريجياً وتذهب، كالشجرة التي تموت وتجف أوراقُها بانقطاع جذورها.

ولقد عبّرتُ عن هذه الحقيقة يوماً بما يأتي: [١]

ومن الشكوى بلاءٌ.
دعها يا مسكين وتوكلْ.
نجواكَ للوهابِ فسَلِّم.
فإذا الكلُّ عطاء.

(١) جاءت ترجمة هذه الفقرة بشيء من التصرف. وأصلها في «المكتوب السادس».

وإذا الكلُّ صفاء.

فبغير الله، دنياك متاهاتٌ وخوف!

أفيشكو مَن على كاهله يحمل كلَّ الراسيات

حبةَ رملٍ ضئيلة؟

إنما الشكوى بلاءٌ في بلاء.

وأثامٌ في أثام وعناء!

أنت إنْ تَبْسُم في وجه البلاء.

عادت الأرزاءُ تذوي وتذوب.

تحت شمس الحق حبّاتِ بَرَدا!

فإذا دنياك بَسمة،

بسمةٌ من ثغرها ينسابُ ينبوعُ اليقين.

بسمةٌ نشوى بإشراق اليقين.

بسمةٌ حيرى بأسرار اليقين.

نعم..! إن الإنسان مثلما يخفف حدَّة خصمه باستقباله بالبِشر والابتسامة، فتتضاءل سَورة العداوة وتنطفئ نارُ الخصومة، بل قد تنقلب صداقةً ومصالحةً، كذلك الأمر في استقبال البلاء بالتوكل على القدير يُذهِبُ أثره.

المسألة الثالثة:

أن لكل زمان حُكمَه، وقد غيّر البلاءُ شكلَه في زمن الغفلة هذا، فلا يكون البلاءُ بلاءً عند البعض دوماً، بل إحساناً إلهياً ولطفاً منه سبحانه. وأرى المبتلين بالضر في هذا الوقت محظوظين سعداء بشرط ألّا يمس دينَهم، فلا يولد المرض والبلاء عندي ما يجعلها مضرَّين في نظري حتى أُعاديها، ولا يورثانني الإشفاق والتألم على صاحبها، ذلك ما أتاني شاب مريض إلّا وأراه أكثر ارتباطاً من أمثاله بالدين، وأكثر تعلقاً منهم بالآخرة.. فأفهم من هذا أن المرض بحق هؤلاء ليس بلاء، بل هو نعمةٌ من نعمه سبحانه التي لا تعد ولا تحصى، حيث إن ذلك

المرض يمد صاحبَه بمنافع غزيرة من حيث حياته الأُخروية ويكون له ضرباً من العبادة، مع أنه يمس حياته الدنيا الفانية الزائلة بشيء من المشقة.

نعم، قد لا يستطيع هذا الشاب أن يحافظ على ما كان عليه في مرضه من الالتزام بالأوامر الإلهية فيما إذا وجد العافية، بل قد ينجرف إلى السفاهة بطيش الشباب ونزواته وبالسفاهة المستشرية في هذا الزمان.

خاتمة

إن الله سبحانه قد أدرج في الإنسان عجزاً لا حد له، وفقراً لا نهاية له، إظهاراً لقدرته المطلقة وإبرازاً لرحمته الواسعة. وقد خلقه على صورة معينة بحيث يتألم بها لا يحصى من الجهات، كما أنه يتلذذ بها لا يعد من الجهات، إظهاراً للنقوش الكثيرة لأسمائه الحسنى. فأبدعه سبحانه على صورة ماكنة عجيبة تحوي مئات الآلات والدواليب، لكل منها آلامها ولذائذها ومهمتها وثوابها وجزاؤها، فكأن الأسماء الإلهية المتجلية في العالم الذي هو إنسان كبير تتجلى أكثرُها أيضاً في هذا الإنسان الذي هو عالم أصغر، وكما أن ما فيه من أمور نافعة -كالصحة والعافية واللذائذ وغيرها- تدفعه إلى الشكر وتسوق تلك الماكنة إلى القيام بوظائفها من عدة جهات، حتى يغدو الإنسانُ كأنه ماكنة شكر. كذلك الأمر في المصائب والأمراض والآلام وسائر المؤثرات المهيجة والمحركة، تسوق الدواليبَ الأخرى لتلك الماكنة إلى العمل والحركة وتثيرها من مكمنها فتفجّر كنوزَ العجز والضعف والفقر المندرجة في الماهية الإنسانية. فلا تمنح المصائبُ الإنسانَ الالتجاء إلى البارئ بلسان واحد، بل تجعله يلتجئ إليه ويستغيثه بلسان كل عضو من أعضائه. وكأن الإنسان بتلك المؤثرات والعلل والعقبات والعوارض يغدو قلماً يتضمن آلاف الأقلام، فيكتب مقدّرات حياته في صحيفة حياته أو في اللوح المثالي، وينسج لوحةً رائعة للأسماء الإلهية الحسنى، ويصبح بمثابة قصيدة عصماء ولوحة إعلان.. فيؤدي وظيفة فطرته.

اللمعة الثالثة

لقد مازجَ هذه اللمعة شيءٌ من الأذواق والمشاعر، فأرجو عدم تقييمها بموازين علم المنطق؛ لأن ما تجيش به المشاعر لا يراعي كثيراً قواعد العقل ولا يعير سمعاً إلى موازين الفكر.



﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (القصص: ٨٨)

هذه الآية العظيمة تفسرها جملتان تعبّران عن حقيقتين مهمتين بحيث اتخذهما قسمٌ من شيوخ الطريقة النقشبندية بمثابة زبدة الأوراد لديهم، يؤدون بهما ختمَتَهم الخاصة. والجملتان هما: «**يا باقي أنت الباقي. يا باقي أنت الباقي**».

ولما كانت هاتان الجملتان تنطويان على معان جليلة لتلك الآية الكريمة، فسنذكر بضعَ نكات لبيان الحقيقتين اللتين تعبّران عنهما:

النكتة الأولى

إن ترديد «**يا باقي أنت الباقي**» للمرة الأولى، يجرّد القلبَ مما سوى الله تعالى، فيُجري ما يشبه عمليةً جراحية فيه، ويقطعُه عما سواه سبحانه. وتوضيح هذا:

إنَّ الإنسان بما أودع الله فيه من ماهيةٍ جامعة يرتبط مع أغلب الموجودات بأواصرَ ووشائج شتى. ففي تلك الماهية الجامعة من الاستعداد غير المحدود للمحبة ما يجعله يكنّ

حُباً عميقاً تجاه الموجودات عامة، فيحب الدنيا العظيمة كما يحب بيتَه، ويحب الجنةَ الخالدة كما يحب حديقته. بينما الموجودات -التي وجّه الإنسانُ حبَّه نحوها- لا تدوم، بل لا تلبث أن تزول، لذا يذوق الإنسانُ دائماً عذابَ ألم الفراق. فتصبح تلك المحبة التي لا منتهى لها مبعثَ عذابٍ معنوي لا منتهى له، لتقصيره بحقها. فالآلام التي يتجرعها ناشئةٌ من تقصيره هو، حيث لم يودَع فيه استعدادُ المحبة إلّا ليوجهه إلى مَن له جمال خالد مطلق. بينما الإنسانُ لم يُحسن استعمال محبته فوجّهها إلى موجودات فانية زائلة، فيذوق وبال أمره بآلام الفراق.

فعندما يردد الإنسان: «**يا باقي أنت الباقي**». يعني بها: البراءة الكاملة من هذا التقصير، وقطع العلاقات مع تلك المحبوبات الفانية، والتخلي عنها كلياً، قبل أن تتخلى هي عنه. ثم تسديد النظر في المحبوب الباقي وهو الله سبحانه دون سواه.

أي يقول بها: «لا باقي بقاءً حقيقياً إلّا أنت يا إلهي. فما سواكَ فانٍ زائل، والزائلُ غيرُ جدير بالمحبة الباقية ولا العشق الدائم، ولا بأن يُشدّ معه أواصر قلبٍ خُلِق أصلاً للأبد والخلود». وحيث إن الموجودات فانيةٌ وستتركني ذاهبةً إلى شأنها، فسأتركها أنا قبل أن تتركني، بترديدي: «**يا باقي أنت الباقي**». أي: أؤمن وأعتقد يقيناً أنه لا باقي إلّا أنت يا إلهي، وبقاءُ الموجودات موكول بإبقائك إياها، فلا يوجَّه إليها المحبةُ إذن إلّا من خلال نور محبتك، وضمن مرضاتك، وإلّا فإنها غيرُ جديرة بربط القلب معها.

فهذه الحالة تجعل القلب يتخلى عن محبوبات كان يوليها محبةً لا حدود لها، حيث يبصر ختمَ الفناء ويشاهد طابعَ الزوال على ما أضفي عليها من جمال وبهاء. فتتقطع عندئذ تلك الوشائجُ التي كانت تربط القلب بالموجودات. وبخلاف هذا الأمر أي إن لم يتخلَّ القلبُ عن محبوباته فإن جراحاتٍ وآلاماً وحسراتٍ تتفجر من أعماقه بقدر تلك المحبوبات الفانية.

أما الجملة الثانية: «**يا باقي أنت الباقي**» فهي كالمرهم الشافي والبلسم الناجع يُمرَّر على العملية الجراحية التي أجرتها الجملةُ الأولى على القلب وروابطه، حيث إنها تعني: «كفى بك يا إلهي باقياً. فبقاؤك بديلٌ عن كلِّ شيء.. وحيث إنك موجودٌ فكل شيء موجود إذن».

نعم، إنَّ ما يبدو على الموجودات من الحُسن والإحسان والكمال -والذي يبعث على محبتها- ما هو إلّا إشاراتٌ لحسنِ الباقي الحقيقي وإحسانه وكماله، وما هو إلّا ظلالٌ خافتة

لذلك الحسن والإحسان والكمال نفذت من وراء حُجُب كثيرة وأستار عدة، بل هو ظِلالٌ لظلال تجليات أسمائه الحسنى جلّ جلالُه.

النكتة الثانية

في فطرة الإنسان عشقٌ شديد نحو البقاء، حتى إنه يتوهم نوعاً من البقاء في كل ما يحبه، بل لا يحب شيئاً إلّا بعد توهّمه البقاء فيه، ولكن حالما يتفكر في زواله أو يشاهد فناءه يطلق عليه الزفرات والحسرات من الأعماق.

نعم، إن جميع الآهات والحسرات الناشئة من أنواع الفراق، إنما هي تعابيرٌ حزينة تنطلق من عشق البقاء. ولولا توهمُ البقاء لَمَا أحبّ الإنسانُ شيئاً.

بل يصح القول: إنَّ سبباً من أسباب وجود عالَم البقاء والجنة الخالدة هو الرغبةُ الملحّة للبقاء المغروزة في فطرة الإنسان، والدعاء العام الشامل الذي يسأله بشدة للخلود.. فاستجاب الباقي ذو الجلال لتلك الرغبة الملحة ولذلك الدعاء العام المؤثر، فخَلَق سبحانه عالماً باقياً خالداً لهذا الإنسان الفاني الزائل. إذ هل يمكن ألّا يستجيب الفاطرُ الكريم والخالق الرحيم لدعاء تسأله البشريةُ قاطبة بلسان حالها ومقالها، ذلك الدعاء الكلي الدائمي الحق والخالص النابع من صميم حاجتها الفطرية ومن أعماق رغبتها الملحّة، مع أنه يستجيب لدعاء معدة صغيرة، تسأله بلسان حالها، فيخلق لها أنواعاً من الأطعمة اللذيذة ويُشبع بها رغبتها الجزئية للبقاء المؤقت؟ حاشَ لله وكلا.. ألف ألف مرة كلا. إنّ ردّ هذا الدعاء للخلود محالٌ قطعاً، لأن عدم استجابته جلّ وعلا ينافي حكمتَه الخالدة وعدالتَه الكاملة ورحمتَه الواسعة وقدرتَه المطلقة.

وما دام الإنسان عاشقاً للبقاء، فلابد أنّ جميع كمالاته وأذواقه تابعةٌ للبقاء أيضاً. ولمّا كان البقاء صفةٌ خاصة للباقي ذي الجلال، وأن أسماءه الحسنى باقيةٌ، وأن المرايا العاكسة لتجليات تلك الأسماء تنصبغ بصبغتها وتأخذ حُكمَها، أي تنال نوعاً من البقاء، فلابد أنّ ألزمَ شيء لهذا الإنسان وأجلّ وظيفة له هو شدُّ الأواصر وربطُ العلاقات مع ذلك الباقي ذي الجلال والاعتصام التام بأسمائه الحسنى، لأن ما يُصرف في سبيل الباقي ينال نوعاً من البقاء.

هذه الحقيقة تعبّر عنها الجملة الثانية: «**يا باقي أنت الباقي**» فتضمد جراحات الإنسان المعنويةَ الغائرة، كما تُطَمئن رغبتَه الملحة للبقاء المودَعة في فطرته.

النكتة الثالثة

يتفاوت في هذه الدنيا تأثيرُ الزمان في فناء الأشياء وزوالها تفاوتاً كبيراً. فمع أن الموجودات مكتنفةٌ بعضها ببعض كالدوائر المتداخلة، إلّا أن حكمَها من حيث الزوال والفناء مختلفٌ جداً.

فكما أن دوائر حركة عقارب الساعة العادّة للثواني والدقائق والساعات تختلف في السرعة، رغم تشابهها الظاهري، كذلك الأمر في الإنسان، حيث إن حُكم الزمن متفاوتٌ في دائرة جسمه، ودائرة نفسه، ودائرة قلبه، ودائرة روحه. فبينما ترى حياةَ الجسم وبقاءه ووجودَه محصورةً في اليوم الذي يعيش فيه أو في ساعته، وينعدم أمامَه الماضي والمستقبلُ، إذا بكَ ترى دائرةَ حياة قلبِه وميدانَ وجوده يتّسع ويتسع حتى يضمّ أياماً عدة قبل حاضره وأياماً بعده، بل إنَّ دائرةَ حياة الروح وميدانَها أعظمُ وأوسع بكثير حيث تسع سنين قبل يومها الحاضر وسنين بعدَه.

وهكذا، بناءً على هذا الإستعداد، فإن عمرَ الإنسان الفاني يتضمن عمراً باقياً من حيث حياته القلبية والروحية

تحيَان بالمعرفة الإلهية والمحبة الربانية والعبودية السُبحانية والمرضيات الرحمانية، بل ينتج هذا العمر الباقي الخالد في دار الخلود والبقاء، فيكون هذا العمر الفاني بمثابة عمر أبدي.

أجل، إنَّ ثانيةً واحدة يقضيها الإنسانُ في سبيل الله الباقي الحق، وفي سبيل محبته، وفي سبيل معرفته وابتغاء مرضاته، تُعدّ سنةً كاملة. بل هي باقيةٌ دائمة لا يعتريها الفناءُ. بينما سنةٌ من العمر إنْ لم تكن مصروفةً في سبيله سبحانه فهي زائلةٌ حتماً، وهي في حُكم لحظة خاطفة، فمهما تَطُل حياةُ الغافلين فهي بمثابة لحظات عابرة لا تجاوز ثانية واحدة.

وهناك قول مشهور يدل على هذه الحقيقة:

«سِنَةُ الفِرَاقِ سَنَةٌ وَسَنَةُ الوِصَالِ سِنَةٌ»

أي إن ثانية واحدة من الفراق طويلةٌ جداً كأنها سَنةٌ واحدة، بينما سَنةٌ كاملة من الوصال تبدو قصيرة كالثانية الواحدة.

بيد أني أُخالف هذا القول المشهور فأقول: «إن ثانية واحدة يقضيها الإنسانُ ضمن مرضاة الله سبحانه وفي سبيل الباقي ذي الجلال ولوجهه الكريم، أي ثانيةٌ واحدة من هذا الوصال ليست كسَنة وحدها، بل كنافذة مُطلّة على حياة دائمة باقية. أما الفراقُ النابع من نظر الغفلة والضلالة فلا يجعل السَنةَ الواحدة كالثانية، بل يجعل ألوف السنين كأنها ثانية واحدة».

وهناك مثل آخر أكثر شُهرة من السابق يؤيد ما نقرره وهو:

أَرْضُ الفَلَاةِ مَعَ ٱلأَعْدَاءِ فِنْجَانٌ   سَمُّ الخِيَاطِ مَعَ ٱلأَحْبَابِ مَيْدَانٌ

أما إذا أردنا أن نبين وجهاً صحيحاً للمَثَل السابق فسيكون كالآتي:

إنَّ وصالَ الموجودات الفانية قصيرٌ جداً لأنه فانٍ، فمهما طال فهو يمضي في لمحة، ويغدو خيالاً ذا حسرة، ورؤيا عابرةً تورث الأسى. فالقلب الإنساني التوّاق للبقاء لا يستمتع من سَنةٍ من هذا الوصال إلّا بمقدار ما في الثانية الواحدة من لذة. بينما الفراقُ طويل وميدانُه واسع فسيح، فثانيةٌ واحدة منه تستجمع ألواناً من الفراق ما يستغرق سَنة كاملة، بل سنين. فالقلب المشتاق إلى الخلود يتأذى من فراق يمضي في ثانية واحدة، كأنه ينسحق تحت آلام فراق سنين عدة، حيث يذكّره ذلك الفراق بما لا يُعد من أنواع الفراق. وهكذا فماضي جميع أشكال المحبة المادية والهابطة ومستقبلُها مليء بألوان من الفراق.

وللمناسبة نقول:

أيها الناس! أتريدون تحويلَ عمرِكم القصير الفاني إلى عمرٍ باقٍ طويل مديد، بل مثمر بالمغانم والمنافع؟

فما دام الجواب: أنْ نعم. وهو مقتضى الإنسانية، فاصرفوا إذن عمرَكم في سبيل الباقي، لأن أيّما شيء يتوجه إلى الباقي ينَلْ تجلياً من تجلياته الباقية.

ولما كان كل إنسان يطلب بإلحاح عمراً طويلاً وهو مشتاق إلى البقاء، وثمة وسيلةٌ أمامه

لتحويل هذا العمر الفاني إلى عمر باقٍ، بل يمكن تبديلُه إلى عمرٍ طويل معنىً، فلابد أنه -إنْ لم تسقط إنسانيتُه- سيبحث عن تلك الوسيلة وينقّب عنها، ولابد أنه سيسعى حثيثا لتحويل ذلك الممكن إلى فعل ملموس، ولابد أنه سيصبو إلى ذلك الهدف بأعماله وحركاته كافة.

فدونكم الوسيلة:

اعملوا لله، التقوا لوجه الله، اسعوا لأجل الله. ولتكن حركاتُكم كلُّها ضمن مرضاة الله (لله.. لوجه الله.. لأجل الله) وعندها ترون أن دقائقَ عمركم القصير قد أصبحت بحكم سنين عدة.

تشير إلى هذه الحقيقة «ليلةُ القدر» فمع أنها ليلةٌ واحدة إلّا أنها خيرٌ من ألف شهر -بنص القرآن الكريم- أي في حُكم ثمانين ونيف من السنين.

وهناك إشارة أخرى إلى الحقيقة نفسها، وهي القاعدة المقررة لدى أهل الولاية والحقيقة، تلك هي «بسط الزمان» الذي يثبتُه ويُظهره فعلاً المعراجُ النبوي، فقد انبسطت فيه دقائقٌ معدودة إلى سنين عدة، فكانت لساعات المعراج من السعة والإحاطة والطول ما لألوف السنين، إذ دخل ﷺ بالمعراج إلى عالم البقاء، فدقائقٌ معدودة من عالم البقاء تضم ألوفا من سني هذه الدنيا.

ومما يثبت حقيقة «بسط الزمان» هذا ما وقع من حوادث غزيرة للأولياء الصالحين، فقد كان بعضهم يؤدي في دقيقة واحدة ما يُنجَز من الأعمال في يوم كامل. وبعضهم أنجزوا في ساعة واحدة من المهمات ما يُنجَز في سنة كاملة، وبعضهم ختموا القرآن في دقيقة.

وهكذا فهذه الروايات عنهم وأمثالُها لا ترقى إليها الشبهات لأن الرواة صادقون صالحون يترفّعون عن الكذب، فضلاً عن أن الحوادث متواترةٌ وكثيرة جدا ويروونها روايةَ شهود. فلاشك فيها. فبسطُ الزمان حقيقة ثابتة.[1] وهناك نوعٌ منه يصدّقه كلُّ الناس، وهو ما يراه الإنسان من رؤيا في المنام، إذ قد يرى رؤيا لا تستغرق دقيقة واحدة، بينما يقضي فيها من

(١) قال تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ (الكهف: ١٩) ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ (الكهف: ٢٥). فهاتان الآيتان الكريمتان تدلان على «طي الزمان» كما أن الآية الآتية تدل على «بسط الزمان»: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (الحج: ٤٧). (المؤلف).

الأحوال ويتكلم من الكلام ويستمتع من اللذائذ ويتألم من العذاب ما يحتاج إلى يوم كامل في اليقظة وربما إلى أيام عدة.

حاصل الكلام: مع أن الإنسان فانٍ إلّا أنه مخلوق للبقاء. خَلَقه البارئ الكريم بمثابة مرآةٍ عاكسة لتجلياته الباقية، وكلّفه بالقيام بمهمات تثمر ثماراً باقيةً، وصوّره على أحسن صورة حتى أصبحت صورتُه مدار نقوش تجليات أسمائه الحسنى الباقية، لذا فسعادةُ هذا الإنسان ووظيفتُه الأساس إنما هي التوجّه إلى ذلك الباقي بكامل جهوده وجوارحه وبجميع استعداداته الفطرية، سائراً قُدُماً في سبيل مرضاته، متمسكاً بأسمائه الحسنى، مردداً بجميع لطائفه -من قلب وروح وعقل- ما يردده لسانُه: «يا باقي أنت الباقي»:

هو الباقي، هو الأزلي الأبدي، هو السرمدي، هو الدائم، هو المطلوب، هو المحبوب، هو المقصود، هو المعبود.

﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾

اللمعة الرابعة

(لقد ارتؤي أن يُطلَق على هذه الرسالة اسم «منهاج السنة»)

إنّ «مسألة الإمامة» مع كونها مسألةً فرعية إلّا أنّ كثرة الاهتمام بها جعلتْها تدخل ضمن مباحث الإيمان في كتب علم الكلام وأصول الدين، وغدت من هذه الجهة ذاتَ علاقة بخدمتنا الأساسية، خدمة القرآن والإيمان، وقد بُحثت بحثاً جزئياً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۞ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (التوبة:١٢٨-١٢٩)

﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ (الشورى:٢٣)

سنشير إلى جملة من الحقائق العظيمة التي تزخر بها هذه الآيات الجليلة، وذلك ضمن مقامين اثنين.

المقام الأول

عبارة عن أربع نكات

النكتة الأولى:

وهي تعبّر عن كمال رأفة الرسول الأكرم ﷺ وغايةِ رحمته على أمّته.

نعم، لقد وردت رواياتٌ صحيحة تبين مدى رأفته الكاملة وشفقته التامة على أمته، بأنه ﷺ يدعو يوم الحشر الأعظم بـ(أمّتي أمّتي)[1] في الوقت الذي يدعو كلُّ أحد، بل حتى الأنبياءُ عليهم السلام بـ«نفسي نفسي» من هَول ذلك اليوم ورهبته. فكما تبين هذه الروايات عظيمَ شفقته على أمته فقد سمعتْ والدتُه منه عند ولادته أنه يناجي: «أمتي أمتي» كما هو مصدَّقٌ لدى أهل الكشف من الأولياء الصالحين. وكذا إنَّ سيرته العطرة كلَّها، وما نشره في الآفاق من مكارم الأخلاق المكلّلة بالشفقة والرحمة، تبين كمالَ رأفته وشفقته، كما أنه أظهر عظيمَ شفقته على أمته بإظهار حاجته التي لاتحد إلى صلوات أمته عليه، تلك الصلوات التي تبين مدى علاقته الرؤوفة بجميع سعادات أمته.

ففي ضوء هذه الرأفة الشاملة وهذه الرحمة الواسعة لهذا المرشد الرؤوف الرحيم ﷺ؛ كم يكون الإعراضُ عن سنّته السنية كفراناً عظيماً بل موتاً للوجدان ! قس ذلك بنفسك وقدّر.

النكتة الثانية:

إنَّ الرسول الأكرم ﷺ قد أبدى رأفةً عظيمة تجاه أمورٍ وموادَّ جزئية خاصة، ضمن مهمّته النبوية العامة الشاملة. فيبدو أن صرفَ تلك الشفقة العظيمة والرأفة الواسعة إلى تلك الأمور الجزئية والمواد الخاصة لا يناسب -في ظاهر الأمر- عِظَم وظيفة النبوة ولا يلائمها. ولكن الواقع والحقيقة أن تلك المادة الجزئية والأمر الخاص يمثل طرفَ سلسلة تتولى في المستقبل مهمةً نبوية كليّة؛ لذا أُعطي لمثلها تلك الأهمية البالغة.

مثال ذلك: إن إظهار الرسول ﷺ شفقة فائقة وأهمية بالغة للحسن والحسين رضي الله

---

(١) انظر: البخاري، التوحيد ٣٢؛ مسلم، الإيمان ٣٢٦.

عنهما في صباهما،[١] ليست هي شفقةً فطرية ومحبةً نابعة من الإحساس بصلة القربى وحدها، بل نابعةً أيضاً من أنهما بدايةُ سلسلةٍ نورانيةٍ تتولى مهمةً من مهمات النبوة العظيمة، وأن كلاً منهما منشأُ جماعة عظيمة من وارثي النبوة، وممثلٌ عنها وقدوةٌ لها.

نعم! إن حملَ الرسول ﷺ الحسن رضي الله عنه في حضنه وتقبيلَه رأسَه[٢] بكمال الشفقة والرحمة، هو لأجل الكثيرين من ورثة النبوة الشبيهين بالمهدي الحاملين للشريعة الغراء المتسلسلين من سلالة الحسن المنحدرين من نسله النوراني المبارك أمثال الشيخ الكيلاني.[*] فلقد شاهد الرسول الكريم ﷺ ببصيرة النبوة ما يضطلع به هؤلاء الأكارم في المستقبل من مهام مقدسة جليلة، فاستحسن خدماتِهم وقدّر أعمالَهم، فقبّل رأسَ الحسن رضي الله عنه علامةً على التقدير والحث. ثم إن الاهتمام العظيم الذي أولاه الرسول الكريم ﷺ بالحسين رضي الله عنه وعطفَه الشديد نحوه إنما هو للذين يتسلسلون من نسله النوراني من أئمة عظام وارثي النبوة الحقيقيين الشبيهين بالمهدي من أمثال زين العابدين[*] و جعفر الصادق.[*]

نعم، فقد قبّل ﷺ عنقَ الحسين رضي الله عنه،[٣] وأظهر له بالغ شفقته وكمال اهتمامه لأجل أولئك الذين سيرفعون شأن الإسلام ويؤدون وظيفة الرسالة من بعده.

نعم، إن نظر الرسول ﷺ الذي يشاهد بقلبه الأنيس بالغيب ميدانَ الحشر الممتد في الأبدية وهو مازال في الدنيا، في خير القرون، والذي يرى الجنة في السماوات العلى وينظر إلى الملائكة هناك وهو في الأرض.. والذي يرى الأحداث المستترة بحُجب الماضي المظلمة منذ زمن سيدنا آدم عليه السلام، بل حظيَ برؤيته تعالى.. إنَّ هذا النظر النوراني والبصيرة النافذة للمستقبل، لا ريب أنه قد رأى الأقطابَ العظام وأئمة ورثة النبوة والمهديين المتسلسلين وراء الحسن والحسين رضي الله عنهما، فقبّل رأسَيهما باسم أولئك جميعاً.

نعم، إنَّ في تقبيله ﷺ رأسَ الحسن رضي الله عنه حصةً عظيمة للشيخ الكيلاني.

---

(١) انظر: البخاري، فضائل الصحابة ٢٢؛ مسلم، فضائل الصحابة ٥٦–٦٠.
(٢) انظر: أحمد بن حنبل، المسند ٥/ ٤٧؛ الطبراني، المعجم الكبير ٣/ ٣٢، ٢٢/ ٢٧٤.
(٣) انظر: ابن ماجه، المقدمة ١١؛ أحمد بن حنبل، المسند ٤/ ١٧٢.

النكتة الثالثة:

إن معنى قوله تعالى ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ -على قول- هو: أن الرسول الأكرم ﷺ لدى قيامه بمهمة الرسالة لا يسأل أجراً من أحد، إلّا محبةَ آل بيته فحسب.

وإذا قيل: إنَّ أجراً من حيث قرابة النسل قد أُخذ بنظر الإعتبار حسب هذا المعنى. بينما الآيةُ الكريمة: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣) تدل على أن وظيفة الرسالة تستمر من حيث التقرّب إلى الله بالتقوى لا من حيث قرابة النسل.

الجواب: إنَّ الرسول ﷺ قد شاهد بنظر النبوة الأنيس بالغيب: أن آل بيته سيكونون بمثابة شجرة نورانية عظيمة تمتد أغصانُها وفروعُها في العالم الإسلامي، فيرشدون مختلف طبقات العالم الإسلامي إلى الهدى والخير، ويكونون نماذج شاخصة للكمالات الإنسانية جمعاء، وسيَظهرون بأكثريتهم المطلقة من آل البيت.

وقد كشف عن قبول دعاء أمته بحق آل البيت الوارد في التشهد وهو: (**اللّهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين، إنك حميد مجيد**). أي كما أن معظم المرشدين الهادين النورانيين من ملة إبراهيم عليه السلام هم أنبياءٌ من نسله وآله، كذلك رأى ﷺ أن أقطاب آل بيته يكونون كأنبياء بني إسرائيل في الأمة المحمدية يؤدون وظيفة خدمة الإسلام العظيمة في شتى طرقها ومسالكها. ولأجل هذا أُمر ﷺ أن يقول: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وطلب مودّة أمته لآل بيته. والذي يؤيد هذه الحقيقة هو ما جاء في روايات أخرى أنه ﷺ قال: (**يا أيها الناس إني قد تركت فيكم ما إنْ أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله وعِتْرتي أهل بيتي**)[1] ذلك لأن آل البيت هم منبع السنة الشريفة والمحافظون عليها والمكلّفون أولاً بالالتزام بها.

وهكذا وضَحَتْ حقيقةُ هذا الحديث بناءً على ما ذكر آنفاً، أي بالاتباع التام للكتاب والسنة الشريفة. أي أن المراد من آل البيت من حيث وظيفة الرسالة هو اتباع السنة النبوية. فالذي يدَع السنةَ الشريفة لا يكون من آل البيت حقيقةً كما لا يمكن أن يكون موالياً حقيقياً لآل البيت.

---

(١) الترمذي، المناقب ٣١؛ أحمد بن حنبل، المسند ٣/ ١٤، ١٧، ٢٦، ٥٩، ٥/ ١٨١.

ثم إن الحكمة في إرادته ﷺ في جمع الأمة حول آل البيت هي: أن الرسول الكريم ﷺ قد علِم بإذن إلهي أن آل البيت سيكثر نسلُهم بمرور الزمن بينما الإسلامُ سيؤول إلى الضعف. فيلزم والحالة هذه وجود جماعةٍ مترابطة متساندة في منتهى القوة والكثرة لتكون مركزاً ومحوراً لرقي العالم الإسلامي المعنوي. وقد علم ﷺ بهذا بإذن إلهي فرغّب في جمع أمته حول آل بيته.

نعم، إنَّ أفرادَ آل البيت وإن لم يكونوا سابقين ومتقدمين على غيرهم في الإيمان والاعتقاد، إلّا أنهم يسبقونهم كثيراً في التسليم والالتزام والولاء للإسلام، لأنهم يوالون الإسلام فطرة وطبعاً ونسلاً. فالموالاة الطبعية لا تُترك ولو كانت في ضعف وعدم شهرة أو حتى على باطل، فكيف بالموالاة لحقيقة ارتبطت بها سلسلةُ أجداده الذين ضحّوا بأرواحهم رخيصةً في سبيلها فنالوا الشرف بها، فتلك الحقيقة هي في منتهى القوة وذروةُ الشرف وعلى الحق المبين، أفيستطيع من يشعر بداهةً بمدى أصالة هذه الموالاة الفطرية أن يتركها؟

فأهلُ البيت بهذا الالتزام الشديد للإسلام وهو التزامٌ فطري يرون الأمارة البسيطة بجانب الإسلام برهاناً قوياً لأنهم يوالون الإسلام فطرةً بينما غيرُهم لا يلتزم إلّا بعد اقتناعه بالبرهان القوي.

النكتة الرابعة:

لمناسبة النكتة الثالثة نشير إشارة قصيرة إلى مسألة ضُخّمت إلى درجة كبيرة بحيث دخلت كتبَ العقائد وتسلسلت مع أسس الإيمان، تلك هي مسألة النزاع بين أهل السنة والشيعة. والمسألة هي أن أهل السنة والجماعة يقولون: «إن سيدنا علياً رضي الله عنه هو رابعُ الخلفاء الراشدين، وأن أبا بكر الصديق رضي الله عنه هو أفضل منه وأحق بالخلافة، فتسلَّم الخلافةَ أولاً».

والشيعة يقولون: «إنّ حقَّ الخلافة كان لعلي رضي الله عنه إلّا أنه ظُلمَ، وعلي رضي الله عنه أفضل من الكل». وخلاصة ما يوردونه من أدلة لدعواهم هي أنهم يقولون: إن ورودَ أحاديث شريفة كثيرة في فضائل سيدنا علي رضي الله عنه، وكونَه مرجعاً للأكثرية المطلقة من الأولياء والطرق الصوفية، حتى لُقّب بسلطان الأولياء، مع ما يتصف به من صفاتٍ فائقة

في العلم والشجاعة والعبادة، فضلاً عن العلاقة القوية التي يُظهرها الرسول ﷺ به وبآل البيت الذين يأتون من نسله.. كلُّ ذلك يدلّ على أنه الأفضل. فالخلافةُ كانت من حقه ولكن أُغتُصِبَت منه.

الجواب: إن إقرار سيدِنا علي رضي الله عنه نفسه مراراً وتكراراً،[1] واتّباعه الخلفاء الثلاثة وتولّيه وظيفة «شيخ القضاة»، وكونه من أهل الحلّ والعقد طوال عشرين سنة وأكثر.. كل ذلك يجرح دعوى الشيعة.

ثم إن الفتوحات الإسلامية وجهاد الأعداء زمنَ الخلفاء الثلاثة، بخلاف ما حدث زمن خلافة علي رضي الله عنه من حوادث وفتن، تجرح أيضاً دعوى الشيعة من جهة الخلافة، أي إن دعوى أهل السنة والجماعة حق.

فإن قيل: إنَّ الشيعة قسمان: أحدهما شيعة الولاية، والآخر شيعة الخلافة. فليكن هذا القسم الثاني غير مُحقّ باختلاط السياسة والأغراض في دعاواهم، ولكن لا أغراض ولا أطماع سياسية في القسم الأول. فضلاً عن ذلك فقد التحقت شيعةُ الولاية بشيعة الخلافة. أي إن قسماً من الأولياء في الطرق الصوفية يرون أن سيدنا علياً رضي الله عنه هو الأفضل، فيصدّقون دعوى شيعة الخلافة الذين هم بجانب السياسة.

الجواب: إنه ينبغي النظر إلى سيدنا علي رضي الله عنه من زاويتين أو من جهتين:

الجهة الأولى: النظر إليه من زاوية فضائله الشخصية ومقامه الشخصي الرفيع.

الجهة الثانية: هي من زاوية تمثيله الشخص المعنوي لآل البيت. والشخص المعنوي لآل البيت يعكس نوعاً من ماهية الرسول الكريم ﷺ.

فباعتبار الجهة الأولى: إن جميع أهل الحقيقة وفي مقدمتهم سيدنا علي رضي الله عنه يقدّمون سيدَنا أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، فقد رأوا مقامَهما أكثر رفعةً في خدمة الإسلام والقرب الإلهي.

ومن حيث الجهة الثانية أي كون سيدنا علي رضي الله عنه ممثلاً عن الشخص المعنوي

(١) انظر: البخاري، فضائل الصحابة ٥؛ أبو داود، السنة ٧؛ أحمد بن حنبل، المسند ١/ ١٠٦.

لآل البيت.[١] فالشخص المعنوي لآل البيت من حيث كونه ممثلاً للحقيقة المحمدية، لا يرقى إليه شيءٌ بالموازنة. وكثرةُ الأحاديث النبوية الواردة في الثناء على سيدنا علي رضي الله عنه وبيان فضائله هي لأجل هذه الجهة الثانية. ومما يؤيد هذه الحقيقة روايةٌ صحيحة بهذا المعنى: (إن نسل كل نبي منه، وأنا نسلي من علي).[٢]

أما سبب كثرةِ انتشار الأحاديث بحق شخصية سيدنا علي رضي الله عنه والثناء عليه أكثر من سائر الخلفاء الراشدين، فهو: أن أهل السنة والجماعة وهم أهلُ الحق، قد نشروا الروايات الواردة بحق سيدنا علي رضي الله عنه تجاه هجوم الأمويين والخوارج عليه وتنقيصهم من شأنه ظلماً. بينما الخلفاء الراشدون الآخرون لم يكونوا عرضةً لهذه الدرجة من النقد والجرح، لذا لم يروا داعياً لنشر الأحاديث الذاكرة لفضائلهم.

ثم إنه ﷺ قد رأى بنظر النبوة أن سيدنا علياً رضي الله عنه سيتعرض لحوادث أليمة وفتن داخلية، فسلّاه، وأرشد الأمة بأحاديث شريفة من أمثال: (مَن كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه)[٣] وذلك لينقذ سيدَنا علياً من اليأس وينجي الأمةَ من سوء الظن به.

إنَّ المحبة المفرطة التي يوليها شيعةُ الولاية لسيدنا علي رضي الله عنه وتفضيلهم له من جهة الطريقة لا يجعلهم مسؤولين بمثل مسؤولية شيعة الخلافة، لأن أهلَ الولاية ينظرون نظر المحبة إلى مرشديهم حسب مسلكهم. ومن شأن المحب؛ الغلو والإفراط والرغبة في أن يرى محبوبَه أعلى من مقامه. فهم يرون الأمر هكذا فعلاً.

فأهل الأحوال القلبية يمكن أن يُعذَروا في أثناء غليان المحبة لديهم وغلبتها عليهم، ولكن بشرط ألّا يتعدى تفضيلُهم الناشئ من المحبة إلى ذم الخلفاء الراشدين وعداوتهم، وألّا يخرج عن نطاق الأصول الإسلامية.

أما شيعةُ الخلافة فنظراً لدخول الأغراض السياسية فيها، فلا يمكنهم أن ينجوا من

---

(١) ذكر ابن الجوزي في كتاب مناقب الإمام أحمد بن حنبل ص ١٦٣ حول التفضيل ما يأتي: قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: حدث أبي بحديث سفينة، فقلت يا أبتي ما تقول في التفضيل؟ قال: في الخلافة أبو بكر وعمر وعثمان. فقلت: فعلي بن أبي طالب ؟ قال: يا بني علي بن أبي طالب من أهل البيت لا يقاس بهم أحد.

(٢) الطبراني، المعجم الكبير ٣/ ٤٣؛ الديلمي، المسند ١/ ١٧٢.

(٣) الترمذي، المناقب ١٩؛ ابن ماجه، المقدمة ١١؛ أحمد بن حنبل، المسند ١/ ٨٤، ١١٨، ٤/ ٢٨١، ٥/ ٣٤٧.

العداء والأغراض الشخصية، فيفقدون حق الاعتذار لهم، ويُحرَمون منه. حتى إنهم يظهرون انتقامهم من «عمر» في صورة حبّ «علي» وذلك لأن القومية الإيرانية قد جُرحت بيد سيدنا عمر رضي الله عنه. حتى أصبحوا مصداق القول: «لا لحب علي بل لبغض عمر». وإن خروج عمرو بن العاص على سيدنا علي رضي الله عنه وقتال عمر بن سعد سيدَنا الحسين رضي الله عنه في المعركة الفجيعة المؤلمة، كل ذلك أورث الشيعة غيظاً شديداً وعداءً مفرطاً لاسم «عمر».

أما شيعة الولاية فليس لهم حق انتقاد أهل السنة والجماعة. لأن أهل السنة كما لا يُنقِصون من شأن سيدنا علي رضي الله عنه فهم يحبونه حباً خالصاً جاداً، ولكنهم يحترزون من الإفراط في الحب الوارد ضررُه وخطرُه في الحديث الشريف.

أما الثناء النبوي لشيعة علي رضي الله عنه كما ورد في أحاديث نبوية فإنما يعود إلى أهل السنة والجماعة لأنهم هم المتبعون لسيدنا علي رضي الله عنه على وفق الاستقامة، لذا فهم شيعةُ سيدنا علي رضي الله عنه.

وقد جاء في حديث صحيح صراحة؛ أن خطورةَ الغلو في محبة سيدنا علي رضي الله عنه كخطورة الغلو في محبة سيدنا عيسى عليه السلام على النصارى.[1]

فإن قالت شيعة الولاية: إنه بعد قبول فضائل خارقة لسيدنا علي رضي الله عنه لا يمكن قبول تفضيل سيدنا الصديق رضي الله عنه عليه.

الجواب: إذا ما وُضع في كفة ميزان الفضائل الشخصية لسيدنا أبى بكر رضي الله عنه أو فضائل سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه، وما قام كل منهما من خدمات جليلة من حيث وراثة النبوة زمن خلافتهما، ووضع في الكفة الأخرى المزايا الخارقة لسيدنا علي رضي الله عنه ومجاهدات الخلافة في زمانه وما اضطر إليه من معارك داخلية دامية أليمة وما تعرّض له بهذا من سوء الظن، فلا ريب أنّ كفةَ سيدنا الصديق رضي الله عنه أو كفة سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه أو كفة سيدنا ذي النورين رضي الله عنه هي التي تكون راجحة. وهذا الرجحان هو الذي شاهده أهلُ السنة والجماعة، وبَنوا تفضيلهم عليه.

---

(١) انظر: أحمد بن حنبل، المسند ١/ ١٦٠ ، فضائل الصحابة برقم ١٠٨٧ و١٢٢١ و١٢٢٢؛ النسائي، الخصائص ٢٧؛ والبخاري، التاريخ٢/ ١/ ٢٥٧.

ثم إن رتبة النبوة أسمى وأرفع بكثير من درجة الولاية، بحيث إنَّ جلوةً بوزن درهم من النبوة تفضُل رطلاً من جلوة الولاية، كما أثبتناه في «الكلمة الثانية عشرة والكلمة الرابعة والعشرين» من «الكلمات»، فمن زاوية النظر هذه؛ فإنّ حصةَ كلٍّ من الصديق والفاروق رضي الله عنهما من حيث وراثة النبوة وتأسيس أحكام الرسالة قد زيدت من الجانب الإلهي، فالتوفيق الذي حالفَهما في زمن خلافتهما قد صار دليلاً لدى أهل السنة والجماعة. وحيث إن فضائلَ سيدنا علي رضي الله عنه الشخصية لا تُسقِط من حُكم تلك الحصة الزائدة الكثيرة الآتية من وراثة النبوة، فقد أصبح سيدُنا علي رضي الله عنه شيخ القضاة للشيخين المكرّمين زمن خلافتهما، وكان في طاعتهما.

إنَّ أهل الحق، أهلَ السنة والجماعة الذين يحبّون سيدنا علياً رضي الله عنه ويوقّرونه، كيف لا يحبون مَن كان سيدُنا علي رضي الله عنه نفسه يحبُّهما ويجلّهما؟

لنوضح هذه الحقيقة بمثال: رجل ثري جداً وزّع ميراثه وأمواله الطائلة على أولاده. فأعطى لأحدهم عشرين رطلاً من الفضة وأربعة أرطال من الذهب، وأعطى لآخر خمسة أرطال من الفضة وخمسة أرطال من الذهب، وأعطى لآخر ثلاثة أرطال من الفضة وخمسة أرطال من الذهب، فلا شك أن الأخيرين رغم أنهما قد قبضا أقل من الأول كميةً إلّا أنهما قبضا أعلى منه نوعيةً.

وهكذا في ضوء هذا المثال، إن الزيادة القليلة في حصة الشيخين من ذهبِ حقيقةِ الأقربية الإلهية المتجلية من وراثة النبوة وتأسيس أحكام الرسالة ترجح على الكثير من الفضائل الشخصية وجواهر الولاية والقرب الإلهي لسيدنا علي رضي الله عنه. فينبغي في الموازنة النظر من هذه الزاوية وأخذها بنظر الاعتبار، وإلّا تتغير صورةُ الحقيقة إن كانت الموازنةُ تُعقد مع الشجاعة والعلم الشخصي وجانب الولاية.

ثم إن سيدنا علياً رضي الله عنه لا يباريه أحدٌ من جانب كونه الممثل في ذاته الشخص المعنوي لآل البيت، والذي تجلى في هذه الشخصية المعنوية من حيث الوراثة النبوية المطلقة. وذلك لأن السر العظيم للرسول الأعظم ﷺ في هذا الجانب.

أما شيعة الخلافة فلا حق لهم غير الخجل أمام أهل السنة والجماعة. لأن هؤلاء يُنقصون

من شأن سيدنا علي رضي الله عنه في دعواهم الحبَّ المفرط له بل يُفضي مذهبُهم إلى وصمه بسوء الخلق -حاشاه- حيث يقولون: إن سيدنا علياً رضي الله عنه قد مَاشَى سيدَنا الصديق والفاروق رضي الله عنهما مع أنهما غير محقَّين واتقّى منهما تقاةً. وباصطلاح الشيعة إنه عمل بـ«التقية». بمعنى أنه كان يخافهما وكان يرائيهما في أعماله! إن وصف مثل هذا البطل الإسلامي العظيم الذي نال اسم «أسد الله» وأصبح قائداً لدى الصدّيقين ووزيراً لهما.. أقول إن وصفه بأنه كان يرائي ويخاف ويتصنع بالحب لمن لا يحبهم حقاً، واتّباعه لغير المحقين أكثر من عشرين عاماً ومسايرتهما تحت سطوة الخوف، ليس من المحبة في شيء. وسيدُنا علي رضي الله عنه يتبرأ من مثل هذه المحبة.

وهكذا فإن مذهبَ أهل الحق لا يُنقِص من شأن سيدنا علي رضي الله عنه بأية جهة كانت، ولا يتّهمه في أخلاقه قطعاً، ولا يسند إلى مثل هذا البطل المقدام الخوفَ، ويقولون: لو لم يكن سيدُنا علي رضي الله عنه يرى الحق في الخلفاء الراشدين لما كان يعطيهم الولاء لدقيقة واحدة وما كان ينقاد لحكمهم أصلاً.

بمعنى أنه رضي الله عنه قد عرف أنهم على حق وأقرّ بفضلهم فبذل شجاعته الفائقة في سبيل محبة الحق.

نحصّل مما سبق: أنه لا خير في الإفراط والتفريط في كل شيء. وإن الاستقامةَ هي الحد الوسط الذي اختاره أهل السنة والجماعة، ولكن مع الأسف كما تستر بعضُ أفكار الخوارج والوهابية بستار أهل السنة والجماعة فإن قسماً من المفتونين بالسياسة والملحدين ينتقدون سيدَنا علياً رضي الله عنه ويقولون: «إنه لم يوفَّق كاملاً في إدارة دفّة الخلافة لجهله -حاشاه- بالسياسة فلم يقدر على إدارة الأمة في زمانه». فإزاء هذا الاتهام الباطل من هؤلاء اتخذ الشيعةُ طورَ الغيظ والاستياء من أهل السنة. والحال إن دساتير أهل السنة وأسسَ مذهبهم لا تستلزم هذه الأفكار بل تثبت عكسها. لذا لا يمكن إدانة أهل السنة بأفكار تردُ من الخوارج ومن الملحدين قطعاً، بل إن أهل السنة هم أكثرُ ولاءً وحباً من الشيعة لسيدنا علي رضي الله عنه. فهم في جميع خُطبهم ودعواتهم يذكرون سيدنا علياً رضي الله عنه بما يستحقه من الثناء وعلو الشأن ولاسيما الأولياءُ والأصفياء الذين هم بأكثريتهم المطلقة على مذهب

أهل السنة والجماعة، فهم يتخذونه مرشدَهم وسيدَهم. فما ينبغي للشيعة أن يجابهوا أهلَ السنة بالعداء تاركين الخوارج والملحدين الذين هم أعداءُ الشيعة وأهل السنة معاً. حتى يترك قسمٌ من الشيعة السنةَ النبوية عناداً لأهل السنة!.

وعلى كل حال فقد أسهبنا في هذه المسألة حيث إنها قد بُحثت كثيراً بين العلماء.

فيا أهل الحق الذين هم أهل السنة والجماعة!

ويا أيها الشيعة الذين اتخذتم محبةَ أهل البيت مسلكاً لكم!

ارفعوا فوراً هذا النزاع فيما بينكم، هذا النزاع الذي لا معنى له ولا حقيقةَ فيه، وهو باطلٌ ومضر في الوقت نفسه. وإن لم تزيلوا هذا النزاع فإن الزندقةَ الحاكمة الآن حكماً قوياً تستغل أحدَكما ضد الآخر وتستعمله أداةً لإفناء الآخر، ومن بعد إفنائه تحطّم تلك الأداة أيضاً.

فيلزمكم نبذُ المسائل الجزئية التي تثير النزاع، لأنكم أهلُ التوحيد، بينكم مئاتُ الروابط المقدسة الداعية إلى الأخوة والاتحاد.

المقام الثاني

سيُخصص لبيان الحقيقة الثانية للآية الكريمة:[1]

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (التوبة:١٢٩).

(١) هذا المقام الثاني قد أُلّفَ مستقلاً، وهو «اللمعة الحادية عشرة» (المؤلف).

اللمعة الخامسة

ستكون هذه اللمعةُ رسالة تبين حقيقة جليلة للآية الكريمة: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ (آل عمران: ١٧٣) ضمن خمس عشرة مرتبة، إلّا أن تأليفها قد تأجل في الوقت الحاضر لكونها ذات علاقة بالتفكر والذكر أكثر من علاقتها بالعلم والحقيقة، لذا جاءت باللغة العربية.(١)

اللمعة السادسة

في بيان «لا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم» التي تعبّر عن حقيقة جليلة تنبع من كثير من الآيات الكريمة. توضحها هذه اللمعة في مراتب فكرية تقرُب من عشرين مرتبة والتي كنتُ استشعر بها في نفسي وأشاهدها في سيري الروحي في أثناء الذكر والتفكر كما في «اللمعة الخامسة» ولكن لكونها ذات علاقة بالذوق الروحي والحال القلبي أكثر من تعلّقها بالعلم والحقيقة ارتؤي وضعها في ختام «اللمعات» وليس في بدايتها.(٢)

---

(١) لذا وضعت ضمن «اللمعة التاسعة والعشرين» العربية. هذا وقد ألف الأستاذ النورسي بالتركية فيما بعد «الشعاع الرابع» في بيان تلك المراتب.

(٢) لذا وضعت ضمن «اللمعة التاسعة والعشرين» العربية.

اللمعة السابعة

(تخص سبعة أنواع من إخبار الآيات التي في ختام سورة الفتح بالغيب)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ۞ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ۞ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ (الفتح: ٢٧ -٢٩)

هذه الآيات الثلاث في سورة الفتح لها وجوه إعجازية كثيرة جداً.

فوجهٌ من الوجوه الكلية العشرة لإعجاز القرآن هو الإخبار عن الغيب الذي يظهر في هذه الآيات الكريمة بسبعة أو ثمانية وجوه:

الوجه الأول:

قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ .. ﴾ الخ الآية، تُخبر إخباراً قاطعاً عن فتح مكة قبل وقوعه. وقد فُتحت فعلاً بعد سنتين كما أخبرت هذه الآية.

الوجه الثاني:

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

تنبئ هذه الآية أن صلح الحديبية وإن بدا ظاهراً أنه ليس في صالح المسلمين وأن لقريش ظهوراً على المسلمين إلى حدٍ ما، إلّا أنه سيكون بمثابة فتح معنوي مبين، ومفتاحاً لبقية الفتوحات. وأن السيوف المادية وإن دخلت أغمادَها في الواقع إلّا أن القرآن الكريم قد سلّ سيفَه الألماسي البارقَ وفتَحَ القلوب والعقول، إذ بسبب الصلح اندمجت القبائلُ فيما بينها واختلطت فاستولت فضائلُ الإسلام على العناد فمزّقت أنوارُ القرآن حجبَ التعصب القومي الذميم.

فمثلاً: إن داهية الحرب خالد بن الوليد وداهيةَ السياسة عمرو بن العاص اللذين يأبيان أن يُغلَبا، غلَبَهما سيفُ القرآن الذي سطع في صلح الحديبية، حتى سارا معاً إلى المدينة المنورة وسلّما الإسلام رقابَهما، وانقادا إليه انقيادَ خضوع وطاعةٍ حتى أَصبح خالد بن الوليد سيفَ الله المسلول تفتح به الفتوحات الإسلامية.

سؤال مهم: إنَّ صحابة الرسول الكريم، وهو حبيب رب العالمين وسيد الكونين ﷺ، قد غُلبوا أمام المشركين في نهاية معركة أُحد وبداية معركة حُنين. فما الحكمة في هذا؟

الجواب: لأنه حينذاك كان بين المشركين كثيرون من أمثال خالد بن الوليد، ممن سيكونون في المستقبل مثلَ كبار الصحابة في ذلك الزمان، فلأجل ألّا تُكسَر عزّتُهم كلياً اقتضت حكمة الله أنْ تكافأهم مكافأةً عاجلة لحسناتهم المستقبلية، بمعنى أنَّ صحابةً في الماضي غُلبوا أمام صحابةٍ في المستقبل، لئلا يدخل هؤلاء -أي صحابة المستقبل- في الإسلام خوفاً من بريق السيوف، بل شوقاً إلى بارقة الحقيقة، ولئلا تذوق شهامتُهم الفطرية الهوانَ كثيراً.

الوجه الثالث:

إنَّ الآية الكريمة تخبر بقيد ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ بأنكم ستدخلون البيتَ الحرام وتطوفون حول الكعبة بأمان تام، علماً أن معظمَ قبائل الجزيرة العربية ومن هم حوالي مكة المكرمة وغالبيةَ قريش كلهم أعداءٌ للمسلمين، فهذا الإخبارُ يدل على أنكم تدخلون في أقرب وقت

المسجد وتطوفون دون أن يداخلكم الخوفُ، وأن الجزيرة ستدين لكم بالطاعة، وقريش تكون في حظيرة الإسلام ويعمّ الأمنُ والأمان. فوقع كما أَخبرت الآية.

الوجه الرابع:

قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ . هذه الآية تخبر إخباراً قاطعاً أن الدين الذي جاء به الرسول الكريم ﷺ سيظهر على الأديان كلها، علماً أن النصرانية واليهودية والمجوسية التي يعتنقها مئاتُ الملايين من الناس كانت أدياناً رسمية لدول كبرى كالصين وإيران وروما، والرسول الكريم ﷺ لم يظهر بعدُ ظهوراً تاماً على قبيلته نفسها. فالآية الكريمة تُخبر عن ظهور دينه على الأديان كافة وعلى الدول كافة، بل تخبر عن هذا الظهور بكل يقين وجزم إخباراً قاطعاً. ولقد صدّق المستقبلُ هذا الخبر الغيبي بامتداد سيف الإسلام من بحر المحيط الشرقي إلى بحر المحيط الغربي.

الوجه الخامس:

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبۡتَغُونَ فَضۡلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنًاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ﴾

هذه الآية صريحةٌ في معناها من أنَّ الصحابة الكرام هم أفضلُ بني الإنسان بعد الأنبياء عليهم السلام لما يتحلَّون به من سجايا سامية ومزايا راقية، وفي الوقت نفسه تبيّن ما تتصف به طبقاتُ الصحابة في المستقبل من صفات ممتازة مختلفة خاصة بهم، كما تبيّن بالمعنى الإشاري -لدى أهل التحقيق- إلى ترتيب الخلفاء الذين سيخلفون مقام النبيﷺ بعد وفاته، فضلاً عن إخبارها عن أبرز صفة خاصة بكلٍّ منهم مما اشتهروا به.

وذلك فإن قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ يدل على سيدنا الصديق رضي الله عنه المتّصف بالمعيّة المخصوصة والصحبة الخاصة، بل بوفاته أولاً دخل ضمن معيته أيضاً.

كما أن قوله تعالى: ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ ﴾ يدل على سيدنا عمر رضي الله عنه الذي سيهز دولَ العالم ويرعبهم بفتوحاته، وسيشتهر بعدالته على الظالمين كالصاعقة.

وتخبر الآية بلفظ: ﴿ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ ﴾ عن سيدنا عثمان رضي الله عنه الذي لم يرضَ

بإراقة الدماء بين المسلمين حينما كانت تتهيأ أعظمُ فتنةٍ في التاريخ، ففضّل بكمال رحمته ورأفته أن يضحي بروحه ويسلّم نفسَه للموت، واستشهد مظلوماً وهو يتلو القرآن الكريم.

كما أن قوله تعالى: ﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ يشير إلى أوضاع سيدنا علي رضي الله عنه الذي باشر مهام الخلافة بكمال الاستحقاق والأهلية وهو في كمال الزهد والعبادة والفقر والاقتصاد واختار الدوام على السجود والركوع كما هو مصدَّق عند الناس. فضلاً عن إخبارها أنه لا يكون مسؤولاً عن حروبه التي دخلها في تلك الفترة وفي المستقبل، والذي كان يبتغي فيها فضلاً من الله ورضواناً.

الوجه السادس:

﴿ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ هذه الجهة فيها إخبارٌ غيبي بجهتين:

الجهة الأولى: أنها تخبر عن أوصاف الصحابة الواردة في التوراة، وهي في حكم الغيب بالنسبة لرسول أمي ﷺ. إذ قد وضّح في «المكتوب التاسع عشر» أن في التوراة وصفاً لصحابة الرسول الذي سيأتي في آخر الزمان «معه أُلوف الأطهار» في يمينه أو «معه رايات القديسين»[1] بمعنى أنَّ أصحابه مطيعون وعبّادٌ صالحون وأولياءٌ لله حتى يوصفون بالقديسين الأطهار.

فعلى الرغم مما طرأ من تحريفات كثيرة على التوراة بسبب ترجماتها العديدة لألسنة متنوعة، فإنها مازالت تصدّق بآيات كثيرة منها هذه الآية الكريمة في ختام سورة الفتح.. ﴿ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ .

الجهة الثانية من الإخبار الغيبي هي أن ﴿ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ تخبر عن أن الصحابة الكرام والتابعين سيبلغون مرتبةً من العبادة بحيث إن ما في أرواحهم من نور سيشع على وجوههم وستظهر على جباههم علامةُ ولايتهم وصلاحِهم بكثرة السجود لله.

نعم، فلقد صدّق المستقبل هذا بكل يقين ووضوح وجلاء فإن زين العابدين رضي الله عنه الذي كان يصلي ألف ركعة ليلاً ونهاراً، وطاوساً اليماني رضي الله عنه (*) الذي صلى الفجر بوضوء العشاء طوال أربعين سنة، رغم التقلبات السياسية والأوضاع المضطربة، وكثيرين كثيرين أمثالهما قد بينّوا سراً من أسرار هذه الآية الكريمة: ﴿ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾ .

---

(١) الكتاب المقدس، العهد القديم، التثنية، باب: ٣٣، الاية:٢؛ السيرة الحلبية للحلبي ١/ ٢١٨؛ حجة الله على العالمين للنبهاني ص ١١٣.

الوجه السابع:

﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ هذه الفقرة أيضاً فيها إخبار غيبي بجهتين:

أولاها: أن إخبار ما في الإنجيل من أوصاف الصحابة الكرام إخبار هي في حكم الغيب بالنسبة لرسول أمّي ﷺ.

نعم! لقد وردت آياتٌ في الإنجيل تصف الرسول الذي سيأتي في آخر الزمان، مثل: «ومعه قضيب من حديد وأمته كذلك» بمعنى أنه صاحبُ سيف ويأمر بالجهاد وأصحابُه كذلك أصحاب السيوف ومأمورون بالجهاد وليس كسيدنا عيسى عليه السلام الذي لم يَكُ صاحبَ سيف. فضلاً عن أن ذلك الموصوفَ بـ«معه قضيباً من حديد» سيصبح سيدَ العالم، لأن آيةً في الإنجيل تقول: «سأذهب كي يجيء سيد العالم».[1]

فنفهم من هاتين الفقرتين من الإنجيل: أن الصحابة الكرام وإن بدا عليهم في بادئ الأمر ضعفٌ وقلة إلّا أنهم سينمون نمو البذرة النابتة وسيعلون كالنبات النامي الناشئ ويقوون حتى يغتاظ منهم الكفارُ، بل يرضِخون العالَم بسيوفهم فيثبتون أن سيدَهم الرسولَ الكريم هو سيد العالم. وهذا المعنى الذي تفيده آيةُ الإنجيل هي معنى الآية في ختام سورة الفتح.

الوجه الثاني: تفيد هذه الفقرة أن الصحابة الكرام وإن كانوا قد قبلوا بصلح الحديبية، لقلّتهم وضعفهم آنذاك فإنهم بعد فترة وجيزة يكسبون بسرعة قوة رهيبة بحيث إن البشريةَ التي أنبتتها يدُ القدرة الإلهية في مزرعة الأرض تكون سنابلُها قصيرةً وناقصةً وممحوقة بسبب غفلتهم إزاء سنابلهم العالية الشامخة القوية المثمرة المباركة، حتى إنهم يكونون من القوة والكثرة بحيث يتركون دولاً كبرى تتلظى بنار غيظها وحسدها.

نعم إن المستقبلَ قد بيّن هذا الإخبار الغيبي بأسطعِ صورة. وفي هذا الإخبار الغيبي إيماءٌ خفي أيضاً وهو أنه لما أثنى على الصحابة الكرام لما يتحلَّون به من خصال فاضلة مهمة كان المقام يلزم وعدَ ثوابٍ عظيم ومكافأة جليلة لهم، إلّا أنه يشير بكلمة «مغفرة» إلى أنه ستقع

(١) الكتاب المقدس، العهد الجديد، يوحنا، باب: ١٦، الاية: ٧؛ السيرة الحلبية للحلبي ١/ ٢١٤.

أخطاءٌ وهفواتٌ مهمة من جراء فتن تحدث بين الصحابة، إذ المغفرةُ تدل على وجود تقصير في شيءٍ وحينذاك سيكون أعظمُ مطلوب لهم وأفضلُ إحسان عليهم هو المغفرة. لأن أعظم إثابة هي: العفو، وعدم العقاب.

فكما أن كلمة «مغفرة» تدل على هذا الإيماء اللطيف كذلك فهي ذاتُ علاقة مع ما في بداية السورة: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ (الفتح:٢) فالمغفرة هنا ليست مغفرةَ ذنوب حقيقية لأن في النبوة العصمة، فلا ثمة ذنبٌ. وإنما هي بشرى المغفرة بما يناسب مقامَ النبوة. وما في ختام السورة من تبشير الصحابة الكرام بالمغفرة يضم لطافةً أخرى إلى ذلك الإيماء.

وهكذا فوجوهُ الإعجاز العشرة للآيات الكريمة الثلاث في ختام سورة الفتح، لم نبحث فيها إلّا عن وجه الإعجاز في إخبارها الغيبي بل لم نبحث إلَّا في سبع وجوهٍ من الوجوه الكثيرة جداً عن هذا النوع من الإخبار.

وقد أُشير إلى لمعة إعجاز مهمة في أوضاع حروف هذه الآية الأخيرة في ختام «الكلمة السادسة والعشرين» الخاصة بالقدر والجزء الاختياري. فهذه الآية موجهة بجملها إلى الصحابة الكرام كما تشمل بقيودها أحوالَهم أيضاً، ومثلما تفيد بألفاظها أوصافَ الصحابة فهي تشير بحروفها وتكرار أعدادها إلى أصحاب بدر وأحد وحُنين وأصحاب الصُفة وبيعة الرضوان وأمثالهم من طبقات الصحابة الكرام. كما تفيد أسراراً كثيرة بحساب الحروف الأبجدية والتوافق الذي يمثل نوعاً من علم الجفر ومفتاحه.

﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾

إنَّ الإخبار الغيبي الذي تخبر به آيات ختام سورة الفتح بالمعنى الإشاري، تخبر به كذلك هذه الآية الآتية وتشير إلى المعنى نفسه، لذا نتطرق إليها هنا.

تتمة

﴿... وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا * وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ (النساء:٦٨-٦٩)

نشير إلى نكتتين فقط من بين أُلوف نكات هذه الآية الكريمة:

النكتة الأولى:

إنَّ القرآن الكريم مثلما يبيّن الحقائقَ بمفاهيمه وبمعناه الصريح يفيد كذلك معانيَ إشارية كثيرة بأساليبه وهيئاته. فلكلِّ آية طبقاتٌ كثيرة من المعاني؛ ولأنَّ القرآن الكريم قد نزل من العلم المحيط، فيمكن أن تكون جميعُ معانيه مرادة، إذ معاني القرآن لا تنحصر في واحد أو اثنين من المعاني كما ينحصر كلامُ الإنسان الحاصل بإرادته الشخصية وبفكره الجزئي المحدود.

فبناءً على هذا السر فقد بيّن المفسرون ما لا يحدّ من الحقائق لآيات القرآن.

وهناك حقائق كثيرة جداً لم يبينها المفسرون بعدُ. ولاسيما حروف القرآن وإشاراته ففيها علومٌ مهمة سوى معانيه الصريحة..

النكتة الثانية:

تبين هذه الآية الكريمة: ﴿ مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ أنَّ أهل الصراط المستقيم والمنعَم عليهم بالنِعم الإلهية حقاً هم طائفةُ الأنبياء وقافلةُ الصديقين وجماعة الشهداء وأصناف الصالحين وأنواع التابعين. فكما تبين الآية هذه الحقيقة فهي تفيد صراحةً أكملَ مَن في تلك الأقسام الخمسة في عالم الإسلام وتدل على أئمة تلك الأقسام الخمسة وعلى رؤسائهم المتقدمين بذكر صفاتهم المشهورة. ثم تعيّن بجهةٍ بلمعةِ إعجاز أئمةَ تلك الأقسام في المستقبل وأوضاعهم بنوع من إخبار غيبي .

نعم، كما أن لفظ ﴿ مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ ينظر صراحة إلى الرسول الكريم ﷺ فإن فقرة ﴿ وَٱلصِّدِّيقِينَ ﴾ تنظر إلى أبي بكر الصديق، مشيرةً إلى أنه الشخص الثاني بعد الرسول الكريم ﷺ، وأولُ مَن يخلفه. وأن اسم الصدّيق عنوانه الخاص الذي لقّب به وهو المعروف لدى الأمة جميعاً. وأنه سيكون على رأس الصديقين.

كما تشير بكلمة ﴿ وَٱلشُّهَدَآءِ ﴾ إلى عمر وعثمان وعلي رضي الله عنه أجمعين وتفيد إفادة غيبية أن هؤلاء الثلاثة سينالون الخلافة بعد الصديق رضي الله عنه، وأنهم سيستشهدون. مما يزيد فضيلة إلى فضائلهم.

وكما تشير بكلمة ﴿ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ إلى أصحاب الصُفة وبدر، وبيعة الرضوان وتشوّق بجملة ﴿ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ وبمعناه الصريح على أتباعهم وتبين جمال أتباع التابعين لهم وحُسنه مشيرةً بالمعنى الإشاري إلى الحسن رضي الله عنه أنه خامس الخلفاء الأربعة، مصدقة حكم الحديث الشريف: «الخلافة بعدي في أُمتي ثلاثون سنة»[1] فمع قصر مدة خلافته فهي عظيمة الشأن.

الحاصل: أنَّ الآية الأخيرة من سورة الفتح تنظر إلى الخلفاء الأربعة كما تنظر هذه الآية وتشير إلى مستقبل أوضاعهم وتؤيدها بنوع من الإخبار الغيبي.

فالإخبار الغيبي الذي هو أحد أنواع إعجاز القرآن له لمعات إعجازية كثيرة وكثيرة لا تعد ولا تحصى، لذا فإن حصر أهل الظاهر تلك الإخبارات الغيبية في أربعين أو خمسين آية فقط إنما هو ناشئ من نظر ظاهري سطحي، بينما في الحقيقة هناك ما يربو على الألف منها بل قد تكون في آية واحدة فقط أربعة أو خمسة أخبار غيبية.

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾

﴿سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾

اللمعة الثامنة

ستنشر ضمن مجموعة أخرى بإذن الله.

(١) انظر: الترمذي، الفتن ٤٨؛ أبو داود، السنة ٩؛ أحمد بن حنبل، المسند ٥/ ٢٢٠؛ ابن حجر، فتح الباري ٨/ ٧٧.

اللمعة التاسعة

لا يسع كل واحد أن يرى نقائص «وحدة الوجود» الدقيقة ولا هو بحاجة إليها، لذا لا حاجة له لقراءة هذه اللمعة.

بِاسْمِهِ سُبْحَانَهُ

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أخي العزيز الوفي المخلص الخالص!

إنَّ سبب عدم إرسالي رسالةً مستقلة إلى أخينا «عبد المجيد»(*) هو أن رسائلي التي أبعثها إليكم تفي بالغرض، فإن «عبد المجيد» أخ قديرٌ وطالب مجدٌّ بعد «خلوصي»(*)، وأنا أذكره باسمه في دعائي كلَّ صباح ومساء مع «خلوصي» وأحيانا قبله. هذا وإن «صبري»(*) ثم «حقي أفندي» يستفيدان من رسائلي، فلا أرى داعياً لأبعثَ إليهما رسائلَ مستقلة. فلقد أنعم الله عليك وجعلك أخاً كبيراً مباركاً لهما، فراسل عبد المجيد بدلاً مني، وطَمئِنه لئلا يقلق، فأنا أفكر فيه بعد خلوصي..

سؤالكم الأول

وهو سؤال خاص يعود إلى إمضاء أحد أجدادكم باسم «السيد محمد» (أي من آل البيت).

أخي!

إنني لا أملك الإجابة عن هذا السؤال جواباً مبنياً على العلم والتحقيق والكشف، ولكن كنت أقول لأصحابي: إن خلوصي لا يشبه الأتراك الحاليين، ولا الأكراد، فإني أرى فيه خاصيةً أخرى، وكانوا يصدّقونني. فكنا نقول: إن ظهور عراقة وأصالة في خلوصي دليل على نيله عطاء الحق، بمضمون القاعدة:

«دَادِ حَقْ رَا قَابِلِيَّتْ شَرْطْ نِيسْت»[1]

واعلم قطعاً أن للرسول الأكرم ﷺ نوعين من الآل:

الأول: آله النَسَبي.

والآخر: آله من حيث شخصه المعنوي النوراني، أي من حيث الرسالة.

فأنت داخل قطعاً في هذا الآل الثاني، فضلاً عن دخولك في الآل الأول حسب قناعتي بلا دليل. فإن إمضاء جدّك باسم «السيد» ليس عبثاً ولا جزافاً.

خلاصة سؤالكم الثاني:

أخي العزيز!

إن «محي الدين بن عربي»[*] قد قال: «إن مخلوقية الروح عبارةٌ عن انكشافها». إنك يا أخي بسؤالك هذا تضطرني إلى أن أناقش وأنا الضعيف العاجز خارقةَ الحقيقة وداهيةَ علم الأسرار «محي الدين بن عربي». ولكن لما كنتُ سأخوض في البحث معتمداً على نصوص القرآن الكريم فسوف أستطيع أن أحلّقَ أعلى من ذلك الصقر وأسمى منه وإن كنتُ ذبابة!

أخي: اعلم أن «محي الدين بن عربي» لا يَخدع ولكن ينخدع، فهو مُهتدٍ، ولكنه لا يكون هادياً لغيره في كل ما كَتبه. فما رآه صدقٌ وصوابٌ ولكن ليس هو الحقيقة.

ولقد وضّحت «الكلمة التاسعة والعشرون» في مبحث الروح، الحقيقةَ التي يدور عليها سؤالُكم.

---

(١) أي إن الفضل الإلهي لا يشترط القابلية في ذات الشخص.

نعم، إنَّ الروح من حيث الماهية قانونٌ أمري. ولكن أُلبسَت وجوداً خارجياً، فهي ناموسٌ ذو حياة، وقانونٌ ذو وجود خارجي.

فالشيخ محي الدين قد نظر إلى الروح من حيث ماهيتِها فحسب، ويرى الأشياءَ خيالاً حسب مشرب «وحدة الوجود».

ولما كان الشيخ قد انتهج مسلكاً مستقلاً وكان صاحبَ مشرب مهم وله كشفيات ومشاهدات خارقة فإنه يلجأ باضطرار إلى تأويلاتٍ ضعيفة وتكلّف وتمحّل ليطبّق بعضَ الآيات الكريمة حسب مَشربه ومشهوداته، مما يخدشُ صراحة الآية الكريمة ويجرحُها.

ولقد بيّنا في رسائل أخرى المنهجَ القرآني ومنهجَ أهل السنة السنية القويم.

فالشيخ ابن عربي له مقام خاص لذاته، وهو من المقبولين، إلّا أنه بكشفياته التي لا ضوابطَ لها خرقَ الحدود وتجاوزها وخالَف جمهور المحققين العلماء في كثير من المسائل.

ولأجل هذا تكاد تقتصر طريقتُه الخاصةُ به لفترة قصيرة جداً في «صدر الدين القونوي»(*) ويندر أن يُستفاد من آثاره استفادةً ذاتَ استقامة، مع كونه شيخاً عظيماً عاليَ القدر وقطباً خارقاً فريدَ زمانه. بل لا يحث كثيرٌ من العلماء المحققين والأصفياءُ على قراءة آثاره القيّمة، بل قسمٌ منهم يمنعون قراءتها.

إنَّ بيان الفرق الأساس بين مشرب الشيخ محي الدين بن عربي وأهلِ التحقيق من العلماء، وبيان منابعهما ومصادرهما يحتاج إلى دراسةٍ عميقة وبحثٍ دقيق ونظرٍ واسع رفيع.

نعم، إن الفرقَ دقيقٌ جداً وعميق جداً إلى درجة كبيرة، والمصدر رفيع وسام إلى حدٍ كبير، بحيث لم يؤاخَذ الشيخ ابن عربي على خطئه، وإنما ظل مقبولاً لدى العلماء. إذ لو كان الفرق والمصدر مشهودَين واضحين علماً وفكراً وكشفاً لكان سقوطاً مريعاً للشيخ وخطأً جسيماً له.

ولكن لما كان الفرقُ عميقاً جداً، فإننا نحاول أن نبين خطأَ الشيخ في تلك المسألة فحسب ونوضح ذلك الفرق وتلك المنابع في مثال باختصار شديد:

فمثلا: الشمس تشاهَد في مرآة. فهذه المرآةُ هي مظروفُ الشمس، وموصوفُها. بمعنى أن الشمس توجد فيها من جهة، ومن جهة أخرى تزيّن المرآةَ حتى تكون صفتَها اللامعة وصبغتَها الساطعة. فإن كانت تلك المرآة، مرآةَ آلةِ تصوير فإنها ستنقل صورةَ الشمس على ورقة حساسة بصورة ثابتة. ففي هذه الحالة فالشمسُ المشهودة في المرآة وماهيتُها المرتسمة على الورقة وصفاتُها، وتزيينُها المرآة -حتى غدت كأنها صفتها- هي غيرُ الشمس الحقيقية. فهي ليست شمساً، بل هي دخولُ تجلي الشمس في وجود آخر. أما وجودُ الشمس المشهودة في المرآة فهو وإن لم يكن عينَ وجودِ الشمس الموجودة في الخارج إلّا أنه قد ظُن أنه عينُ وجودِها لارتباطه بها وإشارته إليها.

فبناءً على هذا المثال فإن القول بأنه: «ليس في المرآة غيرُ الشمس الحقيقية» يمكن أن يكون صواباً باعتبار كون المرآة ظرفاً وأن المقصود من الشمس التي فيها وجودُها الخارجي. ولكن إذا قيل: إنَّ صورة الشمس المنبسطة على المرآة -التي أخذت حكمَ صفة المرآة- والصورةَ التي انتقلت إلى الورقة الحساسة هي الشمسُ، فهذا خطأ، أي إن عبارة «ليس في المرآة غير الشمس» تكون عبارة خطأ، ذلك لأن هناك صورةَ الشمس التي تظهر على المرآة وهناك الصورة المرتسمة خلفَها على الورق الحساس، فكل منها لها وجودٌ خاص بها. فمع أن ذينك الوجودَين هما من تجلي الشمس إلّا أنهما ليسا الشمسَ نفسها.

وكذا فإن ذهنَ الإنسان وخيالَه شبيهان بمثال المرآة هذا. وذلك:

إنَّ المعلومات الموجودة في مرآة فكرِ الإنسان لها وجهان أيضا: فهي بوجهٍ علمٌ، وبوجهٍ آخر معلومٌ. فإذا اعتبرنا الذهنَ ظرفاً لذلك المعلوم، أصبح ذلك الموجودُ المعلومُ معلوماً ذهنياً. فوجودُه شيء آخر. وإن اعتبرنا الذهنَ موصوفاً بذلك الشيء الذي حلَّ فيه أصبح صفةً للذهن، وذلك الشيء يكون عندئذٍ علماً، وله وجودٌ خارجي. وحتى لو كان لذلك المعلوم وجودٌ وجوهرٌ فسيكون وجوداً خارجياً عرضياً.

فبناءً على هذين التمثيلين.

الكونُ مرآة، وماهيةُ كل موجود مرآة أيضاً. هذه المرايا معرّضة إلى الإيجاد الإلهي بالقدرة الأزلية.

فكل موجود -من جهة- يُصبح مرآةً لاسم من أسماء الله يبين نقشاً من نقوشه.

فالذين هم على مشرب الشيخ ابن عربي قد كشفوا العالَم من حيث المرآتية والظرفية والموجود المثالي في المرآة -من زاوية النفي- ومن حيث منعكس صورة ذلك الشيء في المرآة هو عينه. وقالوا: «لا موجود إلّا هو»، دون أن يفكروا بالمراتب الأخرى، فأخطأوا حتى بلغ بهم الأمر أن ينكروا القاعدة الأساسية المعروفة: «حقائق الأشياء ثابتة».

أما أهل الحقيقة فإنهم يرون بسر الوراثة النبوية وبصراحة القرآن الكريم وآياته البينات:

أنَّ النقوش التي توجد في مرايا الموجودات بقدرة الله وإرادته إنما هي من آثاره سبحانه وتعالى. فكلُّ موجود إنما هو منه تعالى وهو الذي يوجِدُه، وليس كلُّ موجود هو، حتى يقال: «لا موجود إلّا هو». إذ للأشياء وجودٌ، وهو وجودٌ ثابتٌ إلى حد ما، وإن كان هذا الوجودُ وجوداً ضعيفاً كأنه وهمي وخيالي بالنسبة إلى وجوده تعالى، إلّا أنه موجود بإيجاد القدير الأزلي وإرادته وقدرته.

إنَّ للشمس المشهودةِ في المرآة وجوداً مثالياً عدا وجودها الخارجي الحقيقي.

ولها وجودٌ خارجي عرَضي آخر يلوّن المرآة بزينته إذ تنبسط عليها صورتُها.

ولها وجود خارجي عرضي أيضا، وهو وجودٌ ثابتٌ إلى حد ما وهو الصورة المنتقشة على الورقة الحساسة خلف المرآة.

فكما أن للشمس وجوداتٍ هكذا في المثال كذلك الأمر في مرآة الكون ومرايا ماهية الأشياء. فإن نقوشَ المصنوعات الظاهرة بتجليات الأسماء الإلهية الحسنى الحاصلة بالإرادة الإلهية واختيارها وقدرتها، لها وجودٌ حادثٌ غيرُ وجود الواجب الوجود. وقد مُنح بالقدرة الإلهية ثباتاً لهذا الوجود ولكن لو انقطع الارتباط فنيت الأشياءُ وانعدمت مباشرة. فكلُّ شيء محتاجٌ لبقائه في كل آن إلى إبقاء خالِقه له، فإن حقائق الأشياء وإن كانت ثابتة ولكن ثابتةٌ بإثباته سبحانه لها وتثبيته إياها.

وهكذا فإن قولَ الشيخ ابن عربي: «إن الروح ليست مخلوقة وإنما هي حقيقةٌ آتية من عالم الأمر وصفة الإرادة» مخالفٌ لظاهر نصوص كثيرة، كما قد التبس عليه الأمر في ضوء التحقيقات المذكورة آنفاً وانخدع إذ لم يشاهِد الموجودات الضعيفة.

فلا يمكن أن تكون مظاهرُ «الخلاق والرزاق» من الأسماء الإلهية الحسنى مظاهرَ وهمية خيالية. فما دامت تلك الأسماءُ ذات حقيقة، فإن مظاهرَها أيضاً لها حقائق خارجية.

سؤالكم الثالث:

تطلبون فيه درساً يكون مفتاحاً لعلم «الجفر».

الجواب: إننا يا أخي لسنا في هذه الخدمة القرآنية بإرادتنا ولا بتدبيرنا للأمور. بل إن اختياراً -وهو خير لنا- فوق اختيارنا وخارج إرادتنا يهيمن على أعمالنا واختيارنا.

اعلم أن علم الجفر يُشغل الإنسانَ عن وظيفته الحقيقية ويصرفه عنها، لما فيه من ذوق ووَلَع. حتى كانت تُحلُّ لي أسرارٌ تخص القرآن بذلك المفتاح لمرات عدة، ولكن ما إن أتوجّه إليه بشوق وذوق حتى توصَد الأبواب دوني. فوجدت في هذا الأمر حكمتين:

الأولى: احتمال الوقوع في موضع ينافي الأدبَ اللائق بالقاعدة الأساسية «لا يعلم الغيبَ إلّا الله».

الثانية: إنَّ العمل على إرشاد الأمة إلى حقائق الإيمان والقرآن بوساطة البراهين الدامغة، له من الفضائل والمزايا ما يفوق مائةَ درجة على العمل بإرشادهم بالعلوم الخفية كعلم الجفر. حيث إن الحجج القاطعة والدلائل الثابتة لا تدع مجالاً للمداخلة في تلك الوظيفة السامية. بينما علمُ الجفر وأمثالُه من العلوم الخفية غير المنضبطَة بقواعد محكمة، قد يساء استعماله بولوج الماكرين فيه. علماً أنه متى ما احتاج الأمرُ إليه لخدمة الحقائق، فإن الله سبحانه يفتح علينا نبذةً منه حسب الحاجة.

واعلم أن أيسرَ مفتاح من بين مفاتيح علم الجفر، وأنقاها، بل أجملها وأحسنها هو أنواع التوافقات الناشئة من اسم «البديع» والتي أظهرت شعاعاً من نورها في توافق لفظ الجلالة في القرآن الكريم وزيّنت الآثار التي نقوم بنشرها. علماً أنه وُضّح شيءٌ منها في عدة مواضع من «رسالة الكرامة الغوثية». نذكر منها:

إن التوافق إذا ما أظهر شيئاً في عدة جهات، فهو إشارةٌ بدرجة الدلالة، علماً أنه قد يكون توافق واحد أحياناً مع بعض القرائن بمثابة دليل ويحلّ محلَّه.

وعلى كل حال، يكفي هذا القدر من الإجابة عن سؤالك في الوقت الحاضر. ومتى ما كانت الحاجة جادة إليه ستُبلّغون به.

سؤالكم الرابع:

أي سؤال إمام الجامع «عمر أفندي» وليس سؤالكم، وهو:

أن طبيباً شقياً يدّعي أنه كان لعيسى عليه السلام والدٌ، وزعم أنه يستشهد لنفسه بآية كريمة بتأويل جنوني.[١]

إن ذلك العاجز قد سعى سابقاً لإحداث خطٍ بحروف مقطّعة، بل سعى سعياً حثيثاً في الأمر. فعلمتُ حينذاك أن ذلك الرجل قد استشعر من أطوار الزنادقة وتصرفاتهم أنهم سيحاولون رفع الحروف الإسلامية وإزالتها. وكأنه أراد أن يصدّ ذلك التيار الجارف، ولكن دون جدوى.

وقد شعر الآن في هذه المسألة، وفي مسألته الثانية، بهجوم الزنادقة العنيف على الأسس الإسلامية. وأظن أنه يحاول فتحَ طريق للمصالحة والسلام، بمثل هذه التأويلات السخيفة التي لا معنى لها.

إنه لا والدَ لعيسى عليه السلام، كما تبينُه يقيناً الآية الكريمة: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾ (آل عمران: ٥٩) وأمثالها من النصوص القاطعة. لذا لا يؤبَه بكلام مَن يحاول تغيير هذه الحقيقة الرصينة الراسخة، بل لا يُقام لقوله وزنٌ ولا يستحق الاهتمام به أصلاً، حيث يَعدّ مخالفةَ قانونٍ في التناسل غير ممكنٍ فيتشبث بتأويلات واهية.

لاشك أنه لا قانون دون شذوذٍ منه، ودون نوادر له، ودون أفرادٍ خارجةٍ عنه، وليست هناك قاعدة كلية لم تُخصّص بأفراد خارقة. وإنه لا يمكن ألّا يشذَّ فرد - أيا كان - من قانون، ولا يخرج منه، منذ زمن آدم عليه السلام.

(١) إن الذي ترأس ربع البشرية، وانتقل -بجهة- من نوع البشر إلى نوع الملائكة، وترك الأرض متخذاً السماء له موطناً.. إن هذا الفرد الإنساني الخارق، وهذه أوضاعه الخارقة يقتضي أن تكون له صورة خارقة من قانون التناسل. بينما لا ينسجم ضمه بتأويل داخل قانون التناسل بوجه مشكوك مجهول غير فطري، بل بأدنى وجه وطراز من وجوه قانون التناسل، كما لا اضطرار إلى ذلك أصلاً.

ثم إن صراحة القرآن الكريم لا تتحمل التأويل. ويا عجباً أتُهدم قوانين ثابتة رصينة لم تُخرق في أية جهة كانت، وظلت خارقة عن قانون التناسل؛ كقانون الجنس الملائكي وقانون صراحة القرآن، في سبيل ترميم قانون التناسل المتخرق الممزق بمائة جهة وجهة؟ (المؤلف).

فأولاً: إنَّ هذا القانون، قانون التناسل قد خُرق باعتبار المبدأ، بمبادئ مائتي ألف نوع من أنواع الحيوانات وختم بها. أي أن آباء تلك الحيوانات الأولين، وهم بمثابة أوادم لها، قد خرقوا قانونَ التناسل. أي أن مائتي ألف أب من أولئك الآباء لم يأتوا إلى الوجود من أب وأم. بل أُعطي لهم وجودٌ خارج ذلك القانون.

ثم إننا نشاهد بأبصارنا في كل ربيع، أن القسمَ الأعظم من مائة ألف نوع من الكائنات الحية ومما لا يُعد ولا تحصى من أفرادها، تُخلق خارج ذلك القانون، قانون التناسل، تُخلق على وجوه الأوراق وعلى المواد المتعفنة.

تُرى إن قانوناً يُخرق بشواذ، بهذه الكثرة الكاثرة، في مبدئه، بل في كل سنة. ثم يأتي أحدُهم ولا يتمكن أن يسعَ عقلُه شذوذَ فرد واحد لذلك القانون خلال ألف وتسعمائة سنة، فيتشبث بتأويلات تافهة تجاه النصوص القرآنية القاطعة.. أقول تُرى كم يكون مرتكباً حماقة وبلاهة! قس ذلك بنفسك. علماً أن الأشياء التي يطلق عليها أولئك الشقاة اسم «القوانين الطبيعية» إنما هي قوانينُ عادة الله التي هي تجلٍ كلّي للأمر الإلهي والإرادة الإلهية، بحيث يغيّر سبحانه وتعالى عاداتِه تلك لبعض الحِكَم؛ مُظهراً هيمنةَ إرادته واختياره على كل شيء وعلى كل قانون. فيخرق العادةَ في بعض الأفراد الخارقين، وقولُه تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ﴾ يبيّن هذه الحقيقة.

السؤال الثاني لعمر أفندي فيما يخص ذلك الطبيب.

لقد تصرف ذلك الطبيب في تلك المسألة تصرفَ معتوه، وارتكب حماقة بلهاء بحيث لا يستحق إلقاء السمع له، ولا الاهتمام به فضلاً عن الإجابة عن سؤاله. إذ يريد هذا البائس أن يوجِد الوسط بين الكفر والإيمان.

فأنا أقول جواباً عن استفسار «عمر أفندي»، وليس جواباً للكلام التافه لذلك الطبيب.

إن العلّة في الأوامر والنواهي الشرعية هي الأمر الإلهي ونهيه. أما المصالح والحِكم فهي مرجِّحات يمكن أن تكون أسباباً لمتعلقات الأمر الإلهي ونهيِه من زاوية اسم الله الحكيم..

فمثلاً: يقصر المسافرُ الصلاة. وهذا القصر له علة وحكمة، فالعلةُ هي السفر والحكمةُ

هي المشقة. فإذا وجد السفر تُقصر الصلاة وإن لم تكن مشقة. ولكن لو وُجدت مائة مشقة في البيت فلا تُقصر الصلاة دون سفر. إذ وجود المشقة أحياناً في عامة السفر كافية لتكون حكمةً لقصر الصلاة وكافية أيضاً لتجعل السفر علّة للقصر.

فبناءً على هذه القاعدة الشرعية لا تتغير الأحكامُ الشرعية بحسب الحِكم، بل بحسب العلل الحقيقية.

فإن لحم الخنزير -كما ذكره ذلك الطبيب- فيه ضرر، حسب قاعدة «من أكل لحم الخنزير يتصف بصفاته»[1] ففيه ما لا يعلمه ذلك الطبيب من أضرار وأمراض. فذلك الحيوان لا يشبه سائر الحيوانات الأهلية النافعة التي لا ضرر لها. بل أكلُ لحمه يورث أضراراً أكثر من نفعه. علاوة على الشحم القوي الموجود في لحمه له أضرار طبية كثيرة في غير بلاد الإفرنج الباردة. بل تحققَ أنَّ له أضراراً كثيرة معنوية وحقيقية.

فلمثل هذه الحِكَم، أصبح لتحريمه حكمة ولتعلّق النهي الإلهي به، ولا يلزم أن تكون الحكمةُ في كل فرد وفي كل وقت. ولا تتبدل العلةُ بتبدل تلك الحكمة. وإن لم تتبدل العلةُ لا يتبدل الحُكم. فليُعلم حسب هذه القاعدة مدى ما يتفوه به ذلك الطبيب البائس من كلام بعيد عن روح الشريعة.

لذا لا يُعبأ بكلامه باسم الشريعة. فإن للخالق سبحانه حيواناتٍ لا يعقلون كثيرون في صور فلاسفة!.

---

(١) إنه مع سبق بلاد الإفرنج في رقيها الخارق وتقدمها في المدنية وفي العلوم الحديثة وفي العلوم الإنسانية فإن ضلالهم ضلال الخنازير في ظلمات الفلسفة المادية ومتاهات الطبيعة منافٍ كلياً لذلك الرقي والتقدم والعلوم. أسائل ألا يكون في ذلك دخل لأكل لحم الخنزير؟

وان الدليل على أن مزاج الإنسان يتأثر بما يتغذى به هو المثل المشهور: «من دام على أكل اللحم أربعين يوماً أصيب بقساوة القلب». (المؤلف).

ذيل السؤال الوارد حول ابن عربي

سؤال: إن «ابن عربي» يعدّ مسألة «وحدة الوجود» أرفع مرتبة إيمانية، حتى إن قسماً من أولياء عظام من أهل العشق اتبعوه في مسلكه. بيد أنك تقول: إن هذا المسلك ليس هو من أرفع المراتب الإيمانية، ولا هو بمسلكٍ حقيقي، وإنما هو مشربُ أهل السُكر والاستغراق وأصحابِ الشوق والعشق.

فإن كان الأمر هكذا كما تقول، فبيّن لنا باختصار: ما أعلى مرتبةٍ من مراتب التوحيد التي بينتها وراثةُ النبوة وصراحةُ القرآن الكريم؟.

الجواب: إنَّ عاجزاً مسكيناً مثلي، لا قيمةَ له ولا أهمية، أنّى له أن يقتحمَ غمار هذه المراتب السامية الرفيعة ويجري فيها محاكماتٍ عقلية بعقله القاصر، إنما هو أمر فوق الحد بمائة مرة.. ولكنني سأذكر ذكراً مختصراً جداً نكتتين فقط وردتا من فيض القرآن الكريم إلى القلب، فلعل فيهما فائدة ونفعاً.

النكتة الأولى:

إنَّ هناك أسباباً عدة للانجذاب نحو مشرب «وحدة الوجود». سأبين باختصار شديد سببين منها:

السبب الأول: إنهم لم يستطيعوا أن يستوعبوا في أذهانهم خلّاقية الربوبية في أعظم مراتبها، وكذا لم يستطيعوا أن يمكّنوا في قلوبهم تمكيناً تاماً أنه سبحانه بأحديته مالكٌ بالذات لزمام كل شيء في قبضة ربوبيته، وأن كلَّ شيء يُخلق بقدرته واختياره وإرادته سبحانه. فلأنهم لم يستطيعوا إدراك ذلك فقد رأوا أنفسهم مضطرين أمام القول: كلُّ شيء هو «تعالى»، أو: لاشيء موجودٌ، أو: أن الموجود خيال، أو: من التظاهر أو من الجلوات.

السبب الثاني: إنَّ صفة العشق لا تريد الفراق أصلاً، وتفرّ منه بشدة، وترتعد فرائصُ العاشق من الافتراق، ويرهب من التنائي رهبتَه من جهنم، وينفر من الزوال نفرةً شديدة، ويحب الوصال حبَّه لروحه ونفسه، ويرغب بشوق لا حد له -كشوقه للجنة- للقرب الإلهي، لذا يرى أن التشبث بتجلي الأقربية الإلهية في كل شيء، يجعل الفراقَ والتنائي كأنهما معدومان، فيظن اللقاءَ والوصال دائمين بقوله: «لا موجود إلّا هو».

ولأنهم يتصورون بسُكر العشق وبمقتضى شوق البقاء واللقاء والوصال، أن في وحدة الوجود مشرباً حالياً في منتهى الذوق، لذا يجدون ملجأهم في مسألة «وحدة الوجود» لأجل التخلص من فراقاتٍ رهيبة.

أي إن منشأ السبب الأول هو عدم بلوغ العقل قسماً من حقائق الإيمان الواسعة للغاية والسامية جداً، وعدم استطاعته الإحاطة بها، مع عدم انكشاف العقل انكشافا تاماً من حيث الإيمان.

أما منشأ السبب الثاني فهو انكشاف القلب انكشافاً فوق المعتاد، بتأثير العشق وانبساطه انبساطاً خارقاً للعادة.

أما مرتبة التوحيد العظمى التي يراها بصراحة القرآن الأولياءُ العظام أعنى الأصفياء الذين هم أهلُ الصحو وأهل وراثة النبوة، فإنها مرتبةٌ رفيعة عالية جداً، إذ تفيد المرتبة العظمى للربوبية والخلاقية الإلهية، وتبين أن جميع الأسماء الحسنى هي أسماء حقيقية، وهي تحافظ على الأسس من دون إخلالٍ بموازنة أحكام الربوبية، لأن أهلها يقولون:

إنَّ الله سبحانه بأحديته الذاتية وتنزّهه عن المكان قد أحاط -من دون وساطة- بكل شيء علماً وشخّصه بعلمه ورجَّحه وخصَّصه بإرادته وأوجَده وأبقاه بقدرته. فإنه سبحانه يوجِد جميع الكون ويخلقه ويدبر أموره كإيجاده لشيءٍ واحد وإرادته إياه، فكما أنه يخلق الزهرة بسهولة فإنه يخلق الربيع العظيم بالسهولة نفسها. فلا يمنع شيء شيئاً قط، فلا تجزؤ في توجهه سبحانه. فهو موجودٌ بتصرفه وبقدرته وبعلمه في كل مكان، في كل آن. فلا انقسام ولا توزّع في تصرفه سبحانه.

ولقد وضحنا هذا الأمر وأثبتناه في «الكلمة السادسة عشرة»، وفي «المقصد الثاني من الموقف الثاني من الكلمة الثانية والثلاثين».

سأورد هنا مثالاً ينطوي على نقص كثير (ولا مشاحة في الأمثال) وذلك لفهم شيءٍ من الفرق بين المشربين:

لنفرض أنَّ هناك طاووساً خارقاً لا مثيلَ له، وهو في غاية الكبر، ومنتهى الزينة وأنه يتمكن من الطيران من الشرق إلى الغرب في لمحة بصر، وله القدرةُ على بسط جناحيه الممتدين من الشمال

إلى الجنوب، وقبضهما في آن واحد، وعليه مئات ألوف النقوش البديعة حتى إن على كل ريش من جناحيه إبداعاً واتقاناً في منتهى الجمال والروعة.

ولنفرض الآن أن هناك شخصين يتفرجان على هذا الطاووس العجيب، ويريدان التحليق بجناحي العقل والقلب إلى المراتب العالية الرفيعة لهذا الطير وبلوغ زينته الخارقة.

فطفق الأول يتأمل في وضع هذا الطاووس وهيكلِه ونقوشِ خوارق القدرة في كل ريشة منه، فيغمره العشقُ والشوق والمحبة تجاه هذا الطير فيترك شيئاً من التفكير العميق إلى جانب مستمسكاً بالعشق، ولكنه يرى أن تلك النقوش المحبوبة تتحول وتتبدل يوماً بعد يوم، وأن تلك المحبوبات التي يوليها الحب والشغف تغيب وتزول كل يوم. فكان ينبغي له أن يقول: إن هذه النقوش المتقنة إنما هي لنقّاشٍ مالك للخلاقية الكلية مع أحديته الذاتية، وله الربوبية المطلقة مع وحدانيته الحقيقية. إلّا أنه لم يتمكن من أن يستوعب هذا ويدركه، فبدأ يُسلّي نفسه ويقول بدلاً من ذلك الاعتقاد:

«إنَّ روح هذا الطاووس روحٌ سامية عالية بحيث إن صانعَه فيه، أو قد أصبح هو نفسَه، وأن تلك الروحَ العالية متحدةٌ مع جسد الطاووس، ولأن جسده ممتزج مع صورته الظاهرة، فإن كمالَ تلك الروح وعلوَّ ذلك الجسد هما اللذان يُظهران هذه الجلوات على هذه الصورة البديعة، حتى يظهر في كل دقيقة نقشاً جديداً وحسناً مجدداً، فليس هذا إيجاداً باختيار حقيقي، بل هو جلوة وتظاهر».

أما الشخص الآخر فيقول: «إنَّ هذه النقوشَ الموزونة المنظمة المتقنة تقتضي يقيناً إرادةً واختياراً وقصداً ومشيئة، فلا يمكن أن تكون جلوةً بلا إرادة ولا تظاهراً بلا اختيار».

نعم، إن ماهية الطاووس جميلة ورائعة، ولكن ماهيتَه ليست فاعلةً قطعاً وإنما هي منفعلة، ولا يمكن أن تتحد مع فاعلها مطلقاً. وإن روحَه عاليةٌ سامية ولكن ليست موجِدةً ولا متصرفة، وإنما هي مظهرٌ ومدار ليس إلّا. لأنه يشاهَد في كل ريش منه إتقانٌ قد تم بحكمة مطلقة بالبداهة، ونقش زينة نقشها بالقدرة المطلقة.

وهذا لا يمكن أن يكون دون إرادة واختيار قطعاً.

فهذه المصنوعات البديعة التي تبين كمال الحكمة في كمال القدرة، وكمال الربوبية والرحمة في كمال الاختيار، لا يمكن أن تكون هذه المصنوعات نتيجة جلوة أو ما شابهها.

إنَّ الكاتب الذي كتب سطور هذا السجل المذهّب لا يمكن أن يكون في السجل نفسه، ولا يمكن أن يتحد معه. وليس لذلك السجل إلّا تماساً بطرف قلم ذلك الكاتب. لذا فإن زينةَ جمال ذلك الطاووس المثالي الذي هو يمثل الكائنات، ليس إلّا رسالةً من قلم خالق ذلك الطاووس.

فالآن تأمل في طاووس الكائنات واقرأ تلك الرسالة، وقل لكاتبها: ما شاء الله.. تبارك الله.. سبحان الله...

فالذي يظن الرسالة كاتبَها أو يتخيل الكاتبَ في الرسالة نفسها، أو يتوهم الرسالةَ خيالاً لاشك أنه قد ستر عقلَه بستار العشق ولم يبصر الصورة الحقيقية للحقيقة.

إنَّ أهم جهة من أنواع العشق التي تسبب الانسلاك إلى مشرب وحدة الوجود هي عشق الدنيا، إذ حينما يتحول عشقُ الدنيا الذي هو عشق مجازي إلى عشق حقيقي ينقلب إلى «وحدة الوجود».

إن شخصاً إذا أحب إنساناً محبة مجازية، ما إن يشاهد فناءه لا يستطيع أن يمكّن هذا الزوال في قلبه، تراه يمنح معشوقَه عشقاً حقيقياً، فيتشبث بحقيقة عشقه ليُسلّي بها نفسَه، وذلك بإضفاء البقاء على محبوبه بعشق حقيقي فيقول: إنه مرآة جمال المعبود والمحبوب الحقيقي.

كذلك الأمر فيمن أحبّ الدنيا العظيمة وجعل الكونَ برمته معشوقه، فحينما تتحول هذه المحبة المجازية إلى محبة حقيقية بسياط الزوال والفراق التي تنزل بالمحبوب، يلتجئ ذلك العاشق إلى «وحدة الوجود» إنقاذاً لمحبوبه العظيم من الزوال والفراق.

فإن كان ذا إيمان رفيع راسخ يكون له هذا المشرب مرتبة ذات قيمة نورانية مقبولة كما هي لدى «ابن عربي» وأمثاله، وإلّا فلربما يسقط في ورطات وينغمس في الماديات ويغرق في الأسباب.

أما «وحدة الشهود» فلا ضرر فيها، وهي مشرب عال لأهل الصحو.

اللّهم أرِنا الحقَّ حقاً وارزُقنا اتّباعَه.

﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾

اللمعة العاشرة

رسالة «لطمات الرأفة وصفعات الرحمة»

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَاللهُ رَءُوفٌۢ بِالْعِبَادِ ﴾ (آل عمران:٣٠)

هذه اللمعة تفسّر سراً من أسرار هذه الآية الكريمة، وذلك بذكر لطماتِ تأديبٍ رحيمة وصفعاتِ عتابٍ رؤوفة تلقاها إخوتي الأحبة العاملون في خدمة القرآن الكريم، وذلك من جراء أخطاء ونسيان وغفلة وقعوا فيها بمقتضى جبلّتهم البشرية.

وستُبيَّن سلسلة من كرامات يجريها الله سبحانه في خدمة قرآنه العظيم.. مع بيان نوع من كرامة الشيخ الكيلاني الذي يمدّ هذه الخدمة المقدسة بدعائه وهمته ويراقبها بإذن إلهي.

نبين هذه الكرامات لعل العاملين في سبيل القرآن يزدادون ثباتاً وإقداماً وجدّية وإخلاصاً.

نعم، إن كرامة العمل للقرآن الكريم، هذه الخدمة المقدسة، ثلاثة أنواع:

النوع الأول: تهيئة وسائل العمل والخدمة، وسَوق العاملين فيها إلى الخدمة.

النوع الثاني: رَدّ الموانع من حولها، ودفعُ الأضرار عنها، وتأديبُ من يعيق سـيرَها، بإنزال عقوبات بهم.. هناك حوادث كثيرة جداً حول هذين القسمين، ويطول الحديث عنهما[1]

(١) فمثلاً: إن الذين ساموا طلاب النور العذاب والإهانة والعنت قد نالوا جزاءهم مثلها بل أزيد منها. (المؤلف).

لـــذا نؤجـل الكلام فيهما إلى وقـــت آخر خشية الســأم. ونشـــرع في البحث عن النوع الثالث الذي هو أخفّها تناولاً وأبسطُها فهماً.

النوع الثالث: هو أن العاملين المخلصين في هذه الخدمة القرآنية، حينما يعتريهم الفتورُ والإهمال في العمل يأتيهم التحذيرُ والتنبيه فيتلقون لطمةً ذاتَ رأفة وعطف، وينتبهون من غفلتهم، ويسرعون بجد للخدمة مرةً أخرى. إنَّ حوادث هذا القسم تربو على المائة، إلّا أننا نسوق هنا ما يقرب من عشرين حادثة جرت على إخواننا، عشرة ونيفٌ منهم تلقوا لطمةَ حنان رؤوفة، بينما تلقّى حوالي سبعة منهم لطمةَ زجرٍ عنيفة.

فالأول منهم: هو هذا المسكين.. «سعيد»، فكلما انشغلتُ بما يعود على خاصة نفسي بما يفتر عملي للقرآن، أو انهمكتُ في أموري الخاصة، وقلت: ما لي وللآخرين! أتاني التحذيرُ وجاءتني اللطمة؛ لذا بتُّ على يقين من أن هذه العقوبةَ لم تنزل إلّا نتيجة إهمالي وفتوري في خدمة القرآن؛ لأنني كنت أتلقى اللطمة بخلاف المقصد الذي ساقني إلى الغفلة.. ثم بدأنا مع الاخوة المخلصين نتابع الحوادث ونلاحظ التنبيهات الربانية والصفعات التي نزلت بإخوتي الآخرين.. فأمعنا النظر فيها، وتقصّينا كلاً منها، فوجدنا أنَّ اللطمة قد أتتهم مثلي حيثما أهملوا العملَ للقرآن وتلقّوها بضدِّ ما كانوا يقصدونه، لذا حصلتْ لدينا القناعةُ التامة بأن تلك الحوادث والعقوبات إنما هي كرامة من كرامات خدمة القرآن. فمثلاً هذا السعيد الفقير إلى الله تعالى.. فعندما كنت منشغلاً بإلقاء دروسٍ في حقائق القرآن على طلابي في مدينة «وان» كانت حوادث «الشيخ سعيد»(*) تقلق بال المسؤولين في الدولة. وعلى الرغم من ارتيابهم من كل شخص، لم يمسّوني بسوء، ولم يجدوا عليَّ حجةً مادمتُ مستمراً في خدمة القرآن. ولكن ما إن قلتُ في نفسي: «ما لي وللآخرين»! وفكرتُ في نفسي فحسب، وانسحبتُ إلى جبل «أرك» لأنزوي في مغاراته الخربة، وأنجو بنفسي في الآخرة، إذا بهم يأخذوني من تلك المغارة وينفوني من ولاية شرقية إلى أخرى غربية، إلى «بوردور».

كان المسؤولون في هذه المدينة يراقبون المنفيين مراقبةً شديدة، وكان على المنفيين إثباتُ وجودِهم بحضورهم مساءَ كلِّ يوم لدى الشرطة إلّا أنني وطلابي المخلصين استُثنينا من هذا الأمر ما دمتُ قائماً بخدمة القرآن، فلم أذهب لإثبات الحضور ولم أعرف أحداً من المسؤولين

هناك. حتى إن الوالي شكا من عملنا هذا لدى «فوزي باشا»[١] عند قدومه إلى المدينة، فأوصاه: «احترموه! لا تتعرضوا له!». إن الذي أنطقه بهذا الكلام هو كرامةُ العمل القرآني ليس إلّا، إذ حينما استولت عليَّ الرغبةُ في إنقاذ نفسي وإصلاح آخرتي، وفترتُ عن العمل للقرآن -مؤقتاً- جاءتني العقوبةُ بخلاف ما كنتُ أقصده وأتوقعه، أي نُفيتُ من «بوردور» إلى منفى آخر.. إلى «إسبارطة».

توليتُ هناك العملَ للقرآن العظيم كذلك.. ولكن بعد مرور عشرين يوماً على الخدمة القرآنية كثُرت عليَّ التنبيهات من بعض المتخوفين، حيث قالوا: ربما لا يُحبذُ مسؤولو هذه البلدة عملكَ هذا! فهلّا أخذتَ الأمر بالتأني والتريث؟!.. سيطر عليَّ الاهتمامُ بخاصة نفسي وبمصيري فحسب، فأوصيتُ الأصدقاء بترك مقابلتي وانسحبتُ من ميدان العمل.. وجاء النفيُ مرة أخرى.. فنفيت إلى منفىً ثالث.. إلى «بارلا».

وكنتُ فيها كلما أصابني الفتورُ في العمل للقرآن واستولى عليَّ التفكير بخاصة نفسي وإصلاح آخرتي، كان أحدُ ثعابين أهل الدنيا يتسلط عليَّ، وأحدُ المنافقين يتعرض لي. وأنا على استعداد الآن أن أسرد على مسامعكم ثمانين حادثة من هذا النوع خلال ثماني سنوات قضيتُها في «بارلا» ولكنْ خشيةَ الملل أقتصر على ما ذكرت.

فيا إخوتي! لقد ذكرتُ لكم ما أصابتني من لطمات الرأفة وصفعات الشفقة والحنان، فإذا سمحتم بأن أسردَ ما تلقيتموه أنتم من لطمات رؤوفة أيضاً فسأذكرها، وأرجو ألّا تستاءوا، وإن كان فيكم من لا يرغب في ذكرها فلن أُصرّحَ باسمه.

المثال الثاني: هو أخي «عبد المجيد» وهو من طلابي العاملين المخلصين المضحين.. كان يملك داراً أنيقةً جميلة في «وان» وحالتُه المعاشية على ما يرام، فضلاً عن أنه كان يزاول مهنة التدريس.. فعندما استوجبتْ خدمةُ القرآن ذهابي إلى مكان بعيد عن المدينة، على الحدود، أردتُ استصحابه، إلّا أنه لم يوافق وكأنه رأى أنه من الأفضل عدمَ ذهابي أنا كذلك، حيث قد يشوبُ العملَ للقرآن شيءٌ من السياسة وقد يعرّضه للنفي، وفضّل المكوث حيث هو ولم يشترك معنا. ولكن جاءته اللطمةُ الرحمانية بما هو ضد مقصوده، وعلى غير توقع منه، إذ أُخرج من المدينة وأُبعد عن منزله الجميل وأُرغم على الذهاب إلى «أرغاني».[٢]

(١) المقصود المارشال فوزي جاقماق الذي كان رئيس أركان الجيش التركي آنذاك.
(٢) قضاء يبعد عن مدينة (وان) ٥٠٠ كم غرباً.

الثالث: وهو «خلوصي» وهو من البارزين في خدمة القرآن، فعندما سافر من قضاء «أكريدر» إلى بلدته، تيسرتْ له أسبابُ التمتع بمباهج الدنيا وسعادتها، مما دفعه إلى شيء من الفتور عن خدمة القرآن الخالصة لله. حيث التقى والديه اللذين كان قد فارقهما منذ مدة مديدة، وحَلَّ في مدينته وهو بكامل بزّته العسكرية ورتبته العالية، فبدت الدنيا له حلوةً خضرة.

نعم، إن العاملين في خدمة القرآن إما أن يُعرِضوا عن الدنيا أو الدنيا تُعرِضُ عنهم، كي ينهضوا بالعمل بجدٍ ونشاطٍ وإخلاص.. وهكذا فعلى الرغم من أن قلب «خلوصي» ثابت لا يتزعزع، وهو رابط الجأش، فقد ساقه هذا الوضعُ الجميل الذي ابتسم له، إلى الفتور.. فجاءته لطمةٌ ذات رأفة، إذ تعرّض له عددٌ من المنافقين طوال سنتين متواليتين، فسلبوه لذةَ الدنيا وأفقدوه طعمَها، حتى جعلوه يمتعض منها ويعزف عنها، والدنيا تمتعض منه وتعزف عنه، وعندها التف حولَ راية العمل القرآني واستمسك بها بجدٍ ونشاط.

الرابع: هو «الحافظ أحمد المهاجر» وسيقصُّ عليكم ما وقع له بنفسِه.

نعم، لقد أخطأتُ في اجتهادي في خدمة القرآن، حيث فكرتُ لإنقاذ آخرتي، فما أن بَدا فيّ هذا النوع من الرغبة فترتُ عن العمل للقرآن. فأتتني لطمةٌ رؤوفة، رغم ما فيها من قوة وشدة، بل كانت في الحقيقة صفعةً شديدة وزجراً عنيفاً، أرجو الله تعالى أن تكون كفارةً عما بدر مني من غفلة عن العمل لقرآنه العظيم. والحادثة كانت كالآتي:

كان الأستاذ لا يوافق على محدَثات الأمور [1] وحيث إن الجامع الذي أؤدي فيه الصلاة جماعةً يقع بجوار مسكن الأستاذ، والشهور المباركة -رجب شعبان رمضان- مقبلةٌ علينا، فقد حدثتني نفسي بالآتي:

إن لم أؤدِ الصلاة على الوجه البدعي، أُمنَع من عملي، وإن تركتُ الجامع ولم أُصلِّ فيه إماماً للجماعة، يضيع مني ثوابٌ عظيم ولاسيما في هذه الشهور الثلاثة، فضلاً عن أن أهلَ المحلة سيعتادون على ترك الجماعة.. فرغبتُ في نفسي أن لو يغادر الأستاذ -وهو أحبُّ إليَّ من روحي- القريةَ «بارلا»، يغادرها مؤقتاً إلى قرية أخرى كي أؤدي الصلاة وفق الأمور

(١) أي الإقامة للصلاة ورفع الأذان باللغة التركية وأمثالها من البدع التي استحدثت منذ العشرينيات ودامت حتى سنة ١٩٥٠.

المُحدَثة. ولكن فاتني شيءٌ هو أن لو غادر الأستاذ هذا المكان فسوف يَفتُرُ العمل للقرآن ولو مؤقتاً. فجاءتني العقوبةُ في هذه الأثناء، وكانت لطمةً قوية جداً مع ما فيها من حنانٍ ورأفة. حتى إنني لم أفق من شدتها منذ ثلاثة شهور.

فأملي عظيم في سعة رحمته تعالى أن يجعل كلَّ دقيقة من دقائق تلك المصيبة بمثابة عبادةِ يوم كامل -كما أخبرني به الأستاذ بما ألهمه الله- حيث إنّ ذلك الخطأ لم يكن قد بَدَرَ مني لدوافعَ شخصية، وإنما هو خطأٌ اجتهادي في التفكير، ولم ينجم إلّا عن تفكيري بآخرتي وحدها.

الخامس: هو «السيد حقي». وحيث إنه ليس حاضراً معنا، فسأنوب عنه كما نُبْتُ عن «خلوصي» فأقول:

كان «السيد حقي» يُوفي حقَّ مهمته في العمل للقرآن أيّما إيفاء. ولكن عندما عُيّن قائمقام سفيه للقضاء، فكَّر السيد حقي أن يُخبئ ما لديه من «رسائل» خشيةَ أن يصيبَه وأستاذه أذىً منه، فترك خدمة النور مؤقتاً، وإذا بلطمةٍ ذات رحمة وحنان تواجهه، إذ فُتحت عليه دعوى كادت تُلجئه إلى دفع ألف ليرة كي يَبرأ منها، فبات تحت وطأة التهديد طوال سنة كاملة. حتى أتانا عائداً إلى وظيفته طالباً في خدمة القرآن، فأنقذه الله من تلك الورطة ورُفع عنه الحكم، وبُرئت ساحتُه.

ثم عندما فُتح أمام الطلاب ميدانُ عمل جديد للقرآن وهو استنساخه بخط جميل وبنمط جديد، أُعطي للسيد حقي حصتَه من الاستنساخ، فأجاد القيام بما كُلّف، وكتب جزءاً كاملا من القرآن الكريم أحسن كتابة، ولكن لأنه كان يرى نفسه في حالة مضطرة من حيث ضروريات العيش، فقد لجأ إلى القيام بوكالة الدعاوى أمام المحاكم، من دون علمنا، وإذا به يتلقى لطمةً أخرى فيها الرأفة والرحمة له، إذ انثنَت إصبعُه التي كان يكتب بها القرآن الكريم. وحيث إننا لم نكن نعلم تورطَه في هذا العمل فقد كنا حائرين أمام ما نزل بإصبعه من بأسٍ، وعجزِه عن الاستمرار في كتابة القرآن.

ثم علمنا أن الخدمة المقدسة هذه لا تقبل أن تدخل تلك الأصابع الطاهرة في أمور

ملوثة،[1] فكأن الإصبع تقول بهذا الانثناء: لا يجوز لك أن تغمسني في نور القرآن الكريم ثم تغرقني في ظلمة الدعاوى. فنبهتْه..

وعلى كل حال، فقد وضعتُ نفسي موضع «خلوصي»، وتكلمت بدلاً منه، فالسيد حقي أيضاً مثلُه تماماً. فإن لم يرضَ بوكالتي عنه فليكتب بنفسه اللطمةَ التي تلقاها.

السادس: هو «السيد بكر»(*) وسأتولى مهمة الكلام عنه لعدم حضوره معنا مثلما تكلمتُ بدلاً عن أخي عبد المجيد، فهو مثلُه أيضاً، أتوكل عنه معتمداً على إخلاصه ووفائه وصداقته الصميمة وثباته في الخدمة، واستناداً إلى ما يرويه «السيد سليمان»(*) و«الحافظ توفيق الشامي»(*) وأمثالُهم من الإخوة الأحبة:

إن السيد بكر هو الذي تولّى القيام بطبع «الكلمة العاشرة» في إستانبول، فأردنا طبع «رسالة المعجزات القرآنية» أيضاً هناك قبل إحداث الحروف اللاتينية الحديثة، أرسلتُ رسالة كتبتُ له فيها: سنرسل لك ثمنَ طبع هذه الرسالة مع ثمن الرسالة السابقة. ولكنه عندما لاحظ أن الطبع يكلّف أربعمائة ليرة، وهو يعلم ما أنا فيه من فقر، أراد هو أن يدفع المبلغ من خالص مالِه وخطر ببالِه أنني لا أرضى بهذا العمل، فخدعته نفسُه فلم يباشر بالطبع، فأصاب الخدمةَ القرآنية من جراء تفكيره هذا ضررٌ بالغ.. وبعد مرور شهرين سُرِقَت منه تسعمائة ليرة، فكانت لطمةً رؤوفة وشديدة تجاه ما أصاب العمل من فتور. نسأل الله أن يجعل تلك الأموالَ الضائعة بمثابة صدقةٍ عن نفسه.

السابع: هو «الحافظ توفيق» الملقّب بالشامي، وسيورد بنفسه الحادثة:

نعم، لقد قمت بأعمال ساقتني إلى الفتور في خدمة القرآن. فأتتني لطمةٌ من جرائها، وتيقّنتُ بما لا يقبل الشك أن هذه اللطمةَ ليست إلّا من تلك الجهة، إذ كانت نتيجةَ خطأ مني في التفكير وجهلٍ مني في التقدير.

اللطمة الأولى: عندما وزّع الأستاذ أجزاء القرآن الكريم علينا، كان حظي منها كتابة ثلاثة أجزاء، حيث قد أنعم الله عليَّ قدرةً على كتابة الحروف العربية وتجويدِها كخط القرآن الكريم. فالشوق إلى كتابة كتاب الله العزيز ولَّد فيّ فتوراً عن كتابة مسوّدات الرسائل

(١) حيث الدعاوى تختلط فيها القضايا الباطلة مع الحق.

وتبييضها، فضلاً عن أنه قد أصابني منه شيءٌ من الغرور، حيث كنت أعدّ نفسي فائقاً على أقراني في هذا العمل، بما أجده في نفسي من كفاية في حسن الخط العربي. حتى إنه عندما أراد الأستاذ إرشادي إلى أمور تخص الكتابة العربية، قلت بشيءٍ من الغرور: «هذا الأمر يعود لي، أعرف هذا فلا أحتاج إلى توصية!». فتلقيت لطمةَ عطفٍ ورأفة نتيجة خطأي هذا، وهي أنني عجزت عن بلوغ أقراني في الكتابة، فسبقوني في الجودة.. فكنت أحارُ من أمري هذا، لماذا تخلّفتُ عنهم رغم تميّزي عليهم؟! ولكن الآن أدركت أن ذلك كان لطمةً رحمانية، ضربتني بها كرامةُ خدمة القرآن، حيث لا تقبل الغرور!

ثانيتها: كانت لديَّ حالتان تخلان بصفاء العمل للقرآن، تلقيتُ على أثرهما لطمةً شديدة. والحالتان هما:

كنت أعد نفسي غريباً عن البلد، بل كنت غريباً حقاً، فلأجل تبديد وحشة الغربة جالستُ أناساً مغرورين بالدنيا، فتعلمتُ منهم الرياء والتملق، علاوة على تعرضي لفقر الحال -ولا أشكو- حيث لم أراعِ دستورَ الأستاذ المهم في الاقتصاد والقناعة، رغم تنبيه الأستاذ لي على هذه الأمور وتحذيري، بل توبيخي أحياناً. فلم أستطع -مع الأسف- إنقاذ نفسي من هذه الورطة.. نسأل الله العفو والمغفرة.. فهاتان الحالتان استغلّتهما شياطينُ الجن والإنس فأصاب العملَ للقرآن الفتورُ، وتلقيت لطمة قوية، إلّا أنها كانت لطمة حنان ورأفة، فأيقنت بما لا يدع مجالا للشك أن هذه اللطمة إنما هي من ذلك الوضع. وكانت على الوجه الآتي:

على الرغم من أنني كنت موضعَ خطاب الأستاذ وكاتب مسودات رسائله وتبييضها طوال ثماني سنوات. فلم أنل مع الأسف من نورها ما كان يفيض على غيري في ثمانية شهور. فكنت أنا والأستاذ حائرين أمام هذا الوضع! ونتساءل: لماذا؟ أي لماذا لا يدخل نورُ حقائق القرآن شغاف قلبي.. بحثنا عن الأسباب كثيراً، حتى علمنا الآن علماً جازماً، أن تلك الحقائق إنما هي نورٌ وضياء، ولا يجتمع النورُ مع ظلمات الرياء والتصنع والتزلف للآخرين.. لذا ابتعدتْ معاني حقائق هذه الأنوار عني وغدت كأنها غريبةٌ عني. أسأله سبحانه وتعالى أن يرزقني الإخلاصَ الكامل اللائق للعمل، وينقذني من الرياء والتذلل لأهل الدنيا. وأرجوكم جميعاً -وفي المقدمة أرجو الأستاذ- أن تجهدوا في الدعاء لي.

العبد المقصر الحافظ توفيق الشامي

الثامن: هو «سيراني»: هذا الأخ صنو «خسرو»(*) من المشتاقين لرسائل النور، ومن طلابي الأذكياء المجدّين.

استطلعتُ ذات يوم رأي طلاب «إسبارطة» حول التوافق الذي يُعدّ مفتاحاً مهما لأسرار القرآن ولعلم الحروف. اشترك الجميعُ في المناقشة بجدّ، عدا هذا الشخص، ولم يكتف بعدم المشاركة في المناقشة بل أراد أن يصرفني عمّا أنا أعلمه من حقائق علماً يقيناً، إذ كان له اهتمامات بأمور أخرى، ثم بعث إليّ رسالة جارحة جداً، أصابتني في الصميم. فقلت: وا أسفاه! لقد ضيعتُ هذا الطالب النابه، فعلى الرغم من محاولتي توضيح الأمر له إلّا أن شيئاً آخر قد خالط الموضوع؛ فأتته اللطمةُ الرؤوفة.. ودخل السجن زهاء سنة.

التاسع: هو «الحافظ زهدي الكبير».

كان هذا الأخ يشرف على عمل طلاب النور في قصبة «أغروس» ولكن كأنه لم يكتف بالمنزلة المعنوية الرفيعة والشرف السامي الذي يتمتع به طلاب النور، لاتباعهم السُّنة الشريفة واجتنابهم البدع، فرغب في العثور على هذه المنزلة لدى أهل الدنيا فتسلّم وظيفة القيام بتعليم بدعةٍ سيئة، مرتكباً خطأً جسيماً مُنافياً لمسلكنا الذي هو اتباع السنة الشريفة. فتلقى لطمةً رهيبةً جداً. إذ تعرّض لحادثة كادت تمحو شرفَه وشرف أهله، وقد مست الحادثةُ «الحافظ زهدي الصغير» أيضاً مع الأسف بالرغم من أنه لا يستحق اللطمة. نسأل الله أن تكون تلك الحادثة المؤلمة بمثابة عمليةٍ جراحية لتصرف قلبَه عن الدنيا وتدفعه للإقبال على العمل القرآني الخالص لوجه الله، لتنفعه يوم القيامة.

العاشر: هو «الحافظ أحمد».

كان هذا الأخ يستنسخ الرسائلَ وينهل من أنوارها طوال ثلاث سنوات، وهو دؤوبٌ شغوف في عمله، ثم تعرض للاختلاط بأهل الدنيا لعلّه يدفع أذاهم عنه، ويتمكن من إبلاغ الكلام الطيب لهم وليكسب شيئاً من المنزلة لديهم، فضلاً عن أنه كان يرغب في أن يوسّعَ ما ضاق عليه من أمور الدنيا وهمومِ العيش ففتر شوقُه. واستغل أهلُ الدنيا ضعفَه بهذا الجانب فأصابه فتورٌ في عمله القرآني جرّاء تلك الأوضاع، فأتته لطمتان معاً:

أولاها: ضُمّ إلى عائلته خمسةُ أشخاص آخرين بالرغم من ضيق معيشته، فأصبح حقاً في رهق شديد من العيش.

ثانيتها: على الرغم من أنه كان مرهف الحس ولا يتحمل شيئاً من الكلام من أحد، فقد أصبح وسيلة لدسّاسين من حيث لا يعلم، حتى فقد موقعَه ومنزلته كلياً، وأصبح كثيرٌ من الناس يهجرونه، ففَقد صداقتهم بل عادوه.. وعلى كل حال؛ نسأل الله أن يغفر له، ونسأله أن يوفقه للإفاقة من غفلته ويعي الأمور ويعود إلى مهمته في خدمة القرآن.

الحادي عشر: لم يسجّل ربما لا يرضى!.

الثاني عشر: هو «المعلم غالب»(*) لقد خدم هذا الأخُ بإخلاص وصدق في تبييض الرسائل، فقام بخدمات جليلة كثيرة، ولم يبدُ منه ضعفٌ أمام أية مشكلة من المشاكل مهما كانت.

كان يحضر الدرس في أغلب الأوقات وينصت بكل اهتمام وشوق، ويستنسخ الرسائلَ لنفسه أيضاً، حتى استكتب لنفسه جميعَ «الكلمات» و«المكتوبات» لقاء أجرة قدرُها ثلاثون ليرة. كان يقصد من وراء هذا الاستنساخ نشرَ الرسائل في مدينته، وإرشاد أصدقائه، وبعد ذلك فترَ عن العمل ولم يقم بنشر الرسائل كما هو دأبُه، وذلك بسبب ما ساوره من الهواجس، فحجب نورَ هذه الرسائل عن الأنظار فأصابته على حين غرة حادثةٌ أليمة جداً، تجرّع من جرائها العذاب غصصاً مدة سنة كاملة، فوجد أمامَه عدداً غفيراً من أعداء ظالمين بدلاً من عداوة بضعة موظفين لقيامه بنشر الرسائل، ففقد أصدقاءَ أعزاء عليه.

الثالث عشر: هو «الحافظ خالد»(*) وسيذكر لكم الحادثة بنفسه:

عندما كنتُ أعمل بشوق وحماسة في كتابة مسودات «رسائل النور»، كانت هناك وظيفة شاغرة، وهي إمامةُ المسجد في محلتنا. ورغبة مني -رغبة شديدة- لألبس جُبتي العلمية القديمة وعمامتها فترتُ مؤقتاً عن العمل وضعفتْ همتي وشوقي في خدمة القرآن فانسحبتُ من ساحة العمل القرآني جهلاً مني، فإذا بي أتلقى لطمةً ذات رأفة بخلاف ما كنت أقصده. إذ رغم الوعود الكثيرة التي قطعها المفتي على نفسه بتعييني، ورغم أني كنت قد توليت هذه الوظيفة لما يقرُب من تسعة أشهر سابقاً إلّا أنني حُرمتُ من لبس الجُبة والعمامة، فأيقنتُ أن هذه اللطمة

إنما هي من ذلك التقصير في العمل للقرآن. إذ كان الأستاذ يخاطبني بالذات في الدرس فضلاً عن قيامي بكتابة المسودة، فانسحابي من العمل، ولاسيما من كتابة المسودة، أوقعَهم في حرجٍ وضيق.. وعلى كل حال فالشكر لله وحده الذي جعلنا نفهم فداحةَ تقصيرنا ونعلم مدى سمو هذه الخدمة، ونثق بأستاذٍ مرشد كالشيخ الكيلاني ظهيراً لنا كالملائكة الحفظة.

أضعف العباد الحافظ خالد

الرابع عشر: لطماتُ حنان ثلاثٍ صغيرة، أصابت ثلاثة أشخاص كل منهم يسمى «مصطفى».

أولهم: «مصطفى جاويش»(*) كان هذا الأخ يتولى خدمة الجامع الصغير، وتزويدَ مدفأته بالنفط، بل حتى علبة الكبريت كان يوفرها للجامع، فخدم طوال ثماني سنوات، ويدفع كلَّ ما تحتاجه هذه الأمور من خالص مالِه -كما علمنا بعدئذٍ- ولم يكن يتخلفُ عن الجماعة أبداً، ولاسيما في ليالي الجُمع المباركة إلّا إذا اضطر إلى ذلك بعمل ضروري جداً. أخبره أحدَ الأيام بعضُ أهل الدنيا مستغلين صفاءَ قلبه: بلّغ الحافظ فلاناً -وهو من كتّاب رسائل النور- لينزعْ عمامَته قبل أن يتأذى ويُجبر على نزعها، وبلّغ الجماعة أن يتركوا الأذان سراً.[1] ولم يعلم هذا الدنيوي الغافل أن تبليغَ هذا الكلام ثقيلٌ جداً على شخص مثل مصطفى جاويش من ذوي الأرواح العالية. ولكن لصفاء سريرته بلَّغ صاحبَه الخبرَ، فرأيت تلك الليلة في المنام أن يدي مصطفى جاويش ملطختان وهو يسير خلف القائمقام ويدخلان معاً غرفتي..! قلتُ له في اليوم التالي لذلك اليوم: أخي مصطفى! مَن قابلت اليوم؟ لقد رأيتُك في المنام وأنت مُلطخُ اليدين سائراً خلف القائمقام. قال: وا أسفاه، لقد أبلغني المختار كلاماً وأنا بلّغتُه الحافظَ الكاتب، ولم أعلم ما وراءه من كيد.

ثم حدث في اليوم نفسه أن جاء بكمية من النفط للمسجد. وعلى غير المعتاد فقد ظَلَّ بابَ المسجد مفتوحاً فدخل عناق (صغير العنز) إلى حرم المسجد فلوث قريباً من سجادتي، وجاء أحدُهم فأراد تنظيف المكان فلم يجد غير إناء النفط، وحسبه ماءً فرشّ ما في الإناء إلى أطراف المسجد والعجيب أنه لم يشم رائحته. فكأن المسجد يقول بلسان حاله لـ«مصطفى

---

(١) حيث كانوا يرفعون الأذان الشرعي سراً والأذان البدعي أي بالتركية علناً.

جاويش»: «لا حاجة لنا إلى نفطك بعد الآن، لقد ارتكبتَ خطأً جسيماً». وإشارة لهذا الكلام المعنوي لم يشعر ذلك الشخص برائحة النفط بل لم يتمكن مصطفى من الاشتراك في صلاة الجماعة في ذلك اليوم وليلة الجمعة المباركة بالرغم من محاولاته. ثم ندم ندماً خالصاً لله، واستغفرَ الله كثيراً، فرجع إليه صفاءُ قلبه وخلوصُ عبادته والحمد لله.

الشخصان الآخران المسمى كل منهما بـ«مصطفى». أولهما: مصطفى من قرية «قوله أونلي» وهو من الطلاب المجدّين، والآخر صديقُه الوفي هو «الحافظ مصطفى»؛ كنت قد بلّغتُ طلابي بأن لا يأتوا حالياً لزيارتي عقب العيد لئلا يفترَ العملُ للقرآن من جراء مراقبة أهل الدنيا ومضايقاتهم. واستثنيت من ذلك من كان يأتي فرداً فلا بأس به، وإذا بي أُفاجأ بثلاثة أشخاص معاً يأتون لزيارتي ليلاً، ويزمعون السفر قبل الفجر -إذا سمحت أحوالُ الجو بالسفر- فلم نتّخذ تدابيرَ الحذر، لا أنا ولا سليمان ولا مصطفى جاويش، بل نسيناها حيث ألقى كلٌّ منا اتخاذَها على عاتق الآخر. وعلى كل حال غادرونا قبل الفجر، فجاءتهم اللطمةُ بعاصفةٍ شديدة لم نكن قد رأينا مثلَها في هذا الشتاء. استمرت ساعتين متواليتين فقلقنا عليهم كثيراً، وقلنا لن ينجوا منها، وتألّمتُ عليهم ألماً ما تألمت على أحد مثلهم. ثم أردت أن أبعث سليمان -لعدم أخذه بالحذر- ليتلقى أخبارَهم ويبلّغنا عن سلامة وصولهم. ولكن مصطفى جاويش قال: إذا ذهب سليمان فسيبقى هناك أيضاً، ولا يتمكن من العودة، وسأتبعه أنا أيضاً، وسيتبعني عبد الله جاويش وهكذا.. ولهذا وكّلنا الأمر إلى العلي القدير قائلين جميعاً: توكلنا على الله. وفوضنا الأمر إليه.

سؤال: إنك تعدّ المصائب التي تصيب إخوانَك الخواص وأصدقاءك تأديباً ربانياً ولطمةَ عتاب لفتورهم عن خدمة القرآن، بينما الذين يعادون خدمةَ القرآن ويعادونكم يعيشون في بحبوحة من العيش وفي سلام وأمان. فلِمَ يتعرض صديقُ القرآن للّطمة ولا يتعرض عدوه لشيء؟

الجواب: يقول المثل الحكيم: «الظلم لا يدوم والكفر يدوم» فأخطاءُ العاملين في صفوف خدمة القرآن هي من قبيل الظلم تجاه الخدمة، لذا يتعرضون بسرعة للعقاب ويُجازون بالتأديب الرباني، فإن كانوا واعين يرجعون إلى صوابهم.

أما العدو فإن صدودَه عن القرآن وعداءه لخدمته إنما هو لأجل الضلالة، وإن تجاوزه على خدمة القرآن -سواء شعَر به أم لم يشعر- إنما هو من قبيل الكفر والزندقة، وحيث إن الكفرَ يدوم، فلا يتلقى معظمُهم الصفعات بذات السرعة، إذ كما يعاقَب من يرتكب أخطاءً طفيفة في القضاء أو الناحية، بينما يُساق مرتكبو الجرائم الكبيرة إلى محاكم الجزاء الكبرى، كذلك الأخطاءُ الصغيرة والهفوات التي يرتكبها أهلُ الإيمان وأصدقاء القرآن يتلقون على إثرها جزاءاً من العقاب بسرعة في الدنيا ليكفّر عن سيئاتهم ويتطهّروا منها، أما جرائمُ أهل الضلالة فهي كبيرة وجسيمة إلى حد لا تسعُ هذه الحياةُ الدنيا القصيرة عقابَهم، فيمهّلون إلى عالم البقاء والخلود وإلى المحكمة الكبرى لتقتصَّ منهم العدالةُ الإلهية القصاص العادل، لذا لا يلقون غالباً عقابهم في هذه الدنيا.

وفي الحديث الشريف: (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر)[١] إشارة إلى هذه الحقيقة التي ذكرناها، أي أن المؤمن ينال نتيجةَ تقصيراته قسماً من جزائه في الدنيا، فتكون بحقه كأنها مكانُ جزاء وعقاب، فضلا عن أن الدنيا بالنسبة لما أعدّه الله له من نعيم الآخرة سجن وعذاب. أما الكفار فلأنهم مخلَّدون في النار، ينالون قسماً من ثواب حسناتهم في الدنيا، وتُمهَل سيئاتُهم العظيمة إلى الآخرة الخالدة، فتكون الدنيا بالنسبة لهم دارَ نعيم لما يلاقونه من عذاب الآخرة. وإلّا فالمؤمنُ يجد من النعيم المعنوي في هذه الدنيا ما لا يناله أسعدُ إنسان. فهو أسعدُ بكثير من الكافر من زاوية نظر الحقيقة. وكأن إيمان المؤمن بمثابة جنة معنوية في روحه وكفرَ الكافر يستعر جحيماً في ماهيته.

(١) مسلم، الزهد ١؛ الترمذي، الزهد ١٦؛ ابن ماجه، الزهد ٣؛ أحمد بن حنبل، المسند ٢/ ١٩٧، ٣٢٣، ٣٨٩، ٤٨٥.

اللمعة الحادية عشرة

(مرقاة السنة وترياق مرض البدعة)

المقام الأول لهذه الآية عبارة عن «منهاج السنة» والمقام الثاني هو «مرقاة السنة».

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (التوبة: ١٢٨-١٢٩)

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (آل عمران: ٣١).

سنبين «إحدى عشرة» نكتة دقيقة، بياناً مجملاً، من بين مئات المسائل الدقيقة التي تتضمنها هاتان الآيتان العظيمتان.

النكتة الأولى

قال الرسول ﷺ: (من تمسك بسنتي عند فساد أمتي فله أجر مائة شهيد).[١] أجل، إنَّ اتباعَ السنة المطهرة لهو حتماً ذو قيمة عالية، ولاسيما إتباعها عند استيلاء البدع وغلبتها، فإن له قيمةً أعلى وأسمى، وبالأخص عند فساد الأمة، إذ تُشعر مراعاة أبسط الآداب النبوية بتقوى عظيمة وإيمان قوي راسخ؛ ذلك لأن الاتّباعَ المباشر للسنة المطهرة يذكّر بالرسول الأعظم ﷺ، فهذا التذكر الناشئ من ذلك الإتباع ينقلب إلى استحضار الرقابة الإلهية، بل تتحول في الدقائق التي تُراعى فيها السنةُ الشريفة أبسطُ المعاملات العرفية والتصرفات الفطرية -كآداب الأكل والشرب والنوم وغيرها- إلى عمل شرعي وعبادة مُثابٌ عليها؛ لأن الإنسان يلاحظ بذلك العمل المعتاد اتباع الرسول ﷺ، فيتصور أنه يقوم بأدب من آداب الشريعة، ويتذكر أنه ﷺ صاحبُ الشريعة، ومن ثم يتوجه قلبُه إلى الشارع الحقيقي وهو الله سبحانه وتعالى، فيغنم سكينةً واطمئناناً ونوعاً من العبادة.

وهكذا، في ضوء ما تقدم فإن من يجعل اتباع السنةِ السَّنية عادتَه، فقد حوّل عاداتِه إلى عبادات، ويمكنه أن يجعل عمرَه كلَّه مثمراً، ومُثاباً عليه.

النكتة الثانية

لقد قال الإمام الرباني أحمد الفاروقي(*) رحمه الله: «بينما كنت أقطع المراتب في السير والسلوك الروحاني، رأيت أن أسطع ما في طبقات الأولياء، وأرقاهم وألطفَهم وآمنَهم وأسلمَهم هم أولئك الذين اتخذوا اتباع السنة الشريفة أساسا للطريقة، حتى كان الأولياءُ العوام لتلك الطبقة يظهرون أكثر بهاءاً واحتشاماً من الأولياء الخواص لسائر الطبقات».

نعم إنَّ الإمام الرباني مجددَ الألف الثاني ينطق بالحق، فالذي يتمسك بالسنة الشريفة ويتخذها أساساً له، لهو أهلٌ لمقام المحبوبية في ظل حبيب الله ﷺ.

(١) الطبراني، المعجم الأوسط ٥/ ٣١٥؛ ابن عدي، الكامل ٢/ ٣٢٧؛ البيهقي، الزهد ص ١١٨؛ أبو نعيم، حلية الأولياء ٨/ ٢٠٠؛ المنذري، الترغيب والترهيب ١/ ٤١؛ المناوي، فيض القدير ٦/ ٢٦١.

النكتة الثالثة

عندما كان يسعى هذا السعيدُ الفقير إلى الله، للخروج من حالة «سعيد القديم» ارتجَّ عقلي وقلبي وتدحرجا ضمن الحقائق إزاء إعصار معنوي رهيب، فقد شعرتُ كأنهما يتدحرجان هبوطاً تارة من الثريا إلى الثرى وتارة صعداً من الثرى إلى الثريا، وذلك لانعدام المرشد، ولغرور النفس الأمارة.

فشاهدتُ حينئذ أن مسائل السنة النبوية الشريفة بل حتى أبسطَ آدابها، كل منها في حكم مؤشر البوصلة الذي يبين اتجاهَ الحركة في السفن. وكلٌّ منها في حكم مفتاح مصباح يضيء ما لا يُحصر من الطرق المظلمة المضرة.

وبينما كنت أرى نفسي في تلك السياحة الروحية أرزحُ تحت ضغط مضايقاتٍ كثيرة وتحت أعباءِ أثقالٍ هائلة، إذا بي أشعر بخفة كلما تتبعتُ مسائلَ السنة الشريفة المتعلقة بتلك الحالات، وكأنها كانت تحمل عني جميعَ الأثقال وترفع عن كاهلي تلك الأعباء. فكنت أنجو باستسلام تام للسنة من هموم التردد والوساوس مثل: «هل في هذا العمل مصلحة؟ تُرى هل هو حق؟». وكنت أرى متى ما كففتُ يدي عن السنة تشتد موجاتُ المضايقات وتكثر، والطرقُ المجهولة تتوعّر وتغمض، والأحمالُ تثقل.. وأنا عاجزٌ في غايةِ العجز ونظري قصير، والطريقُ مظلمةٌ. بينما كنت أشعر متى ما اعتصمتُ بالسنة، وتمسكتُ بها، تتنور الطريقُ من أمامي، وتظهر كأنها طريقٌ آمنة سالمة والأثقالُ تخف والعقبات تزول.

نعم، هكذا أحسست في تلك الفترة فصدّقتُ حُكمَ الإمام الرباني بالمشاهدة.

النكتة الرابعة

غمرتني -في فترة ما- حالةٌ روحية نبعت من التأمل في «رابطة الموت» ومن الإيمان بقضية «الموت حق»، ومن طول التفكر بزوال العالم وفنائه. فرأيت نفسي في عالَم عجيب، إذ نظرتُ فإذا أنا جنازةٌ واقفة على رأس ثلاثِ جنائزَ مهمة وعظيمة:

الأولى: الجنازةُ المعنوية لمجموع الأحياء التي لها ارتباطٌ بحياتي الشخصية، والتي ماتتْ ومضت ودفنت في قبر الماضي.. وما أنا إلّا كشاهدِ قبرِها موضوعٌ على جثتها.

الثانية: جنازةٌ عظيمة تطوي مجموع أنواع الأحياء المتعلقة بحياة البشرية قاطبة، والتي ماتت ودُفنت في قبر الماضي الذي يسع الكرة الأرضية.. وما أنا إلّا نقطة تمحى عاجلاً ونملة صغيرة تموت سريعاً على وجه هذا العصر الذي هو شاهد قبر تلك الجنازة.

الثالثة: الجنازةُ الضخمة التي تطوي هذا الكون عند قيام الساعة، وحيث إن موته عندئذ أمر محقَّق لا مناص منه، فقد أصبح في نظري في حكم الواقع الآن، فأخذت الحيرةُ جوانب نفسي، وبُهتُّ من هول سَكرات تلك الجنازة المهولة، وبدت وفاتي - التي هي الأخرى آتيةٌ لا محال- كأنها تحدث الآن، فأدارت جميعُ الموجودات وجميعُ المحبوبات ظهرها لي ومضت، وتركتني وحيداً فريداً، مثلما جاءت في الآية الكريمة: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ...﴾ . وأحسست كأن روحي تُساق إلى المستقبل الممتد نحو الأبد الذي اتخذ صورةَ بحر عظيم لا ساحل له.. وكان لابد من إلقاء النفس في خضمّ ذلك البحر العظيم طوعاً أو كرهاً.

وبينما أنا في هذا الذهول الروحي، والحزن الشديد يعصِر قلبي، إذا بمَدد يأتيني من القرآن الكريم والإيمان. فمدّتني الآية الكريمة: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ حتى غدت هذه الآيةُ بمثابة سفينة أمان في مُنتهى السلام والاطمئنان. فدخلت الروحُ آمنةً مطمئنة في حمى هذه الآية الكريمة.. وفهمتُ في حينها أن هناك معنىً غير المعنى الصريح لهذه الآية الكريمة، وهو المعنى الإشاري. فلقد وجدتُ فيه سلواناً لروحي، حيث وهب لي الاطمئنان والسكينة.

نعم، إن المعنى الصريح للآية الكريمة يقول للرسول الكريم ﷺ: «إذا تولى أهل الضلالة عن سماع القرآن، وأعرضوا عن شريعتك وسنتك، فلا تحزن ولا تغتم، وقل حسبي الله، فهو وحدَه كافٍ لي، وأنا أتوكل عليه؛ إذ هو الكفيل بأن يقيّضَ مَن يتبعني بدلاً منكم، فعرشُه العظيم يحيط بكل شيء، فلا العاصون يمكنهم أن يهربوا منه، ولا المستعينون به يظلون بغير مَددٍ وعونٍ منه».

فكما أن المعنى الصريح لهذه الآية الكريمة يقول بهذا، فالمعنى الإشاري للآية الكريمة يقول: «أيها الإنسان، ويا من يتولى قيادةَ الإنسان وإرشادَه؛ لئن ودّعتك الموجوداتُ كلُّها وانعدمت ومضتْ في طريق الفناء.. وإن فارقَتك الأحياءُ وجرت إلى طريق الموت.. وإن

تركك الناسُ وسكنوا المقابر.. وإن أعرض أهلُ الغفلة والضلالة ولم يصغوا إليك وتردَّوا في الظلمات.. فلا تُبال بهم، ولا تَغتم، وقل: حسبي الله، فهو الكافي، فإذ هو موجودٌ فكل شيء موجود.. وعلى هذا، فإن أولئك الراحلين لم يذهبوا إلى العدم، وإنما ينطلقون إلى مملكة أخرى لرب العرش العظيم، وسيرسل بدلاً منهم ما لا يعد ولا يحصى من جنوده المجندين.. وإن أولئك الذين سكنوا المقابر لم يفنَوا أبداً، وإنما يتنقلون إلى عالم آخر، وسيبعثُ بدلاً منهم موظفين آخرين يعمرون الدنيا، ويشغلون ما خلا من وظائفها.. وهو القادر على أن يُرسل من يُطيعه ويسلك الطريق المستقيم بدلاً ممن وقعوا في الضلالة من الذاهبين..

فما دام الأمر هكذا، فهو الكفيلُ، وهو الوكيل، وهو البديل عن كل شيء، ولن تعوّض جميعُ الأشياء عنه، ولن تكون بديلاً عن توجّه واحد من توجهات لطفه ورحمته لعباده..

وهكذا انقلبت صورُ الجنازات الثلاث التي راعتني بهذا المعنى الإشاري إلى شكل آخر من أشكال الأُنس والجمال وهو: أنَّ الكائنات تتهادى جيئةً وذهاباً في مسيرة كبرى، إنهاءً لخدمات مستمرة، وإشغالاً لواجبات مجدَّدة دائمة، عبر رحلة ذات حكمة، وجولة ذات عبرة، وسياحة ذات مهام، في ظِل إدارة الحكيم الرحيم العادل القدير ذي الجلال، وضمن ربوبيته الجليلة وحكمته البالغة ورحمته الواسعة.

النكتة الخامسة

قال تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ ﴾ (آل عمران: ٣١) تعلن هذه الآية العظيمة إعلاناً قاطعاً عن مدى أهمية اتباع السنة النبوية ومدى ضرورتها.

نعم، إن هذه الآية الكريمة أقوى قياسٍ وأثبتُه من قسم القياس الاستثنائي، ضمن المقاييس المنطقية، إذ يرد فيه على وجه المثال: «إذا طلعت الشمسُ فسيكون النهار». ويرد مثالاً للنتيجة الإيجابية: «طلعت الشمس فالنهار إذن موجود». ويرد مثالاً للنتيجة السلبية: «لا نهار فالشمس إذن لم تطلع». فهاتان النتيجتان -الإيجابية والسلبية- ثابتتان وقاطعتان في المنطق.

وكذلك الأمر في الآية الكريمة، فتقول: إنْ كان لديكم محبةُ الله، فلابد من الاتباع لـ«حبيب الله». وإن لم يكن هناك اتباع، فليس لديكم إذن محبةُ الله. إذ لو كانت هناك محبةٌ حقاً فإنها تولد حتماً اتباع السنة الشريفة لـ«حبيب الله».

أجل، إن من يؤمن بالله يُطعه. ولا ريب أن أقصرَ طريق إليه وأكثرَها قبولاً لديه، وأقومها استقامةً -ضمن طرق الطاعة المؤدية إليه- لهي الطريق التي سلكها وبينها حبيبُ الله ﷺ.

نعم، إن الكريم ذا الجمال الذي ملأ هذا الكون بنعَمه وآلائه إلى هذا المدى، بديهي -بل ضروري- أن يطلب الشكر من ذوي المشاعر تجاه تلك النِعم.

وإن الحكيم ذا الجلال الذي زيّن هذا الكونَ بمعجزات صنعته إلى هذا الحد، سيجعل بالبداهة من هو المختارُ الممتاز من أرباب الشعور مخاطَبا له، وترجمانا لأوامره، ومبلّغاً لعباده، وإماماً لهم.

وإن الجميل ذا الكمال الذي جعل هذا الكون مُظهراً بما لا يعد ولا يحصى لتجليات جماله وكماله سَيهبُ بالبداهة لمن هو أجمعُ نموذج لبدائع صنعته، وأكملُ مَن يُظهر ما يحبُّه ويريد إظهاره من جمالٍ وكمال وأسماء حسنى.. سَيهبُ له أكملَ حالة للعبودية جاعلاً منه أسوة حسنة للآخرين ويحثهم لاتباعه، ليُظهرَ عندهم ما يماثل تلك الحالة اللطيفة الجميلة.

الخلاصة: أن محبة الله تستلزم اتباعَ السنة المطهرة وتنتجُه. فطوبى لمن كان حظُّه وافراً من ذلك الإتباع. وويل لمن لا يقدر السنة الشريفة حق قدرها فيخوض في البدع.

النكتة السادسة

قال الرسول ﷺ: **(كُل بِدعة ضلالة وكل ضلالة في النار)**،[1] أي بعد أن كملتْ قواعدُ الشريعة الغراء ودساتيرُ السنة المطهرة، وأخذت تمامَ كمالها، بدلالة الآية الكريمة ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ ﴾ (المائدة: ٣) فإن عدم استحسان تلك الدساتير بِمُحدَثات الأمور، أو إيجاد البدع التي تشعر كأن تلك القواعد ناقصة -حاش لله- ضلالٌ ليس له مستقر إلّا النار.

إن للسنة المطهرة مراتب:

قسمٌ منها «واجب» لا يمكن تركُه، وهو مبينٌ في الشريعة الغراء مفصلاً، وهو من المُحكمات أي لا يمكن بأية جهة كانت أن تتبدل.

(١) مسلم، الجمعة ٤٣؛ أبو داوود، السنة ٥؛ النسائي، العيدين ٢٢؛ ابن ماجه، المقدمة ٦، ٧؛ الدارمي، المقدمة ١٦، ٢٣؛ المسند ٣/ ٣١٠، ٣٧١، ٤/ ١٢٦، ١٢٧.

وقسم منها هو من قبيل «النوافل»، وهذا بدوره قسمان:

قسم منه هو السنن التي تخص العبادات، وهي مبيّنةٌ أيضاً في كتب الشريعة. وتغييرُ هذه السنن بدعةٌ.

أما القسم الآخر فهو الذي يُطلق عليه «الآداب» وهي المذكورة في كتب السير الشريفة، ومخالفتُها لا تسمى بدعةً، إلّا أنها من نوع مخالفة الآداب النبوية، وعدم الاستفاضة من نورها، وعدم التأدب بالأدب الحقيقي. فهذا القسم هو اتباعُ أفعالِ الرسول ﷺ المعلومة بالتواتر في العُرف والعادات والمعاملات الفطرية، ككثيرٍ من السنن التي تبين قواعدَ أدب المخاطبة وتظهر حالات الأكل والشرب والنوم أو التي تتعلق بالمعاشرة. فمَنْ يتحرَّ أمثالَ هذه السنن التي تطلق عليها «الآداب» ويتبعها فإنه يحول عاداته إلى عبادات، ويستفيض من نور ذلك الأدب النبوي، لأن مراعاةَ أبسطِ الآداب وأصغرِها تذكّر بالرسول الأعظم ﷺ مما يسكب النورَ في القلب.

إنَّ أهم ما في السنة المطهرة هي تلك السنن التي هي من نوع علاماتِ الإسلام والمتعلقة بالشعائر، إذ الشعائر هي عبادةٌ من نوع الحقوق العامة التي تخصُّ المجتمع؛ فكما أن قيام فرد بها يؤدي إلى استفادة المجتمع كله، فإن تركها يجعل الجماعةَ كلها مسؤولة. فمثل هذه الشعائر يُعلن عنها وهي أرفعُ من أن تنالها أيدي الرياء وأهم من الفرائضِ الشخصية ولو كانت من نوع النوافل.

النكتة السابعة

إنَّ السنة النبوية المطهرة في حقيقة أمرها لهي أدبٌ عظيم، فليس فيها مسألة إلّا وتنطوي على أدب ونور عظيم. وصدق رسول الله ﷺ حين قال: (**أدّبني ربي فأحسن تأديبي**).[1] نعم، فمن يمعن النظر في السيرة النبوية ويحط علماً بالسنة المطهرة، يدرك يقيناً أنَّ الله سبحانه وتعالى قد جمع أصولَ الآداب وقواعدها في حبيبهﷺ. فالذي يهجر سُنته المطهرة ويجافيها فقد هجر منابعَ الأدب وأصوله، فيحرم نفسه من خير عظيم، ويظل محروماً من لطف الرب الكريم، ويقع في سوء أدب وبيل. ويكون مصداق القاعدة:

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القران ١٨/ ٢٢٨؛ السلمي، أداب الصحبة ص ١٢٤؛ ابن الجوزي، صفة الصفوة ١/ ٢٠١؛ المناوي، الفيض القدير ١/ ٢٢٥؛ العجلوني، كشف الخفاء ١/ ٢٧.

بِي أَدَبْ مَحْرُومْ بَاشَدْ أَزْ لُطْفِ رَبْ. [١]

سؤال: كيف نتأدب مع علّام الغيوب، البصير العليم، الذي لا يخفى عليه شيء، حيث إن هناك حالاتٍ تدعو الإنسان إلى الخجل، ولا يمكن إخفاؤها عنه سبحانه، ولا التستر منه، بينما سترُ مثل هذه الحالات المستكرهة أحدُ أنواع الأدب؟.

الجواب: أولا: كما أن الصانع ذا الجلال يظهر صنعته إظهاراً جميلاً في نظر مخلوقاته، ويأخذ الأمور المستكرَهة تحت أستار وحُجب، ويزيّن نِعَمه ويجمّلها حتى لتشتاقها الأبصار. كذلك يطلب سبحانه من مخلوقاته وعباده أن يَظهروا أمام ذوي الشعور بأجمل صورهم وأكثرها حُسناً؛ إذ إن ظهورَهم للمخلوقات في حالات مزرية قبيحة، وأوضاع مستهجنة، يكون منافياً للأدب الجميل، ونوعاً من العصيان تجاه قدسية أسمائه أمثال: «الجميل، المزيّن، اللطيف، الحكيم». وهكذا فالأدب الذي في السنة النبوية الطاهرة إنما هو تأدب بالأدب المحض الذي هو ضمن الأسماء الحسنى للصانع الجليل.

ثانياً: إنَّ الطبيب له أن ينظر إلى أشد الأماكن حُرمةً لمن يُحرم عليه، من زاوية نظر الطب والعلاج. بل يكشف له –في حالات الضرورة– تلك الأماكن ولا يُعد ذلك خلافاً للأدب، وإنما يعتبر ذلك من مُقتضيات الطب. إلّا أن ذلك الطبيب نفسه لا يجوز له أن ينظر إلى تلك الأماكن المحرمة من حيث كونه رجلاً أو واعظاً أو عالماً، فلا يسمح الأدبُ قطعاً بإظهارها له بتلك العناوين والصفات. بل يُعدّ ذلك انعداماً للحياء.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ فإن للصانع الجليل أسماء حسنى كثيرة، ولكل اسم تجليه، فمثلا:

كما يقتضي اسمُ «الغفار» وجودَ الذنوب، واسمُ «الستار» وجود التقصيرات، فإن اسم «الجميل» لا يرضى برؤية القبح. وأن الأسماء الجمالية والكمالية، أمثال: «اللطيف، الكريم، الحكيم، الرحيم»، تقتضى أن تكون الموجوداتُ في أحسن الصور، وفي أفضل الأوضاع الممكنة. فتلك الأسماء الجمالية والكمالية تقتضى إظهار جمالها؛ بالأوضاع الجميلة للموجودات وتأدّبها بالآداب الحسنة، أمام أنظار الملائكة والعالم الروحاني والجن والإنس.

وهكذا فالآداب التي تتضمنها السنةُ المطهرة إشارةٌ إلى هذه الآداب السامية، ولفتةٌ إلى دساتيرها ونماذجها.

(١) أز خدا جوييم توفيق أدب بي أدب محروم ماند أز لطف رب– مثنوي رومي ج١ ص٣ طبعة بومبي.

النكتة الثامنة

تبين الآية الكريمة ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ..﴾ كمالَ شفقة الرسول الكريم ﷺ ومنتهى رأفته نحو أمته. أما التي تعقبها ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ..﴾ فهي تقول:

«أيها الناس! أيها المسلمون! اعلموا كم هو انعدامٌ للوجدان وفقدان للعقل إعراضُكم عن سنن هذا النبي الرؤوف الرحيم، وعما بَلَّغ من أحكام، لحد إنكاركم شفقتَه البديهية، واتهام رأفته المشاهَدة، وهو الذي أرشدكم برأفته الواسعة وبذل كل ما أوتى لأجل مصالحكم، مداوياً جراحاتكم المعنوية ببلسم سننه الطاهرة والأحكام التي أتى بها.

وأنت أيها الرسول الحبيب الرؤوف الرحيم، إن لم يعرف هؤلاء شفقتَك العظيمة هذه، لبلاهتهم، ولم يقدروا رأفتك الواسعة هذه، فأداروا لك ظهورَهم، ولم يعيروا لك سمعاً.. فلا تُبالِ ولا تهتم فإن رب العرش العظيم الذي له جنود السماوات والأرض والذي تهيمن ربوبيتُه من على العرش الأعظم المحيط بكل شيء، لهو كافٍ لك.. وسيجمع حولك المطيعين حقاً، ويجعلهم يصغون إليك ويرضون بأحكامك».

نعم، إنه ليست في الشريعة المحمدية والسنة الأحمدية مسألة إلّا وفيها حِكَمٌ عديدة، فأنا هذا الفقير إلى الله أدَّعي بهذا، رغم كل عجزي وقصوري. وأنا على استعداد لإثبات هذه الدعوى. فما كتبتُه لحد الآن من أكثر من سبعين رسالة من «رسائل النور» إنما هو بمثابة سبعين شاهداً صادقاً على مدى الحكمة والحقيقة التي تنطوي عليها السنة الأحمدية والشريعة المحمدية، فلو قُدر وكتب هذا الموضوع فلا يكفي سبعون رسالة ولا سبعة آلاف رسالة لإيفاء تلك الحِكم حقها.

ثم إني قد شاهدت شخصياً، وتذوقتُه بنفسي، بل لي ألف تجربة وتجربة: أن دساتير المسائل الشرعية والسنة النبوية أفضلُ دواء وأنفعُه للأمراض الروحية والعقلية والقلبية، ولاسيما الاجتماعية منها. فأنا أعلن بمشاهدتي وإحساسي هذا، وقد أشعرت الآخرين بشيء منها في الرسائل بأنه: لا يمكن أن تسد مسدّ تلك المسائل أية حلول فلسفية ولا أية مسألة حكيمة. فالذين يرتابون في ادعائي هذا عليهم مراجعة أجزاء «رسائل النور».

فليقدر إذن مدى الربح العظيم في السعي لاتباع سُنة هذه الذات المباركة والجدّ في طلبها على قدر الاستطاعة، ومدى السعادة للحياة الأبدية ومدى النفع في الحياة الدنيا.

النكتة التاسعة

قد لا يتيسرُ اتباعُ كلِّ نوع من أنواع السنة الشريفة اتباعاً فعلياً كاملاً إلّا لأخص الخواص، ولكن يمكن لكل واحد الاتباع عن طريق النية والقصد والرغبة في الالتزام والقبول. ومن المعلوم أنه ينبغي الالتزام بأقسام الفرض والواجب. أما السنن المستحبَّة في العبادة فتركُها وإهمالُها وإن لم يكن فيه إثم إلّا أنه ضياع لثواب عظيم، وفي تغييرها خطأ كبير. أما السنن النبوية في العادات والمعاملات فإنها تصيّر العادةَ عبادةً رغم أن تاركها لا يُلام، إلّا أن استفادته تقل وتتضاءل من نور الآداب الحياتية لحبيب الله ﷺ.

أما البدع فهي: إحداثُ أمور في الأحكام العبادية، وهي مردودةٌ حيث إنها تنافي الآية الكريمة: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ ...﴾ غير أن تلك الأمور المستحدَثة إن كانت من قبيل الأوراد والأذكار والمشارب -كالتي في الطرق الصوفية- فهي ليست ببدعة ما دامت أصولُها مستقاةً من الكتاب والسنة. إذ إن تلك الأصولَ والأسسَ المقررة رغم أنها بأشكال مختلفة وأنماط متباينة إلّا أنها مشروطةٌ بعدم مخالفتها للسنة النبوية وبعدم تغييرها لها. وعلى الرغم من ذلك فقد أدخل قسمٌ من أهل العلم بعضاً من هذه الأمور ضمن البدع، إلّا أنهم أطلقوا عليها «البدعة الحسنة». ولكن الإمام الرباني يقول: «كنت أرى في سيري عبر السلوك الروحاني أن الكلمات المروية عن الرسول الأعظم ﷺ منوَّرةٌ متألقة بشعاع السنة المطهرة، في حين كنت أرى الأوراد العظيمة والحالات الباهرة غير المروية عنه ليس عليها ذلك النور والتألق. فما كان يبلغ أسطع ما في هذا القسم -الأخير- إلى أقل القليل لما في السنة.. ففهمت من هذا: أن شعاع السنة المطهرة لهو الإكسيرُ النافذ، فالسنة المطهرة كافية ووافية لمن يبتغي النور، فلا داعي للبحث عن نور في خارجها...»

فهذا الحكم الصادر من هذا الرائد البطل من أبطال الحقيقة والشريعة ليظهر لنا أن السنة السنية هي الحجر الأساس لسعادة الدارين ومنبع الكمال والخير.

اللّهم ارزقنا إتباع السنة السنية.

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ (آل عمران: ٥٣)

النكتة العاشرة

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ .

في هذه الآية الكريمة إيجاز معجز، حيث إن معانيَ كثيرة قد اندرجت في هذه الجمل الثلاث:

تقول الآية الكريمة: «إن كنتم تؤمنون بالله، فإنكم تحبونه، فما دمتم تحبونه فستعملون وفق ما يحبه، وما ذاك إلّا تشبهكم بمن يحبه.. وتشبهكم بمحبوبه ليس إلّا في اتباعه، فمتى ما اتبعتموه يحبكم الله، ومن المعلوم أنكم تحبون الله كي يحبكم الله».

وهكذا فهذه الجمل ما هي إلّا بعض المعاني المختصرة المجملة للآية، لذا يصح القول: إن أسمى مقصد للإنسان وأعلاه هو أن يكون أهلا لمحبة الله.. فنصُّ هذه الآية يبيّن لنا أن طريق ذلك المقصد الأسنى إنما هو في اتباع «حبيب الله» والاقتداء بسنته المطهرة. فإذا ما أثبتنا في هذا المقام ثلاث نقاط فستتبين الحقيقة المذكورة بوضوح.

النقطة الأولى: لقد جُبل هذا الإنسانُ على محبة غير متناهية لخالق الكون، وذلك لأن الفطرة البشرية تكنّ حباً للجمال، ووداً للكمال، وافتتاناً بالإحسان، وتتزايد تلك المحبة بحسب درجات الجمال والكمال والإحسان حتى تصل إلى أقصى درجات العشق ومنتهاه.

نعم، إنَّ في القلب الصغير لهذا الإنسان الصغير يستقر عشق بكبر الكون. إذ إن نقلَ محتويات ما في مكتبة كبيرة من كتب، وخزنَها في القوة الحافظة للقلب -وهي بحجم حبة عدس- يبين أن قلب الإنسان يمكنه أن يضم الكونَ ويستطيع أن يحمل حُباً بقدر الكون.

فما دامت الفطرة البشرية تملك استعداداً غير محدود للمحبة تجاه الإحسان والجمال والكمال.. وأن لخالق الكون جمالاً مقدساً غير متناه، ثبوتُه متحققٌ بداهة بآثاره الظاهرة في الكائنات.. وأن له كمالاً قدسياً لا حدود له، ثبوته محقق ضرورة بنقوش صنعته الظاهرة في

هذه الموجودات.. وأن له إحساناً غير محدود ثابت الوجود يقيناً، يمكن لمسُه ومشاهدته ضمن إنعامه وآلائه الظاهرة في جميع أنواع الأحياء.. فلابد أنه سبحانه يطلب محبةً لا حدَّ لها من الإنسان الذي هو أجمعُ ذوي الشعور صفةً، وأكثرُهم حاجة، وأعظمُهم تفكراً، وأشدهم شوقاً إليه.

نعم، كما أن كل إنسان يملك استعدادا غير محدود من المحبة تجاه ذلك الخالق ذي الجلال، كذلك الخالق سبحانه هو أهلٌ ليكون محبوباً، لأجل جماله وكماله وإحسانه أكثرَ من أي أحد كان، حتى إن ما في قلب الإنسان المؤمن من أنواع المحبة ودرجاتها للذين يرتبط بهم بعلاقات معينة، ولاسيما ما في قلبه من حب تجاه حياته وبقائه، وتجاه وجوده ودنياه، وتجاه نفسه والموجودات بأسرها، إنما هي ترشحات من تلك الاستعدادات للمحبة الإلهية. بل حتى أشكال الاحساسات العميقة - عند الإنسان- ما هي إلّا تحولات لذلك الاستعداد، وما هي إلّا رشحاته التي اتخذت أشكالا مختلفة.

ومن المعلوم أن الإنسان مثلما يتلذذ بسعادته الذاتية، فهو يتلذذ أيضاً بسعادة الذين يرتبط بهم بعلاقة ومحبة ومثلما يحب من ينقذُه من البلاء، فهو يحب من يُنجي محبيه من المصائب أيضاً.

وهكذا، فإذا ما فكر الإنسان وروحُه مفعمة بالامتنان لله، في إحسان واحد فقط مما لا يعد ولا يحصى من الإحسانات العظيمة التي قد غمر بها الله سبحانه وتعالى الإنسانَ وشمله بها، فإنه سيفكر على النحو الآتي:

إن خالقي الذي أنقذني من ظلمات العدم الأبدية، ومنحني منحةَ الخلق والوجود، ووهب لي دنيا جميلة استمتع بجمالها هنا على هذه الأرض، فإن عنايته أيضاً ستمتد إليّ حين يحين أجلي، فينقذني كذلك من ظلمات العدم الأبدي والفناء السرمدي، وسيهب لي -من فضل إحسانه- عالَماً أبدياً باهراً زاهراً في عالم البقاء في الآخرة.. وسينعم عليّ سبحانه بحواس ومشاعر ظاهرة وباطنة لتستمتع وتتلذذ في تنقلها بين أنواع ملذات ذلك العالم الجميل الطاهر.

كما أنه سبحانه سيجعل جميع الأقارب، وجميع الأحبة من بني جنسي الذين أكنّ لهم حباً عميقاً وأرتبط معهم بعلاقة وثيقة، سيجعلهم أهلاً لهذه الآلاء والإحسانات غير المحدودة..

وهذا الإحسان -من جهة- يعود عليّ كذلك، إذ إنني أتلذذ بسعادة أولئك، وأسعد بها.. فما دام في كل فرد حبٌ عميق وافتتان بالإحسان كما في المثل: «الإنسان عبد الإحسان» فلابد أن الإنسان أمام هذا الإحسان الأبدي غير المحدود سيقول: لو كان لي قلب بسعة الكون لاقتضى أن يُملأ حُباً وعشقاً تجاه ذلك الإحسان الإلهي، وأنا مشتاق لمثه، ولكن رغم أنني لست على مستوى تلك المحبة فعلا، إلّا أنني أهلٌ لها بالاستعداد والإيمان، وبالنية والقبول، وبالتقدير والاشتياق، وبالالتزام والإرادة.

وهكذا ينبغي قياس ما يظهره الإنسانُ من المحبة تجاه «الجمال» وتجاه «الكمال» بمقياس ما أشرنا إليه مجملاً من المحبة تجاه «الإحسان».

أما الكافر الملحد، فإنه يحمل عداءً لا حد له فهو يستخف بالموجودات من حوله، ويستهين بها، ويمتهنها، ويناصبها العداء والكراهية.

النقطة الثانية: إنَّ محبة الله تستلزم اتباع السنة الطاهرة لمحمد ﷺ، لأن حبَّ الله هو العمل بمرضياته، وأن مرضاته تتجلى بأفضل صورها في ذات محمد ﷺ. والتشبه بذاته المباركة في الحركات والأفعال يأتي من جهتين:

إحداهما: جهة حب الله سبحانه وإطاعة أوامره، والحركة ضمن دائرة مرضاته، هذه الجهة تقتضي ذلك الاتباع، حيث إن أكملَ إمام وأمثل قدوة في هذا الأمر هو محمد ﷺ.

وثانيتهما: جهة ذاته المباركة ﷺ التي هي أسمى وسيلة للإحسان الإلهي غير المحدود للبشرية، فهي إذن أهلٌ لمحبة غير محدودة لأجل الله وفي سبيله.

والإنسان يرغب فطرةً في التشبه بالمحبوب ما أمكن، لذا فالذين يسعَون في سبيل حب «حبيب الله» عليهم أن يبذلوا جهدهم للتشبه به باتباع سُنته الشريفة.

النقطة الثالثة: كما أن لله سبحانه وتعالى رحمةً غير متناهية، فله سبحانه كذلك محبةٌ غير متناهية. وكما أنه يُحبب نفسَه -بصورة غير محدودة- بمحاسن الكائنات جميعاً وبجمالها وزينتها إلى مخلوقاته، فإنه كذلك يحب مخلوقاته، ولاسيما أصحاب الشعور منهم الذين يقابلون تحببه لهم بالحب والتعظيم. لذا فإن أسمى مقصد الإنسان في مرضاة ربه، وأجلّ سعيه هو أن

يكون موضعَ نظر محبة الله الذي خلق الجنة بلطائفها ومحاسنها ولذائذها ونعَمها بتجل من تجليات رحمته.

وبما أن أحداً لا يمكنه أن يكون أهلاً لمحبته سبحانه إلّا باتباع السنة الأحمدية كما نص عليه كلامه العزيز، إذن فاتباع السنة المحمدية هو أعظمُ مقصد إنساني وأهمُ وظيفة بشرية.

النكتة الحادية عشرة

وهي ثلاث مسائل

المسألة الأولى: إن لسنة الرسول الأعظم ﷺ ثلاثة منابع، هي:

أقوالُه، وأفعاله، وأحواله. وهذه الأقسام الثلاثة هي كذلك ثلاثة أقسام:

الفرائض، النوافل، عاداته ﷺ.

ففي قسم الفرائض والواجب، لامناص من الاتباع، والمؤمن مجبَر على هذا الاتباع بحكم إيمانه. والجميع بلا استثناء مكلّفون بأداء الفرض والواجب، ويترتب على إهماله أو تركه عذاب وعقاب.

وأما في قسم النوافل، فأهلُ الإيمان هم مكلَّفون به أيضاً حسب الأمر الاستحبابي، ولكن ليس في ترك النوافل عذابٌ ولا عقاب. غير أن القيام بها واتباعها فيه أجر عظيم. وتغيير النوافل وتبديلها بدعة وضلالة وخطأ كبير.

وأما عاداته ﷺ وحركاته وسكناته السامية فمن الأفضل والمستحسن جداً تقليدُها واتباعها حكمةً ومصلحة سواءً في الحياة الشخصية أو النوعية أو الاجتماعية، لأن هناك في كل حركة من حركاته الاعتيادية منافعَ حياتية كثيرة جداً فضلاً عن أنها بالمتابعة تصير تلك الآداب والعادات بحكم العبادة.

نعم، مادام -عليه الصلاة والسلام- متصفاً بأسمى مراتب محاسن الأخلاق، باتفاق الأولياء والأعداء. وأنه ﷺ هو المصطفى المختار من بين بني البشر، وهو أشهر شخصية فيهم باتفاق الجميع.. وما دام هو أكملَ إنسان، بل أكملَ قدوة ومرشد بدلالة آلاف المعجزات،

وبشهادة العالم الإسلامي الذي كوّنَه، وبكمالاته الشخصية بتصديق حقائق ما بلّغه من القرآن الحكيم.. وما دام ملايينٌ من أهل الكمال قد سمَوا في مراتب الكمالات، وترقّوا فيها بثمرات اتباعه فوصلوا إلى سعادة الدارين... فلابد أن سنة هذا النبي الكريم ﷺ وحركاتِه هي أفضلُ نموذج للإقتداء وأكملُ مُرشد للاتباع والسلوك وأحكمُ دستور، وأعظم قانون، يتخذه المسلم أساساً في تنظيم حياته.

فالسعيد المحظوظ هو من له أوفرُ نصيب من هذا الاتباع للسنة الشريفة.

ومن لم يتبع السنة فهو في خسران مبين إن كان متكاسلاً عنها.. وفي جناية كبرى إن كان غير مكترث بها.. وفي ضلالة عظيمة إن كان منتقداً لها بما يومئ التكذيب بها.[1]

المسألة الثانية: لقد وصف الله سبحانه وتعالى الرسول ﷺ في القرآن الحكيم بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤).

ووصفه الصحب الكرام كما وصفته الصحابية الجليلة الصديقة عائشة رضي الله عنها قائلة: (كان خُلُقهُ القرآن).[2] أي «إن محمداً ﷺ هو المثال النموذج لما بينه القرآن الكريم من محاسن الأخلاق، وهو أفضل من تمثلت فيه تلك المحاسنُ، بل إنه خُلق فطرةً على تلك المحاسن». ففي الوقت الذي ينبغي أن يكون كلٌّ من أفعال هذا النبي العظيمﷺ وأقوالُه وأحواله، وكلٌّ من حركاته نموذج إقتداء للبشرية، فما أتعسَ أولئك المؤمنين من أمته الذين غفلوا عن سنته ﷺ ممن لا يبالون بها أو يريدون تغييرها فما أتعسهم وما أشقاهم!

المسألة الثالثة: لما كان الرسول ﷺ قد خُلق في أفضل وضع وأعدلِه وفي أكمل صورةٍ وأتمّها، فحركاتُه وسكناته قد سارت على وفق الاعتدال والاستقامة، وسيرتُه الشريفة تبين هذا بياناً قاطعاً وبوضوح تام، بأنه قد مضى وفق الاعتدال والاستقامة في كل حركة من حركاته متجنباً الإفراط والتفريط.

---

(١) انظر: البخاري، الاعتصام ٢، الاحكام ١، الجهاد ١٠٩؛ مسلم، الإمارة ٣٣؛ النسائي، البيعة ٢٧؛ أحمد بن حنبل، المسند ٢/ ٣٦١.

(٢) مسلم، صلاة المسافرين ١٣٩؛ ابن ماجه، الاحكام ١٤؛ أحمد بن حنبل، المسند ٦/ ٩١، ١٦٣، ٢١٦.

نعم لما كان الرسول ﷺ قد امتثل امتثالاً كاملاً قوله تعالى: ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ ﴾ (هود: ١١٢) فالاستقامةُ تظهر في جميع أفعاله وأقواله وأحواله ظهوراً لا لبسَ فيه.

فمثلاً: إن قواه العقلية قد سارت دائماً ضمن الحكمة التي هي محور الاستقامة والحد الوسط، مبرأةً عما يفسدُها ويكبتُها من إفراط وتفريط أي الغباء والخب.

وإن قواه الغضبية قد سارت دائماً ضمن الشجاعة السامية التي هي محور الاستقامة والحد الوسط، منزهةً عما يفسدها من إفراط وتفريط أي الجبن والتهور.

وإن قوته الشهوية قد اتخذت محورَ الاستقامة دائما وهي العفة واستقامت عليها بأسمى درجات العصمة، فصفت من فساد تلك القوة من إفراط وتفريط أي الخمود والفجور.

وهكذا فإنه ﷺ قد اختار حد الاستقامة في جميع سننه الشريفة الطاهرة وفي جميع أحواله الفطرية وفي جميع أحكامه الشرعية، وتجنّب كلياً من الظلم والظلمات أي الإفراط والتفريط، والإسراف والتبذير، حتى إنه قد اتخذ الاقتصادَ له دليلاً متجنباً الإسراف نهائياً، في كلامه وفي أكله وفي شربه.

وقد أُلّفت في تفصيل هذه الحقائق آلافُ المجلدات، إلّا أننا اكتفينا بهذه القطرة من البحر، إذ «العارف تكفيه الإشارة».

اللهم صَلِّ على جامع مكارم الأخلاق ومظهر سر ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ الذي قال: «من تمسك بسنتي عند فساد أمتي فله أجر مائة شهيد».

﴿ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ ﴾

﴿ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾

اللمعة الثانية عشرة

تخص نكتتين قرآنيتين لمناسبة سؤالين جزئيين سألهما الأخ رأفت

بِاسْمِهِ سُبْحَانَهُ

﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾

السلام عليكم وعلى إخوانكم ورحمة الله وبركاته.

أخي الصادق العزيز السيد رأفت(*)! إنَّ أسئلتك في هذا الوقت العصيب الذي يحيطني، تجعلني في وضع مُحرج لأن سؤالَيكم -في هذه المرة- وإن كانا جزئيين، إلّا أنني رأيتهما على جانب من الأهمية، لما لهما من علاقة مع نكتتين قرآنيتين، ولأن سؤالكم حول الكرة الأرضية يتعرض للشبهات التي ترد من علمَي الجغرافية والفلك حول طبقات الأرض السبع والسبع الطباق. لذا نبين هنا بياناً علمياً وكلياً ومجملاً نكتتين قرآنيتين بغض النظر عن جزئية السؤال، وأنت بدورك تأخذ حصتك منه إزاء سؤالَيك الجزئيين.

النكتة الأولى

وهي عبارة عن نقطتين

النقطة الأولى:

قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ ﴾ (العنكبوت:٦٠)

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴾ (الذاريات:٥٨)

بدلالة هاتين الآيتين الكريمتين؛ الرزقُ بيد القدير الجليل وحدَه، ويخرج من خزينة رحمته دون وساطة. فرزقُ كل ذي حياة بعهدة ربه، فيلزم ألّا يموت أحدٌ جوعاً. ولكن يبدو أن الذين يموتون جوعاً، أو من فقدان الرزق كثيرون. إن حل هذا السر وكشفَ هذه الحقيقة هو:

إنَّ التعهد الرباني بالرزق وتكفّلَه له بنفسه حقيقة ثابتة. فلا أحدَ يموت من عدم الرزق، لأن الرزق الذي يرسله الحكيم ذو الجلال إلى جسم الكائن الحي يُدّخر قسمٌ منه احتياطاً على هيئة شحوم ودهون داخلية. بل يُدّخر قسم من الرزق المرسل في زوايا حجيرات الجسم كي يصرف منه في واجبات الجسم عند عدم مجيء الرزق من الخارج.

فالذين يموتون إذن، إنما يموتون قبل نفاد هذا الرزق الاحتياطي المدّخر، أي إن ذلك الموت لا ينجم من عدم وجود الرزق، وإنما من مرضٍ ناشئٍ من ترك عادةٍ بسوء الاختيار.

نعم، إن الرزق الفطري المدّخر بصورة شحوم في جسم الكائن الحي، إنما يدوم ويستمر بمعدل أربعين يوماً كاملاً. بل قد يستمر ضعف ذلك، إثر مرض أو استغراق روحاني. حتى كتبت الصحف -قبل تسع وثلاثين سنة.[1] أن رجلاً قد قضى متحدياً سبعين يوماً في سجن لندن دون أن يذوق شيئاً وظل على صحة وعافية.

فما دام الرزق الفطري يدوم أربعين يوماً بل سبعين وثمانين يوماً، وأن تجلي اسم الرزاق ظاهر على مدّ البسيطة بجلاء، وأن الرزق يتدفق من حيث لا يُحتسب من الأثداء ويخرج من

(١) المقصود سنة ١٩٢٠.

الأكمام. فلابد أن ذلك الاسم يمدّ الكائن ويسعفه ويحُول بينه وبين الموت جوعاً قبل انتهاء الرزق الفطري، ما لم يتدخل البشر المتلبس بالشر بسوء عمله.

ولهذا فالذين يموتون جوعاً قبل أربعين يوماً، لا يموتون بسبب عدم الرزق قطعاً، بل من عادة ناشئة من سوء الاختيار ومن مرض ناشئٍ من ترك العادة، إذ: «ترك العادات من المهلكات» قاعدة مطردة.

فيصح القول إذن: أنه لا موت من الجوع.

نعم، إنه مشاهَد أمام الأنظار أن الرزق يتناسب تناسباً عكسياً مع الاقتدار والاختيار، فمثلاً: إن الطفل قبل أن يولَد، وليس له من الاختيار والاقتدار شيء، ساكن في رحم الأم، يسيل إليه رزقُه دون أن يحتاج حتى إلى حركة شفتيه. وحينما يفتح عينيه للدنيا، ولا يملك اقتداراً ولا اختياراً، إلّا شيئاً من القابليات، وحسّاً كامناً فيه، فإنه لا يحتاج إلّا إلى حركة إلصاق فمه بالثدي فحسب، وإذا بمنابع الثدي تتدفق برزق هو أكملُ غذاء وأسهلُه هضماً، وبألطفِ صورة وأعجب فطرة. ثم كلما نما لديه الاقتدار والاختيار احتجب عنه ذلك الرزقُ الميسور الجميل شيئاً فشيئاً، حتى ينقطع النبع ويغور، فيُرسل إليه رزقُه من أماكنَ أخرى. ولكن لأن اقتداره واختياره ليسا على استعداد بعدُ لتتبع الرزق، فإن الرزاق الكريم يجعل شفقة والديه ورحمتهما ممدةً لاختياره ومُسعفة لاقتداره. ثم عندما يتكامل الاقتدار والاختيار، فلا يعدو الرزق نحوه، ولا يساق إليه، بل يسكن قائلاً: تعال اطلبني، فتش عني وخذني.

فالرزق إذن متناسب تناسباً عكسياً مع الاقتدار والاختيار، بل إن حيواناتٍ لا اقتدار لها ولا اختيار تعيش أفضلَ وأحسن من غيرها كما أوضحنا ذلك في رسائل عدة.

النقطة الثانية:

للإمكان أنواع وأقسام هي: الإمكان العقلي والإمكان العرفي والإمكان العادي. فإن لم تكن الحادثةُ الواقعة ضمن الإمكان العقلي، فإنها تُردّ وتُرفض. وإن لم تكن ضمن الإمكان العرفي أيضاً فإنها تكون معجزة، ولا تكون كرامةً بيُسر. وإن لم تكن لها نظير عُرفاً وقاعدةً فلا تُقبل إلّا ببرهان قاطع بدرجة الشهود.

فبناءً على هذا، فإن الأحوال الخارقة للعادة المروية عن السيد احمد البدوي (قُدس سره)[*] الذي لم يذق طعاماً طوال أربعين يوماً، إنما هي ضمن دائرة الإمكان العرفي، وتكون كرامةً له، بل ربما هي عادة خارقة له.

نعم، إن روايات متواترة تُنقل عن السيد احمد البدوي (قُدس سره) أنه في أثناء استغراقه الروحاني كان يأكل كل أربعين يوماً مرة واحدة. فالحادثة وقعت فعلاً، ولكن ليست دائماً، وإنما حدثت بعضَ الأحيان من قبيل الكرامة. وهناك احتمال أن حالته الاستغراقية كانت غير محتاجة إلى طعام، لذا أصبحت بالنسبة إليه في حكم العادة.

وقد رويت حوادثُ كثيرةٌ موثوقةٌ من هذا النوع من الأعمال الخارقة عن أولياء كثيرين من أمثال السيد احمد البدوي (قُدس سره).

فإن كان الرزق المدّخر يدوم أكثرَ من أربعين يوماً -كما أثبتنا في النقطة الأولى- وأن الانقطاع عن الطعام طوال تلك الفترة من الأمور الممكنة عادةً، وأنه قد رَوَتْ تلك الحالات روايات موثوقة من أشخاص أفذاذ، فلابد ألّا تُنكر قطعاً.

السؤال الثاني: لمناسبة هذا السؤال نبين مسألتين مهمتين.

لما عجز أصحابُ علوم الجغرافية والفلك بقوانينها القاصرة ودساتيرها الضيقة وموازينها الصغيرة أن يرقَوا إلى سماوات القرآن وأن يكشفوا عن الطبقات السبع لمعاني نجوم آياته الجليلة، بدأوا يحاولون الاعتراض على الآية الكريمة وإنكارها بحماقة وبلاهة.

المسألة المهمة الأولى:

تخص كونَ الأرض ذات سبع طبقات كالسماوات.

هذه المسألة تبدو لفلاسفة العصر الحديث غيرَ ذات حقيقة، لا تقبلها علومُهم التي تخص الأرض والسماوات. فيتخذون من هذه المسألة ذريعةً للاعتراض على بعض الحقائق القرآنية، لذا نكتب بضع إشارات مختصرة تخص هذه المسألة.

الأولى:

أولاً: إنَّ معنى الآية شيءٌ، وأفرادُ ذلك المعنى وما يشتمل عليه من تلك المعاني من

الجزئيات شيء آخر. فإن لم يوجد فردٌ من أفراد كثيرة لذلك المعنى الكلي فلا يُنكَر ذلك المعنى الكلي. علماً أن هناك سبعةَ أفراد ظاهرةٍ مصدّقة للأفراد الكثيرة للمعنى الكلي للسماوات السبع والأرضين السبع.

ثانياً: إن صراحة الآية الكريمة: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ...﴾ (الطلاق:١٢) لا تذكر أن الأرض سبع طبقات. بل ظاهرها يفيد: أن الله خلق الأرض جاعلاً منها مسكناً لمخلوقاته كالسماوات السبع، فلا تقول الآية: خلقت الأرض سبع طبقات. أما المثلية (للسماوات) فهي تشبيه بها من حيث كونها مخلوقةً ومسكناً للمخلوقات.

الإشارة الثانية:

إنَّ الأرض مهما كانت صغيرة جداً بالنسبة للسماوات، إلّا أنها تعدلها وتوازيها من حيث إنها في حكم معرض للمصنوعات الإلهية التي لاتحد وموضع إشهارها ومركزها. فهي بهذا تعدل السماوات العظيمة وتوازيها، إذ هي كالقلب والمركز المعنوي للسماوات، كما يعدل قلبُ الإنسان الجسد.

ولهذا فقد فُهم من الآيات الكريمة أن الأرض سبع طبقات:

إذ الأرض سبعةُ أقاليم منذ القديم بمقياس مصغر.

ثم هي سبعُ قارات وهي المعروفة باسم أوروبا وإفريقيا وأوقيانوسيا (أستراليا) وآسيتين وأمريكتين.

ثم هي سبعُ قطع معروفة في هذا الوجه وفي الوجه الآخر العالم الجديد. وهي الشرق والغرب والشمال والجنوب مع البحار.

ثم هي سبعُ طبقات متصلة متباينة ابتداءً من مركزها إلى قشرتها الظاهرة، كما هو ثابت علماً.

ثم هي ذاتُ عناصرَ سبعةٍ مشهورة تعبّر عنها بالطبقات السبع والمتضمنة لسبعين عنصراً من العناصر الجزئية البسيطة التي أصبحت هي مدار الحياة.

ثم الطبقات السبع والعوالم السبعة المتكونة من العناصر الأربعة -الماء والهواء والنار والتراب- والمواليد الثلاثة وهي المعادن والنباتات والحيوانات.

ثم عوالم طبقات الأرض السبع، الثابتة بشهادة كثير من أهل الكشف وأصحاب الشهود والتي هي مساكن الجن والعفاريت ومقرات مخلوقات مختلفة أخرى ذوات شعور وحياة.

ثم إنها سبعُ طبقاتٍ إشارةً إلى وجود سبع كرات أخرى شبيهة بكرتنا الأرضية، هي مساكن ذوي الحياة ومقرات لها، أي إن كرة الأرض سبعُ طبقات إشارة إلى وجود سبع كرات أرضية.

هكذا فُهم من الآيات هذه المعاني. فإذن يتحقق وجودُ سبعِ طبقات للأرض في سبعة أنواع من الطبقات وفي سبعة أشكال وأنماط منها.

أما المعنى الثامن وهو الأخير فليس داخلاً في المعاني السبعة المعدودة وإنما له أهمية من ناحية أخرى.

الإشارة الثالثة:

لما كان الخالق الحكيم لا يُسرف في شيء، ولا يخلق عبثاً، وأن الموجودات إنما وجدت لذوي الشعور، وتجد كمالَها بذوي الشعور، بل تعمَّر بذوي الشعور، لتنقذ من العبث. وأن ذلك الحكيم المطلق والقدير الجليل يعمّر عنصرَ الهواء وعالم الماء وطبقات التراب بما لا يحد من ذوي الحياة، كما هو مشاهد. وأن الهواء والماء لا يحولان دون جولان الحيوانات كما لا تمنع المواد الكثيفة كالتراب والحجر سير الكهرباء وأشعة رونتكن.. فلابد أن ذلك الحكيم ذا الكمال والصانع الباقي لا يترك طبقات الأرض السبع الكلية المتصلة ببعضها ولا كهوفها وميادينها الواسعة وعوالمها خاليةً خاوية ابتداءً من مركزها إلى قشرتها الظاهرة التي هي مسكننا.

فلا جرم أنه قد عمّر تلك العوالم وخلق لها مخلوقاتٍ ذوات شعور يناسبها ويلائمها وأسكنهم فيها، ويلزم أن تكون هذه المخلوقات من أجناس الملائكة والروحانيات التي تكون أكثفَ الطبقات وأصلبها بالنسبة إليها كالبحر إلى السمك والهواء إلى الطير. بل يقتضي أن

تكون نسبة النار الهائلة المرعبة في مركز الأرض إلى تلك المخلوقات الشاعرة كنسبة حرارة الشمس إلينا، وحيث إن الروحانيات الشاعرة مخلوقاتٌ من نور، فالنار تكون كالنور لهم.

الإشارة الرابعة:

لقد ذُكر في «المكتوب الثامن عشر» مثال حول تصويرات خارجة عن نطاق العقل بيّنها أهلُ الكشف فيما يخص عجائب طبقات الأرض، وخلاصته:

أن كرة الأرض بذرةٌ في عالم الشهادة، بينما هي كشجرة ضخمة تضارع عظمتُها السماوات في عالم المثال والبرزخ، فمشاهدةُ أهل الكشف لطبقة الأرض الخاصة بالعفاريت في كرة الأرض بمسافة ألف سنة ليست مشاهدتهم لها في بذرة الأرض التي تخص عالم الشهادة، بل هي تظاهرٌ لطبقات الأرض وفروعها الممتدة في عالم المثال.

فإن كانت طبقة واحدة -لا أهمية لها ظاهراً- من طبقات الأرض قد حازت هذه الأهمية العظمى في عالم آخر، ألا يصح أن يقال إذن إن الأرض هي سبع طبقات تقابل سبع سماوات؟. فالآيات الكريمة تشير بإيجاز معجِز، إلى تلك النقاط المذكورة وتنبّه عليها، وذلك بإظهارها هذه الأرض الصغيرة جداً مكافئةً لطبقات السماوات السبع.

المسألة المهمة الثانية:

قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ (الإسراء: ٤٤) و ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٩)

هاتان الآيتان وأمثالُهما من الآيات الكريمة تبين أن السماوات سبعٌ. نرى من الأنسب اختصار ما ذكرناه في تفسير «إشارات الإعجاز» الذي أُلّف في جبهة القتال في أثناء السنة الأولى من الحرب العالمية الأولى، إذ جاءت فيه هذه المسألة في غاية الإجمال والاختصار الشديد بسبب ظروف الحرب.

إن الحكمة القديمة قد تصورت السماوات أنها تسعُ سماوات، فزادت على السماوات السبع، العرش والكرسي الواردين في الشرع، فكان تصويراً عجيباً لها. ولقد استولت على البشرية طوال عصور مديدة تلك التعابير الرنانة لفلاسفة الحكمة القديمة وحكمائها حتى

إن مفسرين كثيرين اضطروا إلى إمالة ظواهر الآيات إلى مذهبهم مما أدىّ إلى إسدال ستار على إعجاز القرآن، إلى حد ما.

أما الحكمة الجديدة المسماة بالفلسفة الحديثة فتقول بما يفيد إنكار السماوات إزاء ما كانت تدّعيه الفلسفة القديمة من أن السماوات غيرُ قابلة للاختراق والالتئام. فقد فرّط هؤلاء كما أفرط أولئك. وعجز الاثنان عن بيان الحقيقة بياناً شافياً.

أما حكمة القرآن الكريم المقدسة فإنها تدع ذلك الإفراط والتفريط متخذة الحد الوسط، فهي تقول:

إن الصانع جل جلاله خلق سبعَ سماوات طباقاً، أما النجوم السيارة فهي تسبح وتسبّح في السماء كالأسماك في البحر. وقد جاء في الحديث الشريف: (**إنَّ السماء موج مكفوف**)[1] أي كبحر استقرت أمواجُه. هذه الحقيقة نثبتها بسبع قواعد وبسبعة وجوه من المعاني، وباختصار شديد:

القاعدة الأولى: إنه قد ثبت علماً وفلسفة «حكمة» إن هذا الفضاء الوسيع مملوءٌ بمادة تُسمى الأثير، وليس خالياً فارغاً لا نهاية له.

القاعدة الثانية: إنه ثابت علماً وعقلاً بل مشاهدةً؛ أن رابطة قوانين الأجرام العلوية -كالجاذبية والدافعة- وناشرةَ القوى الموجودة في المادة وناقلتَها -كالضياء والحرارة والكهرباء- إنما هي مادة موجودة في ذلك الفضاء مالئة له.

القاعدة الثالثة: إنه ثابت بالتجارب إنَّ مادة الأثير -مع بقائها أثيراً- لها أنماط مختلفة من الأشكال ولها صور متنوعة كسائر المواد، فكما يحصل ثلاثة أنواع من أشكال المواد: الغازية والسائلة والصلبة من المادة نفسها كالبخار والماء والثلج، كذلك لا مانع عقلاً من أن تكون سبعةُ أنواع من الطبقات من مادة أثيرية، ولا اعتراض عليه.

القاعدة الرابعة: إنه لو أُنعم النظر في الأجرام العلوية يُرى في طبقاتها تخالفٌ، فكما أن الطبقة التي تحوي درب التبانة المشاهَد كسحابٍ، لا تشبه طبقةَ النجوم الثوابت البتة،

---

(١) أحمد بن حنبل، ٢/ ٣٧٠؛ الترمذي، تفسير سورة الحديد ١؛ الطبراني، المعجم الأوسط ٦/ ١٥. ابن كثير ، تفسير سورة الحديد.

حتى كأن نجوم طبقة الثوابت ثمارٌ ناضجة مكتملة كفواكه الصيف، بينما نجومٌ لا تحد لدرب التبانة المشاهد كسحاب تنعقد مجدداً وتتكامل. وطبقة الثوابت نفسها لا تشبه أيضاً المنظومة الشمسية بحدس صادق. وهكذا يُدرَك بالحدس والحس تخالف المنظومات السبع والطبقات السبع.

القاعدة الخامسة: لقد ثبت حدساً وحسّاً واستقراءً وتجربة أنه إذا وقع التشكل والتنظيم في مادة تتولد منها مصنوعات أخرى فإنها تأخذ أشكالاً مختلفة وطبقات متباينة.

فمثلاً حينما تبدأ التشكلات في معدن الألماس يتولد منه الرمادُ والفحم والألماس. وحينما تبدأ النار بالتشكل تتميز جمراً ولهباً ودخاناً. وعندما يُمزَج مولد الماء ومولد الحموضة يتشكل منهما الماء والثلج والبخار.

يفهم من هذا أنه إذا وقع التشكلُ في مادةٍ ما تنقسم إلى طبقاتٍ، لذا فالقدرة الفاطرة لما شرعت بالتشكيل في مادة الأثير خلقت منها سبعةَ أنواعٍ من سماوات على طبقات مختلفة كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ﴾ .

القاعدة السادسة: إنَّ هذه الأمارات المذكورةَ تدل بالضرورة على وجود السماوات وعلى تعددها، فالسماوات إذن متعددةٌ قطعاً، وحيث إن المخبرَ الصادق قد قال بلسان القرآن: هي سبعة، فهي سبعة.

القاعدة السابعة: أنَّ التعابير: سبعة، وسبعين وسبعمائة وأمثالَها تفيد الكثرةَ في أساليب اللغة العربية، أي يمكن أن يضم تلك الطبقات السبعَ الكلية طبقاتٌ كثيرة جداً.

حاصل الكلام: إنَّ القدير ذا الجلال خلق سبعَ سماوات طباقاً من مادة الأثير، وسوّاها ونظّمها بنظام عجيب دقيق، وزرع فيها النجوم. ولما كان القرآنُ الكريم خطاباً أزلياً للجن والإنس بطبقاتهم كافةً، فكل طبقة من البشر تأخذ إذن حصتَها من كل آية من القرآن الكريم، وكلُّ آية أيضاً تُشبع أفهامَ كلِّ طبقةٍ من الناس، أي لكل آيةٍ معان متنوعة متعددة ضمناً وإشارة.

نعم، إنَّ سعةَ خطاب القرآن وشمولَ معانيه وإشاراته، ومراعاته درجات أفهام

الطبقات عامة ومداركِهم من أدنى العوام إلى أخص الخواص تبين أن كل آية لها وجهٌ متوجه إلى كل طبقة من الناس.

ولأجل هذا فقد فَهمتْ سبعُ طبقاتٍ بشرية سبعَ طبقاتٍ مختلفة من المعاني ضمن المعنى الكلي للآية الكريمة: ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ كالآتي:

يفهم ذوو النظر القاصر والفكر المحدود من الناس أنها: طبقات الهواء النسيمية.

والذين اغتروا بعلم الفلك يفهمونها: النجومَ المعروفة بالسيارات السبع ومداراتها لدى الناس.

ومن الناس من يفهمها: سبعَ كراتٍ سماوية أخرى شبيهةٍ بأرضنا التي هي مقر ذوي الحياة.

وتفهمها طائفة من البشر: سبعَ منظومات شمسية أُولاها منظومتُنا هذه وانقسامَ المنظومة الشمسية إلى سبع طبقات.

وطائفة أخرى من البشر تفهمها: انقسامَ تشكلات الأثير إلى سبع طبقات.

وطبقة أخرى واسعة الإدراك والفهم، تفهم: أن السماوات المرئية كلَّها، المرصّعةَ بالنجوم ليست إلّا سماء واحدة وهي السماء الدنيا، وهناك ست سماوات أخرى فوقها لا تُرى.

وطبقة سامية من الناس وهم الطبقة السابعة ذوو إدراك عالٍ لا يرون انحصار سبع سماوات في عالم الشهادة فقط، بل هي سبعُ سماوات تسقّف وتحيط بالعوالم الأخروية والغيبية والدنيوية والمثالية.

وهكذا ففي كلية هذه الآية الكريمة معانٍ أخرى كثيرةٌ جزئية جداً شبيهةٌ بهذه الطبقات السبع المذكورة من المعاني التي تراعي أفهام سبعِ طبقات من الناس. فكلٌّ يستفيض بقدر استعداده من فيض القرآن ويأخذ رزقَه من المائدة السماوية العامرة.

فما دامت هذه الآية الكريمة تحوي معانيَ مصدّقة لها إلى هذا الحد، فإن إنكارَ الفلاسفة الحالين المحرومين من العقل وجحودَ علماء الفلك المخمورين السماوات، واتخاذَ هذا

الإنكار وسيلةَ تعرضٍ لأمثال هذه الآية الجليلة، إن هو إلّا كرمي الصبيان الفاسدي المزاج النجومَ العوالي بالحجارة بغيةَ إسقاط واحدة منها! ذلك:

لأنَّ معنىً واحداً لهذه الآية من بين تلك المعاني الكثيرة إنْ كان صدقاً فإن المعنى الكلي يكون صدقاً وصواباً، حتى لو أن فرداً واحداً من تلك المعاني، لاوجودَ له في الواقع إلّا في ألسنةِ الناس، يصح أن يكون داخلاً ضمن ذلك المعنى الكلي، رعايةً لأفكار العامة. فكيف ونحن نرى كثيراً جداً من أفراده صدقاً وحقيقةً.

ألا ترى هؤلاء المغمورين بسُكر الجغرافية وعلم الفلكِ الذين لا ينصفون، كيف يقعون في خطأ فيغمضون عيونَهم عن المعنى الكلي الذي هو حقٌّ وحقيقةٌ وصدق، فلا يرون مصدِّقات الآية الكثيرة جداً، ويتوهمون معنى الآية منحصراً في فردٍ خيالي عجيب. فرشقوا الآيةَ الكريمة بالحجارة، فارتدت على رؤوسِهم فكسرتْها، ففقدوا صوابَهم وإيمانهم.

محصل الكلام: لما عجز أربابُ الأفكار المادية الملحدة كالشياطين والجن، من الصعود إلى الطبقات السبع للقرآن الكريم النازل على القراءات السبع والوجوه السبعة والمعجزات السبع والحقائق السبع والأركان السبعة، جهلوا ما في الآيات من معانٍ. فيخبرون أحكاماً كاذبةً خاطئة. فينزل على رؤوسهم شهابٌ رصدٌ من نجوم تلك الآيات بالتحقيقات العلمية المذكورة فتحرقهم.

نعم، إنه لا يمكن الرقيُّ إلى تلك السماوات القرآنية بفلسفة فلاسفة يحملون أفكاراً شيطانية خبيثة. وإنما يمكن الصعودُ إلى نجوم تلك الآيات بمعراج الحكمة الحقيقية ويمكن الطيران إليها بجناح الإيمان والإسلام.

اللّهمَّ صَلِّ على شمس سماء الرسالة وقمر فلك النبوة وعلى آله وصحبه نجوم الهدى لمن اهتدى.

﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾

اللّهم يا رب السماوات والأرضين زيّن قلوب كاتب هذه الرسالة ورفقائه بنجوم حقائق القرآن والإيمان... آمين.

اللمعة الثالثة عشرة

حكمة الاستعاذة

تخص حكمة «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»



﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ۝ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ (المؤمنون: ٩٧-٩٨)

هذا البحث يخصّ حكمة الاستعاذة من الشيطان. ستُكتب ثلاث عشرة إشارة بشكل مجمل، حيث إن قسماً منه قد أُثبت ووُضّح في «الكلمة السادسة والعشرين» وفي رسائل أخرى بصورة متفرقة.

الإشارة الأولى

سؤال: إنَّ الشياطين ليس لهم تدخلٌ في شؤون الخلق والإيجاد في الكون، وإن الله سبحانه وتعالى -برحمته وعنايته- ظهيرٌ لأهل الحق، فضلاً عن أنَّ جمالَ الحق وحُسنَه يشوّق أهلَه ويؤيدُهم، بعكس الضلالة المستهجَنة بقبحها المنفِّر، فما الحكمة في أن حزبَ الشيطان هو الغالب في أكثر الأحوال، وما السر في استعاذة أهل الحق في كلِّ حين بالله سبحانه من شرّ الشيطان؟.

الجواب: السرّ والحكمة هما كما يأتي:

إنَّ الضلالة والشرّ بأكثريتها المطلقة شيءٌ عدَمي وسلبي وغير أصيل، وهي إخلالٌ وتخريب. أما الهدايةُ والخير فهي بأكثريتها المطلقة ذات وجود وشيء إيجابي وأصيل وهي إعمارٌ وبناء. ومن المعلوم أنه يتمكن رجلٌ واحد في يوم واحد أن يهدم ما بناه عشرون رجلاً في عشرين يوماً. وأن حياة الإنسان التي تبقى باستمرار أعضائه الأساس ضمن شرائط الحياة، مع أنها تخصّ قدرةَ الخالق جلّ وعلا، إلّا أنها تتعرض للموت -الذي هو عدمٌ بالنسبة لها- إذا ما قَطع ظالمٌ عضواً من جسم ذلك الإنسان. ولهذا سار المَثل: «التخريبُ أسهلُ» من التعمير.

فهذا هو السرّ في أن أهلَ الضلالة بقدرتهم الضعيفة حقاً يغلبون أحياناً أهلَ الحق الأقوياء جداً.

ولكن لأهل الحق قلعةٌ منيعة ما إن يتحصنون بها ويلوذون بها، فلا يجرؤ أنْ يتقربَ إليهم أولئك الأعداءُ المخيفون ولا يمكنهم أن يمسوهم بسوء. ولئن أصابهم شيءٌ منهم -مؤقتاً- فالفوز والثواب الأبدي الذي ينتظرهم في بشرى القرآن الكريم ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (الأعراف: ١٢٨) يُذهِب أثرَ ذلك الضرّ والقرح.

وتلك القلعة الشامخة، وذلك الحصن المنيع هي الشريعة الإلهية وسنّة النبي ﷺ.

الإشارة الثانية

وهي المسألة التي تخطر في أذهان الكثيرين:

إنَّ خلقَ الشياطين وهم الشر المحض وتسليطَهم على أهل الإيمان، وسوقَهم كثيراً من الناس إلى الكفر ودخولَهم النارَ بمكايدهم، هو قبحٌ ظاهر. وأمرٌ مُرعب. فيا تُرى كيف ترضى رحمةُ ذلك الرحيم المطلق، ويسمح جمالُ ذلك الجميل المطلق وهو الرحمنُ ذو الجمال، بهذا القُبح غير المتناهي والمصيبة العظمى؟!.

الجواب: إنه إزاء الشرور الجزئية للشياطين، تكمن في وجودهم كثيرٌ من المقاصد الخيّرة الكلية وكمالات، ترقى بالإنسان في سلّم الكمال.

نعم، كما أن هناك مراتب كثيرة بدءاً من البذرة إلى الشجرة الباسقة، كذلك للاستعدادات الفطرية الكامنة في ماهية الإنسان من المراتب والدرجات ما تفوق ذلك، بل قد تصل إلى المراتب الموجودة بين الذرة والشمس. ولكي تظهر هذه الاستعداداتُ وتنبسط لابد لها من حركة، ولابد لها من تفاعل وتعامل. فحركةُ لولب الرقيّ ونابضِ السموّ في ذلك التعامل هي «المجاهدة». ولا تحصل هذه «المجاهدة» إلّا بوجود الشياطين والأشياء المضرّة، إذ لولا تلك «المجاهدة» لظلّت مرتبةُ الإنسان ثابتةً كالملائكة، وعندها ما كانت لتظهر تلك الأصناف السامية من الناس التي هي بحكم الآلاف من الأنواع في النوع الإنساني. وحيث إنه ليس من الحكمة والعدالة بشيء أن يُترك الخيرُ الكثير جداً تجنباً لحصول شرٍّ جزئي، فإن انزلاق كثير من الناس باتباع خطوات الشيطان، لا يحمل أهميةً كبيرة مادام التقويمُ والأهمية يأخذ «النوعية» بنظر الاعتبار ولا يُنظر إلى الكمية إلّا قليلاً، بل قد لا يُنظر إليها.

مثال ذلك: شخص لديه ألفٌ وعشرٌ من البذور، زرعَها في التراب، فجعلها تتعرض للتفاعلات الكيمياوية. فإذا أنبتت عشرٌ من تلك البذور وأينعت، فإن المنافعَ الحاصلة منها تفوق -بلا شك- خسارةَ الألفِ بذرة التي تعرضت للتلف والفساد.

وهكذا، فإن المنافعَ والمنزلة والأهمية التي حازتها البشرية من عشرة أشخاص كاملين يتلألأون كالنجوم في سمائها، والذين أخذوا بيد الإنسانية إلى مراقي الفلاح، وأضاءوا السُبُل أمامَهم وأخرجوهم إلى النور بمجاهدتهم للنفس والشيطان.. لاشك أنها تزيل ما يلحق بها من أثر الضرر الناجم من كثرة الداخلين في حمأة الكفر من الضالين الذين يُعدّون من جنس الحشرات لتفاهتهم ودناءتهم. لهذا فقد رضيت العدالةُ الإلهية وحكمتُها وسمحت الرحمةُ الربّانية بوجود الشياطين وتسلّطها.

فيا معشر أهل الإيمان! إنَّ درعكم المنيع لصد أولئك الأعداء، هو التقوى المصنوعة في دوحة القرآن الكريم. وإن خنادقكم الحصينة هي سُنّة نبيّكم عليه أفضل الصلاة والسلام. وأما سلاحكم فهو الاستعاذةُ والاستغفار والالتجاء إلى الحرزِ الإلهي.

الإشارة الثالثة

سؤال: أين يكمن السرُّ والحكمة في وعيد القرآن المرعب وتهديدِه لأهل الضلالة تجاه عملٍ جزئي صَدَر منهم، مما لا يتناسب بظاهر العقل مع بلاغتِه التي تتّسم بالعدالة والانسجام وأسلوبِه المعجِز الرزين. إذ كأنه يحشّد الجيوشَ الهائلة تجاه شخص عاجز لا حظّ له في المُلك، فيُكسِبُه منزلةَ شريكٍ متجاوز حدَّه؟

الجواب: إن سرَّ ذلك وحكمته أنَّ في وسع الشياطين ومَن تبعهم أن يقوموا بتخريب مدمّر بحركة بسيطة تصدر منهم، لأنهم يسلكون طريقَ الضلالة، فيلحِقون بفعل جزئي يصدرُ منهم خسائرَ جسيمة بحقوق الكثيرين، مَثلهُم في هذا كمثل رجلٍ ركب سفينةً تجارية عامرة للملِك ثم خرَقها خرقاً بسيطاً، أو ترك واجباً كان عليه أن يؤديه، فأهدر بفعله هذا جهدَ مَن في السفينة، وأفسدَ عليهم جَنيَ ثمار عملِهم فيها، وأبطلَ نتائج أعمال كل مَن له علاقة بها، لذا سيهدّده الملك الذي يملك السفينة تهديداتٍ عنيفة، باسم جميع رعاياه في السفينة وجميع المتضررين فيها، وسيعاقبه أشدّ العقاب حتماً، لا لحركته الجزئية أو تركه الواجب، وإنما للنتائج المترتبة على تلك الحركة أو الترك البسيط، وليس لتجاوزه حِمى الملك، وإنما لتعدّيه على حقوق الرعية جميعها.

وكذلك سفينةُ الأرض، ففيها مع المؤمنين أهلُ الضلال من حزب الشيطان الذين يستخفّون بنتائج الوظائف الحكيمة للموجودات الرائعة بل يعدّونها عبثاً وباطلاً، فيحقّرون بذلك جميعها، مما تشكّل خطيئاتهم ومعاصيهم -الجزئية في الظاهر- تجاوزاً واضحاً وتعدّياً صارخاً على حقوق الموجودات كافةً، لذا فإن الله سبحانه وهو ملك الأزل والأبد يحشّد التهديدات المروّعة ضد ذلك التدمير الصادر من أهل الضلالة. وهذا هو الانسجام التام في أسلوب القرآن الكريم والتوافق الرائع، وهو الحكمة البالغة الخالصة المستترة في روح البلاغة التي هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وهي بعيدةٌ كل البعد ومنزّهة كل التنزيه عن المبالغة التي هي الإسراف في الكلام.

فيا هلاكَ ويا ضياعَ مَن لا يُحَصِّن نفسه بحصن منيع من أولئك الأعداء الألداء الذين يقومون بتخريب مروّع وتدمير هائل بحركاتهم الجزئية.

فيا أهل الإيمان! أمامكم الحصنُ السماوي المنيع.. إنه القرآن الكريم.. ادخلوا فيه، وأنقذوا أنفسكم..

الإشارة الرابعة

لقد اتفق العلماء المحققون وأهلُ الكشف على أن العدم شرٌ محض.. والوجود خيرٌ محض.

نعم، إن الخير والمحاسن والكمالات -بأكثريتها المطلقة- تستند إلى الوجود وتعود إليه، فأساسُها إيجابي ووجودي، أي ذو أصالة وفاعلية، وإن بَدَت ظاهراً سلبية وعدمية.

وإن أساس وأصل الضلالة والشر والمصائب والمعاصي والبلايا وأمثالِها من المكاره هو عدمٌ وسلبي. وما فيها من القبح والسوء فناجمان من عدميتها، وإن بدت ظاهراً إيجابية ووجوداً، لأن أساسَها عدم ونفي أي بلا أساس وبلا فعل إيجابي.

ثم إن وجود البناء يتقرر بوجود جميع أجزائه كما هو ثابت بالمشاهدة، بينما عدمُه ودمارُه يمكن أن يحصل بتهدّم أحدِ أركانه وعدمِه.

أي إن الوجود يحتاج إلى علّةٍ موجدة، ولابد أن يستند إلى سبب حقيقي، بينما العدمُ يمكن أن يستند إلى أمور عدمية ويكون الأمر العدمي علّةً لشيء معدوم.

فبناءً على هاتين القاعدتين: فإن شياطين الإنس والجن ليس لهم ولو بمقدار ذرة واحدة نصيبٌ في الخلق والإيجاد وما تكون لهم أيةُ حصة في المُلك الإلهي، مع أن لهم آثاراً مخيفة وأنواعاً من الكفر والضلالة وأعمالاً شريرة ودماراً هائلاً، إذ لا يقومون بتلك الأمور بقدراتهم وقوتهم الذاتية، بل إن أغلبَ أعمالهم ليس فيها فعلٌ وقدرة حقيقية، وإنما هي من نوع تركِ الفعل، وتعطيلِ العمل، وصدٍّ للخير، فيعملون الشرّ بالصَّرفِ عن الخير، فتحصل الشرورُ.

لأن الشرور والمهالك هي من نوع الهدم والتخريبِ فلا يلزم أن تكون علّتُها إيجاداً فاعلاً، ولا قدرةً مُوجِدةً، إذ يمكن التخريب الهائل بأمر عدمي، وبإفساد شرطٍ. ولعدم وضوح هذا السرّ عند المجوس فقد اعتقدوا بوجود خالقٍ للخير وأسمَوه «يزدان» وخالقٍ

للشر وأسموه «أهريمان» بينما لا يعدو هذا الإله الموهوم سوى الشيطانِ الذي يكون سبباً للشرور ووسيلةً لها، بالإرادة الجزئية وبالكسب، دون الإيجاد.

فيا أهل الإيمان! إن أمضى سلاحِكم ضد هذه المهالك المفزعة للشياطين وأهمَّ وسيلتكم للبناء والتعمير هو الاستغفارُ والالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى بقولكم: «أعوذ بالله». واعلموا أن قلعتكم هي سُنة رسولكم عليه أفضل الصلاة والسلام.

الإشارة الخامسة

إنه على الرغم من توفر أسباب الهداية والاستقامة ووسائل الإرشاد أمام أهل الإيمان بما بيّنه الله سبحانه لهم في كتبه المقدسة كافة من مثوبةٍ وهي نعيمُ الجنّة ومن عقاب أليم وهو نار جهنم، ومع ما كرّره سبحانه من توجيه وتنبيه وترغيب وتحذير.. يُغلَبُ أهلُ الإيمان أمام الدسائس الدنيئة والضعيفة التافهة الصادرة عن حزب الشيطان.

كان هذا يأخذ قسطاً كبيراً من تفكيري، إذ كيف لا يهتم صاحبُ الإيمان بذلك الوعيد المخيف من ربّ العالمين؟. وكيف لا يزول إيمانُه وهو يعصي ربَّه مُتَّبعاً خطوات الشيطان ومكايده الضعيفة كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ (النساء:٧٦) ؟ حتى إن بعضاً من أصدقائي المقرّبين بعد أن سمع منّي مائةً من دروس الحقائق الإيمانية وصدَّق بها تصديقاً قلبياً، ومع شدة علاقته وحسن ظنّه بي فقد انجرف لثناءٍ تافهٍ ورخيص من رجلٍ فاسد ميّت القلب، فانجذب إليه، مما دفعَه ليكون في الصف المعادي لي. فقلتُ في نفسي: يا سبحان الله! هل يمكن للإنسان أن يهوي إلى هذا الدَرك؟. كم كان هذا الرجل ذا معدن رخيص؟ فأثِمتُ من اغتياب هذا المسكين.

ثم انكشفت ولله الحمد حقائقُ الإشارات السابقة فأنارت كثيراً من الأمور الغامضة.. فعلمتُ بذلك النور أن تكرارَ الترغيب والحث في القرآن الكريم ضروري جداً، ومناسب وملائم للحال.. وأن انخداع أهل الإيمان بمكايد الشيطان لا ينجم عن عدم الإيمان، ولا من ضعفه.. وأنه لا يكفَّر مَن ارتكب الكبائر. فالمعتزلةُ وقسمٌ من الخوارج قد أخطأوا حين كفّروا مُرتكبَ الكبائر أو جعلوه في منزلةٍ بين المنزلتين.. وأن صديقي المسكين، الذي ضحّى

بتلك الدروس الإيمانية بثناء شخصٍ تافه، لم يسقط في الهاوية كثيراً، ولم ينحَط إلى الحضيض كلياً -كما تصوّرتُ- فشكرتُ الله سبحانه الذي أنقذني من تلك الورطة.

ذلك لأن الشيطان -كما قلنا سابقاً- بأمرٍ سلبي جزئي منه يورد الإنسانَ المهالكَ الخطيرة.. وإن النفس التي بين جَنبيِ الإنسان دائمة الإنصات إلى الشيطان.. وإن قوته الشهوانية والغضبية هما بمثابة جهاز لاقط وجهاز توصيل لمكايد الشيطان. ولذلك فقد خصص الله سبحانه وتعالى اسمين من أسمائه الحسنى «الغفور، الرحيم» ليتجلّيا بالتجليّ الأعظم ويتوجَّها إلى أهل الإيمان، وأوضح في القرآن الكريم أن أعظم إحسانٍ له للأنبياء عليهم السلام هو: المغفرة.. فدعاهم إلى: الاستغفار. وأنه سبحانه بتكراره «بسم الله الرحمن الرحيم» وجعلها بدءاً لكل سورة ولكل أمرٍ ذي بال، جعل رحمتَه التي وسعت كلَّ شيء هي الملاذ والملجأ لأهل الإيمان، وهي الأمانُ والنجاة لهم من الشيطان. وجعل الحاجز المانع لهم من الشيطان ودسائسه هو في «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» وذلك بأمره: ﴿ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ ﴾ (النحل:٩٨).

الإشارة السادسة

إنَّ أخطر دسائس الشيطان هو أنه يُلبِس على بعض ذوي القلوب الصافية والحس المرهف: تخيُّلَ الكفر بتصديق الكفر، ويُظهر لهم تصوّرَ الضلالةِ تصديقاً للضلالة نفسِها، ويجلب إلى خيالهم خواطر قبيحة في حق الأشخاص والأمور المنزّهة المقدسة، ويوهمهم بالشك في بعض يقينيات الإيمان بجعل «الإمكان الذاتي» في صورة «الإمكان العقلي». وعندئذ يظنّ هذا المسكينُ المرهف الحسّ أنه قد هوى في الكفر والضلالة، ويتوهم أنه قد زال يقينُه الإيماني، فيقع في اليأس والقنوط. ويكون بيأسه هذا أضحوكةً للشيطان الذي ينفث في يأسه القاتل، ويضرب دوماً على وتره الحسّاس، وينفخ في التباساته ويثيرها، فإما أن يخلّ بأعصابه وعقله، أو يدفعه إلى هاوية الضلالة.

وقد بحثنا في بعض الرسائل مدى تفاهة هذه الهمزات والوساوس، وكيف أنها لا سندَ لها ولا أساس، أما هنا فسنجملها بما يأتي:

كما أن صورةَ الحيّة في المرآة لا تلدغ، وانعكاسَ النار فيها لا يَحرق، وظِلَّ النَجَس فيها لا ينجس، كذلك ما ينعكس على مرآةِ الخيال أو الفكر من صورِ الكفر والشرك، وظِلال الضلالة، وخيالات الكلمات النابية والشتم، لا تفسد العقيدة واليقين ولا تغير الإيمان، ولا تثلم أدبَ التوقير والاحترام. ذلك لأنه من القواعد المقررة: «تخيُّلُ الشتم ليس شتماً، وتخيلُ الكفر ليس كفراً، وتصوّرُ الضلالة ليس ضلالةً».

أما مسألةُ الشك في الإيمان، فإن الاحتمالات الناشئة من «الإمكان الذاتي» لا ينافي اليقينَ ولا يخلّ به. إذ من القواعد المقررة في علم أصول الدين: «أن الإمكان الذاتي لا ينافي اليقين العلمي».

فمثلاً: نحن على يقين من أن بحيرة «بارلا» مملوءةٌ بالماء ومستقرةٌ في مكانها، إلّا أنه يمكن أن تخسف في هذه اللحظة. فهذا إمكان ذاتي واحتمالٌ، وهو من الممكنات. ولكن لأنه لم ينشأ من أمارة، أو دليل، فلا يكون «إمكاناً ذهنياً» حتى يوجب الشك. لأن القاعدة المقررة في علم أصول الدين أنه: «لا عبرة للاحتمال غير الناشئ عن دليل» بمعنى: لا يكون الاحتمالُ الذاتي الذي لم ينشأ عن أمارة إمكاناً ذهنياً، فلا أهمية له كي يوجِب الشك. فبمثل هذه الإمكانات والاحتمالات الذاتية يظن المسكين المبتلى أنه قد فقد يقينَه بالحقائق الإيمانية. فيخطر بباله مثلاً خواطرُ كثيرة من الإمكان الذاتي من جهة بشرية الرسول ﷺ، ولا شك أنها لا تخلّ بيقينه وجزمه الإيماني، ولكن ظنَّه أن هذا يضرّ هو الذي يسبب له الضرر.

وأحياناً أخرى تُلقي لَمَّةُ الشيطان -التي هي على القلب- كلاماً لا يليق بجلال الله سبحانه وتعالى. فيظن صاحبُه أن قلبه هو الذي فَسَد فصدر عنه هذا الكلام، فيضطرب ويتألم. والحال أن اضطرابه وخوفه وعدمَ رضاه دليلٌ على أن تلك الكلمات لم تكن صادرةً من قلبه، وإنما هي من اللمّة الشيطانية، أو أن الشيطان يخيّلها إليه ويذكّره بها.

وكذلك فإن من بين اللطائف الإنسانية -وهي بضع لطائف لم أستطع تشخيصها- ما لا ترضخ للإرادة والاختيار، ولا تدخل تحت وطأة المسؤولية - فتتحكم أحياناً وتسيطر دون أن تنصت لنداء الحق، وتلج في أمور خاطئة، وعندئذ يُلقي الشيطانُ في رَوع هذا الإنسان المبتلى: إن فطرتَك فاسدة لا تنسجم مع الإيمان والحق، ألا ترى أنها تلج بلا إرادة في مثل هذه الأمور

الباطلة؟ إذن فقد حكم عليك قَدَرُك بالتعاسة وقضى عليك بالشقاء!. فيهلك ذلك المسكين في هذا اليأس المدمّر.

وهكذا فإن حصن المؤمن الحصين من الدسائس الشيطانية المتقدّمة هي المُحكمات القرآنية والحقائق الإيمانية المرسومةُ حدودُها بدساتير العلماء المحققين والأصفياء الصالحين. أما الدسائس الأخيرة فإنها تُردّ بالاستعاذة بالله سبحانه وتعالى وبإهمالها، لأن من طبيعة الوساوس أنها تكبر وتتضخم كلما زاد الاهتمام بها. فالسُنّة المحمدية للمؤمن هي البلسم الشافي لمثل هذه الجراحات الروحية.

الإشارة السابعة

سؤال: إن أئمة المعتزلة عندما اعتبروا أن إيجادَ الشر شرٌّ، لم يردّوا إلى الله سبحانه خلقَ الكفر والضلالة، فكأنهم بهذا ينزّهونه سبحانه ويقدسونه، فقالوا: «إن البشَر هو خالقٌ لأفعاله» فضلّوا بذلك. وكذلك قالوا: «يزول إيمانُ من ارتكب الكبائر لأن صدقَ العقيدة في الله لا يتلاءم وارتكاب مثل هذه الخطايا والذنوب، حيث إن الإنسان الذي يحذر مخالفةَ القوانين في الدنيا رهبةً من السجن الوقتي، إن ارتكب الكبائر دون أن يبالي لغضب الخالق العظيم، ولا لعذاب جهنم الأبدي، لابد أن يكون ذلك دليل عدم إيمانه».

جواب الشقّ الأول من السؤال: هو ما أوضحناه في «رسالة القدر» وهو:

أن خلقَ الشرّ ليس شرّاً، وإنما كسبُ الشرّ شرٌّ، لأن الخلق والإيجاد يُنظر إليه من حيث النتائج العامة. فوجودُ شرٍّ واحد، إنْ كان مقدمةً لنتائج خيّرة كثيرة، فإن إيجاده يصبح خيراً باعتبار نتائجه، أي يدخل في حكم الخير.

فمثلاً: النار لها فوائد ومنافع كثيرة جداً، فلا يحق لأحد أن يقول: إن إيجاد النار شرٌّ إذا ما أساء استعمالها باختياره وجعلها شرّاً ووبالاً على نفسه.

وكذلك خلقُ الشياطين وإيجادُهم فيه نتائج كثيرة ذات حكمة للإنسان، كسموّه في سلّم الكمال والرقي. فلا يسيغ لمن استسلم للشيطان -باختياره وكسبه الخاطئ- أن يقول: إن خلقَ الشيطان شرٌ. إذ قد عمل الشر لنفسه بكسبه الذاتي.

أما الكسب الذي هو مباشرةٌ جزئيةٌ للأمر، فإنه يصبح شراً لأنه وسيلةٌ تُفضي إلى شرّ خاصٍ معين، فيكون كسبُ الشرّ بذلك شرّاً، بينما لا يكون الإيجاد شراً، بل يكون خيراً، لأنه يرتبط بجميع النتائج المترتبة فلا يكون إذن خلقُ الشرّ شرّاً.

وهكذا ولعدم إدراك المعتزلة هذا السرّ ضلّوا، إذ قالوا: «إن خلقَ الشر شرٌ وإيجاد القُبح قبحٌ». فلم يردّوا الشرَّ إلى الله سبحانه وتعالى تقديساً وتنزيهاً له، وتأوّلوا الركن الإيماني: «وبالقدر خيره وشرّه من الله تعالى».

أما الشق الثاني: وهو كيف يبقى مؤمناً من ارتكب الكبائر؟

فجوابه:

أولاً: لقد أوضحت الإشارات السابقة أخطاءهم بصورة قاطعة فلا حاجة للإعادة.

ثانياً: إن النفس الإنسانية تُفضّل درهماً من اللذة الحاضرة المعجَّلة على رطل من اللذة الغائبة المؤجّلة، وهي تتحاشى صفعةً حاضرة أكثرَ من تحاشيها سنة من عذابٍ في المستقبل. وعندما تهيج أحاسيسُ الإنسان لا ترضخُ لموازين العقل، بل الهوى هو الذي يتحكم، فيُرجِّحُ عندئذٍ لذةً حاضرةً ضئيلة جداً على ثواب عظيم في العقبى، ويتجنّب ضيقاً جزئياً حاضراً أكثر من تجنبه عذاباً أليماً مؤجلاً. ولما كانت الدوافع النفسانية لا ترى المستقبل بل قد تنكره، وإن كان هناك حثّاً لها من النفس وعوناً، فإن القلب والعقل اللذين هما محل الإيمان، يسكتان، فيُغلَبان على أمرهما. فلا يكون عندئذ ارتكابُ الكبائر ناتجاً من عدم الإيمان، بل من غلبة الهوى وسيطرة الوهم والحسّ المادي، وانهزام العقل والقلب وغَلَبة كل أولئك عليهما.

ولقد فُهم من الإشارات السابقة بأن طريق الفساد والهوى سهلة جداً لأنها تخريب وهدم، لذا يسوق شيطانُ الإنس والجن الإنسانَ إليها بكل سهولة ويسر.

وإنه لمحيّر جداً أن ترى قسماً من الناس الضعفاء يتبعون خطوات الشيطان لتفضيلهم لذّة زائلة -بمقدار جناح بعوضة- في هذه الدنيا الفانية، على لذائذ ذلك النعيم الخالد. في حين يفوق نورٌ أبدي بمقدار جناح بعوضة من ذلك العالم السرمدي الخالد جميع اللذات والنِعَم

التي اكتسبها الإنسانُ طوال حياته، كما هو ثابت في الحديث الشريف.[١] وهكذا من أجل هذه الحِكَم والأسرار، كرر القرآن الكريم الترغيبَ والترهيب وأعادهما ليزجر المؤمن ويجنّبه الذنوب والآثام ويحثه على الخير والصلاح.

ولقد جال في ذهني يوماً سؤالٌ حول هذا التكرار في التوجيه والإرشاد القرآني وهو: ألا تكون هذه التنبيهات المستمرة مدعاةً لجرح شعور المؤمنين في ثباتهم وأصالتهم وإظهارهم في موقف لا يليق بكرامة الإنسان؟. لأن تكرار الأمر الواحد على الموظف من آمره يجعله في موقف يَظنُّ كأنه متّهم في إخلاصه وولائه، بينما القرآن الكريم يكرّر أوامرَه بإصرار على المؤمنين المخلصين.

وحينما كان هذا السؤال يعصر ذهني كان معي جمعٌ من الأصدقاء المخلصين فكنتُ أذكّرهم وأنبّههم باستمرار كي لا تغرّهم دسائس شياطين الإنس، فلم أرَ امتعاضاً أو اعتراضاً منهم قط، ولم يقل أحد منهم: إنك تتّهمنا في إخلاصنا. ولكني كنتُ أخاطب نفسي وأقول: أخشى أنني قد أسخطتُهم بتوجيهاتي المتكررة لهم وكأني أتهمتهم في وفائهم وثباتهم. وبينما أنا في هذه الحالة انكشفت الحقائق المثبتة والموضحة في الإشارات السابقة، فعلمتُ أن أسلوب القرآن الحكيم في تكرار التنبيه مطابقٌ لمقتضى الحال، وضروري جداً، وليس فيه أية مبالغة ولا إسراف قط، ولا اتهام للمخاطبين، حاشَ لله، بل هو حكمةٌ خالصة، وبلاغة محضة. وعَلمتُ كذلك لِمَ لمْ يمتعض ويتكدّر أولئك الأصدقاء الأعزاء من ترديدي النصح لهم؟

وخلاصة تلك الحقيقة هي: أنَّ الفعل الجزئي القليل الذي يصدر عن الشياطين يكون سبباً لحصول شرور كثيرة، لأنه تخريبٌ وهدم، لذا كان لابد لأولئك الذين يسلكون طريق الحق والهداية أن يُجنَّبوا ويُنَبَّهوا كثيراً، ويأخذوا حذرهم ويُمَدّ لهم يدُ العون دائماً لكثرة حاجتهم إليها. لهذا يقدّم الله سبحانه وتعالى في ذلك التكرار عوناً وتأييداً لهم بعدد ألف اسم من أسمائه الحسنى، ويمدّهم بآلاف من أيادي الرحمة والشفقة لإسنادهم وإمدادهم، فلا يقدح به كرامةَ المؤمن بل يقيه ويحفظه، ولا يهوّن شأن الإنسان بل يظهر ضخامة شر الشيطان.

فيا أهل الحق وأهل الهداية! دونكم سبيل النجاة والخلاص من مكايد شيطان الجن

(١) إشارة إلى الحديث الشريف: (لو كانت الدنيا تعدِل عند الله جناحَ بعوضةٍ ما شَرب الكافرُ منها جُرعة ماء). البخاري، تفسير سورة الكهف ٦؛ مسلم، المنافقون ١٨، الزهد ١٣.

والإنس المذكورة فاسلكوها.. اجعلوا مستقرَّكم طريق الحق وهو طريق أهل السنّة والجماعة.. وادخلوا القلعة الحصينة لمحكَمات القرآن المعجز البيان.. واجعلوا رائدكم السنّة النبوية الشريفة تَسلموا وتنجوا بإذن الله..

الإشارة الثامنة

سؤال: لقد أثبتَّ في الإشارات السابقة أن طريقَ الضلالة تجاوزٌ وتعدٍّ وتخريب، وسلوكَها سهلٌ وميسور للكثيرين، بينما أوردتَ في رسائل أخرى دلائل قطعية على أن طريق الكفر والضلالة فيها من الصعوبة والمشكلات ما لا يمكن أن يسلكها أحد، وطريق الإيمان والهداية فيها من السهولة والوضوح بحيث ينبغي أن يسلكها الجميع؟!.

الجواب: إن الكفر والضلالة قسمان:

الأول: هو نفيٌ للأحكام الإيمانية نفياً عملياً وفرعياً، فهذا الطراز من الضلالة سهلٌ سلوكُه وقبوله لأنه «عدمُ قبولِ» الحق، فهو تركٌ وعدمٌ ليس إلّا، وهذا القسم هو الذي ورد بيانُ سهولة قبوله في الرسائل.

أما القسم الثاني: فهو حكمٌ اعتقادي وفكري وليس بعملي ولا فرعي، ولا نفيٌ للإيمان وحدَه بل سلوكٌ لطريق مضادٍ للإيمان، وقبولٌ للباطل وإثباتُ نقيض الحق. فهذا هو خلافُ الإيمان وضدُّه، لذا فهو ليس «بعدم قبولٍ» كي يكون سهلاً وإنما هو «قبولٌ للعدم». وحيث إنه لا يتم إلّا بعد الإثبات، أي إثبات العدم. و«العدم لا يثبت» قاعدة أساسية، فليس من السهل إذن إثباتُه وقبولُه.

وهكذا فإن ما بُينَ في سائر الرسائل هو هذا القسم من طريق الكفر والضلالة التي هي عسيرةٌ وذات إشكال بل ممتنع سلوكُها بحيث لا يسلكها من له أدنى شعور.

وكذلك أُثبت في الرسائل إثباتاً قاطعاً أن في هذه الطريق من الآلام المخيفة والظلمات الخانقة ما لا يمكن أن يطلبها مَن عنده ذرة من العقل والإدراك.

وإذا قيل: إن كانت هذه الطريق الملتوية مظلمةً ومؤلمةً وعويصة إلى هذا الحد فلِمَ يسلكها الكثيرون؟.

فالجواب: إنهم ساقطون فيها، فلا يمكنهم الخروج منها، ولا يرغبون في الخروج مما هم فيه، فيتسلّون بلذة حاضرة مؤقتة، لأن قوى الإنسان النباتية والحيوانية لا تفكّر في العاقبة ولا تراها، وإنها تتغلب على لطائفه الإنسانية.

سؤال: لما كان في الكفر هذا الألم الشديد وهذا الخوف الداهم، وإن الكافر -باعتباره إنساناً- حريصٌ على حياته ومشتاق إلى ما لا يحصى من الأشياء وهو يرى بكفره: أن موته عدمٌ وفراقٌ أبدي. ويرى دوماً بعينه أن الموجودات وجميع أحبّائه سائرون إلى العدم والفراق الأبدي. فكل شيء أمامه -بهذا الكفر- إذن إلى زوال، فالذي يرى بالكفر هذا، كيف لا يتفطّر قلبُه ولا ينسحق تحت ضغط هذا الألم؟ بل كيف يسمح له كفرُه أن يتمتع بالحياة ويتذوقَها؟.

الجواب: إنه يخادع نفسه بمغالطة شيطانية عجيبة، ويعيش مع الظن بتلذذ ظاهري، وسنشير إلى ماهيتها بمثال متداول:

يُحكى أنه قيل للنعامة «إبل الطير»: لماذا لا تطيرين؟ فإنك تملكين الجناح، فقبضتْ جناحَيها وطوتها قائلةً: أنا لست بطائر بل إبل، فأدخلت رأسَها في الرمل تاركةً جسدها الضخم للصياد فاستهدفها. ثم قالوا لها: فاحملي لنا إذن هذا الحمل إن كنتِ إبلاً كما تدّعين، فعندها صفّت جناحيها ونشرتها قائلة: أنا طائر. وتفلتت من تعب الحمل. فظلت فريدةً وحيدة دون غذاء ولا حماية من أحد وهدفاً للصيادين.

وهكذا الكافر، بعد أن تزحزح من كفره المطلق أمام النُذر السماوية القرآنية تردّى في كفر مشكوك. فإذا سُئل: كيف تستطيع العيش وأمامك الموتُ والزوال اللذان تدّعي أنهما انعدام أبدي؟ فهل يتمكن من الحياة ويتمتع بها مَن كان يسير بخطاه إلى حبل المشنقة؟ يجيب: لا، ليس الموت عَدَماً، بل هناك احتمال للبقاء بعدَه، ذلك بعدما أخذ حَظَّه من شمول نور القرآن للعالمين ورحمته لهم فبدأ يتشكك في كفره المطلق، أو أنه يدسّ رأسَه في رمل الغفلة كالنعامة، كي لا يراه الأجل ولا ينظر إليه القبرُ، ولا يرميه الزوالُ بسهم!.

والخلاصة: إنَّ الكافر شأنُه شأن النعامة فهو حينما يرى الموت والزوال عَدَماً يحاول أن ينقذ نفسه من تلك الآلام بالتمسك والتشبث بما أخبر به القرآنُ الكريم والكتب السماوية جميعهُا إخباراً قاطعاً من «الإيمان بالآخرة» والذي ولّد عنده احتمالاً للحياة بعد الموت.

وإذا ما قيل له: فما دام المصيرُ إلى عالم البقاء، فلِمَ إذن لا تؤدي الواجبات التي يفرضها عليك هذا الإيمان كي تسعد في ذلك العالم؟.

يجيب من زاوية كفره المشكوك: ربما ليس هناك عالم آخر، فلِمَ إذن أُرهقُ نفسي؟!.. بمعنى أنه ينقذ نفسه من آلام الإعدام الأبدي في الموت بما وعَد القرآنُ بالحياة الباقية، فعندما تواجهه مشقّةُ التكاليف الدينية، يتراجع ويتشبث باحتمالات كفره المشكوك ويتخلص من تلك التكاليف.

أي إن الكافر -من هذه الزاوية- يظن أنه يتمتع أكثرَ من المؤمن في حياته الدنيا، لأنه يفلت من عناء التكاليف الدينية باحتمالات كفره، وفي الوقت نفسه لا يدخل تحت قساوةِ الآلام الأبدية باحتماله الإيماني. ولكن هذا في واقع الحال مغالطةٌ شيطانية مؤقتة تافهة بلا فائدة.

ومن هنا يتضح كيف أن هناك جانباً من الرحمة الشاملة للقرآن الكريم حتى على الكفار، وذلك بتشكيكه إياهم في كفرهم المطلق. فنجّاهم -إلى حَدّ ما- من حياة كالجحيم وجعلهم يستطيعون العيش في الحياة الدنيا بنوعٍ من الشك في كفرهم المطلق، وإلّا كانوا يقاسون آلاماً معنوية تذكّر بعذاب الجحيم وقد تدفعهم إلى الانتحار.

فيا أهل الإيمان! احتموا بحماية القرآن الكريم الذي أنقذكم من العدم المطلق ومن جحيم الدنيا والآخرة بكل يقينٍ وثقة واطمئنان، وادخلوا بالتسليم الكامل في الظلال الوارفة للسّنة المحمدية بكل استسلام وإعجاب.. وانقذوا أنفسكم من شقاء الدنيا وعذاب الآخرة..

الإشارة التاسعة

سؤال: لِمَ غُلِبَ أهلُ الهداية وهم حزب الله في كثير من الأحيان أمام أهلِ الضلالة الذين هم حزب الشيطان؟ برغم أنهم محاطون بعناية إلهية ورحمة ربّانية، ويتقدم صفوفَهم الأنبياءُ الكرام عليهم السلام ويقود الجميع فخرُ الكائنات محمد عليه الصلاة والسلام؟

وما بال قسم من أهل المدينة المنورة مَرَدوا على النفاق وأصروا على الضلالة ولم يسلكوا الصراط السوي رغم أنهم كانوا يجاورون الرسول الأعظم ﷺ الذي تسطع نبوّتُه ورسالتُه كالشمس وهو يُذكّرهم بالقرآن المعجز الذي يؤثر في النفوس كالإكسير الأعظم ويرشدهم بحقائقه التي تشدّ الجميعَ بقوة أعظم من جاذبية الكون؟

الجواب: للإجابة عن شِقَّي هذا السؤال المحيّر علينا أولاً أن نبين أساساً راسخاً متيناً وهو: أنَّ خالق الكون جلّ وعلا له من الأسماء الحسنى أسماءٌ جلالية وأسماءٌ جمالية. وحيث إن كلاً منها يُظهر حُكمَه بتجليات مختلفة عن الأخرى، لذا فإن الخالق سبحانه وتعالى قد مَزَجَ الأضدادَ ببعضها وجعل كُلّا منها يقابل الآخرَ، وأعطى كلاً منها صفةَ التدافع والتجاوز، فأوجد بذلك مبارزةً حكيمة ذات منافع، بما أوجد من الاختلافات والتغيّرات الناشئة من تجاوز تلك الأضداد لحدودِ بعضها البعض الآخر. فاقتضت حكمتُه سبحانه أن يسير هذا الكون ضمن دستور السموّ والكمال وحسب قانون التغيّر والتحول؛ لذا جعل الإنسانَ وهو الثمرةُ الجامعة لشجرة الخليقة يَتبَع ذلك القانون، أي قانون التدافع والمبارزة، اتباعاً شديد الغرابة حيث فَتح أمامَه بابَ «المجاهدة» التي يدور عليها رقيّ جميع الكمالات الإنسانية وتكاملها. فمن أجل هذا فقد أعطى سبحانه وتعالى حزبَ الشيطان شيئاً من الأجهزة والوسائل ليتمكّن من مواجهة حزب الله ويقابله في ميدان المعركة. وهذا هو السبب، في تمكّن أهل الضلالة وهم في أشدّ الضعف والوهن والعجز، من مقاومة أهل الحق الأقوياء معنوياً الذين يتقدمهم الأنبياءُ عليهم السلام والتغلب عليهم تغلباً مؤقتاً.

أما سرّ الحكمة في هذه المقاومة الغريبة فهي: أنَّ في الضلالة والكفر عَدَماً وتركاً، وهو سهلٌ لا يحتاج إلى دفعٍ ولا إلى تحريك.. وفيها تخريبٌ كذلك، وهو سهلٌ وهيّن أيضاً، إذ تكفيه حركةٌ قليلة.. وفيها تجاوزٌ وتعدٍّ، فعملٌ قليل ويسير منه يؤدي إلى ضرر بالكثيرين فيوهم الآخرين أنهم على شيء فيستخفّون بهم ويستعلون عليهم بإرهابهم وفرعونيتهم.. ثم إن في الإنسان حواسَّ مادية وقوى نباتية وحيوانية لا ترى العاقبة ولا تفكر فيها وهي مفتونةٌ بالتذوق الآني والتلذذ الحاضر. فتلذذُ هذه القوى، وإشباعُ نهمها وانطلاقُها من عِقالها وتحررها يجعل اللطائفَ الإنسانية كالعقل والقلب تعدِل عن وظائفها الأساس التي هي المشاعرُ الإنسانية السامية الساعية للعقبى.

أما طريق أهل الهداية والمسلك السامي للأنبياء عليهم السلام وفي المقدمة حبيبُ ربّ العالمين، الرسول الأكرم ﷺ فهي: وجودية وإيجابيةٌ وتعمير، كما أنها حركة واستقامة على الطريق والحدود، وهي تفكّر بالعقبى، وعبودية خالصة لله، كما أنها سحقٌ لفرعونية النفس الأمّارة بالسوء وكبحٌ لجماحها؛ لذا أصبح منافقو المدينة المنورة في ذلك الوقت أمام هذه الأسس الإيجابية المتينة

وأمثالِها كالخفافيش أمام تلك الشمس الساطعة والسراج المنير فأغمضوا أعينهم عنها، فارتموا في أحضان القوة الدافعة الشيطانية، وظلوا في الضلالة ولم ينجذبوا بجاذبية القرآن العظمى وحقائقه الخالدة.

وإذا قيل: لما كان الرسول الأكرم ﷺ حبيبَ رب العالمين ولا ينطق إلّا بالحقّ ولا يملك إلّا الحقيقة، وقد أمدّه الله في غزواته بملائكةٍ جنوداً مسوّمين، وارتوى جيشٌ كامل من غرفة من ماء تفجّر من بين أصابعه،[١] وشَبعَ ألف من الناس بشاةٍ مطبوخة وحفناتٍ من قمح،[٢] وهزم الكفارَ بقبضة من تراب رماها على عيونهم ودخلت تلك القبضة من التراب في عين كل كافر..[٣] إن قائداً ربانياً يملك أمثالَ هذه المعجزات الباهرة وكثيراً غيرها، كيف يُغلَب في نهاية «أُحد»[٤] وبداية «حُنَين»[٥]؟.

الجواب: إن الرسول ﷺ قد أُرسل إلى البشرية كافة، قدوةً وإماماً ورائداً، كي تتعلم منه مناهجَ الحياة الاجتماعية والشخصية ودساتيرَها، وتَتعوّد على الانقياد لقوانين الإرادة الإلهية الحكيمة وتنسجم مع دساتيرها الربانية. فلو كان الرسول ﷺ مستنداً إلى المعجزات وخوارق العادات في جميع أفعاله الشخصية منها والاجتماعية لَمَا تسنّى له أن يكون إماماً مطلقاً ولا قدوةً كاملة حسنة للبشرية قاطبةً.

ولهذا السبب لم يُظهر ﷺ المعجزات إلّا تصديقاً لدعواه، بشكل متفرق، عند الحاجة، لكسر عِناد المُنكِرين. أما في سائر الأوقات فقد كان ﷺ مراعياً بكل دقة لقوانين عادة الله ولسننه الجارية، ومطيعاً طاعةً كاملة لنواميسه المؤسسّة على الحكمة الربانية والمشيئة الإلهية، كطاعته ومراعاته للأوامر الإلهية، لذا كان ﷺ يلبس الدرعَ في الحروب،[٦] ويأمر الجنود

---

(١) انظر: البخاري، الوضوء ٣٢، المناقب ٢٥، المغازي ٣٥؛ مسلم، الامارة ٧٢، ٧٣، الفضائل ٥، ٦؛ الترمذي، المناقب ٦؛ النسائي، الطهارة ٦١؛ أحمد بن حنبل، المسند ٣/ ٣٢٩.

(٢) انظر: البخاري، الهبة ٢٨، الأطعمة ٦، المغازي ٢٩، المناقب ٢٥؛ مسلم، الأشربة ١٤١، ١٤٢، ١٧٥؛ الترمذي، المناقب ٦؛ ابن ماجه، الأطعمة ٤٧؛ الموطأ، صفة النبي ١٩؛ أحمد بن حنبل، المسند ١/ ١٩٧، ١٩٨.

(٣) انظر: مسلم، الجهاد ٨١؛ الدارمي، السير ١٦؛ أحمد بن حنبل، المسند ١/ ٣٠٣، ٣٦٨، ٥/ ٢٨٦، ٣١٠.

(٤) انظر: البخاري، الجهاد ٦٥، بدء الخلق ١١، مناقب الأنصار ٢٢، المغازي ٨١، الإيمان ١٥، الديات ١٦؛ أبو داود، الجهاد ١٠٦؛ أحمد بن حنبل، المسند ٤/ ٢٩٣، ٢٩٤.

(٥) انظر: البخاري، المغازي ٥٤، الجهاد ٥٢، ٦١، ٩٧، ١٦٧؛ مسلم، الجهاد ٧٩؛ الترمذي، الجهاد ١٥.

(٦) انظر: أبو داود، الجهاد ٧٥؛ ابن ماجه، الجهاد ١٨؛ أحمد بن حنبل، المسند ٣/ ٤٤٩.

بالتترّس بالموانع ضد الأعداء،[١] ويُجرَح ويتأذى ويتحمل المشقّات..[٢] كل ذلك لكي يُبيّن مدى طاعته الكاملة ومراعاتِه للقوانين الإلهية الحكيمة، وانقياده التام لشريعة الفطرة الكونية ونواميسها.

الإشارة العاشرة

إن لإبليس دسيسةً كبرى هي أنه يجعل الذين اتبّعوه يُنكرون وجودَه. سنذكر شيئاً حول هذه المسألة البديهية، وجود الشياطين. حيث يتردد في عصرنا هذا في قبولها أولئك الذين تلوثت أفكارهم بالفلسفة المادية، فنقول:

أولاً: مثلما هو ثابت بالمشاهدة ثبوتاً قطعياً وجود أرواحٍ خبيثة في أجساد بشرية في عالم الإنسان، تنجز وظيفةَ الشيطان وأعماله. كذلك ثابت ثبوتاً قطعياً وجودُ أرواح خبيثة بلا أجساد في عالم الجن، فلو أن هؤلاء أُلبسوا أجساداً مادية لأصبحوا تماماً مثل أولئك البشر الأشرار. وكذلك لو تمكن شياطينُ الإنس -الذين هم على صور بشرية- من نزع أجسادهم لأصبحوا أبالسة الجن.

فبناء على هذه العلاقة الوطيدة ذهب أحدُ المذاهب الباطلة الفاسدة إلى «أن الأرواح الخبيثة الشريرة المتجسدة بصورة أُناسي تتحول إلى شياطين بعد موتها»!.

ومن المعلوم أنه إذا ما فسد الشيءُ الثمين يكون فسادهُ أشدَّ من فساد الشيء الرخيص، كما هو في فساد اللبن أو الحليب حيث يمكن أن يؤكلا، أما إذا فسدَ الدهنُ فلا يمكن أكلُه، إذ قد يكون كالسمّ. وهكذا الإنسان الذي هو أكرم المخلوقات بل ذروتها وقمّتها، إذا فسد فإنه يكون أفسد وأحط من الحيوان الفاسد نفسه. فيكون كالحشرات التي تأنس بالعفونة وتريحُها الروائح الكريهة، وكالحيّات التي تلتذ بلدغ الآخرين. بل يتباهى بتلذذه بالأخلاق الدنيئة النابتة في مستنقع الضلالة، ويستمرئ الأضرار والجرائم الناجمة في ظلمات الظلم. فيكون إذن قريناً للشيطان ومتقمصاً لماهيته.

---

(١) انظر: البخاري، المغازي ٢٩، الجهاد ٣٤، ١٦١، القدر ١٦، التمني ٧؛ مسلم، الجهاد ١٢٥.
(٢) انظر: البخاري، الجهاد ٨٠، ٨٥، ١٦٣، الوضوء ٧٢، المغازي ٢٤، النكاح ١٢٣، الطب ٢٧؛ مسلم، الجهاد ١٠١؛ الترمذي، الطب ٣٤؛ ابن ماجه، الطب ١٥.

نعم، إن الدليل القاطع على وجود شياطين الجنّ هو وجود شياطين الإنس.

ثانياً: إن مئات الدلائل القطعية في «الكلمة التاسعة والعشرين» لإثبات وجود الملائكة والعالم الروحاني، هي بدورها دلائل لإثبات وجود الشياطين أيضاً. نحيل إليها.

ثالثاً: إن وجود الملائكة الذين هم بحكم الممثلين والمشرفين على ما في أمور الخير الموجودة في الكون من قوانين كما أنه ثابت باتفاق الأديان، كذلك وجود الشياطين والأرواح الخبيثة الذين هم ممثلو الأمور الشريرة والمباشرون لها وتدور حولهم قوانينُها، فإنه قطعي الثبوت حكمةً وحقيقةً. بل قد يكون وجود سببٍ وستارٍ مستتر من كائن ذي شعور في ممارسة الأمور الشريرة أكثر ضرورةً، وذلك لعجز كل شخص عن أن يرى الحُسنَ الحقيقي لجميع الأمور، كما ذكرنا في مستهل «الكلمة الثانية والعشرين». فلأجل ألّا تحدّثه نفسُه باعتراضٍ على أمور الخالق سبحانه بما يُتوهم من نقصٍ أو شرّ ظاهريين، ويتهم رحمتَه أو ينتقد حكمتَه أو يشكو بغير حقٍ، جعل الخالقُ الكريم الحكيم العليم وسائطَ وأسباباً ظاهرية مادية ستاراً لأمور قَدَره، وحُجُباً لتتوجه إليها الاعتراضات والانتقادات والشكاوى، ولا تتوجه إليه سبحانه وتعالى. فقد جعل الأمراضَ والمصائب مثلاً أسباباً وستاراً للأجل، لكي لا تتوجه الاعتراضات وتصل إلى مَلَك الموت «عزرائيل عليه السلام». وجعل مَلَكَ الموت نفسه حجاباً لقبض الأرواح، لئلا تتوجه الشكاوى والانتقادات الناتجة من الأمور التي يُتوهم أنها بغير رحمة إليه سبحانه وتعالى.. وهكذا وبقطعية أكثر اقتضت الحكمةُ الرّبانية وجودَ الشياطين لتتوجه إليهم الاعتراضاتُ الناشئة من الشرور والأضرار والفساد.

رابعاً: كما أن الإنسان عالمٌ صغير، كذلك العالمُ إنسان كبير، فهذا الإنسان يمثّل خلاصة الإنسان الكبير وفهرسه، فالنماذجُ المصغّرة في الإنسان لابد أن أصولَها الكبيرة المعظمة موجودةٌ في الإنسان الأكبر بالضرورة.

فمثلاً: إنَّ وجود القوة الحافظة في الإنسان دليلٌ قطعي على وجود اللوح المحفوظ في العالم. وكذلك يشعر كلٌّ منا ويحسّ أن في قرارة نفسه وفي زاوية من زوايا قلبه آلةً وعضواً للوسوسة وهي اللمّة الشيطانية التي هي لسانُ شيطانٍ يتكلم بتلقينات القوة الواهمة، هذه القوة قد تحولت بفسادها إلى شيطان مصغر، لأنها لا تتحرك إلّا ضدَّ اختيار الإنسان وإرادته

وخلاف رغباته الحقيقية. إن هذا الذي يشعر به كلُّ إنسان حِساً وحَدْساً في نفسه دليلٌ قطعي على وجود الشياطين الكبيرة في العالم الكبير. ثم إن هذه اللمّة الشيطانية وتلك القوة الواهمة تُشعران بوجود نفسٍ شريرةٍ خارجية تنفث في الأولى وتستنطق الثانية وتستخدمُها كالأذن واللسان.

الإشارة الحادية عشرة

يعبّر القرآنُ الكريم بأسلوب معجِز عن غضب الكائنات وتغيّظِ عناصر الكون جميعِها وتهيّج الموجودات كافة من شر أهل الضلالة، عندما يصف إشتراك السماء والأرض بالهجوم على قوم «نوح عليه السلام» في الطوفان، وعصف الرياح بقوم «عاد» والصيحة على «ثمود»، وهيجان الماء على قوم فرعون، ونقمة الأرض على قارون.. عند رفضهم الإيمان حتى إن جهنم ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾ (الملك: ٨). وهكذا يبين القرآنُ الكريم غَضَبَ الموجودات وحدّتها على أهل الضلالة والعصيان ويزجرهم بهذا الأسلوب الإعجازي الفريد.

سؤال: لِمَ تجلب هذه الأعمال التافهة الصادرة عن أشخاص لا وزنَ لهم باقترافهم ذنوباً شخصية، سَخَطَ الكون وغضبه؟

الجواب: لقد أثبتنا في الإشارات السابقة وفي رسائل متفرقة أخرى:

أن الكفر والضلالة تجاوزٌ شنيع وتعدٍّ رهيب، وجريمةٌ تتعلق بجميع الموجودات. ذلك لأن أهل الكفر والضلالة يرفضون الغايةَ السامية لخلق الكائنات التي نتيجتُها العظمى عبودية الإنسان وتوجّهه بالإيمان والطاعة والانقياد للربوبية الإلهية. فإنكارهم هذه النتيجة العظمى للكون -التي هي العلّة الغائية وسبب بقاء الموجودات- نوعٌ من تعدٍّ على حقوق جميع المخلوقات.

وحيث إن الموجودات قاطبة تتجلى فيها الأسماء الإلهية الحسنى وكأن كلَّ جزء منها مرآةٌ تعكس تجليات أنوار تلك الأسماء المقدسة، فيكتسب ذلك الجزءُ أهميةً بها ويرتفع منزلةً، فإن إنكار الكافر لتلك الأسماء الحسنى ولتلك المنزلة الرفيعة للموجودات وأهميتِها هو إهانةٌ عظيمة وتحقير شديد فوق كونه تشويهاً ومسخاً وتحريفاً إزاء تلك الأسماء.

وكذلك فإن كل مخلوق في هذا الكون قد أُوكل إليه وظيفة، وكل جزء أُنيط به أمر، أي إن لكل شيء في الوجود مهاماً معينة، فهو إذن بمثابة مأمورٍ وموظف ربّاني. فالكافر بكفره يسلبه تلك الوظيفة المهمة ويجعله جامداً لا معنى له، وفانياً لا غاية له، فيهينه بذلك ويحقّره. وهكذا يظهر تعدّي الكفر ويتبين تجاوزه على حقوق الموجودات جميعها.

ولما كانت الضلالة بأنواعها المختلفة -كلٌّ حسب درجتها- تنكر الحكمة الرّبانية في خلق الكائنات، وترفض المقاصدَ الإلهية في بقاء العالم، فإن الموجودات بدورها تتهيّج، والمخلوقاتُ تثور، والكائناتُ تغضب على الكفر وأهله.

فيا أيها الإنسان العاجز المسكين!. ويا مَن جسمُه صغير وذنبهُ جَسيم وظلمُه عظيم!. إنْ كنت راغباً في النجاة من غضبةِ العالم ونفور المخلوقات وثورة الموجودات فدونك سبيلَ النجاة وهو الدخول في دائرة القرآن الحكيم المقدسة.. واتّباع المبلّغ الأمين ﷺ في سنّته المطهّرة. ادخل.. واتبع.

الإشارة الثانية عشرة

جواب عن أربعة أسئلة:

السؤال الأول: أين وجهُ العدالة في عذاب مقيم في جهنم لذنوبٍ محدودة في حياة محدودة؟

الجواب: لقد فُهِم بشكل واضح من الإشارات السابقة ولاسيما الإشارة الحادية عشرة، أن جريمة الكفر والضلالة ليست محدودة، وإنما هي جنايةٌ لا نهاية لها واعتداء على حقوقٍ لا حدّ لها.

السؤال الثاني: ما سرّ الحكمة فيما جاء في الشرع: إن جهنمَ جزاءُ عملٍ أما الجنّة فهي فضلٌ إلهي؟..

الجواب: لقد تبين في الإشارات السابقة: أن الإنسان يكون سبباً لتدميرٍ هائل وشرور كثيرة بإرادة جزئية بلا إيجاد، وبكسبٍ جزئي، وبتشكيله أمراً عدمياً أو اعتبارياً وإعطاء الثبوت له. ولأن نفسَه وهواه يميلان إلى الأضرار والشرور دائماً، لذا يتحمل هو مسؤوليةَ السيئات

الناتجة من ذلك الكسب الجزئي اليسير. ذلك لأن نفسَه هي التي أرادت، وكسبَه الذاتي هو المسبّب، ولأن ذلك الشرّ عدميٌّ أصبح العبدُ فاعلاً له، والله سبحانه خَلَقَه فصار الإنسان مستحقاً لتحمل مسؤولية تلك الجريمة غير المحدودة بعذاب غير محدود.

أما الحسناتُ فما دامت وجودية أصيلة، لا يكون الكسبُ الإنساني والإرادة الجزئية عِلّة مُوجِدة لها، فالإنسان ليس فاعلاً حقيقياً لها. لأن نفسَ الإنسان الأمّارة بالسوء لا تميل إلى الحسنات، بل الرحمة الإلهية هي التي تريدها، وقدرتُه سبحانه هي التي تخلقها. إلّا أن الإنسان يمكن أن يكون مالكاً لتلك الحسنات بالإيمان وبالرغبة وبالنيّة. وأما بعد تملّكها فإن تلك الحسنات هي بذاتها شكرٌ للنعم الإلهية غير المحدودة التي أسبغها الله سبحانه وتعالى على الإنسان، وفي مقدمتها نعمةُ الوجود ونعمة الإيمان. أي إن تلك الحسنات شكرٌ للنعم السابقة، لذا فالجنّة التي وعَدَها الله لعباده تُوهَب بفضلٍ رحماني خالص، فهي وإن كانت ظاهراً مكافأة للمؤمن إلّا أنها في حقيقتها تفضّلٌ منه سبحانه وتعالى.

إذن فالنفس الإنسانية لكونها المسبّبة للسيئات فهي التي تستحق الجزاء. أما في الحسنات فلما كان السببُ من الله سبحانه وكذلك العلّة منه وامتلكها الإنسان بالإيمان وحدَه فلا يمكنه أن يطالب بثوابها، بل يرجو الفضل منه سبحانه.

السؤال الثالث: لما كانت السيئات تتعدد بالتجاوز والانتشار كما تبيّن فيما سبق، كان المفروض أن تُكتَب كلُّ سيئةٍ بألفٍ، أما الحسناتُ فلأنها إيجابية ووجودية فلا تتعدد مادياً، حيث إنها لا تحصل بإيجاد العبد ولا برغبة النفس، فكان يجب ألّا تُكتب، أو تُكتَب حسنةً واحدة. فلِمَ تُكتب السيئةُ بمثلها والحسنةُ بعشرِ أمثالها أو أحياناً بألف؟.

الجواب: إنَّ الله جلّ وعلا يبيّن لنا -بهذه الصورة- كمالَ رحمته وسعتَها وجمالَ كونه رحيماً بعباده.

السؤال الرابع: إن الانتصارات التي يحرزها أهلُ الضلالة والقوة والصلابة التي يظهرونها، وتغلّبهم على أهل الهداية تُظهر لنا أنهم يستندون إلى حقيقة ويَركنون إلى قوة، فإما أن هناك ضعفاً ووهناً في أهل الهداية، أو أن في هؤلاء الضالّين حقيقةً وأصالة!.

الجواب: كلا ثم كلا.. فليس في أهل الهداية ضعف ولا في أهل الضلالة حقيقة،

ولكن مع الأسف يُبتلى جمعٌ من قصيري النظر -من السذج الذين لا يملكون موازين- بالتردد والانهزام، فيصيب عقيدتَهم الخللُ بقولهم: لو أنّ أهلَ الحق على صِدقٍ وصواب لما كان ينبغي أن يُغلَبوا ولا يُذَلّوا إلى هذا الحد. إذ الحقيقةُ قوية وإن القاعدة الأساسية هي: (**الحق يعلو ولا يُعلى عليه**)[1] ولو لم يكن أهلُ الباطل -الذين يصدّون ويغلبون أهل الحق- على قوة حقيقية وقاعدة رصينة ونقطة استناد متين، لما كانوا يَغلبون أهل الحق ويتفوقون عليهم إلى هذه الدرجة.

وجواب ذلك: لقد أثبتنا في الإشارات السابقة إثباتاً قاطعاً أن انهزام أهل الحق أمام أهل الباطل لا يتأتى من أنهم ليسوا على حقيقة ولا من أنهم ضعفاء، وأن انتصار أهل الضلالة وتغلّبهم ليس ناشئاً من قوتهم ولا من وجود مستندٍ لهم. فمضمون تلك الإشارات السابقة بأجمعها هو جوابُ هذا السؤال، ولكننا نكتفي هنا بالإشارة إلى دسائسهم وشيء من أسلحتهم المستعملة.

لقد شاهدتُ مراراً بنفسي أن عشرةً في المائة من أهل الفساد يَغلِبون تسعين في المائة من أهل الصلاح. فكنت أحارُ في هذا الأمر، ثم بإمعان النظر فيه، فَهِمتُ يقيناً أن ذلك التغلب والسيطرة لم يَكُ ناتجاً من قوة ذاتية ولا من قدرة أصيلة يمتلكها أهلُ الباطل، وإنما من طريقتهم الفاسدة، وسفالتهم ودناءتهم، وعملهم التخريبي، واغتنامهم اختلاف أهل الحق وإلقاء الخلافات والحزازات فيما بينهم، واستغلال نقاط الضعف عندهم والنفث فيها، وإثارة الغرائز الحيوانية والنفسانية والأغراض الشخصية عندهم، واستخدامهم الاستعدادات المضرّة التي هي كالمعادن الفاسدة الكامنة في سبيكة فطرة الإنسان، والتربيت على فرعونية النفس باسم الشهرة والرتبة والنفوذ.. وخوف الناس من تخريباتهم الظالمة المدمّرة... وأمثال هذه الدسائس الشيطانية يتغلبون بها على أهل الحق تغلباً مؤقتاً. ولكن هذا الانتصار الوقتي لهم لا قيمة له ولا أهمية أمام بشرى الله تعالى: ﴿ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (الأعراف:١٢٨) والسر الكامن في (**الحقُ يعلو ولا يُعلى عليه**). إذ يصبح سبباً لدخولهم النار وفوز أهل الحق بالجنّة.

---

(١) (الاسلام يعلو ولايعلى): انظر: الدارقطني، السنن ٣/ ٢٥٢؛ البيهقي، السنن الكبرى ٦/ ٢٠٥، الطبراني، المعجم الأوسط ٦/ ١٢٨، المعجم الصغير ٢/ ١٥٥؛ وعلقه البخاري في الجنائز ٧٩. والمشهور على الألسنة زيادة (على) آخراً، بل هي رواية أحمد. والمشهور ايضاً على الألسنة: الحق يعلو ولايعلى عليه، كشف الخفاء ١/ ١٢٧.

إنَّ ظهور الضعيف الهزيل في الضلالة بمظهر القوة، واكتساب التافهين فيها شُهرةً وصِيتاً، يسلكها كلُّ أناني مُراءٍ مولَع بالشُّهرة فيقوم بإرهاب الآخرين والاعتداء عليهم وإضرارهم، للحصول على منزلةٍ وكسبِ شُهرة، فيقف في صف المعادين لأهل الحق ليسترعي انتباه الناس ويجلب أنظارهم، وليذكروه بإسنادهم أعمال التخريب إليه تلك التي لم تنشأ من قوةٍ وقدرة ذاتية له بل من تركه الخيرَ وتعطيلِه له. حتى سار مثلاً: أن أحد المُغرمين بالشهرة قد لوّث المسجد الطاهر حتى يذكره الناس، وقد ذكروه فعلاً.. ولكن باللعنة، إلّا أن حبّه الشديد للشهرة زيّن له هذا الذكر اللعين فرآه حسناً.

فيا أيها الإنسان المسكين المخلوق لعالم الخلود والمُبتلى بهذه الدنيا الفانية! أمعن النظر في الآية الكريمة وأنصت إليها: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ (الدخان:٢٩) وانظر ماذا تفيد.. إنها تعلن صراحةً أن السماوات والأرض التي لها علاقة بالإنسان لا تبكي على جنازةِ أهل الضلالة عند موتهم.. أي إنها راضيةٌ بفراقهم مرتاحةٌ بموتهم. وإنها تشير ضمناً أن السماوات والأرض تبكي على جنازة أهلِ الهداية عند موتهم، فلا تتحمل فراقَهم، إذ إن الكائنات جميعاً مرتبطةٌ مع أهل الإيمان، وذات علاقة بهم، وإنها راضيةٌ عنهم، ولأنهم يَعرفون -بالإيمان- ربَّ العالمين فيحملون حُبّاً للموجودات ويقدرون قيمتها، وليسوا كأولئك الضالين الذين يضمرون العِداء للموجودات ويحقّرونها.

فيا أيها الإنسان! تأمل في عاقبتك، وفكّر في مصيرك، فأنت لا محالةَ صائرٌ إلى الموت، فإن كنت ممن جعل هواه تبعاً للشيطان، فإن جميعَ الذين حولك من الجيران حتى الأقارب سيُسَرّون بنجاتهم من شرورك، وإن كنت مستعيذاً بالله من الشيطان الرجيم ومتّبعاً لأوامر القرآن الكريم وسنّة حبيب رب العالمين ﷺ فستحزن عليك السماواتُ والأرض، وتبكى معنىً لفراقك الموجوداتُ جميعها فيشيعونك بهذا المأتم العلوي والنعي الشامل إلى باب القبر معبّرين بذلك عما أُعدّ لك من حسن الاستقبال حسب درجتك في عالم البقاء.

الإشارة الثالثة عشرة

تتضمن ثلاث نقاط:

النقطة الأولى: إنَّ أعظم كيدٍ للشيطان هو خداعُه لضيّقي الصدر، وقاصري الفكر من الناس، من جهة عظمةِ الحقائق الإيمانية بقوله: كيف يمكن تصديق ما يقال: أن واحداً أحداً هو الذي يدبّر ضمن ربوبيته شؤونَ جميع الذرات والنجوم والسيارات وسائرِ الموجودات ويدير أمورها بأحوالها كافة؟ فكيف تُصدَّق وتَقرُّ في القلب هذه المسألة العجيبة العظيمة؟ وكيف يقنع بها الفكرُ؟.. مثيراً بذلك حسّاً إنكارياً من نقطة عجز الإنسان وضعفه.

الجواب: «الله أكبر» هو الجواب الحقيقي المُلجِم لهذه الدسيسة الشيطانية وهو المُسكت لها.

نعم، إن كثرةَ تكرار «**الله أكبر**» وإعادتها في جميع الشعائر الإسلامية، مُزيلةٌ لهذا الكيد الشيطاني، لأن الإنسان بقوتِه العاجزة وقدرته الضعيفة وفكره المحدود يرى تلك الحقائق الإيمانية غير المحدودة ويصدّقُها بنور «**الله أكبر**» ويحمل تلك الحقائق بقوة «**الله أكبر**» وتستقر عنده ضمن دائرة «**الله أكبر**» فيخاطب قلبَه المبتلى بالوسوسة قائلاً: إن تدبير شؤون هذه الكائنات وإدارتها بهذا النظام الرائع الذي يراه كلُّ ذي بصر لا تُفسّر إلّا بطريقتين:

الأولى: وهي الممكنة، ولكنها معجزةٌ خارقة. لأن أثراً كهذا الأثر المُعجز لاشك أنه ناتج من عملٍ خارقٍ وبطريقةٍ معجزة أيضاً. وهذه الطريقة هي أن الموجودات قاطبة لم تُخلق إلّا بربوبية الأحد الصمد وبإرادته وقدرته، وهي شاهدةٌ على وجوده سبحانه بعدد ذراتها.

الثانية: وهي طريق الكفر والشرك، الممتنعة والصعبة من جميع النواحي، وغير المعقولة إلى درجة الاستحالة؛ لأنه يلزم أن يكون لكل موجود في الكون، بل في كل ذرّة فيه، ألوهيةٌ مطلقة وعلمٌ محيط واسعٌ، وقدرةٌ شاملة غير متناهية كي تظهر إلى الوجود نقوشُ الصنعة البديعة المتكاملة بهذا النظام والإتقان الرائعَين المشاهدين، وبهذا التقدير والتميّز الدقيقين.. وتلك هي ما بيّنا امتناعَها واستحالتَها وأثبتناها بدلائل قاطعة كما في «المكتوب العشرين» و«الكلمة الثانية والعشرين» وفي رسائل أخرى كثيرة.

والخلاصة: لو لم تكن ربوبيةٌ ذاتُ عظمة وكبرياء لائقةٌ لتدبير الشؤون لَوجبَ حينئذٍ سلوكُ طريق ممتنع وغير معقول من جميع الجهات. فحتى الشيطانُ نفسه لن يكلّف أحداً الدخول في هذا المحال الممتنع بترك تلك العظمة والكبرياء اللائقة المستحقة الضرورية.

النقطة الثانية: إنَّ دسيسة مهمة للشيطان هي: دفعُ الإنسان إلى عدم الاعتراف بتقصيره. كي يسدّ عليه طريق الاستغفار والاستعاذة، مثيراً فيه أنانية النفس لتدافع كالمحامي عن ذاتها، وتنزّهها عن كل نقص.

نعم، إنَّ نفساً تصغي إلى الشيطان لا ترغب في أنْ تنظر إلى تقصيرها وعيوبها، حتى إذا رأتها فإنها تؤوّلها بتأويلات عديدة. فتنظر إلى ذاتها وأعمالها بعين الرضا، كما قال الشاعر:

وَعَيْنُ الرِضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ. . .(١)

فلا ترى عيباً، لذا لا تعترف بتقصيرها، ومن ثم فلا تستغفر الله ولا تستعيذ به فتكون أُضحوكة للشيطان. وكيف يوثق بهذه النفس الأمّارة بالسوء ويعتمد عليها، وقد ذكرها القرآن الكريم بلسان نبيّ عظيم، يوسف عليه السلام: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ ﴾ (يوسف:٥٣) فمَن يَتّهم نفسَه ويرَ عيوبَها وتقصيرها، ومَن اعترفَ بتقصير نفسه يستغفر ربَّه، ومَن يستغفر ربَهُ يستَعِذ به من الشيطان الرجيم وعندها ينجو من شروره.. وإنه لتقصير أكبر ألّا يرى الإنسانُ تقصيره، وإنه لنقصٌ أعظم كذلك ألّا يعترف بنقصه. ومن يرى عيبَه وتقصيره فقد انتفى عنه العيب، حتى إذا ما اعترف يصبح مستحقاً للعفو.

النقطة الثالثة: إنَّ ما يُفسد الحياة الاجتماعية للإنسان هي الدسيسة الشيطانية الآتية:

إنه يحجب بسيئةٍ واحدة للمؤمن جميعَ حسناته. فالذين يُلقون السمعَ إلى هذا الكيد الشيطاني من غير المُنصفين يُعادون المؤمن. بينما الله سبحانه وتعالى عندما يزن أعمالَ المكلّفين بميزانه الأكبر وبعدالته المطلقة يوم الحشر فإنه يحكم من حيث رجَحان الحسنات أو السيئات. وقد يمحو بحسنة واحدة ويُذهب ذنوباً كثيرة. حيث إن ارتكاب السيئات والآثام سهلٌ ويسير ووسائلها كثيرة. فينبغي إذن التعامل في هذه الدنيا والقياس بمثل ميزان العدل الإلهي، فإن كانت حسناتُ شخصٍ أكثر من سيئاته كميةً أو نوعيةً فإنه يستحق المحبة

(١) البيت منسوب للشاعر أبي الطيب المتنبي.

والاحترام. وربما يُنظر إلى كثير من سيئاته بعين العفو والمغفرة والتجاوز لحسنةٍ واحدة ذات نوعية خاصة.

غير أن الإنسان ينسى، بتلقينٍ من الشيطان، وبما يَكمُنُ من الظلم في جبلّته، مئاتٍ من حسنات أخيه المؤمن لأجل سيئةٍ واحدة بدرت منه فيبدأ بمعاداته، ويدخل في الآثام. فكما أن وضع جناح بعوضة أمام العين مباشرةً يحجب رؤيةَ جبل شاهق، فالحقدُ كذلك يجعل السيئة -التي هي بحجم جناح بعوضة- تحجب رؤيةَ حسناتٍ كالجبل الشامخ، فينسى الإنسانُ حينذاك ذكر الحسنات ويبدأ بعداء أخيه المؤمن، ويصبح عضواً فاسداً وآلةَ تدمير في حياة المؤمنين الاجتماعية.

وهناك دسيسة أخرى مشابهة لهذه ومماثلة لها في إفساد سلامة تفكير المؤمن والإخلال باستقامتها وبصحة النظرة إلى الحقائق الإيمانية وهي أنه يحاول إبطال حُكم مئات الدلائل الثبوتية -حول حقيقة إيمانية- بشبهة تدل على نفيها. علماً أن القاعدة هي: أن دليلاً واحداً ثبوتياً يرجّح على كثير من النفي، وأن حكماً لشاهدٍ ثبوتي واحد لدعوى، يؤخذ به ويُرجّح على مائة من المنكرين النافين.

ولنوضح هذه الحقيقة في ضوء هذا المثال:

بناية عظيمة لها مئات من الأبواب المقفلة، يمكن الدخول فيها بفتح باب واحد منها، وعندها تفتح بقية الأبواب، ولا يمنع بقاء قسمٍ من الأبواب مقفلة من الدخول في البناية. فالحقائق الإيمانية هي كتلك البناية العظيمة، وكلُّ دليل ثبوتي هو مفتاح يفتح باباً معيناً، فلا يمكن إنكار تلك الحقيقة الإيمانية أو العُدول عنها بمجرد بقاء بابٍ واحد مسدود من بين تلك المئات من الأبواب المفتوحة. ولكن الشيطان يقنع جماعة من الناس -بناءً على أسباب كالجهل أو الغفلة- بقوله لهم: لا يمكن الدخول إلى هذه البناية مشيراً إلى أحد تلك الأبواب المسدودة ليُسقِط من الاعتبار جميع الأدلة الثبوتية، فيغريهم بقوله: إنَّ هذا القصر لا يمكن الدخول فيه أبداً، فأنت تحسبه قصراً وهو ليس بقصر، وليس فيه شيء!.

فيا أيها الإنسان المسكين!. المبتلى بدسائس الشيطان وكيده!. إن كنتَ ترجو سلامة حياتك الدينية وحياتك الشخصية وحياتك الاجتماعية وتطلب صحةَ الفكر واستقامةَ الرؤية

وسلامةَ القلب، فَزِنْ أعمالك وخواطرك بموازين القرآن المحكمة والسُنّة المحمدية الشريفة، واجعل رائدك القرآن الكريم ومرشدك السُنّة النبوية الشريفة. وتَضَرّع إلى الله العلي القدير بقولك: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

فتلك ثلاث عشرة إشارة، وهي ثلاثة عشر مفتاحاً لتفتح بها القلعة المتينة والحصن الحصين لآخر سورة من القرآن المعجز البيان في المصحف الشريف. وهي كنز الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم وشرحٌ مفصل لها.. فافتحها بهذه المفاتيح.. وادخل فيها تجد السلامة والاطمئنان والأمان.

أعُوذُ بالله منَ الشَّيطانِ الرَّجيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ * مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ * ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ * مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ (سورة الناس)

﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾

﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾

اللمعة الرابعة عشرة

عبارة عن مقامين

المقام الأول

جواب عن سؤالين

بِاسْمِهِ سُبْحَانَهُ

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أخي العزيز الصادق الوفي السيد رأفت!

إن ما سألتموه من سؤال حول «الثور والحوت» قد ورد جوابه في بعض الرسائل. وقد بُيّنت في «الغصن الثالث من الكلمة الرابعة والعشرين» اثنتا عشرة قاعدة مهمة ضمن اثني عشر أصلاً حول هذا النوع من الأسئلة، تلك القواعد تمثل أُسساً مهمةً لدفع الشبهات والأوهام الواردة على الأحاديث الشريفة، فكل قاعدة منها محكٌّ جيد لبيان التأويلات المختلفة حول الأحاديث النبوية.

أخي! إنني لا أنشغل إلّا بالسوانح القلبية، فهناك حالات طارئة في الوقت الحاضر تحول -مع الأسف- دون اشتغالي بالمسائل العلمية؛ لذلك لا أستطيع الإجابة عن سؤالكم بجواب شافٍ، وإنْ وَفّق الله وفتح علينا سوانح قلبية أضطر إلى الانشغال بها. وربما يُجاب عن

أسئلةٍ لتوافقها مع السوانح، فلا تتضايقوا، إذ لا أستطيع الإجابة عن كلٍّ من أسئلتكم إجابة وافية. فلأجِب هذه المرة عن سؤالكم.

تذكرون يا أخي في سؤالكم: أنَّ علماء الدين يقولون: الأرضُ تقوم على الحوت والثور، علماً أن الجغرافية تراها كوكباً معلقاً يدور في السماء كأي كوكب آخر، فلا ثور ولا حوت.

الجواب: هناك رواية صحيحة تُسند إلى ابن عباس رضي الله عنهما، تقول: سُئل الرسول ﷺ: على أي شيء تقوم الأرض؟. أجاب: على الثور والحوت. وفي رواية أخرى، قال مرة: على الثور ومرة: على الحوت.[1] ولكن عدداً من المحدّثين طبقوا هذه الرواية على حكايات خرافية وقديمة وردت عن الإسرائيليات، ولاسيما من علماء بني إسرائيل الذين أسلموا، فهؤلاء غيَّروا معنى الحديث وحوّلوه إلى معنىً عجيب غريب جداً، حيث طبقوا الحديث على ما شاهدوه من حكايات حول الثور والحوت في الكتب السابقة.

ونحن هنا نشير باختصار شديد إلى «ثلاثة أسس» و«ثلاثة وجوه» لدى الإجابة عن سؤالكم:

الأساس الأول: لقد حمل قسمٌ من علماء بني إسرائيل بعد إسلامهم معلوماتِهم السابقة معهم إلى الإسلام، فأصبحت مُلكَ الإسلام أي ضمن المعارف الإسلامية . علماً أن معلوماتِهم السابقة تحوي أخطاءً. فتلك الأخطاءُ بلا شك تعود إليهم لا إلى الإسلام.

الأساس الثاني: إن التشبيهات والتمثيلات كلما انتقلت من الخواص إلى العوام، أي كلما سَرت من يد العلم إلى يد الجهل عُدّت حقائقَ ملموسة بمرور الزمن، أي كأنها حقائقٌ واقعة وليست تشبيهات.

فمثلا: حينما كنت صبياً خُسف القمر، فسألت والدتي: ما هذا الذي حدث للقمر؟. قالت: ابتلعته الحيةُ!. قلت: ولكنه يتبين! قالت: إن الحيَّات في السماء شفافة كالزجاج تشفّ عما في بطنها. كنت أتذكر هذه الحادثة كثيراً وأسائل نفسي: كيف تدور خرافةٌ بعيدة عن الحقيقة إلى هذه الدرجة على لسان والدتي الحصيفة الجادة في كلامها؟.

---

(١) أخرجه الحاكم (٤ / ٦٣٦، رقم ٨٧٥٦) الحديث صحيح ولم يخرجاه. وتعقبه المنذرى فى الترغيب والترهيب (٤ / ٢٥٨) فقال : في متنه نكارة والله أعلم. وانظر: أبو الشيخ، العظمة ٣/ ١٠٣٢، ٤/ ١٣٨٣، ١٤٠٠، ١٤٠٣. ابن رجب، التخويف من النار ص ١٠١؛ الهيثمي، مجمع الزوائد ٨/ ١٣١؛ ابن الجوزي، المنتظم ١/ ١٧٢.

ولكن حينما طالعت علم الفلك رأيت أن الذين يقولون كما تقول والدتي، قد تلقّوا التشبيه كحقيقة واقعية؛ لأن الفلكيين شبهوا القوسَين الناشئين من تداخل دائرة الشمس، وهي منطقة البروج ومدارُ درجاتها، مع دائرة القمر وهي ميلُ القمر ومدار منازله، شبهوهما تشبيهاً لطيفاً بحيّتين ضخمتين، وسموهما تنينَين، وأطلقوا على إحدى نقطتي تقاطع تلك الدائرتين «الرأس» والأخرى «الذنب». فحينما يبلغ القمرُ الرأس والشمس الذنب تحصل حيلولة الأرض -كما يصطلح عليها الفلكيون- أي تقع الأرضُ بينهما تماماً، وعندها يُخسف القمر. أي كأن القمر يدخل في فم التنين، حسب التشبيه السابق.

وهكذا عندما سرى هذا التشبيهُ العلمي الراقي بمرور الزمن إلى كلام العوام غدا التشبيه تنيناً عظيماً مجسماً يبتلع القمرَ!.

وكذلك المَلَكان العظيمان المسمّيان بالثور والحوت، قد أُطلق عليهما هذان الاسمان في تشبيه لطيف سامٍ، وفي إشارة ذات مغزى. ولكن لما انتقل التشبيهُ اللطيف، من لسان النبوة البليغ السامي إلى لسان العوام، بمرور الزمن، انقلب التشبيهُ إلى حقيقة واقعة، فاتخذ المَلَكان صورةَ ثورٍ ضخم وحوتٍ هائل.

الأساس الثالث: كما أن للقرآن الكريم متشابهاتٍ، يرشد المسائل الدقيقة العميقة للعوام بالتشبيه والتمثيل، كذلك للحديث الشريف متشابهاتٌ يعبّر عن الحقائق الواسعة بتشبيهاتٍ مأنوسة لدى العوام. مثال ذلك ما ذكرناه في رسائل أخرى:

أنه عندما سُمع دويّ في مجلس الرسول ﷺ قال: «**هذا حجر يتدحرج منذ سبعين سنة في جهنم فالآن حين وصل إلى قعرها**».[١] وبعد مضي دقائق جاء أحدهم وقال: «إن المنافق الفلاني المعلوم الذي يبلغ سبعين سنة من العمر قد مات». فأعلن عن الحقيقة الواقعة بالتشبيه البليغ الذي ذكره الرسول ﷺ.

أما عن سؤالك يا أخي فسنذكر له ثلاثة وجوه:

الوجه الأول: أنَّ الله سبحانه قد عين أربعاً من الملائكة العظام في العرش والسماوات للإشراف على سلطنة ربوبيته. اسم واحد منهم «النسر» واسم آخر «الثور».[٢]

(١) انظر: مسلم، الجنة ١٢؛ أحمد بن حنبل، المسند، ٣/ ٣١٥، ٣٤١، ٣٤٦.
(٢) انظر: البيهقي، الأسماء والصفات ص ٤٠٣ ؛ السيوطي، الدر المنثور ١/ ٣٢٩، ٦/ ٢٦١ .

أما الأرض التي هي شقيقةٌ صغيرة للسماوات ورفيقةٌ أمينة للسيارات فقد عُين لها مَلكان مشرفان يحملانها، يطلق على أحدهما: «الثور» وعلى الآخر «الحوت». والحكمة في تسميتهما بهذين الاسمين هي أن الأرض قسمان: البر والبحر، أي اليابسة والماء. فالذي يُعَمِّر البحرَ أو الماء هو الحوت أو السمك، أما الذي يُعَمِّر البرَّ والتراب فهو الثور، حيث إن مدار حياة الإنسان على الزراعة المحمولة على كاهل الثور.

فالمَلكان الموكلان بالأرض إذن هما قائدان لها ومشرفان عليها، لذا لهما تعلقٌ وارتباط ومناسبة -من جهة- مع طائفة الحوت ونوع الثور. ولربما -والعلم عند الله- يتمثلان في عالم الملكوت وفي عالم المثال على صورة الحوت والثور.[1] فإشارةً إلى هذه المناسبة والعلاقة، وايماءاً إلى ذينك النوعين من مخلوقات الأرض، قال الذي أُوتي جوامعَ الكلم ﷺ: «الأرض على الثور والحوت» فأفاد بجملة واحدة وجيزة بليغة عن حقيقة عظيمة عميقة قد لا يُعَبّر عنها في صحيفة كاملة.

الوجه الثاني: لو قيل: بمَ تقوم هذه الدولة؟ فالجواب: على السيف والقلم: أي تستند إلى قوة سيف الجيش وشجاعته وإقدامه، وعلى دراية قلم الموظفين وعدالتهم.

وحيث إن الأرض مسكنُ الأحياء، وسيدُ الأحياء الإنسان، والقِسم الأعظم من الناس يقطنون السواحل ومعيشتهم على السمك، والباقون تدور معيشتهم على الزراعة التي هي على عاتق الثور ومحور تجارتهم على السمك. فمثلما يمكن القول: إن الدولة تقوم على السيف والقلم، يمكن كذلك القول: إنَّ الأرض تقوم على الثور والحوت؛ لأنه متى ما أحجم الثورُ عن العمل ولم يلقِ السمك ملايين البيوض دفعة واحدة، فلا عيشَ للإنسان وتنهار الحياة، ويدمر الخالقُ الحكيم سبحانه الأرضَ.

وهكذا أجاب الرسول الكريم ﷺ عن السؤال بحكمة سامية وببلاغة معجزة وبكلمتين اثنتين مبيناً حقيقةً واسعة تتعلق بمدى ارتباط حياة الإنسان بالحيوان فقال ﷺ: «**الأرض على الثور والحوت**».

(١) نعم: إن الكرة الأرضية إنما هي كسفينة تمخر عباب بحر الفضاء فالذي يجري هذه السفينة الضخمة التي لا شعور لها بانتظام دقيق ويسوقها لحكمة معينة بالأمر الإلهي، أي إن قائد تلك السفينة وربانها إنما هو الملَك الذي يطلق عليه اسم «الحوت». وهي أيضاً -أي الأرض- كمزرعة للآخرة كما هو ثابت في الحديث الشريف، فالذي يشرف على تلك المزرعة، من الملائكة - بالإذن الإلهي هو الملك الذي يطلق عليه اسم «الثور». ولا يخفى ما لهذا الإطلاق الجميل من انسجام لطيف. (المؤلف).

الوجه الثالث: إنَّ الشمس في نظر علماء الفلك القديم تدور والأرض ثابتة. وعبّروا عن كل ثلاثين درجة من درجات الشمس بـ«البرج» فلو مُدت خطوط افتراضية بين نجوم تلك البروج لحصل ما يشبه صورة الأسد أحياناً، أو صورة الميزان، أو صورة الثور، أو صورة الحوت، لذا بينوا تلك البروج بتلك الأسماء.

أما علمُ الفلك الحاضر فيرى أنَّ الشمس لا تدور حول الأرض، بل الأرضُ تدور حولها. أي يعطل العمل في تلك البروج، فلابد أنَّ لتلك البروج العاطلة عن العمل والدوائر الهائلة دوائر بمقياس أصغر في مدار الأرض السنوي، أي أصبحت البروجُ السماوية تتمثل في مدار الأرض السنوي، وعندئذ تدخل الأرضُ كل شهر في ظل أحد البروج وتكون ضمن انعكاسه، فكأن مدار الأرض السنوي مرآة تتمثل فيها صورة البروج السماوية.

وهكذا بناء على هذا الوجه -من المسألة- فقد قال الرسول الأعظم ﷺ كما ذكرنا سابقاً «على الثور» مرة و«على الحوت» مرة أخرى.

نعم إنه حَريٌّ بلسان ذلك النبي الكريم المعجز أنْ يقول مرة: «على الثور» مشيراً به إلى حقيقة عميقة لا تُدرك إلّا بعد قرون عديدة. حيث إن الأرض في تلك الفترة -أي فترة السؤال- كانت في الصورة المثالية لبرج الثور، بينما عندما سُئل ﷺ السؤالَ نفسه بعد شهر قال: «على الحوت» لأن الأرض كانت في ظِل برج الحوت.

وهكذا أشار ﷺ بقوله: «على الثور والحوت» إلى هذه الحقيقة العظيمة التي ستظهر في المستقبل وتتوضح.. وأشار به إلى حركة الأرض وسياحتها.. ورمزَ به إلى أن البروج السماوية الحقيقية والعاملة هي التي في مدار الأرض السنوي، والأرضُ هي القائمة بالوظيفة والسياحة في تلك البروج، بينما التي بالنسبة للشمس عاطلة دون أجرام سيارة فيها. والله أعلم بالصواب.

وأما ما جاء من حكايات خارجة عن طور العقل في بعض الكتب الإسلامية حول الثور والحوت. فإما أنها من الإسرائيليات، أو هي تشبيهات وتمثيلات، أو أنها تأويلاتُ بعض الرواة، حسبها الذين لا يتحرَّون الدقة أنها من الحديث نفسه واسندوها إلى كلام الرسول ﷺ.

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾

﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾

السؤال الثاني: يخص أهل العباء.

أخي!

سنذكر حكمةً واحدة فقط من الحِكم الكثيرة التي ينطوي عليها سؤالكم حول «أهل العباء» الذي ظل بلا جواب، وهي: أنَّ أسراراً وحكماً كثيرة في إلقاء الرسول ﷺ عباءه (ملاءته) المباركة التي كان يلبسها على علي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم أجمعين، ثم دعاؤه لهم[1] في هذا الوضع وبهذه الآية الكريمة: ﴿... لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (الأحزاب:٣٣). ولكننا لا نخوض في أسراره، ولا نذكر إلّا حكمةً من حِكمه التي تتعلق بمهمة الرسالة وهي:

أنَّ الرسول الكريم ﷺ قد رأى بنظر النبوة الأنيس بالغيب، النافذ إلى المستقبل، أنه بعد نحو ثلاثين أو أربعين سنة ستقع فتنٌ عظيمة في صفوف الصحابة والتابعين، وستُراق الدماء الزكية. فشاهد أن أبرز مَنْ فيها هم الأشخاصُ الثلاثة الذين ستَرَهم تحت عباءته. فلأجل الإعلان عن تبرئة علي في نظر الأمة.. وتسلية الحسين وعزائه.. وتهنئة الحسن وإظهار شرفه ومكانته وعظيم نفعه للأمة برفعه فتنة كبيرة بالصلح.. وطهارة نسل فاطمة وشرافتهم وأهليتهم بلقب أهل البيت، ذلك العنوان الشريف الرفيع.. لأجل كل ذلك ستر ﷺ أولئك الأربعة مع نفسه تحت ذلك العباء واهباً لهم ذلك العنوان المشرف: آل العباء الخمسة.[2]

نعم، إنَّ سيدنا علياً رضي الله عنه كان خليفة للمسلمين بحقٍ، ولكن لأن الدماء الزكية التي أُريقت جليلةٌ فإن براءته منها وتبرئتَه في نظر الأمة لها أهميتُها من حيث وظيفة الرسالة. لذا يُبَرئ الرسول الكريم ﷺ ساحتَه بتلك الصورة. فيدعو إلى السكوت بحقه كلَّ من ينتقده ويُخطئه ويضلله من الخوارج والموالين للأمويين المتجاوزين عليه.

نعم، إن الخوارج وأتباع الأمويين المغالين بتفريطهم في حق سيدنا علي رضي الله عنه وتضليلهم له وإفراطِ الشيعة وغلوِّهم وبدعهم وتبرّيهم من الشيخين مع وقوع الفاجعة

(١) انظر: مسلم، فضائل الصحابة ٦١؛ الترمذي، تفسير سورة الأحزاب ٧، المناقب ٣١؛ أحمد بن حنبل، المسند ١/ ٣٣٠، ٤/ ١٠٧.

(٢) انظر: مسلم، فضائل الصحابة ٦١؛ ابن ابي شيبة، المصنف ٦/ ٣٧٠

الأليمة على الحسين رضي الله عنه، قد أضرّ أهلَ الإسلام أيّما ضرر. فالرسول الكريم ﷺ ينجي بهذا الدعاء والعباء علياً والحسين من المسؤولية والتُهم، وينقذ أمتَه من سوء الظن في حقهما كما ينبئ - من حيث مهمة الرسالة - الحسنَ الذي أحسن إلى الأمة بالصُلح الذي قام به، ويعلن أن النسل المبارك الذي يتسلسل من فاطمة سينالون شرفاً رفيعاً، وأن فاطمة ستكون كريمةً من حيث ذريتها كما قالت أم مريم في قوله تعالى:

﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ (آل عمران:٣٦)

اللّهم صلّ على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين الأبرار وعلى أصحابه المجاهدين المكرمين الأخيار. آمين.

المقام الثاني

يضم هذا المقام ستةً من أُلوف أسرار



تنبيه: لقد ظهر عن بُعدٍ لعقلي الخامد نورٌ ساطعٌ أشرق من أُفق رحمة الله في البسملة. فأردتُ تسجيله في صورةِ ملاحظات ومذكِّرات خاصة بيّ، وقمتُ بمحاولة اقتناص ذلك النور الباهر بإحاطته بسورٍ من أسراره البالغة نحو ثلاثين سراً، كي يسهُل حصرُه ويتيسر تدوينه، إلّا أنني مع الأسف لم أُوفَّق تماماً الآن في مسعاي، فانحسرت الأسرارُ إلى ستة فقط.

والخطاب في هذا المقام موجّه إلى نفسي بالذات. فحينما أقول: «أيها الإنسان!» أعني به نفسي.

فهذا الدرس مع كونه خاصاً بي إلّا أنني أعرضه للأنظار الصائبة لأخوتي المدققين ليكون «المقام الثاني من اللمعة الرابعة عشرة» وعلّه يكون موضع فائدة لمن ارتبط بي برباط روحي، والذي نفسُه أكثر يقظةً مني وانتباهاً.

هذا الدرس متوجّه إلى القلب أكثر منه إلى العقل ومتطلّع إلى الذوق الروحي أكثر منه إلى الدليل المنطقي.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ (النمل:٢٩-٣٠)

سنذكر في هذا المقام بضعةً من الأسرار:

السر الأول:

في أثناء تأملي في البسملة رأيتُ نوراً من أنوار ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ على الصورة الآتية:

إنَّ هناكَ ثلاثَ علامات نيّرة ساطعة للربوبية على سيماء الكائنات، وعلى قَسمات وجه الأرض، وعلى ملامح وجه الإنسان. هذه العلامات الزاهرة والآيات الساطعة متداخلٌ بعضُها في البعض الآخر، حتى إن كلاً منها يبين نموذجَ الآخر ومثاله.

فالعلامة الأولى: هي علامةُ الأُلوهية، تلك الآية الكبرى، الساطعةُ من التعاون والتساند والتعانق والتجاوب الجاري في أجزاء الكون كله؛ بحيث يتوجه ﴿ بِسْمِ اللهِ ﴾ إليها ويدل عليها.

العلامة الثانية: هي علامة الرحمانية، تلك الآية العظمى، الزاهرةُ من التشابه والتناسب والانتظام والانسجام واللطف والرحمة الساري في تربية النباتات والحيوانات؛ بحيث يتوجّه ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ ﴾ إليها ويدل عليها.

ثم العلامة الثالثة: وهي علامة الرحيمية، تلك العلامة السامية، الظاهرةُ من لطائف الرأفة الإلهية ودقائق شفقتها وأشعة رحمتها المنطبعة على سيماء الماهية الجامعة للإنسان، بحيث يتوجّه اسم «الرحيم» الذي في ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ إليها ويدل عليها.

أي إن ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ عنوانٌ قُدسي لثلاث آيات من آيات الأحدية، حتى إنه يُشكّل سَطراً نورانياً في كتاب الوجود، ويخط خطاً ساطعاً في صحيفة العالم، ويمثل حبلاً متيناً بين الخالق والمخلوق. أي أن ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ نزولاً من

العرش الأعظم يرتبط طرفه ونهايته بالإنسان الذي هو ثمرة الكائنات ونسخةُ العالم المصغرة، فيربط الفرشَ بالعرش الأعظم، ويكون سبيلاً ممَهداً لعروج الإنسان إلى عرش كمالاته.

السر الثاني:

إن القرآن الكريم يبين دوماً تجلي «الأحدية» ضمن تجلي «الواحدية» ليحُول دون غرق العقول وتشتتها في تلك «الواحدية» الظاهرة في مخلوقات كثيرة لا يحصرها العّد.

ولنوضح ذلك بمثال:

الشمس تحيط بضيائها بما لا يحدّ من الأشياء. فلأجل ملاحظةِ ذاتِ الشمس في مجموع ضيائها يلزم أن يكون هناك تصورٌ واسعٌ جداً ونظر شامل. لذا تُظهِرُ الشمسُ ذاتَها بوساطة انعكاس ضوئها في كل شيء شفاف، أي يُظهِر كلُّ لماعٍ حسب قابليته جلوةَ الشمس الذاتية مع خواصها كالضياء والحرارة، وذلك لئلا تُنسى ذاتُ الشمس. ومثلما يُظهِر كلُّ لماع الشمسَ بجميع صفاتها حسب قابليته، تحيط أيضاً كلُّ صفةٍ من صفات الشمس كالحرارة والضياء وألوانِه السبعة بكلِّ ما يقابلها من أشياء.

ولا مشاحة في الأمثال ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ فكما أنَّ لله سبحانه الأحد الصمد تجلياً في كل شيء بجميع أسمائه الحسنى، ولاسيما في الأحياء، وبخاصةٍ في مرآة ماهية الإنسان. كذلك كل اسم من أسمائه الحسنى المتعلقة بالموجودات يحيط بالموجودات جميعاً من حيث الوحدة والواحدية. فيضع سبحانه وتعالى طابعَ الأحدية في الواحدية نصبَ عين الإنسان وأمام نظره كيلا تغرق العقولُ وتغيب في سعة الواحدية ولئلا تنسى القلوبُ وتذهل عن الذات الإلهية المقدسة.

فـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ يدل على ثلاثٍ من العقد المهمة لذلك الطابع المميز ويبينها.

السر الثالث:

إنه بديهي، بل مشاهَد أن الرحمة الإلهية هي التي أبهجت الكائنات التي لا يحدها حدود..

وأن الرحمة نفسها هي التي أنارت هذه الموجودات المغشية بالظلمات..

وأن الرحمة أيضاً هي التي ربَّت في أحضانها هذه المخلوقات المتقلبة في حاجات لا حد لها..

وأن الرحمة أيضاً هي التي وجّهت الكائنات من كل صَوب وحَدب وساقتها نحو الإنسان وسخَّرتْها له، بل جعلتها تتطلع إلى معاونته وتسعى لإمداده، كما تتوجه أجزاءُ الشجرة إلى ثمرتها..

وأن الرحمة أيضاً هي التي عمَّرت هذا الفضاء الواسع وزيَّنت هذا العالم الخالي..

وأن الرحمة نفسها هي التي جعلت هذا الإنسان الفاني مُرشحاً للخلود والبقاء، وأهَّلته لتلقّي خطاب رب العالمين ومَنَحَتْه فضل ولايته سبحانه.

فيا أيها الإنسان!

ما دامت الرحمةُ محبوبة، ولها من القوة والجاذبية والإمداد إلى هذا الحد، فاستعصم بتلك الحقيقة بقولك ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ وانقذ نفسك من هول الوحشة المطلقة، وخلّصها من آلام حاجات لانهاية لها، وتقرّب إلى ذي العرش المجيد، وكن مخاطَباً أميناً وخليلاً صادقاً له، بأنوار تلك الرحمة ورأفتها.

نعم، إن حشدَ الكائنات وجمعَها حول الإنسان ضمن حكمةٍ مقدَّرة، وجعلَ كلٍّ منها يمد يد العون إليه لدفع حاجاته المتزايدة، نابع بلا شك من إحدى حالتين اثنتين: فإما أن كل نوع من أنواع الكائنات يعرف الإنسان ويعلم به فيطيعه ويسعى لخدمته، أي إن هذا الإنسان الغارق في عجز مطلق يملك قدرة سلطان مطلق (وهذا بعيد كل البعد عن منطق العقل فضلاً عما فيه من محالات لا تحد).. أو إن هذا التعاون والإمداد إنما يتم بعلمٍ محيط لقادر مطلق محتجب وراء الكائنات.. أي إن أنواع الكائنات لا تعرف هذا الإنسان لتُمد له يدَ العون، وإنما هي دلائل على مَن يعرف هذا الإنسان ويرحمه، ويعلم بحاله.. وهو الخالق الرحيم.

فيا أيها الإنسان عُدْ إلى رشدك! أوَ يمكن ألّا يعلم بك وألّا يراك هذا الربُّ الرحيم، وهو الذي دفع المخلوقات لمعاونتك ملبيةً جميع حاجاتك؟

فما دام سبحانه يَعلمُ بك ويُعلِمُك بعلمهِ هذا بإسباغ رحمته عليك، فما عليك إلّا بذل الجهد لمعرفته، والسعي لإظهار معرفتك له بتوقير أوامره.

واعلم يقيناً أنه ليست إلّا حقيقةُ الرحمة الإلهية -التي تسع الحكمةَ والعناية والعلمَ والقدرة- قد سخَّرتْ لك هذه الكائنات، وجَعَلَتها طوع إرادتك، وأنت المخلوق الضعيف الصغير العاجز الفقير الفاني.

فرحمةٌ عظيمة إلى هذا الحد، واسعةٌ إلى هذا القدر.. لاشك أنها تطلب منك شكراً كلياً خالصاً، وتعظيماً لا يَشوبُه شيءٌ.

فاعلم أنه لا يُترجم لك ذلك الشكرَ الكلي والتعظيم الخالص إلّا ﴿ بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ . فقله، واتخذه وسيلةً لبلوغك تلك الرحمة الواسعة، واجعله شفيعاً لك لدى الرحمن الرحيم.

حقاً! إن وجودَ الرحمة وظهورَها أظهرُ من الشمس في كبد السماء؛ إذ كما يحصل نسجُ نقشٍ جميل في المركز من تناسق لُحمَته وسَداه ومن انتظام أوضاع خيوطٍ تمتد من كل جهة نحو المركز.. فإن خيوطَ شعاع النور النابع من تجلي ألف اسم واسم من الأسماء الحسنى، والممتدة إلى هذا الكون الشاسع تنسج على سيمائه نسيجاً في غاية الروعة والجمال ضمن إطار الرحمة السابغة، حتى يُظهِر للعقول -أوضحَ من الشمس للعيون- ختماً واضحاً للرحيمية، ونقشاً رائعاً للشفقة والرأفة، وشعاراً بديعاً للعناية.

نعم، إنَّ الذي ينظّم الشمس والقمر والعناصر والمعادن والنباتات والحيوانات، وينسقها جميعاً بأشعة ألف اسم واسم، كأنها لُحمةُ نقشٍ بديعٍ وسَداه، وخيوطُه النورانية، ويسخّرها جميعاً في خدمة الحياة.. والذي يُظهر رأفتَه وشفقته على الخلق أجمعين بما أودع في الوالدات -من نبات وحيوان- تلك الشفقة الحلوة اللذيذة تجاه صغارها.. والذي أظهر أسطع تجليات رحمته، وأجمل نقوش ربوبيته سبحانه، بتسخيره الأحياء لحياة الإنسان، مبيناً به منزلة الإنسان لديه وأهميته عنده.. هو الرحمن ذو الجمال الذي جعل رحمته الواسعة هذه شفيعةً مقبولة مأنوسة لدى غناه المطلق، يتشفّع بها ذوو الحياة والإنسان المفتقر فقراً مطلقاً إلى تلك الرحمة.

فيا أيها الإنسان!

إنْ كنت إنساناً حقاً، فقل: ﴿ بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ لتظفر بذلك الشفيع.

إنه بديهي، بل مشاهَد أن الرحمة هي التي تربي طوائفَ النباتات والحيوانات التي تربو على أربعمائة ألف طائفة، رغم تباينها وتنوعها.. وهي التي تدير أمورها جميعاً بلا التباس ولا نسيان ولا اختلاط، وفي أنسبِ وقت وأكمل نظام وأتم حكمة وأوفق عناية، حتى وضَعَتْ بهذه الإدارة والتربية طابعَ الأحدية وختمَها على سيماء الأرض.

نعم، إنَّ وجود تلك الرحمة ثابت وقطعي كوجود الموجودات المبثوثة على الأرض، كما أن دلائل تحققها بعدد تلك الموجودات.

ومثلما نشاهد على وجه الأرض آيةَ الأحدية وسمتَها وختمَ الرحمة وطابعَها، فإن على سيماء الماهية المعنوية الإنسانية أيضاً طابعَ الرحمة.. هذا الطابع والختم ليس بأقل وضوحاً من ذلك الذي على وجه الأرض، ولا من ذلك الذي على وجه الكائنات.. بل إن سمة هذه الرحمة لها من الجامعية والشمول حتى كأنها بؤرةٌ لامّةٌ لأنوار تجليات الأسماء الحسنى.

فيا أيها الإنسان!

إن الذي وهب لك هذه السيماء المعنوية، ووضع عليها الرحمةَ وخَتَمها بختم الأحدية، أمِن الممكن أن يتركك سُدىً، ولا يكترث بك ولا يهتم ولا يراقب أعمالك وحركاتك؟ أوَ من الممكن أن يجعل حركة جميع الكائنات المتوجهة إليك عبثاً لا طائلَ من ورائها؟ أو يجعل شجرة الخلقة العظيمة شجرة تافهة، وثمرتها ثمرة فاسدة؟ أم هل يمكن أن يضع رحمته الظاهرة ظهور الشمس -والتي لا تحتمل شكاً ولا ريباً- ويضع حكمتَه الواضحة وضوح النور، موضعَ الإنكار والجحود؟ كلا.. ثم كلا.. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

فيا أيها الإنسان!

اعلم أن لبلوغ عرش تلك الرحمة معراجاً.. ذلك المعراج هو:



فإن شئت أن تعرف مدى أهمية هذا المعراج ومدى عظمتِه ومكانته فانظر إلى مستهل سور القرآن الكريم البالغة مائة وأربع عشرة سورة، وانظر بدايات كل كتاب قيّم، ولاحظ بدء كل أمر ذي بال. حتى يُعدّ حجة قاطعة على عظمة البسملة وعلو قدرها ما قاله الإمام الشافعي

رضي الله عنه وأمثاله من المجتهدين العظام: «إنَّ البسملة رغم أنها آية واحدة فإنها نزلت في القرآن مائة وأربع عشرة مرة».[١]

السر الرابع:

إنَّ تجلي الواحدية في مخلوقاتٍ لا حدّ لها، لا يحيط به كلُّ مَن يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ . حيث يتشتت الفكرُ ويتيه في تلك الكثرة، إذ يلزم لملاحظة ذات الله الأحد من خلال مجموع المخلوقات لدى خطاب: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وجودَ قلبٍ واسعٍ يسع الأرض كلها.

فبناءً على هذا السر الدقيق فإن الله سبحانه يبيّن بجلاء طابعَ الأحدية في كل جزءٍ مثلما يُظهِره في كل نوعٍ، وذلك لتُشَدَّ الأنظارُ إلى ذات الله الأحد، وليتمكن كلُّ شخص -مهما بلغتْ مرتبتُه- من التوجّه المباشر في خطابه : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إلى ذات الله الأقدس سبحانه من دون تكلّف أو صعوبة.

فتبياناً لهذا السر العظيم فإن القرآن الكريم عندما يبحث في آيات الله في أجواء الآفاق وفي أوسع الدوائر إذا به يذكُر أصغرَ دائرةٍ من دوائر المخلوقات وأدقَّ جزئيةٍ من جزئياتها، إظهاراً لطابع الأحدية بوضوح في كل شيء.

مثال ذلك:

عندما يبين القرآن الكريم آيات خلق السماوات والأرض يعقبها بآياتِ خلق الإنسان وبيانِ دقائق النعمة في صوته وبدائع الحكمة في ملامحه، كي لا يتشتت الفكرُ في آفاق شاسعة، ولا يغرق القلبُ في كثرة غير متناهية، ولتبلغ الروحُ معبودَها الحق دون وساطة.

فالآية الكريمة الآتية تبين الحقيقة السابقة بياناً معجزاً: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ (الروم: ٢٢).

وكذا فإن آيات الوحدانية وأختامَها مع أنها قد وُضعت في المخلوقات بكثرة غير متناهية، ابتداءً من أوسع الأختام وأكثرها كلية إلى أصغرها جزئية، في دوائر متداخلة وفي

(١) الشافعي، الأم ١/ ٢٠٨؛ الجصاص أحكام القرآن ١/ ٨؛ الغزالي، المستصفى ١/ ٨٢؛ ابن الجوزي، التحقيق في أحاديث الخلاف ١/ ٣٤٥-٣٤٧ الزوائد، نصب الراية ١/ ٣٢٧

مراتب متنوعة وأنواع شتى، إلّا أن وضوحَ هذه الأختام للوحدانية -مهما بلغ من الظهور- فهو وضوحٌ ضمن كثرةٍ من المخلوقات لا يُوفي حقَّ الوفاء حقيقةَ الخطاب في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لذا يلزم وجودَ طابع الأحدية في ثنايا ختم الوحدانية، كي يفتح الطريق أمام القلب للوصول إلى ذات الله الأقدس من دون أن يذكّره بالكثرة.

ثم، لأجل لفت الأنظارِ إلى طابع الأحدية، وجلبِ القلوب نحوها، فقد وُضع فوق تلك السمة للأحدية نقشٌ بديعٌ في منتهى الجاذبية، ونورٌ باهر في منتهى السطوع، وحلاوةٌ لذيذة في منتهى الذوق، وجمالٌ محبوب في منتهى الحُسن، وحقيقة رصينة في منتهى القوة، تلك هي سمةُ الرحمة وختمُ الرحيمية.

نعم، إن قوة تلك الرحمة هي التي تجلب أنظار ذوي الشعور نحوها فتُوصلها إلى طابع الأحدية وتجعلها تلاحظ ذات الأحد الأقدس حتى تجعل الإنسان يحظى بالخطاب الحقيقي في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .

وهكذا فـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ من حيث إنه فهرسٌ لفاتحة الكتاب المبين وخلاصةٌ مجملة له، قد أصبح عنواناً لهذا السر العظيم المذكور، وترجماناً له، فالذي يتمكن من أن ينال هذا العنوان يستطيع أن يجول في طبقات الرحمة، والذي يستنطق هذا الترجمان يتعرّف على أسرار الرحمة ويتعلمها ويشاهد أنوار الرحيمية والرأفة.

السر الخامس:

لقد ورد في حديث شريف «**إن الله خلق آدمَ على صورة الرحمن**»[1] أو كما قال ﷺ.

فسَّرَ قسمٌ من أهل الطرق الصوفية هذا الحديثَ الشريف تفسيراً عجيباً لا يليق بالعقائد الإيمانية، ولا ينسجم معها. بل بلغ ببعضٍ من أهل العشق أن نظروا إلى السيماء المعنوي للإنسان نظرتَهم إلى صورة الرحمن! ولمّا كان في أغلب أهل العشق حالةٌ استغراقية ذاهلةٌ والتباس في الأمور، فلربما يُعذَرون في تلقّياتهم المخالفة للحقيقة. إلّا أن أهل الصحو، وأهل الوعي والرشاد يرفضون رفضاً باتاً تلك المعاني المنافية لأسس عقائد الإيمان، ولا يقبلونها قطعاً. ولو رضيَ بها أحدٌ فقد سقط في خطأ وجانَبَ الصواب.

(١) انظر: الحافظ في الفتح ٥/ ١٨٣؛ ابن أبى عاصم في السنة ١/ ٢٢٨؛ الطبرانى ١٢/ ٤٣٠؛ الدارقطنى، الصفات (ص ٣٦، رقم: ٤٨) عن ابن عمر بلفظ: (لا تقبحوا الوجه فإن الله خلق آدم على صورة الرحمن عز وجل).

نعم، إن الذي يدبّر أمور الكون ويهيمن على شؤونه بسهولة ويُسر كإدارة قصر أو بيت.. والذي يحرك النجومَ وأجرامَ السماء كالذرات بمنتهى الحكمة والسهولة.. والذي تنقاد إليه الذراتُ وتأتمر بأمره وتخضع لحكمه.. إن الذي يفعل هذا كله هو الله القدوسُ سبحانه.. فكما أنه منزّه ومقدّس عن الشرك؛ فلا شريكَ له، ولا نظيرَ، ولا ضدّ ولا ندّ، فليس له قطعاً مثيلٌ ولا مثالٌ ولا شبيهٌ ولا صورةٌ أيضاً، وذلك بنص الآية الكريمة: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١) إلّا أن شؤونه الحكيمة وصفاتِه الجليلة وأسماءه الحسنى يُنظَر إليها بمنظار التمثيل والمَثَل حسب مضمون الآية الكريمة: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (الروم: ٢٧). أي إن المَثَل والتمثيل واردٌ في النظر إلى شؤونه الحكيمة سبحانه.

ولهذا الحديث الشريف مقاصدُ جليلةٌ كثيرة، منها: أنَّ الإنسان مخلوقٌ على صورة تُظهِر تجلي اسم الله «الرحمن» إظهاراً تاماً. فلقد بينا في الأسرار السابقة أنه مثلما يتجلى اسمُ «الرحمن» من شعاعات مظاهر ألف اسمٍ واسم من الأسماء الحسنى على وجه الكون، ومثلما يُعْرَض اسمُ «الرحمن» بتجليات لا تحدّ للربوبية المطلقة على سيماء الأرض، كذلك يُظهِر سبحانه التجلي الأتم لذلك الاسم «الرحمن» في الصورة الجامعة للإنسان، يُظهِره بمقياسٍ مصغر بمِثلِ ما يُظهره في سيماء الأرض وسيماء الكون بمقياس أوسعَ وأكبر.

وفي الحديث الشريف إشارةٌ كذلك إلى أن في الإنسان والأحياء من المظاهر الدالة على «الرحمن الرحيم» ما هو بمثابة مرايا عاكسة لتجلياته سبحانه، فدلالةُ الإنسان عليه سبحانه ظاهرة قاطعة جليّة، تشبه في قطعيتها وجلائها دلالةَ المرآة الساطعة بصورة الشمس وانعكاسها على الشمس نفسها. فكما يمكن أن يقال لتلك المرآة: إنها الشمس، إشارة إلى مدى سطوعها ووضوح دلالتها عليها، كذلك يصح أن يقال -وقد قيل في الحديث- إن في الإنسان صورةَ «الرحمن»، إشارةً إلى وضوح دلالته على اسم «الرحمن» وكمال مناسبته معه ووثوق علاقته به. هذا وإن المعتدلين من أهل وحدة الوجود قد قالوا: «لا موجود إلّا هو» بناء على هذا السر من وضوح الدلالة، وعنواناً على كمال المناسبة.

اللّهمَ يا رَحمن يا رحِيم بحق ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ارحمنا كما يليق برَحِيمِيَّتِكَ، وفهّمنا أسرار ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ كما يليق برَحمانِيَّتك آمين.

السر السادس:

أيها الإنسان المتقلب في خضم عَجز لا نهاية له وفَقر لا حد له، إذا أردت أن تفهم كيف أن الرحمة أعظمُ وسيلة وأرجى شفيع، فاعلم:

أن الرحمة أقوى وسيلة للوصول إلى سلطان عظيم ذي جلال، تنقاد له النجومُ والذرات معاً جنوداً مطيعين طاعةً تامة في انتظام تام.. ذلك السلطانُ ذو الجلال والإكرام رب العالمين المستغني عن الخلق أجمعين، الكبير المتعالي عن الموجودات، فلا حاجة له أصلاً إلى الموجودات، بل كلُّ شيء قد تواضع لعظمته واستسلم لقدرته وذلّ لعزته وخضع لهيبة جلاله.. فالرحمة أيها الإنسان ترفعك إلى ديوان حضور ذلك الغني المطلق، وتجعلك خليلاً لذلك السلطان السرمدي الأعظم، بل تعرج بك إلى مقام خطابه الجليل، وتجعلك عبداً مكرَّماً محبوباً عنده.

ولكن، كما أنك لا تصل إلى الشمس لبُعدك عنها، بل لا يمكنك التقرب إليها بحال، فإن ضوءها يُسلّم إليك تجليها وصورتَها بواسطة مرآةٍ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ فنحن على الرغم من بُعدنا المطلق عن الله سبحانه وتعالى، فإن نورَ رحمته يقرّبه إلينا.

فيا أيها الإنسان! إن من يظفر بهذه الرحمة فقد ظفر بكنزٍ عظيم لا يفنى، كنزٍ ملؤه النور. أما طريق الوصول إلى ذلك الكنز العظيم فاعلم: أن أسطع مثالٍ للرحمة، وأفضل مَن يمثلها، وأبلغَ لسانٍ ناطقٍ بها، وأكرمَ داعٍ إليها، هو الذي سُمّي في القرآن الكريم ﴿رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ وهو رسولنا الحبيب ﷺ. فالطريق الأمثل لبلوغ تلك الخزينة الأبدية هو اتباع سنته المطهرة.

ولكن كيف الوصول إلى الرسول الحبيب ﷺ، وما الوسيلة إليه؟

فاعلم أن الوسيلة هي الصلاة عليه... نعم، الصلاةُ عليه تعني الرحمة، فالصلاة عليه دعاء بالرحمة لتلك الرحمة المجسمة الحية، وهي وسيلة الوصول إلى مَن هو رحمة للعالمين.

فيا أيها الإنسان! اجعل الصلاة عليه وسيلةَ الوصول إليه، ثم استمسك به ليبلّغك رحمة الرحمن الرحيم. فإن الأمة جميعَها بدعائها وصلواتها على الرسول الكريم ﷺ إنما تثبت بوضوح مدى قيمة هذه الرحمة ومدى أهمية هذه الهدية الإلهية، ومدى سعتها وعظمتها.

الخلاصة: إنَّ حاجبَ خزينة الرحمة الإلهية وأكرمَ داعٍ إليها هو الرسول الكريم ﷺ كما أن أسمى مفتاح لتلك الخزينة هو ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وأسلسَ ما يفتحها هو الصلوات على الرسول الحبيب ﷺ.

اللهم بحق أسرار ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ صلِّ على مَن أرسلته رحمة للعالمين كما يليق برحمتك وبحرمته وعلى آله وأصحابه أجمعين، وارحمنا رحمة تغنينا بها عن رحمة من سواك من خلقك.. آمين.

﴿سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

اللمعة الخامسة عشرة

وهي فهارس كليات رسائل النور: الكلمات، المكتوبات، واللمعات - إلى اللمعة الرابعة عشرة - وحيث إن كل مجموعة خصّت بفهرستها لذا لم تدرج هنا.

اللمعة السادسة عشرة

بِاسْمِهِ سُبْحَانَهُ

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته!

إخوتي الأعزاء الصدّيقين العالم صبري، الحافظ علي(*)، مسعود، المصطفون، خسرو، رأفت، بكر بك، رشدي، لطفيون، الحافظ أحمد، الشيخ مصطفى وآخرون.

لقد أحسست إحساساً قلبياً أن أُبيّن لكم باختصار أربعَ مسائل صغيرة ولكنها مهمة، تلك التي أصبحت موضعَ تساؤل.. أُبيّنها لكم للعلم والاطلاع.

السؤال الأول المثير:

أخبر أحدُ إخواننا وهو «السيد عبد الله چابرا زادة» كما أَخبر أُناس آخرون أيضاً: أَنَّ أَهلَ الكشف قد قالوا بحدوث بشاراتٍ وفتوح لأهل السنة والجماعة وتكشَف عنهم الغمةُ في رمضان الماضي، ولكن لم يظهر شيء من هذا القبيل.

فسألوني: كيف يُخبر أمثال هؤلاء من أهل الولاية والكشف عما هو خلاف الواقع؟

وخلاصة ما أجبتهم مباشرةً، وهو من سوانح القلب، هي:

أنه ورد في الحديث الشريف ما معناه: أن البلاء ينزل وتقابله الصدقة فتردّه.[1]

يتبين من هذا الحديث الشريف: أن المقدَّرات عندما تأتي من الغيب للوقوع، تأتي مرتبطةً ببعض الشروط، فتتأخر عن الوقوعِ بتأخر الشروط. فتتأخر أيضاً المقدَّرات التي

(١) انظر «حول دفع قليل من الصدقة كثيراً من البلاء» العجلوني، كشف الخفاء ٢/ ٣٠

اطلع عليها الأولياءُ من أصحاب الكشف؛ إذ ليست مقدّراتٍ مطلقةً، بل مقيدةً ببعض الشروط، فلعدم حدوثِ تلك الشروط لا تقع تلك الحادثةُ؛ إذ تلك الحادثة كالأجل المعلّق، قد كتبت في لوح المحو والإثبات، الذي هو نوعٌ من أنواع سجل اللوح الأزلي. فالكشف قلّما يرقى إلى اللوح الأزلي، بل لا يستطيع معظمُ الكشوف الرقي إلى هناك. فبناءً على هذا:

إنَّ الأَخبار التي أُخبر عنها في شهر رمضان الفائت وعيد الأضحى وفي أوقات أخرى، وبناءً على الاستنباط أو بنوع من الكشفيات، لم تجد شروطَها المعلّقة بها، لذا لم تأت إلى ميدان الواقع. فالمخبرون عنها لا يُكذَّبون، لأن تلك الحوادث كانت مقدَّرة، إلّا أنها لا تقع إلّا بمجيء شروطها، وإذ لم تأت الشروطُ فلا تقع الحادثة.

نعم، إنَّ الدعاء الخالص الذي يرفعه معظمُ أهل السنة والجماعة في رمضان المبارك دفعاً للبدع، كان شرطاً وسبباً مهماً له، ولكن دخولَ البدع في الجوامع في الشهر المبارك مع الأسف حجبت الاستجابةَ والقبول، فلم تفرّج الكربةُ ولم تُكشَف الغمّة؛ إذ كما تدفع الصدقةُ البلاءَ -بدلالة الحديث الشريف- فالدعاءُ الخالص من الأكثرين يجذب الفرجَ العام الشامل. ولكن لأن القوةَ الجاذبة لم تأتِ إلى الوجود، فلم توهب الفَرَجَ والفتحَ.

السؤال الثاني المثير:

بينما كان ينبغي القيامُ بمحاولة، والشروعُ بتدبير، إزاء وضع سياسي مهيّج، في غضون هذين الشهرين، إذ كانت تؤدي تلك المحاولة -باحتمال قوي- إلى ما يفرّحني ويدخل البهجةَ في قلوب الكثيرين من إخوتي المقرّبين؛ لم أَعبأْ بذلك الوضع، بل قمتُ خلافاً له أَحمل فكراً في صالح أهل الدنيا الذين يضايقونني! فظلّ البعضُ في حيرة مضاعفة من أَمري، إذ قالوا: إنَّ السياسة التي يتبعها ضدَّك هذا المبتدعُ وثُلَّةٌ من المنافقين الرؤساء، كيف تجدها حتى لا تهاجمها؟

وخلاصة جوابي:

هي أنَّ أَعظم خطر على المسلمين في هذا الزمان هو فسادُ القلوب وتزعزعُ الإيمان بضلال قادم من الفلسفة والعلوم. وإن العلاج الوحيد لإصلاح القلب وإنقاذ الإيمان إنما هو النورُ وإراءة النور. فلو عُمل بهراوة السياسة وصولجانها وأُحرز النصرُ، تَدَنّى أولئك الكفارُ إلى دَرَكِ المنافقين. والمنافق -كما هو معلوم- أَشدُّ خطراً من الكافر وأَفسدُ منه. فصولجان

السياسة إذن لا يُصلِح القلبَ في مثل هذا الوقت، حيث يُنزل الكفرَ إلى أعماق القلب ويتستر هناك وينقلب نفاقاً.

ثم إن شخصاً عاجزاً مثلي، لا يمكنه أن يستعمل النورَ والهراوةَ معاً في هذا الوقت، لذا فأنا مضطر إلى الاعتصام بالنور بما أَملِكُ من قوة، فيلزم عدمَ الالتفات إلى هراوة السياسة أياً كان نوعها. أما ما يقتضيه الجهادُ المادي، فتلك الوظيفة ليست مناطةً بنا حالياً. نعم، إنَّ الهراوة هي لوقف تجاوز الكافر أو المرتد عند حدّه، ولكن لا نملك سوى يدين، بل لو كانت لنا مائةٌ من الأيدي ما كانت تكفي إلّا للنور فلا يدَ لنا تمسك بهراوة السياسة.

السؤال الثالث المثير:

إنَّ هجوم الأجانب كإنكلترا وإيطاليا على هذه الحكومة في الآونة الأخيرة يؤدي إلى إثارة الحمية الإسلامية وهي ركيزة حقيقية ومنبع قوة معنوية لحكومات خلت في هذا الوطن منذ أمد بعيد وستُصبح وسيلة لإحياء الشعائر الإسلامية -إلى حدٍ ما- ولدفع شيء من البدع.. فلِمَ عارضتَ هذه الحرب بشدة وسأَلتَ الله أن تحل القضية بسلام وأمان. فقد أصبحتَ منحازاً لحكومة المبتدعين، وهذا بذاته وبنتائجه موالاة للبدع؟

الجواب: نحن نسأل الله الفرج والبشارة والسرور والفتح، ولكن ليس بسيف الكفار.. فسحقاً لسيوفهم ولتكن وبالاً عليهم. نحن لسنا بحاجة ولا نرجو الفائدةَ من سيوفهم، لأن أولئك الأجانب المتمردين هم الذين سلطوا المنافقين على أهل الإيمان، وهم الذين ربّوا الزنادقة في أحضانهم.

أما مصيبةُ الحرب وبلاؤها، فهي ضررٌ بالغ لخدمتنا القرآنية، لأنَّ معظمَ إخواننا العاملين المضحين الفضلاء لا تتجاوز أعمارُهم الخمس والأربعين سنة، فيضطرون إلى الذهاب للحرب تاركين الخدمة القرآنية المقدسة. ولو أنَّ لي مبلغاً من المال، لكنت أَدفعه -بكل رضاي- لأجل إنقاذ هؤلاء الإخوة الأكارم، حتى لو كان البدل النقدي ألف ليرة! إن انخراط مئاتٍ من إخواننا العاملين في الجندية، ومزاولتهم الجهاد المادي خسارةٌ فادحة لخدمتنا، أَشعر أنها تعدِل أكثرَ من مائة ألف ليرة. بل إن ذهاب «ذكائي» إلى الجندية خلال السنتين الماضيتين، أفقدنا أكثر من ألف ليرة من الفوائد المعنوية.

وعلى كل حال فإن القدير ذا الجلال الذي يطهّر وجهَ السماء الملبّد بالغيوم ويبرز الشمسَ الساطعة في وجه السماء اللامع خلال دقيقة واحدة، هو القادرُ أيضاً على أن يزيل هذه الغيوم السوداء المظلمة الفاقدة للرحمة، ويُظهر حقائقَ الشريعة كالشمس المنيرة بكل يُسر وسهولة وبغير خسارة.

إننا نرجو هذا من رحمته الواسعة، ونسأله سبحانه ألّا يكّلفنا ذلك ثمناً غالياً. وأن يمنح رؤوسَ الرؤساء العقلَ ويهب لقلوبهم الإيمانَ. وهذا حسبنا، وحينها تتعدل الأمور بنفسها وتستقيم.

السؤال الرابع المثير:

يقولون: ما دام الذي في أيديكم نوراً، وليس هراوةً وصولجاناً، فالنور لا يُعارَض ولا يُهرَب منه، ولا ينجم من إظهاره ضررٌ. فلِمَ إذن توصون أصدقاءكم بأخذ الحذر وتمنعونهم من إبراز رسائلَ نيّرةٍ كثيرة للناس كافة؟.

مضمون جواب هذا السؤال باختصار هو: أن رؤوس كثير من الرؤساء مخمورة، لا يقرأون، وإذا قرأوا لا يفهمون، فيؤوّلونه إلى معنى خطأ، ويعترضون ويهاجمون. ولسدّ الطريق في وجه هجومهم ينبغي عدم إظهار النور لهم لحين إفاقتهم واسترجاع رشدهم. ثم إن هناك غيرَ منصفين كثيرين، ينكرون النور، أو يغمضون أعينَهم دونه، لأغراض شخصية خاصة، أو خوفاً أو طمعاً. ولأجل هذا أُوصي إخوتي أيضاً ليأخذوا حِذْرَهم ويحتاطوا للأمر، وعليهم ألّا يعطوا الحقائقَ أحداً من غير أهلها، وألّا يقوموا بعمل يثير أوهامَ أهل الدنيا وشبهاتهم عليهم.[١]

---

(١) حادثة لطيفة يمكن أن تكون وسيلة لمسألة جادة:

جاءني أول أمس السيد محمد وهو صهر أحد أصدقائي، وقال مسروراً ومبشراً: لقد طبعوا في إسبارطة كتاباً من كتبك. وكثير من الناس يقرأونه. قلت: ذلك ليس طبعةً محظورةً، وإنما هو ما أخذ من النسخ، فلا تعترض عليه الدولة. وقلت له أيضاً: إياك أن تحدث بهذا الخبر صديقَيك المنافقَين، إذ هما يتحريان أمثال هذه الأمور ليجعلوها وسيلة للهجوم.

وهكذا فيا إخوتي! على الرغم من أن هذا الشخص صهر أحد أصدقائي، فيعدّ من أحبابي بهذه العلاقة، إلّا أنه بحكم مهنته: الحلاقة صديق للمعلم الفاقد للوجدان وللمدير المنافق. وقد أخبره بهذا الخبر أحد إخواننا هناك دون علم منه. وحسناً فعل أن اخبرني لأول مرة فنبهته. وبدوري نبهت الإخوة أيضاً. وسدّ بذلك الفساد. ونشرت آلة الرونيو ألوف النسخ تحت هذا الستار. (المؤلف).

خاتمة

تسلمت اليوم رسالة من «السيد رأفت»، ولمناسبة سؤاله عن اللحية النبوية الشريفة أقول: إنه ثابت في الحديث الشريف: أن عدد الشعرات التي سقطت من لحيته الشريفة ﷺ محدودٌ، وهو عدد قليل، يتراوح بين ثلاثين إلى أربعين، أو لا يتجاوز الخمسين والستين من الشعرات، ولكن وجودَ الشعرات في ألوف الأماكن، استوقفني ودفعني إلى التأمل والتفكر في حينه، فورد إلى خاطري في ذلك الوقت:

إنَّ شعرات اللحية الشريفة الموجودة الآن -في كل مكان- ليست هي شعراتِ اللحية الشريفة وحدَها، بل ربما شعراتٌ من رأسه المبارك ﷺ، إذ الصحابة الكرام الذين ما كانوا ليضيّعوا شيئاً منه ﷺ قد حافظوا على تلك الشعرات المنورة المباركة -كلما حَلَقَ- والتي تبقى دائماً، فتلك الشعرات تربو على الألوف وهذا يمكن أن يكون مكافئاً للموجود الحاضر.

وورد أيضاً إلى خاطري: تُرى هل الشَّعرُ الموجود في كل جامعٍ بسندٍ صحيح هو ثابتٌ أيضاً أنه من شعره ﷺ حتى تكون زيارتُنا له معقولة؟

فسنح ببالي فجأة: أن زيارة تلك الشعرات إنما هي وسيلةٌ، وهي سبب لقراءة الصلوات على الرسول الكريم ﷺ، وهي مَدارُ محبته وتوقيره. فلا تُنظَر إلى ذات الوسيلة، وإنما إلى جهة كونها وسيلة، لذا فإن لم تكن هي شعرةً حقيقية من شعراته ﷺ فهي تؤدي وظيفةَ تلك الوسيلة ما دامت تحسب -في الظاهر- هكذا، وتلقاها الناس شعرةً من شعراته ﷺ. فتكون تلك الشعرة وسيلةً لتوقيره ﷺ ومحبته وأداء الصلوات عليه، فلا يلزم السند القطعي لتشخيص ذات الشعر وتعيينه بل يكفي ألّا يكون هناك دليل قاطع بخلافه، لأن ما يتلقاه الناس وما قبلته الأمة ورضيت به يكون في حكم نوعٍ من الحجة. وحتى لو اعترض بعضُ أهل التقوى على مثل هذه الأمور سواءً من جهة التقوى أو الأخذ بالأحوط أو العمل بالعزيمة فإنما يعترضون على شعرات خاصة، ولو قيل إنها بدعة، فإنها داخلة ضمن البدعة الحسنة، لأنها الوسيلة للصلوات على الرسول الكريم ﷺ.

ويقول «السيد رأفت» في رسالته: «إن هذه المسألة قد أصبحت مثارَ المناقشة بين الإخوان». فأوصي إخواني: ألّا يناقشوا فيما يمكن أن ينجم عنه الانشقاقُ والافتراق، وإنما عليهم أن يتعلموا بحث الأمور من دون نزاع، وعلى نمط تداول في الأفكار.

باسْمِهِ سُبْحَانَهُ

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

اخوتي الأعزاء من «سنركنت»[1] السادة: إبراهيم، شكري، الحافظ بكر، الحافظ حسين، الحافظ رجب.

إن المسائل الثلاث التي أرسلتموها بيد الحافظ توفيق، يعترض عليها الملحدون منذ أمد بعيد:

أولاها: إن المعنى الظاهري لقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ (الكهف: ٨٦). هو: أنه رأى غروب الشمس في ماءِ عينٍ ذي طين وحرارة.

ثانيتها: أين يقع سدُّ ذي القرنين؟

ثالثتها: نزول سيدنا عيسى عليه السلام وقتله الدجالَ في آخر الزمان.

إنَّ أجوبة هذه الأسئلة طويلة، إلّا أننا نشير إليها باختصار فنقول:

إنَّ آيات القرآن الكريم مبنيةٌ على أساليب اللغة العربية، وبوجهٍ يفهمه عمومُ الناس بظاهر النظر، لذا كثيراً ما بُيّنت المسائل بالتشبيه والتمثيل.

فقوله تعالى: ﴿ تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ يعني: أنَّ ذا القرنين قد شاهد الشمس تغرب في ما يشبه عيناً موحلةً وحامية، عند ساحل البحر المحيط الغربي، أو شاهد غروبَها في عين جبلٍ بركاني ذي لهيب ودخان.

أي إنه شاهد في ظاهر النظر غروبَها في سواحل البحر المحيط الغربي، وفي جزء منه الذي تراءى له من بعيد كأنه بِركةٌ أو حوضُ عينٍ واسعة، فشاهد غروبها الظاهري خلف الأبخرة الكثيفة المتصاعدة من مياه المستنقعات الواقعة عند سواحل البحر المحيط الغربي، لشدة حرارة شمس الصيف.. أو شاهد اختفاء الشمس -التي هي عين السماء-[2] في عين ملتهبة انفلقت حديثاً على قمة جبلٍ بركاني تقذف بحممها مازجةً الترابَ والصخور والمعادن السائلة.

(١) قصبة قريبة لبارلا منفى الأستاذ النورسي.

(٢) والعين: عين الشمس، وعين الشمس: شعاعها الذي لا تثبت عليه العين. وقيل: العين الشمس نفسها، يقال: طلعت العين، وغابت العين. (لسان العرب لابن منظور).

نعم، إن تعابير القرآن الكريم البليغة المعجزة ترشد بهذه الجملة إلى مسائل كثيرة:

فأولاً إن سياحة ذي القرنين كانت إلى جهة الغرب.. وفي وقت عزّ الحرّ.. ونحو المستنقعات.. وموافقتها أوان غروب الشمس.. وحين انفلاق جبل بركاني.. كلُّ هذا تشير به الآية الكريمة إلى مسائلَ مليئةٍ بالعِبر منها استيلاء ذي القرنين على إفريقيا استيلاءً تاماً.

ومن المعلوم أن الحركة المشهودة للشمس إنما هي حركةٌ ظاهرية، وهي دليلٌ على حركة الأرض الخفية -غير المحسوس بها- وهي تُخبر عن تلك الحركة. وليس المراد حقيقةَ الغروب.[١]

ثم إن كلمة ﴿عَيْنٍ﴾ إنما هي للتشبيه، إذ البحر العظيم يُرى من بعيد كحوض صغير، فتشبيه البحر المشاهد من خلف الضباب والأبخرة المتولدة من المستنقعات والبُرَك بلفح الحرارة بـ ﴿عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أي عين تنبع من طين، وكذا استعمال كلمة ﴿عَيْنٍ﴾ التي تعني في اللغة العربية: الينبوع والشمس والبصر، ينطوي على سرّ بلاغي دقيق وعلاقة وثيقة.[٢] فكما بدا الغروب لنظر ذي القرنين من بُعد هكذا. فإن الخطاب القرآني النازل من العرش الأعظم المهيمن على الأجرام السماوية، حريٌّ بهذا الخطاب السماوي ومنسجم مع عظمته ورفعته قوله بأن الشمس المسخّرة سراجاً في مضيف رحماني، تختفي في «عين» ربانية وهي البحر المحيط الغربي، معبراً بأسلوبه المعجز أن البحر «عين» حامية. نعم هكذا يبدو البحر للعيون السماوية.

حاصل الكلام: إن التعبير بـ ﴿عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ للبحر المحيط الغربي إنما هي بالنسبة لذي القرنين الذي رأى من بُعد ذلك البحر العظيم كأنه عينُ ماء. أما النظر القرآني الذي هو قريب إلى كل شيء، فلا ينظر نظر ذي القرنين من بعيد الذي يداخله خداعُ البصر، بل لأنه نزل من السماء مطلعاً عليها، ولأنه يرى الأرض ميداناً أو قصراً وأحياناً مهداً أو صحيفة، فإن تعبيره بـ ﴿عَيْنٍ﴾ للبحر العظيم وهو المحيط الأطلسي الغربي المغطى بالضباب والأبخرة إنما يبين علوّه ورفعتَه وسموّه وعظمته.

---

(١) جاء في تفسير البيضاوي: ولعله بلغ ساحل المحيط فرآها كذلك إذ لم يكن في مطمح بصره غير الماء ولذلك قال (وجدها تغرب) ولم يقل: كانت تغرب.

(٢) إن التعبير بـ«عين» في قوله تعالى (عين حمئة) يذكّر برمزٍ إلى معنى لطيف وسر دقيق من أسرار البلاغة، وهو: أن وجه السماء بعد مشاهدته بعين الشمس جمال رحمته تعالى على وجه الأرض، وان وجه الأرض عقب رؤيته بعين البحر عظمته تعالى في السماء، تُطبق العينان إحداهما في الأخرى، فتطبق العيون على وجه الأرض.. فالآية الكريمة تذكر بكلمة واحدة وبإعجاز جميل هذا المعنى اللطيف مشيرة إلى ما ينهى وظيفة العيون. (المؤلف).

سؤالكم الثاني:

أين يقع سدُّ ذي القرنين؟ ومَن يأجوج و مأجوج؟

الجواب: لقد كتبتُ سابقاً رسالة حول هذه المسألة، فألزمت الحُجة ملاحدة ذلك الوقت. إلّا أنني الآن لا أَملك تلك الرسالة، فضلاً عن أن حافظتي لا تمدني بشيء فقد أصابها شيء من العطل. علاوة على أن هذه المسألة قد تطرق إليها «الغصن الثالث من الكلمة الرابعة والعشرين» لهذا نشير إشارة في غاية الاختصار إلى نكتتين أو ثلاث فحسب تعود إلى هذه المسألة وهي:

أنه بناءً على ما بيّنه أهلُ العلم المحققون، وابتداءِ أسماءِ عدد من ملوك اليمن بكلمة «ذي» -كـ«ذي يزن»- وما يشير إليه عنوان «ذي القرنين» فإن ذا القرنين هذا ليس هو الإسكندر الرومي (المقدوني) وإنما هو أحد ملوك اليمن[1] الذي عاصرَ سيدَنا إبراهيم عليه السلام[2] وتلقى الدرسَ من سيدنا الخضر عليه السلام.[3] بينما جاء «الإسكندر الرومي» قبل الميلاد بحوالي ثلاثمائة سنة ودرس على يد «أرسطو».[4]

إن التاريخ الذي دوّنه الإنسانُ يضبط الحوادث إلى حد ما قبل ثلاثة آلاف عام. لذا فإن نظر هذا التاريخ الناقص القاصر لا يستطيع أن يحكمَ بصواب على حوادث ما قبل زمن سيدنا إبراهيم عليه السلام ، فإما يذكرها مشوبةً بالخرافات، أو ينكرها أو يوردها باختصار شديد.

أما سبب اشتهار «ذي القرنين» اليماني هذا في التفاسير بالإسكندر، فيعود إلى:[5] أن أحدَ أسماء ذي القرنين هو الاسكندر، فهو الإسكندر الكبير، والإسكندر القديم. أو نظراً لأن القرآن الكريم لدى ذكره لحادثة جزئية يذكرها لكونها طرفاً لحوادث كلية، فإن الاسكندر

(١) انظر: أبو السعود، تفسير أبو السعود ٥/ ٢٣٩-٢٤٠؛ ابن حجر، فتح الباري ٦/ ٣٨٥؛ الألوسي، روح المعاني ١٦/ ٢٧.
(٢) انظر الفقيهي، أخبار مكة ٣/ ٢٢١؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١١/ ٤٧؛ ابن كثير، تفسير القرآن ١/ ١٨٠، ٣/ ١٠١؛ ابن حجر، فتح الباري ٦/ ٣٨٢.
(٣) انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١١/ ٤٧.
(٤) انظر: ابن حجر، فتح الباري ٦/ ٣٨٢-٣٨٣؛ الشوكاني، الفتح القدير ٣/ ٣٠٧؛ الحموي، معجم البلدان ١/ ١٨٤، وحول قول الرسول ﷺ في ذي القرنين «ولستُ أدري أكان نبياً أم لا» انظر: الحاكم، المستدرك ٢/ ١٧، ٤٨٨. بالأضافة لذلك تنقل لنا المصادر أن «ذا القرنين» لم يكن نبياً ولا ملكاً، بل كان رجلاً عظيماً صاحب عبادة وتقوى يدعو الناس إلى الله تعالى. انظر: ابن أبي شيبة، المصنف ٦/ ٣٤٦؛ عبد الرزاق، تفسير الصنعاني ٢/ ٤١٠.
(٥) انظر: الطبري، جامع البيان ١٦/ ١٧، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ١١/ ٤٥، ٤٧؛ الشوكاني، فتح القدير ٣/ ٣٠٧؛ الآلوسي، روح المعاني ١٦/ ٢٦.

الكبير الذي هو ذو القرنين؛ مثلما أسس سدّ الصين الشهير بإرشاداته النبوية بين الأقوام الظالمة والمظلومة وليصدّ عنهم غاراتهم فإن قواداً عظاماً عديدين كالاسكندر الرومي وملوكاً أقوياء اقتدوا بذي القرنين -في الجهة المادية- وأن قسماً من الأنبياء والأقطاب الأولياء -وهم ملوك معنويون للإنسانية- ساروا على أثره في الجهة المعنوية والإرشاد.. فهؤلاء أسسوا السدود بين الجبال [1] التي هي من الوسائل المهمة لإنقاذ المظلومين من شر الظالمين. ثم بَنوا القلاع في قمم الجبال، فشيّدوا تلك الموانع إما بقوتهم المادية الذاتية أو بإرشاداتهم وتوجيهاتهم وتدابيرهم. حتى بَنوا الأسوار حول المدن والحصون في أواسطها، إلى أن بلغ الأمر إلى استعمال وسيلة أخيرة هي المدافع الثقيلة والمدرعات الشبيهة بالقلاع السيارة.

فذلك السد الذي بناه ذو القرنين وهو أشهر سدٍّ في العالم ويبلغ طوله مسيرة أيام إنما بناه ليصد به هجمات أقوامٍ شريرة أطلق عليهم القرآن الكريم اسمَ يأجوج ومأجوج ويعبّر عنهم التاريخ بقبائل المانجور والمغول الذين دمّروا الحضارة البشرية مراتٍ ومرات. وظهروا من وراء جبال همالايا فأهلكوا العباد وخرّبوا البلاد شرقاً وغرباً. فصار ذلك السد المبني بين جبلين قريبَين من سلسلة همالايا مانعاً أمام هجمات هؤلاء الأقوام الهمجية، وحائلاً دون غاراتهم العديدة على المظلومين في الصين والهند.. ومثلما أسس ذو القرنين هذا السد فقد بُنيت سدودٌ كثيرة أخرى بهمة ملوك إيران القدماء في جبال القفقاس في منطقة المضيق صداً للنهب والسلب والغارات التي امتهنتها أقوامُ التتار. وهناك سدود كثيرة من هذا النوع.

فالقرآن الكريم لأنه يخاطب البشرية كافةً، فإنه يذكر ظاهراً حادثة جزئية ويذكّر بها أحداثاً مشابهة لها.

فمن زاوية النظر هذه تختلف الروايات وأقوال المفسرين حول السد ويأجوج ومأجوج.

ثم إن القرآن الحكيم قد ينتقل من حادثة إلى أخرى بعيدةٍ عنها وذلك من حيث المناسبات الكلامية وعلاقاتها. فالذي لا يعرف هذه العلاقات يظن أن زمانَي الحادثتين قريبان. وهكذا فإخبار القرآن عن قيام الساعة عقب خرابِ السد، ليس هو لقُرب الزمان، وإنما لأجل نكتتين من حيث المناسبات الكلامية، أي كما أن هذا السد سيُدمّر فستدمّر الدنيا كذلك.

(١) هناك سدود اصطناعية على وجه الأرض تحولت بمرور الزمن إلى هيئة جبال حتى لا تعرف أنها كانت سدوداً. (المؤلف).

ثم إن الجبال التي هي سدود فطرية إلهية راسخة وقوية لا تُنسف إلّا بقيام الساعة، فهذا السد أيضاً قوي كالجبال لا يدكّ إلّا بقيام الساعة، وسيبقى الكثيرُ منه ويدوم حتى لو عملت فيه عوامل التغيير على مدى الزمان من خراب وهدم.

نعم، إن سد الصين الذي هو فرد من كلية سد ذي القرنين ما زال باقياً مشاهَداً على الرغم من مرور ألوف السنين، وإنه يُقرأ كسطرٍ طويل كُتب بيد الإنسان على صحيفة الأرض، يُقرأ سطراً مجسماً متحجراً ذا مغزى من التاريخ القديم.

سؤالكم الثالث:

وهو حول قتل عيسى عليه السلام للدجال. ففي «المكتوب الأول والخامس عشر» جوابٌ شافٍ لكم وهما في غاية الاختصار.

بِاسْمِهِ سُبْحَانَهُ

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أَخَويّ الوفيين الصدّيقين المضحيين العزيزين: العالم صبري، والحافظ علي.

إن سؤالَكما المهم حول المغيبات الخمسة الموجودة في ختام سورة لقمان، يحتاج إلى جواب في غاية الأهمية، إلّا أنني -مع الأسف- أُعاني من حالة روحية وأَحوال مادية.. تحول بيني وبين الجواب الشافي. ومع هذا سأُشير إشارةً فحسب، في غاية الإجمال إلى بِضعِ نقاط يتعلق بها سؤالكما:

إنَّ فحوى سؤالكما هذا هو أن الملحدين يعترضون على كون وقت نزول الغيث ونوعية الجنين في الرحم من المغيّبات الخمس فينتقدون قائلين: إن وقتَ نزوله يُكشَف عنه في المراصد الجوية، فإذن يعلمه كذلك غيرُ الله، وإن جنس الجنين في رحم الأم يمكن معرفته، ذكراً كان أم أنثى بأشعة رونتكن. بمعنى أنه يمكن الإطلاع على المغيّبات الخمس!

الجواب: لما كان وقتُ نزول الغيث غيرَ مرتبط بقاعدة مطّردة، فإنه يرتبط مباشرة بالمشيئة الإلهية الخاصة، ويتبع الإرادة الإلهية الخاصة، فينزل من خزينة رحمته تعالى دون وساطة. وإنَّ سرَّ حكمته هو الآتي:

إنَّ أَهمَّ حقيقةٍ في الكون وأثمنَ ماهيةٍ فيه هي الوجود، الحياة، النور، الرحمة. وإن هذه الأربعة متوجهةٌ مباشرة ودون وسائط وحجُب إلى القدرة الإلهية ومشيئتها الخاصة، بينما تحجب الأسبابُ الظاهرة في المصنوعات الإلهية الأخرى تصرّفَ القدرة الإلهية، وتستر القوانينُ المطردة والقواعد الثابتة -إلى حدٍ ما- الإرادةَ الإلهية ومشيئتَها، إلّا أن تلك الحُجب والأستار لم توضَع أمام الحياة والنور والرحمة؛ لعدم جريان حكمةٍ وجودها في تلك الأمور.

وحيث إن الرحمة والحياة أهم حقيقتين في الوجود، وإن الغيث منشأ الحياة ومدار الرحمة بل هو عينُ الرحمة، فلابد ألّا تكون الوسائط حُجباً أمامها، ولابد ألّا تستر القاعدةُ المطّردة المشيئةَ الإلهية الخاصة بها، وذلك ليضطر كلُّ فرد في كل وقت، وفي كل أمر إلى الشكر وإظهار العبودية وإلى السؤال والتضرع والدعاء؛ إذ لو كانت تلك الأمور على وفق قاعدةٍ معينة لانسدَّ بابُ الشكر والرجاءُ منه تعالى استناداً إلى القاعدة المطردة. فطلوعُ الشمس مع ما فيه من منافع معلومة، لأنه مرتبطٌ بقاعدة معينة، فلا يُسألُ الله سبحانه طلوعَها ولا يُشكر عليه شكراً خاصاً ولا يُعدّ ذلك من أمور الغيب، لأن البشر يعرفون بالعلم الذي توصلوا إليه وبوساطة تلك القاعدة موعدَ شروق الشمس غداً.

ولكن جزئيات الغيث ليست مرتبطة بقاعدة معينة، لذا يضطر الناسُ في كل وقت إلى التضرع والتوسل إلى رحمته تعالى. ولما كان علمُ البشر لا يستطيع أن يحدد وقت نزول الغيث، فقد تلقاه الناسُ نعمةً خاصة لا تصدر إلّا من خزينة الرحمة الإلهية، فيشكرون ربهم شكراً حقيقياً عليها. وهكذا فهذه الآية الكريمة تُدخل وقتَ نزول الغيث بين المغيبات الخمس من هذه الزاوية التي ذكرناها. أما الإحساس بالأجهزة في المراصد عن مقدمات وقت نزوله، ومن ثُم تعيين وقته فهذا ليس علماً بالغيب، بل هو علم بالاطلاع على بعض مقدمات نزوله حينما يقترب إلى عالم الشهادة بعد صدوره من الغيب، مثلما يُعلم بنوع من إحساس مسبَق أخفى

الأمور الغيبية حينما تحصل، أو بعد قربها من الحصول ولا يعدّ ذلك معرفةً بالغيب، وإنما هو معرفةٌ بذلك الموجود، أو بالمقرّب إلى الوجود.

حتى إنني أشعر أحياناً بشعورٍ مرهف في أعصابي، بما سيأتي من الغيث قبل مجيئه بأربع وعشرين ساعة. بمعنى أن للغيث مقدماتٍ ومبادئ، فتلك المبادئ تبدي نفسَها على صورة رطوبة تُشعِر بما وراءها من الغيث، فيكون هذا الحال وسيلةً لوصول علم البشر كالقاعدة المطردة، إلى أمور قد صدرت عن الغيب وخرجت منه ولمّا دخلت بعدُ إلى عالم الشهادة.

أما معرفة نزول الغيث الذي لم يطأ قدمُه عالمَ الشهادة، ولم يخرج بعدُ من الرحمة الإلهية الخاصة بمشيئتها الخاصة، فإنما هو خاص بعلم علام الغيوب.

بقيت المسألة الثانية التي هي: معرفةُ جنس الجنين في رحم الأم بأشعة رونتكن، هذه المعرفة لا تنافي قطعاً ما تفيده الآية الكريمة: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ﴾ (لقمان: ٣٤) من معنى الغيب. لأن المراد من العلم المذكور فيها لا ينحصر في ذكورة الجنين وأنوثته وإنما المرادُ منه معرفةُ الاستعدادات البديعة الخاصة بذلك الطفل والتي هي مبادئ المقدّرات الحياتية، وهي مدار ما سيكسبُه في المستقبل من أوضاع. وحتى معرفةِ ختم الصمدية وسكتِها الرائعة البادية على سيماه.. كلُّها مرادةٌ في ذلك المعنى بحيث إن العلم بالطفل وبهذه الوجوه من الأمور خاصٌّ بعلم علام الغيوب وحده، فلو اتحدت مئاتُ الألوف من أفكار البشر النافذة كأشعة رونتكن لما كشفت أيضاً عن ملامح الطفل الحقيقية في وجهه وحدَه تلك الملامح التي تحمل من العلامات التي تفرّقها وتميّزها عن كل فرد من أفراد البشرية قاطبة، فكيف إذن يمكن كشفَ السيماء المعنوية في استعداداته وقابلياته التي هي خارقة بمئات الألوف من المرات عن ملامح الوجه!

ولقد قلنا في المقدمة: إن الوجود والحياة والرحمة من أهم حقائق الكون ولها أعلى مقام ومرتبة فيه. لذا تتوجه تلك الحقيقةُ الحياتية الجامعة بجميع دقائقها ولطائفها إلى إرادة الله الخاصة ورحمته الخاصة ومشيئته الخاصة.

وأَحدُ أسرار ذلك هو أن الحياة بجميع أجهزتها منشأ للشكر، ومدارٌ للعبادة والتسبيح، ولذلك لم توضَع دونها القاعدة المطردة التي تحجب رؤيةَ الإرادة الإلهية الخاصة ولا الوسائط الظاهرية التي تستر رحمته الخاصة سبحانه.

إن لله سبحانه وتعالى تجليين اثنين في سيماء الجنين المادي والمعنوي.

الأول: يدل على وحدته سبحانه وأحديته وصمديته، إذ الجنينُ يشهد على وحدانية خالقه وصانعه بتطابق أعضائه الأساس وتوافق أجهزته الإنسانية مع سائر البشر. فذلك الجنين ينادي بصراحة هذا اللسان قائلاً: إن الذي وهب لي هذه السيماء في الأعضاء هو ذلك الصانعُ الذي وهب لجميع البشر الذين يشبهونني في أساسات الأعضاء. وهو سبحانه صانعُ جميع ذوي الحياة.

فهذا اللسان الذي يدل به الجنين على الصانع الجليل ليس لساناً غيبياً، بل هو معلوم يمكن معرفته والوصول إليه، حيث إنه يتبع قاعدة مطردة ويسير على وفق نظام معين ويستند إلى نوعية الجنين، فهذا العلم لسانٌ ناطق وغصنٌ قد تدلى من عالم الغيب إلى عالم الشهادة.

الجهة الثانية: وهي أن الجنين ينادي بلسان سيماء استعداداته الخاصة وسيماء وجهه الشخصية فيدل على اختيار صانعه ومشيئته المطلقة وإرادته الخاصة ورحمته الخاصة. فهذا اللسان لسان غيبي آتٍ من هناك، فلا يستطيع أن يراه أحد قبل وجوده غيرُ العلم الأزلي، ولا يمكن أن يحيط به سواه. ولا يُعلم هذا الإنسان بمجرد مشاهدة جهاز من ألف جهاز من سيماء جنينه .

الحاصل: أنَّ سيماء الاستعدادات في الجنين، وسيماء وجهه دليلُ الوحدانية وحجةُ الاختيار والإرادة الإلهية.

وستُكتب إن وفق الله تعالى بضع نكات حول المغيبات الخمس. إذ لا يسمح الوقت الحاضر ولا حالتي بأكثر من هذا. وأختم كلامي.

الباقي هو الباقي

سعيد النورسي

بِاسْمِهِ سُبْحَانَهُ

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أبداً دائماً

أخي العزيز الصدّيق المتلهف رأفت بك !

إنك تسأل في رسالتك عن اللطائف العشر، وحيث إنني لستُ في حالة تدريس الطريقة الصوفية. ولعلماء الطريقة النقشبندية مؤلفاتٌ تخصّ اللطائف العشر وإن وظيفتنا في الوقت الحاضر هي استخراجُ الأسرار القرآنية واستنباطُها، لا نقلُ المسائل الموجودة في بطون الكتب! فلا تمتعض من عدم استطاعتي تقديم التفاصيل. إلّا أنني أقول:

إن الإمام الرباني قد عبَّر عن اللطائف العشر بالقلب والروح والسرّ والخفي والأخفى. وذكر أن لكل عنصر من العناصر الأربعة في الإنسان لطيفةً إنسانيةً ملائمة ومنسجمة معه. وذكر إجمالاً عن رقي كلٍّ لطيفة من تلك اللطائف، وأحوالها في كل مرتبة أثناء السير والسلوك. وبالنسبة لي أرى أن لطائفَ كثيرة مندرجةٌ في ماهية الإنسان الجامعة وفي استعداده للحياة إلّا أن عشراً منها قد اشتهرت حتى إن الحكماءَ والعلماء الظاهريين أيضاً قد جعلوا تلك اللطائف العشر أساساً لِحكمتهم في صورة أخرى، حيث قالوا: إن الحواسَّ الخمس الظاهرة نوافذُ أو نماذجُ لحواسَّ خمسٍ باطنة. حتى إن ما اشتهر لدى العوام والخواص من لطائف الإنسان العشر منسجمةٌ مع اللطائف العشر لدى أرباب الطرق الصوفية. فمثلاً: الوجدانُ والأعصابُ والحسّ والعقل والهوى والقوة الشهوية والقوة الغضبية، إذا أُلحقت هذه اللطائف بالقلب والروح والسر، تُظهر اللطائفَ العشر في صورة أخرى. وهناك لطائف أخرى كثيرة غير هذه اللطائف، أمثال: السائقة، الشائقة، الحس قبل الوقوع.

فلو كتبتُ حقيقة هذه المسألة لطالت كثيراً، لذا أضطر إلى قطع التفاصيل نظراً لضيق وقتي.

أما سؤالك الثاني الذي يتعلق ببحث المعنى الاسمي والمعنى الحرفي ، فمثلما أشارت كتبُ النحو عامة إليه في بداياتها، فقد وضحته توضيحاً كافياً بالأمثلة كتب علم الحقيقة كالكلمات والمكتوبات ويعدّ من الإسراف الإسهاب في الإيضاح لمن يملك ذكاءً ودقة ملاحظة مثلك.

فإنك إذا نظرت إلى المرآة من حيث إنها زجاجةٌ، ترى مادتَها الزجاجية، وتكون الصورةُ المتمثلة فيها شيئاً ثانوياً، بينما إن كان القصدُ من النظر إلى المرآة رؤية الصورة المتمثلة فيها، فالصورة تتوضّح أمامك حتى تدفعك إلى القول ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴾ (المؤمنون:١٤) بينما تبقى زجاجةُ المرآة أمراً ثانوياً.

النظرة الأولى تمثل (المعنى الاسمي) أي زجاجة المرآة معنىً مقصود، وصورةُ الشخص المتمثلة فيها (معنى حرفي) غير مقصود.

أما النظرة الثانية فصورةُ الشخص هي المقصودة، فهي إذن معنى (اسمي) أما الزجاج فمعنى (حرفي).

وهكذا ورد في كتب النحو تعريف الاسم أنه: ما دلّ على معنى في نفسه. أما الحرف فهو: ما دلّ على معنى في غيره.

فالنظرة القرآنية إلى الموجودات تجعل الموجودات جميعَها حروفاً، أي أنها تعبّر عن معنى في غيرها، بمعنى أنها تعبّر عن تجليات الأسماء الحسنى والصفات الجليلة للخالق العظيم المتجلية على الموجودات.

أما نظرة الفلسفة الميتة فهي تنظر على الأغلب بالنظر الاسمي إلى الموجودات، فتزلّ قدمها إلى مستنقع الطبيعة.

وعلى كل حال فلا متّسع لي من الوقت كي أتكلم كثيراً، حتى إنني لا أستطيع أن أكتب القسم الأخير المهم من الفهرس الذي هو سهل يسير.

بلّغ سلامي إلى رفقائك في الدرس وبخاصة خسرو، بكر، رشدي، لطفي، الشيخ مصطفى، الحافظ احمد، سزائي، المحمدون والعلماء، وإني لأدعو للأطفال الأبرياء المباركين في بيتكم المبارك.

الباقي هو الباقي

أخوكم
سعيد النورسي

اللمعة السابعة عشرة

(عبارة عن سبع عشرة مذكِّرة تألقت من الزُّهرة)



المقدمة

قبل اثنتي عشرة سنة [1] من تأليف هذه اللمعة وفقني المولى الكريم وشملني بعنايته ولُطفه، فكتبتُ بعض ما تَألَّق من مسائل التوحيد وبعض ما تظاهر منها في أثناء تأملٍ فكريّ، وتجوالٍ قلبيّ، وانكشافٍ روحيّ عبر العروج في مراتب المعرفة الإلهية، كتبتُها باللغة العربية على صورة مذكِّرات في رسائل موسومة بـ«زُهرة» و«شعلة» و«حبّة» و«شمّة» و«ذرة» و«قطرة» وأمثالِها.

وحيث إن تلك المذكِّرات قد كُتبتْ لأجل إراءة بدايةِ حقيقةٍ عظيمة واسعة، وإبراز مقدمتِها فحسب، ولأجل إظهار شعاعٍ من أشعة نور ساطع باهر، فقد جاءت على شكل خواطر وملحوظات وتنبيهات. سجلتُها لنفسي وحدَها، الأمر الذي جعل الاستفادةَ منها محدودةً، وبخاصة أن القسم الأعظم من أخلص إخواني وخلاصتهم لم يدرسوا اللغةَ العربية، فاضطررتُ إزاء إصرارهم وإلحاحهم إلى كتابةِ إيضاحات باللغة التركية لقسم من تلك المذكّرات واللمعات. وأكتفي بترجمة القسم الآخر منها.[2]

---

(١) أي في سنة ١٣٤٠ هـ (١٩٢١م) حيث إن تاريخ تأليف هذه الرسالة ١٣٥٢ هـ (١٩٣٣م).

(٢) وحينما ترجمتها إلى العربية اعتبرت النص التركي الموضّح هو الأساس، إلا أنني آثرت استعمال عبارات الأستاذ النورسي البليغة -في الرسائل العربية المذكورة (من المثنوي العربي النوري)- متى ما كانت مطابقة مع النص التركي.

ولقد جاءت الترجمة إلى التركية نصاً دون تغيير حيث تراءت «لسعيد الجديد» هذه الخواطر الواردة في الرسائل العربية رؤيةً أشبه ما تكون بالشهود، وذلك حينما شرع بالاغتراف من منهل علم «الحقيقة».. ولأجل هذا فقد ذُكرت بعض الجمل بالرغم من أنها مذكورة في رسائل أخرى بينما ذُكر البعض الآخر في غاية الإجمال ولم يوضّح التوضيح المطلوب وذلك لئلا يفقدَ لطافته الأصلية.

سعيد النورسي

المذكّرة الأولى

كنت قد خاطبتُ نفسي قائلاً: اعلم أيها السعيد الغافل! إنه لا يليق بك أن تربط قلبَك وتعلّقه بما لا يرافقك بعد فناءِ هذا العالم، بل يُفارقُك بخراب الدنيا! فليس من العقل في شيء ربطُ القلب بأشياءَ فانيةٍ! فكيف بما يتركك بانقراض عصرك ويدير ظهرَه لك؟ بل فكيف بما لا يصاحبُك في سَفر البرزخ؟ بل فكيف بما لا يشيّعك إلى باب القبر؟ بل فكيف بما يفارقُك خلال سنة أو سنتين فراقاً أبدياً، مُورّثاً إثْمَه ذمَّتَك، محمّلاً خطاياه على ظهرك؟ بل فكيف بما يتركك على رغمك في آنِ سرورك بحصوله؟

فإنْ كنت فطناً عاقلاً فلا تهتمّ ولا تغتم، واترك ما لا يقتدرُ أن يرافقَك في سفر الأبد والخلود، بل يضمحل ويفنى تحت مصادمات الدنيا وانقلاباتها، وتحت تطورات البرزخ، وتحت انفلاقات الآخرة.

ألا ترى أن فيك لطيفةً لا ترضى إلّا بالأبد والأبدي، ولا تتوجه إلّا إلى ذلك الخالد، ولا تتنزل لما سواه؟ حتى إذا ما أُعطيت لها الدنيا كُلها، فلا تُطَمْأن تلك الحاجة الفطرية.. تلك هي سلطانُ لطائفك ومشاعرك.. فأَطِعْ سلطان لطائفك المطيع لأمر فاطره الحكيم جلّ جلاله، وانجُ بنفسك..

المذكّرة الثانية

لقد رأيت في رؤيا صادقةٍ ذات حقيقة، أَنني أُخاطب الناس: أيها الإنسان! إنَّ من دساتير القرآن الكريم وأحكامه الثابتة: أن لا تحسبنَّ ما سوى الله تعالى أعظم منك فترفعَه إلى

مرتبة العبادة، ولا تحسَبنَّ أنك أعظم من شيء من الأشياء بحيث تتكبّر عليه. إذ يتساوى ما سواه تعالى في البعد عن «المعبودية» وفي نسبة المخلوقية.

المذكِّرة الثالثة

اعلم أَيها السعيد الغافل! أنك ترى الدنيا الزائلة سريعاً، كأَنها دائمةٌ لا تموت، فعندما تنظر إلى ما حولك من الآفاق وتراها ثابتةً مستمرةً -إلى حدٍ ما- نوعاً وجملةً، ومن ثم ترجع بالمنظار نفسِه فتنظر إلى نفسك الفانية، تظنّها ثابتةً أيضاً. وعندها لا تندهش إلّا من هَول القيامة، وكأنك تدوم إلى أن تقوم الساعة!.

عُدْ إلى رشدك، فأنت ودنياك الخاصة بك معرّضان في كلّ آن إلى ضربات الزوال والفناء.. إن مَثَلَكَ في خطأ شعورك وغَلَط حسّك هذا، يشبه مَن في يده مرآةٌ تواجه قصراً أو بلداً أو حديقةً، وترتسم الصورة المثاليةُ للقصر أو البلد أو الحديقة فيها، فإذا ما تحركت المرآة أَدنى حركة، وتغيرت أَقلّ تغيّر، فسيحدث الهرجُ والمرج في تلك الصورة المثالية، فلا يفيدُك بَعدُ البقاءُ والدوام الخارجيان في نفس القصر أو البلد أو الحديقة، إذ ليس لك منها إلّا ما تعطيك مرآتُك بمقياسها وميزانها.

فاعلم أَنَّ حياتك وعمرَك مرآة! وأنها عمادُ دنياك وسندها ومرآتها ومركزها. فتأمل في مرآتك، وإمكان موتها، وخرابِ ما فيها في كل دقيقة، فهي في وضع كأَنَّ قيامتَك ستقوم في كل دقيقة. فما دام الأمر هكذا فلا تُحمِّل حياتَك ودنياك ما لا طاقةَ لهما به.

المذكِّرة الرابعة

اعلم أن من سُنَّة الفاطر الحكيم -في الأكثر- ومن عاداته الجارية إعادةُ ما له أهمية وقيمة غالية بعينه لا بمثله. فعندما يجدد أكثرَ الأشياء بمثلها عند تبدل الفصول وتغيرّ العصور، يُعيد تلك الأشياء الثمينة بعينها. فانظر إلى الحشر اليومي -أي الذي يتم في كل يوم- وإلى الحشر السنوي، وإلى الحشر العصري، ترَ هذه القاعدة المطّردة واضحةً جلية في الكل. وبناء على هذه القاعدة الثابتة نقول:

قد اتفقت الفنونُ وشهدت العلومُ على أَنَّ الإنسان هو أَكملُ ثمرةٍ في شجرة الخليقة،

وأنَّه أَهم مخلوق بين المخلوقات، وأَغلى موجود بين الموجودات، وأَنَّ فرداً منه بمثابة نوع من سائر الأحياء، لذا يُحكم بالحدس القطعي على أَنَّ كلَّ فردٍ من أفراد البشر سيُعاد في الحشر الأَعظم والنشر الأَكبر بعينِه وجسمِهِ واسمِهِ ورسمِهِ.

المذكِّرة الخامسة

حينما سار «سعيد الجديد» في طريق التأمل والتفكر، انقلبت تلك العلومُ الأوروبية الفلسفية وفنونُها التي كانت مستقرة إلى حدٍّ ما في أفكار «سعيد القديم» إلى أمراض قلبية، نشأت منها مصاعب ومعضلاتٌ كثيرة في تلك السياحة القلبية. فما كان من «سعيد الجديد» إلّا القيام بتمخيض فكره والعمل على نفضِه من أدران الفلسفة المزخرفة ولوثات الحضارة السفيهة. فرأى نفسَه مضطراً إلى إجراء المحاورة الآتية مع الشخصية المعنوية لأوروبا لكبحِ جماح ما في روحه من أحاسيس نفسانية منحازة لصالح أوروبا، فهي محاورة مقتضبةٌ من ناحية ومُسهبةٌ من ناحية أخرى.

ولئلا يُساء الفهمُ لابُدَّ أَنْ نُنبِّهَ: أَنَّ أَوروبا اثنتان:

إحداها: هي أوروبا النافعة للبشرية، بما استفاضت من النصرانية الحقة، وأَدَّتْ خدماتٍ لحياة الإنسان الاجتماعية، بما توصلت إليه من صناعاتٍ وعلومٍ تخدم العدل والإنصاف، فلا أخاطب -في هذه المحاورة- هذا القسم من أوروبا. وإنما أخاطب أوربا الثانية تلك التي تعفَّنت بظلمات الفلسفة الطبيعية وفسدت بالمادية الجاسية، وحَسبَتْ سيئاتِ الحضارة حسناتٍ لها، وتوهّمت مساوءها فضائل. فساقت البشرية إلى السفاهة وأردَتها الضلالة والتعاسة.

ولقد خاطبتُ في تلك السياحة الروحية الشخصية المعنوية الأوربية بعد أن استثنيتُ محاسن الحضارة وفوائد العلوم النافعة، فوجّهتُ خطابي إلى تلك الشخصية التي أخذت بيدها الفلسفة المضرّة التافهة والحضارة الفاسدة السفيهة.. وخاطبتُها قائلاً:

يا أوروبا الثانية! اعلمي جيداً أنكِ قد أخذتِ بيمينكِ الفلسفة المضلّة السقيمة، وبشمالك المدنية المضرّة السفيهة، ثم تدّعين أن سعادة الإنسان بهما. أَلَا شُلّت يداكِ، وبئستِ الهديةُ هديتُكِ، ولتكن وبالاً عليكِ، وستكون.

أيتها الروح الخبيثة التي تنشر الكفر وتبث الجحود! تُرى هل يمكن أن يسعد إنسانٌ بمجرد تملّكه ثروة طائلة، وترفّله في زينة ظاهرة خادعة، وهو المصاب في روحه وفي وجدانه وفي عقله وفي قلبه بمصائبَ هائلة؟ وهل يمكن أن نطلق عليه أنه سعيد؟ ألَا ترين أنّ مَن يَئِس من أمرٍ جزئي، وانقطع رجاؤه من أملٍ وهمي، وخابَ ظنُّه من عملٍ تافهٍ، كيف يتحول خيالُه العذبُ مُرّاً علقماً، وكيف يتعذّب مما حوله من أوضاع لطيفة، فتضيق عليه الدنيا كالسجن بما رحُبت!. فكيف بمن أُصيب بشؤمك بضربات الضلالة في أَعمق أعماق قلبه، وفي أَغوار روحه، حتى انقطعت -بتلك الضلالة- جميعُ آمالِه، فانشقت عنها جميعُ آلامه، فأيُّ سعادةٍ يمكنك أن تضمَني لمثل هذا المسكين الشقي؟ وهل يمكن أن يُطلَق لمن روحُه وقلبُه يُعذَّبان في جهنم، وجسمه فقط في جنةٍ كاذبة زائلة.. أنه سعيد؟..

لقد أفسدتِ -أيتها الروح الخبيثة- البشريةَ حتى طاشتْ بتعاليمك، فتقاسي منك العذاب المرير، بإذاقتك إياها عذابَ الجحيم في نعيم جنة كاذبة.

أيتها النفس الأمّارة للبشرية! تأملي في هذا المثال وافهمي منه إلى أين تسوقين البشرية:

هَبْ أنَّ أمامنا طريقين، فسلكنا أحدهما، وإذا بنا نرى في كل خطوة نخطوها في الطريق الأول، مساكين عَجَزة يهجم عليهم الظالمون، يغصبون أموالهم ومتاعهم، يخرّبون بيوتهم وأكواخهم، بل قد يجرحونهم جرحاً بليغاً تكاد السماء تبكي على حالتهم المفجعة. فأينما يُمدّ النظر تُرى الحالة نفسها فلا يُسمع في هذا الطريق إلّا ضوضاءُ الظالمين وصَخبَهم، وأنينُ المظلومين ونُواحهم، فكأن مأتماً عاماً قد خيّم على الطريق.

ولما كان الإنسان -بمقتضى إنسانيته- يتألّم بألم الآخرين، فلا يستطيع أن يتحمل ما يراه في هذا الطريق من ألم غير محدود، إذ الوجدانُ لا يطيق ألماً إلى هذا الحد، لذا يضطر سالك هذا الطريق إلى أحد أمرين: إما أن يتجرد من إنسانيته، ويحمل قلباً قاسياً غارقاً في منتهى الوحشة لا يتألم بهلاك الجميع طالما هو سالم معافىً، أو يُبطل ما يقتضيه القلبُ والعقلُ!.

فيا أوروبا التي نأتْ عن النصرانية وابتعدت عنها، وانغمست في السفاهة والضلالة! لقد أهديتِ بدهائك الأعور كالدجال لروح البشر حالةً جهنمية، ثم أدركت أن هذه الحالة داءٌ عضال لا دواءَ له. إذ يهوى بالإنسان من ذروة أعلى عليين إلى درك أسفل سافلين، وإلى أدنى

درجات الحيوان وحضيضها، ولا علاج لك أمام هذا الداء الوبيل إلّا ملاهيكِ الجذابة التي تدفع إلى إبطال الحسّ وتخدير الشعور مؤقتاً، وكمالياتُكِ المزخرفة وأهواؤك المنوِّمة... فتعساً لكِ ولدوائكِ الذي يكون هو القاضي عليك.. نعم، إن ما فتحتيه أمام البشرية من طريق، يشبه هذا المثال المذكور.

أما الطريق الثاني فهو ما أهداه القرآن الكريم من هديةٍ إلى البشرية، فهداهم إلى الصراط السوي، فنحن نرى في كل منزلٍ من منازل هذا الطريق، وفي كل موضع من مواضعه، وفي كل مدينة تقع عليه، جنوداً مطيعين أُمناء لسلطانٍ عادل، يتجولون في كل جهة ينتشرون في كل ناحية، وبين فينة وأخرى يأتي قسمٌ من مأموري ذلك الملك العادل وموظفيه فيُعفي بعضَ أولئك الجنود من وظائفهم بأمر السلطان نفسِهِ ويتسلم منهم أسلحتهم ودوابّهم ومعدّاتهم الخاصة بالدولة ويسلّم إليهم بطاقة الإعفاء. وهؤلاء المعفون يبتهجون ويفرحون -من زاوية الحقيقة- على إعفائهم فرحاً عظيماً لرجوعهم إلى السلطان وعودتهم إلى دار قرار سلطنته، والمثول بزيارته الكريمة، مع أنهم يحزنون في ظاهر الأمر على ما أُخذ منهم من دابة ومعدات أَلِفوها.. ونرى أيضاً أنه قد يلتقي أولئك المأمورون مَن لا يعرفهم من الجنود، فعندما يخاطبونه: أَنْ سلِّمْ سلاحَك! يردّ عليهم الجندي: أنا جنديٌّ لدى السلطان العظيم وتحت أمره وفي خدمته، وإليه مصيري ومرجعي، فمن أنتم حتى تسلبوا مني ما وهبني السلطانُ العظيم؟ فإن كنتم قد جئتم بإذنه ورضاه فعلى العين والرأس فأروني أمره الكريم، وإلّا تنحَّوا عني، فلأقاتلنّكم ولو كنت وحدي وأنتم أُلوف، إذ لا أقاتل لنفسي لأنها ليست لي، بل أقاتل حفاظاً على أمانة مالكي ومولاي وصيانةً لعزته وعظمته. فأنا لا أرضخ لكم!.

فدونك مثالاً واحداً من ألوف الأمثلة على ما في هذا الطريق الثاني من مصدر فرح ومدار سعادة. فانسج على منواله.

وعلى طول الطريق الثاني، وطوال مدة السفرة كلها نرى سَوقاً إلى الجندية، يتم في فرح وابتهاج وسرور.. تلك هي التي تسمى بـ«المواليد». وهناك إعفاءات ورُخَص من الجندية، تتم في فرح وحبور أيضاً، وسط تهليل وتكبير.. تلك هي التي تسمى بـ«الوفيات».

هذا هو الذي أهداه القرآن الكريم للبشرية، فمن اهتدى به فقد سعد في الدارين

ويمضي في طريقه -الثاني- على هذه الصورة اللطيفة بلا حزن وكدَرٍ على ما فات منه، وبلا خوف ووجَل مما سيأتي عليه، حتى تنطبق عليه الآية الكريمة:

﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ٢٦٢)

يا أوروبا الثانية الفاسدة! إنكِ تستندين إلى أسس واهية نخرة، فتزعمين: أن كلّ كائن حي مالكٌ لنفسه، ابتداءً من أعظم مَلَك وانتهاء إلى أصغر سمك. كلٌّ يعمل لذاته فقط، ولأجل نفسه فحسب، ولا يسعى أحد إلّا للذته الخاصة، ولأجل هذا له حق الحياة. فغايةُ همَّته وهدف قصده هو ضمان بقائه واستمرار حياته. ثم إنَّكِ ترين «قانونَ التعاون» جارياً فيما بين المخلوقات امتثالاً لأمر الخالق الكريم الذي هو واضح جلي في أرجاء الكون كله كإمداد النباتات للحيوانات والحيوانات للإنسان، ثم تحسبين هذا القانون والسنّة الإلهية وتلك التجليات الكريمة الرحيمة المنبعثة من ذلك التعاون العام جدالاً وخصاماً وصراعاً، حتى حكمتِ ببلاهة أن الحياة جدال وصراع.

فيا سبحانَ الله!! كيف يكون إمدادُ ذرات الطعام إمداداً بكمال الشوق لتغذية خلايا الجسم جدالاً وخصاماً؟ بل ما هو إلّا سُنَّة التعاون، ولا يتم إلّا بأمر ربّ حكيم كريم.

وإن ما تستندين إليه من «أن كل شيء مالكٌ لنفسه» واضح البطلان. وأوضح دليل عليه هو أن أشرف الأسباب وأوسعَها إرادةً واختياراً هو الإنسان. والحال ليس في يد اختياره ولا في دائرة اقتداره من أظهر أفعاله الاختيارية كالأكل والكلام والتفكر، إلّا جزءٌ واحد مُبهَمٌ من بين المائة. فالذي لا يملك واحداً من المائة من مثل هذا الفعل الظاهر، كيف يكون مالكاً لنفسه؟! وإذا كان الأشرف والأوسع اختياراً مغلولَ الأيدي عن التملك الحقيقي والتصرف التام فكيف بسائر الحيوانات والجمادات؟ أليس الذي يطلق هذا الحكم «بأن الحيوان مالك لزمام نفسه» أضلَّ من الأنعام وأفقدَ للشعور من الجمادات؟

فيا أوروبا! ما ورطكِ في هذا الخطأ المُشين إلّا دهاؤكِ الأعور، أي ذكاؤك المنحوس الخارق، فلقد نسيت بذكائك هذا ربَّ كل شيء وخالقَه، إذ أسندتِ آثارَه البديعة إلى الأسباب والطبيعة الموهومة! وقسّمتِ مُلك ذلك الخالق الكريم على الطواغيت التي تُعبَد من دون الله.. فانطلاقاً من هذه الزاوية التي ينظر منها دهاؤك الأعور يضطر كلُّ ذي حياة وكل

إنسان أن يصارع وحده ما لا يعد من الأعداء، ويحصل بنفسه على ما لا يجد من الحاجات، بما يملك من اقتدارٍ كذرة، واختيارٍ كشعرة، وشعورٍ كلمعة تزول، وحياة كشعلة تنطفئ، وعمرٍ كدقيقة تنقضي، مع أنه لا يكفي كلُّ ما في يده لواحدٍ من مطالبه. فعندما يصاب -مثلاً- بمصيبة لا يرجو الدواءَ لدائه إلّا من أسباب صُمّ، حتى يكون مصداق الآية الكريمة: ﴿ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ (الرعد: ١٤). إن دهاءك المظلم قد قَلب نهارَ البشرية ليلاً، ذلك الليل البهيم بالجور والمظالم، ثم تريدين أن تنوّري ذلك الظلام المخيف بمصابيح كاذبة مؤقتة!.. هذه المصابيح لا تبتسم بوجه الإنسان، بل تستهزئ به، وتستخف من ضحكاته التي يطلقها ببلاهة وهو متمرغ في أوحال أوضاع مؤلمة مُبكية! فكل ذي حياة في نظر تلاميذك، مسكينٌ مبتلىً بمصائب ناجمة من هجوم الظلمة. والدنيا مأتمٌ عمومي، والأصوات التي تنطلق منها نعيات الموت، وأناتُ الآلام، ونياحات اليتامى.

إنَّ الذي يتلقى الدرس منك ويسترشد بهَديك يصبح «فرعوناً» طاغية.. ولكنه فرعون ذليل، إذ يعبد أخسّ الأشياء، ويتخذ كل شيء ينتفع منه رباً له.

وتلميذك هذا «متمردٌ» أيضاً.. ولكنه متمرد مسكين، إذ لأجل لذةٍ تافهة يقبّل قدَمَ الشيطان، ولأجل منفعة خسيسة يرضى بمنتهى الذل والهوان.

وهو «جبّار» ولكنه جبار عاجز في ذاته لأنه لا يجد مرتكزاً في قلبه يأوي إليه.

إنَّ غاية ما يصبو إليه تلميذُك وذروة همّته: تطمينُ رغبات النفس وإشباعُ هواها، حتى إنه دسّاس يبحث تحت ستار الحمية والتضحية والفداء عن منافعه الذاتية، فيُطَمْئِنُ بدسيسته وخبثه حرصَه ويُشبع نَهمَ غروره، إذ لا يحب حقاً إلّا نفسَه، بل يضحي بكل شيء في سبيلها.

أما التلميذ المخلص الخالص للقرآن الكريم فهو «عبدٌ» ولكنه لا يتنزل لعبادةِ أعظم مخلوق، فهو «عبدٌ عزيزٌ» لا يرضى حتى بالجنة -تلك النعمة العظمى- غايةً لعبوديته لله.

وهو «ليّن هيّن» ولكنه لا يتذلل لغير فاطره الجليل، ولغير أمره وإذنه، فهو صاحبُ همة عليا وعزيمة صادقة.

وهو «فقير» ولكنه مستغن عن كل شيء بما ادّخر له مالكُه الكريم من الثواب الجزيل.

وهو «ضعيف» ولكنه يستند إلى قوة سيّده المطلقة. فلا يرضى تلميذ القرآن الكريم الخالص حتى بالجنة الخالدة مقصِداً وغاية له، فكيف به بهذه الدنيا الزائلة؟

فافهم من هذا مدى التفاوتِ الكبير والبون الشاسع بين همّة هذين التلميذين!.

وكذلك يمكنكم أن تقيسوا مدى الفرقِ الهائل بين تلاميذ الفلسفة السقيمة وتلاميذ القرآن الحكيم من حيث مدى التضحية والفداء في كل منهما بما يأتي:

إنَّ تلميذ الفلسفة يفرّ من أخيه إيثاراً لنفسه، ويقيم عليه الدعوى. أما تلميذُ القرآن فإنه يرى جميع عباد الله الصالحين في الأرض والسماوات إخواناً له، ويشعر من أعماق روحه بأواصرِ شوق تشدّه نحوهم، فيدعو لهم دعاءً خالصاً نابعاً من صميم قلبه: «اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات» فهو يسعد بسعادتهم. حتى إنه يرى ما هو أعظم الأشياء كالعرش الأعظم والشمس الضخمة مأموراً مسخَّراً مثلَه.

ثم يمكنك قياس سموّ الروح وانبساطها لدى التلميذين بما يأتي:

إنَّ القرآن الكريم يمنح تلاميذه نماءاً سامياً للروح وانبساطاً واسعاً لها، إذ يسلّم إلى أيديهم بدلاً من تسعٍ وتسعين حبةً من حبّات المِسْبَحة، سلسلةً مركبة من ذراتِ تسع وتسعين عالَماً من عوالم الكون التي يتجلى فيها تسعٌ وتسعون اسماً من الأسماء الحسنى، ويخاطبهم: هاؤم اقرأوا أورادكم بهذه السلسلة، وهم بدورهم يقرأون أورادَهم بتلك المسبحة العجيبة، ويذكرون ربّهم الكريم بأعدادها غير المحدودة.

فإن شئت فانظر إلى تلاميذ القرآن من الأولياء الصالحين أمثال الشيخ الكيلاني والشيخ الرفاعي(*) والشيخ الشاذلي(*) رضي الله عنهم، وأنصت إليهم حينما يقرأون أورادَهم، وانظر كيف أخذوا في أياديهم سلاسلَ الذرات، وعدد القطرات، وأنفاس المخلوقات فيذكرون الله بها ويسبّحونه ويقدّسونه.. تأمل كيف يتعالى ذلك الإنسان الهزيل الصغير الذي يصارعه أصغر ميكروب ويصرعه أدنى كَرْب! وكيف يتسامى في التربية القرآنية الخارقة فتنبسط لطائفُه وتسطع بفيض إرشادات القرآن حتى إنه يستصغر أضخمَ موجودات الدنيا من أن يكون مسبحةً لأوراده، بل يستقلُّ الجنةَ العظمى أن تكون غايةَ ذكره لله سبحانه، مع أنه لا

يرى لنفسه فضلاً على أدنى شيء من خلق الله.. إنه يجمع منتهى التواضع في منتهى العزة.. ومن هنا يمكنك أن تقدّر مدى انحطاطِ تلاميذ الفلسفة ومدى دناءتهم.

وهكذا فالحقائقُ التي تراها الفلسفةُ السقيمة الأوربية بدهائها الأعور مشوهةً زائفةً يراها الهديُ القرآني واضحةً جلية، ذلك النور الذي ينظر إلى كلا العالَمين معاً بعينين برّاقتين نافذتين إلى الغيب، ويشير بكلتا يديه إلى السعادتين، ويخاطب البشرية:

أيها الإنسان! إن ما تملكه من نفسٍ ومال ليس ملكاً لك، بل هو أمانةٌ لديك، فمالِكُ تلك الأمانة قديـرٌ على كل شـيء، عليم بكل شـيء، رحيمٌ كريـم، يشـتري منـك ملكه الـذي عنـدك ليحفَظَه لك، لئلا يضيع في يـدك، وسـيكافؤك بـه ثمناً عظيماً، فأنت لسـت إلّا جنديـاً مكلّفاً بوظيفة، فاعمل لأجله واسعَ باسـمه، فهو الـذي يرسـل إليـك رزقَك الـذي تحتاجه، ويحفظك مما لا تقدر عليه.

إنَّ غاية حياتك هذه ونتيجتَها هي أن تكون مظهراً لتجليات أسماء ذلك المالك، ومعكساً لشؤونه الحكيمة.. وإذا ما أصابتك مصيبةٌ فقل: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ . أي أنا طوعُ أمر مولاي، فإن كنتِ قادمةً أيتها المصيبةُ بإذنه وباسمه، فأَهلاً ومرحباً بكِ، فنحن لا محالة راجعون إليه لامناص من ذلك. وسنحظى بالمثول بين يديه، فنحن حقاً مشتاقون إليه.. فما دام سيُعتقُنا يوماً من تكاليف الحياة فليكن ذلك على يديك أيتها المصيبة.. أنا مستسلمٌ راضٍ. ولكن إن كان الأمر والإرادة قد صدر إليك منه سبحانه لأجل الابتلاء والاختبار لمدى محافظتي على الأمانة ولمدى قيامي بواجباتي، فلا أُسَلِّمُ ما استطعت أمانةَ مالكي لأيدٍ غير أمينة. ولا أَستسلم لغير أمره ورضاه سبحانه.

فدونَك مثالاً واحداً من بين الألوف منه على معرفةِ قيمةِ ما يلقّنه دهاءُ الفلسفة، ومرتبة ما يرشده هدي القرآن من دروس.

نعم إن الوضع الحقيقي لكلا الطرفين هو على هذا المنوال، بيد أن درجات الناس متفاوتةٌ في الهداية والضلالة ومراتب الغفلة مختلفة متباينة، فلا يشعر كلُّ واحد بهذه الحقيقة في كل مرتبة، إذ الغفلةُ تُبطل الحسَّ والشعور وتخدّرهما، وقد أبطلتْ في هذا الزمان الحسَّ والشعورَ إلى حدٍ لم يَعُد يَشعر بألم هذا العذاب الأليم ومرارته أولئك السائرون في ركاب المدنية

الحاضرة. ولكن ستار الغفلة يتمزق بتزايد الإحساس العلمي، علاوةً على نذير الموت الذي يعرض جنازة ثلاثين ألف شخص يومياً.

فيا أسفى! ويا ويلَ مَنْ ضَلَّ بطواغيت الأجانب وعلومهم المادية الطبيعية، ويا خسارةَ أولئك الذين يقلّدونهم تقليداً أعمى، ويتبعونهم شبراً بشبرٍ وذراعاً بذراع.

فيا أبناء هذا الوطن! لا تحاولوا تقليد الإفرنج! وهل بعد كل ما رأيتم من ظلم أوروبا الشنيع وعداوتهم اللدود، تتبعونَهم في سفاهتهم، وتسيرون في ركاب أفكارهم الباطلة؟ وتلتحقون بصفوفهم، وتنضمّون تحت لوائهم بلا شعور؟ فأنتم بهذا تحكُمون على أنفسكم، وعلى إخوانكم بالإعدام الأبدي.. كونوا راشدين فطنين! إنكم كلما اتبعتموهم في سفاهتهم وضلالهم ازددتم كذباً وافتراءً في دعوى الحمية والتضحية، لأن هذا الاتباع استخفافٌ بأمتكم واستهزاء بملّتكم.

هدانا الله وإياكم إلى الصراط المستقيم.

المذكِّرة السادسة

يا مَن يضطرب ويقلق من كثرة عدد الكفار، ويا مَن يتزلزل باتفاقهم على إنكار بعض حقائق الإيمان، اعلم أيها المسكين!

أولاً: أنَّ القيمة والأهمية ليستا في وفرةِ الكمية وكثرةِ العدد، إذ الإنسان إن لم يكن إنساناً حقاً انقلب حيواناً شيطاناً، لأن الإنسان يكسب حيوانيةً هي أشدُّ من الحيوان نفسه كلما توغل في النوازع الحيوانية، كبعض الأجانب أو السائرين في ركابهم. فبينما ترى قلةَ عدد الإنسان قياساً إلى كثرة عدد الحيوانات إذا بك تراه قد أصبح سلطاناً وسيداً على جميع أنواعها، وصار خليفةً في الأرض.

فالكفار المنكِرون والذين يتّبعون خطواتهم في السفاهة، هم نوعٌ خبيث من أنواع الحيوانات التي خلَقَها الفاطر الحكيم سبحانه لعمارة الدنيا. وجعلهم «واحداً قياسياً» لمعرفة درجات النعمة التي أسبغها على عباده المؤمنين، وسوف يسلّمهم إلى جهنمَ وبئس المصير التي يستحقونها، حينما يرثُ الأرضَ ومَن عليها.

ثانياً: ليس في إنكار الكفار والضالين لحقيقةٍ من الحقائق الإيمانية قوةٌ، ولا في نفيهم لها سندٌ، ولا في اتفاقهم أهمية ، لأنه نفيٌ. فأَلفٌ من النافين هم في حُكم نافٍ واحد فقط.

مثال ذلك: إذا نَفى أهلُ استانبول جميعُهم رؤيتَهم للهلال في بداية رمضان المبارك، فإن إثبات اثنين من الشهود، يُسقِط قيمةَ اتفاق كل ذلك الجمع الغفير. فلا قيمة إذن في اتفاق الكفار الكثيرين ما دامت ماهيةُ الكفر والضلالة نفياً، وإنكاراً، وجهلاً، وعدماً. ومن هنا يُرجَّح حُكمُ مؤمنَين اثنين يستندان إلى الشهود في المسائل الإيمانية الثابتة إثباتاً قاطعاً على اتفاق ما لا يُحد من أهل الضلالة والإنكار ويتغلب عليهم.

وسرّ هذه الحقيقة هو ما يأتي:

إنَّ دعاوى النافين متعددة، برغم أنها تبدو واحدة في الظاهر، إذ لا يتّحد بعضُها مع البعض الآخر كي يعززه ويشدّ من عضده. بينما دعاوى المُثبتين تتحد وتتساند ويمدّ بعضُها البعض الآخر ويقّويه ويدعمه، فالذي لا يرى هلال رمضان في السماء يقول: إنَّ الهلال في نظري غير موجودٌ، وعندي غير موجود.. والآخر يقول مثلَه، فكلٌّ منهم ينفي من زاوية نظره، وليس من واقع الحال، ومن الأمر بذاته، لذا فاختلافُ نظرهم وتنوعُ الأسباب الداعية إلى حَجب الرؤية، وتعدد موانع النظر لدى الأشخاص، يجعل دعاواهم متباينة ومختلفة لا تسند إحداها الأخرى.

أما المثبتون فلا يقول أحدهم: الهلال موجود في نظري، أو عندي، بل يقول: إن الهلال موجود فعلاً، وهو في السماء بذاته.. والمشاهدون جميعاً يصدّقونه في دعواه هذه، ويؤيدونه في الأمر نفسه قائلين: الهلال موجود في واقع الحال.. أي إن جميع الدعاوى واحدة.

ولما كان نظرُ النافين مختلفاً، فقد أصبحت دعاواهم كذلك مختلفة، فلا يسري حُكمهم على الأمر بذاته، لأنه لا يمكن إثبات النفي في الحقيقة، إذ يلزم الإحاطةُ. ومن هنا صارت من القواعد الأصولية: أنَّ «العَدَم المطلق لا يُثبَتُ إلّا بمُشكلات عظيمة».

نعم، إذا قلت: إن شيئاً ما موجود في الدنيا، فيكفي لإثباته إراءته فقط. ولكن إنْ قلتَ: إنه معدومٌ، غير موجود في الدنيا. أي إذا نفيت وجوده، فينبغي لإثبات هذا النفي أو العدم أنْ تبحث عنه في أطراف الدنيا كافة وإراءتُه وإشهادُه.

وبناء على هذا السر: يتساوى في إنكار الكفار لحقيقةٍ واحدة الواحدُ مع الألف، لعدم وجود التساند فيه. يشبه ذلك، حلَّ مسألة ذهنية، أو المرورَ من ثقب، أو القفز من فوق الخندق، التي لا تساند فيها.

أما المثبتون فلأنهم ينظرون إلى الأمر نفسه، أي إلى واقع الحال، فإن دعاواهم تتحد وتتعاون ويمدُّ بعضُها البعض الآخر قوةً، بمثل التعاون الحاصل في رفع صخرةٍ عظيمة، فكلما تكاثرت الأيدي عليها، سهُل رفعُها أكثر، حيث يستمد كلٌ منهم القوة من الآخر.

المذكّرة السابعة

يا مَنْ يحثّ المسلمين ويشوّقهم على حُطام الدنيا ويسوقُهم قسراً إلى صنائع الأجانب والتمسك بأذيال رقيّهم. ويا مدّعي الحمية، أيها الشقي!. تمهّل، وتأمّل! واحذر من انقطاع عُرى الدين لبعض أفراد هذه الأمة وانفصام روابطهم معه، لأنه إذا انقطعت تلك الروابط لدى البعض تحت سطوة مطارق التقليد الأعمى والسلوك الأرعن، فسيكونون مُلحدين مضرّين بالمجتمع، مُفسدين للحياة الاجتماعية كالسمّ القاتل، إذ المرتد سمٌّ زعاف للمجتمع، حيث قد فسد وجدانُه وتعفنت طويتُه كلياً، ومن هنا ورد في علم الأصول: «المرتد لا حقّ له في الحياة، خلافاً للكافر الذميّ أو المعاهَدِ فإن له حقاً في الحياة» وأن شهادة الكافر من أهل الذمة مقبولةٌ عند الأحناف بينما الفاسقُ مردودُ الشهادة[1] لأنه خائن.

أيها الفاسق الشقي! لا تَغْتَرّ بكثرة الفُسّاق، ولا تقل إن أفكار أكثرية الناس تساندني وتؤيدني، ذلك لأنه لم يدخل الفسقَ فاسقٌ برغبةٍ فيه وطلباً لذات الفسق، بل وقع فيه ولا يستطيع الخروج منه، إذ ما من فاسقٍ إلّا ويتمنى أن يكون تقياً صالحاً، وأن يكون رئيسه وآمرُه ذا دينٍ وصلاح، اللهم إلّا من أُشربَ قلبُه بالردّة - والعياذ بالله - فَفَسد وجدانه بها، وأَصبح يلتذ بلدغ الآخرين وإيذائهم كالحيّة.

أيها العقل الأَبله والقلب الفاسد! أتظنُّ أن المسلمين لا يرغبون في الدنيا، ولا يفكرون

---

(١) انظر: الترمذي، الشهادة ٢؛ أبو داود، الأقضية ١٦؛ ابن ماجه، الأحكام ٣٠؛ أحمد بن حنبل، المسند ٢/ ٢٠٨،٢٠٤،١٨١. ولتوضح الحكم الفقهي لهذا الموضوع: انظر الكاساني، بدائع الصنائع ١/ ١٥٦؛ المرغيناني، الهداية ٣/ ١٢٤؛ ابن عابدين، الحاشية ٧/ ١١٢.

فيها، حتى أَصبحوا فقراءَ مُعْدَمين، فتراهم بحاجة إلى مَن يوُقظهم من رقدتهم كيلا ينسوا نصيبَهم من الدنيا؟

كلا.. إنَّ ظَنَّك خطأٌ.. بل لقد اشتدّ الحرصُ، فهم يقعون في قبضة الفقر وشِباك الحرمان نتيجة الحرص، إذ الحرص للمؤمن سببُ الخيبة وقائدُ الحرمان والسفالة. وقد ذهب مثلاً: الحريص خائبٌ خاسر.

نعم، إنَّ الأسباب الداعية إلى الدنيا كثيرة، والوسائل السائقة إليها وفيرة، وفي مقدمتها ما يحمله كلُّ إنسان من نفسٍ أَمّارة بالسوء، وما يكمن فيه من هوىً وحاجة وحواس ومشاعر وشيطانٍ عدو، فضلاً عن أقران السوء -من أمثالك- وحلاوة العاجلة ولذّتها... وغيرها من الدعاة إليها كثير، بينما الدعاة إلى الآخرة وهي الخالدة والمرشدون إلى الحياة الأبدية قليلون.

فإن كان لديك ذرةٌ من الحَميّة والشّهامة تجاه هذه الأمة، وإن كنت صادقاً في دعواك إلى التضحية والفداء والإيثار، فعليك بمدّ يد المساعدة إلى أولئك القلّة من الداعين إلى الحياة الباقية. وإلّا فإن عاونتَ الكثرة، وكممتَ أفواه أولئك الدعاة القلة، فقد أَصبحتَ للشيطان قريناً. فساء قريناً.

أوَ تظن أن فقرَنا ناجمٌ من زُهد الدين أو من كسلٍ ناشئ من ترك الدنيا؟ إنك مخطئ في ظنك أَشدَّ الخطأ.. ألا ترى أن المجوس والبراهمة في الصين والهند والزنوج في أفريقيا وأمثالَهم من الشعوب المغلوبة على أمرها والواقعة تحت سطوة أوروبا، هم أَفقرُ منّا حالاً.

أوَ لا ترى أنه لا يبقى بأيدي المسلمين سوى ما يسدّ رَمَقَهم ويقيم أَوَدَهم حيث يغصبه كفارُ أوروبا الظالمون منهم أو يسرقه منافقو آسيا بما يحيكون من دسائس خبيثة.

إن كانت غايتكم من سَوق المؤمنين قسراً إلى المدنية التي هي الدنيّة (أي بلا ميم) تسهيلاً لإدارة دقّة النظام وبسط الأمن في ربوع المملكة، فاعلموا جيداً أنكم على خطأ جسيم، إذ تسوقون الأمة إلى هاوية طريق فاسد. لأن إدارةَ مائة من الفاسقين الفاسدين أخلاقياً والمرتابين في اعتقادهم وإيمانهم، وجعلَ الأمن والنظام يسود فيما بينهم لهو أصعبُ بكثير من إدارة ألوف من الصالحين المتقين ونشر الأمن فيما بينهم.

وبناءً على ما تقدم من الأسس فليس بالمسلمين حاجة إلى ترغيبهم وحثّهم على حبّ الدنيا والحرص عليها، فلا يحصل الرقي والتقدم ولا ينشر الأمن والنظام في ربوع البلاد بهذا الأسلوب، بل هم بحاجة إلى تنظيم مساعيهم، وبث الثقة فيما بينهم، وتسهيل وسائط التعاون فيما بينهم، ولا تتم هذه الأمور إلّا باتباع الأوامر المقدّسة في الدين، والثبات عليها، مع التزام التقوى من الله سبحانه وابتغاء مرضاته.

المذكِّرة الثامنة

يا مَن لا يدرك مدى اللذة والسعادة في السعي والعمل.. أيها الكسلان! اعلم، أَنَّ الحق تبارك وتعالى قد أَدرج لكمالِ كرمه جزاءَ الخدمة في الخدمة نفسها، وأَدمج ثوابَ العمل في العمل نفسِهِ.

ولأَجل هذا كانت الموجودات قاطبة بما فيها الجمادات -من زاوية نظر معينة- تمتثل الأَوامر الربانية بشوق كامل، وبنوع من اللذة، عند أَدائها لوظائفها الخاصة بها والتي تطلق عليها «الأوامر التكوينية». فكل شيء ابتداءً من النحل والنمل والطير.. وانتهاء إلى الشمس والقمر، كلٌّ منها يسعى بلذةٍ تامة في أَداء مهامِّها. أي اللذةُ كامنة في ثنايا وظائف الموجودات، حيث إنها تقوم بها على وجه من الإتقان التام، رغم أَنَّها لا تعقلُ ما تفعل ولا تدركُ نتائج ما تعمل.

فإن قلت: إن وجودَ اللذة في الأَحياء ممكنٌ، ولكن كيف يكون الشوقُ واللذةُ موجودين في الجمادات؟.

فالجواب: أنَّ الجمادات تطلب شَرَفاً ومقاماً وكمالاً وجمالاً وانتظاماً، بل تبحث عن كل ذلك وتفتش عنه لأجل إظهار الأَسماء الإلهية المتجلية فيها، لا لذاتها، لذا فهي تتنور وتترقى وتعلو أثناء امتثالها تلك الوظيفة الفطرية، حيث إنها تكون بمثابة مرايا ومَعاكس لتجليات أَسماء «نور الأنوار».

فمثلاً: قطرةٌ من الماء -وقطعة من الزجاج- رغم أنها تافهةٌ وقاتمة في ذاتها، فإذا ما توجهت بقلبِها الصافي إلى الشمس، تتحول إلى نوعٍ من عرشٍ لتلك الشمس، فتلقاك بوجه مضيء!

وكذلك الذرات والموجودات -على غِرار هذا المثال- من حيث قيامها بوظيفة مرايا عاكسة لتجليات الأسماء الحسنى لذي الجلال والجمال والكمال المطلق، فإنها تسمو وتعلو إلى مرتبة من الظهور والجلاء والتنوّر هي غاية في العلو والسمو، إذ ترتفع تلك القطرةُ وتلك القطعة من حضيض الخمود والظلمة إلى ذروة الظهور والتنور. لذا يمكن القول: بأن الموجودات تقوم بأداء وظائفها في غاية اللذة والمتعة ما دامت تكتسب بها مرتبةً نورانية سامية، واللذة ممكنة إن كانت للموجود حصةٌ من الحياة العامة. وأظهرُ دليل على أن اللذة كامنةٌ في ثنايا الوظيفة نفسها هو ما يأتي:

تأمل في وظائف أعضائك وحواسّك، ترَ أن كلاً منها يجد لذائذَ متنوعة أثناء قيامه بمهامه -في سبيل بقاء الشخص أو النوع- فالخدمة نفسها، والوظيفةُ عينُها تكون بمثابة ضربٍ من التلذذ والمتعة بالنسبة لها، بل يكون تركُ الوظيفة والعمل عذاباً مؤلماً لذلك العضو.

وهناك دليل ظاهر آخر هو: أن الديك -مثلاً- يُؤْثِرُ الدجاجاتِ على نفسه، فيترك ما يلتقطه من حبوب رزقه إليهن دون أن يأكل منها. ويُشاهد أنه يقوم بهذه المهمة وهو في غاية الشوق وعزِّ الافتخار وذروة اللذة.. فهناك إذن لذةٌ في تلك الخدمة أعظم من لذة الأكل نفسِهِ. وكذا الحال مع الدجاجة -الراعية لأفراخها- فهي تُؤْثِرُها على نفسها، إذ تدع نفسَها جائعةً في سبيل إشباع الصغار، بل تضحي بنفسها في سبيل الأفراخ، فتهاجم الكلب المُغير عليها لأجل الحفاظ على الصغار.

ففي الخدمة إذن لذةٌ تفوق كل شيء، حتى إنها تفوق مرارةَ الجوع وترجّح على ألم الموت. فالوالدات من الحيوانات تجد منتهى اللذة في حمايتها لصغارها طالما هي صغيرة. ولكن ما إن يكبر الصغيرُ حتى تنتهي مهمة الأم فتذهب اللذةُ أيضاً. وتبدأ الأم بضرب الذي كانت ترعاه، بل تأخذ الحَبّ منه.. هذه السُنّة الإلهية جاريةٌ في الحيوانات إلّا في الإنسان إذ تستمر مهمة الأم نوعاً ما، لأن شيئاً من الطفولة يظل في الإنسان حيث الضعفُ والعجز يلازمانه طوال حياته، فهو بحاجة إلى الشفقة والرأفة كل حين.

وهكذا، تأمل في جميع الذكور من الحيوانات كالديك، وجميع الوالدات منها كالدجاج، وافهم كيف أنها لا تقوم بتلك الوظيفة ولا تنجز أي شيء لأجل نفسها ولا لكمالها بالذات

حيث تفدي نفسَها إذا احتاج الأمر. بل إنها تقوم بتلك المهمة في سبيل المُنعم الكريم الذي أَنعم عليها، وفي سبيل الفاطر الجليل الذي وظّفها في تلك الوظيفة فأَدرج برحمته الواسعة لذةً ضمن وظيفتها، ومتعةً ضمن خدمتها.

وهناك دليلٌ آخر على أن الأجرة داخلةٌ في العمل نفسه وهو أن النباتات والأشجار تمتثل أوامر فاطرها الجليل بما يُشعر أن فيها شوقاً ولذةً، لأن ما تنشره من روائح طيبة، وما تتزين به من زينة فاخرة تستهوي الأنظار، وما تقدمه من تضحيات وفداء حتى الرَمَق الأخير لأجل سنابلها وثمارها.. كل ذلك يعلن لأهل الفطنة: أنَّ النباتات تجد لذةً فائقة في امتثالها الأوامر بما يفوق أية لذة أخرى، حتى إنها تمحو نفسها وتهلكها لأجل تلك اللذة.. ألا ترى شجرة جوز الهند، وشجرة التين كيف تُطعم ثمرتَها لبناً خالصاً تطلبه من خزينة الرحمة الإلهية بلسان حالها وتتسلمه منها وتظل هي لا تُطعم نفسَها غير الطين. وشجرة الرمان تسقي ثمرتها شراباً صافياً، وَهبَها لها ربُّها، وهي ترضى قانعةً بشراب ماءٍ عكر. حتى إنك ترى ذلك في الحبوب كذلك، فهي تُظهر شوقاً هائلاً للتسنبل، بمثل اشتياق السجين إلى رحب الحياة.

ومن هذا السرّ الجاري في الكائنات المسمى بـ«سُنّة الله» ومن هذا الدستور العظيم، يكون العاطل الكسلانُ الطريح على فراش الراحة أَشقى حالاً وأضيقَ صدراً من الساعي المجدّ، ذلك لأن العاطل يكون شاكياً من عمره، يريد أن يمضي بسرعة في اللهو والمرح. بينما الساعي المجدّ شاكرٌ لله وحامدٌ له، لا يريد أن يمضي عمرَه سدىً. لذا أصبح دستوراً عاماً في الحياة: «المستريح العاطل شاكٍ من عمره والساعي المجدّ شاكرٌ». وذهب مثلاً: «الراحةُ مندمجة في الزحمة والزحمة مندمجة في الراحة».

نعم، إذا ما أُمعن النظر في الجمادات فإن السنة الإلهية المذكورة تظهر بوضوح؛ فالجمادات التي لم تتكشف استعداداتُها وباتت ناقصةً من هذه الناحية، تراها تسعى بشدة، وتبذل جهداً عظيماً لكي تنبسط وتنتقلَ من طور «القوة» الكامنة إلى طور «الفعل». وعندها يشاهد عليها ما يشير إلى أن في تلك الوظيفة الفطرية شوقاً، وفي ذلك التحول لذةً، جرياً بدستور سُنّة الله، فإن كانت لذلك الجامد حصة في الحياة العامة، فالشوق يعود إليه، وإلّا فهو يعود إلى الذي يمثل ذلك الجامد ويشرف عليه، بل يمكن أن يقال بناء على هذا السر: إن الماء اللطيف الرقراق ما إن

يتسلم أمراً بالانجماد، حتى يمتثل ذلك الأمر بشدة وشوق إلى حدّ أنه يكسر الحديد ويحطّمه. فإذن عندما تبلّغ البرودةُ ودرجاتُ الانجماد أمراً ربانياً بالتوسع، إلى الماء الموجود داخل كرة حديدٍ مقفلة، فإن الماء يمتثل الأمر بشدة وشوق بحيث يحطّم كرة الحديد تلك، وينجمد.

وعلى هذا فقس جميعَ ما في الكون من سعي وحركة، ابتداءً من دوران الشموس في أفلاكها وانتهاءً إلى دوران الذرات -كالمولوي العاشق- ودوراتِها واهتزازاتها.. فلا تجد أحداً إلّا ويجري على قانون القَدَر الإلهي، ويظهر إلى الوجود بالأمر التكويني الصادر من يد القدرة الإلهية والمتضمن العلمَ الإلهي وأمره وإرادته.. حتى إن كل ذرة، وكل موجود، وكل ذي حياة، إنما هو كالجندي في الجيش، له علاقات متباينة ووظائف مختلفة، وارتباطات متنوعة مع كل دائرة من دوائره. فالذرة الموجودة في عينيك -مثلاً- لها علاقة مع خلايا العين، ومع أَعصاب العين في الوجه، ومع الشرايين والأوردة في الجسم، وعلى أساس هذه العلاقات والروابط تُعَيَّنُ لها وظيفة، وعلى ضوئها تنتج فوائد ومصالح وهكذا..

فقس على هذا المنوال كل شيء في الوجود.

وعلى هذا الأساس فإن كلَّ شيء في الوجود يشهد على وجوب وجود القدير المطلق من جهتين:

الأولى: قيامُه بوظائفَ تفوق طاقتَه المحدودة بآلاف المرات، مع أنه عاجزٌ عن ذلك، فيشهد بلسان عجزه إذن على وجود ذلك القدير المطلق.

الثانية: توافقُ حركته مع الدساتير التي تكوّن نظامَ العالم، وانسجام عمله مع القوانين التي تديم توازن الموجودات، فيشهد -بهذا الانسجام والتوافق- على وجود ذلك العليم القدير. ذلك لأن جماداً كالذرة -أو حشرة كالنحلة- لا تستطيع أن تعرفَ النظام والموازنة اللذين هما من المسائل الدقيقة المهمة المسطورة في الكتاب المبين.. إذ أين الذرةُ والنحلة من قراءة ذلك الكتاب الذي هو في يدِ مَن يقول: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ (الأنبياء: ١٠٤) فلا يجرؤ أحدٌ أن يردّ هذه الشهادة للذرة إلّا مَن يتوهم بحماقة متناهية أنها تملك عيناً بصيرة تتمكن بها قراءة الحروف الدقيقة لذلك الكتاب المبين؟.

نعم، إنَّ الفاطر الحكيم يدرج دساتيرَ الكتاب المبين وأحكامه دَرجاً في غاية الجمال،

ويُجملها في غاية الاختصار، ضمن لذةٍ خاصةٍ لذلك الشيء، وفي ثنايا حاجةٍ مخصوصة له. فإذا ما عمل الشيءَ وفق تلك اللذة الخاصة والحاجة المخصوصة، فإنه يمتثل -من حيث لا يشعر- أحكام ذلك الكتاب المبين.

فمثلاً: إن البعوضة في حين مولدها ومجيئها إلى الدنيا تنطلق من بيتها وتهاجم وجهَ الإنسان وتضربه بعصاها الطويلة وخرطومِها الدقيق وتفجّر به السائل الحيوي، وتمصّه مصاً، وهي في هذا الهجوم تُظهر براعة عسكرية فائقة..

تُرى مَن علّم هذا المخلوق الصغير الذي أتى حديثاً إلى الدنيا وليس له من تجربة سابقة، هذه المهارة البارعة، وهذه الفنون الحربية الدقيقة، وهذا الإتقان في التفجير، فمن أين اكتسب هذه المعرفة؟.. فأنا هذا السعيد المسكين اعترف بأني لو كنتُ بدلاً منه، لما كنت أتعلم تلك المهارة، وتلك الفنون العسكرية من كرّ وفرّ، وتلك الأمور الدقيقة في استخراج السائل الحيوي إلّا بعد تجارب طويلة، ودروس عديدة، ومدة مديدة.

فقس على البعوضة النحلَة الملهمة و العنكبوت والبلبلَ الناسج لعشه نسجاً بديعاً، بل يمكنك قياس النباتات على الحيوانات أيضاً.

نعم إن الجواد المطلق جلّ جلاله قد سلّم بيد كل فردٍ من الأحياء «بطاقة تذكرة» مكتوبةً بمداد اللذة وحبر الاحتياج، فأَودع سبحانه فيها منهاجَ أوامره التكوينية، وفهرس ما يقوم به الفردُ من وظائف.. فسبحانه من حكيم ذي جلال، كيف أَدرج ما يخصّ النحل من دساتير الكتاب المبين في تلك «التذكرة» الصغيرة وسطرَها في رأس النحلة، وجعل مفتاحها لذةً خاصة بالنحلة الدائبة، لتفتح به تلك «التذكرة» المودعة في دماغها وتقرأ منهاج عملها فيها وتدرك وظيفتها، وتسعى وتجدّ وفقها، وتبرز حكمةً من الحكم المكنونة في الآية الكريمة:

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ (النحل: ٦٨)

فيا مَن يقرأ أو يسمع هذه المذكّرة الثامنة! إنْ كنتَ قد فهمتها حقَّ الفهم فقد فهمت إذن سراً من أسرار: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (الأعراف:١٥٦).

وأدركت حقيقةً من حقائق: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ (الإسراء: ٤٤)

وتوصلتَ إلى دستور من دساتير:

﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (يس:٨٢)

وتعلمت مسألة لطيفة من مسائل:

﴿ فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ (يس: ٨٣)

المذكِّرة التاسعة

اعلم أن النبوة في البشرية فذلكةُ الخير وخلاصة الكمال وأساسه. وأن الدين الحق فهرسُ السعادة. وأن الإيمان حُسنٌ منزّه وجمال مجرّد. وحيث إن حسناً ساطعاً، وفيضاً واسعاً سامياً، وحقاً ظاهراً، وكمالاً فائقاً مشاهَدٌ في هذا العالم، فبالبداهة يكون الحقُّ والحقيقة في جانب النبوة، وفي يد الأنبياء عليهم السلام، وتكون الضلالة والشر والخسارة في مخالفيهم.

فإن شئت فانظر إلى مثال واحد من بين ألوف الأمثلة على محاسن العبودية التي جاء بها النبي عليه السلام وهو: أن النبي عليه السلام يوحِّد بالعبادة قلوبَ الموحدين في صلاة العيد والجمعة والجماعة، ويجمع أَلسنتهم جميعاً على كلمة واحدة. حتى يقابل هذا الإنسان عظمة الخطاب الصادر من المعبود الحق سبحانه بأصوات قلوبٍ وألسنةٍ لا تحد وبدعواتها، متعاوناً متسانداً، بحيث يُظهر الجميعُ عبوديةً واسعةً جداً إزاء عظمة أُلوهية المعبود الحق فكأَن كرة الأرض برمَّتها هي التي تنطق بذلك الذكر، وتدعو بذلك الدعاء، وتصلّي لله بأقطارها وتمتثل بأرجائها الأمرَ النازل بالعزة والعظمة من فوق السماوات السبع:

﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ (البقرة:٤٣)

وبهذا الإتحاد صار الإنسانُ وهو المخلوق الضعيف الصغير الذي هو كالذرة في هذه العوالم، عبداً محبوباً لدى خالق السماوات والأرض من جهة عظمة عبوديته له، وأَصبح خليفةَ الأرض وسلطانَها، وسيد الحيوانات ورئيسها، وغاية خلق الكائنات ونتيجتها. أَرأيت لو اجتمعت في عالم الشهادة أيضاً -كما هو في عالم الغيب- أصواتُ المكبرين البالغين مئات الملايين من المؤمنين بـ«**الله أكبر**» عقب الصلوات ولاسيما صلاة العيد، واتحدتْ جميعُها في آن واحد أما كانت متساوية لصوت تكبيرة «**الله أكبر**» تطلقها كرةُ الأرض ومتناسبةً مع

ضخامتها والتي أصبحت كأنها إنسان ضخم، إذ باتحاد تكبيرات أولئك الموحّدين في آن واحد يكون هناك تكبيرةٌ عظيمة جداً كأن الأرض تطلقها، بل كأن الأرض تتزلزل زلزالها في صلاة العيد. إذ تكبّر الله بتكبير العالم الإسلامي بأقطاره وأوتاده وتسبّحه بتسبيحهم وأذكارهم فتنوي من صميم قلب كعبتها المشرّفة التي هي قِبلتُها، وتكبّر بـ«الله أكبر» بلسان عَرَفة من فم مكة المكرمة. فبتموّج صدى «الله أكبر» متمثلاً في هواء كهوف أفواه جميع المؤمنين المنتشرين في العالم بمثل تموج ما لا يحد من الصدى في كلمة واحدة من «الله أكبر». بل تتموج تلك التكبيرات والأذكار في أقطار السماوات وعوالم البرزخ. فالحمد لله الذي جعل هذه الأرض ساجدةً عابدةً له وهيأها لتكون مسجداً لعباده ومهداً لمخلوقاته. فنحمده سبحانه ونسبّحه ونكبّره بعدد ذرات الأرض ونرفع إليه حمداً بعدد موجوداته أن جعلنا من أمة محمد ﷺ الذي علّمنا هذا النوع من العبادة.

المذكِّرة العاشرة

أيها السعيد الغافل المتخبط بسوء حاله! اعلم، أنَّ الوصول إلى نور معرفة الحق سبحانه، وإلى مشاهدة تجلياته في مرايا الآيات والشواهد والنظر إليه من مسامات البراهين والدلائل يقتضي ألّا تتجسّس بأصابع التنقيد على كل نورٍ جرى عليك، وورَد إلى قلبك، وتظاهر إلى عقلك، وألّا تنقده بيد التردد. فلا تمدّن يدك لأخذ نورٍ أضاء لك. بل تجرّد من أسباب الغفلة، وتعرّض لذلك النور، وتوجّه إليه، فإني قد شاهدت أن شواهد معرفة الله وبراهينها ثلاثة أقسام:

قسم منها: كالماء، يُرى ويُحسّ، ولكن لا يُمسك بالأصابع. ففي هذا القسم عليك بالتجرّد عن الخيالات، والانغماس فيه بكليتك، فلا تتجسس بإصبع التنقيد، فإنه يسيل ويذهب، إذ لا يرضى ماءُ الحياة ذلك، بالإصبع محلاً.

القسم الثاني: كالهواء، يُحسّ ولكن لا يُرى، ولا يُتخذ ولا يُستمسك، فتوجَّه لنفحات تلك الرحمة، وتعرّض لها، وقابِلها بوجهك وفمك وروحك، فإنْ نظرتَ إلى هذا القسم بيد التردد والريب ومددت إليه يد التنقيد، بدلاً من الانتعاش روحياً، فإنه ينطلق، إذ لا يتخذ يدك مسكناً له ولا يرضى بها منزلاً.

القسم الثالث: فهو كالنور، يُرى ولكن لا يُحس، ولا يؤخذ ولا يستمسك، فتعرّض له وقابله ببصيرة قلبك ونظر روحك، وتوجّه إليه ببصرك، ثم انتظر، فلربما يأتي بذاته ومن نفسه. لأن النور لا يؤخذ باليد، ولا يُصاد بالأصابع، بل بنور البصيرة يُصاد. فإذا مددت إليه يداً مادية حريصةً، ووزنتَه بموازين مادية، فإنه يختفي وإن لم ينطفئ، لأن نوراً كهذا مثلما أنه لا يرضى بالماديّ حبساً، ولا يدخل بالقيد أبداً، فإنه لا يرضى بالكثيف مالكاً وسيداً عليه.

المذكِّرة الحادية عشرة

انظر إلى درجة رحمة القرآن الواسعة وشفقته العظيمة على جمهور العوام ومراعاته لبساطة أفكارهم ونظرهم غير الثاقب إلى أمور دقيقة، انظر كيف يكرر ويُكثر الآيات الواضحة المسطورة في جباه السماوات والأرض، فيُقرئهم الحروف الكبيرة التي تُقرأ بكمال السهولة، كخلق السماوات والأرض وإنزال الماء من السماء، وإحياء الأرض.. وأمثالها من الآيات. ولا يوجّه الأنظار إلى الحروف الدقيقة المكتوبة في الحروف الكبيرة إلّا نادراً، كيلا يصعب عليهم الأمر.

ثم انظر إلى جزالة بيان القرآن وسلاسة أسلوبه وفطريته، كيف يتلو على الإنسان ما كتبتْهُ القدرةُ الإلهية في صحائف الكائنات من آياتٍ حتى كأن القرآنَ قراءةٌ لما في كتاب الكائنات وأنظمتها، وتلاوةٌ لشؤون بارئها المصّور وأفعاله الحكيمة. فإن شئت استمع بقلبٍ شهيد لقوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ (النبأ:١) و ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ ﴾ (آل عمران:٢٦) وأمثالهما من الآيات الكريمة.

المذكِّرة الثانية عشرة

يا أحبائي المستمعين لهذه المذكِّرات، اعلموا! أني قد أَكتب تضرّع قلبي إلى ربّي مع أن من شأنه أن يُستَر ولا يُسطَر، رجاءً من رحمته تعالى أن يقبل نُطق كتابي، بدلاً عني إذا أَسكت الموتُ لساني.. نعم، لا تسع توبةُ لساني في عمري القصير كفارةً لذنوبي الكثيرة. فنطقُ الكتاب الثابت الدائم أوفى لها. فقبل ثلاث عشرة سنة وأثناء اضطراب روحي عارم وفي غمرة تحَولِ ضحكاتِ «سعيد القديم» إلى بكاء «سعيد الجديد» أفقت من ليل الشباب على صبح المشيب فسطرتُ هذه المناجاة باللغة العربية، أوردها كما هي:

يا ربيَ الرحيم ويا إلهيَ الكريم!

قد ضاع بسوء اختياري عمري وشبابي، وما بقي من ثمراته في يدي إلّا آثامٌ مؤلمة مُذلّة، وآلام مضرّة مُضلّة، ووساوسٌ مزعجة معجزة، وأنا بهذا الحمل الثقيل، والقلب العليل، والوجه الخجيل متقربٌ -بالمشاهدة- بكمال السرعة، بلا انحراف وبلا اختيار كآبائي وأحبابي وأقاربي وأقراني إلى باب القبر، بيت الوحدة والانفراد في طريق أبد الآباد، للفراق الأبدي من هذه الدار الفانية الهالكة باليقين، والآفلة الراحلة بالمشاهدة، ولا سيما الغدّارة المكّارة لمثلي ذي النفس الأمارة.

فيا ربي الرحيم ويا ربي الكريم!

أراني عن قريب لبِستُ كفني وركبتُ تابوتي، وودعت أحبابي، وتوجهت إلى باب قبري، فأنادي في باب رحمتك: الأمانَ الأمان يا حنان يا منّان، نجني من خجالة العصيان.

آهٍ.. كفني على عنقي، وأنا قائم عند رأس قبري، أرفع رأسي إلى باب رحمتك أُنادي: الأمانَ الأمان يا رحمن يا حنّان، خلصني من ثقل حمل العصيان.

آهٍ.. أنا ملتف بكفني وساكن في قبري وتركني المشيعون، وأنا منتظر لعفوك ورحمتك.. ومشاهدٌ بأن لا ملجأ ولا منجا إلّا إليك، وأُنادي: الأمان الأمانَ من ضيق المكان، ومن وحشة العصيان، ومن قبح وجه الآثام. يا رحمن يا حنان.. يا منّان.. ويا ديّان نجني من رفاقة الذنوب والعصيان..

إلهي! رحمتُك ملجئي ووسيلتي، وإليك أَرفع بثي وحزني وشكايتي.

يا خالقي الكريم، ويا ربي الرحيم، ويا سيدي، ويا مولاي.. مخلوقُك، ومصنوعك وعبدك العاصي العاجز، الغافل، الجاهل العليل الذليل المسيء المسنّ الشقي الآبق، قد عاد بعد أربعين سنة إلى بابك ملتجئاً إلى رحمتك، معترفاً بالذنوب والخطيئات مبتلىً بالأوهام والأسقام، متضرعاً إليك.. فإن تقبل وتغفر وترحم فأنت لذاك أهلٌ وأنت أرحم الراحمين، وإلّا فأيّ بابٍ يُقصَد غير بابك.. وأنت الرّبُ المقصود والحق المعبود. ولا إله إلّا أنت وحدك لا شريك لك.. آخر الكلام في الدنيا وأول الكلام في الآخرة وفي القبر: أشهد أن لا إله إلّا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ﷺ.

المذكِّرة الثالثة عشرة

عبارة عن خمسٍ مسائل قد صارت مدار الالتباس.

أولاها: أن الذين يعملون في طريق الحق ويجاهدون في سبيله، في الوقت الذي ينبغي لهم أن يفكروا في واجبهم وعملهم فإنهم يفكرون فيما يخص شؤونَ الله سبحانه وتدبيره، ويبنون أعمالهم عليه فيخطئون.

ورد في كتاب «أدب الدنيا والدين» أن إبليس -لعنة الله عليه- حين ظهر لعيسى بن مريم عليه السلام قال: ألستَ تقول: إنه لن يُصيبك إلّا ما كتبه الله عليك؟ قال: نعم. قال: فارمِ نفسك من ذروة هذا الجبل فإنه إن يقدِّر لك السلامة تسلم، فقال له: يا ملعون! إن لله أن يختبرَ عبدَه وليس للعبد أن يختبر ربّه.[1] أي إن الله سبحانه هو الذي يختبر عبده ويقول له: إذا عملتَ هكذا سأوافيك بكذا، أرأيتك تستطيع القيام به؟. يختبره.. ولكن العبد ليس له الحق ولا في طوقه أصلاً أن يختبر ربّه ويقول: إذا قمتُ بالعمل هكذا فهل تعمل لي كذا؟. فهذا الأسلوبُ من الكلام الذي يومئ بالاختبار سوءُ أدبٍ تجاه الربوبية، وهو منافٍ للعبودية. فما دام الأمر هكذا، فعلى المرء أن يؤدي واجبَه ولا يتدخل بتدبير الله سبحانه وقَدَره.

كان جلال الدين خوارزم شاه(*) وهو أحد أبطال الإسلام الذي انتصر على جيش جنكيزخان انتصارات عديدة. كان يتقدم جيشَه إلى الحرب، فخاطبه وزراؤه ومقرّبوه: سيُظهرك الله على عدوك، وتنتصر عليهم!.

فأجابهم: «عليَّ الجهاد في سبيل الله اتباعاً لأمره سبحانه، ولا حقَّ لي فيما لم أُكلف به من شؤونه، فالنصرُ والهزيمة من تقديره سبحانه» ولبلوغ هذا البطل العظيم إدراك هذا السر الدقيق في الاستسلام إلى أمر الله والانقياد إليه، كان النصرُ حليفَه في أَغلب الأحيان نصراً خارقاً.

نعم إنه لا ينبغي أن يفكر الإنسان -بما لديه من الجزء الاختياري- بالنتائج التي يتولّاها الله سبحانه.

فمثلاً: يزداد حماسُ بعض الإخوة وشوقهم إلى «رسائل النور» باستجابة الناس لها، فينشطون أكثر.. ولكن عندما لا يستجيب لها الناسُ، تفتُر قوةُ الضعفاء المعنوية وتنطفئ جذوةُ

---

(١) انظر الماوردي، أدب الدنيا والدين ص١٢؛ الكتاب المقدس، متى، الباب الرابع، آية ١-١١.

شوقهم. والحال أن سيدنا الرسول الأعظم ﷺ وهو الأستاذ الأعظم ومقتدى الكل والرائد الأعلى قد اتخذ الأمر الإلهي: ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (النور: ٥٤) دليلاً ومرشداً له، فكلما أعرض الناسُ عن الإصغاء وتولّوا عنه ازدادَ جهاداً وسعياً في سبيل التبليغ. لأنه عَلِم يقيناً أن جعل الناس يصغون ويهتدون إنما هو من شؤون الله سبحانه، وفق الآية الكريمة: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ (القصص: ٥٦). فما كان يتدخل ﷺ في شؤونه سبحانه.

لذا فيا إخوتي! لا تتدخلوا في أعمال وشؤون لا تعود إليكم ولا تبنوا عليها أعمالكم ولا تتخذوا طور الاختبار تجاه خالقكم.

المسألة الثانية: إنَّ غاية العبادة امتثالُ أمر الله ونيلُ رضاه، فالداعي إلى العبادة هو الأمرُ الإلهي، ونتيجتُها نيلُ رضاه سبحانه. أما ثمرتُها وفوائدها فأخروية. إلّا أنه لا تنافي العبادة إذا مُنحت ثمراتٌ تعود فائدتُها إلى الدنيا، بشرط ألّا تكونَ علّتها الغائية، وألّا يُقصد في طلبها. فالفوائدُ التي تعود إلى الدنيا والثمرات التي تترتب عليها من نفسها وتُمنح من دون طلب لا تنافي العبادة، بل تكون بمثابة حث «وترجيح» للضعفاء. ولكن إذا صارت الفوائد الدنيوية أو منافعُها علّةً، أو جزءاً من العلة لتلك العبادة أو لذلك الوِرد أو الذكر فإنها تُبطل قسماً من تلك العبادة. بل تجعل ذلك الورد الذي له خصائص عدة عقيماً دون نتيجة.

فالذين لا يفهمون هذا السر، ويقرأون «الأوراد القدسية للشاه النقشبند» مثلاً التي لها مئات من المزايا والخواص، أو يقرأون «الجوشن الكبير» الذي له ألفٌ من المزايا والفضائل وهم يقصدون بعض تلك الفوائد بالذات، لا يجدون تلك الفوائد، بل لن يجدوها ولن يشاهدوها، وليس لهم الحق لمشاهدتها البتة؛ لأنه لا يمكن أن تكون تلك الفوائد علّةً لتلك الأوراد، فلا تُطلب منها تلك الفوائد قصداً، لأن تلك الفوائد تترتب بصورة فضلٍ إلهي على ذلك الوِرد الذي يُقرأ قراءةً خالصةً دون طلب شيء. فأما إذا نواها القارئ فإن نيّتها تُفسد إخلاصَه جزئياً، بل تُخرجها من كونها عبادةً، فتسقط قيمتُها.

بيد أن هناك أمراً آخر، هو أن أشخاصاً ضعفاء بحاجة دائمة إلى مشوّق ومرجّح فإذا ما قرأ الأوراد قراءة خالصة لله متذكراً تلك الفوائد فلا بأس في ذلك، بل هو مقبول.

ولعدم إدراك هذه الحكمة، يقع الكثيرون فريسةَ الريب والشك عند عدم وجدانهم تلك الفوائد التي رُويت عن الأقطاب والسلف الصالحين، بل قد ينكرونها.

المسألة الثالثة: «طُوبى لِمَنْ عَرَفَ حَدَّهُ وَلَمْ يَتَجَاوَزْ طَوْرَهُ».(١)

إنَّ هناك تجليات للشمس على كل شيء. ابتداءً من أَصغر ذرة وبلورة زجاج وقطرة ماء ومن الحوض الكبير والبحر العظيم، وانتهاءً بالقمر والكواكب السيارة. كلٌّ منها يعرف حدّه ويطبع على نفسه انعكاسَ الشمس وصورتَها حسب قابليته. فتستطيع قطرةُ ماءٍ أن تقول: عندي انعكاسٌ للشمس، وذلك حسب قابليتها. ولكن لا تجرؤ على القول: أنا مرآة للشمس كالبحر.

كذلك الأمر في مقامات الأولياء، ففيها مراتبُ عدّة، حسب تنوّع تجليات الأسماء الإلهية الحسنى، فكلُّ اسم من الأسماء الحسنى له تجلياتٌ -كالشمس في المثال- ابتداءً من القلب وانتهاءً بالعرش. فالقلب عرشٌ، ولكن لا يستطيع أن يقول: «أنا كالعرش الأعظم». ومن هنا كان السالك في سبيل الفخر والغرور يلتبس عليه الأمر فيجعل قلبَه الصغير جداً كالذرة مساوياً للعرش الأعظم، ويعتبر مقامه الذي هو كالقطرة كفواً مع مقام الأولياء العظام الذي هو كالبحر. فبدلاً من أن يصرف همّه لمعرفة أساس العبادة الذي هو العجز والفقر وإدراك تقصيره ونقصه أمام بارئه القدير والتضرع أمام عتبة ألوهيته سبحانه والسجود عندها بكل ذل وخضوع، تراه يبدر منه التصنّعُ والتكلف لأجل أن يلائم نفسه ويحافظ عليها مع مستوى تلك المقامات السامية، فيقع فيما لا طائل وراءه من الغرور والأنانية والمشاكل العويصة.

الخلاصة: لقد ورد في الحديث الشريف: «هَلَكَ النَّاسُ إلّا الْعَالِمُونَ وَهَلَكَ الْعَالِمُونَ إلّا الْعَامِلُونَ وَهَلَكَ الْعَامِلُونَ إلَّا الْمُخْلِصُونَ وَالْمُخْلِصُونَ عَلَى خَطَرٍ عَظِيمٍ».(٢) أي إن محور النجاة ومدارها الإخلاص، فالفوز به إذن أمر في غاية الأهمية لأن ذرةً من عمل خالص أفضل عند الله من أطنانٍ من الأعمال المشوبة. فالذي يجعل الإنسان يحرز الإخلاص هو تفكّره في

(١) انظر البخاري، التاريخ الكبير ٣/ ٣٣٨؛ الطبراني، المعجم الكبير ٥/ ٧١؛ البيهقي، السنن الكبرى ٤/ ١٨٢.

(٢) في كشف الخفاء (٢٧٩٦) (الناس هلكى....): قال الصغاني: وهذا حديث مفترىً ملحون، والصواب في الإعراب العالمين والعاملين والمخلصين ا. هـ. وأقول فيه: أن السيوطي نقل في النكت عن أبي حيان أن الإبدال في الاستثناء الموجَب لغةٌ لبعض العرب، وخرج عليها قوله تعالى: ﴿ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ا. هـ. وعليه فالعالمون وما بعده بدل مما قبله.

أن الدافعَ إلى العمل هو الأمر الإلهي لا غير، ونتيجتَه كسبُ رضاه وحده، ثم عدم تدخله في الشؤون الإلهية.

إنَّ هناك إخلاصاً في كل شيء. حتى إن ذرةً من حُبٍّ خالص تفضل على أطنان من الحب الصوري الشكلي. وقد عبّر أحدهم شعراً عن هذا النوع من الحب:

وَمَا أَنَا بِالْبَاغِي عَلَى الْحُبِّ رُشْوَةً ضَعِيفُ هَوىً يُبْغَىٰ عَلَيْهِ ثَوَابُ[1]

أي لا أطلب على الحب رشوة ولا أجرة ولا عوضاً ولا مكافأة، لأن الحب الذي يطلب ثواباً ومكافأة حبٌّ ضعيف لا يدوم. فهذا الحب الخالص قد أودعه الله سبحانه في فطرة الإنسان ولاسيما الوالدات عامة، فشفقةُ الوالدة مثال بارز على هذا الحب الخالص.

والدليل على أن الوالدات لا يطلبن تجاه محبتهن لأولادهن مكافأة ولا رشوة قط هو جُودُهن بأنفسهن لأجل أولادهن، بل فداؤهن حتى بأخراهن لأجلهم. حتى ترى الدجاج تهاجم الكلبَ إنقاذاً لأفراخها من فمه - كما شاهدها «خسرو» - علماً أن حياتها هي كل ما لديها من رأسمال.

المسألة الرابعة: لا ينبغي أن تؤخذ النِعم التي تَرِدُ بأسبابٍ ووسائلَ ظاهرية على حساب تلك الأسباب والوسائل، لأن ذلك السبب وتلك الوسيلة، إما له اختيار أو لا اختيار له. فإن لم يكن له اختيار -كالحيوان والنبات- فلا ريب أنه يعطيك بحساب الله وباسمه. وحيث إنه يذكر الله بلسان حاله، أي يقول: بسم الله، ويسلّمك النعمة، فخذها باسم الله وكُلها. ولكن إن كان ذلك السبب له اختيار، فعليه أن يذكر الله ويقول: بسم الله، فلا تأخذ منه إلّا بعد ذكره اسم الله، لأن المعنى الإشاري -فضلاً عن المعنى الصريح- للآية الكريمة: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ (الأنعام:١٢١) يرمز إلى: لا تأكلوا من نعمةٍ لم يُذكر اسم مالكها الحقيقي عليها وهو الله، ولم تُسلَّم إليك باسمه.

وعلى هذا فعلى المُعطي أن يذكر اسم الله، وعلى الآخذ أن يذكر اسم الله. فإن كان المُعطي لا يذكر اسم الله، وأنت في حاجة إلى الأخذ، فاذكر أنت اسم الله، ولكن ارفعْ بصرَك عالياً فوق رأس المُعطي وانظر إلى يد الرحمة الإلهية التي أنعمت عليه وعليك معاً، وقبّلها

(١) البيت للمتنبي.

بالشكر، وتسلّم منها النعمة. أي انظر إلى الإنعام من خلال النعمة، وتذكّر المنعِم الحقيقي من خلال الإنعام، فهذا النظر والتذكر شكرٌ. ومن ثم ارجع بصرك -إن شئت- وانظر إلى السبب أو الوسيلة، وادعُ له بالخير واثنِ عليه، لورود النعمة على يديه.

إن الذي يوهم عَبَدة الأسباب ويخدعهم هو: اعتبارُ أحد الشيئين علةً للآخر عند مجيئهما معاً، أو عند وجودهما معاً. وهذا هو الذي يسمى بـ«الاقتران».

وحيث إن عدم وجود شيء ما، يصبح علةً لعدم وجود نعمة، لذا يتوهم المرء أن وجود ذلك الشيء هو علةٌ لوجود تلك النعمة، فيبدأ بتقديم شكره وامتنانه إلى ذلك الشيء فيخطئ؛ لأن وجودَ نعمة ما يترتبُ على مقدمات كثيرة وشرائط عديدة، بينما انعدامُ تلك النعمة يحدث بمجرد انعدام شرط واحد فقط.

مثلاً: إن الذي لا يفتح مجرى الساقية المؤدية إلى الحديقة يصبح سبباً وعلةً لجفاف الحديقة ووسيلةً لموتها، وبالتالي إلى انعدام النعم التي فيها. ولكن وجود النِعم في تلك الحديقة لا يتوقف على عمل ذلك الشخص وحده، بل يتوقف أيضاً على مئاتٍ من الشرائط الأخرى، بل لا تحصل تلك النعم كلها إلّا بالعلّة الحقيقية التي هي القدرةُ الربانية والإرادة الإلهية.

فافهم من هذا مدى الخطأ في هذه المغالطة، واعلم فداحة خطأ عبدة الأسباب.

نعم، إن الاقتران شيء والعلة شيء آخر. فالنعمة التي تأتيك وقد اقترنت بنيّة إحسانٍ من أحدهم إليك، علّتُها الرحمة الإلهية. وليس لذاك الشخص إلّا الاقتران دون العلة.

نعم، لو لم ينوِ ذلك الشخص تلك النيّة في الإحسان إليك لما كانت تأتيك تلك النعمة، أي إن عدم نيته كان علةً لعدم مجيء النعمة، ولكن ذلك الميل للإحسان لا يكون علةً لوجود النعمة أبداً، بل ربما يكون مجرد شرطٍ واحد من بين مئات الشروط الأخرى.

ولقد التبس الأمر على بعض «طلاب رسائل النور»، ممن أفاض الله عليهم من نِعَمِهِ (أمثال خسرو ورأفت..) فالتبس عليهم الاقتران بالعلّة، فكانوا يبدون الرضى بأستاذهم ويثنون عليه ثناءً مفرطاً. والحال أن الله سبحانه قد قَرنَ نعمةَ استفادتهم من الدروس القرآنية مع إحسانه إلى أستاذهم من نعمة الإفادة، فالأمر اقترانٌ ليس إلّا .

فهم يقولون: لو لم يقدم أستاذنا إلى هنا، ما كنا لنأخذ هذا الدرس الإيماني، فإفادته إذن هي علّةٌ لاستفادتنا نحن. وأنا أقول: يا إخوتي الأحبة، إنَّ الحق سبحانه وتعالى قد قَرَن النعمة التي أَنعمها عليّ بالتي أَنعمها عليكم، فالعلّةُ في كلتا النعمتين هي الرحمة الإلهية.

وقد كنت يوماً أَشعر بامتنان بالغ نحو طلاب يملكون قلماً سيالاً مثلكم ويسعون إلى خدمة النور. فالتبس عليّ الاقتران بالعلّة، فكنت أَقول: تُرى كيف كان ينهض في أداء خدمة القرآن الكريم مَن كان مثلي في رداءة الخط، لولا هؤلاء الطلبة؟. ولكن فَهمتُ بعدئذ أن الحق سبحانه وتعالى بعد ما أنعم عليكم النعمة المقدسة بجودة الكتابة، مَنّ عليّ بالتوفيق في السير في هذه الخدمة القرآنية، فاقترن الأمران معاً، فلا يكون أحدهما علّة للآخر قط، لذا فلا أُقدم شكري وامتناني لكم، بل أُبشّركم وأُهنئكم. وعليكم أَنتم كذلك أن تدعوا لي بالتوفيق والبركة بدلاً من الرضى والثناء.

ففي هذه المسألة ميزانٌ دقيقٌ تُعرف به درجات الغفلة والشرك الخفي.

المسألة الخامسة: كما أنه ظلمٌ عظيم إذا ما أُعطي لشخص واحد ما تملكه الجماعة، ويكون الشخص مرتكباً ظلماً قبيحاً إذا ما غصبَ ما هو وقفٌ على الجماعة، كذلك الأمر في النتائج التي تتحصل بمساعي الجماعة وعملهم، والشرف والمنزلة المترتبة على محاسن الجماعة وفضائلها، إذا ما أُسند إلى رئيسها أو أستاذها أو مرشدها يكون ظلماً واضحاً بحق الجماعة، كما هو ظلم بيّن بحق الأستاذ أو الرئيس نفسه، لأن ذلك يداعب أنانيته المستترة فيه ويسوقه إلى الغرور. فبينما هو حارسٌ بوابٌ للجماعة، إذا به يتزيا بزيّ السلطان ويُوهم الآخرين بزيّه، فيظلم نفسه. بل ربما يفتح له هذا طريقاً إلى نوع من شرك خفي. نعم، إنه لا يحق أن يأخذ آمرُ طابورٍ الغنائمَ التي حصل عليها الجنود من فتحهم قلعة حصينة، ولا يمكنه أن يسند انتصارهم إلى نفسه.

لأجل هذا يجب ألّا يُنظر إلى الأستاذ أو المرشد على أنه المنبع أو المصدر بل ينبغي اعتباره والنظر إليه على أنه مَعكَس ومظهرٌ فحسب. كالمرآة التي تعكس إليك حرارة الشمس وضوءها، فمن البلاهة أن تتلقى المرآة كأنها مصدرٌ لهما فتنسى الشمس نفسها، ومن ثم تُولي اهتمامك ورضاك إلى المرآة بدلاً عن الشمس!.

نعم، إنه لابد من الحفاظ على المرآة لأنها مَظهرٌ يظهر تلك الصفات. فروحُ المرشد وقلبه مرآةٌ، تصبح مَعكَساً للفيوضات الربانية التي يفيضها الحق سبحانه عليها، فيصبح المرشد وسيلة لانعكاس تلك الفيوضات إلى مريده.

لذا يجب ألّا يُسند إليه مقامٌ أكثر من مقام الوسيلة -من حيث الفيوضات- بل يُحتمل ألّا يكون ذلك الأستاذ الذي يُنظر إليه كأنه مصدر مَظهراً ولا مصدراً. وإنما يرى مريده ما أخذه من فيوضات -في طريق آخر- يراها في مرآة روح شيخه، وذلك لما يحمل من صفاء الإخلاص نحوه وشدة العلاقة به ودنو صلته به وحصر نظره فيه. مَثَلُهُ في هذا كمثل المنوّم مغناطيسياً إذ ينفتح في خياله نافذةٌ إلى عالم المثال بعد إمعانه النظر في المرآة، فيشاهد فيها مناظر غريبة عجيبة، علماً أن تلك المناظر ليست في المرآة وإنما فيما وراء المرآة مما يتراءى له من نافذة خيالية التي انفتحت نتيجة إمعان النظر في المرآة.

لهذا يمكن أن يكون مريدٌ مخلصٌ لشيخ غير كامل أكمل من شيخه، فينبري إلى إرشاد شيخه، ويصبح شيخاً لشيخه.

المذكِّرة الرابعة عشرة

تتضمن أربعة رموز صغيرة تخصّ التوحيد:

الرمز الأول: يا من يستمدّ من الأسباب، إنك «تنفخ من غيرِ ضَرم وتستسمن ذا ورم».[1] إذا رأيت قصراً عجيباً يُبنى من جواهر غريبة، لا يوجد وقت البناء بعضُ تلك الجواهر إلّا في الصين، وبعضها إلّا في الأندلس، وبعضها إلّا في اليمن، وبعضها إلّا في سيبيريا. وإذا شاهدت أن البناء يتم على أحسن ما يكون، وتُجلب له تلك الأحجار الكريمة من الشرق والغرب والشمال والجنوب بأسرع وقت وبسهولة تامة وفي اليوم نفسه.. فهل يبقى لديك ريب في أن بنّاء ذلك القصر باسطٌ هيمنتَه على الكرة الأرضية؟.

وهكذا كلّ كائنٍ، بناءٌ، وقصر إلهي، ولاسيما الإنسان. فهو من أجمل تلك القصور ومن أعجبها، لأن قسماً من الأحجار الكريمة لهذا القصر البديع من عالم الأرواح، وقسم منها من

(١) نفخت في غير ضرم... مثل يضرب لمن يصنع الشيء في غير موضعه. والضرم: النار أو الحطب السريع الالتهاب، ونفخ في غير ضرم أي في مكان لا نار فيه.

عالم المثال واللوح المحفوظ، وقسم آخر من عالم الهواء، ومن عالم النور، ومن عالم العناصر. كما امتدت حاجاتُه إلى الأبد، وانتشرت آماله في أقطار السماوات والأرض، وشرّعت روابطه وعلاقاته في طبقات الدنيا والآخرة.

فيا هذا الإنسان الذي يحسب نفسه إنساناً، أنت قصر عجيب جداً، وعمارة غريبة جداً. فما دامت ماهيتُك هكذا، فلا يكون خالقك إذن إلّا ذلك الذي يتصرف في الدنيا والآخرة بيسر التصرف في منزلين اثنين، ويتصرف في الأرض والسماء كتصرفه في صحيفتين، ويتصرف في الأزل والأبد كأنهما الأمس والغدُ، فلا معبود يليق بك، ولا ملجأ لك، ولا منقذ إلّا ذلك الذي يحكم على الأرض والسماء ويملك أزمة الدنيا والعقبى.

الرمز الثاني: هناك بعضُ الحمقى يتوجه بحبه إلى المرآة إذا ما رأى الشمس فيها. وذلك لعدم معرفته بالشمس نفسها، فيحافظ على المرآة بحرصٍ شديد لاستبقاء الشمس، ولكيلا تضيع! ولكن إذا تفطّن أن الشمس لا تموت بموت المرآة، ولا تفنى بانكسارها توجّه بمحبته كلها إلى الشمس التي في السماء. وعندئذٍ يدرك أن الشمس التي تشاهَد في المرآة ليست تابعة للمرآة، ولا يتوقف بقاؤها ببقاء المرآة، بل إن بقاء حيوية المرآة وتلألؤها إنما هو ببقاء تجليات الشمس ومقابلتها. فبقاء المرآة تابعٌ لبقاء الشمس.

فيا أيها الإنسان! إن قلبك وهويتك وماهيتَك مرآةٌ، وما في فطرتك من حبّ البقاء ليس لأجلها، بل لأجل ما فيها من تجلٍ لأسم الباقي ذي الجلال، الذي يتجلّى فيها حسب استعداد كل إنسان. ولكن صُرفَ وجهُ تلك المحبة إلى جهة أخرى نتيجة البلاهة. فما دام الأمر هكذا فقل: يا باقي أنت الباقي. فإذ أنت موجود وباقٍ، فليفعل الفناء بنا ما شاء فلا نبالي بها نلاقي.

الرمز الثالث: أيها الإنسان! إن من غرائب ما أودع الفاطر الحكيم في ماهيتك أنه: بينما لا تسَعُك الدنيا أحياناً فتقول: أفّ! أفّ! ضجراً كالمسجون المخنوق، وتبحث عن مكان أوسعَ منه، إذا بك تسعك خردلة من عمل، من خاطرة، من دقيقة، حتى تفنى فيها. فقلبك وفكرُك اللذان لا تسَعهما الدنيا الضخمة، تسَعهما الذرة الصغيرة، فتجول بأشد أحاسيسك ومشاعرك في تلك الخاطرة الدقيقة الصغيرة.

وقد أودع البارئ سبحانه في ماهيتك أجهزة ولطائف معنوية دقيقة، إذا ابتلع بعضُها الدنيا فلا يشبع، ويضيق بعضها ذرعاً عن ذرة ولا يتحمل شُعيرة، كالعين التي لا تتحمل شعرة

والرأس الذي يتحمل أثقالاً هائلة. فتلك اللطيفة لا تتحمل ثقلاً كالشعرة الدقيقة، أي لا تتحمل حالة هينة جداً نشأت من الضلالة ونجمت من الغفلة. بل قد تنطفئ جذوتُها وتموت.

فاحذر! وخفف الوطء، وخَفْ من الغَرق، فيغرقُ معك ألطفُ لطائفك التي تبتلع الدنيا في أكلة، أو كلمة، أو لمعة، أو إشارة، أو بقلة، أو قُبلة. فهناك أشياء صغيرة جداً تتمكن - في جهة - أن تستوعب ما هو ضخم جداً. فانظر إن شئت كيف تغرق السماء بنجومها في مرآة صغيرة، وكيف كتب الحق سبحانه في خردلة حافظتك أكثر ما في صحيفة أعمالك وأغلب ما في صحائف أعمارك. فسبحانه من قادر قيوم!.

الرمز الرابع: يا عابد الدنيا! إن دنياك التي تتصورها واسعةً فسيحةً ما هي إلّا كالقبر الضيّق، ولكن جدرانه من مرآةٍ تتعاكس فيها الصور، فتراه فسيحاً رحباً واسعاً مدّ البصر، فبينما منزلك هذا هو كالقبر تراه كالمدينة الشاسعة، ذلك لأن الجدار الأيمن والأيسر لتلك الدنيا واللذين يمثلان الماضي والمستقبل -رغم أنهما معدومان وغير موجودين- فإنهما كالمرآة تعكسان الصور في بعضهما البعض الآخر فتوسّعان وتبسطان أجنحة زمان الحال الحاضرة الذي هو قصير جداً وضيق جداً. فتختلط الحقيقة بالخيال، فترى الدنيا المعدومة موجودةً. فكما أن خطاً مستقيماً وهو في حقيقته رفيعٌ جداً، إذا ما تحرك بسرعة يظهر واسعاً كأنه سطح كبير، كذلك دنياك أنت، هي في حقيقتها ضيقة جداً، جدرانُها قد توسعت ومُدّت بغفلتك وتوهم خيالك، حتى إذا ما تحرك رأسك من جراء مصيبة أصابتك، تراه يَصدم ذلك الجدار الذي كنت تتصوره بعيداً جداً. فيطيّر ما تحمله من خيال، ويطرد نومك. وعندئذ تجد دنياك الواسعة أضيقَ من القبر، وترى زمانك وعمرك يمضي أسرع من البرق، وتنظر إلى حياتك تراها تسيل أسرع من النهر.

فما دامت الحياة الدنيا والعيش المادي والحياة الحيوانية هكذا، فانسلْ إذن من الحيوانية، ودع المادية، وادخل مدارج حياة القلب.. تجد ميدان حياةٍ أَرحب، وعالم نورٍ أَوسع مما كنت تتوهمه من تلك الدنيا الواسعة.

وما مفتاح ذلك العالم الأرحب إلّا معرفةُ الله، وإنطاقُ اللسان وتحريك القلب، وتشغيل الروح بما تفيده الكلمة المقدسة: (**لا إله إلّا الله**) من معانٍ وأسرار .

المذكّرة الخامسة عشرة

وهي ثلاث مسائل.

المسألة الأولى: [١] يا مَن يريد أن يرى دليلاً على حقيقة الآيتين الكريمتين: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزلزال:٧-٨) اللتين تشيران إلى التجلي الأتم لاسم الله «الحفيظ».

إن التجلي الأعظم لاسم الله الحفيظ ونظير الحقيقة الكبرى لهاتين الآيتين مبثوثٌ في الأرجاء كافة، يمكنك أن تجده بالنظر والتأمل في صحائف كتاب الكائنات، ذلك الكتاب المكتوب على مِسطر الكتاب المبين وعلى موازينه ومقاييسه.

خذ -مثلاً- غَرْفةً بقبضتك من أشتات بذور الأزهار والأشجار، تلك البذيرات المختلطة والحبّات المختلفة الأجناس والأنواع وهي المتشابهة في الأشكال والأجرام، ادفن هذه البُذيرات في ظلمات تراب بسيط جامد، ثم اسقها بالماء الذي لا ميزان له ولا يميز بين الأشياء فأينما توجهه يسيل ويذهب. ثم عُدْ إليه عند الربيع الذي هو ميدان الحشر السنوي، وانظر وتأمل كيف أن مَلَك «الرعد» ينفخُ في صُوره في الربيع كنفخ إسرافيل، مُنادياً المطر ومُبشراً البذيرات المدفونة تحت الأرض بالبعث بعد الموت. فأنت ترى أن تلك البذيرات التي هي في منتهى الاختلاط والامتزاج مع غاية التشابه تمتثل تحت أنوار تجلّي اسم «الحفيظ»، امتثالاً تاماً بلا خطأ الأوامر التكوينية الآتية إليها من بارئها الحكيم. فتلائم أعمالَها وتوافق حركاتِها مع تلك الأوامر بحيث تستشف منها لمعان كمال الحكمة والعلم والإرادة والقصد والشعور.

ألا ترى كيف تتمايز تلك البذيرات المتماثلة، ويفترق بعضها عن البعض الآخر. فهذه البُذيرة قد صارت شجرة تينٍ تنشر نِعم الفاطر الحكيم فوق رؤوسها وتنثرها علينا وتمدّها إلينا بأيدي أغصانها. وهاتان البُذيرتان المتشابهتان بها قد صارتا زهرة الشمس وزهرة البنفسج.. وأمثالها كثير من الأزهار الجميلة التي تتزين لأجلنا وتواجهنا بوجه طليق مبتسم متوددةً إلينا.. وهناك بذيراتٌ أخرى قد صارت فواكه طيبة نشتهيها، وسنابل ملآى، وأشجاراً يافعة، تثير شهيتنا بطعومها الطيبة، وروائحها الزكية، وأشكالها البديعة فتدعونا إلى أنفسها، وتُفديها إلينا،

(١) أما المسألة الثانية والثالثة من هذه المذكرة، وكذلك المذكرات الباقية، فلم يدرجها الأستاذ المؤلف ضمن هذه الرسالة بل جعل كلاً منها في رسالة خاصة في «اللمعات» وهي: الإخلاص، والحجاب، والطبيعة، والإشارات الثلاث وغيرها.

كي تصعد من مرتبة الحياة النباتية إلى مرتبة الحياة الحيوانية. حتى نمت تلك البذيرات نمواً واسعاً إلى حد صارت تلك الغرفةُ منها -بإذن خالقها- حديقة غنّاء وجنةً فيحاء مزدهرة بالأزهار المتنوعة والأشجار المختلفة، فانظر هل ترى خطأً أو فطوراً ﴿ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ (المُلك: ٣).

لقد أظهرت كلُ بذرة بتجلي اسم الله «الحفيظ» وإحسانه ما ورثَته من ميراث أبيها وأصلها بلا نقصان وبلا التباس.

فالحفيظ الذي يفعل هذا الحفظ المعجِز يشير به إلى إظهار التجلي الأكبر للحفيظية يوم الحشر الأكبر والقيامة العظمى.

نعم، إن إظهار كمال الحفظ والعناية في مثل هذه الأمور الزائلة التافهة بلا قصور، لهو حجةٌ بالغة على محافظة ومحاسبة ما له أهمية عظيمة وتأثير أبدي كأفعال خلفاء الأرض وآثارهم، وأعمال حملة الأمانة وأقوالهم، وحسنات عبدة الواحد الأحد وسيئاتهم..

﴿ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴾ (القيامة: ٣٦) بلى إنه لمبعوثٌ إلى الأبد، ومرشّحٌ للسعادة الأبدية أو الشقاء الدائم، فيحاسَبُ على السَبَد واللَّبَد [١] فإما الثواب وإما العقاب.

وهكذا فهناك ما لا يحد ولا يُعد من دلائل التجلي لاسم الله الحفيظ، وشواهد حقيقة الآية المذكورة.

فهذا المثال الذي تنسج على منواله ليس إلّا قبضة من صُبرة،[٢] أو غرفة من بحر، أو حبة من رمال الدهناء، ونقطة من تلال الفيفاء،[٣] وقطرة من زلال السماء، فسبحانه من حفيظ رقيب وشهيد حسيب.

﴿سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

اللمعة الثامنة عشرة

ستدرج بإذن الله ضمن مجموعة أخرى.

(١) السَبَد: جمع أسباد: القليل من الشعر، يقال: «ما له سبدٌ ولا لَبَد» أي لا شعر ولا صوف، يقال: لمن لا شيء له (انظر: مجمع الأمثال للميداني).
(٢) الصُبرة: ما جُمع من الطعام بلا كيل ولا وزن.
(٣) الفيفاء: الصحراء الملساء، والجمع: الفيافي.

اللمعة التاسعة عشرة

«رسالة الاقتصاد»

(هذه الرسالة تحضّ على الاقتصاد والقناعة وتحذّر من مغبة الإسراف والتبذير)



﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ (الأعراف: ٣١)

(هذه الآية الكريمة تلقّن درساً في غاية الأهمية وترشد إرشاداً حكيماً بليغاً بصيغة الأمر إلى الاقتصاد، ونهي صريحٍ عن الإسراف. تتضمن هذه المسالة سبعَ نكات).

النكتة الأولى

إنَّ الخالق الرحيم سبحانه يطلب من البشرية شكراً وحمداً إزاء ما أَغدقَ عليها من النعم والآلاء، إلّا أَنَّ الإسراف منافٍ للشكر وهو استخفاف خاسر ووخيم تجاه النعمة، بينما الاقتصاد توقيرٌ مربح إزاء النعمة.

أَجل! إنَّ الاقتصاد كما هو شكرٌ معنوي، فهو توقير للرحمة الإلهية الكامنة في النعم والإحسان.. وهو سبب حاسم للبركة والاستكثار.. وهو مدار صحة الجسد كالحِمية.. وهو

سبيل إلى العزة بالابتعاد عن ذلّ الاستجداء المعنوي.. وهو وسيلة قوية للاحساس بها في النعم والآلاء من لذة.. وهو سبب متين لتذوق اللذائذ المخبأة في ثنايا نعَمٍ تبدو غير لذيذة.. ولكون الإسراف يخالف الحِكَم المذكورة آنفاً باتت عواقبُه وخيمة.

النكتة الثانية

لقد خلق الفاطر الحكيم جسم الإنسان بما يشبه قصراً كاملَ التقويم وبما يماثل مدينة منتظمة الأجزاء، وجعل حاسةَ الذوق المغروزة في فمه كالبوّاب الحارس، والأعصاب والأوعية بمثابة أسلاك هاتف وتلغراف (تتم خلالها دورة المخابرة الحساسة بين القوة الذائقة والمعدة التي هي في مركز كيان الإنسان) بحيث تقوم حاسةُ الذوق تلك بإبلاغ ما حلّ في الفم من المواد، وتحجز عن البدن والمعدة الأشياء الضارة التي لا حاجةَ للجسم لها قائلة: «ممنوع الدخول» نابذةً إياها، بل لا تلبث أَنْ تدفع وتبصق باستهجان في وجهِ كل ما هو غير نافع للبدن فضلاً عن ضرره ومرارته.

ولما كانت القوة الذائقة في الفم تؤدي دور الحارس. وإن المعدة هي سيدةُ الجسد وحاكمته من حيث الإدارة، فلو بلغت قيمةُ هديةٍ تُقدَّم إلى حاكم القصر مائة درجة فإنَّ خُمساً منها فقط يجوز أن يعطى هبةً للحارس لا أكثر، كيلا يختال الحارس وينسى وظيفتَه ويقحمَ في القصر كل مخلّ عابث يرشوه قرشاً أكثر.

وهكذا، بناءً على هذا السرّ، نفترض الآن أمامنا لقمتان، لقمة منها من مادة مغذّية -كالجبن والبيض مثلاً- يُقدّر ثمنها بقرش واحد، واللقمة الأخرى حلوى من نوع فاخر يُقدّر ثمنها بعشرة قروش، فهاتان اللقمتان متساويتان قبل دخولهما الفم ولا فرق بينهما، وهما متساويتان كذلك من حيث إنماء الجسم وتغذيته بعد دخولهما الفم ونزولهما عبر البلعوم. بل قد يغذّي الجبن -الذي هو بقرش واحد- تغذية أفضل وتنمية أقوى من اللقمة الأخرى. إذن ليس هناك من فرق إلّا ملاطفةَ القوة الذائقة في الفم التي لا تستغرق سوى نصف دقيقة. فليقدِّر إذن مدى ضرر الإسراف ويوازَن مدى التفاهة في صرف عشرة قروش بدلاً عن قرش واحد في سبيل الحصول على لذة تستغرق نصف دقيقة!

وهكذا فإن إثابة الحارس تسعة أضعاف ما يُقدّم إلى حاكم القصر من هدايا تُفضي به لا محالة إلى الغرور والجشع وتدفعه بالتالي إلى القول: إنما أنا الحاكم. فمَنْ كافأه بهبة أكثر ولذة أزيد دفعه إلى الداخل، مسبّباً إخلال النظام القائم هناك، مضرماً فيه ناراً مستعرة وملزماً صاحبه الاستغاثة صارخاً: هيّا أسرعوا إلى بالطبيب حالاً ليخفف شدة حرارتي ويطفئ لظى نارها.

فالاقتصاد والقناعة منسجمان انسجاماً تاماً مع الحكمة الإلهية، إذ يتعاملان مع القوة الذائقة معاملة الحارس، ويقفانها عند حدّها ويكافئانها حسب تلك الوظيفة. أما الإسراف فلأنه يسلك سلوكاً مخالفاً لتلك الحكمة، فسرعان ما يتلقى المسرف صفعات موجِعة، إذ تحدث الاختلاطات المؤلمة في المعدة التي تؤدي إلى فقدان الشهية الحقيقية نحو الأكل، فيأكل بشهية كاذبة مصطنعة بتنويع الأطعمة مما يسبب عُسراً في الهضم.

النكتة الثالثة

قلنا في النكتة الثانية آنفاً: إنَّ القوة الذائقة تؤدي دور الحارس. نعم، هي كذلك عند الغافلين الذين لم يَسمُوا بعدُ روحياً والذين لم يتقدموا في مضمار الشكر والعروج في مدارجه. نعم إنه لا ينبغي اللجوء إلى الإسراف -كصرف عشرة أضعاف الثمن- لأجل تلذذ تلك الحاسة الحارسة. ولكن القوة الذائقة لدى الشاكرين حقاً ولدى أهل الحقيقة وأَهل القلوب وأُولي الأَبصار بمثابة راصدة وناظرة مفتشة لمطابخ الرحمة الإلهية (كما وضح ذلك في المقارنة المعقودة في الكلمة السادسة). وإن ما يتم في تلك القوة الذائقة من عملية تقدير قيمة النعم الإلهية ومن التعرّف عليها بأنواعها المختلفة بما فيها من موازين دقيقة حساسة عديدة بعدد الأطعمة، إنما هو لإبلاغ الجسد والمعدة، بما ينمّ عن شكر معنوي.

فلا تقتصر وظيفة القوة الذائقة على رعاية الجسد رعايةً مادية وحدَها، بل هي أَيضاً أَرقى حكماً من وظيفة المعدة وأَرفع منزلة منها، لما لها من رعاية للقلب والروح والعقل ومن عناية لكل منها، علماً أنها تستطيع أن تمضي في سبيل الحصول على لذتها -بشرط عدم الإسراف- إنجازاً لمهمة الشكر الخالص المقدّرة لها، وبنيّة التعرف والإطلاع على أَنواع النعم الإلهية بتذوقها والشعور بها بشرط مشروعيتها وعدم كونها وسيلة للتذلل والاستجداء، أي

إننا نستطيع أن نستعمل ذلك اللسان الحامل للقوة الذائقة في الشكر لأجل التفضيل بين الأَطعمة اللذيذة.

وإليكم هذه الحادثة إشارة إلى هذه الحقيقة، وهي كرامة من كرامات الشيخ الكيلاني «قُدس سره»:

كان لعجوز رقيقة لطيفة ابنٌ وحيد يتربّى على يد الشيخ، دخلت تلك العجوز الموقرة ذات يوم على ابنها ورأت أنه يأكل من كِسرة خبز يابس أسمر مزاولاً رياضة روحية حتى ضعفَ ونحل جسمه. أَثارت هذه الحالة شفقة والدته الرؤوم ورقّت لحاله فذهبت لتشتكيه إلى الشيخ الكيلاني وإذا بها ترى الشيخ يأكل دجاجاً مشوياً. ولشدة رقتها ولطافتها قالت: أيها الشيخ إن ابني يكاد يموت جوعاً وها أنت ذا تأكل الدجاج! فخاطب الشيخ الدجاج قائلاً: «قم بإذن الله» فوثب ذلك الدجاج المطبوخ إلى خارج الوعاء بعد أَن اكتمل دجاجاً حياً بالتئام عظامه. لقد نقل هذا الخبر بالتواتر المعنوي ثقاتٌ كثيرون[1] إظهاراً لكرامة واحدة من صاحب الكرامات المشهورة في العالم، الشيخ الكيلاني قُدس سرّه. ومما قاله الشيخ لتلك العجوز : متى ما بلغ ابنك هذه الدرجة.. فليأكل الدجاج هو الآخر.

فمغزى هذا الأمر الصادر من الشيخ الكيلاني هو: متى حَكمت روحُ ابنك جَسَدَهُ وهيمن قلبُه على نفسِه، وسادَ عقلُه معدتَه، والتمس اللذةَ لأجل الشكر.. عندئذ يمكنه أن يتناول ما لذّ وطاب من الأطعمة.

النكتة الرابعة

إنَّ المقتصد لا يعاني فاقةَ العائلة وعَوَزها كما هو مفهوم الحديث الشريف: (**لَا يَعُولُ مَن اقتَصَد**). [2] أَجل هناك من الدلائل القاطعة التي لا يحصرها العدّ بأن الاقتصاد سببٌ جازم لإنزال البركة، وأساسٌ متين للعيش الأفضل. أذكر منها ما رأيته في نفسي وبشهادة الذين عاونوني في خدمتي وصادقوني بإخلاص فأقول:

(١) «.. وقال اليافعي رضي الله عنه: صح بالسند المتصل إلى الشيخ القطب عبد القادر الجيلاني رحمه الله تعالى: أن أم شاب عنده دخلت عليه وهو يأكل في دجاجة، فأنكرت أكله الدجاجة وإطعامه ابنها أرذل الطعام، فقال لها: إذا صار ابنك بحيث يقول لمثل هذه الدجاجة قومي بإذن الله فقامت ولها أجنحة وطارت بها حق له أن يأكل الدجاج.» (الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي ص ٨٠. الجيلاني، غنية الطالبين ص ٥٠٢؛ النبهاني، جامع كرامات الأولياء ٢/ ٢٠٣).

(٢) أحمد بن حنبل، المسند ١/ ٤٤٧؛ الطبراني، المعجم الكبير ١٠/ ١٠٨؛ المعجم الأوسط ٥/ ٢٠٦، ٦/ ٣٦٥؛ البيهقي في شعب الإيمان ٥/ ٢٥٥؛ وانظر كشف الخفاء، ١/ ١٥٨و٢/ ١٨٩.

لقد حصلتُ أحياناً وحصل أصدقائي على عشرة أضعاف من البركة بسبب الاقتصاد. حتى إنه قبل تسع سنوات[1] عندما أصرّ عليّ قسمٌ من رؤساء العشائر المنفيين معي إلى «بوردور» على قبول زكاتهم كي يحولوا بيني وبين وقوعي في الذلة والحاجة لقلة ما كانت عندي من النقود، فقلت لأولئك الرؤساء الأثرياء: برغم أن نقودي قليلة جداً إلّا أنني أَملك الاقتصاد، وقد تعودتُ على القناعة، فأنا أَغنى منكم بكثير. فرفضتُ تكليفهم المتكرر الملحّ.. ومن الجدير بالملاحظة أن قسماً من أولئك الذين عرضوا عليّ زكاتهم قد غلبهم الدَّين بعد سنتين، لعدم التزامهم بالاقتصاد، إلّا أن تلك النقود الضئيلة قد كفتني -ولله الحمد- ببركة الاقتصاد إلى ما بعد سبع سنوات، فلم يُرَق مني ماء الوجه، ولم يدفعني لعرض حاجتي إلى الناس، ولم يفسد عليّ ما اتخذته دستوراً لحياتي وهو «الاستغناء عن الناس».

نعم إنَّ من لا يقتصد، مدعوّ للسقوط في مهاوي الذلّة، ومعرّضٌ للانزلاق إلى الاستجداء والهوان معنىً.

إنَّ المال الذي يُستعمل في الإسراف في زماننا هذا لهو مالٌ غالٍ وباهظ جداً، حيث تُدفع أحياناً الكرامةُ والشرف ثمناً ورشوة له، بل قد تُسلب المقدسات الدينية، ثم يُعطى نقوداً منحوسة مشؤومة، أي يقبض بضعة قروش من نقود مادية، على حساب مئات الليرات من النقود المعنوية. بينما لو اقتصر الإنسان على الحاجات الضرورية واختصرها وحصر همّه فيها، فسيجد رزقاً يكفُل عيشه من حيث لا يحتسب وذلك بمضمون الآية الكريمة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ (الذاريات: ٥٨) وإن صراحة الآية الكريمة: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ (هود:٦) تتعهد بذلك تعهداً قاطعاً.

نعم، إن الرزق قسمان:

القسم الأول: وهو الرزق الحقيقي الذي تتوقف عليه حياة المرء، وهو تحت التعهد الرباني بحكم هذه الآية الكريمة، يستطيع المرءُ الحصولَ على ذلك الرزق الضروري مهما كانت الأحوال ، إنْ لم يتدخل سوءُ اختياره، دون أن يضطر إلى فداء دينه ولا التضحية بشرفه وعزته.

---

(١) المقصود سنة ١٩٢٦م.

القسم الثاني: هو الرزق المجازي، فالذي يسيء استعماله لا يستطيع أن يتخلّى عن الحاجات غير الضرورية، التي غدت ضروريةً عنده نتيجة الابتلاء ببلاء التقليد. وثمن الحصول على هذا الرزق باهظ جداً ولاسيما في هذا الزمان، حيث لا يدخل ضمن التعهد الرباني، إذ قد يتقاضى ذلك المال لقاء تضحيته بعزته سلفاً راضياً بالذل، بل قد يصل به حد السقوط في هاوية الاستجداء المعنوي، والتنازل إلى تقبيل أقدام أناسٍ منحطين وضيعين، لا بل قد يحصل على ذلك المال المنحوس الممحوق بالتضحية بمقدساته الدينية التي هي نور حياته الخالدة. ثم إنَّ الألم الذي ينتاب ذوي الوجدان من حيث العاطفة الإنسانية -بما يرونه من آلام يقاسيها المحتاجون البائسون في هذا الزمان الذي خيّم عليه الفقرُ والحاجة- يشوّب لذتَهم التي يحصلونها بأموال غير مشروعة، وتزداد مرارتُها إن كانت لهم ضمائر. إنه ينبغي في هذا الزمان العجيب الاكتفاء بحدّ الضرورة في الأموال المريبة، لأنه حسب قاعدة «الضرورة تُقَدّر بقدرها»[1] يمكن أن يؤخذ باضطرارٍ من المال الحرام حدُّ الضرورة وليس أكثر من ذلك. وليس للمضطر أن يأكل من الميتة إلى حدّ الشبع، بل له أن يأكل بمقدار ما يحول بينه وبين الموت. وكذا لا يؤكل الطعام بشراهة أمام مائة من الجائعين.

نورد هنا حادثة واقعية للدلالة على كون الاقتصاد سبب العزة والكمال:

أقام «حاتم الطائي»[*] المشهور بكرمه وسخائه ضيافة عظيمة ذات يوم وأغدق هدايا ثمينة على ضيوفه. ثم خرج للتجوال في الصحراء، فرأى شيخاً فقيراً يحمل على ظهره حملاً ثقيلاً من الحطب والكلأ والشوك والدم يسيل من بعض جسمه.. فخاطبه قائلاً:

- أيها الشيخ، إنَّ حاتماً الطائي يقيم اليوم ضيافة كريمة ويوزع هدايا ثمينة، بادر إليه لعلك تنال منه أموالاً أضعاف أضعاف ما تناله من هذا الحمل!.

قال له ذلك الشيخ المقتصد: سأحمل حملي هذا بعزة نفسي وعرق جبيني، ولا أرضى أن أقع تحت طائل منّة حاتم الطائي.

ولما سُئل حاتم الطائي يوماً:

- مَنْ من الناس وجدتَهم أعزَّ منك وأكرم؟.

---

(١) انظر: مجلة الأحكام العدلية ص ١٢ (المادة:٢٢).

قال: ذلك الشيخ المقتصد الذي لقيتُه في المفازة ذات يوم، لقد رأيتُه حقاً أعزّ مني وأكرم.[١]

النكتة الخامسة

إنَّ من كمال كرم الله سبحانه وتعالى، أنه يُذيقُ لذّة نِعَمه لأَفقر الناس، كما يذيقها أغناهم، فالفقير يستشعر اللذة ويتذوقها كالسلطان.

نعم إن اللذة التي ينالها فقير من كِسرة خبز أَسود يابس بسبب الجوع والاقتصاد تفوق ما يناله السلطان أو الثري من أكله الحلوى الفاخرة بالملل وعدم الشهية النابعين من الإسراف.

ومن العجب حقاً أن يجرؤ بعضُ المسرفين والمبذّرين على اتهام المقتصدين بالخسّة.. حاشَ لله، بل الاقتصاد هو العزة والكرم بعينه، بينما الخسةُ والذلة هما حقيقة ما يقوم به المسرفون والمبذرون من سخاء ظاهري.

وهناك حادثة جرت في غرفتي في «إسبارطة» في السنة التي تم فيها تأليف هذه الرسالة، تؤيد هذه الحقيقة وهي أنه: أصرّ أحد طلابي إصراراً شديداً على أن أَقبل هديته التي تزن أوقيتين ونصف الأوقية[٢] من العسل، خرقاً لدستور حياتي،[٣] ومهما حاولت في بيان ضرورة التمسك بقاعدتي لم يقنع، فاضطررت إلى قبولها مرغماً على نية أن يشترك ثلاثةُ إخوةٍ معي في الغرفة فيها ويأكلوا منه باقتصاد طوال أربعين يوماً من شهري شعبان ورمضان المبارك، ليكسب صاحبه المُهدي ثواباً، ولا يبقوا دون حلاوة. لذا أوصيتُهم بقبول الهدية لهم علماً أنّي كانت عندي أوقية من العسل.

وبرغم أن أصدقائي الثلاثة كانوا على استقامة حقاً وممن يقدّرون الاقتصاد حق قدره، فإنهم -على كل حال- نَسوه نتيجة قيامهم بإكرام بعضهم بعضاً ومراعاتهم شعور الآخرين

(١) قال ناس لحاتم الطائي: أرأيت أو سمعت لمن هو أعلى منك همة في هذه الدنيا. فقال: نعم، نحرت يوما أربعين جملا وخرجت إلى طرف البادية لأدعو أمراء العرب فرأيت حاطبا يحمل على ظهره حزمة شوك يريد بها المدينة. فقلت له: لماذا لم تذهب إلى ضيافة حاتم، فإن خلقا كثيرا قد التفوا حول مائدته؟ فالتفت إليّ وأنشد: أرى كل من بالكدح يدرك خبزه، فليس بمحتاج لمنة حاتم.

فالحق أقول: لقد رأيت ذلك الرجل أعلى مني همة وأكرم. (روضة الورد «كلستان» ترجمة الفراتي ص ١٤٤).

(٢) الأوقية تساوي ١,٢٨٠ كيلوغرام.

(٣) وهو أن الأستاذ النورسي ما كان يقبل الهدايا بلا مقابل.

والإيثار فيما بينهم، وأمثالها من الخصال الحميدة، فأنفدوا ما عندهم من العسل في ثلاث ليالٍ فقط، فقلت مبتسماً:

- لقد كانت نيتي أن أجعلكم تتذوقون طعم العسل ثلاثين يوماً أو أكثر، ولكنكم أنفدتموه في ثلاثة أيام فقط.. فهنيئاً لكم!. في حين أنني بتّ أَصرف ما كنتُ أملكه من العسل بالاقتصاد، فتناولته طوال شهري شعبان ورمضان، فضلاً عن أنه أَصبح ولله الحمد سبباً لثواب عظيم، حيث أَعطيتُ كل واحد من أولئك الإخوة ملعقة واحدة منه [١] وقت الإفطار.

ولربما حَسِب الذين شاهدوا حالي تلك أنها خسّة، واعتبروا أَوضاع أولئك الإخوة في الليالي الثلاث حالة عزيزة من الكرم ولكن شاهَدنا تحت تلك الخسة الظاهرية عزةً عاليةً وبركة واسعة وثواباً عظيماً من زاوية الحقيقة. وتحت ذلك الكرم والإسراف -إن لم يكن قد تُرك- استجداءً وترقباً لما في أيدي الآخرين بطمع وأمثالها من الحالات التي هي أدنى بكثير من الخسة.

النكتة السادسة

هناك بون شاسع وفرق هائل بين الاقتصاد والخسة، إذ كما أن التواضع الذي هو من الأخلاق المحمودة يخالف معنىً التذللَ الذي هو من الأخلاق المذمومة مع أنه يشابهه صورة. وكما أن الوقار الذي هو من الخصال الحميدة يخالف معنىً التكبّر الذي هو من الأخلاق السيئة مع أنه يشابهه صورة.

فكذا الحال في الاقتصاد الذي هو من الأخلاق النبوية السامية بل هو من المحاور التي يدور عليها نظام الحكمة الإلهية المهيمن على الكون، لا علاقة له أبداً بالخسة التي هي مزيجٌ من السفالة والبخل والجشع والحرص. بل ليست هناك من رابطة بينهما قطعاً، إلّا ذلك التشابه الظاهري. وإليكم هذا الحدث المؤيد لهذه الحقيقة:

دخل عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما وهو أكبر أبناء الفاروق الأعظم خليفة رسول الله ﷺ وأحد العبادلة السبعة المشهورين[٢] ومن البارزين بين علماء الصحابة

(١) أي ملعقة شاي كبيرة (ملعقة كوب). (المؤلف).

(٢) وهم: عبد الله بن عباس، عبدالله بن عمر، عبد الله بن مسعود، عبد الله بن رواحة، عبد الله بن سلام، عبد الله بن عمرو بن العاص، عبد الله بن ابي الأوفى (رضي الله عنهم أجمعين)

الأجلاء، دخل هذا الصحابي الجليل يوماً في مناقشة حادة لدى تعامله في السوق على شيء لا يساوي قرشاً واحداً، حفاظاً على الاقتصاد وصوناً للأمانة والاستقامة اللتين تدور عليهما التجارة.[١] في هذه الأَثناء رآه صحابي آخر، فظنّ فيه شيئاً من خسّة فاستعظمها منه، إذ كيف يصدر هذا الأمر من ابن أمير المؤمنين وخليفة الأرض. فتبعه إلى بيته ليفهم شيئاً من أحواله، فوجد أنه قضى بعض الوقت مع فقير عند الباب وتبادلا حديثاً في لطف ومودة، ثم خرج من الباب الثاني وتجاذب أطراف الحديث مع فقير آخر هناك. أثار هذا الأمر لهفة ذلك الصحابي فأسرع إلى الفقيرين للاستفسار منهما:

- هلّا تفهمانني ماذا فعل ابن عمر حينما وقف معكما؟.

- لقد أعطى كلاً منا قطعة ذهب.

فراعه الأمر وقال شدهاً: يا سبحان الله.. ما أعجب هذا الأمر، إنه يخوض في السوق في نقاش شديد لأجل قرش واحد، ثم ها هو ذا يغدق في بيته بمئات أضعافه على محتاجَين اثنين عن رضىً دون أن يشعر به أحد، فسار نحو ابن عمر رضي الله عنهما ليسأله:

- أيها الإمام: ألا تحل لي معضلتي هذه؟ لقد فعلتَ في السوق كذا وكذا وفي البيت كذا وكذا؟! فردّ عليه قائلاً:

- إن ما حدث في السوق هو نتيجة الاقتصاد والحصافة، فعلتُه صوناً للأمانة وحفظاً للصدق اللذين هما أساس المبايعة وروحها وهو ليس بخسّةٍ ولا ببخل، وإن ما بدر مني في البيت نابع من رأفة القلب ورقّته ومن سمو الروح واكتمالها.. فلا ذاك خسّة ولا هذا إسراف.

وإشارةً إلى هذا السرّ قال الإمام الأعظم «أبو حنيفة النعمان» رضي الله عنه: «**لا إسراف في الخير كما لا خير في الإسراف**»[٢] أي كما لا إسراف في الخير والإحسان لمن يستحقه كذلك لا خير في الإسراف قط.

---

(١) والتاجر الصادق الأمين مع الأنبياء والصديقين والشهداء: انظر الترمذي، البيوع ٣؛ ابن ماجه، التجارة ١؛ الدارمي، البيوع ٨.

(٢) انظر: الغزالي، إحياء علوم الدين ١/ ٢٦٢؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ٧/ ١١٠ المناوي، فيض القدير ٥/ ٤٥٤.

النكتة السابعة

إنَّ الإسراف ينتج الحرصَ، والحرصُ يوَلّد ثلاث نتائج:

أولاها: عدم القناعة.

وعدم القناعة هذا يُثنى الشوقَ عن السعي وعن العمل، بما يبثّ في نفس الحريص من الشكوى بدلاً من الشكر، قاذفاً به إلى أحضان الكسل، فيترك المالَ الزهيد النابع من الكسب الحلال[1] ويبادر بالبحث عما لا مشقة ولا تكليف فيه من مال غير مشروع، فيهدر في هذه السبيل عزتّه بل كرامته.

النتيجة الثانية للحرص: الخيبة والخسران.

إذ يفوت مقصودُ الحريص ويتعرض للاستثقال ويُحرَم من التيسير والمعاونة حتى يكون مصداق القول المشهور: «**الحريصُ خائب خاسر**».

إنَّ تأثير الحرص والقناعة يجري في عالم الأحياء على وفق دستور شامل وسنّة مطّردة فمثلاً: إنَّ وصول أرزاق النباتات المضطرة إلى الرزق إليها هو لقناعتها الفطرية، وسعي الحيوانات بنفسها بالحرص وراء الحصول على رزقها في عناء ونقص، يبديان مدى الضرر الجسيم الكامن في الحرص، ومدى النفع العظيم الكامن في القناعة.

وإنَّ سيلان الحليب -ذلك الغذاء اللطيف- إلى أفواه الصغار الضعفاء عامة ومن حيث لا يحتسبون بما يبدونه من قناعة ينطق بها لسانُ حالهم، وانقضاض الوحوش بحرص وجشع على أرزاقها الناقصة الملوّثة، يثبت ما ندّعيه إثباتاً ساطعاً.

وإنَّ أوضاع الأسماك البدينة البليدة التي تنمّ عن القناعة الباعثة لوصول أرزاقها إليها كاملة وعجزَ الحيوانات الذكية كالثعالب والقردة عن تحصيل غذائها كاملاً مع حرصها سعياً وراءها وبقاءها هزيلة نحيفة، ليبيّن كذلك مدى ما يسببه الحرص من المشقة والعناء ومدى ما تسببه القناعة من الراحة والهناء.

---

(١) إذ بسبب الابتعاد عن الاقتصاد، يكثر المستهلكون، ويقل المستحصلون، ويبدأ الجميع يشدون نظرهم إلى باب الحكومة، وحينها تنتكس وتتناقص الصناعة والتجارة والزراعة التي هي محور الحياة الاجتماعية ومدارها، وينهار المجتمع ويتدنى بدوره ويغدو فقيراً معدماً. (المؤلف).

كما أن حصول اليهود على أرزاقهم كفافاً بطرق غير مشروعة ممزوجاً بالذل والمسكنة بسبب حرصهم وتعاملهم بالربا واتباعهم أساليبَ المكر والخداع، وحصول البدويين المتحلّين بالقناعة على رزقهم الكافي وعيشهم العيش الكريم العزيز يؤيد دعوانا أيضاً تأييداً كاملاً.

كما أن تردّي كثيرٍ من العلماء[1] والأدباء[2] بما يمنحهم ذكاؤهم ودهاؤهم من الحرص في فقر مدقع وعيش كفاف، وغناء أكثر الأغبياء العاجزين وإثرائهم لما لهم من حالة فطرية قنوعة ليثبت إثباتاً قاطعاً: أن الرزق الحلال يأتي حسب العجز والافتقار لا بالاقتدار والاختيار. بل هو يتناسب تناسباً عكسياً مع الاقتدار والاختيار. ذلك أن أرزاق الأطفال تتضاءل وتبتعد ويصعب الوصول إليها كلما ازدادوا اختياراً وإرادةً واقتداراً.

نعم، إن القناعة كنز للعيش الهنيء الرغيد ومبعث الراحة في الحياة، بينما الحرص معدن الخسران والسفالة كما يتبين ذلك من الحديث الشريف: (**الْقَنَاعَةُ كَنْزٌ لَا يَفْنَى**).[3]

النتيجة الثالثة: إنَّ الحرص يتلف الإخلاص ويفسد العمل الأخروي؛ لأنه لو وُجد حرصٌ في مؤمن تقي لرغب في توجه الناس وإقبالهم إليه، ومن يرقب توجه الناس وينتظره لا يبلغ الإخلاصَ التام قطعاً ولا يمكنه الحصول عليه. فهذه النتيجة ذات أهمية عظمى جديرة بالدقة والملاحظة.

محصل الكلام: إنَّ الإسراف ينتج عدم القناعة أي الطمع، أما الطمع فيُخبت وهجَ الشوق والتطلع إلى العمل ويقذف بالإنسان إلى التقاعس والكسل، ويفتح أمامه أبواب الشكوى والحسرة في حياته حتى ليجعله يئن دوماً تحت مضض الشكوى والسأم.[4] كما أنه يفسد إخلاصه ويفتح دونه باباً للرياء والتصنع فيكسر عزته ويريه طريق الاستجداء والاستخذاء.

---

(١) سأل أنوشيروان حاكم إيران العادل الحكيم بزرجمهر: لماذا يشاهَد العلماء بأبواب الأمراء ولا يُشاهد الأمراء بأبواب العلماء والعلم يفوق الإمارة؟ فأجاب: ذلك من علم العلماء، وجهل الأمراء. أي إن الأمراء لا يعلمون قدر العلم، فلا يأتون أبواب العلماء لطلبه بينما العلماء يعلمون قدره، فيطلبون قيمته بأبواب الأمراء فهذا الجواب اللطيف تأويل ظريف لحرص العلماء النابع من ذكائهم المؤدي بهم إلى الذل والفقر. (خسرو).

(٢) هناك حادثة تؤيد هذا الحكم؛ إن الأدباء في فرنسا يُمنحون وثيقة التسول لإجادتهم له. (سليمان رشدي).

(٣) الطبراني، المعجم الأوسط ٧/ ٨٤؛ البيهقي، الزهد ٢/ ٨٨.

(٤) نعم، إذا قابلت مسرفاً فستسمع منه حتماً الشكاوي العريضة، ومهما كان غنياً فلسانه يشكو لا محالة، بينما إذا قابلت فقيراً قانعاً فلا تسمع منه إلّا الحمد والشكر لله. (المؤلف).

أما الاقتصاد فإنه يثمر القناعة، والقناعة تنتج العزة، استناداً إلى الحديث الشريف: **(عزّ مَن قنع وذلّ مَن طمع)**.(١) كما أنه يشحذ الشوقَ بالسعي والعملَ ويحث عليهما ويسوق سوقاً إلى الكدّ وبذل الجهد فيهما؛ لأنه إذا ما سعى المرء في يوم ما وتقاضى أجره مساءً فسيسعى في اليوم التالي له بسر القناعة التي توافرت لديه. أما المسرف فإنه لا يسعى في يومه الثاني لعدم قناعته وحتى إذا سعى فإنه يسعى دون شوق.

وهكذا فإن القناعة المستفاضة من الاقتصاد تفتح باب الشكر وتوصد باب الشكوى، فيظل الإنسان في شكر وحمدٍ مدى حياته. وبالقناعة لا يلتفت إلى توجه الناس إليه لاستغنائه عنهم، فينفتح أمامه باب الإخلاص وينغلق بابُ الرياء.

ولقد شاهدت الأضرار الجسيمة والخسائر الفادحة التي تسفر عن الإسراف وعدم الاقتصاد شاهدتها متجسدة في نطاق واسع ممتد وهي كما يأتي:

جئت إلى مدينة مباركة -قبل تسع سنوات- كان الموسم شتاءً فلم أَتمكن من رؤية منابع الثروة وجوانب الإنتاج في تلك المدينة، فقال لي مُفتيها رحمه الله: إن أَهالينا فقراء مساكين. أَعاد قوله هذا مراراً. أثّر فيّ هذا القول تأثيراً بالغاً مما أَجاش عطفي، فبت أَسترحم وأَتأَلم لأهالي تلك المدينة فيما يقرب من ست سنوات. وبعد ثماني سنوات عدتُ إليها وهي في أَجواء الصيف، وأَجلتُ نظري في بساتينها فتذكرت قول المفتي رحمه الله، وقلت متعجباً:

- سبحان الله! إن محاصيل هذه البساتين وغلاتها تفوق حاجة المدينة بأسرها كثيراً، وكان حرياً بأهاليها أن يكونوا أثرياء جداً! بقيت في حيرة من هذا الأمر.. ولكن أَدركت بحقيقة لم تخدعني عنها المظاهر، فهي حقيقة أَسترشدُ بها في إدراك الحقائق، وهي: أن البركة قد رُفعت من هذه المدينة بسبب الإسراف وعدم الاقتصاد. مما حدا بالمفتي رحمه الله إلى القول: «إن أهالينا فقراء ومساكين»، برغم هذا القدر الواسع من منابع الثروة وكنوز الموارد.

نعم، إنه ثابت بالتجربة وبالرجوع إلى وقائع لا تحد بأن دفعَ الزكاة، والأخذ بالاقتصاد سببان للبركة والاستزادة.(٢) بينما الإسراف ومنع الزكاة يرفعان البركة.

---

(١) انظر: ابن الأثير، النهاية في غرائب الحديث ٤/ ١١٤؛ الزبيدي، تاج العروس مادة (ق ن ع).

(٢) انظر: الطبراني، المعجم الكبير ١٠/١٢٨؛ الطبراني، المعجم الأوسط ٢/ ١٦١، ٢٧٤؛ البيهقي، السنن الكبرى ٣/ ٣٨٢، ٤٨٤.

ولقد فسّر «ابن سينا» وهو أفلاطون فلاسفة المسلمين وشيخ الأطباء وأستاذ الفلاسفة فسّر هذه الآية الكريمة: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ (الأعراف: ٣١). من زاوية نظر الطب فقط بالأبيات الآتية:

جَمَعْتُ الطِّبَّ فِي بَيْتَيْنِ جَمْعًا   وَحُسْنُ الْقَوْلِ فِي قَصْرِ الْكَلَامِ
فَقَلِّلْ إِنْ أَكَلْتَ وَبَعْدَ أَكْلٍ   تَجَنَّبْ وَالشِّفَاءُ فِي الْانْهِضَامِ
وَلَيْسَ عَلَى النُّفُوسِ أَشَدُّ حَالاً   مِنْ ادْخَالِ الطَّعَامِ عَلَى الطَّعَامِ.[1]

وإليكم هذا التوافق الغريب الباعث على الحيرة والجالب للعبرة:

إنه مع قيام خمسة وستة من المستنسخين المختلفين -ثلاثة منهم لا يتقنون الكتابة- باستنساخ «رسالة الاقتصاد» فقد توافق كل (واحد وخمسين) ألفاً من ألفات كل نسخة -خالية من الدعاء- وكل (ثلاثة وخمسين) ألفاً -مع دعاء- رغم اختلاف أمكنة أولئك المستنسخين واختلاف النسخ التي كانوا ينقلون منها واختلاف خطهم في الكتابة ومع عدم التفكر في تلكم الألفات إطلاقاً!. فإن توافق عدد الألفات مع تاريخ تأليف «رسالة الاقتصاد» واستنساخها وهو بالتاريخ الرومي واحدة وخمسون (١٣٥١) وبالتاريخ الهجري ثلاث وخمسون (١٣٥٣) لا يمكن أن يحال ذلك إلى الصدفة دون ريب، بل هو إشارة إلى صعود البركة الكامنة في (الاقتصاد) إلى درجة الكرامة. وأنه لحريّ حقاً أن يطلق على هذا العام «عام الاقتصاد».

نعم لقد أثبت الزمان فعلاً هذه الكرامة الاقتصادية وذلك عندما شهدت البشرية بعد عامين الحرب العالمية الثانية... تلك الحرب التي بثت الجوع والتخريب وضروب الإسراف المقيت في كل أنحاء العالم مما أرغم البشرية على التشبث بالاقتصاد والالتفاف حوله عنوةً.

﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾

---

(١) أي إن أضر شيء للجسم هو عدم إعطاء مهلة بين وجبات الطعام تتراوح بين أربع أو خمس ساعات، أو إملاء المعدة بإدخال الطعام بالتعاقب لأجل التلذذ. (المؤلف).

اللمعة العشرون

تخص الإخلاص

الإخلاص [1]

أحرز هذا البحث أهميةً خاصة أهّلته ليكون «اللمعة العشرين» بعد أن كان النقطة الأولى من خمس نقاط من المسألة الثانية من المسائل السبع للمذكّرة السابعة عشرة من «اللمعة السابعة عشرة».



﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۞ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ (الزمر ٢-٣)

وقال الرسول الأعظم ﷺ: **(هَلَكَ النَّاسُ إلّا الْعَالِمُونَ وَهَلَكَ الْعَالِمونَ إلّا العَامِلُونَ وَهَلَكَ الْعَامِلوُنَ إلّا الْمُخْلِصُونَ وَالْمُخْلِصُونَ عَلى خَطَرٍ عَظيمٍ)** [2] أو كما قال.

---

(١) تنبيه: إن ما يوجب الشكر على هذه البلدة الطيبة «اسبارطة» أن قد أتاها الله حظاً عظيماً ، فلا يبدو بين من فيها من المتقين والصالحين وأهل الطرق الصوفية والعلماء اختلاف مشوب بالحسد، حتى لو ظهر فهو أخف بكثير مما هو عليه في سائر المناطق. وعلى الرغم من أن المحبة الخالصة والاتفاق التام غير موجودين كما ينبغي فإن الاختلاف المضر والحسد الممقوت مفقودان أيضا بالنسبة للمناطق الأخرى. (المؤلف).

(٢) تقدم تخريجه في اللمعة السابعة عشرة.

تدلنا هذه الآية الكريمة والحديث النبوي الشريف معاً على مدى أهمية الإخلاص في الإسلام، ومدى عظمته أساساً تستند إليه أمور الدين. فمن بين النكت التي لا حصر لها لمبحث «الإخلاص» نبين باختصار خمس نقاط فقط.

النقطة الأولى

سؤال مهم ومثير للدهشة:

لماذا يختلف أصحابُ الدين والعلماء وأرباب الطرق الصوفية وهم أهل حق ووفاق ووئام بالتنافس والتزاحم، في حين يتفق أهلُ الدنيا والغفلة بل أهل الضلالة والنفاق من دون مزاحمة ولا حسد فيما بينهم، مع أن الاتفاق هو من شأن أهل الوفاق والوئام، والخلاف ملازمٌ لأهل النفاق والشقاق. فكيف استبدل الحق والباطل مكانهما؛ فأصبح الحق بجانب هؤلاء والباطل بجانب أولئك؟

الجواب: سنبين سبعة من الأسباب العديدة لهذه الحالة المؤلمة التي تقض مضجع الغيارى الشهمين.

السبب الأول:

إنَّ اختلاف أهل الحق غير نابع من فقدان الحقيقة، كما أن اتفاق أهل الغفلة ليس نابعاً من ركونهم إلى الحقيقة. بل إن وظائف أهل الدنيا والسياسة والمثقفين وأمثالهم من طبقات المجتمع قد تعيّنت وتميزت؛ فلكل طائفة وجماعة وجمعية مهمة خاصة تنشغل بها، وما ينالونه من أجرة مادية -لقاء خدماتهم ولإدامة معيشتهم- هي كذلك متميزة ومتعيّنة، كما أن ما يكسبونه من أجرة معنوية كحب الجاه وذيوع الصيت والشهرة، هي الأخرى متعينة ومخصصة ومتميزة.[1] فليس هناك إذن ما يولد منافسة أو مزاحمة أو حسداً فيما بينهم. وليس هناك ما يوجب المناقشة والجدال، لذا تراهم يتمكنون من الاتفاق مهما سلكوا من طرق الفساد.

---

(١) تحذير: إنَّ إقبال الناس وتوجههم لا يُطلب، بل يوهب، ولو حصل الإقبال فلا يُسرّ به. وإذا ما ارتاح المرء لتوجه الناس إليه فقد ضيع الإخلاص ووقع في الرياء. أما التطلع إلى نيل الشهرة والصيت التي تتضمن توجه الناس والرغبة في إقبالهم فهو ليس بأجرة ولا ثواب، بل عتاب وعقاب نابعان من فقدان الإخلاص. نعم ، إن توجه الناس وإقبالهم لا يراد، لأن ما فيه من لذة جزئية تضر بالإخلاص الذي هو روح الأعمال الصالحة، ثم إنه لا يستمر إلا إلى حد باب القبر. فضلا عن أنه يكتسب ما وراء القبر صورة أليمة من عذاب القبر. فلا يُرغب في توجه الناس ونيل رضاهم إذن، بل يلزم الفرار والتهيب منه. فليصغ إلى هذا عُباد الشهرة والمتلهفون على كسب رضى الناس. (المؤلف).

أما أهل الدين وأصحاب العلم وأرباب الطرق الصوفية فإن وظيفة كل منهم متوجهة إلى الجميع، وأن أجرتهم العاجلة غير متعينة وغير متخصصة، كما أن حظهم من المقام الاجتماعي وتوجه الناس إليهم والرضى عنهم لم يتخصص أيضاً. فهناك مرشحون كثيرون لمقام واحد، وقد تمتد أيدٍ كثيرةٌ جداً إلى أية أجرة مادية كانت أو معنوية. ومن هنا تنشأ المزاحمة والمنافسة والحسد والغيرة؛ فيتبدل الوفاقُ نفاقاً والاتفاق اختلافاً وتفرقاً.

فلا يشفي هذا المرض العضال إلّا مرهمُ الإخلاص الناجع، أي أن ينال المرء شرف امتثال الآية الكريمة: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ (يونس: ٧٢) بإيثار الحق والهدى على اتباع النفس والهوى، وبترجيح الحق على أَثَرة النفس.. وأن يحصل له امتثال بالآية الكريمة: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ (النور: ٥٤) باستغنائه عن الأجر المادي والمعنوي المقبلَين من الناس[١] مدركاً أَنَّ استحسان الناس كلامَه وحسن تأثيره فيهم ونيل توجههم إليه هو مما يتولاه الله سبحانه وتعالى ومن إحسانه وفضله وحده، وليس داخلاً ضمن وظيفته التي هي منحصرةٌ في التبليغ فحسب. بل لا يلزمه ذلك ولا هو مكلف به أصلاً. فمن وفّقه الله إلى ما ذُكر آنفاً يجد لذة الإخلاص، وإلّا يفوته الخير الكثير.

السبب الثاني:

إن اتفاق أهل الضلالة نابع من ذلتهم، بينما اختلاف أهل الهداية نابع من عزّتهم؛ إذ لما كان أهل الدنيا والضلالة الغافلون لا يستندون إلى الحق والحقيقة فهم ضعفاء وأذلاء، يشعرون بحاجة ماسة إلى اكتساب القوة ويتشبثون بشدة إلى معاونة الآخرين والاتفاق معهم، ويحرصون على هذا الاتفاق ولو كان مسلكهم ضلالة، فكأنهم يعملون حقاً في تساندهم على

---

(١) لابد من جعل شيمة «الإيثار» التي تحلّى بها الصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم ونالوا بها ثناء القرآن الكريم نصب العين، واتخاذها دليلاً ومرشداً، وهذا يعني: تفضيل الآخرين على النفس عند قبول الهدايا والصدقات، وعدم قبول شئ مقابل ما يقوم به المرء من خدمات في سبيل الدين، بل لا يطلبه قلباً. وإذا حصل شئ من هذا القبيل فليعده إحساناً إلهياً محضاً، من دون البقاء تحت منة الناس. إذ ما ينبغي أن يُسأل شيء في الدنيا لقاء خدمات في سبيل الدين، لئلا يضيع الإخلاص. فالأمة وإن كان عليها أن تضمن معاش هؤلاء، كما انهم يستحقون الزكاة، إلا أن هؤلاء العاملين لا يسألون الناس شيئاً وربما يوهب لهم، حتى لو وهب لهم شيء فلا يأخذونه لقيامهم في خدمة الدين. فالأفضل إيثار من هم أهل لها على النفس، والرضى بما قسم الله من رزق والقناعة به، كي يحظى المرء بالثناء القرآني العظيم ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (الحشر: ٩)، وعندئذ يكون ظافراً بالإخلاص ومنقذاً نفسه من شرور هذه التهلكة الخطرة. (المؤلف).

الباطل، ويخلصون في ضلالهم، ويبدون ثباتاً وإصراراً على إلحادهم، ويتفقون في نفاقهم، فلأجل هذا يوفّقون في عملهم، لأن الإخلاص التام ولو كان في الشر لا يذهب سُدىً، ولا يكون دون نتيجة. فما من سائل يسأل بإخلاص أمراً إلّا قضاه الله له.[1]

أما أهل الهداية والدين وأصحاب العلم والطريقة فلأنهم يستندون إلى الحق والحقيقة، ولأن كلاً منهم أثناء سيره في طريق الحق لا يرجو إلّا رضى ربه الكريم ويطمئن إليه كل الاطمئنان، وينال عزة معنوية في مسلكه نفسه، إذ حالما يشعر بضعف ينيب إلى ربه دون الناس، ويستمد منه وحده القوة، زد على ذلك يرى أمامه اختلاف المشارب مع ما هو عليه، لذا تراه لا يستشعر بدواعي التعاون مع الآخرين بل لا يتمكن من رؤية جدوى الاتفاق مع مخالفيه ظاهراً ولا يجد في نفسه الحاجة إليه. وإذا ما كان ثمة غرورٌ وأنانية في النفس يتوهم المرء نفسه محقاً ومخالفيه على باطل فيقع الاختلاف والمنافسة بدل الاتفاق والمحبة، وعندها يفوته الإخلاصُ ويحبط عمله ويكون أثراً بعد عين.

والعلاج الوحيد لهذه الحالة والحيلولة دون رؤية نتيجتِها الوخيمة هو في تسعة أمور آتية:

١ - العمل الإيجابي البنّاء، وهو: عملُ المرء بمقتضى محبته لمسلكه فحسب، من دون أن يرد إلى تفكيره، أو يتدخل في علمه عداءُ الآخرين أو التهوينُ من شأنهم، أي لا ينشغل بهم أصلاً.

٢ - بل عليه أن يتحرى روابط الوحدة الكثيرة التي تربط المشارب المعروضة في ساحة الإسلام -مهما كان نوعها- والتي ستكون منابع محبة ووسائل أخوة واتفاق فيما بينها فيتفق معها.

٣- واتخاذ دستور الإنصاف دليلاً ومرشداً، وهو: أن صاحبَ كل مسلك حق يستطيع القول: «إن مسلكي حق وهو أفضل وأجمل» من دون أن يتدخل في أمر مسالك الآخرين، ولكن لا يجوز له أن يقول: «الحق هو مسلكي فحسب» أو «أن الحسن والجمال في مسلكي وحده» الذي يقضي على بطلان المسالك الأخرى وفسادها.

---

(١) نعم، إن «من طلب وَجَدّ وَجَدَ» دستور من دساتير الحقيقة له من السعة والشمول ما يشمل مسلكنا أيضاً .(المؤلف).

٤- العلم بأن الاتفاق مع أهل الحق هو أحد وسائل التوفيق الإلهي وأحد منابع العزة الإسلامية.

٥ - الحفاظ على الحق والعدل بإيجاد شخص معنوي؛ وذلك بالاتفاق مع أهل الحق للوقوف تجاه أهل الضلالة والباطل الذين أخذوا يغيرون بدهاء شخص معنوي قوي في صورة جماعة على أهل الحق -بما يتمتعون به من تساند واتفاق- ثم الإدراك بأن أية مقاومة فردية -مهما كانت قوية- مغلوبةٌ على أمرها تجاه ذلك الشخص المعنوي للضلالة.

٦ - ولأجل إنقاذ الحق من صولة الباطل:

٧ - ترك غرور النفس وحظوظها.

٨ - وترك ما يُتصور خطأً أنه من العزة والكرامة.

٩ - وترك دواعي الحسد والمنافسة والأحاسيس النفسانية التافهة.

بهذه النقاط التسع يُظفَر بالإخلاص ويوفي الإنسان وظيفته حق الوفاء ويؤديها على الوجه المطلوب.[1]

السبب الثالث:

إنَّ اختلاف أهل الحق ليس ناشئاً عن الوضاعة وفقدان الهمة، كما أن اتفاق أهل الضلالة ليس ناشئاً عن علو الهمة، بل إن اختلاف أهل الهداية نابع من سوء استعمال علو الهمة والإفراط فيه، واتفاق أهل الضلالة مردّه الضعف والعجز الحاصلان من انعدام الهمة.

والذي يسوق أهل الهداية إلى سوء استعمال علو الهمة وبالتالي إلى الاختلاف والغيرة والحسد، إنما هو المبالغة في الحرص على الثواب الأخروي -الذي هو في حد ذاته خصلة ممدوحة- وطلب الاستزادة منها دون قناعة وحصرها على النفس. وهذا يستدرج الحريص شيئاً فشيئاً حتى يصل به الأمر إلى أن يتخذ وضعاً منافساً إزاء أخيه الحقيقي الذي هو بأمس

(١) لقد ثبت في الحديث الصحيح أن المتدينين الحقيقيين من النصارى سيتفقون في آخر الزمان مستندين إلى أهل القرآن للوقوف معاً تجاه عدوهم المشترك الزندقة، لذا فأهل الإيمان والحقيقة في زماننا هذا ليسوا بحاجة إلى الاتفاق الخالص فيما بينهم وحده، بل مدعوون أيضا إلى الاتفاق حتى مع الروحانيين المتدينين الحقيقيين من النصارى، فيتركوا مؤقتا كل ما يثير الخلافات والمناقشات دفعاً لعدوهم المشترك الملحد المتعدي. (المؤلف).

الحاجة إلى محبته ومعاونته وأُخوته والأخذ بيده. كأن يقول -مثلاً- لأغنم أنا بهذا الثواب، ولأرشد أنا هؤلاء الناس وليسمعوا مني وحدي الكلام، وأمثالها من طلب المزيد من الثواب لنفسه.أو يقول: لماذا يذهب تلاميذي إلى فلان وعلان؟ ولماذا لا يبلغ تلاميذي عدد تلاميذه وزيادة؟ فتجد روح الأنانية لديه -بهذا الحوار الداخلي- الفرصة سانحة لترفع رأسها وتبرز، فتسوقه تدريجياً إلى التلوث بصفة مذمومة، تلك هي التطلع إلى حب الجاه، فيفوته الإخلاص وينسد دونه بابه، بينما ينفتح باب الرياء له على مصراعيه.

إنَّ علاج هذا الخطأ الجسيم والجرح البليغ والمرض الروحي العضال هو:

العلم بأن رضى الله لا يُنال إلّا بالإخلاص[١]، فرضاه سبحانه ليس بكثرة التابعين ولا باطراد النجاح والتوفيق في الأعمال، ذلك لأن تكثير التابعين والتوفيق في الأعمال هو مما يتولاه الله سبحانه بفضله وكرمه، فلا يُسأل ولا يُطلب بل يؤتيه الله سبحانه من يشاء.

نعم، رُبّ كلمة واحدة تكون سبباً للنجاة من النار وتصبح موضع رضى الله سبحانه،[٢] ورُبّ إرشاد شخص واحد يكون موضع رضى الله سبحانه بقدر إرشاد ألف من الناس. فلا ينبغي أن تُؤخذ الكمية بنظر الاعتبار كثيراً.

ثم إنَّ الإخلاص في العمل ونشدان الحق فيه إنما يُعرف بصدق الرغبة في إفادة المسلمين عامةً أياً كان مصدر الاستفادة ومن أي شخص صدر. وإلّا فحصر النظر بأن يؤخذ الدرس والإرشاد مني فقط لأفوز بالثواب الأخروي هو حيلة النفس وخديعة الأنانية.

فيا من يحرص على المزيد من الثواب ولا يقنع بما قام به من أعمال للآخرة!

اعلم أن الله سبحانه قد بعث أنبياءَ كراماً، وما آمن معهم إلّا قليل. ومع ذلك نالوا ثواب النبوة العظيم كاملاً غير منقوص. فليس السبق والفضل إذن في كثرة التابعين المؤمنين، وإنما في نيل شرف رضى الله سبحانه. فمَنْ أنت أيها الحريص حتى ترغب أن يسمعك الناس كلهم، وتتغافل عن واجبك وتحاول أن تتدخل في تدبير الله وتقديره؟ اعلم واجبَك، ولا تحاول أن تتدخل في تدبير الله وتقديره. اعلم أن تصديق الناس كلامك وقبولهم دعوتك وتجمعهم

(١) انظر: ابن ماجه، المقدمة ٩؛ الحاكم، المستدرك ٢/ ٣٦٢.
(٢) انظر: البخاري، الرقاق ٨١؛ مسلم، الزهد ٦؛ الترمذي، الزهد ١٢؛ ابن ماجه، الفتن ١٢؛ الموطأ، الكلام ٤؛ أحمد بن حنبل، المسند ٢/ ٣٣٤، ٣/ ٤٦٩

حولك إنما هو من فضل الله يؤتيه من يشاء، فلا تُشغل نفسك فيما يخصه سبحانه من تقدير وتدبير، بل اجمع همّك في القيام بما أُنيط بك من واجب.

ثم إن الإصغاء إلى الحق والحقيقة، ونوال المتكلم بهما الثواب ليس منحصراً على الجنس البشري وحده، بل لله عباد من ذوي الشعور ومن الروحانيين والملائكة قد ملأوا أركان الكون وعمروها.[1] فإن كنت تريد مزيداً من الثواب الأخروي فاستمسك بالإخلاص واتخذه أساساً لعملك واجعل مرضاة الله وحدها الهدف والغاية في عملك، كي تحيا أفراد تلك الكلمات الطيبة المنطوقة من شفتيك منتشرة في جو السماء بالإخلاص وبالنية الخالصة لتصل إلى أسماع مخلوقات من ذوي المشاعر الذين لا يحصرهم العدّ، فتنوّرهم، وتنال بها الثواب العظيم أضعافاً مضاعفة. ذلك لأنك إذا قلت: «الْحَمْدُ لله» مثلاً فستُكتب بأمر الله على إثر نطقك بهذه الكلمة ملايين الملايين من «الحَمْد لله» صغيرة وكبيرة في الفضاء. فلقد خلق سبحانه ما لا يعد من الآذان والأسماع تصغي إلى تلك الكلمات الكثيرة الطيبة، حيث لا عبث ولا إسراف في عمل البارئ الحكيم. فإذا ما بعث الإخلاصُ والنيةُ الصادقة الحياةَ في تلك الكلمات المنتشرة في ذرات الهواء فستدخل أسماع أولئك الروحانيين لذيذة طيبة كلذة الفاكهة الطيبة، ولكن إذا لم يبعث رضى الله والإخلاص الحياةَ في تلك الكلمات، فلا تستساغ، بل تنبو عنها الأسماع، ويبقى ثوابها منحصراً فيما تفوّه به الفم. فليصغِ إلى هذا قراء القرآن الكريم الذين يتضايقون من افتقار أصواتهم إلى الجودة والإحسان فيشكون من قلة السامعين لهم.

السبب الرابع:

إنَّ اختلاف أهل الهداية وتحاسدهم ليس كائناً من عدم التفكر في مصيرهم ولا من قصر نظرهم، كما أن الاتفاق الجاد بين أهل الضلالة ليس كائناً من القلق على المصير ولا من سمو نظرهم وعمق رؤيتهم. بل إن عجز أهل الهداية عن الثبات على الاستقامة في السير، وتقصيرهم عن الإخلاص في العمل يحرمهم من التمتع بمزايا ذلك المستوى الرفيع، فيسقطون في هوة الاختلاف رغم كونهم يسترشدون بالعقل والقلب البصيرين للعاقبة ويستفيضون من الحق والحقيقة ولا يميلون مع شهوات النفس بمقتضى أحاسيسهم الكليلة عن رؤية العقبى.

---

(١) انظر: الترمذي، الزهد ٩؛ ابن ماجه، الزهد ١٩.

أما أهل الضلالة فبإغراء النفس والهوى وبمقتضى المشاعر الشهوية والأحاسيس النفسانية الكليلة عن رؤية العقبى والتي تفضل درهما من لذة عاجلة على أرطال من الآجلة، تراهم يتفقون فيما بينهم اتفاقاً جاداً ويجتمعون حول الحصول على منفعة عاجلة ولذة حاضرة.

نعم، إنَّ عبيد النفس السفلة من ذوي القلوب الميتة والهائمين على الشهوات الدنيئة يتحدون ويتفقون فيما بينهم على منافع دنيوية عاجلة.. بينما ينبغي لأهل الهداية الاتفاق الجاد والاتحاد الكامل والتضحية المثمرة والاستقامة الرصينة فيما بينهم، حيث إنهم يتوجهون بنور العقل وضياء القلب إلى جني كمالات وثمرات أخروية خالدة آجلة، ولكن لعدم تجرّدهم من الغرور والكبر والإفراط والتفريط يضيّعون منبعاً عظيماً ثراً يمُدهم بالقوة، ألا وهو الاتفاق. فيضيع بدوره الإخلاص ويتحطم، وتتضعضع الأعمال الأخروية وتذهب سدى، ويصعب الوصول إلى نيل رضى الله سبحانه.

وعلاج هذا المرض الوبيل ودواؤه هو:

الافتخار بصحبة السالكين في منهج الحق، وربطُ عرى المحبة معهم تطبيقاً للحديث الشريف: (الحُب في الله)[1] ثم السير من خلفهم وترك شرف الإمامة لهم، وترك الإعجاب بالنفس والغرور، بناء على احتمال كون سالك الحق أياً كان هو خيراً منه وأفضل، وذلك ليسهل نيل الإخلاص. ثم العلم بأن درهماً من عمل خالص لوجه الله أولى وأرجح من أرطال من أعمال مشوبة لا إخلاص فيها. ثم إيثار البقاء في مستوى التابع دون التطلع إلى تسلم المسؤولية التي قلما تسلم من الأخطار.

بهذه الأمور يُعالج هذا المرض الوبيل ويُعافى منه، ويَظفر بالإخلاص، ويكون المؤمن ممن أدى أعماله الأخروية حق الأداء.

السبب الخامس:

إنَّ اختلاف أهل الهداية وعدم اتفاقهم ليس نابعاً من ضعفهم، كما أن الاتفاق الصارم بين أهل الضلالة ليس نابعاً من قوتهم. بل إن عدم اتفاق أهل الهداية ناجم عن عدم شعورهم بالحاجة إلى القوة، لما يمدهم به إيمانهم الكامل من مرتكز قوي. وإن اتفاق أهل الغفلة والضلالة

(١) انظر: أبو داود، السنة ٢؛ أحمد بن حنبل، المسند ٥ / ١٤٦؛ الطيالسي، ص ٥٠، ١٠٠؛ ابن أبي شيبة، المصنف ٦/ ١٧٠، ١٧٢، ٧/ ٨٠.

ناجم عن الضعف والعجز، حيث لا يجدون في وجدانهم مرتكزاً يستندون إلى قوته. فلفرط احتياج الضعفاء إلى الاتفاق تجدهم يتفقون اتفاقاً قوياً، ولضعف شعور الأقوياء بالحاجة إلى الاتفاق يكون اتفاقهم ضعيفاً. مثلهم في هذا كمثل الأُسُود التي لا تشعر بالحاجة إلى الاتفاق -كالثعالب- فتعيش فُرادى، بينما الوعل والماعز الوحشي تعيش قطعاناً خوفاً من الذئاب. أي إن جمعية الضعفاء والشخص المعنوي الممثل لهم قوي كما أن جمعية الأقوياء والشخص المعنوي الممثل لهم ضعيف[1] وهناك إشارة لطيفة إلى هذا السر في نكتة قرآنية ظريفة وهي إسناد الفعل «قَالَ» بصيغة المذكر إلى جماعة الإناث مع كونها مؤنثة مضاعفة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ﴾ (يوسف:٣٠)، بينما جاء الفعل «قالت» بصيغة المؤنث في قوله تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ﴾ (الحجرات: ١٤) وهم جماعة من الذكور، مما تشير إشارة لطيفة إلى أن جماعة النساء الضعيفات اللطيفات تتخاشن وتتقوى وتكسب نوعاً من الرجولة، فاقتضت الحال صيغة المذكر، فجاء فعل «قال» مناسباً وفي غاية الجمال. أما الرجال الأقوياء فلأنهم يعتمدون على قوتهم ولا سيما الأعراب البدويون فتكون جماعتهم ضعيفة كأنها تكسب نوعاً من خاصية الأنوثة من توجس وحذر ولطف ولين فجاءت صيغة التأنيث للفعل ملائمة جداً في قوله تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ﴾ .

نعم إنَّ الذين ينشدون الحق لا يرون وجه الحاجة إلى معاونة الآخرين لما يحملون في قلوبهم من إيمان قوي يمدهم بسند عظيم ويبعث فيهم التوكل والتسليم، حتى لو احتاجوا إلى الآخرين فلا يتشبثون بهم بقوة. أما الذين جعلوا الدنيا همّهم، فلغفلتهم عن قوة استنادهم ومرتكزهم الحقيقي يجدون في أنفسهم الضعف والعجز في إنجاز أمور الدنيا، فيشعرون بحاجة مُلحة إلى من يمد لهم يد التعاون فيتفقون معهم اتفاقاً جاداً لا يخلو من تضحية وفداء.

وهكذا فلأن طلاب الحق لا يقدرون قوةَ الحق الكامنة في الاتفاق ولا يبالون بها، ينساقون إلى نتيجة باطلة وخيمة تلك هي الاختلاف. بينما أهلُ الباطل والضلالة فلأنهم يشعرون -بسبب عجزهم وضعفهم- بما في الاتفاق من قوة عظيمة فقد نالوا أمضى وسيلة توصلهم إلى أهدافهم، تلك هي الاتفاق.

(١) إن ما يؤيد دعوانا هذه هو أن أقوى المنظمات الأوربية وأكثرها تأثيراً في المجتمع وأشدها من ناحية، هي منظمات النساء -وهن الجنس اللطيف- في أمريكا التي تطالب بحقوق المرأة وحريتها.. وكذلك منظمات الأرمن الذين هم أقلية وضعفاء بين الأمم، إلاّ أنهم يبدون تضحية وبسالة فائقة. (المؤلف).

وطريق النجاة من هذا الواقع الباطل الأليم، والتخلص من هذا المرض الفتاك، مرض الاختلاف الذي ألمّ بأهل الحق، هو اتخاذ النهي الإلهي في الآية الكريمة: ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ (الأنفال: ٤٦) واتخاذ الأمر الرباني في الآية الكريمة: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ (المائدة: ٢) دستورين للعمل في الحياة الاجتماعية.. ثم العلم بمدى ما يسببه الاختلاف من ضرر بليغ في الإسلام والمسلمين وبمدى ما ييسر السبيل أمام أهل الضلالة ليبسطوا أيديهم على أهل الحق.. ثم الالتحاق بقافلة الإيمان التي تنشد الحق والانخراط في صفوفها بتضحية وفداء وبشعور نابع من عجز كامل وضعف تام، وذلك مع نُكران الذات والنجاة من الرياء ابتغاء الوصول إلى نيل شرف الإخلاص.

السبب السادس:

إنَّ اختلاف أهل الحق ليس ناشئاً من فقدان الشهامة والرجولة ولا من انحطاط الهمة وانعدام الحَمية، كما أن الاتفاق الجاد بين الغافلين الضالين الذين يبغون الدنيا في أمورهم ليس ناشئاً من الشهامة والرجولة ولا من الحَمية وعُلو الهمة. بل إن أهل الحق وجّهوا نظرهم إلى ثواب الآخرة على الأكثر، فتوزع ما لديهم من حَمية وهمة وشهامة إلى تلك المسائل المهمة والكثيرة، ونظراً لكونهم لا يصرفون أكثر وقتهم -الذي هو رأس مالهم الحقيقي- إلى مسألة معينة واحدة، فلا ينعقد اتفاقهم عقداً محكماً مع السالكين في نهج الحق، حيث إنَّ المسائل كثيرة والميدان واسع جداً.

أما الدنيويون الغافلون، فلكونهم يحصرون نظرهم حصراً في الحياة الدنيا -فهي أكبر همهم ومبلغ علمهم- تراهم يرتبطون معها بأوثق رباط وبكل ما لديهم من مشاعر وروح وقلب. فأيما شخص يمد لهم يد المساعدة يستمسكون بها بقوة، فهم يحصرون وقتهم الثمين جداً في قضايا دنيوية لا تساوي شيئاً في الحقيقة لدى أهل الحق. مثلهم في هذا كمثل ذلك الصائغ اليهودي المجنون الذي اشترى قِطعاً زجاجية تافهة بأثمان الأحجار الكريمة الباهظة. فابتياع الشيء بأثمان باهظة، وصرف المشاعر كلها نحوه يؤدي حتماً إلى النجاح والتوفيق ولو كان في طريق باطل، لأن فيه إخلاصاً جاداً.

ومن هنا يتغلب أهلُ الباطل على أهل الحق، فيفقد أهلُ الحق الإخلاصَ ويسقطون في

مهاوي الذل والتصنع والرياء، ويضطرون إلى التملق والتزلف إلى أرباب الدنيا المحرومين من كل معاني الشهامة والهمة والغيرة.

فيا أهل الحق! ويا أهل الشريعة والحقيقة والطريقة! ويا من تنشدون الحق لأجل الحق! اسعوا في دفع هذا المرض الرهيب، مرضِ الاختلاف بتأدبكم بالأدب الفرقاني العظيم، ألا وهو: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ (الفرقان: ٧٢)، فاعفوا عن هفوات إخوانكم واصفحوا عن تقصيراتهم، وغضوا أبصاركم عن عيوب بعضكم البعض الآخر، ودعوا المناقشات الداخلية جانباً. فالأعداء الخارجيون يُغيرون عليكم من كل صوب، واجعلوا إنقاذ أهل الحق من السقوط والذلة من أهم واجباتكم الأخروية وأولاها بالاهتمام، وامتثلوا بما تأمركم به مئات الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة من التآخي والتحابب والتعاون، واستمسكوا بكل مشاعركم بعرى الاتفاق والوفاق مع إخوانكم في الدين ونهج الحق المبين بأشد مما يستمسك به الدنيويون الغافلون، واحذروا دائماً من الوقوع في شباك الاختلاف. ولا يقولن أحدكم: «سأصرف وقتي الثمين في قراءة الأوراد والأذكار والتأمل، بدلاً من أن أصرفه في مثل هذه الأمور الجزئية» فينسحب من الميدان ويصبح وسيلة في توهين الاتفاق والاتحاد، وسبباً في إضعاف الجماعة المسلمة، ذلك لأن المسائل التي تظنونها جزئية وبسيطة ربما هي على جانب عظيم من الأهمية في هذا الجهاد المعنوي. فكما أنَّ مرابطة جندي في ثغر من الثغور الإسلامية -ضمن شرائط خاصة مهمة- لساعة من الوقت قد تكون بمثابة سنة من العبادة،[١] فإن يومك الثمين هذا الذي تصرفه في مسألة جزئية من مسائل الجهاد المعنوي ولاسيما في هذا الوقت العصيب الذي غُلب أهل الحق فيه على أمرهم، أقول إنَّ يومك هذا ربما يأخذ حُكم ساعة من مرابطة ذلك الجندي، أي يكون ثوابه عظيماً، بل ربما يكون يومك هذا كألف يوم. إذ ما دام العمل لوجه الله وفي سبيله فلا يُنظر إلى صغره وكبره ولا إلى سموه وتفاهته، فالذَرَّة في سبيل رضاه سبحانه مع الإخلاص تصبح نجمة متلألئة، فلا تؤخذ ماهية الوسيلة بنظر الاعتبار وإنما العبرة في النتيجة والغاية، وحيث إنها رضى الله سبحانه، وأن أساس العمل هو الإخلاص، فلن تكون تلك المسألة إذن مسألة صغيرة، بل هي كبيرة وعظيمة.

(١) انظر: البخاري، الجهاد ٥، ٧٣؛ مسلم، الإمارة ١١٢-١١٥، ١٦٣؛ الترمذي، فضائل الجهاد ٢٦؛ النسائي، الجهاد ٣٩؛ ابن ماجه، الجهاد ٢،٢٤؛ الدارمي، الجهاد ٩،٣٢؛ أحمد بن حنبل، المسند ١/ ٦٢، ٦٥، ٦٦، ٧٥، ٢/ ١٧٧، ٥/ ٣٣٩، ٤٤٠، ٤٤١.

السبب السابع:

إنَّ اختلاف أهل الحق والحقيقة ومنافستهم ليس ناشئاً من الغيرة فيما بينهم ولا من الحرص على حطام الدنيا، كما أن اتفاق الدنيويين الغافلين ليس من كرامتهم وشهامتهم. بل إن أهل الحقيقة لم يتمكنوا من الحفاظ على الفضائل والمكارم التي يحصلون عليها من تمسكهم بالحقيقة ولم يستطيعوا البقاء والثبات ضمن منافسة شريفة نزيهة في سبيل الحق، بتسلل القاصرين منهم في هذا الميدان؛ لذا فقد أساءوا -بعض الإساءة- إلى تلك الصفات المحمودة، وسقطوا في الاختلاف والخلاف نتيجة التحاسد فأضروا بأنفسهم وبجماعة المسلمين أيما ضرر.

أما الضالون والغافلون فنظراً لفقدانهم المروءة والحمية لعجزهم وذلتهم فقد مدوا أيديهم واتحدوا اتحاداً صادقاً مع أُناس أياً كانوا، بل مع الدنيئين الوضيعين من الناس كيلا تفوتهم منافع يلهثون وراءها، ولا يُسخطوا أصدقاءهم ورؤساءهم الذين يأتمرون بأوامرهم إلى حد العبادة لأجلها، لذا اتفقوا مع من يشاركهم في الأمر اتفاقاً جاداً واجتمعوا مع من يجتمع حول تلك المنافع بأي شكل من أشكال الاجتماع، فبلغوا إلى ما يصبون إليه من جراء هذا الجد والحزم في الأمر.

فيا أهل الحق وأصحاب الحقيقة ويا من ابتليتم ببلوى الاختلاف! لقد ضيعتم الإخلاص في هذا الظرف العصيب ولم تجعلوا رضى الله غاية مسعاكم فمهّدتم السُبل لإسقاط أهل الحق مغلوبين على أمرهم، وجرعتموهم مرارة الذُّل والهَوان.

اعلموا أنه ما ينبغي أن يكون حسد ولا منافسة ولا غيرة في أمور الدين والآخرة، فليس فيها في نظر الحقيقة أمثال هذه الأمور. ذلك لأن منشأ الحسد والمنافسة إنما هو من تطاول الأيدي الكثيرة على شيء واحد وحصر الأنظار إلى مقام واحد اشتهاء المعدات الكثيرة إلى طعام واحد، فتؤول المناقشة والمسابقة والمزاحمة إلى المنافسة والحسد. ولما كانت الدنيا ضيقة ومؤقتة ولا تشبع رغبات الإنسان ومطالبه الكثيرة، وحيث إن الكثيرين يتهالكون على شيء واحد، فالنتيجة إذن السقوط في هاوية الحسد والمنافسة. أما في الآخرة الفسيحة فلكل مؤمن جنة عرضها السماوات والأرض تمتد إلى مسافة خمسمائة

سنة،[١] ولكل منهم سبعون ألفاً من الحور والقصور، فلا موجب هناك إذن للحسد والمنافسة قط. فيدلنا هذا على أنه لا حسد ولا مشاحنة في أعمال صالحة تفضي إلى الآخرة، أي لا مجال للمنافسة والتحاسد فيها، فمَن تحاسد فهو لا شك مُراءٍ. أي إنه يتحرى مغانم دنيوية تحت ستار الدين ويبحث عن منافع باسم العمل الصالح. أو إنه جاهل صادق لا يعلم أين وجهة الأعمال الصالحة ولم يدرك بعدُ أن الإخلاص روح الأعمال الصالحة وأساسها، فيتهم سعة الرحمة الإلهية كأنها لا تسعه، ويبدأ بالحسد والمنافسة والمزاحمة منطوياً في قرارة نفسه على نوع من العداء مع أولياء الله الصالحين الصادقين.

وسأذكر هنا حادثة تؤيد هذه الحقيقة: كان أحد أصدقائنا السابقين يحمل في قلبه ضغينة وعداء نحو شخص معين. وعندما أُثني على هذا الشخص أمامه في مجلس وقيل في حقه: «إنه رجل صالح، إنه ولي من أولياء الله» رأينا أن هذا الكلام لم يثر فيه شيئاً فلم يُبدِ ضيقاً من الثناء على عدوه. ولكن عندما قال أحدهم: «إنه قوي وشجاع» رأيناه قد انتفض عرقُ الحسد والغيرة لديه. فقلنا له: «يا هذا إن مرتبة الولاية والتقوى من أعظم المراتب في الآخرة فلا يقاس عليها شيء آخر، فأين الثرى من الثريا؟!. لقد شاهدنا أن ذكر هذه المرتبة لم يحرك فيك ساكناً بينما ذِكرُ القوة العضلية التي تملكها حتى الثيران والشجاعة التي تملكها السباع قد أثارتا فيك نوازع الحسد». أجاب: «لقد استهدفنا كلانا هدفاً ومقاماً معيناً في هذه الدنيا،

---

(١) **سؤال مهم وارد من جانب عظيم الأهمية:** كيف تستوعب عقولنا الدنيوية القاصرة حقيقة ما روي أن المؤمن يُمنح جنة عرضها خمسمائة سنة؟.

الجواب: كما أن لكل شخص في هذه الدنيا دنيا مؤقتة خاصة به، قوامها حياته يستمتع بها ما يشاء بحواسه الظاهرة والباطنة، حتى يمكنه أن يقول: الشمس مصباح لي والنجوم قناديل لي، فلا ينازعه في ملكيته هذه وجود سائر المخلوقات وذوي الأرواح، بل يعمرون دنياه الخاصة ويُجمّلونها... كذلك الأمر في الجنة، مع فارق عظيم، فكل مؤمن فضلا عن روضته الخاصة التي تضم ألوف القصور والحور العين له جنة خاصة به بسعة خمسمائة سنة من الجنة العامة، يستمتع بها استمتاعاً يليق بالجنة والخلود بما تنكشف من حواسه وتنبسط من مشاعره حسب درجة كل مؤمن، فلا ينقص وجود الآخرين معه ومشاركتهم له شيئاً من تنعمه وتلذذه وتملكه، بل يعمرون جنته الخاصة والواسعة ويزينونها. نعم، فكما يتمتع الإنسان في الدنيا بفمه وأذنه وعينه وأذواقه الأخرى ومشاعره وحواسه كلها في مسافة ساعة يقضيها في حديقة، أو في مسافة يوم يمضيه في سياحة، او في مسيرة شهر كامل في مملكة، أو في سنة من عمره يستجم بها في رحلة وسفرة.. كذلك الأمر هناك في الجنة، تتمتع حاسة الذوق والشم في تلك المملكة الخالدة في مسافة سنة كاملة ما كانت تتمتع به في هذه الحياة الفانية في ساعة من حديقة غناء، وتتمتع حاسة الإبصار والسمع في تلك المملكة الأبدية الزاهية من أقصاها إلى أقصاها ضمن رحلة أمدها خمسمائة سنة تمتعا يلائم خلودها ما تتمتع به من سياحة وتجوال ورحلات يمضيها الإنسان في سنة في هذه الدنيا. فلكل مؤمن حسب درجته وحسب ما يناله من ثواب على أعماله التي قام بها في الدنيا وحسب نسبة ونوعية حسناته تنكشف مشاعره وتنبسط حواسه، فتستمتع تلك المشاعر والحواس هناك في الجنة بما يلائم خلودها. (المؤلف).

فالقوة والشجاعة وأمثالها هي من وسائل الوصول إلى ما استهدفناه من مرتبة دنيوية، فلأجل هذا شعرت بدواعي المنافسة والحسد. أما منازل الآخرة ومراتبها فلا تحد بحدود، وربما يصبح هناك من كان عدواً لي أحب صديق وأعزه».

فيا أهل الحقيقة والطريقة! إنَّ خدمة الحق ليس شيئاً هيناً، بل هو أشبه ما يكون بحمل كنز عظيم ثقيل والقيام بالمحافظة عليه، فالذين يحملون ذلك الكنز على أكتافهم يستبشرون بأيدي الأقوياء الممتدة إليهم بالعون والمساعدة ويفرحون بها أكثر. فالواجب يحتّم أن يُستقبل أولئك المُقبلون بمحبة خالصة، وأن يُنظر إلى قوتهم وتأثيرهم ومعاونتهم أكثر من ذواتهم وأن يُتلقوا بالافتخار اللائق بهم، فهم أخوة حقيقيون ومؤازرون مضحّون. ولئن كان الواجب يحتم هذا، فلِمَ إذن ينظر إليهم نظر الحسد ناهيك عن المنافسة والغيرة، حتى يفسد الإخلاص نتيجة هذه الحالة، وتكون أعمالكم ومهمتكم موضع تهم الضالين. فيضعونكم في مستوى أقل منكم وأوطأ من مسلككم بكثير، بل يقرنونكم مع أولئك الذين يأكلون الدنيا بالدين ويضمنون عيشهم تحت ستار علم الحقيقة ويجعلونكم من المتنافسين الحريصين على حطام الدنيا، وأمثالها من الاتهامات الظالمة؟!

إنَّ العلاج الوحيد لهذا المرض هو اتهام المرء نفسه، والانحياز إلى جهة رفيقه في نهج الحق الذي إزاءه، وعدم الانحراف عن دستور الإنصاف وابتغاء الحق، الذي ارتضاه علماء فن الآداب والمناظرة والذي يتضمن: «إذا أراد المرء أن يظهر الحق على لسانه دون غيره -في مناظرة معينة- وانسرَّ لذلك واطمأَنَّ أن يكون خصمه على باطل وخطأ فهو ظالم غير منصف» فضلاً عن أنه يتضرر نتيجة ذلك لأنه لم يتعلم شيئاً جديداً -من تلك المناظرة- بظهور الحق على لسانه، بل قد يسوقه ذلك إلى الغرور فيتضرر. بينما إذا ظهر الحق على لسان خصمه فلا يضره شيء ولا يبعث فيه الغرور بل ينتفع بتعلمه شيئاً جديداً. أي إن طالب الحق المُنصف يسخط نفسَه لأجل الحق، وإذا ما رأى الحق لدى خصمه رضي به وارتاح إليه.

فلو اتخذ أهل الدين والحقيقة والطريقة والعلم هذا الدستور دليلاً لهم في حياتهم وعملهم فإنهم سيظفرون بالإخلاص بإذن الله ويفلحون في أعمالهم الأخروية، وينجون برحمة منه سبحانه وفضله من هذه المصيبة الكبرى التي ألمّت بهم وأحاطت بهم من كل جانب.

﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾

اللمعة الحادية والعشرون

تخص الإخلاص

كانت هذه اللمعة المسألة الرابعة للمسائل السبع للمذكّرة السابعة عشرة من «اللمعة السابعة عشرة» إلّا أنها أصبحت النقطة الثانية من «اللمعة العشرين». لمناسبة موضوعها -الإخلاص- وبناء على نورانيتها صارت «اللمعة الحادية والعشرين»، فدخلت في كتاب «اللمعات».

[تُقرأ هذه اللمعة كل خمسة عشر يوماً في الأقل]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ (الأنفال: ٤٦)

﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ (البقرة: ٢٣٨)

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ (الشمس: ٩-١٠)

﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ (البقرة: ٤١)

يا إخوة الآخرة! ويا أصحابي في خدمة القرآن! اعلموا -وأنتم تعلمون- أنَّ الإخلاص في الأعمال ولاسيما الأخروية منها، هو أهم أساس، وأعظم قوة، وأرجى شفيع، وأثبت مُرتكز، وأقصر طريق للحقيقة، وأبرّ دعاء معنوي، وأكرم وسيلة للمقاصد، وأسمى خصلة، وأصفى عبودية.

فما دام في الإخلاص أنوار مشعة، وقوى رصينة كثيرة أمثال هذه الخواص.. ومادام الإحسان الإلهي قد ألقى على كاهلنا مهمة مقدسة ثقيلة، وخدمة عامة جليلة، تلك هي وظيفة الإيمان وخدمة القرآن.. ونحن في غاية القلة والضعف والفقر، ونواجه أعداءً ألدّاء ومضايقات شديدة، وتُحيط بنا البدع والضلالات التي تصول وتجول في هذا العصر العصيب.. فلا مناص لنا إلّا ببذل كل ما في وسعنا من جهد وطاقة كي نظفر بالإخلاص. فنحن مضطرون إليه، بل مكلفون به تكليفاً، وأحوج ما نكون إلى ترسيخ سر الإخلاص في ذواتنا، إذ لو لم نفز به لضاع منا بعض ما كسبناه من الخدمة المقدسة -لحد الآن- ولمَا دامت ولا استمرت خدمتنا، ثم نحاسَب عليها حساباً عسيراً، حيث نكون ممن يشملهم النهي الإلهي وتهديده الشديد في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ بما أَخللنا بالإخلاص فأفسدنا السعادة الأبدية، لأجل مطامع دنيوية دنيئة، مقيتة، مضرة، مكدرة، لا طائل من ورائها ولا فائدة، إرضاء لمنافع شخصية جزئية تافهة، أمثال الإعجاب بالنفس والرياء. ونكون أيضاً من

المتجاوزين على حقوق إخواننا في هذه الخدمة ومن المتعدين على نهج الخدمة القرآنية، ومن الذين أساءوا الأدب فلم يقدروا قُدسِيَّة الحقائق الإيمانية وسُمُوَّها حق قدرها.

فيا إخوتي! إن الأمور المهمة للخير والدروب العظيمة للصلاح، تعترضها موانع وعقبات مضرة كثيرة. فالشياطين يكدون أنفسهم ويجهدونها مع خُدام تلك الدعوة المقدسة، لذا ينبغي الاستناد إلى الإخلاص والاطمئنانُ إليه، لدفع تلك الموانع وصَدِّ تلك الشياطين. فاجتنبوا - يا إخوتي - الأسبابَ التي تقدح بالإخلاص وتثلمه كما تجتنبون العقارب والحيات. فلا وثوق بالنفس الأمارة ولا اعتماد عليها قط، كما جاء في القرآن الكريم على لسان سيدنا يوسف عليه السلام: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ (يوسف: ٥٣) فلا تخدعنّكم الأنانيةُ والغرور ولا النفس الأمارة بالسوء أبداً.

ولأجل الوصول إلى الظفر بالإخلاص وللحفاظ عليه، ولدفع الموانع وإزالتها، اجعلوا الدساتير الآتية رائدكم:

دستوركم الأول:

ابتغاء مرضاة الله في عملكم. فإذا رضي هو سبحانه فلا قيمةَ لإعراض العالم أجمع ولا أهمية له. وإذا ما قَبِل هو سبحانه فلا تأثير لردّ الناس أجمعين. وإذا أراد هو سبحانه واقتضته حكمتُه بعد ما رضي وقَبِل العمل، جعل الناس يقبلونه ويرضون به، وإن لم تطلبوه أنتم، لذا ينبغي جعل رضى الله وحده دون سواه القصد الأساس في هذه الخدمة.. خدمة الإيمان والقرآن.

دستوركم الثاني:

هو عدم انتقاد إخوانكم العاملين في هذه الخدمة القرآنية، وعدم إثارة نوازع الحسد بالتفاخر والاستعلاء. لأنه كما لا تحاسد في جسم الإنسان بين اليدين، ولا انتقاد بين العينين، ولا يعترض اللسان على الأذن، ولا يرى القلبُ عيبَ الروح، بل يكمّل كلٌّ منه نقصَ الآخر ويستر تقصيره ويسعى لحاجته، ويعاونه في خدمته.. وإلّا انطفأت حياة ذلك الجسد، ولغادرته الروحُ وتمزق الجسم... وكما لا حسدَ بين تروس المعمل ودواليبه، ولا يتقدم بعضها على بعض ولا يتحكم، ولا يدفع أحدها الآخر إلى التعطل بالنقد والتجريح

وتتبع العورات والنقائص، ولا يثبط شوقه إلى السعي، بل يعاون كل منها الآخر بكل ما لديه من طاقة موجهاً حركات التروس والدواليب إلى غايتها المرجوة، فيسير الجميع إلى ما وُجدوا لأجله، بالتساند التام والاتفاق الكامل. بحيث أنه لو تدخل شيء غريب أو تحكّم في الأمر -ولو بمقدار ذَرة- لاختل المعمل وأصابه العطبُ ويقوم صاحبه بدوره بتشتيت أجزائه وتقويضه من الأساس.

فيا طلاب رسائل النور ويا خدام القرآن! نحن جميعاً أجزاء وأعضاء في شخصية معنوية جديرة بأن يُطلق عليها: الإنسان الكامل.. ونحن جميعاً بمثابة تروسٍ ودواليبِ معمل ينسج السعادة الأبدية في حياة خالدة. فنحن خدام عاملون في سفينة ربانية تسير بالأمة المحمدية إلى شاطئ السلامة وهي دار السلام.

نحن إذن بحاجة ماسة بل مضطرون إلى الإتحاد والتساند التام وإلى الفوز بسر الإخلاص الذي يهيئ قوة معنوية بمقدار ألف ومائة وأحد عشر «١١١١» ناتجة من أربعة أفراد. نعم، إنْ لم تتحد ثلاث «ألفات» فستبقى قيمتُها ثلاثاً فقط، أما إذا اتحدت وتساندت بسر العددية، فإنها تكسب قيمة مائة وأحد عشر «١١١»، وكذا الحال في أربع «أربعات» عندما تكتب كل «٤» منفردة عن البقية فإن مجموعها «١٦» أما إذا اتحدت هذه الأرقام واتفقت بسر الأخوة ووحدة الهدف والمهمة الواحدة على سطر واحد فعندها تكسب قيمة أربعة آلاف وأربعمائة وأربع وأربعين «٤٤٤٤» وقوتها. هناك شواهد ووقائع تاريخية كثيرة جداً أثبتت أن ستة عشر شخصاً من المتآخين المتحدين المضحين بسر الإخلاص التام تزيد قوتُهم المعنوية وقيمتُهم على أربعة آلاف شخص.

أما حكمة هذا السر فهي أنَّ كل فرد من عشرة أشخاص متفقين حقيقةً يمكنه أن يرى بعيون سائر إخوانه ويسمع بآذانهم. أي إن كلاً منهم يكون له من القوة المعنوية والقيمة ما كأنه ينظر بعشرين عيناً ويفكر بعشرة عقول ويسمع بعشرين أُذناً ويعمل بعشرين يداً.[1]

---

(١) نعم، كما أنّ تسانداً حقيقياً، واتحاداً تاماً، نابعاً من «الإخلاص» هو محور تدور عليه منافع لا تنتهي، كذلك فهو ترس عظيم، ومرتكز قوي للوقوف تجاه المخاوف العديدة، بل أمام الموت، لأن الموت لا يسلب إلا روحاً واحدة، فالذي ارتبط بإخوانه بسر الاخوة الخالصة في الأمور المتعلقة بالآخرة وفي سبيل مرضاة الله، يحمل أرواحاً بعدد إخوانه، فيلقى الموت مبتسماً وقائلاً: لتَسلَم أرواحي الأخرى.. ولتبق معافاة، فإنها تديم لي حياة معنوية بكسبها الثواب لي دائماً. فأنا لم أمت إذن. ويُسلّم روحه وهو قرير العين، ولسان حاله يقول: أنا أعيش بتلك الأرواح من حيث الثواب ولا أموت إلا من حيث الذنوب والآثام. (المؤلف).

دستوركم الثالث:

اعلموا أنَّ قوتكم جميعاً في الإخلاص والحق.

نعم، إنَّ القوة في الحق والإخلاص، حتى إن أهل الباطل يحرزون القوةَ لما يبدون من ثبات وإخلاص في باطلهم.

نعم، إن خدمتنا هذه في سبيل الإيمان والقرآن هي دليل بذاتها على أن القوة في الحق والإخلاص. فشيء يسير من الإخلاص في سبيل هذه الخدمة يُثبت دعوانا هذه ويكون دليلاً عليه. ذلك: لأن ما قمنا به في أزيد من عشرين سنة في مدينتي[١] وفي إستانبول من خدمة في سبيل الدين والعلوم الشرعية، قد قمنا معكم بأضعافه مائة مرة هنا [٢] في غضون ثماني سنوات. علماً بأن الذين كانوا يعاونونني هناك هم أكثر مائة مرة بل ألف مرة ممن يعاونونني هنا. إنَّ خدماتنا هنا في ثماني سنوات مع أنني وحيد غريب شبه أمّي[٣] وتحت رقابة موظفين لا إنصاف لهم وتحت مضايقاتهم قد أكسبتنا بفضل الله قوة معنوية أظهرت التوفيق والفلاح بمائة ضعف مما كان عليه سابقاً، لذا حصلت لديّ قناعة تامة من أن هذا التوفيق الإلهي ليس إلّا من صميم إخلاصكم. وإنني أعترف بأنكم أنقذتموني بإخلاصكم التام -إلى حد ما- من الرياء، ذلك الداء الوبيل الذي يداعب النفس تحت ستار الشهرة والصيت. نسأل الله أن يوفقكم جميعاً إلى الإخلاص الكامل وتقحموني فيه معكم.

تعلمون أنَّ الإمام علياً رضي الله عنه والشيخ الكيلاني (قدس الله سره)، قد توجها إليكم ونظرا بعين اللطف والاهتمام والتسلية في كراماتها الخارقة، ويباركان خدماتكم معنىً. فلا يساورنّكم الشك في أن ذلك التوجه والالتفات والتسلية ليس إلّا بما تتمتعون به من إخلاص. فإن أفسدتم هذا الإخلاص متعمدين، تستحقون إذن لطماتهما. تذكّروا دائماً «لطمات الرأفة والرحمة» التي هي في «اللمعة العاشرة». ولو أردتم أن يظل هذان الفاضلان أستاذَين وظهيرَين معنويين لكم فاظفروا بالإخلاص الأتم بامتثالكم الآية الكريمة: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ (الحشر: ٩). أي عليكم أن تفضلوا إخوانكم على أنفسكم في المراتب والمناصب والتكريم والتوجّه، حتى في المنافع المادية التي تهش لها النفس وترتاح إليها.

(١) المقصود مدينة «وان» في جنوب شرقي تركيا.
(٢) المقصود قرية «بارلا» في غربي تركيا نفي إليها سنة ١٩٢٦.
(٣) المقصود رداءة الخط.

بل في تلك المنافع التي هي خالصة زكية كتعليم حقائق الإيمان إلى الآخرين، فلا تتطلعوا ما استطعتم أن يتم ذلك بأيديكم، بل ارضوا واطمئنوا أن يتم ذلك بيد غيركم لئلا يتسرب الإعجابُ إلى أنفسكم. وربما يكون لدى أحدكم التطلع للفوز بالثواب وحده، فيحاول أن يبين أمراً مهماً في الإيمان بنفسه، فرغم أن هذا لا إثم فيه ولا ضرر فقد يعكر صفو الإخلاص فيما بينكم.

دستوركم الرابع:

هو الافتخار شاكرين بمزايا إخوانكم، وتصوّرها في أنفسكم، وعدّ فضائلهم في ذواتكم.

هناك اصطلاحات تدور بين المتصوفة أمثال: «الفناء في الشيخ»، «الفناء في الرسول». وأنا لست صوفياً، ولكن «**الفناء في الإخوان**» دستور جميلٌ يناسب مسلَكنا ومنهجنا تماماً. أي أن يفنى كل في الآخر، أي أن ينسى كل أخ أحاسيسه النفسانية، ويعيش فكراً مع مزايا إخوانه وفضائلهم. حيث إن أساس مسلكنا ومنهجنا هو «الأخوة» في الله، وأن العلاقات التي تربطنا هي الأخوة الحقيقية، وليست علاقة الأب مع الابن ولا علاقة الشيخ مع المريد. وإن كان لابد فمجرد العلاقة بالأستاذ. وما دام مسلكنا هو «الخليلية» فمشربنا إذن «الخلَّة». والخلة تقتضي صديقاً صدوقاً، ورفيقاً مضحياً، وأخاً شهماً غيوراً.. وأس الأساس لهذه الخلة هو الإخلاص التام. فمن يقصّر منكم فيه فقد هوى من على برج الخلة العالي، ولربما يتردى في وادٍ سحيق، إذ لا موضع في المنتصف. نعم، إنَّ الطريق طريقان، فمن يفارقنا الآن في مسلك الإخلاص التام -وهو الجادة الكبرى للقرآن الكريم- فربما يكون من الذين يخدمون الإلحاد أعداءَ القرآن دون أن يشعر.

فالذين دخلوا ميدان خدمة القرآن الكريم المقدسة بوساطة «رسائل النور» لا يهوون بإذن الله في مثل تلك الهاوية، بل سيمدون النورَ والإخلاص والإيمان قوة.

فيا إخوتي في خدمة القرآن!

إنَّ أهم سبب لكسب الإخلاص وأعظم وسيلة مؤثرة للمحافظة عليه هو: «رابطة الموت». فكما أن طول الأمل يُثلِم الإخلاص ويفسده ويسوق إلى حُب الدنيا وإلى الرياء، فإن

«**رابطة الموت**» تنفّر من الرياء، وتجعل المرابط معه يحرز الإخلاص. إذ تخلّصه من دسائس النفس الأمارة، وذلك بتذكر موته وبملاحظة فناء الدنيا وزوالها. هذا ولقد اتخذ المتصوفة وأهل الحقيقة العلمية «رابطة الموت» أساساً في منهج سلوكهم، وذلك بما تعلّموه من الآية الكريمة: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ (آل عمران: ١٨٥) و ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ (الزمر: ٣٠) فأزالوا بتلك الرابطة توهم البقاء وحلم الأبدية الذي يولد طول الأمل، حيث افترضوا خيالاً وتصوروا أنفسهم أمواتاً.. فالآن يُغسلون.. والآن يوضعون في القبر.. وحينما يتفكرون بهذه الصورة تتأثر النفسُ الأمارة بهذا التخيل أكثر فتتخلى شيئاً فشيئاً عن آمالها العريضة. فلهذه الرابطة إذن فوائد جمة ومنافع شتى. ويكفى أن الحديث الشريف يرشدنا إليها بقوله ﷺ: (**أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ**).[1] وحيث إن مسلكنا حقيقة علمية وليست طريقة صوفية، فلا نرى أنفسنا مضطرين مثلهم إلى مباشرة تلك الرابطة بالافتراض والخيال. فضلاً عن أن هذا الأسلوب لا يلائم منهج الحقيقة. إذ التفكر بالعقبى ليس هو بجلب المستقبل إلى الحاضر خيالاً، بل الذهاب فكراً من الحاضر إلى المستقبل، ومشاهدة المستقبل من خلال الحاضر الواقع كما هو الحقيقة، فلا حاجة إلى الخيال، ولا يلزم الافتراض، إذ الإنسان يمكنه مشاهدة جنازته وهي ثمرة محمولة على شجرة عمره القصير، وإذا ما حول نظره قليلاً لا يرى موته وحده، بل يرى أيضاً موت عصره، حتى إذا جال بنظره أكثر يرى موت الدنيا ودمارها، وعندها ينفتح أمامه الطريق إلى الإخلاص التام.

والسبب الثاني في إحراز الإخلاص هو: أن يكسب المرء حضوراً وسكينة بالإيمان التحقيقي وباللمعات الواردة عن «التفكر الإيماني في المخلوقات». هذا التأمل يسوق صاحبه إلى معرفة الخالق سبحانه؛ فتنسكب الطمأنينةُ والسكينة في القلب. حقاً إنَّ تلمع هذا النوع من التأمل في فكر الإنسان يجعله يفكر دائماً في حضور الخالق الرحيم سبحانه ورؤيته له، أي أنه حاضر وناظر إليه دائماً؛ فلا يلتفت عندئذٍ إلى غيره، ولا يستمد من سواه. حيث إن النظر والالتفات إلى ما سواه يخلّ بأدب الحضور وسكينة القلب. وبهذا ينجو الإنسان من الرياء ويتخلص منه، فيظفر بالإخلاص بإذن الله.

---

(١) الترمذي، صفات القيامة ٢٦، الزهد ٤؛ النسائي، الجنائز ٣؛ ابن ماجه، الزهد ٣١؛ أحمد بن حنبل، المسند ٢/ ٢٩٢. ومعنى هاذم: قاطع.

وعلى كل حال ففي هذا «التأمل» درجات كثيرة ومراتب عدة. وحظٌّ كل شخص ما يكسبه، وربحه ما يستفيد منه حسب قابلياته وقدراته.

نكتفي بهذا القدر ونحيل إلى «رسائل النور» حيث ذكرت كثيراً من الحقائق حول النجاة من الرياء وإحراز الإخلاص.

سنُبين باختصار بعضاً من الأسباب العديدة التي تخل بالإخلاص وتمنعه، وتسوق إلى الرياء وتدفع إليه:

المانع الأول للإخلاص

الحسد الناشئ من المنافع المادية. هذا الحسد يفسد الإخلاص تدريجياً، بل يشوه نتائجَ العمل، بل يفوّت حتى تلك المنافعَ المادية أيضاً.

نعم، لقد حملت هذه الأمة دائماً التوقيرَ والقدر للعاملين بجد للحقيقة والآخرة، ومدت لهم يدَ العون فعلاً، وذلك بنيّة مشاركتهم في تلك الأعمال والخدمات الصادقة الخالصة لوجه الله. فقدمت لهم هدايا وصدقات لدفع حاجاتهم المادية ولئلا ينشغلوا بها عن خدماتهم الجليلة؛ فأظهروا بذلك ما يكنّونه من احترام للعاملين في سبيل الله؛ إلّا أن هذه المساعدات والمنافع يجب ألّا تُطلَب قط، بل تُوهب. فلا يُسأل حتى بلسان الحال كمن ينتظرها قلباً. وإنما تُعطى من حيث لا يحتسب وإلّا اختلّ إخلاصُ المرء وانتقض، وكاد يدخلَ ضمن النهي الإلهي في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ فيحبط قسم من أعماله. فالرغبة في هذه المنافع المادية وترقّبها بدافع من أثَرة النفس الأمارة وحرصها على كسب المنافع لذاتها، تثير عرق الحسد وتحرك نوازعه تجاه أخيه الحقيقي وصاحبه المخلص في الخدمة الإيمانية، فيفسد إخلاصه ويفقد قدسية دعوته لله، ويتخذ طوراً منفّراً لدى أهل الحقيقة، بل يفقد المنافع المادية أيضاً.. وعلى كل حال فالمسألة طويلة.

وسأذكر ما يزيد سرّ الإخلاص ويديم الوفاق الصادق بين إخوتي الصادقين. أذكره ضمن مثالين:

المثال الأول لإدامة الإخلاص:

لقد اتخذ أرباب الدنيا «الاشتراك في الأموال» قاعدة يسترشدون بها لأجل الحصول على ثروة طائلة أو قوة شديدة، بل اتخذ مَن لهم التأثير في الحياة الاجتماعية -من أشخاص أو جماعات وبعض الساسة- هذه القاعدة رائداً لهم. وكسبوا نتيجة اتّباعهم هذه القاعدة قوة هائلة وانتفعوا منها نفعاً عظيماً، رغم ما فيها من أضرار واستعمالات سيئة، ذلك لأن ماهيةَ الاشتراك لا تتغير بالمساوئ والأضرار التي فيها، لأن كل شخص -وفق هذه القاعدة- يحسب نفسه بمثابة المالك لجميع الأموال، وذلك من زاوية مشاركته في المال ومن جهة مراقبته وإشرافه عليه، بالرغم أنه لا يمكنه أن ينتفع من جميع الأموال.. وعلى كل حال فإن هذه القاعدة إذا دخلت في الأعمال الأخروية فستكون محوراً لمنافع جليلة بلا مساوئ ولا ضرر. لأن جميع تلك الأموال الأخروية تحمل سر الدخول بتمامها في حوزة كل فرد من أولئك الأفراد المشتركين فيها، دون نقصان أو تجزئة.

ولنفهم هذا بمثال:

اشترك خمسةُ أشخاص في إشعال مصباح زيتي. فوقع على أحدهم إحضار النفط، وعلى الآخر الفتيلة، وعلى الثالث زجاجة المصباح، وعلى الرابع المصباح نفسه وعلى الأخير علبة الكبريت.. فعندما أشعلوا المصباح أصبح كل منهم مالكاً لمصباح كامل. فلو كان لكل من أولئك المشتركين مرآةٌ كبيرة معلقة بحائط، إذن لأصبح منعكساً في مرآته مصباحٌ كامل -مع ما في الغرفة- من دون تجزؤ أو نقص..

وهكذا الأمر في الاشتراك في الأمور الأخروية بسر الإخلاص، والتساند بسر الأخوة، وضم المساعي بسر الاتحاد؛ إذ سيدخل مجموعُ أعمال المشتركين، وجميع النور النابع منها، سيدخل بتمامه في دفتر أعمال كل منهم.. وهذا أمر مشهود وواقع بين أهل الحقيقة، وهو من مقتضيات سعة رحمة الله سبحانه وكرمه المطلق.

فيا إخوتي..! آمل ألّا تسوقكم المنافعُ المادية إلى الحسد فيما بينكم إن شاء الله تعالى. إلّا أنكم قد تنخدعون كما انخدع قسمٌ من أهل الطرق الصوفية، من باب المنافع الأخروية.

ولكن تذكّروا.. أين الثواب الشخصي والجزئي من ذلك الثواب العظيم الناشئ في أُفق الاشتراك في الأعمال المذكورة في المثال، وأين النور الجزئي من ذلك النور الباهر.

المثال الثاني لإدامة الإخلاص:

يحصل الصناعيون وأهل الحرف على الإنتاج الوفير وعلى ثروة هائلة نتيجة إتباعهم قاعدة «المشاركة في الصنعة والمهارة». وإليك المثال:

قام عشرة من صناعي إبر الخياطة بعملهم، كل على انفراد، فكانت النتيجة ثلاث إبر فقط لكل منهم في اليوم الواحد.. ثم اتفق هؤلاء الأشخاص حسب قاعدة «توحيد المساعي وتوزيع الأعمال» فأتى أحدهم بالحديد والآخر بالنار، وقام الثالث بثقب الإبرة والآخر بإدخالها النار والآخر بدأ يحدها.. وهكذا. فلم يذهب وقت أحد منهم سُدىً، حيث انصرف كل منهم إلى عملٍ مُعين وأنجزه بسرعة، لأنه عمل جزئي بسيط أولاً ولاكتسابه الخبرة والمهارة فيه ثانياً. وحينما وزعوا حصيلةَ جهودهم رأوا أن نصيب كل منهم في يوم واحد ثلاثمائة إبرة بدلاً من ثلاث إبر.. فذهبت هذه الحادثة أنشودةً يترنم بها أهل الصناعة والحرف، الذين يدعون إلى توحيد المساعي وتوزيع الأعمال.

فيا إخوتي! ما دامت تحصل مثل هذه الفوائد العظيمة نتيجة الاتحاد والاتفاق في أمور دنيوية وفي مواد كثيفة، فكم يكون ثواب أعمال أخروية ونورانية! وكم يكون الثواب المنعكس من أعمال الجماعة كلها بالفضل الإلهي في مرآة كل فرد منها! تلك الأعمال التي لا تحتاج إلى تجزئة ولا انقسام. فلكم أن تقدروا ذلك الربح العظيم.. فإن مثل هذا الربح العظيم لا يُفوَّت بالحسد وعدم الإخلاص..!

المانع الثاني للإخلاص:

هو إعطاء ما يداعب أنانية النفس الأمارة بالسوء وما تستشرفه من منزلة ومكانة، تتوجه إليها الأنظار، وحب إقبال الناس وطلب توجههم بدافع من حب الشهرة وذياع الصيت الناشئ من التطلع إلى الجاه وحبه. فكما أنَّ هذا داء روحي وبيل، فهو باب إلى «الشرك الخفي» الذي هو الرياء والإعجاب بالنفس الماحق للإخلاص.

يا إخوتي!

لما كان مسلكنا في خدمة القرآن الكريم مبنياً على الحقيقة وعلى الأخوة، وأن سر الأخوة هو في إفناء الفرد شخصيته في شخصية إخوانه [١] وإيثارهم على نفسه، فما ينبغي أن يؤثر فينا مثل هذا الحسد الناجم من حُب الجاه، حيث هو مناف كلياً لمسلكنا. إذ مادامت كرامةُ جميع الإخوان وشرفهم تعود إلى كل أخ في الجماعة، فلا يمكن أن تُضحّى بتلك المنزلة الرفيعة والكرامة الفائقة والشرف المعنوي السامي للجماعة، لأجل شهرة جزئية وعزة شخصية ناجمة من الأنانية والحسد.. فأنا على ثقة وآمل أن ذلك بعيد كل البعد عن طلاب النور.

نعم، إن قلوب طلاب النور وعقولَهم وأرواحهم لا تنحدر إلى مثل هذه الأمور السافلة، إلّا أنه ما من أحد إلّا يحمل نفساً أمارة بالسوء، فقد تسري أمورٌ ونوازع نفسانية في العروق وتتعلق بالأعصاب وتجري أحكاماً برغم العقل والقلب والروح. فاعتماداً على ما تتركه «رسائل النور» فيكم من آثار، فلا أتهم قلوبَكم وعقولكم وأرواحكم. إلّا أن النفس والهوى والحس والوهم قد يُخدع؛ لذا يأتيكم التحذير والتنبيه أحياناً بشدة وعنف. فتلك الشدة موجهةٌ إلى النفس والهوى والحس والوهم، فكونوا على حذر دائماً.

نعم لو كان مسلكنا طريقة خاصة ومشيخة، لكان إذن مقام واحد، أو عدد محدود منه، ولكان مرشحون كثيرون لذلك المقام. وعندها كان يمكن أن تحدث المنافسة والأنانية في النفوس. ولكن مسلكنا هو الأخوة، لا غير. فلا يدّعي الأخ على أخيه الأبوة، ولا يتزيَّ بزي المرشد له. فالمقام هنا في الأخوة فسيح واسع، لا مجال فيه للمزاحمة بالمنافسة، وإن كان لابد فالأخ معاون لأخيه مكمّل لعمله، وظهير له.

ومما يدل على أن في المسالك التي فيها مقام الأبوة والإرشاد والأستاذية نتائج خطرة مهلكة تنجم من المنافسة والحسد حرصاً على الثواب وتطلعاً إلى علو الهمة، أقول إن الدليل على ذلك هو تلك الاختلافات والمشاحنات الدائرة في ثنايا المزايا الجليلة والمنافع العظيمة التي يتمتع بها أهل الطرق الصوفية، والتي أدّت بهم إلى نتائج وخيمة جعلت قواهم السامية الهائلة لا تثبت أمام أعاصير البدع.

(١) نعم، إن السعيد هو مَن يرمي شخصيته، ويذيب أنانيته التي هي كقطعة ثلج في الحوض العظيم اللذيذ المترشح من كوثر القرآن الكريم كي يغنم ذلك الحوض. (المؤلف).

المانع الثالث للإخلاص:

هو الخوف والطمع. نحيل إلى رسالة «الهجمات الست»[١] حيث شرحت هذا المانع مع موانع أخرى بوضوح تام.

نسأل الله الرحمن الرحيم سبحانه مُشَفِّعِينَ جميع أسمائه الحسنى أن يوفقنا إلى الإخلاص التام. آمين.

اَللّهمَّ بِحَقِّ سُورَةِ الإخلاص اِجعَلْنَا مِنْ عِبَادِكَ الْمُخْلِصينَ الْمُخلَصينَ. آمينْ.. آمين.

﴿سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

---

(١) يراجع القسم السادس من المكتوب التاسع والعشرين في مجموعة «المكتوبات».

رسالة خاصة إلى قسم من إخواني

سأذكر نكتة لطيفة لحديثين شريفين لأولئك الأخوة الذين يملّون من كتابة «رسائل النور»، والذين يفضّلون قراءة الأوراد في الشهور الثلاثة وهي شهور العبادات على كتابة «رسائل النور» التي تعدّ عبادة بخمس جهات.[1]

الحديث الأول: (يُوزن مداد العلماء بدماء الشهداء)[2] أو كما قال. أي إن ما يصرفه علماء الحقيقة من حبر يوزن يوم القيامة مع دماء الشهداء ويعادلها.

الحديث الثاني: (مَن تمسك بسنتي عند فساد أمتي فله أجر مائة شهيد)[3] أو كما قال، أي إن من يتمسك بالسنة الشريفة والحقائق القرآنية ويعمل لأجلها عند استيلاء البدع وتغلب الضلالة ، فله أجر مائة شهيد.

فيا مَن يملّ تكاسلاً عن الكتابة ويا أيها الأخوة الذين ينحون منحى التصوف! إن حصيلة مفهومَي الحديثين الشريفين هي أن درهماً مما يقطر من نور أسود وماء باعث للحياة من الأقلام المباركة الزكية لأولئك الذين يخدمون حقائق الإيمان وأسرار الشريعة والسنة النبوية الشريفة في مثل هذه الظروف يمكن أن يفيد كمائة درهم من دم الشهداء يوم الحشر الأكبر.

فاسعوا يا إخوتي لتظفروا بهذا الثواب العظيم.

---

(١) لقد سألنا أستاذنا عن الأنواع الخمسة من العبادة التي أشار إليها في هذه الرسالة القيمة، ندرج إيضاحه أدناه:

١ـ إنها جهاد معنوي تجاه أهل الضلالة، ذلك الجهاد الأهم.

٢ـ إنها خدمة لأستاذه ومعاونة له على نشر الحقيقة.

٣ـ إنها خدمة للمسلمين كافة من حيث الإيمان.

٤ـ إنها تحصيل للعلم بالكتابة.

٥ـ إنها عبادة فكرية التي قد تكون ساعة منها بمثابة سنة من العبادة.

«رشدي، خسرو، رأفت»

(٢) انظر: الغزالي، إحياء علوم الدين ١/ ٦، ٨؛ ابن الجوزي، العلل المتناهية ١/ ١٨١؛ ابن حجر، لسان الميزان ٥/ ٢٢٥؛ المناوي، فيض القدير ٦/ ٤٦٦؛ العجلوني، كشف الخفاء ١/ ٢٦٢، ٥٤٣.

(٣) تقدم تخريجه في اللمعة الحادية عشرة.

فإن قلتم: إن ما ورد في الحديث هو بخصوص العالِم بينما قسم منا كتّاب فحسب؟

الجواب: إن الذي يقرأ هذه الرسائل، وهذه الدروس في غضون سنة واحدة ويفهمها ويقبل بها، يمكن أن يكون عالماً مهماً ذا حقيقة في هذا الزمان. وإذا ما قرأها ولم يفهمها، فإن طلاب النور الذين لهم شخصية معنوية، لا شك أن هذه الشخصية هي بمثابة عالم من علماء هذا الزمان. أما أقلامكم فهي أصابع تلك الشخصية الحقيقية، وهَب أنكم قد ارتبطتم بهذا الفقير ومنحتموه بحُسن ظنكم مكانة عالم وأستاذ في نظركم وإن كنت أرى أنني لا أستحقها ولكن لما كنت أمياً لا أجيد الكتابة، فإن أقلامكم تعدّ أقلامي أنا. فتثابون بالأجر المبيّن في الحديث الشريف.

سعيد النورسي

اللمعة الثانية والعشرون

بِاسْمِهِ سُبْحَانَهُ

هذه الرسالة الصغيرة التي كتبتُها قبل اثنتين وعشرين سنة، وأنا نزيل ناحية «بارلا» التابعة لولاية إسبارطة، هي رسالة خاصة لأخلص إخوتي وأخصّهم. وقد كتبتها في غاية السرية ومنتهى الكتمان. ولكن لما كانت ذات علاقة بأهالي «إسبارطة» والمسؤولين فيها، فإني أقدّمها إلى واليها العادل وإلى مسؤولي دوائر العدل والأمن والانضباط فيها. وإذا ما ارتؤي أنها تستحق الطبع، فلتُطبع منها نسخٌ معدودة بالحروف القديمة أو الحديثة بالآلة الطابعة كي يعرف أولئك المترصدون الباحثون عن أسراري منذ أكثر من خمس وعشرين سنة، أنه لا سرّ لنا في الخفاء، وأن أخفى أسرارنا هو هذه الرسالة.

سعيد النورسي

الإشارات الثلاث

كانت هذه الرسالة «المسألة الثالثة من المذكرة السابعة عشرة للمعة السابعة عشرة» إلّا أن قوة أسئلتها وشمولها وسطوع أجوبتها وسدادها جعَلتها «اللمعة الثانية والعشرين» من «المكتوب الحادي والثلاثين» فدخلت ضمن «اللمعات» وامتزجت بها. وعلى «اللمعات» إن تفسح لها موضعاً بينها، فهي رسالة سرية خاصة لأخص إخواننا وأخلصهم وأصدقهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ (الطلاق:٣)

هذه المسألة ثلاث إشارات

الإشارة الأولى:

سؤال مهم يخصّني بالذات ويخص «رسائل النور». يقول كثيرون:

لِمَ يتدخل أهلُ الدنيا بأمور آخرتك كلما وجدوا لهم فرصة، مع أنك لا تتدخل في شؤون دنياهم؟ علماً أنه لا يمسّ قانونُ أية حكومة كانت شؤونَ تاركي الدنيا المعتزلين الناس!

الجواب: إن جواب «سعيد الجديد» عن هذا السؤال هو: السكوت؛ إذ يقول: ليُجب عني القدرُ الإلهي. ومع هذا يقول بعقل «سعيد القديم» الذي اضطر إلى استعارته: إن الذي يجيب عن هذا السؤال هو حكومة محافظة إسبارطة وأهالي هذه المحافظة؛ لأنَّ هؤلاء -المسؤولين والناس كافة- أكثر علاقة مني بالمعنى الذي ينطوي عليه السؤال.

وما دامت حكومةٌ أفرادها يربون على الألوف، وأهلون يزيدون على مئات الألوف مضطرين إلى التفكير والدفاع عوضاً عني، فلِمَ إذن أحاور -دون جدوى- المدّعين دفاعاً عن نفسي؟.

فها أنذا منذ تسع سنوات في هذه المحافظة، وكلما مرّ الزمان أدرت ظهري إلى دنياهم. ولم تبق حال من أحوالي مخفية عنهم مستورة عليهم، بل حتى أخَصُّ رسائلي وأكثرها سرية يتداولها المسؤولون في الدولة وهي في متناول عدد من النواب. فلو كان لي شيء من تدخلٍ أو محاولة ما لتعكير صفو دنياهم والإخلال بها، أو حتى التفكير في هذا الأمر، لما آثر المسؤولون في هذه المحافظة والأقضية السكوتَ تجاهي وعدم الاعتراض عليّ على الرغم من مراقبتهم

إياي وترصدهم لي وتجسسهم عليّ طوال تسع سنوات، وعلى الرغم من أنني أبوح دون تردد بأسراري إلى من يزورني.

فإن كان لي عمل مُخل بسعادة الأمة وسلامة الوطن ويلحق الضرر بمستقبلها، فالمسؤول عنه جميعُ أفراد الحكومة طوال تسع سنوات ابتداءً من المحافظ إلى أصغر موظف في مخفر القرية.

فعلى هؤلاء جميعاً يقع الدفاع عني، وعليهم أن يستصغروا ما استهوَله واستعظَمَه الآخرون، وذلك لينجوا من تبعات المسؤولية. ولأجل هذا أحيل جواب هذا السؤال إليهم.

أما ما يدفع مواطني هذه المحافظة عامة للدفاع عني أكثر من نفسي فهو: أنَّ هذه تسع سنوات، ومئات الرسائل التي نسعى لنشرها، قد أثبتت تأثيرها في هذا الشعب الأخ الصديق المبارك الطيب، وأظهرت مفعولها الفعلي والمادي في حياته الأبدية وفي دعم قوة إيمانه وسعادة حياته، ومن غير أن تمسّ أحداً بسوء أو تولد أي اضطراب أو قلق كان، إذ لم يشاهد منها ما يومئ إلى غرضٍ سياسي ونفع دنيوي مهما كان، حتى إنَّ هذه المحافظة، إسبارطة، قد اكتسبت ولله الحمد بوساطة «رسائل النور» مقام البركة من حيث قوة الإيمان والصلابة في الدين، من نوع البركة التي نالتها بلدة الشام الطيبة في السابق ومن نوع بركة الجامع الأزهر الذي هو مدرسة العالم الإسلامي عامة.

فهذه المحافظة لها فضل ومزيّة على المحافظات الأخرى، حيث قد كسبت من «رسائل النور» التمسك بأذيال الدين، فهيمنت فيها قوةُ الإيمان على الإهمال، وسيطرت فيها الرغبة في العبادة تجاه السفه والغي؛ ولهذا كله فالناس كلهم في هذه المحافظة، حتى لو كان فيهم ملحد (فرضاً) مضطرون إلى الدفاع عني وعن «رسائل النور».

وهكذا لا يسوقني حقي الجزئي الذي لا أهمية له ضمن حقوق دفاع ذات أهمية إلى هذا الحد، أن أُدافع عن نفسي ولاسيما أنني قد أنهيت خدماتي ولله الحمد ويسعى لها ألوفٌ من الطلاب عوضاً عن هذا العاجز. فمن كان له وكلاء دعوى ومحامون يربون على الألوف، لا يدافع عن دعواه بنفسه.

الإشارة الثانية:

جواب عن سؤال يتسم بالنقد.

يقال من جانب أهل الدنيا: لِمَ اسْتَأْتَ منّا وسكتّ فلا تراجعنا ولو لمرة واحدة. ثم تشكو منا شكاية شديدة قائلاً: «أنتم تظلمونني». فنحن أصحاب مبدأ، لنا دساتيرنا الخاصة نسير في ضوئها على وفق ما يتطلبه هذا العصر بينما أنت لا تُنَفِذُ هذه الدساتير على نفسك وترفضها، علماً أن من ينفذ القانون لا يكون ظالماً، بينما الرافض له يكون عاصياً. ففي عصرنا هذا، عصر الحرية -مثلاً- وفي عهد الجمهوريات التي بدأنا به حديثاً يجري دستور رفع الإكراه والتسلط على الآخرين. إذ المساواة قانون أساس لدينا، بينما أنت تكسب إقبال الناس نحوك وتلفت أنظارهم إليك تارة بزيّ العلم وأخرى بالتزهد، فتحاول تكوين قوةٍ وكسب مقامٍ خارج نطاق نفوذ الدولة.

هكذا يُفهم من ظاهر حالك وهكذا يدلنا مجرى حياتك السابقة. فهذه الحالة ربما تُستصوب في نطاق تحكّم البرجوازيين -بالتعبير الحديث- إلّا أن صحوة طبقة العوام وتغلبها جعلت جميع دساتير الاشتراكية والبلشفية تسيطر وتهيمن، وهي التي تلائم أمورنا أكثر من غيرها. فنحن في الوقت الذي رضينا بدساتير الاشتراكية نشمئز من أوضاعك، إذ هي تخالف مبادئنا. لذا لاحق لك في الاستياء منا ولا الشكوى من مضايقاتنا لك.

الجواب: إنَّ من يشق طريقاً في الحياة الاجتماعية ويؤسس حركة، لا يستثمر مساعيه ولن يكون النجاح حليفَه في أمور الخير والرقي ما لم تكن الحركةُ منسجمةً مع القوانين الفطرية التي تحكم الكون، بل تكون جميعُ أعماله في سبيل التخريب والشر.

فما دام الانسجام مع قانون الفطرة ضرورياً، فإن تنفيذ قانون المساواة المطلقة لا يمكن إلّا بتغيير فطرة البشر ورفع الحكمة الأساسية في خلق النوع البشري.

نعم، إنني من حيث النسب ونمط معيشة الحياة من طبقة العوام، ومن الراضين بالمساواة في الحقوق فكراً ومشرباً، ومن العاملين على رفض سيطرة طبقة الخواص المسمَّين بالبرجوازيين واستبدادهم منذ السابق وذلك بمقتضى الرحمة وبموجب العدالة الناشئة من الإسلام. لذا فأنا بكل ما أوتيت من قوة بجانب العدالة التامة، وضد الظلم والسيطرة

والتحكم والاستبداد. بَيد أنَّ فطرة النوع البشري وحكمةَ خلقه تخالفان قانونَ المساواة المطلقة، إذ الفاطر الحكيم سبحانه كما يستحصل من شيء قليل محاصيلَ كثيرة، ويكتب في صحيفة واحدة كتباً كثيرة، ويُجري بشيء واحد وظائف جمة، كذلك يُنجز بنوع البشر وظائف ألوف الأنواع، وذلك إظهاراً لقدرته الكاملة وحكمته التامة.

فلأجل تلك الحكمة العظيمة، خلق سبحانه الإنسانَ على فطرة جامعة، لها من القدرة ما يثمر ألوف سنابل الأنواع، وما يعطى طبقات كثيرة بعدد أنواع سائر الحيوانات؛ إذ لم يحدِّد سبحانه قوى الإنسان ولطائفَه ومشاعرَه كما هو الحال في الحيوانات، بل أطلقها واهباً له استعداداً يتمكن به من السياحة والجولان ضمن مقامات لا تحد، فهو في حكم ألوف الأنواع، وإن كان نوعاً واحداً.

ومن هنا أصبح الإنسان في حكم خليفة الأرض.. ونتيجة الكون.. وسلطان الأحياء.. وهكذا فإن أجلَّ خميرة لتنوع النوع البشري وأهم نابض محرك له هو التسابق لإحراز الفضيلة المتسمة بالإيمان الحقيقي. فلا يمكن رفعُ الفضيلة إلّا بتبديل الماهية البشرية وإخماد العقل وقتل القلب وإفناء الروح.

«لا يمكن بالظلم والجور محو الحرية

ارفع الإدراك إن كنت مقتدراً من الإنسانية!» .[1]

هذا الكلام الرصين أُثير خطأً في وجه رجل ذي شأن ما كان يليق به مثل هذه الصفعة، بل جدير بهذا الكلام أن يصفع به الوجه الغدار لهذا العصر الحامل لاستبداد رهيب يتستر بهذه الحرية.

فأنا أقول بدلاً من هذا الكلام:

«لا يمكن بالظلم والجور محو الحقيقة

ارفع القلب إن كنت مقتدراً من الإنسانية!» .

---

(١) قيل في حق السلطان «عبدالحميد» من قبل الشاعر «نامق كمال» في قصيدته «الحرية».

أو أقول:

«لا يمكن بالظلم والجور محو الفضيلة
ارفع الوجدان إن كنت مقتدرًا من الإنسانية!» .

نعم، إن الفضيلة المتّسمة بالإيمان، كما لا تكون وسيلة للإكراه، لا تكون سبباً للاستبداد قطعاً. إذ الإكراه والقسر والتسلط على الآخرين، رذيلة ليس إلّا ، بل إنَّ أهم مشرب لدى أهل الفضيلة هو الاندماج في المجتمع بالعجز والفقر والتواضع. ولقد مضت حياتُنا ولله الحمد وما زالت كذلك تمضي على وفق هذا المشرب. فأنا لا أدعي متفاخراً أنني صاحب فضيلة، ولكن أقول تحدّثاً بنعمة الله عليّ وبنية الشكر له سبحانه: قد أَحْسَنَ إليّ جلّ وعلا بفضله وكرمه فوفقني إلى العمل للعلوم الإيمانية والقرآنية وإدراكها وفهمها. فصرفتُ طوال حياتي -ولله الحمد- هذا الإحسان الإلهي بتوفيق منه تعالى، في مصالح هذه الأمة المسلمة وبذلتُه في سبيل سعادتها، ولم يكُ في أي وقت كان وسيلة للإكراه والتسلط على الآخرين. كما أنني -بناءً على سرّ مهم- أنفر من إقبال الناس وجلب استحسانهم المرغوبين لدى أهل الغفلة؛ إذ قد ضيّعا عليّ عشرين سنة من عمري السابق، فلهذا أعدّهما مضرَّين لي. إلّا أنني أراهما أمارة على إقبال الناس على رسائل النور فلا أُسخطهم.

فيا أهل الدنيا!

في الوقت الذي لا أتدخل في دنياكم قط؛ ولا علاقة لي بأية جهة كانت بمبادئكم. ولست عازماً على التدخل مجدداً بالدنيا، بل ولا لي رغبة فيها أصلاً كما تشهد بذلك حياتي، هذه التي قضيتُها أسير المنفى طوال تسع سنوات. فلماذا تنظرون إليّ وكأنني متجبّر سابق، يضمر التسلط على الآخرين ويتحين الفرص لذلك. بأي قانون يُجرى وعلى أية مصلحة يُبنى هذا المدى من الترصد والمراقبة والعنت؟

فلا توجد في العالم كله، حكومةٌ تعمل فوق القانون، وتسمح بهذه المعاملة القاسية التي أُعامل بها والتي لا يرضى بها فرد مهما كان.

فهذه المعاملات السيئة التي تعاملونني بها لا تولد سخطي وحده، بل سخط نوع الإنسان -إن أدرك- بل سخط الكائنات.

الإشارة الثالثة:

سؤال يرد على وجه البلاهة والجنون وينطوي على مغالطة.

يقول قسم من أفراد الدولة وأهل الحكم:

ما دُمتَ قائماً في هذه البلاد، فعليك الانقياد لقوانين الجمهورية الصادرة فيها، فلماذا تُنجي نفسك من تلك القوانين تحت ستار العزلة عن الناس.

فمثلاً: إن من يجرِي نفوذه على الآخرين خارج وظيفة الدولة متقلداً فضيلة ومزيّة لنفسه ينافِي قانون الحكومة الحاضرة ودستور الجمهورية المبني على أساس المساواة. فلماذا تتقلد صفةَ من يريد جلب الإعجاب بنفسه وكأن على الناس الانقياد له وطاعته. وتجعلهم يقبّلون يدك مع أنك لا وظيفة لك في الدولة؟

الجواب: إنَّ على منفّذي القانون تنفيذَه على أنفسهم أولاً ثم يمكنهم إجراؤه على الآخرين. فإجراء دستور على الآخرين دون أنفسكم يعني مناقضتكم لدستوركم وقانونِكم قبل كل أحد لأنكم تطلبون إجراء قانون المساواة المطلقة هذا عليَّ بينما لم تطبقوه أنتم على أنفسكم.

وأنا أقول: متى ما صعد جندي اعتيادي إلى مقام المشير الاجتماعي، وشارك المشير فيما يوليه الناس من احترام وإجلال، ونال مثله ذلك الإقبال والاحترام.. أو متى ما صار المشير جندياً اعتيادياً وتقلد أحواله الخامدة، وفقَد أهميته كلها خارج وظيفته.. وأيضاً متى ما تساوى رئيسٌ ذكي لأركان الجيش قادهم إلى النصر مع جندي بليد في إقبال الناس عامة والاحترام والمحبة له، فلكم أن تقولوا حينذاك، حسب قانونكم، قانونِ المساواة: لا تُسَمِ نفسَك عالماً. ارفض احترام الناس لك، انكر فضيلتك، اخدم خادمك، رافق المتسولين.

فإن قلتم: إن هذا الاحترام والمقام والإقبال الذي يوليه الناس، إنما هو خاص بالموظفين وأثناء مزاولتهم مهنتهم، بينما أنت إنسان لا وظيفة لك، فليس لك أن تقبل احترام الأمة كالموظفين.

فالجواب: لو أصبح الإنسان مجرد جسد فقط.. وظل في الدنيا خالداً مخلداً.. وأُغلق

باب القبر.. وقُتل الموت.. فانحصرت الوظائفُ في العسكرية والموظفين الإداريين.. فكلامكم إذن يعني شيئاً. ولكن لما كان الإنسان ليس مجرد جسد، ولا يُجرّد من القلب واللسان والعقل ليعطى غذاءً للجسد، فلا يمكن إفناء تلك الجوارح. فكلٌّ منها يطلب التغذية والعناية. ولما كان بابُ القبر لا يغلق، بل إن أجلّ مسألة لدى كل فرد هو قلقُه على ما وراء القبر. لذا لا تنحصر الوظائف التي تستند إلى احترام الناس وطاعتهم في وظائف اجتماعية وسياسية وعسكرية تخص حياة الأمة الدنيوية. إذ كما أن تزويد المسافرين بتذاكر سفر وجواز مرور وظيفة، فإن منح وثيقة سفر للمسافرين إلى ديار الأبد ومناولتهم نوراً لتبديد ظلمات الطريق وظيفة جليلة، بحيث لا ترقى أية وظيفة أخرى إلى أهميتها. فإنكار وظيفة جليلة كهذه لا يمكن إلّا بإنكار الموت، وبتكذيب شهادة ثلاثين ألف جنازة يومياً تُصدق دعوى: أن الموت حق.

فما دامت هناك وظائف معنوية تستند إلى حاجات ضرورية معنوية، وأن أهم تلك الوظائف هي الإيمان وتقويته والإرشاد إليه، إذ هو جواز سفر في طريق الأبدية ومصباح القلب في ظلمات البرزخ ومفتاح دار السعادة الأبدية. فلا شك أن الذي يؤدي تلك الوظيفة، وظيفةَ الإيمان، من أهل المعرفة لا يبخس قيمةَ النعمة التي أنعم الله عليه كفراناً بها، ولا يهوّن من فضيلة الإيمان التي منحها الله إياه، ولا يتردى إلى درك السفهاء والفسقة، ولا يلوث نفسه بسفاهة السافلين وبدعهم. فالانزواء واعتزال الناس الذي لا يروق لكم وحسبتموه مخالفاً للمساواة إنما هو لأجل هذا.

ومع هذه الحقيقة، فلا أخاطب -بكلامي هذا- أولئك الذين يذيقونني العنتَ بتعذيبهم إياي، من أمثالكم المتكبرين المغترين بنفوسهم كثيراً حتى بلغوا الفرعونية في نقض هذا القانون، قانون المساواة. إذ ينبغي عدم التواضع أمام المتكبرين لما يُظن تذللاً لهم.. وإنما أخاطب المنصفين المتواضعين العادلين من أهل الحكم فأقول:

إنني ولله الحمد على معرفة بقصوري وعجزي، فلا أدّعي مُستعلياً على أحد من الناس مقاماً للاحترام فضلاً عن أن أدّعيه على المسلمين! بل أبصر بفضل الله تقصيراتي التي لا تحد، وأعلمُ يقيناً أني لست على شيء يُذكر، فأجد السلوانَ والعزاء في الاستغفار ورجاء الدعاء من الناس، لا التماس الاحترام منهم. وأعتقد أن سلوكي هذا معروف لدى أصدقائي كلهم. إلّا

أن هناك أمراً وهو أنني، أتقلد مؤقتاً وضعاً عزيزاً يتطلبه مقامُ عزة العلم ووقاره، وذلك أثناء القيام بخدمة القرآن ودرس حقائق الإيمان، أتقلده موقتاً في سبيل تلك الحقائق وشرف القرآن ولأجل ألّا أحني رأسي لأهل الضلالة. أعتقد أنه ليس في طوق قوانين أهل الدنيا معارضة هذه النقاط.

معاملة تجلب الحيرة:

إنَّ أهل العلم والمعرفة في كل مكان -كما هو معلوم- يزنون الأمور بميزان العلم والمعرفة. فأينما وجدوا معرفة وفي أي شخص تلمّسوا علماً يولون له الاحترام ويعقدون معه الصداقة باعتبار مسلك العلم. بل حتى لو قدم عالم -بروفسور- لدولة عدوة لنا، إلى هذه البلاد، لزاره أهلُ المعرفة وأصحاب العلوم، وقدروه واحترموه لعلمه ومعرفته.

والحال أنه عندما طلب أعلى مجلس علمي كَنَسي إنكليزي من المشيخة الإسلامية الإجابة عن ستة أسئلة بستمائة كلمة، قام أحدُ أهل العلم -الذي تلقى عدم الاحترام من أهل هذه البلاد- بالإجابة عن تلك الأسئلة بست كلمات حتى نالت إجابته التقدير والإعجاب... وهو الذي قاوم بالعلم الحقيقي والمعرفة الصائبة أهم دساتير الأجانب وأسس حكمائهم وتغلب عليهم.

وهو الذي تحدى فلاسفة أوروبا استناداً إلى ما استلهمه من القرآن الكريم من قوة المعرفة والعلم.

وهو الذي دعا العلماء وأهل المدارس الحديثة في استانبول -قبل إعلان الحرية بستة شهور- إلى المناظرة والمناقشة، والإجابة عن أسئلتهم دون أن يَسأل أحداً شيئاً. فأجاب عن جميع استفساراتهم إجابة شافية صائبة.[1]

وهو الذي وقفَ حياته لإسعاد هذه الأمة. فنشر مئات الرسائل بلغتها، اللغة التركية، ونوّرهم بها.

---

(١) يقول «سعيد الجديد»: أنا لا أشارك «سعيداً القديم» في أقواله هذه التي يقولها في هذا المقام مفتخراً. بيد أني لا أستطيع أن أسكته لأني قد أعطيته حق الكلام في هذه الرسالة. بل أوثر جانب الصمت نحوه كي يبدي شيئاً من فخره أمام المتكبرين. (المؤلف).

هذا الذي قام بهذه الأعمال، وهو ابن هذا الوطن، والصديق لأهله، والأخ في الدين، قابله قسمٌ من المنسوبين إلى العلم والمعرفة مع عدد من علماء الدين الرسميين بالاضطهاد وإضمار العداء نحوه، بل أُهينَ.

فتعالَ، وتأمل هذه الحالة! ماذا تسميها؟ أهي مدنيةٌ وحضارة؟ أم هي محبة للعلم والمعرفة؟ أم هي وطنية؟ أم هي قومية؟ أم هي دعوة إلى التمسك بأهداف الجمهورية؟..

حاشَ لله وكلا لا شيء من هذا قط!

بل هي قدر إلهي عادل أظهرَ من أهل العلم العداء لذلك الشخص فيما كان يتوقع الصداقة منهم لكيلا يدخل في علمه الرياءُ بسبب توقع الاحترام، وليفوز بالإخلاص.

الخاتمة

اعتداء محيّر لي يوجب الشكران!

إنَّ أهل الدنيا المتكبرين المغرورين غروراً فوق المعتاد، لهم حساسيةٌ شديدة في معرفة الأنانية والغرور، بحيث لو كانت تلك المعاملة بشعورٍ منهم لكانت تعدّ كرامة أو دهاءً عظيماً. وهي كالآتي:

إنَّ ما لا تشعر به نفسي وعقلي من حالة غرور جزئية متلبسة بالرياء، كأنهم يشعرون بها بميزان غرورهم وتكبرهم الحساس فيجابهون غروري الذي لا أشعر به.

ففي غضون هذه السنين التسع تقريباً لي ما يقارب التسع من التجارب، حتى إنني عقب معاملتهم الجائرة نحوي، كنت أفكر في القدر الإلهي وأقول: لماذا سلّط القدرُ الإلهي هؤلاء عليّ؟ فأتحرى بهذا السؤال عن دسائس نفسي. ففي كل مرة، كنت أفهم: أن نفسي، إما أنها مالت فطرياً إلى الغرور والتكبر من غير شعور مني. أو أنها غرّتني على علم. فكنت أقول حينذاك: إن القدر الإلهي قد عدل في حقي من خلال ظلم أولئك الظالمين. فمنها:

أنه في هذا الصيف، أركبني أصدقائي حصاناً جميلاً، فذهبتُ به إلى متنزه، وما إن تنبهت رغبة في نفسي نحو أذواق دنيوية مشوبة بالغرور من غير شعور مني حتى تعرّض أهل الدنيا لتلك الرغبة بشدة بحيث قطعوا دابرَها بل دابر كثير من رغبات أخرى في النفس.

وفي هذه المرة، بعد شهر رمضان المبارك وفي جو من إخلاص الإخوة الكرام وتقواهم واحترام الزائرين وحُسن ظنهم، عقب الالتفات الذي أولاه إمامٌ عظيم سامٍ من السابقين نحونا بكرامة غيبية، رغبتْ نفسي في أن تتقلد -دون شعور مني- حالةَ غرور ممزوج بالرياء، فأبدت رغبَتها مفتخرة تحت ستار الشكر، وفي هذه الأثناء تعرّض ليَ فجأة أهلُ الدنيا بحساسية شديدة، حتى كأنها تتحسس ذرات الرياء.

فإلى المولى القدير أبتهل شاكراً لأنعمه، إذ أصبح ظلمُ هؤلاء وسيلةً للإخلاص.

﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾

اللّهم يا حافظ يا حفيظ يا خير الحافظين، احفظني واحفظ رفقائي من شر النفس والشيطان ومن شر الجن والإنسان ومن شر أهل الضلالة وأهل الطغيان.

آمين.. آمين.. آمين.

﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾

اللمعة الثالثة والعشرون

«رسالة الطبيعة»

كانت هذه الرسالة هي المذكّرة السادسة عشرة من «اللمعة السابعة عشرة» إلّا أن أهميتها الفائقة جعلَتها «اللمعة الثالثة والعشرين» فهي تُبيد تيار الكفر النابع من مفهوم «الطبيعة» إبادة تامة وتُفتّت حجر زاوية الكفر وتحطّم ركيزته الأساس.

تنبيه

لقد بيَّنَت هذه المذكرة ماهيةَ المذهب الذي يسلكه الجاحدون من الطبيعيين، وأوضحَت مدى بُعد مسلكهم عن موازين العقل، ومدى سماجته وخرافيته، وذلك من خلال تسعة محالات مستخلَصة من تسعين محالاً في الأقل. ولما كان قسمٌ من تلك المحالات قد وضّح في رسائل أخرى فقد جاء هنا مدرجاً ضمن محالات أخرى، أو جاء مختصراً بعضَ الشيء.

والسؤال الذي يرد للخاطر هو: كيف ارتضى فلاسفةٌ مشهورون وعلماء معروفون بهذه الخرافة الفاضحة وسلّموا لها زمام عقولهم؟!

والجواب: إنَّ أولئك لم يتبينوا حقيقةَ مسلكهم،[1] ولا باطنَ مذهبهم، ولم يدركوا ما يقتضيه

(١) إنَّ الداعي الأشد إلحاحاً إلى تأليف هذه الرسالة هو ما لمسته من هجوم صارخ على القرآن الكريم، والتجاوز الشنيع على الحقائق الإيمانية بتزييفها، وربط أواصر الإلحاد بالطبيعة، وإلصاق نعت «الخرافة» على كل ما لا تدركه عقولهم القاصرة العفنة... وقد أثار هذا الهجوم غيظاً شديداً في القلب ففجر فيه حمماً سرت إلى أسلوب الرسالة، فأنزلت هذه الحمم والصفعات على أولئك الملحدين وذوي المذاهب الباطلة المعرضين عن الحق، وإلّا فليس من دأب «رسائل النور» إلّا القول اللّين في الخطاب والرفق في الكلام. (المؤلف).

مسلكهم من «محالات» وما يستلزمه مذهبهم من أمور فاسدة وممتنعة عقلاً، والتي ذكرت في بداية كل محال يرد في هذه الرسالة.

وأنا على استعداد كامل لإقامة البراهين الدامغة ونصب الحجج البديهية الواضحة لإثبات ذلك لكل مَن يساوره الشك، وأبينها لهم بإسهاب وتفصيل.

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (إبراهيم: ١٠).

هذه الآية الكريمة بما فيها من استفهام إنكاري تدل دلالة قاطعة على وجود الله ووحدانيته بوضوح وجلاء بدرجة البداهة.

وقبل أن نوضح هذا السرّ نودّ أن ننبه إلى ما يأتي:

دعيتُ لزيارة «أنقرة» سنة ١٣٣٨(١٩٢٢م) وشاهدت فرح المؤمنين وابتهاجهم باندحار اليونان أمام الجيش الإسلامي، إلّا أنني أبصرتُ -خلال موجة الفرح هذه- زندقةً رهيبة تدبّ بخبثٍ ومكرٍ، وتتسلل بمفاهيمها الفاسدة إلى عقائد أهل الإيمان الراسخة بغية إفسادها وتسميمها.. فتأسفتُ من أعماق روحي، وصرختُ مستغيثاً بالله العلي القدير ومعتصماً بسُور هذه الآية الكريمة، من هذا الغول الرهيب الذي يريد أن يتعرض لأركان الإيمان، فكتبتُ برهاناً قوياً حاداً يقطع رأس تلك الزندقة، في رسالة باللغة العربية واستقيت معانيها وأفكارها من نور هذه الآية الكريمة لإثبات بداهة وجود الله سبحانه ووضوح وحدانيته، وقد طبعتها في مطبعة «يَني كون» في أنقرة.. إلّا أنني لم ألمس آثار البرهان الرصين في مقاومة الزندقة وإيقاف زحفها إلى أذهان الناس. وسبب ذلك كونه مختصراً ومجملاً جداً، فضلاً عن قلة الذين يُتقنون العربية في تركيا وندرة المهتمين بها آنذاك، لذا فقد انتشرت أوهامُ ذلك الإلحاد واستشرت في صفوف الناس مع الأسف الشديد، مما اضطرني إلى إعادة كتابة تلك الرسالة ببراهينها بالتركية، مع شيء من البيان والتوضيح فكانت هذه الرسالة.

ولما كان بعض أقسام تلك البراهين قد وضّحت توضيحاً كافياً في بعض «رسائل النور» فسنذكرها هنا مجملة، كما أن البعض من البراهين الأخرى المبثوثة في ثنايا رسائل أخرى تبدو مندرجةً في هذه الرسالة، وكأن كل برهان منها جزء من هذه الرسالة.

المقدمة

أيها الإنسان!

اعلم أن هناك كلماتٍ رهيبة تفوح منها رائحةُ الكفر النتنة، تخرج من أفواه الناس، وترددها ألسنةُ أهل الإيمان دون علمهم بخطورة معنى ما يقولون، وسنبين ثلاثاً منها هي الغاية في الخطورة:

أولاها: قولهم عن الشيء: «أوجدته الأسباب» أي إن الأسباب هي التي توجِدُ الشيء المعين.

ثانيتها: قولهم عن الشيء: «تشكّل بنفسه» أي إن الشيء يتشكل من تلقاء نفسه، ويوجِد نفسَهُ، بنفسه وينتهي إلى صورته التي انتهى إليها كما هي.

ثالثتها: قولهم عن الشيء: «اقتضته الطبيعة» أي إن الشيء طبيعي، والطبيعة هي التي أوجدته واقتضته.

نعم، مادامت الموجوداتُ موجودةً وقائمة أمامنا بها لا يمكن إنكارها مطلقاً، وأن كل موجود يأتي إلى الوجود في غاية الإتقان والحكمة، وهو ليس بقديم أزلي، بل هو محدَث جديد.

فيا أيها الملحد! إما أنك تقول أن هذا الموجود -وليكن هذا الحيوان مثلاً- توجِده أسبابُ العالم، أي إنه يكتسب الوجود نتيجة اجتماع الأسباب المادية، أو إنه تشكّل بنفسه، أو أنه يرد إلى الوجود بمقتضى الطبيعة ويظهر بتأثيرها! أو عليك أن تقول:

إنَّ قدرة الخالق القدير ذي الجلال هي التي توجِده؛ لأنه لا سبيل إلى حدوثه غير هذه الطرق الأربعة، حسب موازين العقل، فإذا ما أُثبت -إثباتاً قاطعاً- أن الطرق الثلاثة الأولى محالةٌ، باطلة ممتنعة، غير ممكنة، فبالضرورة والبداهة يثبت الطريقُ الرابع، وهو طريق وحدانية الخالق بيقين جازم لا ريب فيه.

أما الطريق الأول:

وهو القول بأن: «اجتماع أسبابِ العالم يخلق الموجودات ويوجدُها، ويؤدي إلى تشكيل الأشياء» نذكر منه ثلاثة محالات فقط، من بين محالاته الكثيرة جداً.

المحال الأول: ولنوضحه بهذا المثال:

تحوي الصيدلية مئات الدوارق والقناني المملوءة بموادَّ كيمياوية متنوعة، وقد احتجنا -لسبب ما- إلى معجون حيوي من تلك الأدوية والمواد لتركيب مادة حيوية خارقة مضادة للسموم.. فلما دخلنا الصيدلية وجدنا فيها أعداداً هائلة من أنواع ذلك المعجون الحيوي، ومن تلك المادة الحيوية المضادة للسموم، وعندما بدأنا بتحليل كل معجون رأيناه مركباً مستحضراً بدقة متناهية من موادَّ مختلفة طبق موازين محسوبة، فقد أُخذ من تلك القناني درهم (غرام واحد) من هذه.. وثلاثة غرامات من تلك.. وعشرة غرامات من الأخرى.. وهكذا فقد أُخِذَ من كل منها مقاديرُ مختلفة، بحيث لو كان ما أُخِذَ من هذه المقادير أقل منها بجزء من الغرام، أو أزيد، لفَقَد المعجون خواصه الحيوية...

والآن جئنا إلى «المادة الحيوية المضادة للسموم» ودققنا فيها نظراً كيمياوياً، فرأيناها قد ركّبت بمقادير معينة أُخذت من تلك القناني على وفْق موازين حساسة بحيث إنها تفقد خاصيتها لو غلطنا في الحساب فزادت المواد المركبة منها أو نقصت بمقدار ذرة واحدة.

نخلص من هذا: أنَّ المواد المتنوعة قد استُحضرت بمقادير مختلفة، على وفق موازين دقيقة. فهل يمكن أو يُعقل أن يتكون ذلك المعجونُ المحسوب كلُّ جزء من أجزائه حساباً دقيقاً من جرّاء مصادفة غريبة، أو من نتيجة تصادم القناني بحدوث زلزالٍ عاصف في الصيدلية يؤدي إلى سيلان تلك المقادير بموازينها المعينة، واتحادها بعضها بالبعض الآخر مكوناً معجوناً حيوياً؟!. فهل هناك محالٌ أغرب من هذا وأكثر بعداً عن العقل والمنطق؟! وهل هناك خرافة أخرق منها؟! وهل هناك باطل أوضح بطلاناً من هذا؟! والحمار نفسه لو تضاعفت حماقته ونطق لقال: يا لحماقة مَن يقول بهذا القول!.

وفي ضوء هذا المثال نقول: إنَّ كل كائن حي هو مركبٌ حيوي، ومعجون ذو حياة. وإن كل نبات شبيه بترياق حيوي مضاد للسموم إذ ركّب من أجزاء مختلفة ومن مواد

متباينة، على وفق موازين دقيقة في منتهى الحساسية.. فلا ريب أنَّ إسناد خلقِ هذا الكائن البديع إلى الأسباب المادية والعناصر، والقول بأن «الأسباب أوجدَته» باطلٌ ومحالٌ وبعيد عن موازين العقل بمثل بُعدِ وبطلان ومحالية تكوّن المعجون الحيوي بنفسه من سيلان تلك المواد من القناني.

وحصيلة الذي قلناه آنفاً: هي أنَّ المواد الحيوية المستحضرة بميزان القضاء والقدر للحكيم العليم في هذا العالم الكبير الذي هو صيدليةٌ ضخمة رائعة لا يمكن أن توجد إلّا بحكمةٍ لا حدّ لها، وبعلم لانهاية له، وبإرادة تشمل كل شيء وتحيط بكل شيء، وإلّا فما أشقاه من يتوهم «أن هذه الموجودات هي نتاج عناصر الكون الكلية» وهي العمياء الصماء في جريانها وتدفقها، أو هي «من شؤون طبائع المواد» أو «من عمل الأسباب المادية»!.

لاشك أن صاحب هذا الوهم هو أشقى أشقياء العالم، وأعظمُهم حماقة، وأشدّ هذياناً من هذيان مخمور فاقد للوعي عندما يخطر بباله أن ذلك الترياق العجيب قد أوجد نفسه بنفسه من جراء تصادم القناني وسيلان ما فيها!

نعم، إنَّ ذلك الكفر هذيانُ أحمقَ وجنونُ سكرانٍ.

المحال الثاني: هو أنه إنْ لم يُسنَد خلقُ كل شيء إلى الواحد الأحد القدير ذي الجلال، وأُسند إلى الأسباب المادية، يلزم عندئذ أن يكون لأغلب عناصر العالم وأسبابه دخلٌ وتأثير في وجود كل ذي حياة.

والحال أن اجتماع الأسباب المتضادّة والمتباينة فيما بينها، بانتظام تام، وبميزان دقيق وباتفاق كامل في جسم مخلوق صغير -كالذباب مثلاً- هو محال ظاهر إلى حد يرفضه مَن له عقل بمقدار جناح ذبابة، ويُردّه قائلاً: هذا محال.. هذا باطل.. هذا غير ممكن..!

ذلك لأنَّ جسم الذباب الصغير ذو علاقة مع أغلب عناصر الكائنات، ومع مظاهرها وأسبابها المادية، بل هو خلاصة مستخلصة منها، فإن لم يُسنَد إيجادُه إلى القدرة الإلهية المطلقة، يلزم أن تكون تلك الأسبابُ المادية حاضرةً ومحتشدة جَنبَ ذلك الجسم مباشرة عند إيجاده، بل يلزم أن تدخل في جسمه الضئيل، بل يجب دخولُها في حجيرة العين التي تمثل نموذج الجسم، ذلك لأنَّ الأسباب إنْ كانت ماديةً يلزم أنْ تكون قرب المسبَّب وداخلةً فيه، وعندئذٍ يقتضي

قبولُ دخول جميع العناصر في جميع أركان العالم مع طبائعها المتباينة في ذلك المسبّب دخولاً مادياً، وعملها في تلك الحجيرة المتناهية في الصغر بمهارة وإتقان أفلا يخجل ويستحي من هذا القول حتى أشد السوفسطائيين بلاهةً؟

المحال الثالث: هو أنَّ الموجود إنْ كانت له وحدة واحدة، فلابدّ أن يكون صادراً من مؤثر واحد، ومن يدٍ واحدة، حسب مضمون القاعدة البديهية المقررة: «الواحد لا يصدر إلّا عن الواحد». فإن كان ذلك الموجود في غاية الانتظام والميزان، وفي منتهى الدقة والإتقان، وكان مالكاً لحياة جامعة، فمن البداهة أنه لم يصدر من أيدٍ متعددة قط -التي هي مدعاة الاختلاف والمنازعة- بل لابد أنه صادر من يد واحدة لواحد أحد قدير حكيم؛ لذا فإن إسناد الموجود، المنتظم، المتناسق، الموزون، الواحد، إلى أيدي الأسباب الطبيعية العمياء الصمّاء الجامدة غير المنضبطة، والتي لا شعور لها ولا عقل، وهي في اختلاط شديد يزيد من عماها وصممها، ثم الإدعاء بأن تلك الأسباب هي التي تقوم بخلق ذلك الموجود البديع واختياره من بين إمكاناتٍ واحتمالات لا حدّ لها، أقول إنَّ قبول هذا الإسناد والإدعاء هو -في الحقيقة- قبول لمائة محال ومحال، إذ هو بعيد كل البُعد عن جميع مقاييس العقل وموازينه..

دعنا نترك هذا المحال ونتجاوزه مؤقتاً، لننظر إلى تأثير «الأسباب المادية» الذي يتم بالتّماس والمباشرة. فبينما نرى أن تماسَّ تلك الأسباب الطبيعية هو تماسٌّ بظاهر الكائن الحي فحسب، ونرى أن باطن ذلك الكائن الذي لا تصل إليه أيدي تلك الأسباب المادية ولا يمكنها أن تمسّه بشيء، هو أدق نظاماً، وأكثر انسجاماً، من الظاهر، بل ألطفُ منه خلقاً وأكمل إتقاناً. بل الأحياء الصغيرة والمخلوقات الدقيقة التي لا يمكن أن تستوعب تلك الأسباب المادية قطعاً ولا تصل إليها أيديها ولا وسائلُها هي أعجبُ إتقاناً من أضخم المخلوقات وأبدع خلقاً منها.

فلا يكون إذن إسناد خلقها إلى تلك الأسباب العمياء الصماء الجامدة الجاهلة الغليظة المتباعدة المتضادّة إلّا عمىً ما بعده عمىً، وصمماً ليس وراءه صمم.

أما المسألة الثانية:

وهي قولهم عن الشيء: «تشكّل بنفسه». فهي تنطوي على محالات كثيرة، ويتضح بطلانُها ومحاليتها من نواحٍ كثيرة جداً إلّا أننا نتناول هنا ثلاثة محالات منها كنماذج ليس إلّا:

المحال الأول: أيها الجاحد العنيد! إنَّ طغيان غرورك، جعلك تتردى في أحضان حماقة متناهية، فتقدِمُ على قبول مائة محال ومحال!

إنك أيها الجاحد العنيد موجودٌ بلا شك، وإنك لست من مادة بسيطة وجامدة تأبى التغيّر، بل أنت معمل عظيم متقن الصنع، أجهزتُه دائمة التجدد. وأنت كالقصر المنيف، أنحاؤه دائمة التحول.. فذراتُ وجودك أنت تعمل دوماً وتسعى دون توقف، وترتبط بوشائج وأواصر مع مظاهر الوجود في الكون من حولك، فهي في أخذ وعطاء مع الكائنات، وبخاصة من حيث الرزق، ومن حيث بقاء النوع.

إنَّ الذرات العاملة في جسدك تحتاط من أن تخل بتلك الروابط، وتتحاشى أن تنفصم تلك العلاقات، فهي حذرة في تصرفها هذا، وتتخذ موقفاً ملائماً لها على وفق تلك العلاقات كأنها تنظر إلى جميع الكائنات وتشاهدها، ثم تراقب موقعك أنت منها، وأنت بدورك تستفيد حسب ذلك الوضع الخارق لتلك الذرات وتنتفع وتتمتع بمشاعرك وحواسك الظاهرة والباطنة.

فإن لم تعتقد أن تلك الذرات موظفاتٌ صغيرات لدى القدير الأزلي، ومأموراتٌ مسخرات منقادات لقوانينه سبحانه، أو هي جنود مجندة في جيشه المنظم، أو هي نهاياتُ قلم القدر الإلهي، أو هي نقاط ينقطها قلم القدرة الإلهية.. لزمك أن تقول إنَّ لكل ذرة عاملة -في عينك مثلاً- عيناً واسعة بصيرة، ترى جميعَ أجزاء جسدك ونواحيه، وتشاهد جميعَ الكائنات التي ترتبط بها، وتعلم جميعَ ماضيك ومستقبلك، وتعرف أصلك وآباءك وأجدادك مع نسلك وأحفادك وتدرك منابع عناصرك، وكنوز رزقك.. فهي إذن ذات عقل جبار!!

فيا معطّل عقله في مثل هذه المسائل! أليس في إسناد هذا العلم والشعور والعقل الذي يسع ألفاً من مثل «أفلاطون» إلى ذرة في عقل مَن لا يملكه مثلك، خرافة خرقاء، وبلاهة بلهاء؟!.

المحال الثاني: إنَّ جسمك أيها الإنسان يشبه قصراً فخماً عامراً، له من القباب ألف قُبَّةٍ وقُبَّة، وكل قُبَّةٍ من قبابه مُعَلقة فيها الأحجارُ، ومرصوصة بعضها إلى البعض الآخر في بناء محكَم دون عمد. بل إن وجودك -لو فكرت- هو أعجبُ من هذا القصر بألوف المرات، لأنَّ قصر جسمك أنت في تجدد مستمر يبلغ الكمال في الانتظام والروعة.

فلو صرفنا النظر عما تحمله من روح ومن قلب ومن لطائف معنوية وهي معجزةٌ بذاتها، وأخذنا بنظر الاعتبار والتفكر عضواً واحداً فقط من أي عضو كان من بين أعضاء جسدك نراه شبيهاً بمنزلٍ ذي قباب. فالذرات التي فيه قد تعاونَت وتعانقت بعضها مع البعض الآخر، في انتظام تام، وموازنة كاملة -كالأحجار في تلك القباب- وكونت بناءً خارقاً، وصنعة رائعة بديعة، فأظهرت للعيان معجزة عجيبة من معجزات القدرة الإلهية «كالعين واللسان» مثلاً.

فلو لم تكن هذه الذرات مأمورةً منقادة لأمر الصانع القدير، فإن كل ذرة منها إذن لابد أن تكون حاكمةً حُكماً مطلقاً على بقية ذرات الجسد ومحكومةً لها حُكماً مطلقاً كذلك، وأن تكون مثل كلٍ منها، وضدّ كل منها -من حيث الحاكمية- في الوقت نفسه وأن تكون مناط أغلب الصفات الجليلة التي لا يتصف بها إلّا الله سبحانه وتعالى، وأن تكون مقيدةً كلياً، وطليقةً كلياً في الوقت نفسه...

فالمصنوع الواحد المنتظم والمنسق الذي لا يمكن أن يكون -بسر الوحدانية- إلّا أثراً من آثار الواحد الأحد محالٌ أن يُسند إلى تلك الذرات غير المحدودة، بل هو مائة محال في محال...! يدرك ذلك كل من له مِسكةٌ من عقل!

المحال الثالث: إنْ لم يكن وجودُك هذا قد كتب بقلم الواحد الأحد القدير الأزلي، وكان مطبوعاً بمطابع الطبيعة والأسباب، فيلزم عندئذٍ وجود قوالب طبيعية بعددِ ألوف الألوف من المركبات المنتظمة العاملة في جسمك، والتي لا يحصرها العد، ابتداءً من أصغر الخلايا العاملة بدقة متناهية وانتهاءً بأوسع الأجهزة العاملة فيه.

ولفهم هذا المحال نأخذ الكتاب الذي بين أيدينا مثالاً، فنقول:

إنْ اعتقدتَ أنَّ هذا الكتاب مستنسخ باليد، فيكفي إذن لاستنساخه قلمٌ واحد، يُحرِكه علمُ كاتبه ليدوّن به ما يشاء، ولكن إن لم يُعتقد أنه مستنسخ باليد ولم يُسند إلى قلم الكاتب،

وافترِض أنه قد تشكّل بنفسه، أو أُسندت كتابتُه إلى الطبيعة، فيلزم عندئذٍ أن يكون لكل حرفٍ من حروفه قلمٌ معدني خاص به، ويكون عدد الأقلام بعدد تلك الحروف -بمثل وجود الحروف المعدنية في المطبعة والتي هي بعدد الحروف وأنماطها- أي يلزم وجودُ أقلام بعدد الحروف بدلاً من قلم واحد للاستنساخ، وقد يكون هناك في تلك الحروف، حروفٌ كبيرة مكتوب فيها بخط دقيق ما في صحيفة كاملة، فيلزم إذن لكتابة مثل هذه الحروف الكبيرة ألوف الأقلام الدقيقة.

والآن ماذا تقول لو كانت تلك الحروف متداخلةً بعضها بالبعض الآخر بانتظام كامل متخذةً هيأة جسدك وشكله؟! فيلزم عندئذٍ أن يكون لكل جزء من أجزاء كل دائرة من دوائره المذكورة قوالبُ عديدةٌ بعدد تلك المركبات التي لا يحصرها العدّ!

هَبْ أنك تقول لهذه الحالة المتضمنة لمائة محال في محال، أنها ممكنةَ الحدوث! فحتى في هذه الحالة -على فرض إمكانها- أفلا يلزم لصنع تلك الأقلام وعمل تلك القوالب والحروف المعدنية أقلامٌ وقوالب وحروفٌ بعددها لتصبّ وتسكب فيها إنْ لم يُسند صنعُها جميعاً إلى قلم واحد؟ ذلك لأنَّ جميعها مصنوعة ومحدثة منتظمة، ومفتقرة إلى صانع ليصنعها، ومُحدِثٍ ليحدثها، وهكذا الأمر يتسلسل كلما أوغلت فيه. فافهم من هذا مدى سقم هذا الفكر الذي يتضمن محالات وخرافات بعدد ذرات جسمك!

فيا أيها الجاحد... عُد إلى عقلك وانبذ هذه الضلالة المشينة!

الكلمة الثالثة:

والتي هي قولهم عن الشيء: «اقتضته الطبيعة». فهذا الحُكم له محالاتٌ كثيرة جداً، نذكر ثلاثة منها على سبيل المثال:

المحال الأول: هو الإتقان والإيجاد المتَّسمَين بالبصيرة والحكمة الظاهرَين في الموجودات ظهوراً جلياً، ولاسيما في الأحياء، إنْ لم يُسندا إلى قلم «القدر الإلهي» وإلى قدرته المطلقة، وأسندا إلى «الطبيعة» العمياء الصماء الجاهلة وإلى «القوة» يلزم أن توجِدَ الطبيعةُ -من أجل الخلق- مطابعَ ومكائنَ معنوية لا حد لها في كل شيء أو تدرجَ في كل شيء قدرةً قادرة على خلق الكون كله، وحكمةً مدبرة لإدارة شؤونه كلها.

مثال ذلك: إنَّ تجلياتِ الشمس وانعكاساتِها الضوئية، وبريقَ لمعانها المشاهَد على قطرات الماء الرقراقة المتلألئة، أو على القطع الزجاجية المتناثرة هنا وهناك على سطح الأرض، مما يخيل للناظر السطحي النظر أنها صورٌ لشُميسات مثالية. فإن لم تُنسَب هذه الانعكاسات واللمعات إلى الشمس الحقيقية التي تطالعنا بشعاعها الغامر يلزم الاعتقاد بشمس طبيعية فطرية صغيرة ظاهرية تملك صفاتِ الشمس نفسها وتتصف بخصائصها، موجودةٍ وجوداً فعلياً في تلك القطعة الزجاجية الصغيرة -التي لا تسع لأدنى شيء- أي يلزم الاعتقاد بوجود شموس بعدد ذرات القطع الزجاجية.

وفي ضوء هذا المثال نقول: إنْ لم يُسنَد خلقُ الموجودات والأحياء إسناداً مباشراً إلى تجليات أسماء الله الحسنى الذي هو نور السماوات والأرض يلزم الاعتقاد إذن بوجود طبيعةٍ وقوة تملكان قدرةً مطلقة وإرادة مطلقة مع علم مطلق وحكمةٍ مطلقة في كل موجود من الموجودات، ولاسيما الأحياء، أي يلزم قبولُ ألوهية وربوبية في كل موجود.

فهذا النمط من التفكير المعوج لهو أشد بطلاناً من أي محال آخر، وأكثر خرافة منه، فالذي يسند ما أبدعه الخالقُ العظيم من صنعة رائعة دقيقة، ظاهرة جلية حتى في أصغر مخلوق إلى يدِ الطبيعة الموهومة، التافهة التي لا تملك شعوراً لا شك أنه يتردى بفكره إلى درك أضل من الحيوان.

المحال الثاني: هو أنَّ هذه الموجودات التي هي في غاية الانتظام، وفي منتهى الروعة والميزان، وفي تمام الإتقان، وكمال الحكمة والاتّزان؛ إنْ لم تُسند إلى من هو قديرٌ مطلق القدرة، وحكيمٌ مطلق الحكمة، وأُسندت إلى الطبيعة، يلزم الطبيعة أنْ تحضر في كل حفنة تراب، معاملَ ومطابع بعددِ معامل أوروبا ومطابعها، كي تتمكن تلك الحفنة من أن تكون منشأ الأزهار والأثمار الجميلة اللطيفة؛ لأنَّ تلك الحفنة من التراب التي تقوم بمهمة مشتل صغير للأزهار تظهر قابلية فعلية لاستنبات وتصوير ما يلقى فيها بالتناوب من بذور جميع أزهار العالم وثماره، وبأشكالها، وهيئاتها المتنوعة، وألوانها الزاهية. فإن لم تسند هذه القابلية إلى قدرة الفاطر الجليل القادر على كل شيء.. فلابد إذن أن توجد في تلك الحفنة ماكنة معنوية طبيعية خاصة لكل زهرة من أزهار العالم وإلّا لا يمكن أن يظهر ما نشاهده من أنواع الأزهار والثمار إلى الوجود!

إذ البذور -كالنطف والبيوض أيضاً- موادُّها متشابهة اختلط وعُجن بعضها ببعض بلا شكل معين وهي مولد الماء ومولد الحموضة والكربون والآزوت. علماً أنَّ كلاً من الهواء والماء والحرارة والضوء أشياء بسيطة لا تملك عقلاً أو شعوراً، وهي تتدفق كالسيل في كل شيء دونما ضابط. فتشكيل تلك الأزهار التي لا تحد من تلك الحفنة من التراب بصورها المتنوعة البديعة وأشكالها المختلفة الزاهية وبهيئاتها المتباينة الرائعة وهي في منتهى الانتظام والإتقان تقتضي بالبداهة وبالضرورة أنْ توجد في تلك الحفنة من التراب مصانعُ ومطابعُ معنوية بمقاييس صغيرة جداً أكثر مما في أوروبا من مصانع ومطابع، كي تتمكن أن تنسج تلك المنسوجات الحية التي لا تعد، وتطرز تلك النقوش الزاهية المتنوعة التي لا تحصى.

فيا لبُعد ما يحمله الطبيعيون من فكرٍ إلحادي عن جادة العقل السليم! اعلم هذا، وقِسْ مدى بُعد أولئك الذين يدّعون أنهم عقلاء وعلميون عن موازين العقل والعلم بتوهمهم أنَّ الطبيعة موجِدةٌ للأشياء.. أولئك الذين اتخذوا خرافةً ممتنعة وغير ممكنة إطلاقاً، مسلكاً لهم، فاسخر منهم، واحتقرهم.

ولسائل أنْ يسأل: صحيح أنَّ محالات كثيرة، ومعضلات عظيمة تنجم عندما يُسند خلق الموجودات إلى الطبيعة، ولكن كيف تزول هذه المشكلات، وتنحل هذه المعضلات عندما نسند عملية الخلق برمتها إلى الواحد الأحد الفرد الصمد؟ وكيف ينقلب ذلك الامتناع الصعب إلى الوجوب السهل؟

الجواب: إنَّ تجليات الشمس وانعكاساتها -كما ذُكرَ في المحال الأول- أظهرت نفسها بكل سهولة، ومن دون تكلف أو صعوبة في جميع المواد ابتداءً من الجامد الصغير المتناهي في الصغر -كقطع الزجاج- إلى أوسع السطوح للبحار والمحيطات، فأظهرت على الكل فيضَها وأثرها في منتهى السهولة، وكأن كلاً منها شُميسات مثالية. فلو قُطعَت نسبةُ تلك الانعكاسات إلى الشمس الحقيقية، فلابد من الاعتقاد بوجود شمس طبيعية في كل ذرة من الذرات وجوداً ذاتياً خارجياً. وهذا ما لا يقبله عقل، بل هو ممتنع ومحال.

فكما أنَّ الأمر في المثال هو هكذا، كذلك إسنادُ خلق كل موجود إسناداً مباشراً إلى الواحد الأحد الفرد الصمد فيه من السهولة المتناهية بدرجة الوجوب، إذ يمكن إيصال ما

يلزم أي موجود إليه، بكل سهولة ويسر، وذلك بالانتساب وبالتجلي. بينما إذا ما قُطع ذلك الانتساب، وانقلب الاستخدام والتوظيف والطاعة إلى الانفلات من الأوامر والعصيان، وترك كل موجود طليقاً يسرح كيفما يشاء، أو أُسند الأمر إلى الطبيعة، فستظهر مئاتُ الألوف من المشكلات والمعضلات بدرجة الامتناع، حتى نرى أن خلق ذبابة صغيرة يقتضي أنْ تكون الطبيعةُ العمياء التي فيها مالكةً لقدرة مطلقة تتمكن بها من خلق الكون كله، وأن تكون -مع ذلك- ذات حكمةٍ بالغة تتمكن بها من إدارته، حيث إن الذبابة -رغم صغرها- بديعةُ الصنع، تنطوي على أغلب مكونات الكائنات وكأنها فهرس مختصر لها..

وهذا ليس بمحال واحد فحسب بل ألف محال ومحال..!

الخلاصة: كما أنه محالٌ وممتنعٌ وجودُ نظيرٍ أو شريك لله سبحانه وتعالى في ألوهيته، كذلك ممتنعٌ ومحال مثله أنْ تكون هناك مداخلةٌ من غيره في ربوبيته، أو مشاركة له من أحد في إيجاده الأشياء وخلقها..

أما المشكلات التي في «المحال الثاني» التي أثبتناها في عديد من الرسائل؛ فهي: أنه إذا ما نُسِبَ خلقُ جميع الأشياء إلى الواحد الأحد، يسهل ذلك الخلق كما يسهل خلقُ شيء واحد. بينما إذا ما نُسِبَ الخلق إلى الأسباب وإلى الطبيعة يصبح خلقُ الشيء الواحد وإيجادُه مُشكلاً وصعباً، كخلق الجميع. وحيث إننا سبق أن أثبتنا هذا ببراهين دامغة، نورد هنا ملخص برهان واحد فقط:

إذا انتسب أحدٌ إلى السلطان بالجندية أو بالوظيفة الحكومية، فإنه يتمكن من أن ينجز من الأمور والأعمال أضعاف أضعاف ما يمكنه إنجازُه بقدرته الشخصية، وذلك بقوة ذلك الانتساب السلطاني. فمثلاً يستطيع أن يأسر قائداً كبيراً باسم سلطانه، مع أنه جندي. حيث تحمل خزائنُ السلطان وقطعاتُ الجيش الأجهزةَ والأعتدة لما يقوم به من أعمال، فلا يحملها هو وحده، كما أنه ليس مضطراً إلى حملها. كل ذلك بفضل انتسابه إلى السلطان، لذا تظهر منه أعمالٌ خارقة كأنها أعمال سلطان عظيم، وتبدو له آثار -فوق ما تبدو منه عادةً- وكأنها آثارُ جيش كبير رغم أنه فرد. فالنملة -من حيث تلك الوظيفة- تتمكن من تدمير قصر فرعون طاغٍ، والبعوضةُ تستطيع أن تهلك نمروداً جباراً بقوة ذلك الانتساب.. والبذرة

الصغيرة للصنوبر الشبيهة بحبة الحنطة تنشئ بذلك الانتساب جميعَ أجهزة شجرة الصنوبر الضخمة.[١] فلو انقطع ذلك الانتساب، وأُعفي الموجود من تلك الوظيفة، فعليه أنْ يحمل على كتفه قوة ما ينجزه من أعمال وينوء كاهله بلوازمها ومعداتها. وبذلك لا يمكنه القيام بأعمال سوى أعمال تتناسب مع تلك القوة الضئيلة المحدودة المحمولة على ذراعه، بما يناسب كميةَ المُعدات واللوازم البسيطة التي يحملها على ظهره، فلو طلب منه أنْ يقوم بأعمالٍ كان يقوم بها بسهولة ويسر في الحالة الأولى لأظهر عجزه، إلّا إذا استطاع أنْ يُحمّل ذراعَه قوة جيش كامل، ويردف على ظهره معامل أعتدة الدولة الحربية!!

إنَّ صاحب هذا الخيال السابح في فضاء الوهم والخرافة يتوارى خجلاً مما يقول.

نخلص من كل ما تقدم إلى:

أنَّ تسليمَ أمرِ كل موجود وتنسيبه إلى واجب الوجود سبحانه فيه السهولة التامة بدرجة الوجوب. أما إسنادُ إيجاده إلى الطبيعة فهو معضل إلى حد الامتناع وخارج عن دائرة العقل.

المحال الثالث: نوضح هذا المحال بمثالين قد بيّناهما في بعض الرسائل؛ هما:

المثال الأول: يدخل إنسان بدائي ساذج التفكير، لم يكن يملك أي تصوّر حضاري مسبَقٍ؛ يدخل هذا الشخص قصراً فخماً بديعاً، يزهو بزينته، ويختال بأرقى ما وصلت إليه الحضارة من وسائل الأبّهة والراحة، ويتلألأ بأضوائه في عتمة فلاةٍ خاليةٍ موحشة، فيدلف إليه، ويدور في أرجائه، فتشدَهُه براعةُ بنائه، ونقوش جدرانه، وروعة إتقانه.. وبكل سذاجة تصوره وبلاهته يمنح القصر حياةً، ويعطيه قدرةَ تشييد نفسه بغُرفه وأبهائه، وصوره الجميلة، ونقوشه الأخّاذة، لا لشيء إلّا لكونه قاصراً عن تصور وجود أحد -خارج هذا القصر- وفي هذه الفلاة يمكنه أن ينسب إليه بناء هذا القصر، لذا فقد طفق يتحرى عن «الباني» داخل القصر لعله يعثر عليه بين أشياء القصر، فما من شيء وقع عليه بصرُه إلّا وتردد فيه وشكّ في

(١) نعم، إذا حصل الانتساب، فإن تلك البذرة تتسلم أمراً من القدر الإلهي، وتنال شرف النهوض بتلك الأعمال الخارقة، ولكن إذا انقطع ذلك الانتساب فإن خلق تلك البذرة يقتضي أجهزةً وقدرةً ومهارةً هي أكثر بكثير مما يحتاج خلق شجرة الصنوبر الضخمة، وذلك لان جميع أعضاء شجرة الصنوبر التي تكسو الجبال وتضفي عليها الجمال والروعة والتي تمثل أثراً مجسماً واضحاً للقدرة الإلهية، يلزم أن تكون موجودة في الشجرة المعنوية التي هي أثر القَدر والمندمجة في تلك البذرة، لأن مصنع تلك الشجرة الضخمة يكمن في تلك البذرة، وأن ما في تلك البذرة من شجرة قدرية تتظاهر بالقدرة الإلهية في الخارج خارج البذرة وتتشكل شجرة صنوبر مجسمة. (المؤلف).

كونه قادراً على إيجاد مثل هذا القصر الذي يملأ أقطار النفس والعقل بروعة صنعه، وجمال بنائه. وتقوده قدماه إلى زاوية من زوايا القصر ويعثر فيها فجأةً على دفتر ملاحظات كان قد دونت فيه خطة مفصلة لعملية بناء القصر، وخُطّ فيه أيضاً فهرس موجوداته وقوانين إدارة ممتلكاته. ورغم أن ذلك الدفتر كمحتوياته، ليس من شأنه تشييد القصر وتزيينه، إذ لا يملك يداً يعمل بها، ولا بصيرةً يبصر بها، إلّا أنه تعلق به إذ وجده متطابقاً بمحتوياته، مع مجاميع أشياء القصر، ومنسجماً مع سير العمل فيه -إذ هو عنوان قوانين الله العلمية- لذا قال مضطراً: «إن هذا الدفتر هو الذي شيّد هذا القصر ونظّمه وزيّنه، وهو الذي أوجد الأشياء فيه ورتبها هذا الترتيب ونسقها هذا التنسيق»... فكشف بهذا الكلام عن مدى عُمق جهله، وتأصل حماقته.

وعلى غرار هذا المثال تماماً، يدلف إلى قصر العالم العظيم -الذي هو أدق نظاماً وأكملُ إتقاناً، وأجمل صُنعاً، وأزهى جمالاً، من ذلك القصر الصغير المحدود المذكور آنفاً في المثال، حيث لا يقبل المقايسة والموازنة معه، فكل ناحية من نواحيه تشع معجزاتٍ بديعةً وحكماً ساميةً- يدلف واحد ممّن يدينون بفكرة الطبيعة وينكرون عظمة الألوهية إلى هذا القصر، واضعاً في ذهنه -مُسبَقاً- الإعراض عما هو مبثوث أمامه من آثار صنعة الله سبحانه المنزّه عن المخلوقات، المتعالي عن الممكنات.. ويبدأ بالبحث والتحري عن السبب «الموجد» ضمن الممكنات والمخلوقات! فيرى قوانينَ السنن الإلهية، وفهارسَ الصنعة الربانية. والتي يطلق عليها خطأً -وخطأً جسيماً- اسمَ الطبيعة التي يمكن أن تكون شبيهةً بصفحة من كراسة «التغيير والتبديل» لقوانين إجراءات القدرة الإلهية، وبمثابة لوحة «المحو والإثبات» للقدر الإلهي، ولكنه ينبري إلى القول:

مادامت هذه الأشياء مفتقرةً إلى علّةٍ موجِدةٍ، ولا شيء أعظم ارتباطاً بها، من هذه «الكراسة» فأني أخلُص من ذلك إلى أن هذه «الكراسة» -بما تتضمنه من قوانين المحو والإثبات- هي التي أوجدت الأشياء، مادام لا يطيبُ لي الاعتقاد والإيمان بالصانع الجليل سبحانه. برغم أنَّ العقل المنزّه عن الهوى يرفض كلياً -ضمن منطقه- أن ينسب شؤون الربوبية المطلقة -والتي تقتضي قدرةً مطلقةً- إلى هذه «الكراسة» العمياء الصماء العاجزة.

ونحن نقول: يا أحمقَ من «هَبَنَّقة»![1] أطِلَّ برأسك من تحت مستنقع الطبيعة.. لترى الصانع الجليل الذي تشهد له جميعُ الموجودات، من الذرات إلى المجرات، بألسنة متنوعة، وتشير إليه إشارات مختلفة.. وشاهد تجليات ذلك المصوّر الجليل الذي شيّد قصر العالم الباذخ، ودوّن خطته وبرنامجه وقوانينه في تلك الكراسة.. وأنقذ نفسك من ذلك الهذيان الآثم الرخيص!

المثال الثاني: يدخل إنسانٌ معزولٌ عن عالم المدنية والحضارة، وسط معسكر مهيب، فيبهرُه ما يشاهد من تدريبات متنوعة يؤديها -بغاية الانتظام والإتقان ومنتهى الطاعة والانقياد- جنودُ هذا المعسكر، فيلاحظ حركاتهم المنسقةَ وكأنها حركة واحدة يتحرك الجميع -فوجاً ولواءً وفرقةً- بحركةِ فرد واحد منهم، ويسكن الجميعُ بسكونه، يطلق الجميع النار إطلاقاً واحداً إثر أمر يصدره ذلك الفرد.. فحارَ في أمره، ولم يكن عقله الساذج ليدرك أنَّ قيادة قائد عظيم هو الذي ينفذ أوامره بأنظمة الدولة وأوامر السلطان، فتخيل حبلاً يربط أولئك الجنود بعضهم بالبعض الآخر.. ثم بدأ يتأمل خيالاً، مدى أعجوبة هذا الحبل الموهوم. فزادت حيرتُه واشتدّ ارتباكه. ثم يمضي إلى شأنه.

ويدخل جامع «آيا صوفيا» العظيم، يوم الجمعة ويشاهد جموعَ المصلّين خلف رجل واحد يمتثلون لندائه في قيامهم وقعودهم وسجودهم وركوعهم، ولمّا لم يكن يعرف شيئاً عن الشريعة الإلهية، والدساتير المعنوية لأوامر صاحب الشريعة، فإنه يتصور، بأن هذه الجماعة مرتبطة ببعضها البعض بحبال مادية، وأن هذه الحبال قد قيدت حركة الجماعة وأسَرتهم، وهي التي تحركهم وتوقفهم عن الحركة.

وهكذا يمضي إلى سبيله وقد امتلأ ذهنُه بأخطاء تصوراته، التي تكاد تثير الهزء والسخرية حتى لدى أشد الناس وحشية وهمجية.

ففي ضوء هذا المثال: يأتي ملحدٌ إلى هذا العالم الذي هو معسكر مهيب رائع لجنود

---

(١) مثل يضرب لشدة الغباء والحماقة. ومن حُمْقه أنه جعل في عُنُقه قِلادة من وَدَع وعِظام وخَزَف، وهو ذو لحية طويلة، فسُئِل عن ذلك، فقال: لأعرف بها نفسي، ولئلا أضل، فبات ذات ليلة وأخَذَ أخوه قلادتَه فتقلّدها، فلما أصبح ورأى القلادة في عنق أخيه قال: يا أخي أنت أنا فمن أنا؟. (الميداني، مجمع الأمثال ١١٦٩؛ العسكري، جمهرة الأمثال ١/ ٣٨٥؛ الزمخشري، المستقصى ١/ ٨٥).

السلطان الجليل، وهو مسجد عظيم بارع يعظَّم فيه ذلك المعبود الأزلي ويقدَّس؛ يأتيه وهو يحمل فكرة «الطبيعة» الجاحدة ذلك الجهل المطبق..

فيتصور «القوانين المعنوية» التي يشاهد آثارَها في ربط أنظمة الكون البديع، والنابعة من «الحكمة» البالغة للبارئ المصور سبحانه، يتصورها كأنها قوانين مادية، فيتعامل معها في أبحاثه كما يتعامل مع المواد، والأشياء الجامدة..

ويتخيل أحكام قوانين الربوبية التي هي قوانين اعتبارية ودساتير الشريعة الفطرية الكونية للمعبود الأزلي، والتي هي بمجموعها معنوية بحتة، وليس لها وجود سوى وجود علمي، يتخيلها وكأنها موجودات خارجية ومواد مادية..

ويقيم تلك القوانين الصادرة من العلم الإلهي والكلام الرباني التي لها وجود علمي فقط مقام القدرة الإلهية، ويملّكها الخلق والإيجاد، ويطلق عليها اسم «الطبيعة»، متصوراً القوة التي هي تجلٍ من تجليات القدرة الربانية، أنها صاحبة قدرة فاعلة، وقديراً مستقلة القدرة بذاتها:

أ فبعد هذا جهالة وغباء؟ أوَ ليس هذا جهلاً بأضعاف أضعاف ما في المثال؟!

الخلاصة: إنَّ الطبيعة التي يتعلق بها الطبيعيون ذلك الأمر الموهوم الذي ليس له حقيقة، إنْ كان ولابد أنها مالكة لوجود حقيقي خارجي فإن هذا «الوجود» إنما هو صنعةُ صانعٍ ولن يكون صانعاً، وهو نقشٌ ولن يكون نقاشاً، ومجموعة أحكام ولن يكون حاكماً، وشريعة فطرية ولن يكون شارعاً، وستار مخلوق للعزة، ولن يكون خالقاً، وفطرة منفعلة ولن يكون فاطراً فاعلاً، ومجموعةُ قوانين ولن يكون قادراً، ومِسطَر ولن يكون مصدراً.

وحاصل الكلام: مادامت الموجودات موجودةً فعلاً، والعقل يعجز عن تصور أكثر من أربعة طرق للوصول إلى حدوث الموجود -كما ذكرنا ذلك في المقدمة- وقد أثبتَ إثباتاً قاطعاً بطلان ثلاثة من تلك الطرق الأربعة، وذلك ببيان ثلاثة محالات ظاهرة جلية في كل منها، فلابد وبالضرورة والبداهة أن يثبت بيقين لا سبيل مطلقاً إلى الشك فيه الطريق الرابع، وهو طريق الوحدانية ذلك الطريق الذي تنيره الآية الكريمة: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ..﴾ (إبراهيم: ١٠). والتي تدل بداهةً ويقيناً على وجود واجب الوجود،

وعلى ألوهيته المهيمنة، وعلى صدور كل شيء من يد قدرته، وعلى أن مقاليد السماوات والأرض بيده سبحانه وتعالى.

فيا عابد الأسباب! أيها المسكين المفتون بالطبيعة!

ما دامت طبيعةُ كل شيء مخلوقة كالشيء نفسه، لأن تكونَها محدَثٌ -غير قديم- وعليها علامةُ الصنعة والإتقان، وأن سبب وجود هذا الشيء الظاهري هو أيضاً مصنوعٌ حادثٌ. ولما كان وجود أي شيء مفتقراً إلى وسائلَ وآلات وأجهزة كثيرة جداً..

فلابُدّ من قدير مطلق القدرة ليخلق تلك الطبيعة في الشيء، ويُوجِد ذلك السبب له، ولا بد أن يكون -هذا القدير المطلق القدرة- مستغنياً غناءً مطلقاً، فلا يشرك الوسائط العاجزة في إيجاده للشيء وفي هيمنة ربوبيته عليه.

فحاشَ لله أنْ يكون سواهُ القدير المستغني المتعال، بل هو سبحانه وتعالى يخلق المسبّب والسبب معاً من علوّه خلقاً مباشراً، ويوجِد بينهما سببية ظاهرية وصورية، ويقرن بينهما من خلال ترتيب وتنظيم، جاعلاً من الأسباب والطبيعة ستاراً ليد قدرته الجليلة، وحجاباً لعظمته وكبريائه، ولتبقى عزتُه منزّهةً مقدسة في عليائها، ويجعل تلك الأسباب موضعَ الشكوى لما يتراءى من نقائص، ولما يتصور من ظلم ظاهري في الأشياء.

أيها أسهل على الفهم، وأقرب معقوليةً إلى الذهن: تصور «ساعاتي» يصنع تروس الساعة ومعداتها، ثم ينظمها على وفق ترتيب تروسها، ويوازن بين حركات عقاربها بدقة متناهية، أم أن نتصور الساعاتي يصنع في تروس الساعة وعقاربها ودقيق آلاتها ماكنة خارقة الفِعال يُسلّمُ صنع الساعة إلى جمادية أيديها؟! قل معي: أليس هذا كلاماً فارغاً ومحالاً وخارجاً عن حدود الإمكان؟ فهيا خاطب أنت عقلك المجحف وكُنْ أنت القاضي والحَكَم.

وأيها يكون مُستساغاً ومقبولاً في منطق العقل: تصور كاتب يخط كتاباً بنفسه بعد أن يحضر لوازم الكتابة؛ من مِداد وقلم وورق، أم تصور إيجاد ذلك الكاتب مطبعة خاصة بذلك الكتاب وهي أعقد وأدق من الكتاب نفسه يترك لها أمر كتابة هذا الكتاب فيخاطبها قائلاً: هيا اشرعي أنت بكتابة الكتاب.. من دون تدخل من قبله؟

أليس مثل هذا التصور السقيم مُعضلاً عقلاً؟ ومشكلاً بأضعاف أمر الكتابة نفسها؟!

وإذا قلت: إنَّ إيجاد مطبعة لطبع الكتاب أعقد وأصعب من الكتاب نفسه، إلّا أنّ ماكنة المطبعة، قادرة على إصدار آلاف النسخ من الكتاب في مدة قصيرة. وهذا وسيلة التيسير.

الجواب: إن البارئ المصور سبحانه قد خلق بقدرته المطلقة، بتجديد تجليات أسمائه الحسنى وإظهارها على أشكال مختلفة، تشخصات الأشياء وملامحها، الخاصة بها، بحيث لا يشبه مخلوق مخلوقاً آخر تشابهاً تاماً ومتطابقاً قط، وهو كتابٌ صمداني، ومكتوبٌ رباني.

نعم، إنه لأجل أن يفي كل مخلوق بمعاني وجوده، لابدّ أن يملك سيماءً يُعرف بها ويخالف بها الآخرين، وملامحَ تباين ملامح غيره. فانظر ودقق النظر في وجه الإنسان ترَ أن علاماتٍ فارقة قد احتشدت في هذا الوجه الصغير، بحيث تميز هذه العلامات صاحبها عن جميع الوجوه الأخرى المتتابعة منذ زمن آدم عليه السلام حتى اليوم، وإلى الأبد، رغم التشابه والاتفاق في الماهية الإنسانية، والكينونة البشرية، وهذا واضح جلي وثابت قطعاً.

فملامح كلّ وجهٍ كتابٌ خاص بالوجه نفسه، وهو كتابٌ مستقلٌ بذاته عن غيره.. فلأجل إخراج هذا الكتاب الخاص، وإتقان صنعه وتنظيمه، يستوجب الأمر وجودَ مجموعة أبجدية كاملة من الحروف، ومناسِبة حجماً له، ويتطلب تنضيد هذه الحروف في مواضعها من لوحة التنضيد، ليتم بعد ذلك مؤلف خاص بهذا الوجه يخالف تأليف الآخرين.

ويستلزم هذا الأمر جلب موادِ صُنعه الخاصة به، ثم وضعها في أماكنها المخصصة لها، ثمّ إدراج كل ما يلزم وجود هذا الوجه -في الوجه نفسه- من عناصر البناء. وهذا كله لاشك يحتاج إلى مصنع مستقل خاص به أي إلى مطبعة خاصة في كل أشيائها لكل وجه من الوجوه، ثم أَلَا تحتاج هذه المطبعة الخاصة -على فرض وجودها- إلى تنظيم معين، وتنسيق مخصوص، فأمر الطبع نفسه -دع عنك تنسيق الحروف وترتيبها وتنظيمها- هو أيضاً بحاجة إلى تنظيم؟..

فالمواد الموجودة في جسم كل كائن حي هي أكثر تعقيداً وأدق تنظيماً من مواد المطبعة وتنظيمها بمئات الأضعاف، فجلب هذه المواد من أقطار العالم، ضمن حسابات معينة، وموازين دقيقة، ثم تنضيدها حسب مقتضيات الحاجة إليها، وأخيراً وضعها تحت يد تلك

المطبعة... هذه السلسلة الطويلة من الإجراءات تحتاج -أولاً وقبل كل شيء- إلى موجِد يوجد تلك المطبعة المفترضة، وليس هو إلّا القدرة الفاطرة للخالق القدير وإرادته النافذة.

إذن فاحتمال كون الطبيعة كأنها مطبعة، خرافة فاضحة لا معنى لها على الإطلاق.!

وهكذا على غرار ما شاهدناه في مثال «الساعة والكتاب»: إنَّ الصانع ذا الجلال وهو القادر على كل شئ، هو نفسه خالق الأسباب، وخالق المسبّبات، وهو الذي يربط المسبّبات بالأسباب بحكمته سبحانه، وقد عين بإرادته طبيعة الأشياء، وجعلها مرآة عاكسة لتجليات الشريعة الفطرية الكبرى التي فطر عليها الكون، والتي هي قوانين الله وسننه الجارية التي تخص تنظيم شؤون الكون، وقد أوجد بقدرته وجه «الطبيعة» التي يقوم عليها عالم الشهادة الخارجي الوجود، ثم خلق الأشياء وأنشأها على تلك الطبيعة ومازج بينهما بتمام الحكمة.

والآن نحيل الأمر إلى إنصاف عقلك المجحف ليرى: أيهما يستسيغه عقلك ويسهل عليه الاعتقاد به؟ أ هذه الحقيقة المعقولة النابعة من براهين دامغة غير محدودة -وهي مُلزمة إلى حدّ الوجوب- أم إعطاء ما يلزم للأشياء من أجهزة وأعضاء لا تحد، وإسناد أعمال تتسم بالحكمة والبصيرة إلى الشيء نفسه؟! أو نسبتها إلى ما تسمونه بـ«الطبيعة» والأسباب التي هي مواد جامدة خالية من الشعور وهي مخلوقة مصنوعة؟ أليست هذه خرافة ممتنعة وخارجة عن نطاق الإمكان؟

يجيب عابد الطبيعة -ذلك الجاحد- قائلاً: ما دمت تدعوني إلى الإنصاف فأنا أعترف: بأنَّ ما سلكناه من طريق مضلّ إلى الآن مثلما أنه محال بمائة محال فهو مضر أيما ضرر، وهو في منتهى القبح والفساد. إنَّ مَن كان له مسكة من عقل يدرك من محاكماتكم العقلية، وتحقيقاتكم العلمية المسندة بالبراهين والمذكورة آنفاً، أن إسناد الإيجاد والخلق إلى الأسباب وإلى الطبيعة ممتنع عقلاً ومحال قطعاً، بل الواجب والضروري الملزم للعقل هو إسناد كل شيء مباشرة إلى واجب الوجود سبحانه، فاحمد الله الذي هداني إلى هذا الإيمان.

ولكن بقيتْ لدىّ شبهة واحدة فقط وهي: أنني أُؤمِن بالله ربّاً وأنه خالق كل شيء، ولكنني أتساءل: ماذا يضر عظمتَه سبحانه، وماذا يضر سلطانه جلّ وعلا، أن نتوجه ببعض

المدح والثناء إلى بعض الأسباب الجزئية في إيجادها الأشياء الصغيرة التافهة، فهل ينقص ذلك شيئاً من سلطانه سبحانه وتعالى؟!

والجواب: كما أثبتنا في قسم من الرسائل إثباتاً قاطعاً: أنَّ شأن الحاكمية «ردُّ المداخلة» ورفضُها كلياً، بل إن أدنى حاكم، أو أي موظف بسيط لا يقبل تدخلاً حتى من ابنه ضمن حدود حاكميته، بل إن توهم التدخل في الحاكمية قد دفع بعض السلاطين إلى قتل أولادهم الأبرياء رغم أنهم كانوا على شيء من التقوى والصلاح، ممّا يظهر مدى أصالة هذا القانون -قانون ردّ المداخلة- في الحاكمية، فهو سارٍ في كل شيء ابتداءً من متخاصمَين في تسنم إدارة ناحية صغيرة إلى سلطانَين يتنازعان للتفرد بالسلطة في البلاد، وكذلك فقد أظهر -بما لا يقبل الشك- ما يقتضيه استقلال الحاكمية من قانون «منع الاشتراك»، وأوضح نفوذَه وقوته خلال تاريخ البشرية الطويل، وما أدى إليه من اضطراب وقتل وتشريد وأنهار من الدماء المهراقة.

تأمل في الإنسان الذي هو عاجز عن إدارة نفسه ومفتقر إلى التعاون مع الآخرين، ولا يملك من الحاكمية والآمرية إلّا ظِلاً باهتاً، فهو يردُّ المداخلة إلى هذه الدرجة، ويمنع تدخل الآخرين إلى هذا الحد، ويرفض مشاركةَ الآخرين في حاكميته، ويسعى بما لديه من قوة للتشبث باستقلالية مقامه، تأمل في هذا، ثم انظر إلى الحاكم المطلق وهو مستوٍ على عرش الربوبية، والآمر المطلق وهو المهيمن بالألوهية، والمستقل المطلق بالفردية والأحدية، وهو المستغني المطلق بقادرية مطلقة، ذلكم الله ربنا ذو الجلال..

فكم يكون لازماً وضرورياً «ردّ المداخلة» هذه بالنسبة إليه، ومنع الاشتراك وطرد الشريك في حاكميته المطلقة، وكم هو من لوازم هذه الحاكمية ومن أوجب وجائبها؟

فقارن الآن ووازن بين حاكمية الإنسان المحدودة الضيقة المفتقرة إلى الآخرين وحاكمية الله المطلقة الغنية المهيمنة الشاملة.

أما الشق الثاني من شبهتك وهو أنه: إذا قُصِدَ «بعضُ الأسباب» ببعض العبادة من بعض الأمور الجزئية، فهل ينقص ذلك شيئاً من عبادة المخلوقات المتوجهة جميعاً إلى الله القدير، ابتداءً من الذرات وانتهاءً بالسيارات والمجرّات؟!

فالجواب: أنَّ الخالق الحكيم العليم سبحانه، قد خلق هذا الكون بمثابة شجرة، وجعل

أرباب الشعور ثمارها الكاملة، وكرّم الإنسان باعتباره أجمع ثمرة لأرباب المشاعر، وجعل الشكر والعبادة أفضل ما تثمره حياة الإنسان، بل هما -الشكر والعبادة- نتيجة خلقه وغاية فطرته وثمرة حياته.

فهل يمكن عقلاً لهذا الحاكم المطلق والآمر الفرد، وهو الواحد الأحد، أن يسلّم أمر الإنسان الذي هو ثمرة الكون كله إلى غيره من «الأسباب» ويسلم ثمرة حياته -وهي الشكر والعبادة- إلى الآخرين، بعدما خلق الكون كله لمعرفة ألوهيته، ولمحبة ربوبيته، فهل يمكن أن يجعل نتيجة الخلق، وثمرة الكون تسقط بين أشداق عفونة العبث؟! حاشَ لله وكلا، سبحان الله عمّا يشركون.

ثم هل يمكن أن يرضى سبحانه بما يخالف حكمته وربوبيته بجعل بعض الأسباب مقصودةَ عبادةِ المخلوقات؟ علماً بأنه سبحانه وتعالى قد أشهر نفسه وعرّفها وحبّبها بأفعاله وألطافه في هذا العالم.

فكيف يرضى سبحانه -بعد هذا كله- أنْ يدع تحبّب أفضل مخلوقاته وأكملهم عبودية وشكراً وحمداً إلى غيره من المخلوقات، وكيف يسمح لمخلوقاته أن تنساه بعد أن أظهر بأفعاله مقاصده السامية في الكون: وهي معرفته، ثم عبادته؟ حاشَ وكلا، فسبحان الله عما يقولون علواً كبيراً.

ماذا تقول أيها الصديق بالذي سمعته آنفاً؟

وإذا به يجيب فيقول: الحمد لله الذي سَهّل لي حَلَّ هاتين الشبهتين، فقد أظهرتَ لي في وحدانية الله، المعبود الحق والمستحق للعبادة وحده، دليلين قويين ساطعين لا يمكن إنكارهما، وهل ينكر ضوء الشمس والنهار إلّا مكابر معاند؟!

الخاتمة

يقول «رجل الطبيعة» وقد ترك وراءه فكره وتصوراته، ودخل «حظيرة الإيمان» بفكر إيماني جديد:

الحمد لله.. أشهد أنّ شبهاتي قد زالت كلها، ولكن مازال في النفس ما يحيرني ويثير المزيد من هواجسي، مما يرد على خاطري من أسئلة لا أعرف جواباً عنها.

السؤال الأول: نسمع من كثير من الكسالى المتقاعسين عن العبادات، ومن تاركي الصلاة بخاصة، أنهم يقولون:

ما حاجة الرب سبحانه وتعالى -الغني بذاته- إلى عبادتنا حتى يزجرنا في مُحكم كتابه الكريم، ويتوعّدنا بأشد العذاب في نار جهنم، فكيف يتساوق هذا الأسلوب -التهديدي الصاعق في مثل هذا الخطأ الجزئي التافه- مع أسلوبه الإعجازي اللين الهادئ الرقيق في المواضع الأخرى؟

الجواب: حقاً إن الله سبحانه وتعالى -الغني بذاته- لا حاجة له قط إلى عبادتك أنت -أيها الإنسان- بل هو سبحانه لا حاجة له لشيء قط، ولكنك أنت المحتاج إلى العبادة، وأنت المفتقر إليها. فأنت مريضٌ معنىً، والعبادة هي البلسم الشافي لجراحات روحك، وأوجاع ذاتك، وقد أثبتنا هذا الكلام في عديد من الرسائل.

تُرى لو خاطب مريضٌ طبيباً رحيماً يشفق عليه ويصر عليه ليتناول دواءً شافياً يخص مرضه، لو خاطبه تجاه إصراره عليه قائلاً: ما حاجتك أنت إلى هذا الدواء حتى تلحّ عليّ هذا الإلحاح الشديد بتناول الدواء؟ ألا يفهم من كلامه مدى تفاهته وسخفه وغباء منطقه؟

أما نذير القرآن الكريم فيما يخص ترك العبادة وتهديده المخيف بعقابٍ أليم، فإليك تفسيره: فكما أنَّ سلطاناً يعاقب شخصاً سافلاً يرتكب جريمةً تمس حقوق الآخرين بعقابٍ صارمٍ لأجل الحفاظ على حقوق رعاياه، كذلك سلطان الأزل والأبد يعاقب تارك العبادة والصلاة عقاباً صارماً، لأنه يتجاوز تجاوزاً صارخاً على حقوق الموجودات ويظلمها ظلماً

معنوياً بشعاً ويهضم حقوقها هضماً مجحفاً، تلك الموجودات التي هي رعاياه وخلقه. وذلك لأن كمالاتها تتظاهر على صورة تسبيح وعبادة في وجهها المتوجه إلى البارئ الحكيم سبحانه. فتارك العبادة لا يرى عبادة الموجودات ولن يراها، بل ينكرها وفي هذا بخس عظيم لقيمة الموجودات التي كلّ منها مكتوب سام صمداني، قد خطّ بآيات العبادة والتسبيح وهو متوجه بآياته وتسبيحه نحو الموجد الخالق جلّ وعلا.. وكل منها -أيضاً- مرآة لتجلي الأسماء الربانية المشعة بالأنوار.. فينزل هذه الموجودات -بهذا الإنكار- من مقامها الرفيع السامي، ولا يرى في وجودها سوى العبث الخالي من المعنى، ويجردها من وظائفها الخلقية، ويظنها شيئاً هامداً ضائعاً لا أهمية له، فيكون بذلك قد استهان بالموجودات واستخف بها، وأهان كرامتها وأنكر كمالاتها، وتعدى على مصداقية وجودها.

نعم، إن كل إنسان إنما ينظر إلى الكون بمنظاره الخاص وعلى وفق ما تصوره له مرآته الخاصة، فلقد خلقه البارئ المصور سبحانه على صورة يستطيع قياس الكون عليها، ويزنه بميزانها. فمنحه عالماً خاصاً به من هذا العالم العظيم فيصطبغ عالمه الخاص بحسب ما يعتقده الإنسان من عقيدة في قلبه.

فالإنسان الحزين اليائس الباكي يرى الموجودات باكية بائسة، بينما السعيد الجذلان يراها مبتسمة ضاحكة ومسرورة.

كذلك الذي يؤدي العبادة والأذكار بصورة جادّة وبشعور تام وبتفكر وتأمل، فإنه يكشف شيئاً من عبادة الموجودات وتسابيحها بل قد يراها وهي حقيقة موجودة ثابتة، أما الذي يترك العبادة غافلاً أو منكراً لها فإنه يتوهم الموجودات توهماً خاطئاً جداً ومنافياً كلياً ومخالفاً مخالفة تامة لحقيقة كمالاتها، فيكون متعدياً على حقوقها معنىً.

زد على ذلك، فإن تارك الصلاة يظلم نفسه كذلك بتركه الصلاة، حيث إنه غير مالك لذات نفسه، فهي -أي النفس- عبدٌ مملوك لدى مالكها ومولاها وخالقها وفاطرها، لذا ينذره مولاه الحق إنذاراً شديداً ويهدده بعنف ليأخذ حقّ عبده ذاك من نفسه الأمّارة بالسوء، فضلاً عن أنه عندما ترك العبادة التي هي نتيجة خلقته وغاية فطرته يكون متجاوزاً حدّه تجاه الحكمة الإلهية والمشيئة الربانية، لذا يعاقب على هذا عقاباً شديداً.

نحصل مما تقدم: أنَّ تارك العبادة مثلما أنه يظلم نفسه، والنفس مملوك الحق سبحانه وعبده فهو يتعدى على حقوق كمالات الكائنات ويظلمها أيضاً. نعم، فكما أنَّ الكفر استهانة بالموجودات واستخفاف بها، فتركُ العبادة إنكار لكمالات الكائنات، وتجاوزٌ على الحكمة الإلهية، لذا يستحق تاركها تهديداً عنيفاً، وعقاباً صارماً.

ومن هنا يختار القرآن الكريم أُسلوب التهديد والإنذار ليُعَبّر عن هذا الاستحقاق وعن هذه الحقيقة المذكورة آنفاً، فيكون الأسلوب حقاً ومطابقاً تماماً لمقتضى الحال الذي هو البلاغة بعينها.

السؤال الثاني: يقول صاحبنا الذي نبذ فكرة «الطبيعة» وتبرأ منها، وشَرُفَ بالإيمان بالله:

إنَّ انقياد كل موجود، في كل شأن من شؤونه، وفي كل جزء من جزئياته، وفي كل ما يقوم به وينجزه، انقياداً مطلقاً للمشيئة الإلهية، والقدرة الربانية، هو حقيقة عظيمة جليلة، فهي لعظمتها وسعتها لا تستوعبها أذهاننا الكليلة القاصرة، علماً أننا نطالع عياناً وفرةً متناهيةً من الموجودات، وسهولة مطلقة في خلق الأشياء، وقد تحقق أن «السهولة في الإيجاد» التي هي من مستلزمات «الوحدانية» بما أقمتموه من براهين وحجج قاطعة، فضلاً عن أن القرآن الكريم قد قرر السهولة المطلقة صراحة في آيات كريمة كثيرة أمثال:

﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ (لقمان: ٢٨).

﴿ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ (النحل: ٧٧).

كل ذلك يجعل تلك الحقيقة العظيمة «سهولة الإيجاد» مسألة مقبولة جداً ومستساغة عقلاً، فأين يكمن سرُّ هذه السهولة يا ترى وما الحكمة من ورائها؟

الجواب: لقد وضح ذلك السرّ وضوحاً تامّاً ومقنعاً في «المكتوب العشرين» عند شرحه الآية الكريمة: ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ بما يفي بالغرض، وبخاصة في ذيله، حيث جاء التوضيح وافياً وشافياً جداً، ومقنعاً بالدليل والبرهان والإثبات القاطع، وخلاصته:

أنه عندما يسند إيجاد الموجودات جميعها إلى الصانع الواحد، يسهل الأمر كسهولة إيجاد مخلوق واحد، بينما إذا أُسند للكثرة يصعبُ -على هذه الكثرة- أمر إيجاد مخلوق واحد بقدر صعوبة إيجاد جميع الموجودات.. فيكون خلق بذرة واحدة صعباً ومشكلاً كخلق شجرة.. ولكن إذا أُسند «الإيجاد» إلى صانعه الحق سبحانه، يسهل الأمر حتى يصبح إيجاد الكائنات كلها كإيجاد شجرة واحدة، والشجرة كالبذرة، والجنة كالربيع، والربيع كالزهرة، فالأمر يسهل ويكون هيناً.

وسنشير هنا إشارة مختصرة إلى دليل أو دليلين من بين مئات الأدلة التي أوضحناها بالتفصيل في رسائل أخرى، تلك الأدلة التي تبين ما يدور من الأسرار والحِكم الكامنة فيما نشاهده من وفرة الموجودات التي لا حصر لها ورخصها، وكثرة أفراد كل نوع منها، وورودها إلى الوجود منتظمةً، متقنةً، وبكل سهولة ويسر.

مثال هذا: إن إدارة مائة جندي تحت إمرة ضابط واحد، أسهل بمائة ضعف من إدارة جندي واحد تحت إمرة مائة ضابط. وعندما يُودَعُ أمرُ تجهيز جيش كامل باللوازم العسكرية، من مركز واحد، وبقانون واحد، ومن مصنعٍ واحد، إلى أمرٍ يصدره قائد واحد، فإن ذلك يكون سهلاً وهيناً من حيث الكمية والوفرة، بسهولة تجهيز جندي واحد. بينما يكون إيداع أمر تجهيز جندي واحد باللوازم العسكرية الكاملة من مراكز متعددة ومصانع متعددة، إلى قواد عديدين مشكلاً وصعباً من حيث الكمية والوفرة أيضاً بصعوبة تجهيز جيش كامل. إذ ينبغي عندئذ وجود مصانع كثيرة للتجهيزات بعدد ما يلزم جيشاً كاملاً، لأجل تجهيز الجندي الواحد.

ويشاهد أيضاً أن الشجرة الواحدة، التي تتزود بالمواد الضرورية لها من جذر واحد، ومن مركز واحد، وعلى وفق قانون واحد، تثمر ألوف الثمرات، ويتم ذلك بسهولة ويسر كأن للشجرة ثمرة واحدة. بينما إذا استبدلت الكثرة بالوحدة، وسُلكَ طريق الكثرة عوضاً عن طريق الوحدة، فزوّدت كل ثمرة بالمواد الضرورية للحياة من مراكز مختلفة، وجذور متباينة، يكون إيجاد ثمرة واحدة مشكلاً وصعباً كإيجاد الشجرة نفسها، بل قد يكون إيجاد البذرة التي هي أنموذج الشجرة وفهرستها - صعباً ومعضلاً كإيجاد الشجرة نفسها. لأنَّ ما يلزم حياة الشجرة من مواد ضرورية يلزم البذرة أيضاً.

فهناك المئات من أمثال هذه الأمثلة، وكلها تبين أن ورود ألوف الموجودات بسهولة مطلقة إلى الوجود -في الوحدة- أسهل من ورود موجود واحد إلى الوجود بالتعدد والكثرة.

ولما كنا قد أثبتنا هذه الحقيقة في رسائل أخرى بيقين قاطع نحيل إليها، ولكننا نبين هنا فقط سراً عظيماً يتعلق بهذه السهولة واليسر من زاوية نظر العلم الإلهي، والقدر الإلهي، والقدرة الربانية، وهذا السر هو:

أنت موجود من الموجودات فإذا سلّمتَ نفسك إلى يد القدير المطلق القدرة، فإنه يخلقك بأمر واحد وبقدرته المطلقة بلمح البصر من العدم، من غير شيء. ولكن إنْ لم تسلم نفسك إليه، بل أسندتها إلى «الطبيعة» وأسلَمتها إلى الأسباب المادية، فيلزم عندئذ لإيجادك أنت، عملية بحث دقيق -لجمع جميع المواد التي في وجودك- في أقطار العالم كله، والتفتيش عنها في زوايا الكون كله، وإمرارها في مصافٍ واختبارات دقيقة جداً، ووزنها بموازين حساسة، ذلك لأنك خلاصة منتظمة للكون، وثمرته اليانعة، وفهرسته المصغرة، ومحفظته المنطوية على مواد الكون كله.

لأنَّ الأسباب المادية ليس لها إلّا التركيب والجمع، إذ هو ثابت لدى أرباب العقول أنه لا يمكن للأسباب المادية إيجاد ما لا يوجد فيها، من العدم ومن غير شيء، لذا فهي مضطرة إلى جمع المواد اللازمة لجسم كائن حي صغير من أقطار العالم كله.

فافهم من هذا مدى السهولة المطلقة في الوحدة والتوحيد. ومدى الصعوبات والمشكلات في الشرك والضلالة.

ثانيها: أنَّ هناك سهولة مطلقة في الخلق والإيجاد تنبع من زاوية نظر «العلم الإلهي» وتفصيلها كالآتي:

إنَّ القدر الإلهي هو نوع من العلم الإلهي، يعيّن مقدار كل شيء كأنه قالب معنوي له وخاص به، فيكون ذلك المقدار القَدَري بمثابة خطّة لذلك الشيء، وبحكم «موديل» أنموذج له، فعندما توجده «القدرة الإلهية» توجده على ذلك المقدار القَدَري بكل سهولة ويسر.

فإن لم يُنسب إيجاد ذلك الشيء إلى مَن له علم محيط مطلق أزلي وهو الله القدير ذو

الجلال لا تحصل ألوف المشكلات فحسب، بل تقع مئات المحالات أيضاً -كما ذكر آنفاً- لأنه إن لم يكن هناك ذلك المقدار القَدري، والمقدار العلمي، يلزم استعمال أُلوف القوالب المادية والخارجية للجسم الصغير للحيوان!

فافهم من هذا سراً من أسرار السهولة المطلقة في الوحدة والتوحيد وكثرة المشكلات غير المتناهية في التعدد والكثرة والشرك.

واعلم مدى الحقيقة السامية الصائبة التي تعبر عنها الآية الكريمة:
﴿ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ .

السؤال الثالث:

يقول الذي كان يعادي سابقاً ووُفّق إلى الإيمان الآن واهتدى: ما بال بعض الفلاسفة المغالين في عصرنا هذا يطلقون مقولة: «لا يُستحدث شيءٌ من العدم ولا يفنى شيء من الوجود» وان ما يدير هذا الكون، إنما هو تركيب المادة وتحليلها ليس إلّا !

الجواب: إنَّ هؤلاء الفلاسفة الذين لم يتسنّ لهم النظر إلى الموجودات بنور القرآن المبين، عندما نظروا إليها بمنظار «الطبيعة» و «الأسباب» توصلوا إلى أن وجود هذه الموجودات، وافتراض تشكلها بعوامل «الطبيعة» و «الأسباب» مسألة تطرح مشكلات عويصة بدرجة الامتناع -على غرار ما ذكرناه في بيان الاحتمالات ومحالاتها- فانقسم هؤلاء الفلاسفة إزاء هذه العقبة الكأداء إلى قسمين:

قسم منهم صاروا سوفسطائيين وعافوا العقل الذي هو خاصة الإنسان وسقطوا إلى درك أدنى من الحيوانات، إذ وصل بهم أمر فكرهم إلى إنكار الوجود عموماً، بل حتى إنكار وجودهم، وذلك عندما رأوا أن هذا الإنكار أجدى على العقل وايسر عليه واسلم من تصور «الطبيعة» و «الأسباب» مالكة لزمام الإيجاد، فأنكروا وجود أنفسهم ووجود الموجودات جميعاً، فسقطوا في هاوية الجهل المطلق.

أما القسم الثاني: فقد نظروا إلى الموجودات أنها لو سلّم إيجادها إلى «الأسباب» و«الطبيعة» كما هو شأن أهل الضلالة فإن إيجاد شيء صغير جداً كالبعوضة أو البذرة فيه

من المشكلات ما لا يحد، ويقتضي قدرة عظيمة لا يبلغ مداها العقل، فوجدوا أنفسهم مضطرين إلى إنكار «الإيجاد» نفسه، فقالوا: «لا يستحدث شيء من العدم » ورأوا أن إعدام الشيء محال أيضاً فقرروا أنه «لا يفنى الموجود». وتخيلوا جملة من الأوضاع الاعتبارية ساريةً ما بين تحليل وتركيب وتفريق وتجميع، ناتجة عن حركات الذرات، وسيل المصادفات!

فتأمل في هؤلاء الذين يظنون أنفسهم في ذروة العقل، قد سقطوا في حضيض من الحماقة والجهل، واعلم من هذا كيف تضع الضلالة هذا الإنسان المكرّم -حين يلغي إيمانه- موضع سخرية وازدراء من كل أحد..

وبدورنا نسأل هؤلاء: ترى كيف يمكن استبعاد إيجاد شيء ما من القدرة المطلقة التي توجِدُ على سطح الأرض في كل سنة أربعمائة ألف نوع من الأحياء؟ والتي خلقت السماوات والأرض في ستة أيام؟ والتي تنشئ في كل ربيع تحت بصر الإنسان وسمعه، على سطح الأرض كوناً حياً من النبات والحيوان هو اظهر إتقاناً وأجلى حكمةً من الكون كله، في ستة أسابيع؟ كيف يستبعد منها أن تخلق الموجودات العلمية -التي تعينت خططها ومقاديرها ضمن دائرة العلم الأزلي- فتخلقها بسهولة مطلقة سهولة إظهار الكتابة غير المنظورة بإمرار مادة كيمياوية عليها. فاستبعاد إضفاء الوجود الخارجي على الموجودات العلمية -والتي هي معدومات خارجياً- من تلك القدرة الأزلية، ثم إنكار الإيجاد نفسه لهو حماقة وجهالة اشد من حماقة السوفسطائيين المعروفين وجهالتهم!

وحيث إنَّ نفوس هؤلاء التعساء المتفرعنة العاجزة عجزاً مطلقاً والتي لا تملك إلّا جزءاً يسيراً من الاختيار غير قادرة على إفناء أي شيء كان وإعدامه، وإيجاد أية ذرة كانت أو مادة من غير شيء ومن العدم.. ولما كانت الطبيعة والأسباب التي يفخرون بعبوديتهم لها عاجزة هي الأخرى وليس في طوقها أمر «الإيجاد» من غير شيء.. نراهم يصدرون حُكماً عاماً: «أن المادة لا تُفنى ولا تُستحدث» ويحاولون أن يُعمموا حُكم هذه القاعدة الباطلة الخاطئة حتى على قدرة القدير المطلق القدرة سبحانه.

نعم، إنَّ القدير المطلق ذا الجلال له طرازان من الإيجاد:

الأول: هو بالاختراع والإبداع، أي إنه سبحانه يُبْدع الوجود من العدم إبداعاً من غير شيء، ويوجِدُ كل ما يلزم -هذا الوجود- من أشياء من العدم ويسلّمها إياه.

الآخر: هو بالإنشاء والصنعة والإتقان. أي يُنشئ قسماً من الموجودات من عناصر الكون نفسه، إظهاراً لكمال حكمته، وتبياناً لتجليات أسمائه الحسنى.. وأمثالها من الحكم الدقيقة، فيرسل إلى تلك الموجودات الذرات والمواد المنقادة إلى أوامره ضمن سُنن الرزاقية الكونية، ويسخرها لها ليكمل إنشاء هذا الوجود، وهكذا فالقدير المطلق القدرة له أسلوبان من الإيجاد وصورهما:

الإبداع.. والإنشاء..

فإفناء الموجود، وإيجاد المعدوم، أمرٌ سهلٌ جداً لديه، وهيّنٌ جداً بل هو قانونه الدائم العام.

فالذي يستبعد من القدرة الفاطرة التي تخلق من العدم ثلاث مائة ألف نوع من المخلوقات والأحياء، وتمنحها أشكالها وصفاتها وكيفياتها وأحوالها مما سوى ذراتها. ويقول: «إنها لن تقدر على إيجاد المعدوم» لابد أن يهوي في ظلمة العدم.

يقول الذي نَبَذَ «الطبيعة» ونفذ إلى طريق الحقيقة:

الحمد لله حمداً كثيراً بعدد الذرات، الذي وفقني للفوز بكمال الإيمان، وأنقذني من الأوهام والضلالات، فزالت بفضله جميع ما لديّ من شبهات وريب.

الحمد لله على دين الإسلام وكمال الإيمان

﴿سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

اللمعة الرابعة والعشرون

«رسالة الحجاب»

كانت هذه هي المسألة الثانية والثالثة من «المذكرة الخامسة عشرة» إلّا أن أهميتها جعلتها «اللمعة الرابعة والعشرين».

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ﴾ (الأحزاب: ٥٩)

هذه الآية الكريمة تأمر بالحجاب، بينما تذهب المدنية الزائفة إلى خلاف هذا الحُكم الرباني، فلا ترى الحجاب أمراً فطرياً للنساء، بل تعدّه أسراً وقيداً لهن.[1] وسنبين جواباً أربعاً من الحِكم فقط من بين حِكم غزيرة دالة على كون هذا الحُكم القرآني تقتضيه فطرةُ النساء وخلافه غيرُ فطري.

---

(١) هذه فقرة من اللائحة المرفوعة إلى محكمة التمييز، ألقيت أمام المحكمة، فأسكتتها، وأصبحت حاشية لهذا المقام: «وأنا أقول لمحكمة العدل!:

إن إدانة من يفسر أقدس دستور إلهي وهو الحق بعينه، ويحتكم إليه ثلاث مائة وخمسون مليوناً من المسلمين في كل عصر في حياتهم الاجتماعية، خلال ألف وثلاث مائة وخمسين عاماً. هذا المفسر استند في تفسيره إلى ما اتفق عليه وصدق به ثلاث مائة وخمسون ألف مفسر، واقتدى بالعقائد التي دان بها أجدادنا السابقون في ألف وثلاث مائة وخمسين سنة.. أقول: إن إدانة هذا المفسر، قرار ظالم، لابد أن ترفضه العدالة، إن كانت هناك عدالة على وجه الأرض، ولابد أن ترد ذلك الحكم الصادر بحقه وتنقضه». (المؤلف).

الحكمة الأولى:

إنَّ الحجاب أمر فطري للنساء، تقتضيه فطرتُهن، لأنَّ النساء جُبلْن على الرقة والضعف، فيجدن في أنفسهن حاجةً إلى رجل يقوم بحمايتهن وحماية أولادهن الذين يؤثرنهم على أنفسهن، فهن مسوقات فطرياً نحو تحبيب أنفسهن للآخرين وعدم جلب نفرتهم وتجنّب جفائهم واستثقالهم.

ثم، إنَّ ما يقرب من سبعة أعشار النساء: إما متقدمات في العمر، أو دميمات لا يرغبن في إظهار شيبهن أو دمامتهن، أو أنهن يحملن غيرةً شديدة في ذواتهن يخشين أن تفضل عليهن ذوات الحُسن والجمال، أو أنهن يتوجّسن خيفةً من التجاوز عليهن وتعرّضهن للتهم.. فهؤلاء النساء يرغبن فطرة في الحجاب حذراً من التعرض والتجاوز عليهن وتجنباً من أن يكنّ موضعَ تهمة في نظر أزواجهن، بل نجد أن المُسِنّات أحرص على الحجاب من غيرهن.

وربما لا يتجاوز الاثنتين أو الثلاث من كل عشر من النساء هن: شاباتٌ وحسناوات لا يتضايقن من إبداء مفاتنهن! إذ من المعلوم أنَّ الإنسان يتضايق من نظرات من لا يحبه. وحتى لو فرضنا أن حسناء جميلة ترغب في أن يراها اثنان أو ثلاثة من غير المحارم فهي حتماً تستثقل وتنزعج من نظرات سبعة أو ثمانية منهم، بل تنفر منها.

فالمرأة لكونها رقيقةَ الطبع سريعة التأثر تنفر حتماً -ما لم تفسد أخلاقُها وتتبذّل- من نظرات خبيثة تُصوَّب إليها والتي لها تأثير مادي كالسمّ -كما هو مجرب- حتى إننا نسمع: أن كثيراً من نساء أوروبا وهي موطن التكشف والتبرج، يشكين إلى الشرطة من ملاحقة النظرات إليهن قائلات: إن هؤلاء السفلة يزجّوننا في سجن نظراتهم!

نخلص مما تقدم:

أنَّ رفعَ المدنية السفيهة الحجابَ وإفساحها المجال للتبرج يناقض الفطرةَ الإنسانية. وأن أمر القرآن الكريم بالحجاب -فضلاً عن كونه فطرياً- يصون النساء من المهانة والسقوط، ومن الذلة والأسر المعنوي ومن الرذيلة والسفالة، وهن معدن الرأفة والشفقة والرفيقات العزيزات لأزواجهن في الأبد.

والنساءُ -فضلاً عما ذكرناه- يحملن في فطرتهن تخوّفاً من الرجال الأجانب، وهذا التخوف يقتضي فطرةً التحجب وعدم التكشف، حيث تتنغص لذةٌ غير مشروعة لتسع دقائق بتحمل أذى حمل جنين لتسعة أشهر، ومن بعده القيام بتربية ولدٍ لا حامي له زهاء تسع سنين! ولوقوع مثل هذه الاحتمالات بكثرة تتخوف النساءُ فطرةً خوفاً حقيقياً من غير المحارم. وتتجنّبهم جِبلّة، فتنبهها خلقتُها الضعيفة تنبيهاً جاداً، إلى التحفظ وتدفعها إلى التستر، ليحول دون إثارة شهوة غير المحارم، وليمنع التجاوز عليها، وتدلها فطرتُها على أن حجابَها هو قلعتها الحصينة وخندقها الأمين.

ولقد طرق سمعَنا: أنَّ صباغ أحذية قد تعرض لزوجة رجل ذي منصب دنيوي كبير، كانت مكشوفة المفاتن، وراودها نهاراً جهاراً في قلب العاصمة «أنقرة»! أليس هذا الفعل الشنيع صفعةً قوية على وجوه أولئك الذين لا يعرفون معنى الحياء من أعداء العفة والحجاب؟

الحكمة الثانية:

إنَّ العلاقة الوثيقة والحُب العميق بين الرجل والمرأة ليسا ناشئين عما تتطلبه الحياةُ الدنيا من الحاجات فحسب، فالمرأة ليست صاحبة زوجها في حياة دنيوية وحدَها، بل هي رفيقتُه أيضاً في حياة أبدية خالدة.

فما دامت هي صاحبتُه في حياة باقية فلا ينبغي لها أن تلفت نظر غير رفيقها الأبدي وصديقها الخالد إلى مفاتنها، ولا تزعجه، ولا تحمله على الغضب والغيرة.

وحيث إنَّ زوجَها المؤمن، بحُكم إيمانه لا يحصر محبته لها في حياة دنيوية فقط ولا يوليها محبةً حيوانية قاصرة على وقت جمالها وزمن حُسنها، وإنما يكنّ لها حباً واحتراماً خالصَين دائمين لا يقتصران على وقت شبابها وجمالها بل يدومان إلى وقت شيخوختها وزوال حسنها، لأنها رفيقتُه في حياة أبدية خالدة.. فإزاء هذا لابد للمرأة أيضاً أن تخص زوجَها وحده بجمالها ومفاتنها وتقصر محبتها به، كما هو مقتضى الإنسانية، وإلّا ستفقد الكثير ولا تكسب إلّا القليل.

ثم إنَّ ما هو مطلوب شرعاً: أن يكون الزوج كفواً للمرأة، وهذا يعني ملاءمة الواحد للآخر ومماثلتهما، وأهم ما في الكفاءة هذه هي كفاءة الدين كما هو معلوم.

فما أسعد ذلك الزوج الذي يلاحظ تديّن زوجته ويقوم بتقليدها، ويصبح ذا دين، لئلا يفقد صاحبته الوفية في حياة أبدية خالدة!

وكم هي محظوظة تلك المرأة التي تلاحظ تديّن زوجها وتخشى أن تفرط برفيق حياتها الأمين في حياة خالدة، فتتمسك بالإيمان والتقوى.

والويل ثم الويل لذلك الرجل الذي ينغمس في سفاهة تفقده زوجتَه الطيبة الصالحة.

ويا لتعاسة تلك المرأة التي لا تقلد زوجَها التقي الورع، فتخسر رفيقها الكريم الأبدي السعيد.

والويل والثبور لذينك الزوجين الشقيين اللذين يقلدان بعضُهما البعض الآخر في الفسوق والفحشاء، فيتسابقان في دفع أحدهما الآخر في النار.

الحكمة الثالثة:

إنَّ سعادة العائلة في الحياة واستمرارها إنما هي بالثقة المتبادلة بين الزوجين، والاحترام اللائق والودّ الصادق بينهما، إلّا أن التبرج والتكشف يخلّ بتلك الثقة ويفسد ذلك الاحترام والمحبة المتبادلة. حيث تلاقي تسعةٌ من عشرة متبرجات أمامَهن رجالاً يفوقون أزواجهن جمالاً، بينما لا ترى غيرَ واحدة منهن مَن هو أقل جمالاً من زوجها ولا تحبب نفسها إليه. والأمر كذلك في الرجال فلا يرى إلّا واحدٌ من كل عشرين منهم مَن هي أقل جمالاً من زوجته، بينما الباقون يرون أمامهم من يفقن زوجاتهن حسناً وجمالاً. فهذه الحالة قد تؤدي إلى انبعاث إحساسٍ دنيء وشعور سافل قبيح في النفس فضلاً عمّا تسببه من زوال ذلك الحُب الخالص وفقدان ذلك الاحترام، وذلك:

إنَّ الإنسان لا يمكنه أن يحمل فطرةً شعوراً دنيئاً حيوانياً تجاه المحارم -كالأخت- لأن سيماء المحارم تُشعِر بالرأفة والمحبة المشروعة النابعين من صلة القربى. فهذا الشعور النبيل يحدّ من ميول النفس الشهوية، إلّا أن كشف ما لا يجوز كشفُه كالساق، قد يثير لدى النفوس الدنيئة حساً سافلاً خبيثاً لزوال الشعور بالحرمة، حيث إن ملامح المحارم تُشعِر بصلة القرابة، وكونها محرماً وتتميز عن غيرهم، لذا فكشفُ تلك المواضع من الجسد يتساوى فيه المحرم

وغيره، لعدم وجود تلك العلامات الفارقة التي تستوجب الامتناع عن النظر المحرّم، ولربما يهيّج لدى بعض المحارم السافلين هوى النظرة الحيوانية! فمثل هذه النظرة سقوط مريع للإنسانية تقشعر من بشاعتها الجلود.

الحكمة الرابعة:

من المعلوم أن كثرة النسل مرغوب فيها لدى الجميع، فليس هناك أمة ولا دولة لا تدعو إلى كثرة النسل، وقد قال الرسول الكريم ﷺ: (**تناكحوا تكثروا فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة**).[1] بيد أن رفع الحجاب وإفساح المجال أمام التبرج والتكشف يحدُّ من الزواج، بل يقلل من التكاثر كثيراً، لأنَّ الشاب مهما بلغ فسوقُه وتحلله، فإنه يرغب في أن تكون صاحبتُه في الحياة مصونةً عفيفة، ولا يريدها أن تكون مبتذلة متكشفة مثله، لذا تجده يفضل العزوبة على الزواج. وربما ينساق إلى الفساد. أما المرأة فهي ليست كالرجل حيث لا تتمكن من أن تحدد اختيار زوجها.

والمرأة من حيث كونها مدبّرةً لشؤون البيت الداخلية، ومأمورةً بالحفاظ على أولاد زوجها وأمواله وكل ما يخصه، فإن أعظم خصالها هي: الوفاء والثقة. إلّا أن تبرجها وتكشّفها يفسد هذا الوفاءَ ويزعزع ثقةَ الزوج بها، فتجرّع الزوج آلاماً معنوية وعذاباً وجدانياً.

حتى إن الشجاعة والسخاء وهما خصلتان محمودتان لدى الرجال إذا ما وجدتا في النساء عدتا من الأخلاق المذمومة،[2] لإخلالهما بتلك الثقة والوفاء، إذ تفضيان إلى الوقاحة والإسراف. وحيث إن وظيفة الزوج غير قاصرة على الائتمان على أموالها، وعلى الارتباط بها بل تشمل حمايتها والرحمة بها والاحترام لها فلا يلزمه ما يلزم الزوجة، أي لا يقيد اختياره بزوجةٍ واحدة، ويمكنه أن ينكح غيرها من النساء.

إنَّ بلادنا لا تقاس ببلدان أوروبا، فهناك وسائل صارمة للحفاظ -إلى حد ما- على الشرف والعفاف في وسط متبرج متكشف، منها المبارزة وأمثالها، فالذي ينظر بخبث إلى

---

(١) عبد الرزاق، المصنف ٦/ ١٧٣؛ العجلوني، كشف الخفاء ١/ ٣٨٠.

(٢) قال الإمام علي رضي الله عنه: «خيار خصال النساء شرار خصال الرجال؛ الزهوّ والجبن والبخل، فإذا كانت المرأة مزهوّة لم تمكّن من نفسها، وإذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال بعلها، وإذا كانت جبانة فرقت من كل شيء يعرض لها». (نهج البلاغة).

زوجة أحد الشرفاء عليه أن يعلق كفنَه في عنقه مقدماً. هذا فضلاً عن أن طبائع الأوروبيين باردةٌ جامدة كمناخهم. أما هنا في بلاد العالم الإسلامي خاصة فهي من البلدان الحارة قياساً إلى أوروبا، ومعلوم مدى تأثير البيئة في أخلاق الإنسان. ففي تلك الأصقاع الباردة، ولدى أناس باردين قد لا يؤدي التبرج الذي يثير الهوى الحيواني ويهيج الرغبات الشهوانية إلى تجاوز الحدود مثلما يؤدي إلى الإفراط والإسراف في أناس حساسين يثارون بسرعة في المناطق الحارة.

فالتبرج وعدم الحجاب الذي يثير هوى النفس، ويطلق الشهواتِ من عقالها يؤدي حتماً إلى الإفراط وتجاوز الحدود وإلى ضعف النسل وانهيار القوى. حيث إن الرجل الذي يمكنه أن يقضي وطره الفطري في شهر أو في عشرين يوماً يظن نفسه مضطراً إلى دفعه كل بضعة أيام. وحيث إن هناك عوارض فطرية -كالحيض- تجنّبه عن أهله وقد تطول خمسة عشر يوماً، تراه ينساق إلى الفحش إن كان مغلوباً لنفسه.

ثم إن أهل المدن لا ينبغي لهم أن يقلّدوا أهلَ القرى والأرياف في حياتهم الاجتماعية ويرفعوا الحجاب فيما بينهم، لأن أهل القرى يشغلهم شاغلُ العيش وهم مضطرون إلى صرف جهود بدنية قوية لكسب معيشتهم، وكثيراً ما تشترك النساءُ في أشغال متعبة، لذا لا يهيج ما قد ينكشف من أجزاء أجسامهن الخشنة شهوات حيوانية لدى الآخرين، فضلاً عن أنه لا يوجد في القرى سفهاء عاطلون بقدر ما هو موجود في المدن. فلا تبلغ مفاسدُها إلى عُشر ما في المدينة، لهذا لا تقاس المدن على القرى والأرياف.

حوار مع المؤمنات، أخواتي في الآخرة

بِاسْمِهِ سُبْحانَهُ

حينما كنت أُشاهد في عدد من الولايات اهتمام النساء برسائل النور اهتماماً حاراً خالصاً وعلمت اعتمادهن على دروسي التي تخص النور بما يفوق حدي بكثير، جئت مرةً ثالثة إلى مدرسة الزهراء المعنوية، هذه المدينة المباركة «اسبارطة»، فسمعت أن أولئك النساء الطيبات المباركات، أخواتي في الآخرة، ينتظرن مني أن أُلقي عليهن درساً، على غرار ما يُلقى في المساجد من دروس الوعظ والإرشاد. بيد أني أعاني أمراضاً عدة، مع ضعف وإنهاك شديدين حتى لا أستطيع الكلام ولا التفكر. ومع ذلك فقد سنحت بقلبي هذه الليلة خاطرةٌ قوية، هي:

أنك قد كتبت قبل خمس عشرة سنة رسالة «مرشد الشباب» بطلبٍ من الشباب أنفسهم، وقد استفاد منها الكثيرون، بينما النساءُ هن أحوجُ إلى مثل هذا «المرشد» في هذا الزمان.

فإزاء هذه الخاطرة وعلى الرغم مما أعانيه من اضطراب ومن عجز وضعف كتبتُ في غاية الاختصار لأخواتي المباركات ولبناتي المعنويات الشابات بعض ما يلزمهن من مسائل، ضمن نكات ثلاث.

النكتة الأولى:

لما كان أهم أساس من أسس رسائل النور هو «الشفقة» وإن النساء هن رائدات الشفقة وبطلات الحنان، فقد أصبحن أكثر ارتباطاً برسائل النور فطرةً. فهذه العلاقة الفطرية تُحس بها في كثير من الأماكن ولله الحمد والمنة.

ولقد غدت التضحية التي تنطوي عليها الشفقة والحنان ذات أهمية عظمى في زماننا هذا، إذ إنها تعبر عن إخلاص حقيقي وفداءٍ دون عوَضٍ ومقابل.

نعم، إنَّ فداء الأم بروحها إنقاذاً لولدها من الهلاك من دون انتظار لأجر، وتضحيتَها بنفسها بإخلاص حقيقي لأولادها باعتبار وظيفتها الفطرية، تدلان على وجود بطولة سامية رفيعة في النساء، بحيث يستطعن أن ينقذن حياتهن الدنيوية والأخروية بانكشاف هذه البطولة

وانجلائها في أنفسهن، إلّا أن تياراتٍ فاسدة تحول دون ظهور تلك السجية القيمة القويمة وتمنع انكشافها، أو تصرف تلك التيارات هذه السجية الطيبة إلى غير محالها فتسيء استعمالها.

نورد هنا مثالاً واحداً من مئات أمثلتها:

إنَّ الوالدة الحنون تضع نصبَ عينها كل فداء وتضحية لتمنع عن ولدها المصائب والهلاك، لتجعله سليماً معافىً في الدنيا. فتربي ولدَها على هذا الأساس، فتنفق جميع أموالها ليكون ابنها عظيماً وسيداً آمراً. فتراها تأخذ ولدَها من المدارس العلمية الدينية وترسله إلى أوروبا، من دون أن تفكر في حياة ولدها الأبدية التي تصبح مهددة بالخطر. فهي إذ تسعى لتنقذه من سجن دنيوي، لا تهتم بوقوعه في سجن جهنم الأبدي، فتتصرف تصرفاً مخالفاً لفطرتها مخالفةً كلية، إذ بدلاً من أن تجعل ولدها البريء شفيعاً لها يوم القيامة تجعله مُدَّعياً عليها، إذ سيشكو ذلك الولد هناك قائلا لها: «لِمَ لم تقوي إيماني حتى سببتِ في هلاكي هذا؟!». وحيث إنه لم يأخذ قسطاً وافراً من التربية الإسلامية، فلا يبالي بشفقة والدته الخارقة، بل قد يقصر في حقها كثيراً.

ولكن إذا ما سعت تلك الوالدةُ إلى إنقاذ ولدها الضعيف من السجن الأبدي الذي هو جهنم، ومن الإعدام الأبدي الذي هو الموتُ في الضلالة، بشفقتها الحقيقية الموهوبة دون الإساءة في استعمالها، فإن ولدَها سيوصل الأنوارَ دوماً إلى روحها بعد وفاتها، إذ يسجل في صحيفة أعمالها مثلُ جميع الحسنات التي يعملها الولد. كما سيكون لها ولداً طيباً مباركاً ينعمان معاً في حياة خالدة، شفيعاً لها عند الله ما وسعته الشفاعة، لا شاكياً منها ولا مُدَّعياً عليها.

نعم، إنَّ أول أستاذ للإنسان وأكثر من يؤثر فيه تعليماً، إنما هو والدتُه.

سأبين بهذه المناسبة هذا المعنى الذي أتحسسه دائماً إحساساً قاطعاً في شخصي، وهو:

أُقسم بالله أن أرسخَ درس أخذته، وكأنه يتجدد عليّ، إنما هو تلقينات والدتي رحمها الله ودروسها المعنوية، حتى استقرت في أعماق فطرتي وأصبحت كالبذور في جسدي، في غضون عمري الذي يناهز الثمانين رغم أني قد أخذت دروساً من ثمانين ألف شخص[1] بل أرى يقينا أن سائر الدروس إنما تبنى على تلك البذور.

---

(١) اعلم! أن السائق لهذا القول، أني رأيت نفسي مغرورة بمحاسنها. فقلتُ: لا تملكين شيئاً!. فقالت: فإذن لا أهتم بما ليس لي من البدن.. فقلت: لابد أن لا تكوني أقل من الذباب.. فإن شئتِ شاهداً فانظري إلى هذا الذباب، كيفَ ينظّفُ جناحَيهِ برجليهِ ويمسحُ عينيه ورأسه بيديه! سبحان من ألهَمَه هذا، وصيّره أستاذاً لي وأفحمَ به نفسي!. (المثنوي العربي النوري – ذيل القطرة).

بمعنى أني أشاهد درس والدتي -رحمها الله- وتلقيناتها لفطرتي وروحي وأنا في السنة الأولى من عمري، بذورَ أساس ضمن الحقائق العظيمة التي أراها الآن وأنا في الثمانين من عمري.

مثال ذلك: أن «الشفقة» التي هي أهم أساس من الأسس الأربعة في مسلكي ومشربي في الحياة.. وإن «الرأفة والرحمة» التي هي حقيقة عظمى أيضاً من حقائق رسائل النور، أشاهدهما يقيناً بأنهما نابعتان من أفعال تلك الوالدة الرؤوف ومن أحوالها الشفيقة ومن دروسها المعنوية.

نعم، إنَّ الشفقة والحنان الكامنين في الأمومة والتي تحملها بإخلاص حقيقي وتضحية وفداء قد أُسيءَ استعمالها في الوقت الحاضر، إذ لا تفكر الأم بما سينال ولدُها في الآخرة من كنوز هي أثمن من الألماس، بل تصرف وجهه إلى هذه الدنيا التي لا تعدل قِطعاً زجاجية فانية، ثم تشفق على ولدها وتحنو عليه في هذا الجانب من الحياة. وما هذا إلّا إساءةٌ في استعمال تلك الشفقة.

إنَّ مما تثبت بطولةَ النساء في تضحيتهن العظيمة دون انتظار لأجر ولا عوض، من دون فائدة يجنينها لأنفسهن ومن دون رياء وإظهارٍ لأنفسهن، هي استعدادهن للفداء بأرواحهن لأجل الولد، أقول إنَّ مما يثبت ذلك هو ما نراه في الدجاجة التي تحمل مثالاً مصغراً من تلك الشفقة، شفقة الأمومة وحنانها، فهي تهاجم الأسد، وتفدي بروحها، حفاظاً على فراخها الصغار.

وفي الوقت الحاضر، إنَّ ألزم شيء وأهم أساس في التربية الإسلامية وأعمال الآخرة، إنما هو «الإخلاص» فمثل هذه البطولة الفائقة في الشفقة تضم بين جوانحها الإخلاص الحقيقي.

فإذا ما بدت هاتان النقطتان في تلك الطائفة المباركة، طائفة النساء، فإنهما سيكونان مدار سعادة عظمى في المحيط الإسلامي.

أما تضحية الآباء فلا تكون دون عوض قطعاً، وإنما تطلب الأجر والمقابل من جهات كثيرة تبلغ المائة، وفي الأقل تطلب الفخر والسمعة. ولكن مع الأسف فإن النساء المباركات يدخلن الرياء والتملق بطراز آخر وبنوع آخر نتيجة ضعفهن وعجزهن، وذلك خلاصاً من شر أزواجهن الظلمة وتسلطهم عليهن.

النكتة الثانية:

لما كنت في هذه السنة معتزلاً الناس مبتعداً عن الحياة الاجتماعية، نظرتُ إلى الدنيا نزولا عند رغبة إخوة وأخوات من النوريين، فسمعت من أغلب من قابلني من الأصدقاء، شكاوى عن حياتهم الأسرية. فتأسفت من الأعماق وقلت: «أوَ دَبّ الفسادُ في هذه الحياة أيضاً؟ إن الحياة الأسرية هي قلعة الإنسان الحصينة، ولاسيما المسلم، فهي كجنته المصغرة ودنياه الصغيرة».

فتّشت عن السبب الذي أدّى إلى فسادها. وعَلمتُ أنَّ هناك منظمات سرية تسعى لإضلال الشباب وإفسادهم بتذليل سُبل الشهوات أمامهم وسوقهم إلى السفاهة والغواية لإفساد المجتمع الإسلامي والإضرار بالدين الإسلامي، كما أحسستُ أن منظمات أيضاً تعمل في الخفاء وتسعى سعياً جاداً مؤثراً لدفع الغافلات من النساء اللطيفات إلى طرق خاطئة آثمة. وأدركت أن ضربة قاصمة على هذه الأمة الإسلامية تأتي من تلك الجهة.

فأنا أُبين بياناً قاطعاً، يا إخواني ويا بناتي المعنويات الشابات!

إنَّ العلاج الناجع لإنقاذ سعادة النساء من الإفساد في دنياهن وأخراهن معاً، وإن الوسيلة الوحيدة لصون سجاياهن الراقية اللاتي في فطرتهن من الفساد، ليس إلّا في تربيتهن تربية دينية ضمن نطاق الإسلام الشامل.

إنكن تسمعن ما آلت إليه حال تلك الطائفة المباركة في روسيا!

وقد قيل في جزء من «رسائل النور»:

إنَّ الزوج الرشيد لا يَبني محبتَه لزوجته على جمال ظاهري زائل لا يدوم عشر سنوات، بل عليه أن يبني مودتَه لها على شفقتها التي هي أجمل محاسن النساء وأدوَمه، ويوثقها بحسن سيرتها الخاصة بأنوثتها، كي تدوم محبته لها كلما شابت تلك الزوجة الضعيفة، إذ هي ليست صاحبته ورفيقته في حياة دنيوية مؤقتة، وإنما هي رفيقته المحبوبة في حياة أبدية خالدة. فيلزم أن يتحابا باحترام أزيد ورحمة أوسع، كلما تقدما في العمر. أما حياة الأسرة التي تتربى في أحضان المدنية الحديثة فهي معرضة للانهيار والفساد، حيث تبنى العلاقة فيها على صحبة مؤقتة يعقبها فراق أبدي.

وكذلك قيل في جزء من «رسائل النور»:

إنَّ السعيد هو ذلك الزوج الذي يُقَلِّدُ زوجته الصالحة، فيكون صالحاً مثلها، لئلا يفقد رفيقته في حياة أبدية خالدة.

وكم هي سعيدة تلك الزوجة التي ترى زوجها متديناً فتتمسك بأهداب الدين لئلا تفقد رفيقها الأبدي، فتفوز بسعادة آخرتها ضمن سعادة دنياها!

وكم هو شقيٌ ذلك الزوج الذي يتبع زوجته التي ارتمت في أحضان السفاهة فيشاركها ولا يسعى لإنقاذها!

وما أشقاها تلك الزوجة التي تنظر إلى فجور زوجها وفسقه وتقلده بصورة أخرى!

والويل ثم الويل لذينك الزوجين اللذين يُعين كلٌّ منهما الآخر في دفعه إلى النار، أي يغري كل منهما الآخر للانغماس في زخارف المدنية.

وفحوى هذه الجمل التي وردت بهذا المعنى في «رسائل النور» هو أنه لا يمكن أن يكون -في هذا الزمان- تنعّم بحياة عائلية وبلوغ لسعادة الدنيا والآخرة وانكشاف لسجايا راقية في النساء إلّا بالتأدب بالآداب الإسلامية التي تحددها الشريعة الغراء.

إنَّ أهم نقطة وجانب في حياة الأسر في الوقت الحاضر هي أنه إذا ما شاهدت الزوجةُ فساداً في زوجها وخيانةً منه وعدم وفاء، فقامت هي كذلك -عناداً له- بترك وظيفتها الأسرية وهي الوفاء والثقة فتفسدهما، يختل عندئذٍ نظام تلك الأسرة كلياً ويذهب هباءً منثوراً، كالإخلال بالنظام في الجيش.

فلابد للزوجة أن تسعى جادة لإكمال نقص زوجها وإصلاح تقصيره كي تنقذ صاحبَها الأبدي، وإلّا فهي تخسر وتتضرر في كل جانب إذا ما حاولت إظهار نفسها وتحبيبها للآخرين بالتكشف والتبرج، لأنَّ الذي يتخلى عن الوفاء يجد جزاءه في الدنيا أيضاً. لأن فطرتها تتجنب غير المحارم وتشمئز منهم. فهي تحترز من ثماني عشرة شخصاً من كل عشرين شخصاً أجنبياً، بينما الرجل قد لا يشمئز من النظر إلى امرأة واحدة من كل مائة أجنبية.

فكما أن الزوجة تعاني من العذاب من هذه الجهة فهي تضع نفسها موضع اتهام أيضاً بعدم الوفاء وفقدان الثقة والوفاء فلا تستطيع الحفاظ على حقوقها فضلاً عن ضعفها.

حاصل الكلام: كما أن النساء لا يشبهن الرجال -من حيث الشفقة والحنان- في التضحية ولا في الإخلاص، وأن الرجال لا يبلغون شأوهن في التضحية والفداء. كذلك لا تدركُ المرأةُ الرجلَ في السفاهة والغَي بأي وجه من الوجوه، لذا فهي تخاف كثيراً بفطرتها وخلقتها الضعيفة من غير المحارم وتجد نفسها مضطرة إلى الاحتماء بالحجاب. ذلك لأنَّ الرجل إذا غوى لأجل تلذذ ثماني دقائق لا يتضرر إلّا بضع ليرات، بينما المرأة تجازى على ثماني دقائق من اللذة بثقل ثمانية أشهر وتتحمل تكاليف تربية طفل لا حامي له طوال ثماني سنوات. بمعنى أن المرأة لا تبلغ مبلغَ الرجال في السفاهة، وتعاقَب عليها أضعاف أضعاف عقاب الرجل.

إنَّ هذه الحوادث ليست نادرة وهي تدل على أن النساء مخلوقات مباركات خُلقن ليكنّ منشأً للأخلاق الفاضلة، إذ تكاد تنعدم فيهن قابلية في الفسق والفجور للتمتع بأذواق الدنيا. بمعنى أن النساء نوعٌ من مخلوقات طيبات مباركات، خُلِقن لأجل قضاء حياة أسرية سعيدة ضمن نطاق التربية الإسلامية.

فتبّاً وسُحقاً لتلك المنظمات التي تسعى لإفساد هؤلاء الطيبات.

وأسأله تعالى أن يحفظ أخواتي من شرور هؤلاء السفهاء الفاسدين.. آمين..

أخواتي! أقول لكُنّ هذا الكلام بشكل خاص:

اعملن على كسب نفقاتكن بعمل أيديكن كما تفعل نساء القرى الطيبات واكتفين بالاقتصاد والقناعة المغروزتَين في فطرتكن. وهذا أَولى من امتهان أنفسكن بسبب هموم العيش بالرضوخ لسيطرة زوج فاسد، سيء الخلُق، متفرنج. وإذا ما كان حَظُّ إحداكن وقسمتُها زوجاً لا يلائمها، فلترضَ بقسمتها ولتقنع، فعسى الله أن يصلح زوجَها برضاها وقناعتها. وإلّا ستراجع المحاكم لأجل الطلاق -كما أسمع في الوقت الحاضر- وهذا لا يليق قطعاً بعزة الإسلام وشرف الأمة.

النكتة الثالثة:

أخواتي العزيزات!

اعلمن قطعاً! أن الأذواق والمتع الخارجة عن حدود الشرع، فيها من الآلام والمتاعب أضعاف أضعاف لذائذها. وقد أثبتت «رسائل النور» هذه الحقيقة بمئات من الدلائل القوية والحوادث القاطعة. ويمكنكن أن تجدن تفاصيلها في «رسائل النور».

فمثلاً: الكلمة السادسة والسابعة والثامنة من «الكلمات الصغيرة» و «مرشد الشباب» تبين لكن هذه الحقيقة بوضوح تام نيابة عني. فعليكن إذن القناعة والاطمئنان والاكتفاء بما في حدود الشرع من أذواق ولذائذ، فملاطفة أولادكن الأبرياء ومداعبتهم ومجالستهم في بيوتكن متعة نزيهة تفضل مئات المرات متعة السينما.

واعلمن يقيناً! أن اللذة الحقيقية في هذه الدنيا إنما هي في الإيمان وفي حدود الإيمان. وأن في كل عمل صالح لذة معنوية، بينما في الضلالة والغَي آلامٌ منغصة في هذه الدنيا أيضاً. هذه الحقيقة أثبتتها «رسائل النور» بمئات من الأدلة القاطعة. فأنا شخصياً شاهدتُ بعين اليقين عبر تجاربَ كثيرة وحوادث عديدة: أن في الإيمان بذرةَ جنة، وفي الضلالة والسفه بذرةَ جهنم. وقد كتبت هذه الحقيقة مراراً في «رسائل النور» حتى عجز أعتى المعاندين والخبراء الرسميون والمحاكم عن جرح هذه الحقيقة.

فلتكن الآن «رسالة الحجاب» في المقدمة و«مرشد الشباب» و«الكلمات الصغيرة» نائبة عني في إلقاء الدرس عليكن يا أخواتي الطيبات المباركات ويا مَنْ هن بمثابة بناتي الصغيرات. فلقد سمعتُ أنكن ترغبن في أن ألقي عليكن درساً في الجامع، ولكن مرضي الشديد، فضلاً عن ضعفي الشديد، وأسباب أخرى، تحول دون ذلك. لذا فقد قررت أن أجعلكن يا أخواتي اللاتي تقرأن درسي هذا الذي كتبته لكُنّ مشاركات لي في جميع مكاسبي المعنوية وفي دعواتي، كطلاب النور.

وإذا استطعتن الحصول على «رسائل النور» وقرأتنها أو استمعتن إليها، نيابة عني، فإنكن تصبحن مشاركات لإخوانكن طلاب النور في جميع مكاسبهم المعنوية وأدعيتهم حسب قاعدتنا المقررة.

كنت أرغب أن أكتب إليكن أكثر من هذا ولكن اكتفيت بهذا القَدر لمرضي الشديد وضعفي الشديد وشيخوختي وهرمي، وواجبات كثيرة تنتظرني كتصحيح الرسائل.

الباقي هو الباقي

أخوكم المحتاج إلى دعائكن

سعيد النورسي

[مسألة مهمة أُخطرت على القلب فجأة]

تنبيه

إنَّ دأب «رسائل النور» في الخطاب هو الرحمة والشفقة والرأفة، لذا يرتبط معها النساءُ اللاتي يتميزن بالشفقة والحنان أكثر من الرجال. أما هذا البحث فإنه موجه إلى اللاتي يُقلدن الأجنبيات تقليداً أعمى، لذا تبدو فيه الشدة في الكلام، وليس ذلك إلّا لتنبيه الغافلات وإيقاظهن. أما أخواتُنا رائدات الشفقة والحنان فنرجو ألّا تزعجهن شدة الكلام.

يُفهم من روايات الأحاديث النبوية أن النساء وفتنتهن ستؤدى أخطرَ دور وأرهبَه في فتنة آخر الزمان.

نعم، كما تنقل لنا كتب التاريخ: أنه كانت في القرون الأولى طائفةٌ من النساء اشتهرن بالشجاعة وحمل السلاح يعرفن بـ«نساء الأمازون» حتى تشكلت منهن فرقة عسكرية اقتحمت حروباً ضارية، كذلك في عصرنا هذا، لدى تصدى ضلالة الزندقة للإسلام وحربها معه فإن أرهب فرقة من الفرق المُغيرة على الإسلام والتي تسير وفق مخطط النفس الأمّارة بالسوء، وسلَّمت قيادَها وإمرتها إلى الشيطان، هي طائفة من النساء الكاسيات العاريات اللائى يكشفن عن سيقانهن ويجعلنها سلاحاً قاسياً جارحاً ينـزل بطعناته على أهل الإيمان! فيغلقن بذلك بابَ النكاح ويفتحن أبواب السفاح، إذ يأسرن بغتة نفوسَ الكثيرين ويجرحنهم جروحاً غائرة في قلوبهم وأرواحهم بارتكابهم الكبائر، بل ربما يصرعن قسماً من تلك القلوب ويقضين عليها.

وإنه لعقاب عادل لهن، أن تصبح تلك السيقانُ المدججة بسلاح الفتنة الجارح حطبَ جهنم وتحرق في نارها أول ما يحرق، لِما كن يكشفنها لبضع سنوات أمام من يُحرم عليهن.

فضلاً عن ذلك فإنهن يفقدن الزوج المناسب لهن، بل لا يستطعن الحصول عليه وهن في أمس الحاجة إليه بحكم الفطرة والخلقة، لِما كنّ قد ضيّعن الثقة والوفاء في الدنيا، بل يصبحن في حالة من الابتذال وفقدان الرعاية والأهمية -نتيجة عدم الرغبة في النكاح وعدم الرعاية لحقوقه- أن يكون رجل واحد قيّماً على أربعين من النساء، كما ورد ذلك في الحديث الشريف.[1]

فما دامت الحقيقة هكذا.. وما دام كلُّ جميل يحب جمالَه، ويحاول جهده المحافظة عليه، ولا يريد أن يُمَسّ بسوء.. وما دام الجمال نعمةً مهداةً، والنعمة إن حُمدَ زادت وإن قوبلت بالنكران تغيّرت.. فلاشك أن المرأة المالكة لرُشدها ستهرب بشدة وبكل ما لديها من قوة من أن تجعل جمالَها وسيلة لكسب الخطايا والذنوب وسَوق الآخرين إليها.. وستفرّ حتماً مَنْ أن تجعل جمالها يتحول إلى قبح دميم وجمال منحوس مسموم.. وستنهزم بلا شك من أن تجعل بالنكران تلك النعمة المهداة وتصبح مدار عذاب وعقاب.

لذا ينبغي للمرأة الحسناء استعمال جمالها على الوجه المشروع ليظل ذلك الجمال الفاني خالداً دائماً بدلاً من جمال لا يدوم سوى بضعَ سنين، فتكون عندئذ قد أدت شكرَ تلك النعمة. وإلّا ستتجرع الآلام والعذاب في وقت شيخوختها، وستبكي وتندب على نفسها يائسة نادمة لشدة ما ترى من استثقال الآخرين لها وإعراضهم عنها.

أما إذا زُين ذلك الجمال بزينة آداب القرآن الكريم وروعي الرعاية اللائقة ضمن نطاق التربية الإسلامية، فسيظل ذلك الجمالُ الفاني باقياً -معنىً- وستمنح المرأة جمالاً هو أجمل وأبهى وأحلى من جمال الحور العين في الجنة الخالدة كما هو ثابت في الحديث الشريف.[2] فلئن كانت لتلك المرأة مسكة من عقل، فلن تدع هذه النتيجة الباهرة الخالدة قطعاً أن تضيع منها.

---

(١) عن أنس رضي الله عنه قال: لأحدثنكم حديثاً لا يحدثكم أحد بعدى، سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من أشراط الساعة أن يقل العلم ويظهر الزنا وتكثر النساء ويقل الرجال حتى يكون لخمسين امرأة القيّمُ الواحد) البخاري – كتاب العلم – باب رفع العلم وظهور الجهل.

(٢) في الباب أحاديث كثيرة نذكر منها: عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: (في حديث طويل) قلت: يا رسول الله أنساء الدنيا أفضل أم الحور العين؟ قال: نساء الدنيا أفضل من الحور العين كفضل الظهارة على البطانة. قلت: يا رسول الله. وبمَ ذلك؟ قال: بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن لله عز وجل ألبس الله عز وجل وجوههن النور وأجسادهن الحرير، بيض الألوان، خضر الثياب، صفر الحلي... الخ الحديث.. الطبرانى، المعجم الكبير والأوسط وهذا لفظه (عن الترغيب والترهيب للمنذري ٤/ ٥٣٧).

اللمعة الخامسة والعشرون

وهي خمسة وعشرون دواء

هي عيادة للمريض، وبلسم للمرضى، ومرهمُ تسلية لهم، ووصفة معنوية، وقد كُتبت بمثابة القول المأثور: «ذهب البأس وحمداً لله على السلامة».

تنبيه و اعتذار

تم تأليف هذه الوصفة المعنوية بسرعة تفوق جميع ما كتبناه [1] ولضيق الوقت كان تصحيحُها وتدقيقها -بخلاف الجميع- بنظرة خاطفة في غاية السرعة كتأليفها، فظلت مشوشة كالمسودة الأولى، ولم نَرَ حاجة للقيام بتدقيقات جديدة، حيث إنَّ الخواطر التي ترد القلب فطرياً لا ينبغي إفسادها بزخرف القول والتفنن والتدقيق، فالرجاء من القراء وبخاصة المرضى منهم ألّا يضجروا من العبارات غير المأنوسة والجمل الصعبة وأن يدعوا لي بظهر الغيب.

سعيد النورسي

---

(١) نعم نشهد أن تأليف هذه الرسالة قد تم خلال أربع ساعات ونصف الساعة.
(رشدي، رأفت، خسرو، سعيد). (المؤلف)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴾ (البقرة:١٥٦)

﴿ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ۞ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴾ (الشعراء:٧٩-٨٠)

في هذه اللمعة نبين خمسة وعشرين دواءً بياناً مجملاً تلك الأدوية التي يمكن أن تكون تسليةً حقيقية ومرهماً نافعاً لأهل البلاء والمصائب وللمرضى العليلين الذين هم عُشر أقسام البشرية.

الدواء الأول

أيها المريض العاجز! لا تقلق، اصبر! فإن مرضك ليس علّة لك بل هو نوع من الدواء؛ ذلك لأن العمر رأسُ مال يتلاشى، فإن لم يُستثمَر فسيضيع كل شيء، وبخاصة إذا انقضى بالراحة والغفلة وهو يحث الخطى إلى نهايته، فالمرض يكسب رأسَ مالك المذكور أرباحاً طائلة، ولا يسمح بمضيّه سريعاً، فهو يُبطئ خطواتِ العمر، ويمسكه، ويطوّله، حتى يؤتيَ ثماره، ثم يغدو إلى شأنه. وقد ذهب طولُ العمر بالأمراض مثلاً، فقيل: ألا ما أطولَ زمنَ النوائب وما أقصر زمن الهناء!.

الدواء الثاني

أيها المريض النافدُ الصبر! تجمّل بالصبر! بل تجمّل بالشكر، فإنَّ مرضك هذا يمكنه أن يجعلَ من دقائق عمرك في حكم ساعاتٍ من العبادة، ذلك لأن العبادة قسمان:

الأولى: العبادة الإيجابية المتجسّدة في إقامة الصلاة والدعاء وأمثالها.

الثانية: العبادة السلبية التي يتضرع فيها المصاب ملتجئاً إلى خالقه الرحيم مستجيراً به متوسلاً إليه، منطلقاً من أحاسيسه التي تُشعره بعَجزه وضعفه أمام تلك الأمراض والمصائب. فينال بذلك التضرع عبادةً معنوية خالصة متجردة من كل أنواع الرياء.

نعم، هناك رواياتٌ صحيحة على أن العمر الممزوجَ بالمرض والسقم يُعدّ للمؤمن عبادة [1] على شرط عدم الشكوى من الله سبحانه. بل هو ثابت بعدة روايات صحيحة وكشفيات صادقة كون دقيقة واحدة من مرض قسم من الشاكرين الصابرين هي بحكم ساعةِ عبادة كاملة لهم، وكونُ دقيقة منه لقسم من الكاملين هي بمثابة يوم عبادة كاملة لهم. فلا تشكُ -يا أخي- من مرضٍ يجعل من دقيقة عصيبة عليك ألفَ دقيقة ويمدّك بعمرٍ طويل مديد! بل كن شاكراً له.

الدواء الثالث

أيها المريض الذي لا يطيق! إنَّ الإنسان لم يأت إلى هذه الدنيا للتمتع والتلذذ. والشاهد على ذلك: رحيل كل آتٍ، وتشيّب الشباب، وتدحرجُ الجميع في دوّامة الزوال والفراق. وبينا ترى الإنسان أكملَ الأحياء وأسماها وأغناها أجهزةً بل هو السيد عليها جميعاً، إذا به بالتفكر في لذات الماضي وبلايا المستقبل، يقضي حياته في كدَرٍ ومشقة هاوياً بنفسه إلى دركاتٍ أدنى من الحيوان.

فالإنسان إذن لم يأت إلى هذه الدنيا لقضاء عيش ناعم جميل مغمور بنسمات الراحة والصفاء، بل جاء إلى هنا ليغنم سعادةَ حياةٍ أبدية دائمة بما يُسّر له من سبُل التجارة برأس ماله العظيم الذي هو العمر. فإذا انعدم المرضُ، وقع الإنسان في الغفلة نتيجة الصحة والعافية، وبدت الدنيا في عينيه حلوةً خضرة لذيذة، فيصيبه عندئذ مرضُ نسيان الآخرة، فيرغب عن ذكر الموت والقبر، ويهدر رأسَ مال عمره الثمين هباءً منثوراً.. في حين أن المرض سرعان ما يوقظه مفتّحاً عينيه، قائلاً له: «أنت لست خالداً ولست سائباً، بل أنت مسخّر لوظيفة، دع عنك الغرور، اذكر خالقك.. واعلم بأنك ماضٍ إلى القبر، وهيئ نفسك وجهّزها هكذا».

فالمرض إذن يقوم بدور مرشد ناصح أمين موقظ، فلا داعي بعدُ إلى الشكوى منه، بل يجب التفيّؤ في ظِلال الشكر -من هذه الناحية- وإذا ما اشتدت وطأتُه كثيراً فعليك بطلب الصبر منه تعالى.

---

(١) انظر البخاري، الجهاد ١٣٤؛ أحمد بن حنبل، المسند، ٤/ ٤١٠؛ البيهقي، شعب الإيمان ٧/ ١٨٢.

الدواء الرابع

أيها المريض الشاكي! اعلم أنه ليس لك حق في الشكوى، بل عليك الشكر، عليك الصبر؛ لأنَّ وجودك وأعضاءك وأجهزتك ليست بملكك أنت، فأنت لم تصنعها بنفسك، وأنت لم تبتعها من أية شركة أو مصنع ابتياعاً، فهي إذن ملكٌ لآخر. ومالكُ تلك الأشياء يتصرف في ملكه كيف يشاء، كما ورد ذلك في مثال في «الكلمة السادسة والعشرين الخاصة بالقَدَر» وهو: أنَّ صانعاً ثرياً ماهراً يكلّف رجلاً فقيراً لقاء أُجرة معينة ليقوم له لمدة ساعة بدور «الموديل» النموذج. فلأجل إظهار صنعته الجميلة وثروته القيّمة يُلبسه القميصَ المزركش الذي حاكه، والحُلَّة القشيبة المرصعة التي نسجها في غاية الجمال والصنعة، وينجز عليه أعمالاً ويُظهِر أوضاعاً وأشكالاً شتى لبيان خوارق صنعته وبدائع مهارته، فيقصّ ويبدل، ويطوّل، ويقصر، وهكذا..

فيا تُرى أ يحقُّ لذلك الفقير الأجير أن يقول لذلك الصانع الماهر: «إنك تتعبني وترهقني وتضيّق عليّ بطلبك مني الانحناء مرةً والاعتدال أخرى.. وإنك تشوّه الجمال المتألق على هذا القميص الذي يجمّل هندامي ويزيّن قامتي بقصّك وتقصيرك له.. إنك تظلمني ولا تنصفني؟».

وكذلك الحال بالنسبة للصانع الجليل سبحانه وتعالى - ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ - الذي ألبسك أيها المريض قميص الجسد، وأودع فيه الحواس النورانية المرصعة كالعين والأذن والعقل، فلأجل إظهار نقوش أسمائه الحسنى، يبدّلك ضمن حالات متنوعة ويضعك في أوضاع مختلفة. فكما أنك تتعرف على اسمه «الرزاق» بتجرّعك مرارةَ الجوع، تتعرف على اسمه «الشافي» بمرضك.

ونظراً لظهور قسم من أحكام أسمائه الحسنى بالآلام وانكشافه بالمصائب، ففيها لمعاتُ الحكمة وشعاعات الرحمة وأنوار الجمال. فإذا ما رُفع الحجاب فستجد فيما وراء مرضك الذي تستوحش منه وتنفر، معانيَ عميقةً جميلة محببة ترتاح إليها، تلك التي كانت تنزوي خلف حجاب المرض.

الدواء الخامس

أيها المبتلى بالمرض! لقد توافرت لديّ القناعة التامة خلال تجربتي في هذا الزمان، بأنَّ المرض نوعٌ من الإحسان الإلهي والهدية الرحمانية لقسم من الناس.[١] فقد التقاني بعضُ الشباب في هذه السنوات الثماني أو التسع، لمعاناتهم المرض، ابتغاء دعائي لهم، رغم أني لست أهلاً لذلك. فلاحظت أن مَن كان منهم يعاني مرضاً هو أكثر تفكراً في الآخرة وتذكراً لها، وليس ثملاً بغفلة الشباب، بل كان يقي نفسَه -إلى حدّ ما- تحت أوجاع المرض وأوصابه ويحافظ عليها من الشهوات الحيوانية. وكنت أذكّرهم بأني أرى أن أمراضَهم هذه، ضمن قابليتهم على التحمّل إنما هي إحسانٌ إلهي وهبة منه سبحانه. وكنت أقول: «يا أخي! أنا لست ضد مرضك هذا ولا عليه، فلا أشعر بشفقة عليك ورأفة لأجل مرضك، كي أقوم بالدعاء لك، فحاول التجمل بالصبر والثبات أمام هذا المرض، حتى تتحقق لك الإفاقة والصحوة؛ إذ بعد أن ينهي المرض مهامَّه سيشفيك الخالقُ الرحيم إن شاء». وكنت أقول أيضاً: «إنَّ قسماً من أمثالك يزعزعون حياتهم الأبدية بل يهدمونَها مقابل متاع ظاهري لساعة من حياة دنيوية، وذلك لمضيّهم سادرين في الغفلة الناشئة من بلاء الصحة، هاجرين الصلاة ناسين الموت وغافلين عن الله عز وجل. أما أنت فترى بعين المرض القبرَ الذي هو منزلُك الذي لا مناص من الذهاب إليه، وترى كذلك ما وراءه من المنازل الأخروية الأخرى، ومن ثم تتحرك وتتصرف على وفق ذلك. فمرضُك إذن إنما هو بمثابة صحةٍ لك، والصحةُ التي يتمتع بها قسم من أمثالك إنما هي بمثابة مرضٍ لهم».

الدواء السادس

أيها المريض الشاكي من الألم! أسألك أن تعيد في نفسك ما مضى من عمرك وأن تتذكر الأيام الهانئة اللذيذة السابقة من ذلك العمر والأوقات العصيبة والأليمة التي فيه.

فلا جرم أنك ستنطق لساناً أو قلباً: إما بـ«أوه» أو «آه». أي أما ستتنفس الصعداء وتقول: «الحمد لله والشكر له» أو ستتنهد عميقاً قائلاً: «وا حسرتاه!. وا اسفاه!». فانظر كيف أنَّ الآلام والنوائب التي عانيتَ منها سابقاً عندما خَطَرتْ بذهنك غمرتك بلذة معنوية، حتى هاج قلبُك بـ«الحمد لله والشكر له»؛ ذلك لأنَّ زوال الألم يولّد لذة وشعوراً بالفرح.

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «مَن يرد الله به خيراً يُصب منه». البخاري، المرضى ١.

ولأنَّ تلك الآلام والمصائب قد غَرست بزوالها لذةً كامنة في الروح سالت بتخطرها على البال وخروجها من مكمنها حلاوةً وسروراً وتقطرت حمداً وشكراً. أما حالات اللذة والصفاء التي قضيتَها والتي تنفث عليها الآن دخان الألم بقولك: «وا أسفاه، وا حسرتاه» فإنها بزوالها غَرست في روحك ألماً مضمراً دائماً، وها هو ذا الألم تتجدّد غصّاتُه الآن بأقل تفكرٍ في غياب تلك اللذات، فتنهمر دموعُ الأسف والحسرة. فما دامت اللذةُ غير المشروعة ليوم واحد تذيق الإنسان -أحياناً- ألماً معنوياً طوال سنة كاملة، وأن الألم الناتج من يوم مرض مؤقت يوفر لذةً معنوية لثواب أيام عدة فضلاً عن اللذة المعنوية النابعة من الخلاص منه، فتذكّر جيداً نتيجة المرض المؤقت الذي تعانيه وفكّر في الثواب المرجو المنتشر في ثناياه، وتشبث بالشكر وترفّع عن الشكوى وقل: «يا هذا.. كل حالٍ يزول..».

الدواء السادس[1]

أيها الأخ المضطرب من المرض بتذكر أذواق الدنيا ولذائذها! لو كانت هذه الدنيا دائمةً فعلاً، ولو انزاح الموت عن طريقنا فعلاً، ولو انقطعت أعاصيرُ الفراق والزوال عن الهبوب بعد الآن، ولو تفرغ المستقبل العاصف بالنوائب عن مواسم الشتاء المعنوية، لانخرطتُ في صفك ولرثيتُك باكياً لحالك. ولكن مادامت الدنيا ستخرجنا منها قائلة: «هيا اخرجوا..!.» صامّة آذانَها عن صراخنا واستنجادنا. فعلينا نحن قبل أن تطردنا هي نابذة لنا، أن نهجر عشقَها والإخلاد إليها من الآن، بإيقاظات الأمراض والسعي لأجل التخلي عن الدنيا قلباً ووجداناً قبل أن تتخلى هي عنّا.

نعم، إن المرض بتذكيره إيانا هذا المعنى اللطيف والعميق، يهمس في سرائر قلوبنا قائلاً:

«بنيتُك ليست من الصُلبِ والحديد بل من موادَّ متباينةٍ مركبة فيك، ملائمة كل التلاؤم للتحلل والتفسخ والتفرق حالاً، دع عنك الغرور وأدرك عجزَك وتعرّف على مالكك، وافهم ما وظيفتُك وتعلّم ما الحكمة والغاية من مجيئك إلى الدنيا؟».

ثم ما دامت أذواق الدنيا ولذاتُها لا تدوم، وبخاصة إذا كانت غيرَ مشروعة، بل تبعث في النفس الألمَ وتكسبه ذنباً وجريرة، فلا تبك على فقدك ذلك الذوق بحُجة المرض، بل تفكّر

(١) نظراً لورود هذه اللمعة فطرياً دون تكلف وتعمّد، فقد كُتبت في المرتبة السادسة دواءان، وإحجاماً عن الإقحام في فطريتها، فقد تركناها كما هي ولم نجرؤ على تبديل شيء منها خوفاً من وجود سرّ في المسألة. (المؤلف).

في معنى العبادة المعنوية التي يتضمنها مرضُك والثواب الأخروي الذي يخفيه لك، واسعَ لتنال ذلك الذوق الخالص الزكي.

الدواء السابع

أيها المريض الفاقد لنعمة الصحة! إنَّ مرضك لا يُذهب بلذة النعمة الإلهية في الصحة بل على العكس، إنه يذيقك إيّاها ويطيّبها ويزيدها لذة، ذلك أنَّ شيئاً ما إذا دام واستمر على حاله يفقد طعمَه وتأثيره. حتى اتفق أهلُ الحق على القول: «إنما الأشياء تُعرف بأضدادها..» فمثلاً: لولا الظلمةُ لما عُرف النور ولظل دون لذة، ولولا البرودة لما عُرفت الحرارة ولبقيت دون استساغة، ولولا الجوع لما أعطى الأكل لذتَه وطعمه، ولولا حرارة المعدة لما وَهَبنا احتساءُ الماء ذوقاً، ولولا العلّة لكانت العافية بلا ذوق، ولولا المرض لباتت الصحةُ عديمةَ اللذة.

إنَّ الفاطر الحكيم لمّا أراد إشعارَ الإنسان وإحساسه بمختلف إحساناته وإذاقته أنواع نِعَمه سَوقاً منه إلى الشكر الدائم، جهّزه بأجهزة في غاية الكثرة لتُقبل على تذوّق تلك الآلاف المؤلفة من أنواع النعم المختلفة، لذا فلابد من أنه سيُنزل الأمراض والأسقام والعلل أيضاً مثلما يُلطف ويرزق بالصحة والعافية.

وأسألك: «لو لم يكن هذا المرض الذي أصاب رأسَك أو يدك أو معدتك.. هل كان بمقدورك أن تتحسس اللذةَ الكامنة في الصحة التي كانت باسطةً ظِلالَها على رأسك أو يدك أو معدتك؟ وهل كنت تتمكن من أن تتذوق وتشكر النعمة الإلهية التي جسّدتها تلك النعمة؟ بل كان الغالب عليك النسيان بدلاً من الشكر، أو لكنتَ تصرف تلك الصحة بطغيان الغفلة إلى سفاهة دون شعور!».

الدواء الثامن

أيها المريض الذاكر لآخرته! إنَّ مرضك كمفعول الصابون، يُطَهّر أدرانَك، ويمسح عنك ذنوبك، وينقّيك من خطاياك. فقد ثبت أن الأمراض كفّاراتٌ للذنوب والمعاصي، وورد في الحديث الصحيح: (**ما من مسلم يصيبه أذىً إلّا حاتّ الله عنه خطاياه كما تحاتّ ورقُ الشجر**)[1] والذنوب هي أمراضٌ دائمة في الحياة الأبدية. وهي في هذه الحياة الدنيا أمراض

(١) البخاري، المرضى ١، ٢، ١٣، ١٦؛ مسلم، البر ١٤؛ الدارمي، الرقاق ٥٧؛ أحمد بن حنبل، المسند ١/ ٣٧١، ٤٤١، ٢/ ٣٠٣، ٣٣٥، ٣/ ٤، ١٨، ٣٨، ٤٨، ٦١، ٨١.

معنوية في القلب والوجدان والروح. فإذا كنت صابراً لا تشكو نجوتَ بنفسك إذن بهذا المرض العابر من أمراض دائمة كثيرة جداً. وإذا كنت لاهياً عن ذنوبك، ناسياً آخرتك غافلاً عن ربك، فإني أؤكد معاناتك من داءٍ خطير، هو أخطرُ وأفتك وأكبر بمليونَ مرة من هذه الأمراض الموقتة، ففرّ منه واصرخ..! لأنَّ قلبك وروحك ونفسك كلَّها مرتبطةٌ بموجودات الدنيا قاطبة، وأن تلك الأواصر تنقطع دوماً بسيوف الفراق والزوال فاتحة فيك جروحاً عميقة، وبخاصة أنك تتخيل الموت إعداماً أبدياً لعدم معرفتك بالآخرة. فكأن لك كياناً مريضاً ذا جروح وشروخ بحجم الدنيا، مما يحتم عليك قبل كل شيء أنْ تبحث عن العلاج التام والشفاء الحقيقي لكيانك المعنوي الكبير الذي تفسّخه العللُ غير المحدودة والكُلوم غير المعدودة، فما أظنك تجدها إلّا في علاج الإيمان وبلسمه الشافي، واعلم أن أقصر طريق لبلوغ ذلك العلاج هو الإطلال من نافذتَي «العجز والفقر» اللتين تتفتحان بتمزيق المرض المادي لحجاب الغفلة واللتين جُبلَ الإنسانُ عليهما، وبالتالي تبلغ معرفة قدرة القادر ذي الجلال ورحمته الواسعة.

نعم إنَّ الذي لا يعرف الله يحمل فوق رأسه هموماً وبلايا بسعة الدنيا وما فيها، ولكن الذي عرف ربه تمتلئ دنياه نوراً وسروراً معنوياً، وهو يشعر بذلك بما لديه من قوة الإيمان -كل حسب درجته- نعم، إن ألم الأمراض المادية الجزئية يذوب وينسحق تحت وابل السرور المعنوي والشفاء اللذيذ القادمين من الإيمان.

الدواء التاسع

أيها المريض المؤمن بخالقه! إنَّ سبب التألم من الأمراض والخوف والفزع منها ينبع من كون المرض أحياناً وسيلةً للموت والهلاك، ولكون الموت -بنظر الغفلة- مرعباً مخيفاً ظاهراً، فإن الأمراض التي يمكن أن تكون وسائل له، تبعث على القلق والاضطراب. فاعلم:

أولاً: آمن قطعاً أنَّ الأجل مقدّرٌ لا يتغيّر. فقد حدث أنْ مات أولئك الباكون عند المحتضرين في مرضهم. مع أنهم كانوا يتمتعون بصحة وعافية، وشفي أولئك المرضى الذين كانت حالتهم خطرة وعاشوا بعد ذلك أحياءً يُرزقون.

ثانياً: إنَّ الموت ليس مخيفاً في ذاته، كما يبدو لنا في صورته الظاهرية، وقد أثبتنا في رسائل كثيرة إثباتاً قاطعاً -دون أن يترك شكاً ولا شبهة- بموحيات نور القرآن الكريم: أنَّ

الموت للمؤمن إعفاءٌ وإنهاء من كلفة وظيفة الحياة ومشقتها.. وهو تسريح من العبودية التي هي تعليم وتدريب في ميدان ابتلاء الدنيا.. وهو بابُ وصال لالتقاء تسعة وتسعين من الأحبة والخلّان الراحلين إلى العالم الآخر.. وهو وسيلةٌ للدخول في رحاب الوطن الحقيقي والمقام الأبدي للسعادة الخالدة.. وهو دعوة للانتقال من زنزانة الدنيا إلى بساتين الجنة وحدائقها.. وهو الفرصة الواجبة لتسلّم الأجرة إزاء الخدمة المؤداة، تلك الأجرة التي تُغدق سخية من خزينة فضل الخالق الرحيم.

فما دامت هذه هي ماهية الموت -من زاوية الحقيقة- فلا ينبغي أن يُنظَر إليه كأنه شيء مخيف، بل يجب اعتباره تباشيرَ الرحمة والسعادة. حتى إن قسماً من «أهل الله» لم يكن خوفُهم من الموت بسبب وحشة الموت ودهشته، وإنما بسبب رغبتهم في كسب المزيد من الخير والحسنات بإدامة وظيفة الحياة.

نعم إنَّ الموت لأهل الإيمان باب الرحمة. وهو لأهل الضلالة بئر مظلمة ظلاماً أبدياً.

الدواء العاشر

أيها المريض القلق دون داع للقلق! أنت قلقٌ من وطأة المرض وشدته، فقلقك هذا يزيد ثقلَ المرض عليك. فإذا كنت تريد أن تخفف المرض عنك، فاسع جاهداً للابتعاد عن القلق. أي تفكّر في فوائد المرض، وفي ثوابه، وفي حثه الخطى إلى الشفاء. فاجتث جذورَ القلق من نفسك لتجتث المرض من جذوره.

نعم، إنَّ القلق (أو الوسوسة) يضاعف مرضك ويجعله مرضين. لأنَّ القلق يبث في القلب -تحت وطأة المرض المادي- مرضاً معنوياً، فيدوم المرضُ المادي مستنداً إليه، فإذا ما أذهبتَ عنك القلقَ والهواجس بتسليم الأمر لله والرضا بقضائه، وباستحضار حكمة المرض، فإنَّ مرضك المادي سيفقد فرعاً مهماً من جذوره فيُخفف، وقسمٌ منه يزول، وإذا ما رافقت المرض المادي أوهامٌ وهواجس فقد يكبر عُشرَ مِعشار تلك الأوهام بوساطة القلق إلى معشار، ولكن بانقطاع القلق يزول تسعة من عشرة من مفعول ذلك المرض، وكما أنَّ القلق يزيد المرض، كذلك يجعل المريض كأنه يتهم الحكمة الإلهية وينتقد الرحمة الإلهية ويشكو من خالقه الرحيم، لذا يؤدَّب المريضُ بلطمات التأديب -بخلاف ما يقصده هو- مما يزيد مرضَه. إذ كما أنَّ الشكر

يزيد النعمَ فالشكوى كذلك تزيد المرض والمصيبة. هذا وإن القلق في حد ذاته مرض، وعلاجه إنما هو في معرفة حكمة المرض. وإذا ما عرفت حكمتَه وفائدته، فامسح قلقك بذلك المرهم وانج بنفسك وقل بدلاً من «وآ أسفاه»: «الحمد لله على كل حال».

الدواء الحادي عشر

أيها الأخ المريض النافد صبرُه! مع أنَّ المرض يعطيك ألماً حاضراً فهو يمنحك في الوقت نفسه لذة معنوية مستدرّة من زوال مرضك السابق، مع لذةٍ روحية نابعة من الثواب الحاصل من جراء ذلك المرض. فالزمان القابل بعد اليوم، بل بعد هذه الساعة لا يحمل مرضاً. ولا شك أنه لا ألمَ من غير شيء، وما لم يكن هناك ألمٌ فلا توجّع ولا شكوى. ولكن لأنك تتوهم توهماً خطأً فإن الجزع ينتابك، إذ مع زوال فترة المرض المادي قد ذاب ألمُ تلك الفترة أيضاً وثبت ثوابُ المرض وبقيت لذةُ زواله.. فمن البلاهة بل من الجنون أنْ تتذكر بعد الآن المرض السابق وتتألم منه، فتفقد صبرك وينفد منك، في حين يلزمك الانشراح بذهابه والارتياح بثوابه. أما الأيام القابلة فإنها لم تأت بعد. أليس من البلاهة إشغال النفس من الآن بالتفكر في يوم لم يولد بعد، وفي مرض لم ينزل بعد وفي ألم لم يقع بعد؟. فهذا النوع من التوهم -نتيجة التفكر المرير وتحميل النفس ألماً موجعاً- يدفع إلى فقدان الصبر ويُصبغ ثلاثة أنواع من العدم بثلاث مراتب من الوجود. أليس هذا جنوناً؟. فما دامت أزمنة المرض التي سبقت هذه الساعة تبعث على النشوة والحبور، وما دام الزمانُ القابل بعد هذه الساعة معدوماً، فالمرض معدوم والألم معدوم.

فلا تبذّر يا أخي ما وهب لك الحق سبحانه وتعالى من قوة الصبر يميناً وشمالاً. بل احشدها جميعاً مقابل الألم الذي يعتريك في هذه الساعة وقل: «يا صبور» وتحمل صابراً محتسباً!...

الدواء الثاني عشر

أيها المريض المحروم من العبادة وأورادِها بسبب المرض! ويا أيها الآسف على ذلك الحرمان! اعلم أنه ثابت في الحديث الشريف[1] ما معناه: **(أن المؤمن التقي يأتيه ثواب ما كان**

(١) عن أبي موسى أن النبي ﷺ قال: «إذا مرض العبد أو سافر، كتب الله تعالى له من الأجر مثل ما كان يعمل صحيحاً مقيماً». البخاري، الجهاد ١٣٤؛ أبو داود، الجنائز ١؛ أحمد بن حنبل، المسند ٤/ ٤١٠، ٤١٨..

يؤديه من العبادة حتى في أثناء مرضه، فالمرض لا يمنع ثوابه). فإن المريض المؤدي للفرائض -على قدر استطاعته- سينوب المرضُ عن سائر السُنن ويحل محلّها أثناء شدة المرض نيابةً خالصة، لما يتجمل ذلك المريض بالصبر والتوكل والقيام بالفرائض، وكذا يُشعر المرضُ الإنسانَ بعجزه وضعفه، فيتضرع المريض بذلك العجز وذلك الضعف بالدعاء حالاً وقولاً. ولم يُودع الله سبحانه وتعالى في الإنسان عجزاً غير محدود وضعفاً غير متناه إلّا ليلتجئ دائماً إلى الحضرة الإلهية بالدعاء سائلاً راجياً، حيث إن الحكمة من خلق الإنسان والسبب الأساس لأهميته هو الدعاء الخالص بمضمون الآية الكريمة: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ (الفرقان: ٧٧) ولكون المرض سبباً للدعاء الخالص، فلا تصحُّ الشكوى منه، بل يجب الشكر لله؛ إذ لا ينبغي أن تُجَفّف ينابيعَ الدعاء التي فجّرها المرضُ عند كسب العافية.

الدواء الثالث عشر

أيها المسكين الشاكي من المرض! إنَّ المرض يغدو كنزاً عظيماً لبعض الناس، وهدية إلهية ثمينة لهم. وباستطاعة كل مريض أن يتصور مرضَه من هذا النوع، حيث إنَّ الحكمة الإلهية اقتضت أنْ يكون الأجلُ مجهولاً وقتُه، إنقاذاً للإنسان من اليأس المطلق ومن الغفلة المطلقة، وإبقاءاً له بين الخوف والرجاء، حفظاً لدنياه وآخرته من السقوط في هاوية الخسران.. أي أن الأجل متوقع مجيئُه كل حين، فإن تمكّن من الإنسان وهو سادر في غفلته يكبّده خسائر فادحة في حياته الأخروية الأبدية. فالمرض يبدد تلك الغفلة ويشتتها، وبالتالي يذكّر بالآخرة ويستحضر الموتَ في الذهن فيتأهب له. بل يحدث أن يربّحه ربحاً عظيماً، فيفوز خلال عشرين يوماً بما قد يستعصي استحصاله خلال عشرين سنة كاملة. فعلى سبيل المثال:

كان هناك فتَيان -يرحمهما الله- أحدهما يدعى «صبري» من قرية «إيلاما» والآخر «مصطفى وزير زاده» من «إسلام كوي» ورغم كونهما أُميين من بين طلابي، فقد كنتُ ألحظُ بإعجاب موقعَهما في الصف الأول في الوفاء والصدق وفي خدمة الإيمان، فلم أدرك حكمة ذلك في حينها، ولكن بعد وفاتهما علمت أنهما كانا يعانيان من داءين عضالين، وبإرشاد من ذلك المرض أصبحا على تقوى عظيمة يسعيان في خدمة راقية، وفي وضع نافع لآخرتهما، على خلاف سائر الشباب الغافلين الساهين حتى عن فرائضهم. فنسأل الله أن تكون سنتا المرض والمعاناة اللتان قضياهما في الحياة الدنيا قد تحولتا إلى ملايين السنين من سعادة الحياة الأبدية.

والآن فقط أفهم أنّ دعائي لهما بالشفاء قد أصبح دعاءً عليهما من زاوية الدنيا، ولكن أرجو الله أن يكون دعائي مستجاباً لصحتهما الأخروية.

وهكذا استطاع هذان الشخصان -حسب اعتقادي- الحصولَ على ربح يساوي الكسب الذي يحققه الإنسان بالسعي والتقوى لعشر سنين في الأقل[1]، فلو كانا متباهيَين بصحتهما كبعض الشباب وسائقَين لنفسيهما إلى شراك الغفلة والسفاهة حتى يأتيهما الموتُ المترصد، وهما يتخبطان في أوحال الخطايا وظلماتها، لكان قبراهما الآن جحورَ العقارب والأفاعي بدلاً من كونهما الآن دفائن النور وكنوز البهجة.

فما دامت الأمراض تحمل في مضامينها هذه المنافع الكبيرة فلا يجوز الشكوى منها، بل يجب الاعتماد على الرحمة الإلهية بالتوكل والصبر بل بالحمد والشكر.

الدواء الرابع عشر

أيها المريض المسدل على عينيه! إذا أدركتَ أن هناك نوراً، وأي نور! وعيناً معنوية تحت ذلك الحجاب المسدل على أعين أهل الإيمان، فستقول: «شكراً و ألف شكر لربي الرحيم». وتوضيحاً لهذا المرهم سأورد الحادثة الآتية:

لقد أصيبت عمةُ «سليمان» وهو من «بارلا» الذي ظل يخدمني دون أن يملّني يوماً أو يتضايق بشيء مني طوال ثماني سنوات خدمة مقرونة بكمال الوفاء والاحترام.. أصيبت هذه المسكينة بالعمى فانطفأ نورُ عينها، ولفرط حُسن ظن تلك المرأة الصالحة بي أكثر مما أستحق بكثير تشبثت بي وأنا أغادر المسجد قائلة: «بالله عليك ادع الله لي من أجل عيني»، وأنا بدوري جعلت صلاح تلك المرأة المباركة المؤمنة قريناً وشفيعاً لدعائي فدعوتُ الله بتضرع وتوسل قائلاً: «اللهم يا ربنا بحرمة صلاحها اكشف عن بصرها». وفي اليوم التالي جاء طبيب من ولاية «بوردور» القريبة، وهو مختص بالعيون، فعالجها، فردّ الله عليها بصرَها، وبعد أربعين يوماً عادت عينُها إلى حالتها الأولى، فتألمت لذلك كثيراً ودعوت دعاءً كثيراً، وأرجو أن يكون دعائي مستجاباً على حساب آخرتها وإلّا فإن دعائي ذلك سيصبح -خطأً- دعاءً عليها، حيث قد بقيت لتستوفي أجلَها أربعين يوماً فقط؛ إذ بعد أربعين يوماً مضت إلى رحمة الله.

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الرجل ليكون له عند الله المنزلةُ، فما يبلغها بعمل، فما يزالُ الله يبتليه بما يكره حتى يُبلغه إياها» أبو يعلى، المسند ٤/ ١٤٤٧؛ ابن حبان، الصحيح ٦٩٣؛ الحاكم، المستدرك ١/ ٣٤٤.

وهكذا، فإن حرمان هذه المرأة المرجوّة لها الرحمة من نعمة النظر ببصر الشيخوخة العطوف والاستمتاع بجمال الحدائق الحزينة لـ«بارلا» وإسدال الحجاب بينها وبين المروج اللطيفة خلال أربعين يوماً، قد عوّض عنها الآن في قبرها، إطلالُها على الجنة ومشاهدة ألفاف حدائقها الخضراء لأربعة آلاف يوم ويوم.. ذلك لأن إيمانَها كان راسخاً عميقاً وصلاحَها كان مشعاً عظيماً.

نعم، المؤمن إذا ما أُسدل على عينيه حجاب ودخل القبر هكذا، فإنه يستطيع أن يشاهد عالم النور -حسب درجته- بنظر أوسع من نظر أهل القبور. إذ كما أننا نرى بعيوننا أكثر الأشياء في هذه الدنيا، والمؤمنون العميان لا يستطيعون رؤيتها، ففي القبر أيضاً سيرى أولئك العميان -بتلك الدرجة- إن كانوا أصحاب إيمان - أكثر مما يراه أهلُ القبور، وسيشاهدون بساتين الجنة ونعيمَها كأنهم مزوّدون بمراصد -كل حسب درجته- تلتقط مناظر الجنة الرائعة وتعرضها كالشاشة السينمائية أمام أعين أولئك المكفوفين الذين حُرِموا من نور أبصارهم في الدنيا.

فبإمكانك أيها الأخ الحصول على هذه العين النورانية التي تكشف عن الجنة فيما فوق السماوات العلى وأنت بعدُ تحت الثرى، وذلك بالصبر والشكر على ذلك الحجاب المُسدل على عينيك، واعلم أن الحكيم المختص بالعين والقادر على رفع ذلك الحجاب عن عينيك لترى بتلك العين النورانية، إنما هو القرآن الحكيم.

الدواء الخامس عشر

أيها المريض المتأوّه بالأنين! لا تتأوه أبداً ولا تئن ناظراً إلى صورة المرض القبيحة المذمومة، بل انظر إلى معناه وفحواه وانبسط قائلاً: الحمد لله.

فلو لم يكن معنى المرض شيئاً جميلاً لما كان الخالقُ الرحيم يبتلي أحبَّ أحبّائه من عباده بالأمراض والأسقام، فقد جاء في الحديث الشريف: (**أشدّ الناس بلاءً الأنبياء ثم الأولياء، ثم الأمثل فالأمثل**)[1] أو كما قال. ويقف في مقدمة المُبتلين النبي الصابر أيوب عليه السلام، ثم

(١) هناك عدة أحاديث شريفة بهذا المعنى كلها صحيحة نختار واحداً منها: عن أخت حذيفة رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: (أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل) رواه الطبراني في الكبير (انظر صحيح الجامع الصغير برقم ١٠٠٥).

الأنبياء الباقون عليهم السلام، ثم الأولياء ثم الصالحون. وقد تلقوا جميعاً تلك الأمراض التي قاسوها عبادةً خالصة وهدية رحمانية، فأدّوا الشكر من خلال الصبر، وكانوا يرونها نوعاً من العمليات الجراحية تُمنح لهم من لدن الرحمن الرحيم.

فأنت أيها المريض المتأوه المتألم! إنْ كنت تروم الالتحاق بهذه القافلة النورانية، فأدِّ الشكر في ثنايا الصبر، وإلّا فإن شكواك ستجعلهم يحجمون عن ضمّك إلى قافلتهم، وستهوي بنفسك في هوة الغافلين! وستسلك درباً تخيّم عليه الظلمات.

نعم، هناك أمراض إذا أعقبتها المنية، يُكَلل صاحبُها بشهادة معنوية تجعله يحرز مقام الولاية لله، وهي تلك الأمراض التي تتمخض عن الولادة[1] وغصص البطن، والغرق والحرق والطاعون، فهذه الأمراض إذا مات بها صاحبُها فإنه سيرتفع إلى درجة الشهيد المعنوي. فهناك أمراض كثيرة ذات بركة تكسب صاحبها درجة الولاية بالموت الذي تنتهي به،[2] ولما كان المرض يخفف من شدة حب الدنيا وغلوائها ومن عشقها والعلاقة الشديدة بها فهو يخفف كذلك الفراق الأليم والمرّ لأهل الدنيا وهم يغادرونها بالموت بل قد يحببه إليهم.

الدواء السادس عشر

أيها المريض الشاكي من الضجر! إنَّ المرض يُلقّن صاحبَه أهم عرى الحياة الاجتماعية والإنسانية وأجمل أواصرها وهما الاحترام والمحبة، لأنه ينقذ الإنسان من الاستغناء عن الآخرين، ذلك الاستغناء الذي يسوق إلى الوحشة ويجرد الإنسان من الرحمة، لأنه كما يتبيّن من الآية الكريمة: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ (العلق:٦-٧) أنَّ النفس الأمارة الواقعة في شِباك الاستغناء -الناجم عن الصحة والعافية- لن تشعر بالاحترام اللائق تجاه العلاقات الأخوية، ولن تحس بالرحمة والرأفة بالمبتلين بالمصائب والأمراض الجديرين بالرحمة والعطف. ولكن متى ما انتاب الإنسانَ المرضُ و أدرك مدى عجزه، ومدى فقره، تحت ضغوط المرض وآلامه وأثقاله فإنه يشعر بالاحترام لأشقائه المؤمنين اللائقين بالاحترام الذين يقومون برعايته، أو الذين يأتون لعيادته، ويشعر كذلك بالرأفة الإنسانية وهي خصلة

---

(١) يمتد كسب هذا المرض للشهادة المعنوية لغاية انتهاء فترة النفاس وهي أربعون يوماً. (المؤلف).

(٢) انظر: البخاري، الأذان، ٣٢، الجهاد ٣٠؛ المسلم، الإمارة ١٦٤؛ أحمد بن حنبل، المسند ٢/ ٣٢٤، ٥٣٣، ٥/ ٤٤٦؛ الحاكم، المستدرك ١/ ٥٠٣

إسلامية تجاه أهل المصائب والبلايا -قياساً على نفسه- فتفيض من قلبه الرحمةُ والرأفة بكل معناهما تجاههم، وتضطرم عنده الشفقة حارة إزاءهم، وإذا استطاع قدّم لهم يد العون، وإن لم يقدر عليه شرع بالدعاء لهم، أو بزيارتهم والاستفسار عن راحتهم وأحوالهم مؤدياً بذلك سُنةً مشروعة كاسباً ثوابها العظيم.[١]

الدواء السابع عشر

أيها المريض الشاكي من العجز عن القيام بإعمال البرّ! كن شاكراً! فإني أبشّرك بأنّ الذي يفتح أبوابَ أخلص الخيرات، إنما هو المرضُ نفسه، فالمرض فضلاً عن أنه يورث ثواباً مستمراً للمريض وللذين يرعونه لله، فهو يمثل أهم وسيلة لقبول الدعاء.

نعم، إنَّ رعاية المرضى تجلب لأهل الإيمان ثواباً عظيماً، وإن زيارتهم والسؤال عن صحتهم وراحتهم بشرط عدم تنغيصهم لهي من السُنة الشريفة،[٢] وهي كفارة للذنوب في الوقت نفسه. وقد ورد حديث بهذا المعنى: (اطلبوا دعاء المريض فدعاؤه مستجاب)،[٣] وبخاصة إنْ كان المريض من الأقربين، وبخاصة إن كان والداً أو والدة، فإن خدمتهما هي عبادة مهمة وهي مثوبة كبرى أيضاً. وإن تطمين أفئدة المرضى وبث السلوان في قلوبهم، يعتبر بحكم صَدَقة مهمة. فما أسعد أولئك الأبناء الذين يقومون برعاية آبائهم أو أمهاتهم عند مرضهم ويُدخلون البهجة في قلوبهم الرقيقة المرهفة فيفوزون بدعاء الوالدين لهم.

نعم، إنَّ الحقيقة التي تستحق احتراماً أكثر ومكانة أسمى في الحياة الاجتماعية هي شفقة الوالدين، وتعويض الأبناء الطيبين لتلك الشفقة، بتوجيه الاحترام اللائق والعاطفة البارّة الزكية إليهما حينما يعانون من مرض. وهي لوحة وفية تظهر الوضع الجيد للأبناء وسمو الإنسانية بحيث تثير إعجاب كل المخلوقات حتى الملائكة، فيحيّونها مهللين مكبرين وهاتفين: «ما شاء الله، بارك الله».

---

(١) انظر: مسلم، البر ٤٠؛ أبو داود، الجنائز ٧؛ الترمذي، الجنائز ٢؛ البر ٦٤؛ ابن ماجه، الجنائز ١، ٢؛ أحمد بن حنبل، المسند ٢/ ٣٤٤، ٣٥٤؛ ابن حبان، الصحيح ٧/ ٢٢٨؛ البيهقي، شعب الإيمان ٦/ ٤٩٣

(٢) انظر: البخاري، العلم ٣٩، الجزية ٦، المرضى ٤، ٥، ٩، ١١، ١٧؛ مسلم، السلام ٤٧، البر ٣٩-٤٣؛ أحمد بن حنبل، المسند ١/ ١٢٠، ١٣٨، ١٩٥؛ ابن حبان، الصحيح ٧/ ٦، ٢٢٢، ٢٤٠

(٣) ابن ماجه، الجنائز، ١؛ البيهقي، شعب الإيمان ٦/ ٥٤١.

نعم، إنَّ العواطف والرأفة والرحمة المحلقة حوالي المريض لتذيب ألَمَ المريض وتحوله إلى لذاتٍ حلوة مفرحة.

إنَّ قبول دعاء المريض والاستجابة له مسألةٌ مهمة جديرة بالاهتمام. فمنذ حوالي أربعين سنة كنت أدعو للشفاء من مرض في ظهري، ثم أدركتُ أن المرض يُمنح لأجل الدعاء، وكما أن الدعاء لا يرفع دعاءً، أي أنَّ الدعاء لعدم تمكّنه من إزالة نفسه فإن نتيجته أخروية.[١] والدعاء بذاته نوع من العبادة، إذ يلتجئ المريضُ إلى الملاذ الإلهي عند إدراكه لعجزه.

ولهذا فإن عدم القبول الظاهري لدعوتي بالشفاء من مرضي طوال ثلاثين سنة لم يصرفني أبداً من أن أفكر في يوم من الأيام بتركه والتخلي عنه، ذلك لأنَّ المرض أوانُ الدعاء ووقته، والشفاء ليس نتيجة الدعاء بل إذا وهب الله سبحانه -وهو الحكيم الرحيم- الشفاء فإنه يهبه من فضله وكرمه، وإنّ عدم قبول الدعاء بالشكل الذي نريده لا يقودنا إلى القول بأن الدعاء لم يُستَجب، فالخالق الحكيم يعلم أفضل منا ونحن نجهل، وأنه سبحانه يسوق إلينا ما هو خير لنا وأنفع، وأنه يدّخر لنا الأدعية الخاصة بدنيانا أحياناً لتنفعنا في أُخرانا، وهكذا يقبل الدعاء. ومهما يكن فإن الدعاء الذي اكتسب الإخلاص والنابع من سرّ المرض والآتي من الضعف والعجز والتذلل والاحتياج، قريبٌ جداً من القبول. والمرض أساسٌ لمثل هذا الدعاء الخالص ومداره. فالمريض والذين يقومون برعايته من المؤمنين ينبغي أن يستفيدوا من هذا الدعاء.

الدواء الثامن عشر

أيها المريض التارك للشكر والمستسلم للشكوى!

الشكوى تكون نابعةً من وجود حق يعود إليك، وأنت لم يذهب حَقُّكَ سدىً حتى تشكو، بل عليك حقوقٌ كثيرة لم تؤدّ بعدُ شكرَها. إنك لم تؤدّ حق الله عليك، وفوق ذلك تقوم بالشكوى بالباطل وكأنك على حق، فليس لك أن تشكو ناظراً إلى مَن هو أعلى منك مرتبة من الأصحاء، بل عليك النظر -من زاوية الصحة- إلى أولئك العاجزين من المرضى الذين هم أدنى منك درجة.

---

(١) مع أن قسماً من الأمراض يشكل علّة لوجود الدعاء، إلا أنه إذا أصبح الدعاء سبباً لعدم المرض، فكأن الدعاء يصبح سبباً لعدم نفسه وهذا لا يمكن. (المؤلف).

فأنت مكلف إذن بالشكر الجزيل. فإذا كانت يدُك مكسورةً فتأمل الأيدي المبتورة، وإذا كنت ذا عين واحدة فتأمل الفاقدين لكلتا العينين.. حتى تشكر الله سبحانه.

نعم، فليس لأحد في زاوية النعمة حق بمدّ البصر إلى مَن هو فوقه، لتتأجج نارُ الشكوى المحرقة عنده، إلّا أنه عند المصيبة يتحتم على المرء من زاوية المصيبة النظر إلى من هو أشد منه مصيبة وأعظم مرضاً ليشكر بعد ذلك قانعاً بما هو فيه. وقد وضح هذا السرّ في بعض الرسائل بمثال مقتضاه كالآتي:

شخص يأخذ بيد مسكين ليُصعدهُ إلى قمة منارة، ويهدي إليه في كل درجة من درجات المنارة هدية. وأخيراً يختم تلك الهدايا بأعظم هدية يهبها له عند قمة المنارة. وإذ كان المفروض على هذا المسكين أن يقدم الشكر والامتنان إزاء الهدايا المتنوعة، تراه يتناسى كل تلك الهدايا التي أخذها عند تلك الدرجات، أو يعدّها غير ذات بال، فلا يشكر، رافعاً ببصره إلى مَن هو أعلى منه شاكياً قائلاً: «لو كانت هذه المنارة أعلى مما هي عليه، لأبلغ أعلى درجة من هذه الدرجات! لِمَ لم تصبح مثل ذلك الجبل الشاهق ارتفاعاً أو المنارة المجاورة؟..».

وهكذا إذا قام هذا الرجل بهذه الشكوى، فما أعظم ما يرتكبه من كفران بالنعمة وما أعظم ما يقترف من تجاوز على الحق!

وكذا حال الإنسان الذي أتى إلى الوجود من العدم ولم يصبح حَجراً ولا شجراً ولا حيواناً، بل إنساناً مسلماً، وقد تمتع كثيراً بالصحة والعافية، ونال درجة من النعمة سامية... مع هذا يأتي هذا الإنسان ويُظهر الشكوى من عدم تمتعه بالصحة والعافية نتيجة بعض العوارض، أو لإضاعته النِعَم بسوء اختياره، أو من سوء الاستعمال، أو لعجزه عن الوصول إليها، ثم يقول: «يا ويلتا ماذا جنيتُ حتى حَلّ بي ما حَلّ»، ناطقاً بما يشي بانتقادٍ للربوبية الإلهية. فهذه الحالة هي مرضٌ معنوي ومصيبة أكبر من المرض المادي والمصيبة التي هو فيها، فهو يزيد مرَضه بالشكوى كمن يتصارع ويده مرضوضة. لكن العاقل يتمثل قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ (البقرة:١٥٦) فيسلّم الأمر لله صابراً حتى ينتهي ذلك المرض من أداء وظيفته ويمضي إلى شأنه.

الدواء التاسع عشر

إنَّ التعبير الصمداني بإطلاق «الأسماء الحسنى» على جميع أسماء الله الجميل ذي الجلال يدل على أن تلك الأسماء جميلة كلّها. وحيث إن الحياة هي أجمل مرآة صمدانية وألطفها وأجمعها في الموجودات، وإن مرآة الجميل جميلة أيضاً، وإن المرآة التي تعكس محاسن الجميل تصبح جميلة أيضاً، وإن كل شيء يصيب تلك المرآة من ذلك الجميل هو جميل كذلك، فكل ما يصيب الحياة جميل أيضاً من زاوية الحقيقة؛ ذلك لأنه يُظهر النقوش الجميلة لتلك «الأسماء الحسنى» الجميلة.

فلو مضت الحياة بالصحة والعافية على نسق واحد، لأصبحت مرآة ناقصة، بل قد تُشعر -في جهة ما- بالعدم والعبث، فتذيق العذابَ والضيق، وتهبط قيمةُ الحياة، وتنقلب لذة العمر وهناؤه إلى ألم وغصّة، فيلقي الإنسان بنفسه إما إلى أوحال السفاهة أو إلى أوكار اللهو والعربدة ليقضي وقته سريعاً، مَثَله كمثل المسجون الذي يعادي عمره الثمين ويقتله بسرعة، بغية إنهاء مدة السجن. ولكن الحياة التي تمضي بالتحولات والحركة وتقضي أطواراً شتى فإنها تُشعر أن لها قيمةً ووزناً وتنتج -هذه الحياة- للعمر أهمية وتُكسبه لذة، حتى إن الإنسان لا يرغب في أن يمضي عمره، رغم ما يعانيه من أصناف المشاق والمصائب ولا يتأوه ولا يتحسر قائلاً: «أنّى للشمس أن تغيب وأنّى لليل أن ينجلي».

نعم، إنْ شئت فاسأل شخصاً ثرياً عاطلاً، كل شيء عنده على ما يرام. اسأله: كيف حالك؟ فستسمع منه حتماً عبارات أليمة وحسرة مثل: آه من هذا الوقت.. إنه لا يمرّ.. ألا تأتي لنبحث عن لهو نقضي به الوقت.. هلم لنلعب النرد قليلاً..!. أو تسمع شكاوى ناجمة عن طول الأمل مثل: إن أمري الفلاني ناقص.. ليتني أفعل كذا وكذا.. أما إذا سألت فقيراً غارقاً في المصائب أو عاملاً كادحاً: كيف حالك؟ فإن كان رشيداً فسيقول لك: إني بخير والحمد لله وألف شكر لربي، فإني في سعي دائم.. يا حبذا لو لم تغرب الشمس بسرعة لأقضي ما في يدي من عمل. فالوقت يمر حثيثاً والعمر يمضي دون توقف، ورغم أنى منهمك في الواقع، إلّا أن هذا سيمضي أيضاً، فكل شيء يحث خطاه على هذا المنوال..!!. فهو بهذه الأقوال إنما يعبّر عن قيمة العمر وأهميته ضمن أسفه على العمر الذي يهرب منه، آسفاً على ذلك.. فهو يدرك إذن أن

لذة العمر وقيمةَ الحياة بالكدّ والمشقة، أما الراحة والدعة والصحة والعافية فهي تجعل العمر مرّا وتثقله بحيث يتمنى المرء الخلاص منه بسرعة.

أيها الأخ المريض! اعلم أن اصل المصائب والشرور بل حتى الذنوب إنما هو العدم كما أُثبت ذلك إثباتاً قاطعاً ومفصلاً في سائر الرسائل، والعدم هو شرّ محض وظلمة تامة. فالتوقف والراحة والسكون على نسق واحد ووتيرة واحدة حالات قريبة جداً من العدم والعبث، ودنوّها هذا هو الذي يُشعر بالظلمة الموجودة في العدم ويورث ضجراً وضيقاً. أما الحركة والتحول فهما وجودان ويُشعران بالوجود، والوجود هو خيرٌ خالص ونور.

فما دامت الحقيقة هكذا، فإن المرض الذي فيكَ إنما هو ضيف مُرسَلٌ إليك ليؤدي وظائفه الكثيرة فهو يقوم بتصفية حياتك القيمة وتقويتها ويرتقي بها ويوجه سائر الأجهزة الإنسانية الأخرى في جسدك إلى معاونة ذلك العضو العليل ويبرز نقوش أسماء الصانع الحكيم، وسينتهي من وظيفته قريباً، إن شاء الله ويمضي إلى شأنه مخاطباً العافية: تعالي الآن لتمكثي مكاني دائماً، وتراقبي أداء وظيفتك من جديد، فهذا مكانك تسلّميه واسكنيه هنيئاً.

الدواء العشرون

أيها المريض الباحث عن دوائه! اعلم أن المرض قسمان: قسم حقيقي وقسم آخر وهمي.

أما القسم الحقيقي: فقد جعل الشافي الحكيم الجليل جلّ وعلا لكل داءٍ دواءً، وخزَنَه في صيدليته الكبرى التي هي الكرة الأرضية، فتلك الأدويةُ تستدعي الأدواء، وقد خلق سبحانه لكل داءٍ دواء،[1] فاستعمال العلاج وتناوله لغرض التداوي مشروع أصلاً. ولكن يجب العلم بأن الشفاء وتأثير الدواء لا يكونان إلّا من الحق تبارك وتعالى، فمثلما أنه سبحانه يهب الدواءَ فهو أيضاً يهب الشفاء. وعلى المسلم الالتزام بإرشاد الأطباء الحاذقين المسلمين وتوصياتهم. وهذا الامتثال علاجٌ مهم؛ لأن أكثر الأمراض تتولد من سوء الاستعمال، وعدم الحِمية، وإهمال الإرشاد، والإسراف، والذنوب، والسفاهة، وعدم الحذر. فالطبيب المتدين لا شك أنه ينصح ضمن الدائرة المشروعة ويقدم وصاياه، ويحذر من سوء الاستعمال والإسراف ويبث في نفس المريض التسلية والأملَ، والمريض بدوره اعتماداً على تلك الوصايا والسلوان يخفّ مرضه ويغمره الفرحُ بدلاً من الضيق والضجر.

(١) انظر: البخاري، الطب ١؛ مسلم، السلام ٦٩؛ أحمد بن حنبل، المسند ١/ ٣٧٧، ٣/ ٣٣٥.

أما القسم الوهمي من المرض: فإن علاجه المؤثر الناجع هو: «الإهمال». إذ يكبر الوهمُ بالاهتمام وينتفش، وإن لم يُعبأ به يصغر وينـزوي ويتلاشى. فكما إذا تعرض الإنسان لوكر الزنابير فإنها تتجمع وتهجم عليه، وإن لم يهتم تتفرق عنه وتتشتت.

وكما أن الذي يلاحق باهتمام خيالاً في الظلمات من حبلٍ متدلٍ، سيكبر أمامه ذلك الخيال حتى قد يوصله إلى الفرار كالمعتوه، وإذا لم يهتم فسينكشف له أن ذلك إنما هو حبل وليس بثعبان.. ويبدأ بالسخرية من اضطراب ذهنه وتوهمه. فهذا المرض الوهمي كذلك إذا دام كثيراً فسينقلب إلى مرض حقيقي، فالوهم عند مرهف الحس، عصبي المزاج مرض وبيل جداً، حيث يستهوله ويجعل له الحبَّة قُبة، فتنهار قواه المعنوية، وبخاصة إذا صادف أنصاف الأطباء ذوي القلوب الغلاظ الخالية من الرحمة، أو الأطباء غير المنصفين، الذين يثيرون أوهامه ويحركونها أكثر من ذي قبل حتى تذهب أمواله وتنضب إن كان غنياً، أو يفقد عقله أو يخسر صحته تماماً.

الدواء الحادي والعشرون

أيها الأخ المريض! حقاً إنَّ في مرضك ألماً مادياً، إلّا أنَّ لذة معنوية مهمة تحيط بك، تمحو كل آثار ذلك الألم المادي؛ لأن ألمَك المادي لا يفوق تلك الرأفة أو الشفقة اللذيذة التي نسيتها منذ الصغر، والتي تتفجر الآن من جديد في أكباد والدَيك وأقاربك نحوك، إنْ كان لك والدان وأقارب. حيث ستستعيد تلك العواطف والنظرات الأبوية الحنونة الحلوة التي كانت تتوجه إليك في الطفولة، وينكشف الحجابُ عن أحبائك من حواليك ليرعوك من جديد وينطلقوا إليك بمحبتهم ورأفتهم بجاذبية المرض التي أثارت تلك العواطف الداخلية. فما أرخصَ تلك الآلام المادية التي تعاني منها أمام ما يؤديه لك من خدمات جليلة ممزوجة بالرحمة والرأفة بحكم مرضك أولئك الذين سعيتَ أنت -بكل فخر- لخدمتهم ونيل رضاهم، فأصبحت بذلك سيداً وآمراً عليهم وفزت أيضاً بمرضك في كسب المزيد من الأحبة المعاونين والإخلاء المشفقين. فتضمهم إليك للرقة والرأفة الإنسانية التي جُبل عليهما الإنسان.

ثم إنك قد أخذت بمرضك هذا إجازة من الوظائف الشاقة المهلكة، فأنت الآن في غنىً عنها وفي راحة منها... فلا ينبغي أن يسوقَك ألمك الجزئي إلى الشكوى بل إلى الشكر تجاه هذه اللذات المعنوية.

الدواء الثاني والعشرون

أيها الأخ المريض بداء عضال كالشلل! إنني أبشّرك أولاً بأن الشلل يعدّ من الأمراض المباركة للمؤمن.. لقد كنت أسمع هذا منذ مدة من الأولياء الصالحين، فكنت أجهل سرّه، ويخطر الآن أحد أسراره على قلبي هكذا:

إن أهل الولاية قد تعقّبوا بإرادتهم أساسَين مهمّين للوصول إلى الحق تبارك وتعالى نجاةً من أخطار معنوية عظيمة ترد من الدنيا وضماناً للسعادة الأبدية. والأساسان:

أولهما: رابطةُ الموت، أي إنهم سعوا لأجل سعادتهم في الحياة الأبدية بالتفكر في فناء الدنيا وبأنهم ضيوف يُستخدمون لوظائف موقتة.

وثانيهما: إماتةُ النفس الأمارة بالسوء بالمجاهدات والرياضة الروحية لأجل الخلاص من مهالك تلك النفس، والأحاسيس التي لا ترى العقبى.

فيا أخي الذي فَقَد من كيانه نصفَ صحته، لقد أُودع فيك دون اختيار منك أساسان قصيران سهلان، يمهّدان لك السبيل إلى سعادتك الأبدية، ويذكّرانك دائماً بزوال الدنيا وفناء الإنسان. فلا تتمكن الدنيا بعدئذ من حبس أنفاسك وخنقك، ولا تجرؤ الغفلةُ على غشيان عيونك. فالنفس الأمارة لا تتمكن بالشهوات الرذيلة أن تخدع مَن هو نصف إنسان، فينجو من بلائها وشرها بسرعة. والمؤمن بسر الإيمان والاستسلام والتوكل يستفيد من داء عضال كالشلل بأقصر وقت استفادة المجاهدين من أهل الولاية بالرياضة في المعتكفات، فيخفّ عليه ذلك الداء.

الدواء الثالث والعشرون

أيها المريض الوحيد الغريب العاجز! إنْ كانت غربتُك وعدم وجود مَن يعيلك فضلاً عن مرضك سبباً في لفت القلوب القاسية نحوك وامتلائها بالرقة عليك، فكيف بنظر رحمة خالقك الرحيم ذي التجليات الذي يقدم نفسه إليك في بدء سور القرآن بصفته الجليلة ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ والذي يجعل جميع الأمهات -بلمعةٍ من لمعات شفقته ورأفته الخارقة- يقمن بتربية أولادهن.. والذي يملأ وجه الدنيا ويصبغه في كل ربيع بتجلٍ من رحمته ويملأه بأنواع نعمه وفضله.. وبتجلٍ من رحمته كذلك تتجسم الجنةُ الزاخرة بكل محاسنها. فانتسابك إليه

بالإيمان والالتجاء إليه بلسان العجز المنبعث من مرضك، ورجاؤك منه وتضرعك إليه يجعل من مرضك في وحدتك وغربتك هدفاً ووسيلة تجلب إليك نظر الرحمة منه سبحانه تلك النظرة التي تساوي كل شيء.

فما دام هو موجوداً ينظر إليك فكل شيء موجود لك. والغريب حقاً والوحيد أصلاً هو ذلك الذي لا ينتسب إليه بالإيمان والتسليم، أو لا يرغب في ذلك الانتساب.

الدواء الرابع والعشرون

أيها المرضون المعتنون بالأطفال المرضى الأبرياء وبالشيوخ الذين هم بحكم الأطفال عجزاً وضعفاً! إنَّ بين أيديكم تجارة أخروية مهمة، فاغتنموا تلك التجارة وليكن شوقكم إليها عظيماً وسعيكم حثيثاً. إنَّ أمراض الأطفال الأبرياء هي حُقنات تربية ربانية لأجسادهم الرقيقة للاعتياد عليها وترويضهم بها لمقاومة مشقات الحياة في المستقبل، وهي تحمل حِكماً وفوائدَ تعود عليهم في حياتهم الدنيوية وفي حياتهم الروحية، فتصفي حياة الصغار تصفية معنوية مثلما تصفى حياة الكبار بكفارة الذنوب. فهذه الحُقن أسس للرقي المعنوي ومداره في مستقبل أولئك الصغار أو في آخرتهم.

والثواب الحاصل من مثل هذه الأمراض يُدرَج في صحيفة أعمال الوالدين أو في صحيفة حسنات الوالدة التي تفضلُ صحة ولدها -بسر الشفقة- على نفسها، كما هو ثابت لدى أهل الحقيقة.

أما رعاية الشيوخ والاعتناء بهم، فضلاً عن كونه مداراً لثواب عظيم وبخاصة الوالدين والظفر بدعائهم وإسعاد قلوبهم والقيام بخدمتهم بوفاء و إخلاص، يقود صاحبه إلى سعادة الدنيا والآخرة، كما هو ثابت بروايات صحيحة وفي حوادث تاريخية كثيرة. فالولد السعيد البار بوالديه العاجزين سيرى الطاعة نفسها من أبنائه، بينما الولد العاق المؤذي لأبويه مع ارتداده إلى العذاب الأخروي سيجد كذلك في الدنيا مهالك كثيرة.

نعم إنه ليست رعاية الشيوخ والعجائز والأبرياء من الأقربين وحدهم، بل حتى إذا صادف المؤمنُ شيخاً مريضاً ذا حاجة جديراً بالاحترام فعليه القيام بخدمته بهمة وإخلاص، ما دامت هنالك أخوة إيمانية حقيقية وهذا مما يقتضيه الإسلام.

الدواء الخامس والعشرون

أيها الإخوان المرضى! إذا كنتم تشعرون بحاجة إلى علاج قدسي نافع جداً، وإلى دواءٍ لكل داء يحوي لذة حقيقية، فمدّوا إيمانكم بالقوة واصقلوه، أي تناولوا بالتوبة والاستغفار والصلاة والعبادة العلاج القدسي المتمثل في الإيمان.

نعم، إنَّ الغافلين بسبب حبّهم للدنيا والتعلق بها بشدة كأنهم قد أصبحوا يملكون كياناً معنوياً عليلاً بحجم الدنيا كلها، فيتقدم الإيمان ويقدّم لهذا الكيان العليل المكلوم بضربات الزوال والفراق، مرهمَ شفائه منقذاً إياه من تلك الجروح والشروخ، وقد أثبتنا في رسائل عدة بأن الإيمان يهب شفاءً حقيقياً، وتجنباً للإطالة أوجز قولي بما يأتي:

إنَّ علاج الإيمان يتبين تأثيرُه بأداء الفرائض ومراعاة تنفيذها ما استطاع الإنسان إليها سبيلاً، وإن الغفلة والسفاهة وهوى النفس واللهو غير المشروع يبطل مفعول ذلك العلاج وتأثيره. فما دام المرض يزيل الغشاوةَ، ويقطع دابرَ الاشتهاء، ويمنع ولوج اللذات غير المشروعة، فاستفيدوا منه واستعملوا علاج الإيمان الحقيقي وأنواره القدسية بالتوبة والاستغفار والدعاء والرجاء.. منحكم الحق تبارك وتعالى الشفاء وجعل من أمراضكم مُكَفرات للذنوب.. آمين.. آمين.. آمين.

﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾

﴿ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

اللّهم صلّ على سيدنا محمد، طبِّ القلوب ودوائها،
وعافية الأبدان وشفائها، ونور الأبصار وضيائها، وعلى آله وصحبه وسلم.

ذيل اللمعة الخامسة والعشرين

وهو «المكتوب السابع عشر» أُدرج ضمن «المكتوبات».

اللمعة السادسة والعشرون

«رسالة الشيوخ»

«هذه اللمعة عبارة عن ستة وعشرين نورَ رجاءٍ وضياءَ تسلٍ»[1]

تنبيه

إنَّ السبب الذي دعاني إلى تسجيل ما كنت أُعانيه من آلامٍ معنوية في مستهل كل رجاء بأسلوب مؤثر جداً إلى حدٍّ يثير فيكم الألمَ أيضاً، إنما هو لبيان مدى قوة مفعول العلاج الوارد من القرآن الحكيم وشدة تأثيره الخارق.

بيد أن هذه «اللمعة» التي تخصّ الشيوخ لم تحافظ على حسن البيان، وجمال الإفادة لعدة أسباب:

أولها: لأنها تخص أحداث حياتي الشخصية ووقائعَها، فالذهاب عبرَ الخيال إلى تلك الأزمنة، ومعايشة أحداثها، ومن ثم تناولها بالكتابة بتلك الحالة، سبّب عدم المحافظة على الانتظام في البيان والتعبير.

ثانيها: اعترى البيانَ شيء من الاضطراب، لأنَّ الكتابة كانت بعد صلاة الفجر، حيث كنت أَشعر حينها بتعبٍ وإنهاكٍ شديدين، فضلاً عن الاضطرار إلى الإسراع في الكتابة.

ثالثها: لم يكن لدينا متسع من الوقت للقيام بالتصحيح الكامل؛ فالكاتب الذي كان مرهقاً بشؤون «رسائل النور» وكثيراً ما كان يعتذر عن الحضور مما أفقد المضمونَ التناسق المطلوب.

---

(١) كتب المؤلف رحمه الله الهامش الآتي على نسخة خطية مصححة من قبله: إنَّ بقية الرجايا (أي من الرجاء الرابع عشر إلى الرجاء السادس والعشرين) لم تكتب لوقوع المصيبة المعروفة (سجن اسكي شهر). ولفوات أوانها ظلت هذه الرسالة ناقصة.

رابعها: لم نستطع إلّا الاكتفاء بالتصحيحات والتعديلات العابرة دون التوغل في أعماق المعاني؛ لما كنا نحسّ به من تعبٍ ونصبٍ عقب التأليف، فلا جرم أنْ رافق الموضوع شيءٌ من التقصير في التعبير والأداء.

لذا نهيب بالشيوخ الكرام أن ينظروا بعين الصفح والسماح إلى قصوري في الأداء، وأن يجعلوني ضمن دعواتهم عندما يرفعون أكّفهم متضرعين إلى الله الرحيم الذي لا يردّ دعوات الشيوخ الطيبين...

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿كٓهيٰعٓصٓ * ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ * إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ (مريم: ١-٤).

(هذه اللمعة عبارة عن ستة وعشرين رجاء)

الرجاء الأول

يا من بلغتم سنّ الكمال، أيها الأخوة الشيوخ الأعزاء، ويا أيتها الأخوات العجائز المحترمات! إنني مثلُكم شيخ كبير، سأكتب لكم بعضَ ما مرّ عليّ من أحوال، وما وجدته بين حين وآخر من أبواب الأمل، وبوارق الرجاء في عهد الشيخوخة، لعلكم تشاركونني في أنوار السلوة المشعة من تلكم الرجايا والآمال. إنَّ ما رأيته من الضياء، وما فتحه الله عليّ من أبواب النور والرجاء، إنما شاهدتُه حسب استعدادي الناقص وقابلياتي المشوشة، وستجعل استعداداتكم الخالصة الصافية -بإذن الله- ذلك الضياء أسطعَ وأبهر مما رأيته، وذلكم الرجاء أقوى وأمتن مما وجدته.

ولا ريب أنّ منبع ما سنذكره من الأضواء ومصدر ما سنورده من الرجايا ما هو إلّا «الإيمان».

الرجاء الثاني

حينما شارفت على الشيخوخة، وفي أحد أيام الخريف، وفي وقت العصر، نظرت إلى الدنيا من فوق ذروة جبل، فشعرت فجأة حالة في غاية الرقة والحزن مع ظلام يكتنفها، تدب في أعماقي.. رأيت نفسي: أنني بلغت من العمر عتياً، والنهارُ قد غدا شيخاً، والسنةُ قد اكتهلت، والدنيا قد هرمت.. فهزّني هذا الهرم الذي يغشى كل شيء حولي هزّاً عنيفاً. فلقد دنا أوانُ فراق الدنيا، وأوشك أوان فراق الأحباب أن يحلّ.. وبينما أتململ يائساً حزيناً إذا بالرحمة الإلهية تنكشف أمامي انكشافاً حوّل ذلك الحزنَ المؤلم إلى فرحة قلبية مشرقة، وبدّل ذلك الفراق المؤلم للأحباب إلى عزاء يضيء جنبات النفس كلها.

نعم يا أمثالي من الشيوخ! إنَّ الله سبحانه وتعالى الذي يقدّم ذاته الجليلة إلينا، ويعرّفها لنا في أكثر من مائة موضع في القرآن الكريم، بصفة «الرحمن الرحيم».. والذي يرسل رحمته بها يسبغ على وجه الأرض دوماً من النِّعَم، مدداً وعوناً لمن استرحمه من ذوي الحياة، والذي يبعث بهداياه من عالم الغيب فيغمر الربيع كل سنة بنِعَم لا تعد ولا تحصى، يبعثها إلينا نحن المحتاجين إلى الرزق، مُظهِراً بها بجلاء تجليات رحمته العميمة، وفق مراتب الضعف ودرجات العجز الكامنة فينا. فرحمة خالقنا الرحيم هذه أعظم رجاءً، وأكبر أملاً في عهد شيخوختنا هذه، بل هي أسطع نوراً لنا.

إنَّ إدراك تلك الرحمة والظفر بها، إنما يكون بالانتساب إلى ذلك «الرحمن» بالإيمان، وبالطاعة له سبحانه بأداء الفرائض والواجبات.

الرجاء الثالث

حينما أفقتُ على صبح المشيب، من نوم ليل الشباب، نظرت إلى نفسي متأملاً فيها، فوجدتها كأنها تنحدر نزولاً من علٍ إلى سواء القبر، مثلما وصفها نيازي المصري(*):

بناء العمر يذوي حجرًا إثرحجر غافلاً يغط الروح وبناؤه قد اندثر

فجسمي الذي هو مأوى روحي، بدأ يتداعى ويتساقط حجراً إثر حجر على مرّ الأيام.. وآمالي التي كانت تشدّني بقوة إلى الدنيا، بدأت أوثاقُها تنفصم وتنقطع. فدبّ فيّ شعور

بدنو وقت مفارقة من لا يحصى من الأحبة والأصدقاء، فأخذتُ أبحثُ عن ضماد لهذا الجرح المعنوي الغائر، الذي لا يُرجى له دواء ناجع كما يبدو!. لم أستطع أن أعثر له على علاج، فقلت أيضاً كما قال نيازي المصري:

حكمة الإله تقضى فناء الجسد　　والقلب تواق إلى الأبد

لهف نفسي من بلاء وكمد　　حار لقمان في إيجاد الضمد

وبينما كنت في هذه الحالة إذا بنور الرسول الكريم ﷺ الذي هو رحمة الله على العالمين، ومثالُها الذي يعبّر عنها، والداعي إليها، والناطق بها، وإذا بشفاعته، وبما أتاه من هدية الهداية إلى البشرية، يصبح بلسماً شافياً، ودواءً ناجعاً لذلك الداء الوخيم الذي ظننته بلا دواء، ويبدل ذلك اليأس القاتم الذي أحاطني إلى نور الرجاء الساطع.

أجل، أيها الشيوخ وأيتها العجائز الموقرون، ويا من تشعرون كلكم بالشيخوخة مثلي!. إننا راحلون ولا مناص من ذلك.. ولن يُسمح لنا بالمكوث هنا بمخادعة النفس وإغماض العين، فنحن مساقون إلى المصير المحتوم. ولكن عالم البرزخ، ليس هو كما يتراءى لنا بظلمات الأوهام الناشئة من الغفلة، وبما قد يصوّره أهل الضلالة، فليس هو بعالم الفراق، ولا بعالم مظلم، بل هو مجمع الأحباب، وعالم اللقاء مع الأحبة والأخلّاء، وفي طليعتهم حبيبُ رب العامين وشفيعنا عنده يوم القيامة عليه أفضل الصلاة والسلام.

نعم، إنَّ مَن هو سلطان ثلاثمائة وخمسين مليوناً من الناس في كل عصر، عبر ألف وثلاثمائة وخمسين سنة وهو مربّي أرواحهم، ومرشدُ عقولهم، ومحبوب قلوبهم، والذي يُرفع إلى صحيفة حسناته يومياً أمثال ما قدمت أمته من حسنات، إذ «السبب كالفاعل» والذي هو مدار المقاصد الربانية، ومحور الغايات الإلهية السامية في الكون، والذي هو السبب لرقي قيمة الموجودات وسمّوها، ذلك الرسول الأكرم ﷺ، فكما أنه قال في الدقائق الأولى التي تشرّف العالم به «أمتي.. أمتي..» كما ورد في الروايات الصحيحة[1] والكشفيات الصادقة، فإنه ﷺ يقول في المحشر أيضاً: «أمتي.. أمتي..» ويسعى بشفاعته إلى إمداد أمته وإغاثتها بأعظم رحمة وأسماها وأقدسها وأعلاها، في الوقت الذي يقول كلّ فرد من الجموع العظيمة: «نفسي.. نفسي». فنحن إذن ذاهبون إلى العالم

(١) تقدم تخريجه في اللمعة الرابعة.

الذي ارتحل إليه هذا النبي الكريم، راحلون إلى العالم الذي استنار بنور ذلك السراج المنير وبمن حوله من نجوم الأصفياء والأولياء الذين لا يحصرهم العد.

نعم، إنَّ اتباع السُّنة الشريفة لهذا النبي الكريم ﷺ هو الذي يقود إلى الانضواء تحت لواء شفاعته والاقتباس من أنواره، والنجاة من ظلمات البرزخ.

الرجاء الرابع

حينما وطأت قدمايَ عتبةَ الشيخوخة، كانت صحتي الجسدية التي ترخي عنان الغفلة وتمدّها قد اعتلّت أيضاً فاتفقت الشيخوخةُ والمرض معاً على شن الهجوم عليّ، وما زالا يكيلان على رأسي الضربات تلو الضربات حتى أذهبا نوم الغفلة عنّي. ولم يكن لي ثمة ما يربطني بالدنيا من مال وبنين وما شابههما، فوجدتُ أنَّ عصارة عمري الذي أضعته بغفلة الشباب، إنما هي آثام وذنوب، فاستغثتُ صائحاً مثلما صاح نيازي المصري:

ذهب العُمر هباءً، لم أفز فيه بشيء

ولقد جئت أسير الدرب، لكنْ

رحل الرَّكبُ بعيداً

وبقيتُ

ذلك النائي الغريب

وبكيتُ

همتُ وحدي تائهًا أطوي الطريق

وبعينيّ ينابيع الدموع

وبصدري حرقة الشوق

حار عقلي..!

كنت حينها في غربة مضنية، فشعرت بحزن يائس، وأسف نادم، وحسرة ملتاعة على ما فات من العمر. صرخت من أعماقي أَطلب إمداد العون، وضياء الرجاء.. وإذا بالقرآن الحكيم المعجز البيان يمدّني، ويسعفني، ويفتح أمامي بابَ رجاء عظيم، ويمنحني نوراً ساطعاً

من الأمل والرجاء يستطيع أن يزيل أضعاف أضعاف يأسي، ويمكنه أن يبدد تلك الظلمات القاتمة من حولي.

نعم، أيها الشيوخ وأيتها العجائز المحترمون، يا مَن بدأت أوثاق صلتهم بالانفصام عن الدنيا مثلي! إنَّ الصانع ذا الجلال الذي خلق هذه الدنيا أكملَ مدينة وأنظمها، حتى كأنها قصرٌ منيف، هل يمكن لهذا الخالق الكريم ألّا يتكلم مع أحبّائه وأكرم ضيوفه في هذه المدينة أو في هذا القصر؟ وهل يمكن ألّا يقابلهم؟!!

فما دام قد خلق هذا القصر الشامخ بعلم، ونظّمه بإرادة، وزيّنه باختيار، فلابد أنه يتكلم؛ إذ كما أنَّ الباني يعلم، فالعالم يتكلم. وما دام قد جعل هذا القصر دار ضيافة جميلة بهيجة، وهذه المدينة متجراً رائعاً، فلابد أنْ يكون له كتبٌ وصحفٌ يبيّن فيها ما يريده منا، ويوضح علاقاته معنا.

ولا شك أنَّ أكمل كتاب من تلك الكتب المقدسة التي أنـزلها، إنما هو القرآن الحكيم المعجز، الذي ثبت إعجازُه بأربعين وجهاً من وجوه الإعجاز، والذي يُتلى في كل دقيقة بألسنة مائة مليون شخص في الأقل، والذي ينشر النور ويهدي السبيل. والذي في كل حرفٍ من حروفه عشر حسنات، وعشر مثوبات في الأقل، وأحياناً عشرة آلاف حسنة، بل ثلاثين ألف حسنة، كما في ليلة القدر. وهكذا يمنح من ثمار الجنة ونور البرزخ ما شاء الله أن يمنح. فهل في الكون أجمع كتاب يناظره في هذا المقام، وهل يمكن أن يدّعي ذلك أحد قط؟

فما دام هذا القرآن الكريم الذي بين أيدينا هو كلام رب العالمين، وهو أمره المبلّغ إلينا، وهو منبع رحمته التي وسعت كل شيء، وهو صادر من خالق السماوات والأرض ذي الجلال، من جهة ربوبيته المطلقة، ومن جهة عظمة ألوهيته، ومن جانب رحمته المحيطة الواسعة، فاستمسك به واعتصم، ففيه دواءٌ لكل داء، ونورٌ لكلِّ ظلام، ورجاء لكل يأس.. وما مفتاح هذه الخزينة الأبدية إلّا الإيمان والتسليم، والاستماع إليه، والانقياد له، والاستمتاع بتلاوته.

الرجاء الخامس

في بداية شيخوختي ومستهلها، ورغبة منّي في الانـزواء والاعتزال عن الناس، بحثَت روحي عن راحة في الوحدة والعزلة على تل «يوشع» المطل على «البسفور». فلما كنت -ذات

يوم- أَسرح بنظري إلى الأُفق من على ذلك التل المرتفع، رأيت بنذير الشيخوخة لوحةً من لوحات الزوال والفراق تتقطر حُزناً ورِقةً، حيث جُلتُ بنظري من قمة شجرة عمري، من الغصن الخامس والأربعين منها، إلى أن انتهيت إلى أعماق الطبقات السفلى لحياتي، فرأيت أن في كل غصن من تلك الأغصان الكائنة هناك ضمن كل سنة، جنائزَ لا تحصَر من جنائز أحبابي وأصدقائي وكل مَن له علاقة معي. فتأثرت بالغ التأثر من فراق الأحباب وافتراقهم، وترنمت بأنين «فضولي البغدادي»(*) عند مفارقته الأحباب قائلاً:

كلّما حنَّ الوصـال عَذبٌ دمعي مادام الشهيق

لقد بحثتُ من خلال تلك الحسرات الغائرة عن باب رجاء، وعن نافذة نور، أُسلّي بها نفسي. فإذا بنور الإيمان بالآخرة يغيثني ويمدّني بنورٍ باهر. إنه منحني نوراً لا ينطفئ أبداً، ورجاءً لا يخيب مطلقاً.

أجل يا إخواني الشيوخ ويا أخواتي العجائز! ما دامت الآخرةُ موجودةً، وما دامت هي باقية خالدة، وما دامت هي أجمل من الدنيا، وما دام الذي خلقنا حكيماً ورحيماً؛ فما علينا إذن إلّا عدم الشكوى من الشيخوخة، وعدم التضجر منها؛ ذلك لأن الشيخوخة المشرّبة بالإيمان والعبادة، والموصلة إلى سنّ الكمال، ما هي إلّا علامة انتهاء واجبات الحياة ووظائفها، وإشارة ارتحال إلى عالم الرحمة للخلود إلى الراحة. فلابدّ إذن من الرضا بها أشدّ الرضا.

نعم، إنَّ إخبار مائة وأربعة وعشرين ألفاً من المصطَفين الأخيار وهم الأنبياء والمرسلون[1] عليهم الصلاة والسلام -كما نص عليه الحديث- إخباراً بالإجماع والتواتر مستندين إلى الشهود عند بعضهم وإلى حق اليقين عند آخرين، عن وجود الدار الآخرة، وإعلانهم بالإجماع أن الناس سيُساقون إليها، وأنَّ الخالق سبحانه وتعالى سيأتي بالدار الآخرة بلا ريب، مثلما وعد بذلك وعداً قاطعاً.

وإن تصديق مائةٍ وأربعة وعشرين مليوناً من الأولياء كشفاً وشهوداً ما أخبر به هؤلاء الأنبياء عليهم السلام، وشهادتهم على وجود الآخرة بعلم اليقين، دليلٌ قاطع وأيّ دليل على وجود الآخرة..

(١) قال أبو ذر رضي الله عنه: (قلت: يا رسول الله كم وفاء عدة الأنبياء؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جماً غفيراً). أحمد بن حنبل، المسند ٥/ ٢٦٥؛ ابن حبان، الصحيح ٢/ ٧٧؛ الطبراني، المعجم الكبير ٨/ ٢١٧؛ الحاكم، المستدرك ٢/ ٦٥٢؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى ١/ ٢٣، ٥٤.

وكذا، فإن تجليات جميع الأسماء الحسنى لخالق الكون المتجلّية في أرجاء العالم كله، تقتضي بالبداهة وجود عالم آخر خالد، وتدل دلالة واضحة على وجود الآخرة.

وكذا القدرةُ الإلهية وحكمتُها المطلقة، التي لا إسراف فيها ولا عبث، والتي تحيي جنائز الأشجار الميتة وهياكلها المنتصبة، تحييها وهي لا تعد ولا تحصى على سطح الأرض في كل ربيع، وفي كل سنة، بأمر ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ وتجعلها علامة على «البعث بعد الموت» فتحشر ثلاثمائة ألف نوع من طوائف النباتات وأمم الحيوانات وتنشرها، مظهرةً بذلك مئات الألوف من نماذج الحشر والنشور ودلائل وجود الآخرة.

وكذا الرحمة الواسعة التي تديم حياة جميع ذوي الأرواح المحتاجة إلى الرزق، وتعيّشها بكمال الرأفة عيشة خارقة للغاية. والعناية الدائمة التي تظهر أنواع الزينة والمحاسن بما لا يُعد ولا يحصى، في فترة قصيرة جداً في كل ربيع. لا شك أنهما تستلزمان وجود الآخرة بداهة.

وكذا عشق البقاء، والشوق إلى الأبدية وآمال السرمدية المغروزة غرزاً لا انفصام لها في فطرة هذا الإنسان الذي هو أكملُ ثمرة لهذا الكون، وأحب مخلوق إلى خالق الكون، وهو أوثق صلة مع موجودات الكون كله، لاشك أنه يشير بالبداهة إلى وجود عالم باقٍ بعد هذا العالم الفاني، وإلى وجود عالم الآخرة ودار السعادة الأبدية.

فجميع هذه الدلائل تثبت بقطعية تامة -إلى حدّ يستلزم القبول- وجود الآخرة بمثل بداهة وجود الدنيا.[1] فما دام أهم درس يلقننا القرآن إيّاه هو «الإيمان بالآخرة» وهذا الدرس رصين ومتين إلى هذه الدرجة، وفي ذلك الإيمان نورٌ باهر ورجاء شديد وسلوان عظيم ما لو اجتمعت مائةُ ألف شيخوخة في شخص واحد لكفاها ذلك النور، وذلك الرجاء، وذلك

(١) إن مدى السهولة في إخبار «الأمر الثبوتي» ومدى الصعوبة والإشكال في نفي وإنكار ذلك، يظهر في المثال الآتي:

إذا قال أحدهم: إن هناك -على سطح الأرض- حديقة خارقة جداً ثمارها كعلب الحليب، وأنكر عليه الآخر قوله هذا قائلاً: لا، لا توجد مثل هذه الحديقة. فالأول يستطيع بكل سهولة أن يثبت دعواه، بمجرد إراءة مكان تلك الحديقة أو بعض ثمارها. أما الثاني (أي المنكر) فعليه أن يرى ويُري جميع أنحاء الكرة الأرضية لأجل أن يثبت نفيه، وهو عدم وجود مثل هذه الحديقة.

وهكذا الأمر في الذين يخبرون عن الجنة، فإنهم يُظهرون مئات الآلاف من ترشحاتها، ويبيّنون ثمارها وآثارها، علماً أن شاهدَين صادقين منهم كافيان لإثبات دعواهم، بينما المنكرون لوجودها، لا يسعهم إثبات دعواهم إلّا بعد مشاهدة الكون غير المحدود، والزمن غير المحدود، مع سبر غورهما بالبحث والتفتيش، وعند عدم رؤيتهم لها، يمكنهم إثبات دعواهم!

فيا من بلغ به الكبر عتياً ويا أيها الاخوة! اعلموا ما أعظم قوة الإيمان بالآخرة وما أشد رصانته!. (المؤلف).

السلوان النابع من هذا الإيمان؛ لذا علينا نحن الشيوخ أن نفرح بشيخوختنا ونبتهج قائلين: «الحمد لله على كمال الإيمان».

الرجاء السادس

حينما كنت في منفاي ذلك الأسر الأليم بقيت وحدي منفرداً منعزلاً عن الناس على قمة جبل «جام» المطلة على مراعي «بارلا».. كنت أبحث عن نور في تلك العزلة. وذات ليلة، في تلك الغرفة الصغيرة غير المسقفة، المنصوبة على شجرة صنوبر عالية على قمة ذلك المرتفع، إذا بشيخوختي تشعرني بألوان وأنواع من الغربة المتداخلة -كما جاء ذلك في «المكتوب السادس» بوضوح- ففي سكون تلك الليلة حيث لا أثر ولا صوت سوى ذلك الصدى الحزين لحفيف الأشجار وهمهمتها.. أحسست بأن ذلك الصدى الأليم قد أصاب صميم مشاعري، ومس أعماق شيخوختي وغربتي، فهمَست الشيخوخةُ في أذني منذرةً:

إنَّ النهار قد تبدل إلى هذا القبر الحالك، ولبست الدنيا كفنَها الأسود، فسوف يتبدل نهارُ عمرك إلى ليل، وسوف ينقلب نهار الدنيا إلى ليل البرزخ، وسوف يتحول نهار صيف الحياة إلى ليل شتاء الموت.

فأجابتها نفسي على مضض:

نعم، كما أنني غريبةٌ هنا عن بلدتي ونائية عن موطني، فإن مفارقتي لأحبائي الكثيرين خلال عمري الذي ناهز الخمسين ولا أملك سوى تذراف الدموع وراءهم هي غربةٌ تفوق غربتي عن موطني.. وإني لأشعر في هذه الليلة غربةً أكثر حزناً وأشد ألماً من غربتي على هذا الجبل الذي توشّح بالغربة والحزن، فشيخوختي تنذرني بدنوي من موعد فراقٍ نهائي عن الدنيا وما فيها، ففي هذه الغربة المكتنفة بالحزن، ومن خلال هذا الحزن الذي يمازجه الحزن، بدأتُ أبحث عن نور، وعن قبس أمل، وعن باب رجاء، وسرعان ما جاء «الإيمان بالله» لنجدتي ولشدّ أزري، ومنحني أُنساً عظيماً بحيث لو تضاعفت آلامي ووحشتي أضعافاً مضاعفة لكان ذلك الأنس كافياً لإزالتها.

نعم، أيها الشيوخ، ويا أيتها العجائز!.. فما دام لنا خالقٌ رحيم، فلا غربة لنا إذن أبداً.. وما دام سبحانه موجوداً فكل شيء لنا موجود إذن، وما دام هو موجوداً وملائكته موجودة.

فهذه الدنيا إذن ليست خالية لا أنيس فيها ولا حسيس، وهذه الجبال الخاوية، وتلك الصحارى المقفرة كلُّها عامرة ومأهولة بعباد الله المكرمين، بالملائكة الكرام. نعم، إن نور الإيمان بالله سبحانه، والنظرة إلى الكون لأجله، يجعل الأشجار بل حتى الأحجار كأنها أصدقاءٌ مؤنسون فضلاً عن ذوي الشعور من عباده، حيث يمكن لتلك الموجودات أن تتكلم معنا -بلسان الحال- بما يسلّينا ويروّح عنا.

نعم، إنَّ الدلائل على وجوده سبحانه بعدد موجودات هذا الكون، وبعدد حروف كتاب العالم الكبير هذا، وهناك دلائل وشواهد على رحمته بعدد أجهزة ذوي الأرواح وما خصهم من نِعَمه ومطعوماته التي هي محور الشفقة والرحمة والعناية، فجميعُها تدل على باب خالقنا الرحيم والكريم، وصانعنا الأنيس، وحامينا الودود، ولا شك أن العجز والضعف هما أرجى شفيعين عند ذلك الباب السامي. وأن عهد الشيب أوانُهما، ووقتُ ظهورهما، فعلينا إذن أن نودّ الشيخوخة، وأن نحبها، لا أن نعرض عنها؛ إذ هي شفيع مرتجى أمام ذلك الباب الرفيع.

الرجاء السابع

حينما تبدلت نشوة «سعيد القديم» وابتساماته إلى نحيب «سعيد الجديد» وبكائه، وذلك في بداية المشيب، دعاني أربابُ الدنيا في «أنقرة» إليها، ظناً منهم أنني «سعيد القديم» فاستجبت للدعوة.

فذات يوم من الأيام الأخيرة للخريف، صعدت إلى قمّة «قلعة أنقرة»، التي أصابها الكبر والبلى أكثر مني، فتمثّلت تلك القلعة أمامي كأنها حوادث تاريخية متحجرة، واعتراني حزن شديد وأسى عميق من شيب السنة في موسم الخريف، ومن شيبي أنا، ومن هرم القلعة، ومن هرم البشرية ومن شيخوخة الدولة العثمانية العلية، ومن وفاة سلطنة الخلافة، ومن شيخوخة الدنيا. فاضطرتني تلك الحالة إلى النظر من ذروة تلك القلعة المرتفعة إلى أودية الماضي وشواهق المستقبل، أنقب عن نور، وأبحث عن رجاء وعزاء ينير ما كنت أحسّ به من أكثف الظلمات التي غشيت روحي هناك وهي غارقة في ليل هذا الهرم المتداخل المحيط.[1]

(١) وردت هذه الحالة الروحية على صورة مناجاة إلى القلب باللغة الفارسية، فكتبتها كما وردت، ثم طبعت ضمن رسالة «حباب» في أنقرة. (المؤلف). (راجع المثنوي العربي النوري).

فحينما نظرت إلى اليمين الذي هو الماضي باحثاً عن نور ورجاء، بدت لي تلك الجهة من بعيد على هيئة مقبرة كبرى لأبي وأجدادي والنوع الإنساني، فأوحشتني بدلاً من أن تسلّيني .

ثم نظرت إلى اليسار الذي هو المستقبل مفتشاً عن الدواء، فتراءى لي على صورة مقبرة كبرى مظلمة لي ولأمثالي وللجيل القابل، فأدهشني عوضاً من أن يؤنسني.

ثم نظرت إلى زمني الحاضر بعد أن امتلأ قلبي بالوحشة من اليمين واليسار، فبدا ذلك اليوم لنظري الحسير ونظرتي التاريخية على شكل نعش لجنازة جسمي المضطرب كالمذبوح بين الموت والحياة.

فلما يئست من هذه الجهة أيضاً، رفعت رأسي ونظرت إلى قمة شجرة عمري، فرأيت أن على تلك الشجرة ثمرة واحدة فقط، وهي تنظر إليّ، تلك هي جنازتي، فطأطأت رأسي ناظراً إلى جذور شجرة عمري، فرأيت أن التراب الذي هناك ما هو إلّا رميم عظامي، وتراب مبدأ خلقتي قد اختلطا معاً وامتزجا، وهما يُداسان تحت الأقدام، فأضافا إلى دائي داءً من دون أن يمنحاني دواءً.

ثم حوّلتُ نظري على مضض إلى ما ورائي، فرأيت أن هذه الدنيا الفانية الزائلة تتدحرج في أودية العبث وتنحدر في ظلمات العدم، فسكبتْ هذه النظرة السمَّ على جروحي بدلاً من أن تواسيها بالمرهم والعلاج الشافي.

ولما لم أجد في تلك الجهة خيراً ولا أملاً، ولّيت وجهي شطر الأمام ورنوت بنظري بعيداً، فرأيت أن القبر واقفٌ لي بالمرصاد على قارعة الطريق، فاغراً فاه، يحدق بي، وخلفَه الصراط الممتد إلى حيث الأبد، وتتراءى القوافل البشرية السائرة على ذلك الصراط من بعيد. وليس لي من نقطة استناد أمام هذه المصائب المدهشة التي تأتيني من الجهات الست، ولا أملك سلاحاً يدفع عني غيرَ جزء ضئيل من الإرادة الجزئية. فليس لي إذن أمام كل أولئك الأعداء الذين لا حصر لهم، والأشياء المضرة غير المحصورة، سوى السلاح الإنساني الوحيد وهو الجزء الاختياري. ولكن لما كان هذا السلاح ناقصاً وقاصراً وعاجزاً، ولا قوة له على إيجاد شيء، وليس في طوقه إلّا الكسب فحسب، حيث لا يستطيع أن يمضي إلى الزمان الماضي ويذبّ عني

الأحزانَ ويسكتها، ولا يمكنه أن ينطلق إلى المستقبل حتى يمنع عنّي الأهوالَ والمخاوف الواردة منه، أيقنت ألّا جدوى منه فيما يحيط بي من آلام وآمال الماضي والمستقبل.

وفيما كنت مضطرباً وسط الجهات الست تتوالى عليّ منها صنوف الوحشة والدهشة واليأس والظلمة، إذا بأنوار الإيمان المتألقة في وجه القرآن المعجز البيان، تمدّني وتضيء تلك الجهات الست وتنورها بأنوار باهرة ساطعة ما لو تضاعف ما انتابني من صنوف الوحشة وأنواع الظلمات مائةَ مرة، لكانت تلك الأنوار كافيةً ووافية لإحاطتها.

فبدّلت -تلك الأنوارُ- السلسلة الطويلة من الوحشة إلى سلوان ورجاء، وحوّلت كلَّ المخاوف إلى أُنس القلب، وأمل الروح الواحدة تلو الأخرى.

نعم، إنَّ الإيمان قد مزق تلك الصورة الرهيبة للماضي وهي كالمقبرة الكبرى، وحوّلها إلى مجلس منوّر أنوس وإلى ملتقى الأحباب، وأظهر ذلك بعين اليقين وحق اليقين...

ثم إن الإيمان قد أظهر بعلم اليقين أن المستقبل الذي يتراءى لنا بنظر الغفلة، كقبر واسع كبير ما هو إلّا مجلس ضيافة رحمانية أُعدّت في قصور السعادة الخالدة.

ثم إنَّ الإيمان قد حطّم صورة التابوت والنعش للزمن الحاضر التي تبدو هكذا بنظر الغفلة، وأشهدني أن اليوم الحاضر إنما هو متجر أخروي، ودار ضيافة رائعة للرحمن.

ثم إنَّ الإيمان قد بصّرني بعلم اليقين أن ما يبدو بنظر الغفلة من الثمرة الوحيدة التي هي فوق شجرة العمر على شكل نعش وجنازة. أنها ليست كذلك، وإنما هي انطلاق لروحي -التي هي أهل للحياة الأبدية ومرشحة للسعادة الأبدية- من وكرها القديم إلى حيث آفاق النجوم للسياحة والارتياد.

ثم إن الإيمان قد بيّن بأسراره أن عظامي ورميمها وترابَ بداية خِلقَتي، ليسا عظاماً حقيرة فانية تداس تحت الأقدام، وإنما ذلك التراب باب للرحمة، وستار لسرادق الجنة.

ثم إن الإيمان أراني بفضل أسرار القرآن الكريم أنَّ أحوال الدنيا وأوضاعها المنهارة في ظلمات العدم بنظر الغفلة، لا تتدحرج هكذا في غياهب العدم -كما ظُنّ في بادئ الأمر- بل إنها نوع من رسائل ربانية ومكاتيب صمدانية، وصحائف نقوش للأسماء السبحانية قد أتمّت

مهامَّها، وأفادت معانيها، وأخلفت عنها نتائجها في الوجود، فأعلمني الإيمان بذلك ماهيةَ الدنيا علم اليقين.

ثم إنَّ الإيمان قد أوضح لي بنور القرآن أنَّ ذلك القبر الذي أَحدَق بي ناظراً ومنتظراً ليس هو بفوهة بئر، وإنما هو بابٌ لعالم النور. وأن ذلك الطريق المؤدي إلى الأبد ليس طريقاً ممتداً ومنتهياً بالظلمات والعدم، بل إنه سبيل سَويّ إلى عالم النور، وعالم الوجود وعالم السعادة الخالدة.. وهكذا أصبحت هذه الأحوال دواءً لدائي، ومرهماً له، حيث قد بدت واضحة جلية فأقنعتني قناعة تامة.

ثم، إنَّ الإيمان يمنح ذلك الجزء الضئيل من الجزء الاختياري الذي يملك كسباً جزئياً للغاية، وثيقة يستند بها إلى قدرة مطلقة، وينتسب بها إلى رحمة واسعة، ضد تلك الكثرة الكاثرة من الأعداء والظلمات المحيطة، بل إن الإيمان نفسَه يكون وثيقة بيد الجزء الاختياري. ثم إن هذا الجزء الاختياري الذي هو السلاح الإنساني، وإن كان في حد ذاته ناقصاً عاجزاً قاصراً، إلّا أنه إذا استعمل باسم الحق سبحانه، وبُذل في سبيله، ولأجله، يمكن أن يُنال به -بمقتضى الإيمان- جنة أبدية بسعة خمسمائة سنة. مَثَلُ المؤمن في ذلك مثل الجندي إذا استعمل قوته الجزئية باسم الدولة فإنه يسهل له أن يؤدي أعمالاً تفوق قوته الشخصية بألوف المرات.

وكما أن الإيمان يمنح الجزءَ الاختياري وثيقة، فإنه يسلب زمامه من قبضة الجسم الذي لا يستطيع النفوذ في الماضي ولا في المستقبل، ويسلّمه إلى القلب والروح، ولعدم انحصار دائرة حياة الروح والقلب في الزمن الحاضر كما هو في الجسد، ولدخول سنوات عدة من الماضي وسنوات مثلها من المستقبل في دائرة تلك الحياة، فإن ذلك الجزء الاختياري ينطلق من الجزئية مكتسباً الكلية. فكما أنه يدخل بقوة الإيمان في أعمق أودية الماضي مبدداً ظلمات الأحزان، كذلك يصعد محلقاً بنور الإيمان إلى أبعد شواهق المستقبل مزيلاً أهواله ومخاوفه.

فيا أيها الإخوان الشيوخ، ويا أيتها الأخوات العجائز، ويا من تتألمون مثلي من تعب المشيب! ما دمنا والحمد لله من أهل الإيمان، والإيمان فيه خزائن حلوة نيرة لذيذة محبوبة إلى هذا الحد، وأن شيبنا يدفعنا إلى هذه الخزائن دفعاً أكثر، فليس لنا التشكي من الشيخوخة إذن، بل يجب علينا أن نقدم ألف شكر وشكر إلى الله عزّ وجلّ، وأن نحمده تعالى على شيبنا المنوّر بالإيمان.

الرجاء الثامن

حينما خالط بعضَ شعراتِ رأسي البياضُ الذي هو علامةُ الشيخوخة، وكانت أهوال الحرب العالمية الأولى وما خلَّفه الأسر لدى الروس من آثار عميقة في حياتي عمّقت فيّ نومَ غفلة الشباب. وتلا ذلك استقبالٌ رائع عند عودتي من الأسر إلى استانبول، سواءٌ من قِبل الخليفة أو شيخ الإسلام، أو القائد العام، أو من قبل طلبة العلوم الشرعية، وما قوبلت به من تكريم وحفاوة أكثر مما أستحق بكثير.. كل ذلك ولّد عندي حالةٌ روحية فضلاً عن سكرة الشباب وغفلته، وعمّقتْ فيّ ذلك النومَ أكثر، حتى تصورتُ معها أنَّ الدنيا دائمة باقية، ورأيت نفسي في حالة عجيبة من الالتصاق بالدنيا كأنني لا أموت.

ففي هذا الوقت، ذهبت إلى «جامع بايزيد» في استانبول، وذلك في شهر رمضان المبارك لأستمع إلى القرآن الكريم من الحفّاظ المخلصين، فاستمعتُ من لسان أولئك الحفاظ ما أعلنه القرآنُ المعجز بقوة وشدة، خطابه السماوي الرفيع في موت الإنسان وزواله، ووفاة ذوي الحياة وموتهم، وذلك بنص الآية الكريمة: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ (الأنبياء: ٣٥). نَفَذَ هذا الإعلان الداوي صماخَ أذني مخترقاً وممزقاً طبقات النوم والغفلة والسكرة الكثيفة الغليظة حتى استقر في أعماق أعماق قلبي. فخرجتُ من الجامع، ورأيت نفسي لبضعة أيام، كأنَّ إعصاراً هائلاً يضطرم في رأسي بما بقي من آثار ذلك النوم العميق المستقر فيّ منذ أمد طويل، ورأيتُني كالسفينة التائهة بين أمواج البحر المضطربة البوصلة. كانت نفسي تتأجج بنار ذات دخان كثيف.. وكلما كنت أنظر إلى المرآة، كانت تلك الشعراتُ البيضاء تخاطبني قائلة: انتبه!!!.

نعم، إنَّ الأمور توضحت عندي بظهور تلك الشعرات البيضاء وتذكيرها إياي، حيث شاهدت أن الشباب الذي كنت أغتر به كثيراً، بل كنت مفتوناً بأذواقه يقول لي: الوداع! وأن الحياة الدنيا التي كنت أرتبط بحبها بدأت بالانطفاء رويداً رويداً، وبدَت لي الدنيا التي كنت أتشبث بها، بل كنت مشتاقاً إليها وعاشقاً لها، رأيتها تقول لي: الوداع!! الوداع!! مشعرةً إياي، بأنني سأرحل من دار الضيافة هذه، وسأغادرها عما قريب. ورأيتها -أي الدنيا- هي الأخرى تقول: الوداع، وتتهيأ للرحيل. وانفتح للقلب من كلية هذه الآية الكريمة: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ ومن شموليتها، ذلك المعنى الذي يتضمنها وهو:

إنَّ البشرية قاطبة إنما هي كالنفس الواحدة، فلابد أنها ستموت كي تُبعث من جديد، وإن الكرة الأرضية كذلك نفسٌ فلابد أنها سوف تموت ويصيبها البوارُ كي تتخذ هيأة البقاء وصورة الخلود، وإن الدنيا هي الأخرى نفسٌ وسوف تموت وتنقضي كي تتشكل بصورة «آخرة».

فكرت فيما أنا فيه؛ فرأيت: أن الشباب الذي هو مدار الأذواق واللذائذ، ذاهبٌ نحو الزوال، تارك مكانه للشيخوخة التي هي منشأ الأحزان. وأن الحياة الساطعة الباهرة لفي ارتحال، ويتهيأ الموتُ المظلم المخيف -ظاهراً- ليحل محلها.

ورأيت الدنيا التي هي محبوبة وحلوة ومعشوقة الغفاة وتُظن أنها دائمة، رأيتها تجري مسرعة إلى الفناء. ولكي أنغمس في الغفلة وأُخادع نفسي ولّيت نظري شطر أذواق المنـزلة الاجتماعية ومقامها الرفيع الذي حظيتُ به في استانبول والذي خُدعت به نفسي وهو فوق حدِّي وطوقي من حفاوة وإكرام وسلوان وإقبال وإعجاب.. فرأيت أن جميعها لا تصاحبني إلّا إلى حد باب القبر القريب مني، وعنده تنطفئ.

ورأيت أنَّ رياءً ثقيلاً، وأثَرَة باردة وغفلة مؤقتة، تكمن تحت الستار المزركش للسُمعة والصِيت، التي هي المثل الأعلى لأرباب الشهرة وعشاقها، ففهمت أنَّ هذه الأمور التي خدعتني حتى الآن لن تمنحني أي سلوان، ولا يمكن أن أتلمس فيها أي قبس من نور.

ولكي أستيقظ من غفلتي مرة أخرى وأنتبه منها نهائياً، بدأتُ بالاستماع كذلك لأولئك الحفاظ الكرام في«جامع بايزيد» لأتلقى الدرس السماوي للقرآن الكريم.. وعندها سمعتُ بشارات ذلك الإرشاد السماوي من خلال الأوامر الربانية المقدسة في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ....﴾ (البقرة: ٢٥).

وبالفيض الذي أخذتُهُ من القرآن الكريم تحرّيت عن السلوة والرجاء والنور في تلك الأمور التي أدهشتني وحيّرتني وأوقعتني في يأسٍ ووحشة، دون البحث عنها في غيرها من الأمور. فألفَ شكر وشكر للخالق الكريم على ما وفّقني لأنْ أجد الدواءَ في الداء نفسه، وأن أرى النور في الظلمة نفسها، وأنْ أشعر بالسلوان في الألم والرعب ذاتهما.

فنظرت أول ما نظرتُ إلى ذلك الوجه الذي يُرعِب الجميع ويُتوهم أنه مخيف جداً..

وهو وجه «الموت» فوجدت بنور القرآن الكريم، أنَّ الوجه الحقيقي للموت بالنسبة للمؤمن صبوحٌ منور، على الرغم من أن حجابه مظلمٌ والستر الذي يخفيه يكتنفه السواد القبيح المرعب. وقد أثبتنا وأوضحنا هذه الحقيقة بصورة قاطعة في كثير من الرسائل وبخاصة في «الكلمة الثامنة» و «المكتوب العشرين» من أن الموت: ليس إعداماً نهائياً، ولا هو فراقاً أبدياً، وإنما مقدمةٌ وتمهيد للحياة الأبدية وبداية لها. وهو إنهاء لأعباء مهمة الحياة ووظائفها ورخصة منها وراحة وإعفاء، وهو تبديلُ مكان بمكان، وهو وصال ولقاء مع قافلة الأحباب الذين ارتحلوا إلى عالم البرزخ.. وهكذا، بمثل هذه الحقائق شاهدت وجه الموت المليح الصبوح. فلا غرو لم أَنظر إليه خائفاً وجلاً، وإنما نظرت إليه بشيءٍ من الاشتياق -من جهة- وعرفت في حينها سراً من أسرار «رابطة الموت» التي يزاولها أهل الطرق الصوفية.

ثم تأملت في «عهد الشباب» فرأيت أنه يُحزن الجميع بزواله، ويجعل الكل يشتاقون إليه وينبهرون به، وهو الذي يمر بالغفلة والآثام، وقد مرّ شبابي هكذا! فرأيت أن ثمة وجهاً دميماً جداً بل مُسكراً ومحيراً تحت الحُلَّة القشيبة الفضفاضة الملقاة عليه، فلو لم أكن مدركاً كنهه لكان يبكيني ويحزنني طوال حياتي الدنيا، حتى لو عمرت مائة سنة حيال بضع سنين تمضي بنشوة وابتسامة، كما قال الشاعر الباكي على شبابه بحسرة مريرة:

فَيا لَيتَ الشَّبابَ يَعودُ يَومًا ... فَأُخبِرَهُ بِما فَعلَ المَشيبُ[1]

نعم، إنَّ الذين لم يتبينوا سرَّ الشباب وماهيتَه من الشيوخ يقضون شيخوختهم بالحسرة والنحيب على عهد شبابهم كهذا الشاعر. والحال أن فتوة الشباب ونضارته إذا ما حلّت في المؤمن المطمئن الحصيف ذي القلب الساكن الوقور، وإذا ما صُرفَت طاقةُ الشباب وقوتُه إلى العبادة والأعمال الصالحة والتجارة الأُخروية، فإنها تصبح أعظمَ قوة للخير وتغدو أفضل وسيلة للتجارة، وأجمل وساطة للحسنات بل ألذّها.

نعم، إنَّ عهد الشباب نفيس حقاً وثمين جداً، وهو نعمة إلهية عظمى، ونشوةٌ لذيذة لمن عرف واجبه الإسلامي ولمن لم يسئ استعماله. ولكن الشباب إن لم تصحبه الاستقامةُ، ولم ترافقه العفةُ والتقوى، فدونَه المهالكُ الوبيلة، إذ يصدّع طيشُه ونـزواته سعادةَ صاحبه الأبدية، وحياتَه

(١) لأبي العتاهية.

الأُخروية، وربما يحطم حياته الدنيا أيضاً. فيجرّعه الآلام غصصاً طوال فترة الهرم والشيخوخة لما أخذه في بضع سنين من أذواق ولذائذ.

ولما كان عهد الشباب لا يخلو من الضرر عند أغلب الناس، فعلينا إذن نحن الشيوخ أن نشكر الله شكراً كثيراً على ما نجّانا من مهالك الشباب وأضراره. هذا وإن لذّات الشباب زائلةٌ لا محالة، كما تزول جميع الأشياء. فلئن صُرف عهدُ الشباب للعبادة، وبذل للخير والصلاح لكان دونه ثماره الباقية الدائمة، وعنده وسيلة الفوز بشباب دائم وخالد في حياة أبدية.

ثم نظرت إلى «الدنيا» التي عشقها أكثرُ الناس، وابتلوا بها. فرأيت بنور القرآن الكريم أن هناك ثلاث دنىً كلية قد تداخل بعضها في البعض الآخر:

الأولى: هي الدنيا المتوجهة إلى الأسماء الإلهية الحسنى، فهي مرآة لها.

الثانية: هي الدنيا المتوجهة نحو الآخرة، فهي مزرعتها.

الثالثة: هي الدنيا المتوجهة إلى أرباب الدنيا وأهل الضلالة، فهي لعبة أهل الغفلة ولهوهم.

ورأيت كذلك أن لكل أحد في هذه الدنيا دنيا عظيمة خاصة به، فهناك إذن دنىً متداخلة بعدد البشر. غير أن دنيا كل شخص قائمةٌ على حياته الشخصية، فمتى ما ينهار جسمُ شخص فإن دنياه تتهدم وقيامتُه تقوم. وحيث إن الغافلين لا يدركون انهدام دنياهم الخاصة بهذه السرعة الخاطفة؛ فهم يفتنون بها، ويظنونها كالدنيا العامة المستقرة من حولهم.

فتأملت قائلاً: لا شك أن لي أيضاً دنيا خاصة - كدنيا غيري تتهدم بسرعة فما فائدة هذه الدنيا الخاصة إذن في عمري القصير جداً؟!.. فرأيت بنور القرآن الكريم أن هذه الدنيا -بالنسبة لي ولغيري- ما هي إلّا متجر مؤقت، ودار ضيافة تُملأ كل يوم وتخلى، وهي سوق مقامة على الطريق لتجارة الغادين والرائحين، وهي كتاب مفتوح يتجدد للبارئ المصور، فيمحو فيه ما يشاء ويثبته بحكمة. وكل ربيع فيها رسالة مرصعة مذهّبة، وكل صيف فيها قصيدةٌ منظومة رائعة، وهي مرايا تتجدد مظهرة تجليات الأسماء الحسنى للصانع الجليل، وهي مزرعة لغِراس الآخرة وحديقتها، وهي مزهرة الرحمة الإلهية، وهي مصنع موقت لتجهيز اللوحات الربانية

الخالدة التي ستظهر في عالم البقاء والخلود. فشكرتُ الله الخالق الكريم أجزل شكر على خلقه الدنيا بهذه الصورة. بيد أن الإنسان الذي مُنح حباً مقبلاً إلى وجهَي الدنيا الحقيقيين المليحين المتوجهين إلى الأسماء الحسنى وإلى الآخرة، أخطأ المرمى وجانَب الصواب عندما استعمل تلك المحبة في غير محلها، فصرفَها إلى الوجه الفاني القبيح ذي الغفلة والضرر حتى حق عليه الحديث الشريف (**حُبّ الدُّنيا رأسُ كلّ خَطيئة**).[1]

فيا أيها الشيوخ ويا أيتها العجائز!.

إنني رأيت هذه الحقيقة بنور القرآن الحكيم، وبتذكير من شيخوختي، وبما منحه الإيمانُ لبصيرتي من نور، وقد أثبتُّها في رسائل كثيرة مع براهين دامغة.. رأيت أن هذه الحقيقة هي السلوان الحقيقي لي، وهي الرجاء القوي والضياء الساطع.. فرضيتُ بشيخوختي وهرمي وسررت من رحيل الشباب.

فلا تحزنوا إذن، ولا تبكوا يا إخوتي الشيوخ على شيخوختكم بل احمدوا الله واشكروه. وما دمتم تملكون الإيمان، والحقيقة تنطق هكذا، فليبكِ أولئك الغافلون، وليحزن الضالون ولينتحبوا..

الرجاء التاسع

كُنتُ أسيراً في أثناء الحرب العالمية الأولى في مدينة قصيّة، في شمال شرقي روسيا تدعى «قوصترما». كان هناك جامع صغير للتتار على حافة نهر «فولغا» المشهور.. كنت ضَجِراً من بين زملائي الضباط الأسرى، فآثرتُ العزلة، إلّا أنه لم يكن يُسمح لي بالتجوال في الخارج دون إذن ورخصة، ثم سُمح لي بأن أظلَّ في ذلك الجامع بضمانة أهل حيّ التتار وكفالتهم، فكنت أنام فيه وحيداً، وقد اقترب الربيع، وكانت الليالي طويلة جداً في تلك البقعة النائية..

كان الأرقُ يصيبني كثيراً في تلك الليالي الحالكة السواد، المتسربلة بأحزان الغربة القاتمة، حيث لا يُسمع إلّا الخريرُ الحزين لنهر «فولغا»، والأصوات الرقيقة لقطرات الأمطار، ولوعةُ الفراق في صفير الرياح.. كل ذلك أيقظني -مؤقتاً- من نوم الغفلة العميق..

---

(١) البخاري، التاريخ الكبير ٣/ ٤٧٢؛ الزبيدي، إتحاف السادة ٨/ ٨١؛ العجلوني، كشف الخفاء ١/ ٣٤٤-٣٤٥؛ علي القاري، الأسرار المرفوعة ص ١٠٨.

ورغم أنني لم أكن أعدّ نفسي شيخاً بعدُ، ولكن من يرى الحرب شيخٌ، حيث أيامُها يشيب من هولها الولدان، وكأن سراً من أسرار الآية الكريمة: ﴿ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴾ (المزمل: ١٧) قد سرى فيها. ومع أنني كنت قريباً من الأربعين إلّا أنني وجدتُ نفسي كأنني في الثمانين من عمري..

في تلك الليالي المظلمة الطويلة الحزينة، وفي ذلك الجو الغامر بأسى الغربة، ومن واقعي المؤلم الأليم، جثم على صدري يأسٌ ثقيل نحو حياتي وموطني، فكلما التفتُّ إلى عجزي وانفرادي انقطع رجائي وأملي. ولكن جاءني المدد من القرآن الكريم.. فردد لساني:

﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ (آل عمران: ١٧٣)

وقال قلبي باكياً:

أنا غريبٌ.. أنا وحيد.. أنا ضعيف.. أنا عاجز.. أنشد الأمانَ.. أطلب العفوَ.. أخطب العون.. في بابك يا إلهي.

أما روحي التي تذكرت أحبابي القدامى في بلدي، وتخيلتُ موتي في هذه الغربة، فقد تمثلت بأبيات نيازي المصري، وهي التي تبحث عن صديق:

مررت بأحزان الدنيا، وأطلقت جناحي

للحرمان

طائراً في شوق، صائحاً في كل لحظة:

صديق!.. صديق..!

على أية حال.. فقد أصبح «عجزي» و«ضعفي» في تلك الليالي المحزنة الطويلة والحالكة بالفرقة والرقة والغربة وسيلتين للتقرب إلى عتبة الرحمة الإلهية، وشفيعين لدى الحضرة الإلهية، حتى إنني لا أزال مندهشاً كيف استطعت الفرارَ بعد أيام قليلة. وقطعتُ بصورة غير متوقعة مسافة لا يمكن قطعها مشياً على الأقدام إلّا في عام كامل، ولم أكن ملمّاً باللغة الروسية. فلقد تخلصت من الأسر بصورة عجيبة محيّرة، بفضل العناية الإلهية التي أدركتني بناءً على عجزي وضعفي، ووصلت إستانبول ماراً بـ«وارشو» و«فينا». وهكذا نجوت من ذلك الأسر بسهولة

تدعو إلى الدهشة، حيث أكملت سياحة الفرار الطويل بسهولة ويسر كبيرين، بحيث لم يكن لينجزها أشجع الأشخاص وأذكاهم وأمكرهم وممن يلمّون باللغة الروسية.

ولكن حالتي في تلك الليلة التي قضيتُها في الجامع على ضفاف «فولغا» قد ألهمتني هذا القرار:

«سأقضي بقية عمري في الكهوف والمغارات معتزلاً الناس.. كفاني تدخلاً في أمورهم. ولما كانت نهاية المطاف دخول القبر منفرداً وحيداً، فعليّ أن أختار الإنفراد والعزلة من الآن،لأعوّد نفسي عليها!.».

نعم، هكذا قررت.. ولكن -ويا للأسف- فإن أحبابي الكثيرين المخلصين في استانبول، والحياة الاجتماعية البهيجة البرّاقة فيها، ولاسيما ما لا طائل فيه من إقبال الناس والشهرة والصيت.. كل ذلك أنساني قراري ذلك لفترة قصيرة. فكأنَّ ليلةَ الغربة تلك هي السواد المنوّر البصير لعين حياتي، وكأنَّ النهارَ البهيج لحياة إستانبول هي البياض غير البصير لعين حياتي. فلم تتمكن تلك العين من رؤية البعيد، بل غطّت ثانية في نوم عميق، حتى فتحها الشيخ الكيلاني بكتابه «فتوح الغيب» بعد سنتين.

وهكذا أيها الشيوخ، ويا أيتها العجائز!.. اعلموا أن ما في الشيخوخة من العجز والضعف ليسا إلّا وسيلتين لدرّ الرحمة الإلهية وجلب العناية الربانية.. فإنني شاهد على هذه الحقيقة في كثير من حوادث حياتي، وإن تجلي الرحمة على سطح الأرض يظهرها كذلك بشكل واضح أبلج؛ لأنَّ أعجزَ الحيوانات وأضعفها هي صغارُها، والحال أن ألطفَ حالات الرحمة وألذَّها وأجملَها تتجلى في تلك الصغار، فعجزُ الفرخ الساكن في عشّه على شجرة باسقة، يستخدم والدته -بتجلي الرحمة- كأنها جندية تنتظر الأوامر. فتحوم حول الزروع الخضر لتجلب الرزق الوفير لفرخها الصغير، ولكن ما إن ينسى الفرخُ الصغير عجزه -بنموّ جناحَيه وتكامله- حتى تقول له والدته: عليك أن تبحث عن رزقك بنفسك. فلا تعود تستجيب لندائه بعد ذلك.

فكما يجري سرُّ الرحمة هذا على هذه الصورة بحق الصغار، يجري كذلك من زاوية الضعف والعجز، بحق الشيوخ الذين أصبحوا في حُكم الصغار.

ولقد أعطتني تجاربي الخاصة القناعةَ التامة أن رزقَ الصغار مثلما يأتي بناءً على عجزهم، وترسله الرحمةُ الإلهية لهم بشكل خارق، فتفجّر ينابيعَ الأثداء وتسيّلها لهم سيلاً، فإن رزق الشيوخ المؤمنين الذين اكتسبوا العصمةَ يُرسل إليهم من قبل الرحمة على صورة بركة، وأن عمود البركة لأي بيت وسندَها إنما هو أولئك الشيوخ الذين يأهلونه، وأن الذي يحفظ ذلك البيت من البلايا والمصائب إنما هم أولئك الشيوخ الركّع الذين يعمرونه. يثبت هذه الحقيقة إثباتاً كاملاً جزء من حديث شريف: (لولا الشيوخ الركع لصبّ عليكم البلاء صبّاً).[1] وهكذا فما دام الضعفُ والعجز اللذان في الشيخوخة يصبحان محورين لجلب الرحمة الإلهية الواسعة، وأن القرآن الكريم يدعو الأولاد إلى الاحترام والرأفة بالوالدين في خمس مراتب، وبأسلوب غاية في الإعجاز، في قوله تعالى:

﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۞ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ (الإسراء: ٢٣-٢٤).

وما دام الإسلام يأمر بتوقير الشيوخ والرحمة بهم، والفطرةُ الإنسانية تقضي الاحترام والرحمة تجاه الشيوخ.. فلابد لنا -نحن الشيوخ- ألّا نستبدل شيخوختنا هذه بمائة عهد من عهود الصبا؛ ذلك لأنَّ لنا فيها أذواقاً معنوية دائمة جديرة، بدلاً من الذوق المادي الناشئ من نـزوة الشباب، حيث نأخذ أذواقاً روحية نابعة من الرحمة الصادرة من العناية الإلهية ومن الاحترام النابع من فطرة الإنسانية.

نعم، إني أُطمئنكم بأنه لو أُعطيتُ عشر سنوات من عهد شباب «سعيد القديم» فلن استبدلها بسنة واحدة من شيب «سعيد الجديد». فأنا راضٍ عن شيخوختي، فارضوا عنها أنتم كذلك..

الرجاء العاشر

بعدما رجعت من الأسر، سيطرت الغفلةُ عليّ مرة أخرى طوال سنتين من حياتي في إستانبول، حيث الأجواءُ السياسية وتياراتها صرفت نظري عن التأمل في نفسي، وأحدثت تشتتاً في ذهني وفكري.

(١) انظر: أبو يعلى، المسند ١١/ ١٢٨٧؛ الطبراني، المعجم الكبير ٢٢/ ٣٠٩.

فحينما كنت جالساً ذات يوم في مقبرة أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه وعلى مرتفع مطلّ على وادٍ سحيق، مستغرقاً في تأمل الآفاق المحيطة باستانبول، إذا بي أرى كأن دنيايَ الخاصة أوشكت على الوفاة، حتى شعرت -خيالاً- كأنَّ الروحَ تنسل منها انسلالاً من بعض نواحيّ. فقلت: تُرى هل الكتابات الموجودة على شواهد هذه القبور هي التي دعَتني إلى هذا الخيال؟.

أشحتُ نظري عن الخارج وأنعمت النظر في المقبرة دون الآفاق البعيدة فألقى في روعي: «أنَّ هذه المقبرة المحيطة بك تضم مائة إستانبول! حيث إن إستانبول قد أفرغت فيها مائة مرة، فلن تُستثنى أنت وحدَك من حُكم الحاكم القدير الذي أفرغ جميعَ أهالي إستانبول هنا، فأنت راحلٌ مثلهم لا محالة..!».

غادرت المقبرة وأنا أحمل هذا الخيال المخيف، ودخلت الغرفة الصغيرة في محفل جامع أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه والتي كنت أدخلها مراراً في السابق فاستغرقتُ في التفكير في نفسي: إنما أنا ضيف! وضيف من ثلاثة أَوجه؛ إذ كما أنني ضيفٌ في هذه الغرفة الصغيرة، فأنا ضيفٌ كذلك في إستانبول، بل أنا ضيف في الدنيا وراحل عنها كذلك، وعلى المسافر أن يفكر في سبيله ودربه.

نعم، كما أنني سوف أخرج من هذه الغرفة وأُغادرها، فسوف أترك إستانبول ذات يوم وأُغادرها، وسوف أخرج من الدنيا كذلك.

وهكذا جثمتْ على قلبي وفكري وأنا في هذه الحالة، حالة أليمة محزنة مكدّرة. فلا غرو أنني لا أترك أحباباً قليلين وحدَهم، بل سأفارق أيضاً آلاف الأحبة في استانبول، بل سأغادر إستانبول الحبيبة نفسَها وسأفترق عن مئات الآلاف من الأحبة كما افترق عن الدنيا الجميلة التي أُبتلينا بها.

ذهبتُ إلى المكان المرتفع نفسه في المقبرة مرة أخرى، فبدا لي أهالي استانبول، جنائزَ يمشون قائمين مثلما يظهر الذين ماتوا شخوصاً متحركة في الأفلام السينمائية، فقد كنت أتردد إليها أحياناً للعبرة! فقال لي خيالي: ما دام قسمٌ من الراقدين في هذه المقبرة يمكن أن يظهروا

متحركين كالشخوص السينمائية، ففكِّر في هؤلاء الناس كذلك أنهم سيدخلون هذه المقبرة حتماً، واعتبرهم داخلين فيها من الآن.

وبينما كنت أتقلب في تلك الحالة المحزنة المؤلمة إذا بنور من القرآن الحكيم وبإرشاد من الشيخ الكيلاني (قُدس سرّه) يقلب تلك الحالة المحزنة ويحوّلها إلى حالة مفرحة مبهجة، ذات نشوة ولذة، حيث ذكّرني النورُ القادم من القرآن الكريم ونبهني إلى ما يأتي:

كان لك صديق أو صديقان من الضباط الأسرى عند أسرك في «قوصترما» في شمال شرقي روسيا، وكنتَ تعلم حتماً أنهما سيرجعان إلى إستانبول. ولو خَيّرك أحدُهما قائلاً: أتذهب إلى استانبول أم تريد أن تبقى هنا؟. فلا جرم أنك كنت تختار الذهاب إلى إستانبول لو كان لك مِسكة من عقل، بفرح وسرور حيث إن تسعمائة وتسعة وتسعين من ألف حبيب وحبيب لك هم الآن في إستانبول، وليس لك هنا إلّا واحد أو اثنان، وهم بدورهم سيرحلون إلى هناك. فالذهاب إلى إستانبول بالنسبة لك إذن ليس بفراق حزين، ولا بافتراق أليم.. وها أنتذا قد أتيت إليها، ألم تصبح راضياً شاكراً؟ فلقد نجوتَ من بلد الأعداء، من لياليها الطوال السوداء، ومن شتائها القارس العاصف، وقدِمت إستانبول الزاهية الجميلة، كأنها جنة الدنيا!. وهكذا الأمر حيث إن تسعاً وتسعين من مائة شخص ممن تحبهم منذ صغرك حتى الآن، قد ارتحلوا إلى المقبرة. تلك التي تبدو لك موحشة مدهشة، ولم يظل منهم في هذه الدنيا إلّا واحد أو اثنان، وهم في طريقهم إليها كذلك. فوفاتُك في الدنيا إذن ليست بفراق، ولا بافتراق، وإنما هي وصال ولقاء مع أولئك الأحبة الأعزاء.

نعم إنَّ أولئك -أي الأرواح الباقية- قد تركوا مأواهم وعشهم المندرس تحت الأرض، فيسرح قسم منهم بين النجوم، وقسم آخر بين طبقات عالم البرزخ.

وهكذا ذكّرني ذلك النور القرآني.. ولقد أثبت هذه الحقيقة إثباتاً قاطعاً كلٌّ من القرآن الكريم، والإيمان، بحيث مَن لم يفقد قلبَه وروحه، أو لم تغرقه الضلالةُ لابد أن يصدق بها كأنه يراها؛ ذلك لأن الذي زيّن هذه الدنيا بأنواع ألطافِه التي لا تحد وبأشكال آلائه التي لا تُعد مُظهراً بها ربوبيته الكريمة الرَّؤوف، حفيظاً حتى على الأشياء الصغيرة الجزئية جداً -كالبذور مثلاً- ذلك الصانع الكريم الرحيم، لابد -بل بالبداهة- لا يُفني هذا الإنسان الذي هو أكملُ

مخلوقاته وأكرمُها وأجمعها وأهمّها وأحبها إليه، ولا يمحوه بالفناء والإعدام النهائي، بلا رحمة وبلا عاقبة -كما يبدو ظاهراً- ولا يضيّعه أبداً.. بل يضع الخالقُ الرحيم ذلك المخلوق المحبوب تحت التراب الذي هو باب الرحمة موقتاً، كي يعطي ثمارَه في حياة أخرى، كما يبذر الفلاح البذور على الأرض.[١]

وبعد أن تلقيت هذا التنبيه القرآني، باتت تلك المقبرةُ عندي مؤنسةً أكثر من إستانبول نفسها، وأصبحت الخلوة والعزلة عندي أكثر لطافة من المعاشرة والمؤانسة، مما حدا بي أن أجد مكاناً للعزلة في «صارى ير» على البسفور. وأصبح الشيخ الكيلاني رضي الله عنه أستاذاً لي وطبيباً ومرشداً بكتابه «فتوح الغيب»، وصار الإمام الرباني رضي الله عنه[*] كذلك بمثابة أستاذ أنيس ورؤوف شفيق بكتابه «مكتوبات» فأصبحتُ راضياً كلياً وممتنّاً من دخولي المشيب، ومن عزوفي عن مظاهر الحضارة البراقة ومُتعها الزائفة، ومن انسلالي من الحياة الاجتماعية وانسحابي منها، فشكرتُ الله على ذلك كثيراً.

فيا من يدلف إلى المشيب مثلي.. ويا من يتذكر الموت بنذير الشيب..! إنَّ علينا أن نرضى بالشيخوخة وبالموت وبالمرض، ونراها لطيفةً بنور الإيمان الذي أتى به القرآنُ الكريم، بل علينا أن نحبها -من جهة- فما دمنا نملك إيماناً وهو النعمة الكبرى، فالشيخوخةُ إذن طيبة والمرض طيب، والموت طيب أيضاً.. وليس هناك شيء قبيحٌ محض في حقيقة الأمر إلّا الإثم والسفه والبدع والضلالة.

الرجاء الحادي عشر

عندما رجعت من الأسر، كنت أسكن مع ابن أخي «عبد الرحمن»[*] في قصر على قمة «چاملجة» في إستانبول. ويمكن أن تُعد هذه الحياة التي كنت أحياها حياةً مثالية من الناحية الدنيوية بالنسبة لأمثالنا؛ ذلك لأنني قد نجوت من الأسر، وكانت وسائلُ النشر مفتوحةً أمامي في«دار الحكمة الإسلامية»[٢] وبما يناسب مهنتي العلمية، وأن الشهرة والصيت والإقبال عليّ تحفّ بي بدرجة لا أستحقها، وأنا ساكن في أجمل بقعة من استانبول «چاملجة»، وكلُّ شيء

(١) لقد أثبتت هذه الحقيقة بصورة قاطعة كقطعية (اثنين في اثنين يساوي أربعاً) في سائر الرسائل ولاسيما «الكلمة العاشرة» و«الكلمة التاسعة والعشرون». (المؤلف).

(٢) هي أعلى مؤسسة علمية تابعة للمشيخة الإسلامية في الدولة العثمانية.

بالنسبة لي على ما يرام، حيث إن ابن أخي «عبد الرحمن» -رحمه الله- معي، وهو في منتهى الذكاء والفطنة، فهو تلميذ ومضحٍّ وخادم وكاتب معاً، حتى كنت أعدّه ابناً معنوياً لي.

وبينما كنت أحس بأني أسعد إنسان في العالم، نظرتُ إلى المرآة، ورأيت شعيرات بيضاء في رأسي وفي لحيتي، وإذا بتلك الصحوة الروحية التي أحسست بها في الأسر في جامع «قوصترما» تبدأ بالظهور. فأخذتُ أنعم النظر وأفكر مدققاً في تلك الحالات التي كنت ارتبط بها قلبياً، وكنت أظنها أنها هي مدار السعادة الدنيوية. فما من حالة أو سبب دققت النظر فيه، إلّا رأيت أنه سبب تافه وخادع، لا يستحق التعلق به، ولا الارتباط معه. فضلاً عن ذلك وجدت في تلك الأثناء عدم الوفاء وفقدان الصداقة من صديق حميم، يُعدّ من أوفى الأصدقاء لي، وبشكل غير متوقع وبصورة لا تخطر على بال.. كل ذلك أدى إلى النفرة والامتعاض من الحياة الدنيا، فقلت لقلبي:

- يا تُرى هل أنا منخدع كلياً؛ فأرى الكثيرين ينظرون إلى حياتنا التي يُرثى لها من زاوية الحقيقة نظرَ الغبطة؟ فهل جُنَّ جنون جميع هؤلاء الناس؟ أم أنا في طريقي إلى الجنون، لرؤيتي هؤلاء المفتونين بالدنيا مجانينَ بُلهاء؟! وعلى كل حال.. فالصحوة الشديدة التي صحوتها برؤية الشيب جعلتني أرى أولاً: فناء ما أرتبط به من الأشياء المعرّضة للفناء والزوال!!

ثم التفتّ إلى نفسي، فوجدتُها في منتهى العجز!.. عندها صرختْ روحي وهي التي تنشد البقاء دون الفناء وتتشبث بالأشياء الفانية متوهمةً فيها البقاء، صرخت من أعماقها: «مادمتُ فانيةً جسماً فأي فائدة أرجوها من هذه الفانيات؟ وما دمتُ عاجزةً فماذا انتظر من العاجزين؟.. فليس لدائي دواءٌ إلّا عند الباقي السرمدي، عند القدير الأزلي» فبدأت أبحث وأستقصي.. راجعت أولَ ما راجعت، تلك العلوم التي اكتسبتها سابقاً، أبحث فيها السلوة والرجاء. ولكن كنت -ويا للاسف- إلى ذلك الوقت مغترفاً من العلوم الإسلامية مع العلوم الفلسفية ظناً مني -ظناً خطأً جداً- أن تلك العلوم الفلسفية هي مصدرُ الرُّقي والتكامل ومحور الثقافة وتنوّر الفكر، بينما تلك المسائل الفلسفية هي التي لوثَت روحي كثيراً، بل أصبحت عائقةً أمام سموي المعنوي.

نعم، بينما كنت في هذه الحالة، إذا بحكمة القرآن المقدسة تسعفني، رحمةً من العلي

القدير، وفضلاً وكرماً من عنده سبحانه. فغسلتْ أدرانَ تلك المسائل الفلسفية، وطهّرتْ روحي منها -كما هو مبيّن في كثير من الرسائل- إذ كان الظلام الروحي المنبثق من العلوم الفلسفية، يُغرق روحي ويطمسها في الكائنات، فأينما كنت أتوجّه بنظري في تلك المسائل فلا أرى نوراً ولا أجد قبساً، ولم أتمكن من التنفس والانشراح، حتى جاء نورُ التوحيد الساطع النابع من القرآن الكريم الذي يلقّن «**لا اله إلّا هو**» فمزّق ذلك الظلام وبدّده. فانشرح صدري وتنفس بكل راحة واطمئنان.. ولكن النفس والشيطان، شنّا هجوماً عنيفاً على العقل والقلب وذلك بما أخذاه من تعليمات وتلقّياه من دروس من أهل الضلالة والفلسفة. فبدأت المناظرةُ النفسية في هذا الهجوم حتى اختتمت -ولله الحمد والمنّة- بانتصار القلب وفوزه.

ولما كان قسم من تلك المناظرات قد ورد في أغلب الرسائل، فنحن نكتفي به، إلّا أننا نبين هنا برهاناً واحداً فقط من بين آلاف البراهين، لنبين انتصار القلب وفوزه على النفس والشيطان، وليقوم ذلك البرهان بتطهير أرواح أولئك الشيوخ الذين لوّثوا أرواحهم، وأسقموا قلوبَهم، وأطغوا أنفسهم، حتى تجاوزت حدودَها، تارة بالضلالة، وتارة بما لا يعنيهم من أمور تتستر تحت ستار العلوم الأجنبية والفنون الحضارية، ولينجوا -بإذن الله- في حق التوحيد، من شرور النفس والشيطان. والمناظرة هي كالآتي:

قالت نفسي مستفسرةً باسم العلوم الفلسفية المادية: «إن الأشياء الموجودة في الكون، بطبيعتها تتدخل في الموجودات، فكل شيء متوجّهٌ إلى سبب وصادر منه، فالثمرةُ تؤخذ من الشجرة، والحبوبُ تُطلب من التراب، فماذا يعني التضرع إلى الله وطلب أصغر شيء وأكثره جزئية منه سبحانه؟!».

انكشف حالاً سرُّ التوحيد بنور القرآن الكريم بالصورة الآتية:

أجاب قلبي لنفسي المتفلسفة: إن أصغرَ شيء وأكثرَه جزئية إنما هو كأكبرِ شيء وأعظمِه، فهو يصدر من قدرة خالق الكائنات مباشرة، ويأتي من خزينته سبحانه.. فليس هناك صورة أخرى قط، وما الأسباب إلّا ستائر؛ ذلك لأنَّ أصغر المخلوقات وأتفهَها -حسب ظننا- قد يكون أعظمَ من أكبر المخلوقات وأضخمها، من حيث الخلقة والصنعة والإتقان. فالذباب مثلاً، إن لم يكن أدقَّ وأرقى من حيث الصنعة من الدجاج فليس هو بقاصر عنها، لهذا لا يمكن

التمييزُ بين الصغير والكبير من حيث الخلقة والصنعة فإما أن يُنسَب خلقُ الجميع -صغيرُه وكبيرُه- إلى الأسباب المادية، وإما أن يُسنَد الخلق جميعاً إلى الواحد الأحد. ومثلما أن الشق الأول محالٌ في محال، فإن الشق الثاني واجب الاعتقاد به وضروري. لأنه:

ما دام علمُ الله سبحانه وتعالى يحيط بكل شيءٍ، والذي هو ثابت وجودُه بشكل قاطع بانتظام جميع الموجودات والحِكَم التي فيها.. وما دام كل شيء يتعيّن مقدارُه في علمه سبحانه.. وما دامت المصنوعات والمخلوقات وهي في منتهى الروعة والإتقان تأتي بمنتهى السهولة إلى الوجود من العدم كل حين كما هو مشاهَد.. ومادام ذلك القدير العليم يملك قدرة مطلقة يمكنه أن يوجِد كلَّ شيء بأمر «كن فيكون» وفي لمح البصر.. كما بيّنا ذلك في كثير من الرسائل بدلائل قاطعة ولاسيما في «المكتوب العشرين» وختام «اللمعة الثالثة والعشرين». فلابد أن السهولة المطلقة المشاهَدة، والخارقة للعادة، ما هي إلّا من تلك الإحاطة العلمية ومن عظمة تلك القدرة المطلقة.

مثلاً: كما أنه إذا أمررتَ مادة كيمياوية معينة على كتاب كُتب بحبر كيمياوي لا يُرى، فإن ذلك الكتاب الضخم يظهر عياناً حتى يستقرئ كلَّ ناظر اليه، كذلك يتعين مقدارُ كل شيء وصورتُه الخاصة به في العلم المحيط للقدير الأزلي، فيمرر القديرُ المطلق قوته -التي هي تجلٍ من قدرته- بكل سهولة ويسر، كإمرار تلك المادة في المثال، على تلك الماهية العلمية، يمرره بأمر «كنْ فيكون»، وبقدرته المطلقة تلك، وبإرادته النافذة.. فيعطي سبحانه ذلك الشيء وجوداً خارجياً، مُظهراً إياه أمام الأشهاد، مما يجعلهم يقرؤون ما فيه من نقوش حكمته..

ولكن إنْ لم يُسند خلقُ جميع الأشياء دفعةً واحدة إلى العليم المطلق وإلى القدير الأزلي، فإن خلق أصغر شيء عندئذ -كالذباب مثلاً- يستلزم جمعَ جميع ما له علاقة بالذباب من أكثر أنواع العالم، جمعَه بميزان خاص ودقيق جداً، أي جمع كل ذلك في جسم الذباب، بل ينبغي أن تكون كلُّ ذرةٍ عاملةٍ في جسم الذباب عالمةً تمام العلم بسرّ خلق الذباب وحكمة وجوده، بل ينبغي أن تكون متقنةً لروعة الصنعة التي فيها بدقائقها وتفاصيلها كافة.

ولما كانت الأسبابُ المادية أو الطبيعية لا يمكنها أن تخلق شيئاً من العدم مطلقاً كما هو بدهي ومتفق عليه عند أرباب العقول؛ لذا فإن تلك الأسباب حتى لو تمكّنت من

الإيجاد فإنها لا تتمكن من ذلك إلّا بالجمع. فما دامت ستقوم بالجمع، وإن الكائن الحي -أياً كان- ينطوي على أغلب نماذج ما في العالم من عناصر وأنواع، وكأنه خلاصةُ الكائنات أو بذرتُها، فلابد إذن من جمع ذرات البذرة من شجرة كاملة، وجمع عناصر الكائن الحي وذراته من أرجاء العالم أجمع، وذلك بعد تصفيتها وتنظيمها وتقديرها بدقة وإتقان حسب موازينَ خاصة ووفق مصافٍ حساسة ودقيقة جداً.. ولكون الأسباب المادية الطبيعية جاهلةً وجامدةً، فلا علم لها مطلقاً كي تقدّر خطة، وتنظّم منهاجاً، وتنسق فهرساً، وكي تتعامل مع الذرات وفق قوالب معنوية، مصهرة إياها في تلك القوالب لتمنعها من التفرق والتشتت واختلال النظام. بينما يمكن أن يكون شكلُ كلِّ شيء وهيئته ضمن أنماط لا تُحد.. لذا فإن إعطاء شكل معين واحد من بين تلك الأشكال غير المحدودة، وتنظيم ذلك الشيء بمقدار معين ضمن تلك المقادير غير المعدودة، دون أن تتبعثر ذراتُ العناصر الجارية كالسيل وبانتظام كامل. ثم بناؤها وعمارتها بعضها فوق بعض بلا قوالب خاصة وبلا تعيين المقادير، ثم إعطاء الكائن الحي وجوداً منتظماً منسقاً.. كل هذا أمرٌ واضح أنه خارجٌ عن حدود الإمكان، بل خارج عن حدود العقل والاحتمال! فالذي لم يفقد بصيرته يرى ذلك بجلاء! نعم، وتوضيحاً لهذه الحقيقة فقد جاء في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾ (الحج: ٧٣). أي إذا اجتمعت الأسبابُ المادية كافة لا يمكنها أن تجمع وتنسق جسم ذبابة واحدة وأجهزتها وفق موازين دقيقة خاصة حتى لو أوتيت تلك الأسباب إرادةً واختياراً، بل حتى لو تمكنت من تكوين جسم ذباب وجمعه فإنها لا تستطيع إبقاءه وإدامته على مقداره المعين له، بل حتى لو تمكنت من إبقائه بالمقدار المعين فلن تستطيع أن تحرك بانتظام تلك الذرات التي تتجدد دوماً وترد إلى ذلك الوجود لتسعى فيه؛ لذا فمن البداهة أنَّ الأسباب لن تكون مالكةً لهذه الأشياء ولن تكون صاحبتَها مطلقاً. إنما صاحبُها الحقيقي هو غيرُ الأسباب.. نعم، إنَّ لها مالكاً وصاحباً حقيقياً بحيث إن إحياء ما على الأرض من كائنات سهلٌ عليه ويسير، كإحياء ذبابة واحدة. وإيجادُ الربيع عنده سهلٌ وهينٌ كسهولة إيجاد زهرة واحدة.. كما تبينه الآية الكريمة: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ﴾ (لقمان: ٢٨) ذلك لأنه غير محتاج إلى الجمع، حيث إنه مالك لأمر ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ .. ولأنه يخلق من العدم في كل ربيع أحوالَ موجودات الربيع وصفاتِها وأشكالَها، مما سوى عناصرها.. ولأن خطة كل شيء

ونموذجَه وفهرسه ومخططه متعينٌ في علمه سبحانه.. ولأنَّ جميع الذرات لا تتحرك إلّا ضمن دائرة علمه وقدرته؛ لذا فإنه يخلق كل شيء ويوجِده إيجاداً بلمح البصر وفي منتهى اليُسر، ولن يحيد شيءٌ عمّا أُنيط به في حركته ولو بمقدار ذرة. فتغدو الكواكب السيارة جيشاً منظماً طائعاً له، وتصبح الذرات جنوداً مطيعين لأمره، وحيث إن الجميع يسيرون على وفق تلك القدرة الأزلية ويتحركون وفق دساتير ذلك العلم الأزلي؛ لذا فإن هذه الآثار تأتي إلى الوجود حسب تلك القدرة، فلا تصغُر تلك الآثار بنظر الاستصغار، ولا تكون مهملة بعدم الاهتمام بها؛ إذ الذبابةُ المنتسبة إلى تلك القدرة تهلك نمروداً، والنملة تُدمِّرُ قصر فرعون، وبذرةُ الصنوبر المتناهية في الصغر تحمل على أكتافها ثقلَ شجرة الصنوبر الضخمة كالجبل. فكما أننا أثبتنا هذه الحقيقة في رسائل كثيرة فإننا نقول هنا كذلك: إنَّ الجندي المنتسب إلى السلطان بالجندية يمكنه أن يقوم بأعمال تفوق طاقته ألف مرة، كأنْ يأسر مثلاً قائداً عظيماً للعدو بانتسابه، كذلك فإن كل شيء بانتسابه إلى تلك القدرة الأزلية يكون مصدراً لمعجزات الصنعة والإتقان بما تفوق تلك الأسبابَ الطبيعية بمائة ألف مرة.

الخلاصة: إنَّ الصنعة المتقنة البديعة لكل شيء، والسهولة المطلقة في إيجاده، تظهران معاً أن ذلك الشيء من آثار القدير الأزلي ذي العلم المحيط، وإلّا فهو محال في مائة محال ورود ذلك الشيء إلى الوجود، بل يكون -عندئذٍ- خارجاً عن دائرة الإمكان وداخلاً في دائرة الامتناع، بل خارجاً من صورة الممكن إلى صورة الممتنع وماهية الممتنع، بل لا يمكن أن يرد -عندئذ- شيء مهما كان إلى الوجود مطلقاً.

وهكذا فإن هذا البرهان وهو في منتهى القوة والدقة، ومنتهى العمق والوضوح قد أسكت نفسي التي أصبحت تلميذةً مؤقتة للشيطان، ووكيلة لأهل الضلالة والفلسفة، حتى آمنت -ولله الحمد- إيماناً راسخاً، وقالت:

نعم، إنه ينبغي أن يكون لي ربٌّ خالق يعلم ويسمع أدقّ خواطر قلبي وأخفى رجائي ودعائي. ويكون ذا قدرة مطلقة فيسعف أخفى حاجات روحي ويستبدل كذلك بهذه الدنيا الضخمة دنيا أخرى غيرها ليسعدني سعادة أبدية فيقيم الآخرة بعدما يرفع هذه الدنيا، وكما أنه يخلق الذباب فإنه يوجِد السماوات إيجاداً أيضاً. وكما أنه رصّع وجه السماء بعين الشمس جعل

من الذرة ترصيعاً في بؤبؤ عيني. وإلّا فإن الذي لا يستطيع أن يخلق ذباباً لا يمكنه أن يتدخل في خواطر قلبي، ولن يسمع تضرع روحي. وإن الذي لا يستطيع أن يخلق السماوات لا يمكنه أن يهبني السعادة الأبدية؛ لذا فإن ربي إنما هو الذي يسمع -بل يصلح- خواطر قلبي، فمثلما أنه يملأ جو السماء بالغيوم ويفرغها منه خلال ساعة فإنه سيبدّل الآخرة بهذه الدنيا ويعمّر الجنة ويفتح أبوابها لي قائلاً: هيا أدخل!

فيا إخوتي الشيوخ، ويا مَن صرفتم جزءاً من عمركم بسوء حظ النفس وشقائها -مثل نفسي- في مغالطات العلوم الأجنبية والفلسفة المظلمة.. اعلموا أن الذي يردده القرآن دوماً من «لا إله إلّا هو» ذلك الأمر القدسي، ركن إيماني لا يتزلزل ولا يتصدع ولا يتغير أبداً!! فما أقواه وما أصوبَه! حيث يبدد جميع الظلمات ويضمد الجراحات المعنوية.

هذا وإن درج هذه الحادثة المطولة ضمن أبواب الرجاء والأمل لشيخوختي، لم يكن باختياري، بل لم أكن أرغب درجها هنا، تحاشياً من الملل، إلّا أنني أستطيع أن أقول قد كُتّبتها وأُملِيَتْ عليَّ.. وعلى كل.. لنرجع إلى الموضوع الذي نحن بصدده:

نعم، هكذا جاءني النفور من تلك الحياة الدنيوية البهيجة في استانبول التي ظاهرها اللذة، من ذلك التأمل والنظر في شعيرات بيضاء لرأسي ولحيتي، ومن عدم الوفاء الذي بدر من الصديق الوفي المخلص.. حتى بدأت النفسُ بالبحث والتحري عن أذواق معنوية بدلاً عما افتتنتْ به من أذواق، فطلبت نوراً وسلواناً في هذه الشيخوخة التي تبدو ثقيلة ومزعجة ومَقِيتةً في نظر الغافلين. فلله الحمد والمنّة وألف شكر وشكر له سبحانه أن وفقني لوجدان تلك الأذواق الإيمانية الحقيقية الدائمة في «لا إله إلّا هو» وفي نور التوحيد بدلاً من تلك الأذواق الدنيوية التي لا حقيقة لها ولا لذة فيها، بل لا خير في عقباها. وله الحمد أن وفقني كذلك لأجد الشيخوخة خفيفة الظل أتنعم بدفئها ونورها بخلاف ما يراه أهلُ الغفلة من ثقل وبرودة.

نعم يا إخوتي! فما دمتم تملكون الإيمان، وما دامت لديكم الصلوات والدعاء اللذان ينوران الإيمان، بل ينميانه ويصقلانه.. فإنكم تستطيعون إذن أن تنظروا إلى شيخوختكم كأنها شباب دائم، بما تكسبون بها شباباً في دار الخلود، حيث إن الشيخوخة الباردة حقاً، والثقيلةَ

جداً، والقبيحة، بل المظلمة والمؤلمة تماماً ليست إلّا شيخوخةَ أهل الضلالة، بل ربما عهد شبابهم كذلك.. فليبكوا.. ولينتحبوا.. وليقولوا: وا أسفاه.. وا حسرتاه!!

أما أنتم أيها الشيوخ المؤمنون الموقرون فعليكم أن تشكروا ربكم بكل فرح وسرور قائلين: «الحمد لله على كل حال!».

الرجاء الثاني عشر

بينما كنت وحيداً بلا معين في «بارلا» تلك الناحية التابعة لمحافظة «اسبارطة» أعاني الأسر المعذّب المسمى بالنفي، ممنوعاً من الاختلاط بالناس، بل حتى من المراسلة مع أيٍّ كان، فوق ما كنت فيه من المرض والشيخوخة والغربة.. فبينما كنت اضطرب من هذه الحالة وأقاسي الحزن المرير إذا بنور مسلٍّ يشعّ من الأسرار اللطيفة للقرآن الكريم ومن نكاته الدقيقة، يتفضل الحق سبحانه به عليَّ برحمته الكاملة الواسعة، فكنتُ أَعمل جاهداً بذلك النور لتناسي ما أنا فيه من الحالة المؤلمة المحزنة، حتى استطعت نسيان بلدتي وأحبتي وأقاربي.. ولكن -يا حسرتاه- لم أتمكن من نسيان واحد منهم أبداً وهو ابن أخي، بل ابني المعنوي، وتلميذي المخلص وصديقي الشجاع «عبد الرحمن» تغمده الله برحمته الذي فارقني قبل حوالي سبع سنوات، ولا أعلم حالَه كي أراسله وأتحدث معه ونتشارك في الآلام، ولا هو يعلم مكاني كي يسعى لخدمتي وتسليتي. نعم لقد كنت في أمس الحاجة -ولاسيّما في الشيخوخة هذه- إلى من هو مثل «عبدالرحمن».. ذلك الفدائي الصادق..

وذات يوم وفجأة سلّمني أحدهم رسالة، ما إن فتحتها حتى تبيّن لي أنها رسالة تُظهر شخصية «عبدالرحمن» تماماً وقد أُدرج قسم من تلك الرسالة ضمن فقرات «المكتوب السابع والعشرين» بما يظهر ثلاث كرامات واضحة.

لقد أبكتني تلك الرسالة كثيراً ولا تزال تبكيني، حيث يبيّن فيها «عبدالرحمن» بكل صدق وجدّ أنه قد عزف عزوفاً تاماً عن الأذواق الدنيوية وعن لذائذها، وأن أقصى ما يتمناه هو الوصول إليّ ليقوم برعايتي في شيخوختي هذه مثلما كنتُ أرعاه في صغره، وأن يساعدني بقلمه السيّال في وظيفتي ومهمّتي الحقيقية في الدنيا، وهي نشر أسرار القرآن الكريم، حتى إنه

كان يقول في رسالته: ابعث إليّ ما يقرب من ثلاثين رسالة كي أكتب وأستكتب من كل منها ثلاثين نسخة.

لقد شدّتني هذه الرسالة إلى الدنيا بأمل قوي شديد، فقلت في نفسي: ها قد وجدتُ تلميذي المخلص الشجاع، ذا الذكاء الخارق، وذا الوفاء الخالص، والارتباط الوثيق الذي يفوق وفاء الابن الحقيقي وارتباطه بوالده. فسوف يقوم -بإذن الله- برعايتي وخدمتي، بل حتى إنني بهذا الأمل نسيت ما كنت فيه من الأسر المؤلم ومن عدم وجود معين لي، بل نسيت حتى الغربة والشيخوخة! وكأن «عبدالرحمن» قد كتب تلك الرسالة بإيمان في منتهى القوة وفي غاية اللمعان وهو ينتظر أجله، إذ استطاع أن يحصل على نسخة مطبوعة من «الكلمة العاشرة» التي كنت قد طبعتها وهي تبحث عن الإيمان بالآخرة. فكانت تلك الرسالة بلسماً شافياً له حيث ضمّدت جميعَ جراحاته المعنوية التي عاناها عبر سبع سنوات خلت.

وبعد مضي حوالي شهرين وأنا أعيش في ذلك الأمل لنعيش معاً حياة دنيوية سعيدة.. إذا بي أُفاجأ بنبأ وفاته، فيا أسفاه.. ويا حسرتاه.. لقد هزّني هذا الخبر هزاً عنيفاً، حتى إنني لا أزال تحت تأثيره منذ خمس سنوات، وأورثني حزناً شديداً وألماً عميقاً للفراق المؤلم، يفوق ما كنت أعانيه من ألم الأسر المعذّب وألم الإنفراد والغربة الموحشة وألم الشيخوخة والمرض.

كنت أقول: إنَّ نصف دنياي الخاصة قد انهدَّ بوفاة أمي، بيد أنى رأيت أن النصف الآخر قد توفي أيضاً بوفاة «عبد الرحمن»، فلم تبقَ لي إذن علاقة مع الدنيا.. نعم لو كان «عبدالرحمن» يظل معي في الدنيا لأصبح محوراً تدور حوله وظيفتي الأخروية في الدنيا ولغدا خير خَلف لي، ولحلّ مكاني من بعدي، ولكان صديقاً وفياً بل مدار سلوان لي وأنس، ولبات أذكى تلميذ لرسائل النور، والأمين المخلص المحافظ عليها.. فضياعٌ مثل هذا الضياع -باعتبار الإنسانية- لهو ضياع محرق مؤلم لأمثالي. ورغم أنني كنت أبذل الوسع لأتصبّر وأتحمل ما كنت أعانيه من الآلام إلّا أنه كانت هناك عاصفةٌ قوية جداً تعصف بأقطار روحي، فلولا ذلك السلوان النابع من نور القرآن الكريم يفيض عليَّ أحياناً لَمَا كان لمثلي أن يتحمل ويثبت.

كنت أذهب وأسرح في وديان «بارلا» وأجول في جبالها وحيداً منفرداً وأجلس في أماكن خالية منعزلة، حاملاً تلك الهموم والآلام المحزنة، فكانت تمر من أمامي لوحاتُ الحياة

السعيدة ومناظرُها اللطيفة التي كنت قد قضيتها مع طلابي -أمثال «عبد الرحمن»- كالفلم السينمائي. فكلما مرّت تلك اللوحاتُ أمام خيالي، سلبتْ من شدة مقاومتي وفتّ في عضدي سرعةُ التأثر النابعة من الشيخوخة والغربة.

ولكن على حين غرّة انكشف سرُّ الآية الكريمة: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (القصص: ٨٨). انكشافاً بيّناً بحيث جعلني أردّد: يا باقي أنت الباقي، يا باقي أنت الباقي.. وبه أخذت السلوان الحقيقي.

أجل، رأيت نفسي بسرّ هذه الآية الكريمة، وعبر تلك الوديان الخالية، ومع تلك الحالة المؤلمة، رأيتها على رأس ثلاث جنائز كبرى كما أشرتُ إليها في رسالة «مرقاة السنّة»:

الأولى: رأيت نفسي كشاهد قبرٍ يضم خمساً وخمسين سعيداً ماتوا ودفنوا في حياتي، وضمن عمري الذي يناهز الخامسة والخمسين سنة.

الثانية: رأيت نفسي كالكائن الحي الصغير جداً -كالنملة- يدب على وجه هذا العصر الذي هو بمثابة شاهد قبر للجنازة العظمى لمن هم بنو جنسي ونوعي، والذين دفنوا في قبر الماضي منذ زمن آدم عليه السلام.

أما الثالثة: فقد تجسّم أمام خيالي -بسرّ هذه الآية الكريمة- موتُ هذه الدنيا الضخمة، مثلما تموت دنيا سيارة من على وجه الدنيا كل سنة كما يموت الإنسان.. وهكذا فقد أغاثني المعنى الإشاري للآية الكريمة: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (التوبة: ١٢٩) وأمدَّني بنور لا يخبو، فبدد ما كنت أعانيه من الحزن النابع من وفاة «عبد الرحمن» واهباً لي التسريَة والتسلية الحقيقية.

نعم لقد علمتني هذه الآيةُ الكريمة أنه مادام الله سبحانه وتعالى موجوداً فهو البديل عن كل شيء، وما دام باقياً فهو كافٍ عبدَه، حيث إن تجلياً واحداً من تجليات عنايته سبحانه يعدل العالم كله، وإن تجلياً من تجليات نوره العميم يمنح تلك الجنائز الثلاث حياةً معنوية أيما حياة، بحيث تظهر أنها ليست جنائز، بل ممن أنهوا مهامهم ووظائفهم على هذه الأرض فارتحلوا إلى عالم آخر.

ولما كنا قد أوضحنا هذا السرّ والحكمة في «اللمعة الثالثة» أراني هنا في غير حاجة إلى مزيدٍ من التوضيح، إلّا أنني أقول:

إنَّ الذي نجّاني من تلك الحالة المحزنة المؤلمة، تكراري لـ«ياباقي أنت الباقي.. ياباقي أنت الباقي» مرتين والذي هو معنى الآية الكريمة: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ وتوضيح ذلك: أنني عندما قلت: «يا باقي أنت الباقي» للمرة الأولى، بدأ التداوي والضماد بما يشبه العمليات الجراحية على تلك الجروح المعنوية غير المحدودة الناشئة من زوال الدنيا وزوال مَنْ فيها من الأحبّة -من أمثال «عبدالرحمن»- والمتولدة من انفراط عقد الروابط التي أرتبط بها معهم. أما في المرة الثانية فقد أصبحت جملة «ياباقي أنت الباقي» مرهماً لجميع تلك الجروح المعنوية، بلسماً شافياً لها، وذلك بالتأمل في المعنى الآتي:

ليرحل مَن يرحل يا إلهي فأنت الباقي وأنت الكافي، وما دمتَ باقياً فَلَتجلٍّ من تجليات رحمتك كافٍ لكل شيء يزول، وما دمتَ موجوداً فكل شيء إذن موجودٌ لمن يدرك معنى انتسابه إليك بالإيمان بوجودك ويتحرك على وفق ذلك الانتساب بسر الإسلام، فليس الفناء والزوال ولا الموت والعدم إلّا ستائر للتجديد، وإلّا وسيلةٌ للتجول في منازل مختلفة والسير فيها.. فانقلبتْ بهذا التفكير تلك الحالة الروحية المحرقة الحزينة، وتلك الحالة المظلمة المرعبة إلى حالة مسرّة بهيجة ولذيذة، وإلى حالة منورة محبوبة مؤنسة. فأصبح لساني وقلبي بل كلُّ ذرّة من ذرات جسمي، يردد بلسان الحال قائلاً: الحمد لله.

ولقد تجلى جزء من ألف جزء من ذلك التجلّي للرحمة بهذه الصورة:

عندما رجعت من موطن حزني.. من تلك الوديان، إلى «بارلا» حاملاً معي تلك الأحزان، رأيت شاباً يدعى «مصطفى قوله أونلى» قد أتاني مستفسراً عن بعض ما يشغله من مسائل الفقه والوضوء والصلاة.. فرغم أنني لم أكن أَستقبل الضيوف في تلك الفترة إلّا أن روحي كأنها قد قرأت ما في روح ذلك الشاب من الإخلاص، وكأنها شعرت -بحسٍّ قبل الوقوع- ما سوف يؤديه هذا الشاب من خدمات لرسائل النور في المستقبل،[1] لذا لم أردّه

---

(١) وهكذا فإن الأخ الصغير لهذا الشاب «مصطفى» يدعى «علي الصغير» قد أثبت أنه «عبدالرحمن» حقاً، بكتابته أكثر من سبعمائة نسخة من رسائل النور بقلمه الطاهر بل قد ربى عديداً من عباد الرحمن. (المؤلف).

وقبلته ضيفاً [١] ثم تبيّن لي أن الله سبحانه وتعالى قد عوّضني بهذا الشاب عن «عبدالرحمن» الذي هو خير خَلف لي ويفي بمهمة الوارث الحقيقي في خدمة رسالة النور. وبعث سبحانه وتعالى إليّ «مصطفى» وكأنه يقول: أخذت منك عبداً للرحمن واحداً وسأعوضك عنه بثلاثين «عبدالرحمن» كهذا الشاب «مصطفى» ممن يسعون في تلك الوظيفة الدينية، وسيكونون لك طلاباً أوفياء، وأبناءَ أخ كرماء، وأولاداً معنويين، وإخوة طيبين، وأصدقاء فدائيين مضحيّن..

نعم.. ولله الحمد فقد وهبني البارئ عز وجل ثلاثين عبداً للرحمن، وعندها خاطبت قلبي: مادمتَ يا قلبي الباكي المكلوم قد رأيت هذا النموذج وهذا المثال وضمدتَ به أهم جرح من تلك الجروح المعنوية، فعليك أن تسكن وتطمئن بأن الله سبحانه سيضمد الجروح الباقية التي تقلقك وتتألم منها..

فيا أيها الإخوة الشيوخ ويا أيتها الأخوات العجائز.. ويا مَن فقدتم مثلي أحبَّ ولده إليه زمن الشيخوخة أو فارقه أحدُ أقاربه.. ويا من يثقل كاهلَه وطأة الشيخوخة ويحمل معها على رأسه الهمومَ الثقيلة الناشئة من الفراق! لقد علمتم وضعي وعرفتم حالي فإنه رغم شدّته بأضعاف ما عندكم من أوضاع وحالات، إلّا أن هذه الآية الكريمة قد ضمدته وأسعفته فشفته بإذن الله، فلا شك في أن صيدلية القرآن المقدسة زاخرةٌ بعلاج كل مرض من أمراضكم ودواء كل سقم من أسقامكم. فإذا استطعتم مراجعتها بالإيمان، وقمتم بالتداوي والعلاج بالعبادة، فلابُدَّ أن تخف وطأة ما تحملون على كاهلكم من أثقال الشيخوخة وما يثقل رؤوسكم من هموم.

---

(١) نعم فقد أظهر هذا الشاب أنه ليس أهلاً للقبول فحسب، بل هو أهل للاستقبال كذلك. (المؤلف).

هذه حادثة أرويها تصديقاً لحكم أستاذي من أن مصطفى، وهو أول تلميذ لرسائل النور أهل للاستقبال: «كان الأستاذ يرغب في التجول في اليوم السابق ليوم عَرَفة، فأرسلني لأن أهيئ له الفرس، قلت: لا تنـزل يا أستاذي لغلق الباب فأنا سأقفله وسأخرج من الباب الخلفي، قال لي: بل اخرج من الباب.. فنـزل وأغلق الباب بالمزلاج من ورائي، وصعد إلى غرفته يضطجع... وبعد ذلك قدم «مصطفى اونلي» بصحبة الحاج عثمان. وكان الأستاذ لا يقبل يومها أحداً عنده بله أن يقبل في تلك الفترة شخصين معاً! فلا محالة أنه يردهما.. ولكن مصطفى هذا المذكور في هذا البحث ما إن أتى إلى باب الأستاذ مع الحاج عثمان حتى كأن الباب قد رحّب به بلسان الحال قائلاً: إن أستاذي لن يستقبلك، ولكني سأنفتح لك فانفتح له الباب المغلق. «نعم إن ما قاله الأستاذ حق حول مصطفى من أنه يستحق الاستقبال والقبول، مثلما أظهر المستقبل ذلك بوضوح فإن باب بيته قد شهد على ذلك أيضاً..» خسرو.

«نعم إن ما كتبه «خسرو» صدق، فأنا أُصدِّقه. فباب البيت الذي أسكنه قد قبل مصطفى واستقبله بدلاً عني».

سعيد النورسي

هذا وإن سبب كتابة هذا البحث كتابة مطوّلة هو رجاء الإكثار من طلب الدعاء للمرحوم «عبدالرحمن». فلا تملّوا ولا تسأموا من طوله. وإن قصدي من إظهار جرحي المخيف بهذه الصورة المفجعة المؤلمة، فتتألمون أكثر وتحزنون حتى إنه قد يؤدي إلى زيادة آلامكم وأحزانكم فتنفرون منه، ليس إلّا لبيان ما في البلسم القرآني المقدس من شفاء خارق ومن نور باهر ساطع .

الرجاء الثالث عشر[1]

سأبحث في هذا الرجاء عن لوحة مهمة من لوحات وقائع حياتي، فالرجاء ألّا تسأموا وتضجروا من طولها.

بعدما نجوت من أسر الروس في الحرب العالمية الأولى، لبثت في استانبول لخدمة الدّين في «دار الحكمة الإسلامية» حوالي ثلاث سنوات. ولكن بإرشاد القرآن الكريم وبهمّة الشيخ الكيلاني، وبانتباهي بالشيخوخة، تولّد عندي سأمٌ وملل من الحياة الحضارية في استانبول، وبت أنفر من حياتها الاجتماعية البهيجة، فساقني الشوق والحنين المسمى بـ«داء الغُربة» إلى بلدتي، إذ كنت أقول: ما دمت سأموت فلأمت إذن في بلدتي.. فتوجهت إلى مدينة «وان».

وهناك قبل كل شيء ذهبت إلى زيارة مدرستي المسماة بـ«خورخور» فرأيت أن الأرمن قد أحرقوها مثلما أحرقوا بقية البيوت الموجودة في «وان» في أثناء الاحتلال الروسي.. صعدت إلى القلعة المشهورة في «وان» وهي كتلة من صخرة صلدة تضم تحتها مدرستي الملاصقة بها تماماً، وكانت تمرّ من أمامي أشباحُ أولئك الأصدقاء الحقيقيين والإخوة المؤنسين من طلابي في مدرستي الذين فارقتُهم قبل حوالي سبع سنوات خلت، فعلى إثر هذه الكارثة أصبح قسمٌ من أولئك الأصدقاء الفدائيين شهداءَ حقيقيين وآخرون شهداءَ معنويين، فلم أتمالك نفسي من البكاء والنحيب.. صعدت إلى قمة القلعة وارتقيتُها وهي بعلو المنارتين ومدرستي تحتها، وجلست عليها أتأمل، فذهب بي الخيالُ إلى ما يقرب من ثماني سنوات خلَتْ وجال بي الخيال في ذلك الزمان، لما لخيالي من قوة ولعدم وجود مانع يحول بيني وبين ذلك الخيال ويصرفني عن ذلك الزمان، إذ كنت وحيداً منفرداً.

(١) إن حادثة المدرسة التي يذكرها الرجاء الثالث عشر قد حدثت قبل ثلاث عشر سنة... إنه توافق لطيف!!. (المؤلف).

شاهدت تحولاً هائلاً جداً قد جرى خلال ثماني سنوات حتى إنني كلّما كنتُ أفتح عيني أرى كأن عصراً قد ولّى ومضى بأحداثه. رأيت أنّ مركز المدينة المحيطة بمدرستي -الذي هو بجانب القلعة- قد أُحرق من أقصاه إلى أقصاه ودُمّر تدميراً كاملاً. فنظرت إلى هذا المنظر نظرة حزن وأسى.. إذ كنت أشعر الفرق الهائل بين ما كنت فيه وبين ما أراه الآن، وكأن مائتي سنة قد مرّت على هذه المدينة.. كان أغلب الذين يعمّرون هذه البيوت المهدَّمة أصدقائي، وأحبّةً أعزّاء عليّ.. فلقد توفّي قسمٌ منهم بالهجرة من المدينة وذاقوا مضاضتها، تغمدهم الله جميعاً برحمته. حيث دُمّرت بيوتُ المسلمين في المدينة كليّاً ولم تبق إلّا «محلة الأرمن»، فتألمت من الأعماق، وحزنت حزناً شديداً ما لو كان لي ألف عين لكانت تسكب الدموع مدراراً.

كنت أظن أنني قد نجوت من الاغتراب حيث رجعت إلى مدينتي، ولكن -ويا للأسف- لقد رأيت أفجعَ غربة في مدينتي نفسها؛ إذ رأيت مئاتٍ من طلابي وأحبتي الذين ارتبط بهم روحياً -كعبد الرحمن المار ذكره في الرجاء الثاني عشر- رأيتُهم قد أُهيل عليهم التراب والأنقاض، ورأيت أن منازلَهم أصبحت أثراً بعد عين، وأمام هذه اللوحة الحزينة تجسّد معنى هذه الفقرة لأحدهم والتي كانت في ذاكرتي منذ زمن بعيد إلّا أنني لم أكن أفهم معناها تماماً:

لَوْ لَا مُفَارَقَةُ الأَحْبَابِ مَا وَجَدَتْ   لَهَا الْمَنَايَا إِلى أَرْوَاحِنَا سُبُلاً(١)

أي أن أكثر ما يقضي على الإنسان ويهلكه إنما هو مفارقة الأحباب.

نعم، إنه لم يؤلمني شيءٌ ولم يبكني مثل هذه الحادثة، فلو لم يأتني مددٌ من القرآن الكريم ومن الإيمان لكان ذلك الغمُّ والحزن والهمّ يؤثر فيّ إلى درجة كافية لسلب الروح منّي. لقد كان الشعراء منذ القديم يبكون على منازل أحبتهم عند مرورهم على أطلالها فرأيت يعينيَّ لوحةَ الفراق الحزينة هذه.. فبكَت روحي وقلبي مع عيني بحزن شديد كمن يمرُّ بعد مائتي سنة على ديار أحبّته وأطلالها..

عند ذلك مرّت الصفحات اللطيفة اللذيذة لحياتي أمام عيني وخيالي واحدة تلو الأخرى

---

(١) قول المتنبي: لولا مفارقة الأحباب.. إلخ.. في «لها» وجه غريب، وهو أن تقدره جمعاً للهاة، كحصاة وحصا، ويكون «لها» فاعلاً بـ«وجدت» و«المنايا» مضافاً إليه. ويكون إثبات اللهوات للمنايا استعارة شُبهت بشيء يبتلع الناس. ويكون قد أقام «اللها» مقام الأفواه، لمجاورة اللهوات للفم. (عن مغنى اللبيب ١/ ٢٣٤).

بكل حيوية، كمرور مشاهد الفلم السينمائي.. تلك الحياة السارة التي قضيتُها في تدريس طلابي النجباء بما يقرب من عشرين سنة، وفي هذه الأماكن نفسها، التي كانت عامرة بهيجة وذات نشوة وسرور، فأصبحت الآن خرائبَ وأطلالاً. قضيت فترة طويلة أمام هذه اللوحات من حياتي، وعندها بدأتُ أستغرب من حال أهل الدنيا، كيف أنهم يخدعون أنفسهم، فالوضع هذا يبيّن بداهة أن الدنيا لا محالة فانية، وأن الإنسان فيها ليس إلّا عابر سبيل، وضيفاً راحلاً. وشاهدت بعينيّ مدى صدق ما يقوله أهل الحقيقة: «لا تنخدعوا بالدنيا فإنها غدّارة.. مكّارة.. فانية..». ورأيت كذلك أن الإنسان ذو علاقة مع مدينته وبلدته بل مع دنياه مثلما له علاقة مع جسمه وبيته، فبينما كنت أريد أن أبكي بعينيّ لشيخوختي -باعتبار وجودي- كنت أريد أن أجهش بالبكاء بعشرة عيون لا لمجرد شيخوخة مدرستي، بل لوفاتها، بل كنت أشعر أنني بحاجة إلى البكاء بمائة عين على مدينتي الحلوة الشبيهة بالميتة.

لقد ورد في الحديث الشريف من أن مَلَكاً ينادي كل صباح: **(لِدوا للموت وابنوا للخراب)**[1] كنت اسمع هذه الحقيقة، اسمعها بعينيّ لا بأذني، ومثلما أبكاني وضعي في ذلك الوقت، فإن خيالي منذ عشرين سنة يذرف الدموع أيضاً كلّما مرّ على ذلك الحال. نعم إن دمار تلك البيوت في قمة القلعة التي عمّرت آلاف السنين، واكتهال المدينة التي تحتها خلال ثماني سنوات، حتى كأنه قد مرّت عليها ثمانمائة سنة، ووفاة مدرستي -أسفل القلعة- التي كانت تنبض بالحياة والتي كانت مجمع الأحباب.. تشير إلى وفاة جميع المدارس الدينية في الدولة العثمانية. وتبين العظمة المعنوية لجنازتها الكبرى، حتى كأن القلعة التي هي صخرة صلدة واحدة، قد أصبحت شاهدة قبرها. ورأيت أن طلابي -رحمهم الله جميعاً- الذين كانوا معي في تلك المدرسة -قبل ثماني سنوات- وهم راقدون في قبورهم، رأيتُهم كأنهم يبكون معي، بل تشاركني البكاء والحزن حتى بيوتُ المدينة المدَمَّرة، بل حتى جدرانُها المنهدّة وأحجارُها المبعثرة.

نعم إنني رأيت كُل شيء وكأنه يبكي، وعندئذٍ علمت أنني لا أستطيع أن أتحمّل هذه الغربة في مدينتي، ففكرت إما أن أذهب إليهم في قبورهم أو عليّ أن انسحب إلى مغارة في الجبل منتظراً أَجلي، وقلت ما دام في الدنيا مثل هذه الفراقات والافتراقات التي لا يمكن أن يُصبَر عليها، ولا يمكن أن تقاوم، وهي مؤلمة ومحرقة إلى هذه الدرجة، فلا شك أن الموت أفضلُ من

(١) البيهقي، شعب الإيمان ٧/ ٣٩٦؛ الديلمي، المسند ٤/ ٥١.

هذه الحياة، ويرجّح على مثل هذه الأوضاع التي لا تُطاق.. لذا ولّيت وجهي سارحاً بنظري إلى الجهات الست.. فما رأيت فيها إلّا الظلام الدامس. فالغفلةُ الناشئة من ذلك التألم الشديد والتأثر العميق أرتني الدنيا مخيفةً مرعبة، وأنها خالية جرداء وكأنها ستنقضّ على رأسي. كانت روحي تبحث عن نقطة استناد وركنٍ شديد أمام البلايا والمصائب غير المحدودة التي اتخذت صورةَ أعداء ألدّاء. وكانت تبحث أيضاً عن نقطة استمداد أمام رغباتها الكامنة غير المحدودة والتي تمتد إلى الأبد. فبينما كانت روحي تبحث عن نقطة استناد، وتفتش عن نقطة استمداد وتنتظر السلوانَ والتسرية من الهموم والأحزان المتولدة من الفراقات والافتراقات غير المحدودة والتخريبات والوفيات الهائلة، إذا بحقيقة آية واحدة من القرآن الكريم المعجِز وهي: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۞ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الحديد: ١-٢) تتجلى أمامي بوضوح وتنقذني من ذلك الخيال الأليم المرعب، وتنجيني من ألم الفراق والافتراق، فاتحةً عيني وبصيرتي. فالتفتُّ إلى الأثمار المعلقة على الأشجار المثمرة وهي تنظر إليّ مبتسمة ابتسامة حلوة وتقول لي: «لا تحصرنَّ نظرَك في الخرائب وحدها.. فهلّا نظرت إلينا، وأنعمت النظر فينا..».

نعم إنَّ حقيقة هذه الآية الكريمة تنبّه بقوة مذكِّرةً وتقول: لِمَ يُحزنك إلى هذا الحدّ سقوطُ رسالة عامرة شيّدت بيد الإنسان الضيف على صحيفة مفازة «وان»، حتى اتخذت صورةَ مدينة مأهولة؟ فلِمَ تحزن من سقوطها في السيل الجارف المخيف المسمّى بالاحتلال الروسي الذي محا آثارها وأذهب كتابتها؟ ارفعْ بصرَك إلى البارئ المصوّر وهو ربّ كل شيء ومالكُه الحقيقي، فناصيته بيده، وإن كتاباته سبحانه على صحيفة «وان» تُكتب مجدداً باستمرار بكمال التوهج والبهجة وإن ما شاهدته من أوضاع في الغابر والبكاء والنحيب على خلو تلك الأماكن وعلى دمارها وبقائها مقفرة إنما هو من الغفلة عن مالكها الحقيقي، ومن توهم الإنسان -خطأً- أنه هو المالك لها، ومن عدم تصوره أنه عابر سبيل وضيف ليس إلّا ..

فانفتح من ذلك الوضع المحرِق، ومن ذلك الخطأ في التصور بابٌ لحقيقة عظيمة، وتهيأت النفسُ لتقبلَها -كالحديد الذي يدخل في النار ليلين ويعطى له شكلاً معيناً نافعاً- إذ أصبحت تلك الحالة المحزنة وذلك الوضع المؤلم، ناراً متأججة ألانَت النفسَ. فأظهر القرآنُ

الكريم لها فيضَ الحقائق الإيمانية بجلاء ووضوح تام من خلال حقيقة تلك الآية المذكورة حتى جعلها تقبل وترضخ.

نعم، فكما أثبتنا في «المكتوب العشرين» وأمثالِه من الرسائل، فإن حقيقة هذه الآية الكريمة -ولله الحمد- قد وهبت بفيض الإيمان نقطةَ استناد وارتكاز هائلة، وهبَتها للروح ومنحتها إلى القلب كل حسب ما ينكشف له من فيض ما يملكه من قوة الإيمان، بحيث تستطيع أن تتصدّى لتلك المصائب والحالات المرعبة حتى لو تضاعفت مائة مرة، ذلك لأنها ذكّرت بأن كل شيء مسخَّر لأمر خالقك الذي هو المالك الحقيقي لهذه المملكة، فمقاليدُ كل شيء بيده، وحسبك أن تنتسب إليه سبحانه.

فبعدما عرفتُ خالقي، وتوكلتُ عليه، ترك كلُّ شيء ما يضمره من العداء نحوي حتى بدأت الحالات التي كانت تحزنني وتؤلمني، بدأت الآن تسعدني وتسرّني.

وكما أثبتنا في كثير من الرسائل ببراهين قاطعة، فإن النور القادم من «الإيمان بالآخرة» كذلك أعطى «نقطة استمداد» هائلة جداً تجاه الآمال والرغبات غير المحدودة، بحيث إنها تكفي تلك القوة لا لتلك الميول والرغبات الصغيرة المؤقتة والقصيرة، ولا لتلك الروابط مع أحبتي في الدنيا وحدها. بل تكفي أيضاً لرغباتي غير المتناهية في دار الخلود وعالم البقاء وفي السعادة الأبدية، ذلك لأنه بتجلٍّ واحد من تجليات رحمة «الرحمن الرحيم» يُنشَر على مائدة الربيع ما لا يعد ولا يُحصى من نعمَه اللذيذة البديعة على سطح الأرض التي هي منـزل من منازل دار ضيافة الدنيا المؤقتة، فيمنح بها -سبحانه- في كل ربيع إلى أولئك الضيوف، ويُنعم بها عليهم، كي يدخل في قلوبهم السرور لبضع ساعات، وكأنه يطعمهم فطور الصباح، ثم يأخذهم إلى مساكنهم الأبدية في ثماني جنات خالدات ملآى بنعمٍ غير محدودة لزمن غير محدود التي أعدّها لعباده، فلا ريب أن الذي يؤمن برحمة هذا «الرحمن الرحيم» ويطمئن إليها مدركاً انتسابه إليه سبحانه، لابدّ أنه يجد نقطة استمداد عظيمة بحيث إن أدنى درجاتها تمدّ آمالاً غير محدودة وتديمها.

هذا وإن النور الصادر من ضياء الإيمان -بحقيقة تلك الآية- قد تجلّى كذلك تجلياً باهراً ساطعاً حتى إنه نوّر تلك الجهات الست المظلمة تنويراً كالنهار، ونوّر حالتي المؤسفة

المبكية على مدرستي هذه وعلى طلابي وأحبتي الراحلين تنويراً كافياً حيث نبّهني إلى أن العالم الذي يرحل إليه الأحباب ليس هو بعالم مظلم، بل بدّلوا المكان ليس إلّا ، فستتلاقون معاً وستجتمعون ببعضكم.. وبذلك قطع دابر البكاء قطعاً كاملاً، وأفهمني كذلك أنني سأجد أمثالهم ومن يحلّ محلهم.

فلله الحمد والمنّة الذي أحيا مدرسة «إسبارطة» عوضاً عن مدرسة «وان» المتوفاة والمتحولة إلى أطلال، وأحيا أولئك الأحبة معنىً بأكثر وأفضل منهم من الطلاب النجباء والأحبة الكرام. وعلّمني كذلك أن الدنيا ليست خاوية مقفرة، وأنها ليست مدينة خربة مدمّرة، كما كنت أتصورها خطأ، بل إن المالك الحقيقي -كما تقتضي حكمتُه- يبدل اللوحات المؤقتة والمصنوعة من قبل الإنسان بلوحات أخرى ويجدد رسائله، فكما تحل ثمار جديدة كلما قطعت الثمار فكذلك الزوال والفراق في البشرية إنما هو تجددٌ وتجديد، فلا يبعث حزناً أليماً لانعدام الأحباب نهائياً، بل يبعث من زاوية الإيمان حزناً لذيذاً نابعاً من فراق لأجل لقاء في دار أخرى بهيجة.

وكذا نوّر تلك الحالة المدهشة التي كنت فيها، ونوّر ما يتراءى لي من الوجه المظلم لموجودات الكون كلها. فأردت إبداء الحمد والشكر على تلك الحالة المنوّرة في وقته فأتتني الفقرةُ التالية باللغة العربية مصورةً لتلك الحقيقة كاملة:

[الحمد لله على نور الإيمان المصوّر ما يُتوهم أجانبَ أعداء أمواتاً موحشين أيتاماً باكين، أودّاءَ إخواناً أحياءً مؤنسين مرخّصين مسرورين ذاكرين مسبحين].

وهي تعني: أنني أُقدم إلى الخالق ذي الجلال حمداً لانهاية له، على ما وهبني من نور الإيمان الذي هو منبعُ جميع هذه النعم الإلهية غير المحدودة، بما حوّل تلك اللوحةَ المرعبة التي أُظهرتْ لنفسي الغافلة فأوهمَتها الغفلةُ -المتولدة من شدة التأثر على تلك الحالة المؤلمة- أن قسماً من موجودات الكون أعداءٌ أو أجانب[1] وقسماً آخر جنائزُ مدهشةٌ مفزعة، وقسماً آخر أيتامٌ باكون حيث لا معين لهم ولا مولى، حوّل ذلك النور كلَّ شيء حتى شاهدت بعين اليقين أن الذين كانوا يبدون أجانبَ وأعداء إنما هم إخوة وأصدقاء.. وأن ما كان يَظهر كالجنائز المرعبة؛

---

(١) مثل الزلازل والعواصف والطوفان والطاعون والحريق. (المؤلف).

قسمٌ منهم أحياءٌ مؤنسون، أو هم ممن أنهَوا وظائفهم ومهماتهم.. وأن ما يُتوهم أنها نواحُ الأيتام الباكين، ترانيمُ ذِكر وتراتيل تسبيح. أي أنني أُقدم الحمد لله مع جميع الموجودات التي تملأ دنياي الخاصة التي تسع الدنيا كلَّها، فأُشركها معي في ذلك الحمد والتسبيح لله سبحانه، نيةً وتصوراً. حيث لي الحقُّ في ذلك، فنقول معاً بلسان حال كل فرد من أفراد الموجودات وبلسان حال الجميع أيضاً: «الحمد لله على نور الإيمان».

ثم إن لذائذ الحياة وأذواقَها التي تلاشت على إثر تلك الحالة المدهشة الباعثة على الغفلة، والآمال التي انسحبت نهائياً وانكمشت ونضب معينُها، والنعم واللذائذ الخاصة بي التي ظلّت محصورةً في أضيق دائرة وربما فنيَت، كل ذلك قد تحول وتبدل بنور الإيمان -كما أثبتنا ذلك في رسائل أخرى- فوسّع ذلك النور تلك الدائرة الضيقة المطوّقة حول القلب إلى دائرة واسعة جداً حتى انطوى فيها الكونُ كلّه، وجعل دار الدنيا ودار الآخرة سُفرتين مملوءتين بالنعم، وحوّلهما إلى مائدتين ممدتين للرحمة، بدلاً من تلك النعم التي يبست وفقدت لذتَها في حديقة «خورخور». ولم يقتصر على ذلك فقط بل جعل كلاً من العين والأذن والقلب وأمثالِها من الحواس بل مائة من أجهزة الإنسان، يداً ممتدةً حسب درجات المؤمن إلى السفرتين المملوءتين بالنعم بحيث تتمكن من أن تأخذ النعم وتلتقطها من جميع أقطارها؛ لذا قلت أمام هذه الحقيقة الكبرى شكراً لله على تلك النعم غير المحدودة ما يأتي:

[الحمد لله على نور الإيمان المصوّر للدارين مملوءتين من النعمة والرحمة، لكل مؤمن حقٌّ أن يستفيد منهما بحواسه الكثيرة المنكشفة بإذن خالقه].

وهذا يعني: الحمد لله الذي وهب لي ذلك الإيمان الذي يُري بنعمةِ نوره أن الدنيا والآخرة مملوءتان بالنعم والرحمة ويضمن الاستفادة من تينك السفرتين العظيمتين بأيدي جميع الحواس المنكشفة بنور الإيمان والمنبسطة بنور الإسلام للمؤمنين الحقيقيين، فلو استطعتُ تقديم الحمد والشكر لله خالقي تجاه ذلك الإيمان بجميع ذرات كياني وبملء الدنيا والآخرة لَفعلت.

فما دام الإيمان يفعل فعلَه في هذا العالم بمثل هذه الآثار العظيمة، فلابدّ أن له في دار البقاء والخلود ثمراتٍ أعظم وفيوضات أوسع، بحيث لا يمكن أن تستوعبها عقولُنا الدنيوية وتعرّفها.

فيا إخوتي الشيوخ، ويا أخواتي العجائز، ويا مَن تتجرعون مثلي الآلام المرّة بفراق كثير من الأحبة بسبب الشيخوخة! إنيّ أخال نفسي أكثر منكم شيباً معنىً، وإن كان يبدو أن فيكم من هو أكبر مني سنّاً، ذلك لأنني أتألم -فضلاً عن آلامي- بآلام آلاف من إخواني، لما أحمله في فطرتي من الرقة والشفقة الزائدتين إلى بني جنسي. فأتألم كأنني شيخ يناهز المئات من السنين، أما أنتم فمهما تجرعتم من آلام الفراق لم تتعرضوا لمثل ما تعرضتُ له من البلايا والمصائب! إنه ليس لي ابن أفكر فيه، إلّا أنني أشعر برقة وألم -بسر الشفقة الكامنة في فطرتي- متوجهةً إلى آلام ومصائب آلاف من أبناء الإسلام، بل أشعرها حتى لآلام الحيوانات البريئة. زد على ذلك أنني أرى نفسي متعلقةً -من جهة الغيرة على الإسلام- بهذه البلاد، بل بالعالم الإسلامي، وارتبط بها كأنها داري، برغم أنّي لا أملك بيتاً خاصاً بي كي أحصر ذهني فيه؛ لذا فإنني أتألم بالآم المؤمنين الذين هم في هاتين الدارين وأحزن كثيراً لفراقهم.

ولما كان نور الإيمان قد كفاني كفايةً تامة وأتى على جميع تأثراتي الناشئة من شيخوختي كلِّها ومن بلايا الفراقات، ووهب لي رجاءً لا يخيب، وأملاً لا ينفصم، وضياءً لا ينطفئ، وسلواناً لا ينفد، فلابد أن الإيمان أيضاً سيكون كافياً لكم ووافياً أيضاً إزاء الظلمات الناشئة من الشيخوخة، وإزاء الغفلة الواردة منها، وإزاء التأثرات والتألمات الصادرة منها. وحقاً إنَّ أعتمَ شيخوخة إنما هي شيخوخةُ أهل الضلالة والسفاهة وأن أقسى الفراقات وأشدها إيلاماً إنما هي آلامهم وفراقاتهم!!

نعم، إن تذوق الإيمان الذي يبعث الرجاء ويشيع النور وينشر السلوى، وإن الشعور بسلوانه والتلذذ به هو في التمثل الشعوري للعبودية اللائقة بالشيخوخة والموافقة للإسلام، وليس هو بتناسي الشيخوخة واللهاث وراء التشبّه بالشباب واقتحام غفلتهم المُسكرة.. تفكّروا دائماً وتأملوا في الحديث النبوي الشريف (خيرُ شبابكم من تشبّه بكهولكم وشرُّ كهولكم من تشبّه بشبابكم)[1] أو كما قال ﷺ، أي خير شبابكم من تشبه بالكهول في التأني والرزانة وتجنبهم السفاهة وشرّ كهولكم من تشبه بالشباب في السفاهة والانغماس في الغفلة.

فيا إخوتي الشيوخ ويا أخواتي العجائز! لقد ورد في الحديث الشريف ما معناه

(١) أبو يعلى، المسند ١/ ٤٦٧؛ الطبراني، المعجم الكبير ٢٢/ ٨٣، المعجم الاوسط ١/ ٩٤؛ البيهقي، شعب الإيمان ٦/ ١٦٨.

«أن الرحمة الإلهية لتستحي من أن تردّ يداً ضارعة من شيخ مؤمن أو عجوز مؤمنة».[1] فما دامت الرحمة الإلهية تحترمكم هكذا، فعظموا إذن احترامها بعبوديتكم لله.

الرجاء الرابع عشر

جاء في مستهل «الشعاع الرابع» الذي هو تفسير للآية الكريمة:

﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ (آل عمران:١٧٣) ما خلاصته:

حينما جرّدني أرباب الدنيا من كل شيء، وقعت في خمسة ألوان من الغربة. ولم ألتفت إلى ما في «رسائل النور» من أنوار مسلّية ممدّة، جراء غفلة أورثها الضجرُ والضيق وإنما نظرت مباشرة إلى قلبي وتحسست روحي، فرأيت أنه يسيطر عليّ عشقٌ في منتهى القوة للبقاء، وتهيمن عليّ محبة شديدة للوجود، ويتحكم فيّ شوق عظيم للحياة.. مع ما يكمن فيَّ من عجز لا حد له، وفقر لا نهاية له. غير أن فناءً مهولاً مدهشاً، يطفئ ذلك البقاء ويزيله، فقلت مثلما قال الشاعر المحترق الفؤاد:

حكمة الإله تقضي فناء الجسد   والقلب توّاق إلى الأبد

لهف نفسي من بلاء وكمد   حار لقمان في إيجاد الضمد

فطأطأت رأسي يائساً... وإذا بالآية الكريمة: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ تغيثني قائلة: اقرأني جيداً بتدبر وإمعان، فقرأتها بدوري خمسمائة مرة في كل يوم، فكلّما كنت أتلوها كانت تكشف عن بعضٍ من أنوارها وفيوضاتها الغزيرة، فرأيت منها بعين اليقين -وليس بعلم اليقين- تسعَ مراتب حسبية:

المرتبة النورية الحسبية الأولى:

إنَّ ما فيّ من عشق البقاء، ليس متوجهاً إلى بقائي أنا، بل إلى وجود ذلك الكامل المطلق وإلى كماله وبقائه. وذلك لوجود ظلٍ لتجلٍ من تجليات اسمٍ من أسماء الجليل والجميل المطلق ذي الكمال المطلق، وهو المحبوب لذاته -أي دون داعٍ إلى سبب- في ماهيتي إلّا أن هذه المحبةَ الفطرية ضلّت سبيلها وتاهت بسبب الغفلة، فتشبثت بالظل وعشقت بقاءَ المرآة.

(١) انظر: الطبراني، المعجم الاوسط ٥/ ٢٧٠، مسند الشاميين ٢/ ٢٦٨، الشيباني، السنة ١/ ١٦؛ العجلوني، كشف الخفاء ١/ ٢٨٤.

ولكن ما إن جاءت ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ حتى رفعت الستار. فأحسستُ وشاهدت، وتذوقتُ بحق اليقين أنَّ لذة البقاء وسعادته، موجودةٌ بنفسها، بل أفضلَ وأكمل منها، في إيماني وإذعاني وإيقاني ببقاء الباقي ذي الكمال، وبأنه ربي وإلهي. وقد وُضّحت دلائل هذا بعمق ودقة متناهية في الرسالة «الحسبية» في اثنتي عشرة «كذا.. كذا.. كذا...» وبينت الاستشعار الإيماني بما يجعل كل ذي حسّ وشعور في تقدير وإعجاب!.

المرتبة النورية الحسبية الثانية

إنه مع عجزي غير المتناهي الكامن في فطرتي، ومع الشيخوخة المستقرة في كياني، ومع تلك الغربة التي لفّتني، ومع عدم وجود المعين لي، وقد جُرّدت من كل شيء ويهاجمني أهلُ الدنيا بدسائسهم وبجواسيسهم.. في هذا الوقت بالذات خاطبت قلبي قائلاً:

«إن جيوشاً كثيفة عارمة تهاجم شخصاً واحداً ضعيفاً مريضاً مكبّل اليدين.. أوَ ليس له -أي لي- من نقطة استناد؟».

فراجعت آية ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ فأعلمتني:

إنك تنتسب بهوية الانتساب الإيماني إلى سلطان عظيم ذي قدرة مطلقة، بحيث يجهّز بانتظام تام في الربيع جميع ما تحتاجه جيوشُ النباتات والحيوانات المنتشرة على سطح الأرض من معدّات، فيزوّد جميعَ تلك الجيوش المتشكلة في أربعمائة ألف نوع من الأمم المختلفة، ويوزع جميعَ أرزاق الجيش الهائل للأحياء -وفي مقدمتها الإنسان- لا بشكل ما اكتشفه الإنسان في الآونة الأخيرة من مستخلصات اللحم والسكر وغيرهما، بل بصورة مستخلصات أكمل وأفضل بكثير بل تفوقها مائة مرة، فهي مستخلصات متضمنة جميعَ أنواع الأطعمة. بل هي مستخلصات رحمانية.. تلك التي تسمى البذور والنوى.. زد على ذلك فإنه يغلف أيضاً تلك المستخلصات بأغلفة قَدَرية تتناسب مع نضجها وانبساطها ونموّها، ويحفظها في عُلَيبات وصنيدقات صغيرة وصغيرة جداً، وهذه الصُنيدقات أيضاً تُصنع بسرعة متناهية جداً، وبسهولة مطلقة للغاية، وبوفرة هائلة، وذلك في معمل «الكاف والنون» الموجود في أمر «كُنْ»، حتى إن القرآن الكريم يقول: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (البقرة:١١٧).

فما دمتَ قد ظفرت بنقطة استناد مثل هذه بهوية الانتساب الإيماني، فيمكنك الاستناد والاطمئنان إذن إلى قوة عظيمة وقدرة مطلقة. وحقاً لقد كنت أحسّ بقوة معنوية عظيمة كلما كنت أتلقى ذلك الدرس من تلك الآية الكريمة، فكنت أشعر أنني أملك قوة يمكنني أن أتحدّى بها جميع أعدائي في العالم وليس الماثلين أمامي وحدَهم، لذا رددتُ من أعماق روحي: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ .

المرتبة النورية الحسبية الثالثة

حينما اشتد خناق الأمراض وألوان الغربة وأنواع الظلم عليّ، وجدت أن علاقاتي تنفصم مع الدنيا، وأن الإيمان يرشدني بأنك مرشح لدنيا أخرى أبدية، وأنك مؤهل لمملكة باقية وسعادة دائمة. ففي هذه الأثناء تركتُ كلَّ شيء تقطر منه الحسرة ويجعلني أتأوّه وأتأفف، وأبدلتُه بكل ما يبشّر بالخير والفرح ويجعلني في حمدٍ دائم. ولكن أنّى لهذه الغاية أن تتحقق وهي غايةُ المنى ومبتغى الخيال وهدف الروح ونتيجة الفطرة، إلّا بقدرة القدير المطلق الذي يعرف جميعَ حركات مخلوقاته وسكناتهم قولاً وفعلاً، بل يعرف جميع أحوالهم وأعمالهم ويسجلها كذلك. وأنّى لها أن تحصل إلّا بعنايته الفائقة غير المحدودة لهذا الإنسان الصغير الهزيل المتقلب في العجز المطلق حتى كرّمه، واتخذه خليلاً مخاطباً، واهباً له المقام السامي بين مخلوقاته.

نعم، حينما كنت أفكر في هاتين النقطتين، أي في فعالية هذه القدرة غير المحدودة، وفي الأهمية الحقيقية التي أولاها البارئ سبحانه لهذا الإنسان الذي يبدو حقيراً. أردت إيضاحاً في هاتين النقطتين ينكشف به الإيمان ويُطمئن به القلب. فراجعت بدوري تلك الآية الكريمة أيضاً، فقالت لي: دقق النظر في «نا» التي في «حسبنا»، وانظر مَنْ هم أولاء ينطقون «حسبنا» معك، سواء ينطقونها بلسان الحال، أو بلسان المقال، أنصت إليهم.. نعم، هكذا أمرَتني الآية!. فنظرت.. فإذا بي أرى طيوراً محلّقة لا تحدّ، وطويرات صغيرة صغيرة جداً كالذباب لا تحصى، وحيواناتٍ لا تعد ونباتات لا تنتهي وأشجاراً لا آخر لها ولا نهاية... كل ذلك يردد مثلي بلسان الحال معنى ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ ، بل يُذكّر الآخرين بها.. أن لهم وكيلاً -نِعمَ الوكيل- تكفّلَ بجميع شرائط حياتهم، حتى إنه يخلق من البيوض المتشابهة بعضها مع بعض وهي المتركبة من المواد نفسِها، ويخلق من النطف التي هي مثل بعضها البعض، ويخلق من الحبوب

التي هي البعض عينه، ويخلق من البذور المتماثلة بعضها مع البعض الآخر مائة ألفَ طرازٍ من الحيوانات ومائة ألف شكل من الطيور ومائة ألف نوع من النباتات، ومائة ألف صنف من الأشجار، يخلقها بلا خطأ وبلا نقص وبلا التباس، يخلقها مزيّنة جميلة وموزونة منظمة، مع تميّز بعضها عن البعض الآخر واختلاف بعضها عن بعض، يخلقها باستمرار ولاسيما أيام كل ربيع أمام أعيننا في منتهى الكثرة، وفي منتهى السهولة، وفي منتهى السعة، وفي منتهى الوفرة.. فخلقُ جميع هذه المخلوقات متشابهةً ومتداخلةً ومجتمعةً على النمط نفسه والأشكال عينِها، ضمن عظمة هذه القدرة المطلقة وحشمتها، يظهر لنا بوضوح: وحدانيته سبحانه وتعالى وأحديته.

وقد أفهمتني الآيةُ أنه لا يمكن التدخل مطلقاً ولا المداخلة قطعاً في مثل هذا الفعل للربوبية المطلقة وفي تصرف هذه الخلاقية، اللتين تبرزان هذه المعجزات غير المحدودة وتنشرانها.

فإلى الذين يريدون أن يفهموا هويتي الشخصية وماهيتي الإنسانية كما هي لكل مؤمن.. وإلى الذين يرغبون أن يكونوا مثلي، عليهم أن ينظروا إلى تفسير نفسي (أنا) في جمع «نا» في الآية الكريمة ويتدبّروا في موقعه في ذلك الجمع. وليفهموا ما وجودي وجسمي الذي يبدو ضئيلاً وفقيراً لا أهمية له -كوجود كل مؤمن-؟! وليعلموا ما الحياة نفسها بل ما الإنسانية؟! وما الإسلام؟! وما الإيمان التحقيقي؟ وما معرفة الله؟ وكيف تحصل محبة الله؟. فليفهموا.. وليتلقوا درساً في ذلك!.

المرتبة النورية الحسبية الرابعة

وافقت العوارضُ المزلزلة لكياني أمثالَ الشيب والغربة والمرض وكوني مغلوباً على أمري، وافقت تلك العوارض فترة غفلتي، فكأن وجودي الذي أتعلق به بشدة يذهب إلى العدم، بل وجودُ المخلوقات كلها تفنى وتنتهي إلى الزوال، فولّد عندي ذهاب الجميع إلى العدم قلقاً شديداً واضطراباً أليماً فراجعت الآية الكريمة أيضاً ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ فقالت لي: «تدبّر في معانيّ، وانظر إليها بمنظار الإيمان» وأنا بدوري نظرت إلى معانيها بعين الإيمان فرأيت:

أنَّ وجودي الذي هو ذرة صغيرة جداً -كوجود كل مؤمن- مرآةٌ لوجود غير محدود،

ووسيلة للظفر بأنواع من وجود غير محدود بانبساط غير متناهٍ.. وهو بمثابة كلمة حكيمة تثمر من أنواع الوجود الكثيرة الباقية ما هو أكثر قيمة من وجودي حتى إن لحظةَ عيشٍ له من حيث انتسابه الإيماني ثمينٌ جداً، وله قيمةٌ عالية كقيمة وجودٍ أبدي دائم، فعلمتُ كل ذلك بعلم اليقين؛ لأن معرفتي بالشعور الإيماني بأن وجودي هذا أثرٌ من آثار واجب الوجود وصنعةٌ من صنعته وجلوة من جلواته جعلتني أنجو من ظلمات لا حدّ لها تورثها أوهام موحشة، وأتخلص من آلام لا حدّ لها نابعة من افتراقات وفراقات غير متناهية، ودفعتني لأمدّ روابطَ أخوة وثيقة إلى جميع الموجودات ولاسيما إلى ذوي الحياة، روابط بعدد الأفعال والأسماء الإلهية المتعلقة بالموجودات. وعلمت أن هناك وصالاً دائماً بهذه الروابط مع جميع ما أحبّه من الموجودات من خلال فراق مؤقت.

وهكذا فإن وجودي كوجودِ كل مؤمن، قد ظفر بالإيمان والانتساب الذي فيه بأنوارِ أنواع وجود غير محدودة لا افتراق فيها. فحتّى لو ذهب وجودي فإن بقاءَ تلك الأنواع من الوجود من بعده يُطمئن وجودي وكأنه قد بقي بنفسه كاملاً.

والخلاصة: أن الموت ليس فراقاً بل هو وصال وتبديل مكان وإثمار لثمرة باقية.

المرتبة النورية الحسبية الخامسة

لقد تصدّعتْ حياتي حيناً تحت أعباء ثقيلة جداً، حتى لفتت نظري إلى العمر، وإلى الحياة فرأيت أن عمري يجري حثيثاً إلى الآخرة.. وأن حياتي المتقربة إلى الآخرة قد توجهت نحو الانطفاء تحت المضايقات العديدة، ولكن الوظائفَ المهمة للحياة ومزاياها الراقية وفوائدَها الثمينة لا تليق بهذا الانطفاء السريع، بل تليق بحياة طويلة، مديدة، ففكرتُ في هذا بكل ألم وأسى، وراجعت أستاذي الآية الكريمة: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ فقالت لي: انظر إلى الحياة من حيث «الحي القيوم» الذي وهب لك الحياة. فنظرت إليها بهذا المنظار وشاهدت أنه: إن كان للحياة وجهٌ واحد متوجه إليّ أنا فإن لها مائة وجه متوجه إلى «الحي المحيي» وإن كانت لها نتيجة واحدة تعود إليّ أنا، فإن لها ألفاً من النتائج تعود إلى خالقي؛ لذا فإن لحظةً واحدة من الحياة، أو آناً من الوقت ضمن هذه الجهة كافٍ جداً، فلا حاجة إلى زمان طويل.

هذه الحقيقة تتوضح بأربع مسائل؛ فليفتش أولئك الذين ينشدون الحياة أو الذين هم ليسوا أمواتاً.. ليفتشوا عن ماهية الحياة وعن حقيقتها وعن حقوقها الحقيقية ضمن تلك المسائل الأربع. فليظفروا.. وليحيوا..

وخلاصتها هي: أن الحياة كلما تتوجه إلى الحيّ القيوم وتتطلع إليه، وكلما كان الإيمانُ حياةً للحياة وروحاً لها تكسب البقاء بل تعطي ثماراً باقية كذلك، بل إنها ترقى وتعلو إلى درجة تكتسب تجلي السرمدية، وعندها لا يُنظر إلى قصر العمر وطوله.

المرتبة النورية الحسبية السادسة

من خلال الشيب الذي يذكّر بفراقي الخاص، ومن خلال حوادث آخر الزمان التي تنبئ عن دمار الدنيا ضمن الفراقات العامة الشاملة، ومن خلال الانكشاف الواسع فوق العادة في أواخر عمري لأحاسيس الجمال والعشق له والافتتان بالكمالات المغروزة في فطرتي. من خلال كل هذا رأيت أن الزوال والفناء اللذين يدمّران دائماً، وأن الموت والعدم اللذين يفرّقان باستمرار، رأيتهما يفسدان بشكل مرعب ومخيف، جمالَ هذه الدنيا الرائعة الجمال ويشوهانه بتحطيمهما لها، ويُتلفان لطافة هذه المخلوقات.. فتألّمت من أعماقي بالغَ التألم لما رأيت. ففار ما في فطرتي من عشقٍ مجازي فوراناً شديداً وبدأ يتأجج بالرفض والعصيان أمام هذه الحالة المفجعة، فلم يَكُ لي منها بد إلّا مراجعة الآية الكريمة أيضاً لأجد المتنفَس والسلوان، فقالت: «اقرأني جيداً، أنعم النظر في معانيَّ» وأنا بدوري دخلت إلى مركز الإرصاد لسورة النور لآية: ﴿ اَللَّهُ نُورُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (النور:٣٥) فنظرت من هناك «بمنظار» الإيمان إلى أبعد طبقات الآية الحسبية، وفي الوقت نفسه نظرتُ «بمجهر» الشعور الإيماني إلى أدق أسرارها.. فرأيت أنه مثلما تُظهر المرايا والزجاجُ والمواد الشفافة وحتى حباب البحر الجمالَ المخفي المتنوع لضوء الشمس، فيُظهر كلٌّ منها مختلف الجمال للألوان السبعة لذلك الضوء، ومثلما يتجدد ذلك الجمال وذلك الحسن بتجدد تلك المواد وبتحركها وحسب قابليتها المختلفة ووفق انكساراتها المتنوعة، أي مثلما أنها تُظهر الجمالَ المخفي للشمس ولضوئها ولألوانها السبعة -بشكل جميل جذاب- فكذلك الأمر في هذه المصنوعات الجميلة وهذه المخلوقات اللطيفة والموجودات الجميلة التي تقوم مقام مرايا عاكسة لذلك الجمال المقدس للجميل ذي

الجلال الذي هو «نور الأزل والأبد». فهذه المخلوقات لا تلبث أن تذهب دون توقّف مجدّدة بذلك تجليات لأسمائه الحسنى جل وعلا. فالجمالُ الظاهر في هذه المخلوقات والحُسن البارز فيها إذن ليس هو ملك ذاتها، وإنما هو إشاراتٌ إلى ذلك الجمال المقدس السرمدي الذي يريد الظهور، وعلامات وإشارات وتجليات لذلك الحسن المجرد والجمال المنـزّه المتجلي دائماً والذي يريد المشاهدة والإشهاد.

وقد وُضِّحَتْ دلائل هذا مفصلاً في «رسائل النور» لاسيما تلك الرسالة التي تستهل بـ«هنا سنذكر ثلاثة براهين بصورة مختصرة جداً ومعقولة».[1] فأيّما إنسانٌ نظر إلى هذه الرسالة من أصحاب الذوق السليم لا يمكن أن يتمالك نفسه من غير الإعجاب والتقدير بل سيرى أن عليه أن يسعى لإفادة الآخرين بعدما أفاد نفسه، ولاسيما النقاطُ الخمسُ المذكورة في البرهان الثاني. فلابد أن مَن لم يفسد عقلُه ولم يصدأ قلبُه يقول مستحسناً ومستصوباً: ماشاء الله.. بارك الله.. ويجعل وجوده الذي يظهر فقيراً حقيراً يسمو ويتعالى.. ويدرك مصدقاً أنه: معجزة خارقة حقاً!!.

الرجاء الخامس عشر[2]

عندما كنت نـزيل غرفة في «أميرداغ»[3] تحت الإقامة الجبرية وحيداً فريداً، كانت عيون الترصد تتعقبني وتضايقني دائماً فأتعذب منها أشدّ العذاب، حتى مللت الحياةَ نفسها وتأسفت لخروجي من السجن، بل رغبتُ من كل قلبي في أن أعود إلى سجن «دنيزلي» أو دخولَ القبر، حيث السجن أو القبر أفضل من هذا اللون من الحياة. فأتتني العنايةُ الإلهية مغيثةً، إذ وهبتْ آلة الرونيو التي ظهرت حديثاً لطلاب «مدرسة الزهراء»[4] وهم يحملون أقلاماً ماسية كآلة الرونيو. فباتت «رسائل النور» تظهر بخمسمائة نسخة بقلم واحد. فتلك

---

(١) المقصود «المرتبة النورية السادسة من الشعاع الرابع-الشعاعات».

(٢) كُتب هذا الرجاء الخامس عشر كي يكون مصدر تكملة رسالة الشيوخ وتأليفها من قبل أحد طلاب النور، حيث إن فترة تأليف «رسائل النور» قد انتهت قبل ثلاث سنوات. (المؤلف).

(٣) قضاء يقع في أواسط الأناضول، نفي إليه الأستاذ النورسي سنة ١٩٤٤ وظل فيه حتى سنة ١٩٥١.

(٤) سعى الأستاذ النورسي طوال حياته لإقامة هذه المدرسة التي تدمج فيها الدراسة الدينية والعلمية معاً، حتى وضع حجرها الأساس سنة ١٩١١ قرب بحيرة «وان». إلّا أن ظروف الحرب العالمية الأولى حالت دون إتمام المشروع، ولكن العناية الربانية عوضت عن تلك المدرسة بمدرسة معنوية امتدت أغصانها الوارفة في طول البلاد وعرضها، تلك هي المدارس المعنوية النورية، ومن هنا كان الأستاذ النورسي يعد طلاب النور طلاب مدرسة الزهراء.

الفتوحات التي هيأَتها العنايةُ الإلهية لرسائل النور جعلتني أُحب تلك الحياة الضجرة القلقة المضطربة، بل جعلتني أُردّد ألف شكر وشكر للبارئ سبحانه وتعالى.

ولكن بعد مرور فترة وجيزة لم يتمكن أعداءُ «رسائل النور» المتسترون أن يتحملوا تلك الفتوحات النورية، فنبّهوا المسؤولين في الدولة ضدّنا وأثاروهم علينا، فأصبحت الحياة -مرة أخرى- ثقيلة مضجرة، إلّا أن العناية الإلهية تجلّت على حين غرة، حيث إن المسؤولين أنفسهم -وهم أحوج الناس إلى «رسائل النور»- بدأوا فعلاً بقراءة الرسائل المصادَرة بشوق واهتمام، وذلك بحكم وظيفتهم. واستطاعت تلك الرسائل بفضل الله أن تليّن قلوبَهم وتجعلها تجنح إلى جانبها. فتوسعت بذلك دائرةُ مدارس النور، حيث إنهم بدأوا بتقديرها والإعجاب بها بدلاً من جرحها ونقدها. فأكسبَتنا هذه النتيجة منافعَ جمّة، إذ هي خيرٌ مائة مرة ممّا نحن فيه من الأضرار المادية، وأذهبت ما نعانيه من اضطراب وقلق. ولكن ما إن مرّت فترةٌ وجيزة، حتى حوّل المنافقون -وهم الأعداء المتسترون- نظر الحكومة إلى شخصي أنا، ولفتوا انتباهها إلى حياتي السياسية السابقة، فأثاروا الأوهام والشكوك، وبثوا المخاوفَ من حولي في صفوف دوائر العدل والمعارف (التربية) والأمن ووزارة الداخلية. ومما وسّع تلك المخاوف لديهم ما يجري من المشاحنات بين الأحزاب السياسية، وما أثاره الفوضويون والإرهابيون -وهم واجهة الشيوعيين- حتى إن الحكومة قامت إثر ذلك بحملة توقيف وتضييق شديد علينا، وبمصادرة ما تمكنت من الحصول عليه من الرسائل، فتوقف نشاطُ طلاب النور وفعالياتهم.

وبالرغم من أن بعض الموظفين المسؤولين أشاعوا دعاياتٍ مغرضةً عجيبة لجرح شخصيتي وذمّها -مما لا يمكن أن يصدّقها أحد- إلّا أنهم باؤوا بالإخفاق الذريع، فلم يستطيعوا أن يقنعوا أحداً بها. ومع ذلك أحالوني إلى الموقف لمدة يومين بحجج رخيصة تافهة جداً، ووضعوني في قاعة واسعة جداً وحيداً في تلك الأيام الشديدة البرد كالزمهرير، علماً أنني ما كنت أتحمل البرد في بيتي إلّا على مضض وكنت أقاومه بشدة بإشعال الموقد دائماً وبإشعال المدفأة عدة مرات يومياً، وذلك لما أُعانيه من ضعف ومرض.

فبينما كنت أتقلب من شدة الحمّى المتولدة من البرد، وأتململ من حالتي النفسية المتضايقة جداً، انكشفت في قلبي حقيقة عناية إلهية، ونُبّهت إلى ما يأتي:

«أنك قد أطلقت على السجن اسم «المدرسة اليوسفية»، وقد وهب لكم «سجن دنيزلي» من النتائج والفوائد أضعاف أضعاف ما أذاقكم من الضيق والشدة، ومنحكُم فرحاً شديداً وسروراً عظيماً وغنائمَ معنوية كثيرة: واستفادة المساجين معكم من «رسائل النور»، وقراءة «رسائل النور» في الأوساط الرسمية العليا وغيرها من الفوائد، حتى جعلَتكم في شكرٍ دائم مستمر بدل التشكّي والضجر محوّلةً كل ساعة من ساعات السجن والضيق إلى عشر ساعات من العبادة، فخلّدت تلك الساعات الفانية. فهذه «المدرسة اليوسفية الثالثة»[1] كذلك ستُعطي -بإذن الله- من الحرارة الكافية ما يدفئ هذا البرد الشديد، وستمنح من الفرح والبهجة ما يرفع هذا الضيقَ الثقيل، باستفادة أهل المصائب والبلاء معكم من «رسائل النور» ووجدانِهم السلوان فيها. أما الذين غضبتَ واحتدّيت عليهم. فإن كانوا من المغرّر بهم ومن المخدوعين فلا يستحقون الغضبَ والحدّة، إذ إنهم يظلمونك دون قصد ولا علم ولا شعور، وإن كانوا يعذبونك ويشددون عليك الخناق وهم يقومون بهذا عن علم وعن حقدٍ دفين إرضاءً لأهل الضلالة فإنهم سيعذَّبون عن قريب بالموت الذي يتصورونه إعداماً أبدياً، وسيرون الضيقَ الشديد الدائم المقيم في السجن المنفرد وهو القبر. وأنت بدورك تكسب ثواباً عظيماً -نتيجة ظلمهم- وتظفر بخلود ساعاتك الفانية، وتغنم لذائذ روحيةً معنوية فضلاً عن قيامك بمهمتك العلمية والدينية بإخلاص.

هكذا ورد إلى روحي هذا المعنى فقلت بكل ما أُوتيت من قوة: «الحمد لله». وأشفقت على أولئك الظَلَمة بحكم إنسانيتي ودعوتُ: يا ربّي أصلح شأن هؤلاء..

ولقد ثبتُّ في إفادتي التي كتبتُها إلى وزارة الداخلية: أن هذه الحادثة الجديدة غير قانونية، وأثبتُّها بعشرة أوجه، بل إن هؤلاء الظلمة الذين يخرقون القانون باسم القانون هم المجرمون حقاً، حيث بدأوا بالبحث عن حجج واهية جداً وتتبعوا افتراءات مختلَقة إلى حدّ أن جلبوا سخرية السامعين وأبكت أهلَ الحق المنصفين، وأظهروا لأهل الإنصاف أنهم لا يجدون باسم القانون والحق أي مسوّغ للتعرض لرسائل النور ومسّ طلابَها بسوء، فيزلّون إلى البلاهة والجنون ويتخبطون خبط عشواء.

مثال ذلك: لم يجد الجواسيس الذين راقبونا لمدة شهر شيئاً علينا، لذا لفّقوا التقرير

(١) المقصود سجن أفيون سنة ١٩٤٨.

الآتي: «إن خادم «سعيد» قد اشترى له الخمر من حانوت». إلّا أنهم لم يجدوا أحداً يوقّع على هذا التقرير تصديقاً لهم، إلّا شخصاً غريباً وسكيراً في الوقت نفسه، فطلبوا منه -تحت الضغط والتهديد- أن يوقّع مصدقاً على ذلك التقرير، فردّ عليهم: «استغفر الله من يستطيع أن يوقع مصدقاً هذا الكذب العجيب» فاضطروا إلى إتلاف التقرير.

مثال آخر: لحاجتي الشديدة لاستنشاق الهواء النقي، ولما يُعلَم من اعتلال صحتي، فقد أعارني شخصٌ لا أعرفه -ولم أتعرّف عليه لحدّ الآن- عربةً ذات حصان، لأتنـزّه بها خارجَ البلدة فكنت أَقضي ساعة أو ساعتين في هذه النـزهة. وكنت قد وعدتُ صاحبَ العربة والحصان بأن أوفي أجرتَها كتباً تثمّن بخمسين ليرة، لئلا أحيد عن قاعدتي التي اتخذتُها لنفسي، ولئلا أظل تحت منّة أحد من الناس وأذاه.. فهل هناك احتمال لأن ينجم ضرر ما من هذا العمل؟! غير أن دائرةَ الشرطة ودائرة العدل والأمن الداخلي وحتى المحافظ نفسه استفسر بأكثر من خمسين مرة: لِمنْ هذا الحصان؟ ولمن هذه العربة؟ وكأنه قد حدثت حادثة سياسية خطيرة للإخلال بالأمن والنظام! مما اضطر أن يتطوع أحدُ الأشخاص لقطع دابر هذه الاستفسارات السخيفة المتتالية فيدّعي أن الحصان ملكُه، وادّعى آخر بأن العربةَ له، فصدر الأمر بالقبض عليهما وأودعا معي في السجن. فبمثل هذه النماذج أصبحنا من المتفرجين على لعب الصبيان ودُماهم، فبكينا ضاحكين وحزنّا ساخرين، وعرفنا أن كل من يتعرض لرسائل النور ولطلابها يصبح أضحوكة وموضعَ هزء وسخرية.

وإليك محاورةً لطيفة من تلك النماذج: لقد قلتُ للمدعي العام -قبل أن اطّلِع على ما كُتب في محضر اتهامي من الإخلال بالأمن- قلت له: لقد اغتَبتك أمس إذ قلتُ لأحد أفراد الشرطة الذي استجوبني نيابة عن مدير الأمن: «ليهلكني الله -ثلاث مرات- إن لم أكن قد خدمت الأمن العام لهذا البلد أكثر من ألف مدير أمن وأكثر من ألف مدّع عام..».

ثم إنني في الوقت الذي كنتُ في أمسّ الحاجة إلى الإخلاد إلى الراحة وعدم الاهتمام بهموم الدنيا والابتعاد نهائياً عن البرد، فإن قيام هؤلاء بنفيي -في هذه الفترة من البرد بالذات- وتهجيري من مدينة لأخرى بما يفوق تحملي، ومن ثم توقيفي والتضييق عليّ بأكثر من طاقتي

وبما يشعر أنه حقدٌ دفين وأمر متعمَّد مقصود.. كل ذلك ولّد عندي غيظاً وامتعاضاً غير اعتيادي تجاه هؤلاء. ولكن العناية الإلهية أغاثتني فنبَّهت القلبَ إلى هذا المعنى:

إن للقدر الإلهي -الذي هو عدلٌ محض- حصةً عظيمةً جداً فيما يسلطه عليك هؤلاء البشر من الظلم البيّن، وإن رزقك في السجن هو الذي دعاك إلى السجن، فينبغي إذن أن تقابل هذه الحصة بالرضى والتسليم.

وإن للحكمة الربانية ورحمتِها حظاً وافراً أيضاً كفتح طريق النور والهداية إلى قلوب المساجين وبث السلوان والأمل فيهم، ومن ثم إحراز الثواب لكم؛ لذا ينبغي تقديم آلاف الحمد والشكر لله -من خلال الصبر- تجاه هذا الحظ العظيم.

وكذا فإن لنفسك أنت أيضاً حصتَها حيث إنَّ لها ما لا تعرف من التقصيرات.. فينبغي مقابلة هذه الحصة أيضاً بالاستغفار والتوبة والإنابة إلى الله وتأنيب النفس بأنها مستحقةٌ لهذه الصفعة.

وكذا فإن لبعضَ الموظفين السُذج والجبناء المنخدعين الذين يساقون إلى ذلك الظلم بدسائس الأعداء المتسترين منهم حصة أيضاً ونصيب، فرسائل النور قد ثأرت لك ثأراً كاملاً من هؤلاء المنافقين بما أنـزلت بهم من صفعاتها المعنوية المدهشة. فحسبهم تلك الضربات.

أما الحصة الأخيرة فهي لأولئك الموظفين الذين هم وسائطُ فعلية. ولكن لكونهم منتفعين حتماً من جهة الإيمان -سواء أرادوا أم لم يريدوا- عند نظرهم إلى «رسائل النـور» وقراءتهم لها بنيّة النقد أو الجرح، فإن العفو والتجاوز عنهم وفق دستور ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَـيْظَ وَٱلْعَـافِينَ عَنِ ٱلنَّـاسِ ﴾ (آل عمران: ١٣٤) هو شهامة ونجابة.

وبعد أن تلقيتُ هذا التنبيه والتحذير الذي كلُّه حق وحقيقة قررتُ أن أظلَّ صابراً وشاكراً جذلاً في هذه المدرسة اليوسفية الجديدة. بل قررت أن أُعاقب نفسي بتقصيرٍ لا ضرر فيه فأساعد حتى أولئك الذين يسيئون إليّ ويخاصمونني وأعاونهم.

ثم إنَّ من كان مثلي في الخامسة والسبعين من عمره، وقد انقطعت علاقاتُه مع الدنيا ولم يبق من أحبابه في الدنيا إلّا خَمسٌ من كل سبعين شخصاً، وتقوم سبعون ألف نسخة من

«رسائل النور» بمهمته النورية بكل حرية، وله من الإخوان ومن الورثة مَن يؤدون وظيفة الإيمان بآلاف الألسنة بدلاً من لسان واحد.. فالقبرُ لمثلي إذن خيرٌ وأفضل مائة مرّة من هذا السجن. فضلاً عن أن هذا السجن هو أكثر نفعاً وأكثر راحة بمائة مرة من الحرية المقيّدة في الخارج، ومن الحياة تحت تحكّم الآخرين وسيطرتهم؛ لأن المرء يتحمل مضطراً مع مئاتٍ المساجين تحكماً من بعض المسؤولين؛ أمثال المدير ورئيس الحراس بحكم وظيفتهم، فيجد سلواناً وإكراماً أخوياً من أصدقاء كثيرين من حوله، بينما يتحمل وحده في الخارج سيطرة مئات الموظفين والمسؤولين.

وكذلك الرأفة الإسلامية والفطرة البشرية تسعيان بالرحمة للشيوخ ولاسيما مَن هم في هذه الحالة، فتبدّلان مشقةَ السجن وعذابَه إلى رحمة أيضاً.. لأجل كل ذلك فقد رضيتُ بالسجن..

وحينما قُدّمت إلى هذه المحكمة الثالثة جلست على كرسي خارج باب المحكمة لما كنت أحسّ من النصَب والضيق في الوقوف لشدة ضعفي وشيخوختي ومرضي. وفجأة أتى الحاكم وقال مغاضباً مع إهانة وتحقير: لِمَ لا ينتظر هذا واقفاً؟!.

ففار الغضب في أعماقي على انعدام الرحمة للشيب، والتفتُّ وإذا بجمعٍ غفير من المسلمين قد احتشدوا حولَنا ينظرون إلينا بعيون ملؤها الرأفة، بقلوب ملؤها الرحمة والأخوة، حتى لم يستطع أحد من صرفِهم عن هذا التجمع، وهنا وردت إلى القلب هاتان الحقيقتان:

الأولى: إنَّ أعدائي، وأعداءَ النور المتسترين قد أقنعوا بعض الموظفين الغافلين وساقوهم إلى مثل هذه المعاملات المهينة كي يحطّموا شخصيتي أمام أنظار الناس، ويصرفوا ما لا أرغبه أبداً من توجّه الناس وإقبالهم عليَّ، ظناً منهم أنهم يتمكنون بذلك من إقامة سدّ منيع أمام سيل فتوحات النور. فتجاه تلك الإهانة الصادرة من رجل واحد فقد صرفت العنايةُ الإلهية نظري إلى هؤلاء «المائة» إكراماً منها للخدمة الإيمانية التي تقدّمها «رسائل النور» وطلابُها قائلة: «انظر إلى هؤلاء، فقد أتوا للترحيب بكم لخدمتكم تلك، بقلوب ملآى بالرأفة والحزن والإعجاب والارتباط الوثيق».

بل حتى في اليوم الثاني عندما كنت أجيب عن أسئلة حاكم التحقيق؛ احتشد ألفٌ من

الناس في الساحة المقابلة لنوافذ المقر. كانت ملامحُ وجوههم تعبّر عن وضعهم، وتقول: «لا تضايقوا هؤلاء». ولشدة ارتباطهم بنا، عجزت الشرطةُ عن أن تفرقهم. وعند ذلك ورد إلى القلب:

«إن هؤلاء الناس في هذا الوقت العصيب؛ ينشدون سلواناً كاملاً، ونوراً لا ينطفئ، وإيماناً راسخاً، وبشارةً صادقة بالسعادة الأبدية، بل يبحثون عنها بفطرتهم، وقد طرق سمعَهم أن ما يبحثون عنه موجود فعلاً في «رسائل النور»، لذا يبدون هذا الاحترام والتقدير لشخصي -الذي لا أهمية له- بما يفوق طاقتي وحدّي، من موقع كوني خادماً للإيمان، وعسى أن أكون قد قمت بشيء من الخدمة له».

الحقيقة الثانية: لقد ورد إلى القلب: أنه حيال إهانتنا والاستخفاف بنا بحجة إخلالنا بالأمن العام، وإزاء صرفِ إقبال الناس عنا بالمعاملات الدنيئة التي يقوم بها أشخاصٌ معدودون من المغَرّر بهم.. فإن هناك الترحيبَ الحار والتقدير اللائق لنا من قبل أهل الحقيقة وأبناء الجيل القادم. نعم، في الوقت الذي تنشط الفوضى والإرهاب المتستّر بستار الشيوعية للإخلال بالأمن العام، فإن طلاب «رسائل النور» يوقفون ذلك الإفساد المرعب، في جميع أرجاء البلاد ويكسرون شوكتَه بقوة الإيمان التحقيقي، ويسعون حثيثاً لإحلال الأمن والنظام مكانَ الخوف والفوضى. فلم تظهر في العشرين سنة السابقة أيةُ حادثة كانت حول إخلالهم بالأمن، رغم كثرة طلاب النور وانتشارهم في جميع أنحاء البلاد، فلم يجد ولم يسجل عليهم أحدٌ من الضباط المسؤولين حدثاً، في عشر ولايات وعبر حوالي أربع محاكم ذات علاقة، بل لقد قال ضباطٌ منصفون لثلاث ولايات: «إن طلاب النور ضباط معنويون للأمن في البلاد، إنهم يساعدوننا في الحفاظ على الأمن والنظام لما يجعلون من فكر كل من يقرأ «رسائل النور» بالإيمان التحقيقي حارساً ورقيباً عليه فيسعون بذلك للحفاظ على الأمن العام».

وسجن «دنيزلي» مثال واضح ونموذج جيد لهذا الكلام، فما إن دخل طلاب النور ورسالة «الثمرة» التي كُتبت للمسجونين حتى تاب أكثرُ من مائتي سجين وتحلّوا بالطاعة والصلاح، وذلك في غضون ثلاثة أشهر أو تزيد. حتى إن قاتلاً لأكثر من ثلاثة أشخاص

كان يتحاشى أن يقتل (بقة الفِراش). فلم يعد عضواً لا يضر، بل أصبح نافعاً رحيماً بالبلاد والعباد.

فكان الموظفون المسؤولون ينظرون إلى هذا الوضع بحَيرة وإعجاب، حتى صرّح بعض الشباب قبل أن يستلموا قرار المحكمة: «إذا لبث طلاب النور في السجن فسنحكُم على أنفسنا ونديننُها لنظلّ معهم ونتتلمذ عليهم ونصلح أنفسنا بإرشاداتهم لنكون أمثالهم». فالذين يتهمون طلاب النور الذين لهم هذه الخصائص والخصال بإخلال الأمن لا محالة قد انخدعوا بشكل مفجع، أو خُدعوا، أو أنهم يستغفلون أركان الحكومة في سبيل الفوضى والإرهاب -من حيث يعلمون أو لا يعلمون- لذا يسعَون لإبادتنا وإقحامنا في العذاب.

فنحن نقول لهؤلاء:

«مادام الموتُ لا يُقتل والقبرُ لا يُغلق بابه، وقوافل البشرية في دار ضيافة الدنيا تغيب وتتوارى فيها وراء التراب بسرعة مذهلة.. فلا مناص أننا سنفترق في أقرب وقت، وسترَون جزاء ظلمكم جزاءً رهيباً، وفي الأقل ستذوقون الموتَ الذي هو رخصة من الحياة عند أهل الإيمان المظلومين، ستذوقونه إعداماً أبدياً لكم، فالأذواق الفانية التي تكسبونها بتوهمكم الخلود في الدنيا ستنقلب إلى آلامٍ باقية مؤلمة دائمة..

إنَّ حقيقة الإسلام التي ظفرت بها هذه الأمة المتدينة وحافظت عليها بدماء مئات الملايين من شهدائها الذين هم بمرتبة الأولياء وسيوف أبطالها المجاهدين يطلق عليها اليوم -مع الأسف- أعداؤنا المنافقون المتسترون اسم «الطريقة الصوفية» أحياناً، ويظهرون الطريقة الصوفية التي هي شعاع واحد من أشعة تلك الشمس المنيرة أنها الشمسُ نفسها ليموّهوا على بعض الموظفين السطحيين. مطلقين على طلاب النور الذين يسعون بجد ونشاط لإبراز حقيقة القرآن وحقائق الإيمان اسم «أهل الطريقة الصوفية» أو «جمعية سياسية» ولا يبغون من ورائها إلّا التشويه والتحريض علينا. فنحن نقول لهؤلاء ولكل من يصغي إليهم قَولتنا التي قلناها أمام محكمة دنيزلي العادلة:

«إن الحقيقةَ المقدسة التي افتدتها ملايينُ الرؤوس فداءٌ لها رأسنا أيضاً، فلو أشعلتم

الدنيا على رؤوسنا ناراً فلن ترضخ تلك الرؤوس التي افتدت الحقيقةَ القرآنية ولن تسلم القيادة للزندقة ولن تتخلّى عن مهمتها المقدسة بإذن الله».

وهكذا فلا أستبدل بسنةٍ واحدة من شيخوختي التي أنشأت حوادثُها اليأسَ والأعباءَ الثقيلة والتي أسعفها السلوانُ النـزيه النابع من الإيمان والقرآن، مع ما فيها من معاناة وضيق، عشرَ سنوات بهيجة سارة من حياة شبابي. وبالأخص إذا كان كل ساعة من ساعات التائب المقيم لفرائضه في السجن بحكم عشر ساعات له من العبادة، وأن كُل يوم يمرّ بالمريض وهو مظلوم يجعل صاحبَه يفوز بثواب عشرة أيام خالدة، فكم يكون مثل هذه الحياة مبعث شكر وامتنان لله لمثلي الذي يترقب دورَه وهو على شفير القبر.

نعم، فهذا هو الذي فهمتُه من ذلك التنبيه المعنوي، فقلت: شكراً لله بلا نهاية.. وفرحت بشيخوختي ورضيت بالسجن. حيث إن العمر لا يتوقف بل يمضي مسرعاً، فإن مضى باللذة والفرح فإنه يورث الحزن والأسى؛ لأنَّ زوالَ اللذة يورث الألم، وإن مضى مشبعاً بالغفلة خاوياً من الشكر فإنه يترك بعض آثار الآثام ويفنى هو ويمضي. ولكن إذا مضى العمر بالعناء والسجن، فلكون زوالُ الألم يورث لذةً معنوية، وأن مثل هذا العمر يعدّ نوعاً من العبادة؛ لذا يظل باقياً من جهة، فيجعل صاحبَه يفوز بعمر خالد بثمرات خالدة خيّرة، ومن جهة أخرى يكون كفّارة للذنوب السابقة وتزكية للأخطاء التي سببت السجن. فمن زاوية النظر هذه على المسجونين الذين يؤدون الفرائض أن يشكروا الله تعالى ضمن الصبر.

الرجاء السادس عشر

عندما ساقوني منفياً إلى «قسطموني»[1] بعد أن أكملتُ سنة محكوميتي في سجن «أسكي شهر» وأنا الشيخ الهرم، مكثت موقوفاً هناك في مركز الشرطة حوالي ثلاثة أشهر. ولا يخفى عليكم مدى الأذى الذي يلحق بمثلي في مثل هذه الأماكن، وقد انعزل عن الناس، ولا يتحمَّل البقاءَ حتى مع أصدقائه الأوفياء، ولا يطيق أن يبدّل زيّه الذي اعتاد عليه.[2] فبينما كان اليأس يحيط بي من كل جانب، إذا بالعناية الإلهية تغيث شيخوختي، إذ أصبح أفرادُ الشرطة

---

(١) مدينة تقع في شمالي تركيا، نفي إليها الأستاذ النورسي سنة ١٩٣٦ وظل فيها تحت الإقامة الإجبارية في غرفة مقابل مخفر الشرطة إلى أن سيق منها (سنة ١٩٤٣) موقوفاً لمحاكمته في محكمة الجزاء الكبرى في «دنيزلي».

(٢) حيث أُكره الناس على لبس القبعة والزي الأوروبي بعد صدور (قانون القيافة ١٩٢٥).

المسؤولون في ذلك المخفر بمثابة أصدقاء أوفياء، حتى كانوا يخرجونني متى شئت للاستجمام والتجوال في سياحة حول المدينة وقاموا بخدمتي كأي خادم خاص، فضلاً عن أنهم لم يصروا عليّ بلبس القبعة مطلقاً.

ثم دخلت المدرسة النورية التي كانت مقابل ذلك المخفر في «قسطموني» وبدأتُ بتأليف الرسائل، وبَدأ كل من «فيضي وأمين وحلمي وصادق ونظيف وصلاح الدين» وأمثالِهم من أبطال النور يداومون في تلك المدرسة لأجل نشر الرسائل وتكثيرها، وأبدوا في مذاكراتهم العلمية القيّمة التي أمضوها هناك جدارةً تفوق ما كنت قضيتُها أيام شبابي مع طلابي السابقين.

ثم بدأ أعداؤنا المتسترون يحرّضون علينا بعضاً من المسؤولين وبعضاً ممن يعتدّون بأنفسهم والمغرورين من العلماء ومشايخ الصوفية، فأصبحوا الوسيلة في جمعنا في تلك المدرسة اليوسفية «سجن دنيزلي» مع طلاب النور القادمين من عدة ولايات.

هذا وإن تفاصيل هذا الرجاء السادس عشر هي في تلك الرسائل التي أرسلتُها سراً من «قسطموني» والتي ضمّت في كتاب «ملحق قسطموني» وفي الرسائل المقتضبة السرية التي كنت قد أرسلتها إلى إخواني من سجن دنيزلي. ويرد تفاصيلها أيضاً في «الدفاع» المرفوع أمام محكمة دنيزلي.

فحقيقة هذا الرجاء تظهر بوضوح في ذلك، نحيل إلى تلك التفاصيل المذكورة في (الملحق) و (الدفاع) ونشير هنا إشارة مختصرة إليها:

لقد خبأتُ بعض الرسائل الخاصة والمجموعات المهمة ولاسيما التي تبحث عن دجّال المسلمين (السفياني) وعن كرامات «رسائل النور»، خبّأتُها تحت أكوام من الحطب والفحم لأجل أن تنشر بعد وفاتي، أو بعد أن تصغي آذان الرؤساء وتعي رؤوسُهم الحقيقة ويرجعوا إلى صوابهم. كنت مطمئن البال من هذا العمل، ولكن ما إن داهم موظفو التحريات ومعاون المدعي العام البيت وأخرجوا تلك الرسائل المهمة المخبوءة من تحت أكوام الفحم والحطب، فساقوني إلى سجن «اسبارطة» وأنا أعاني من اعتلال صحتي ما أعاني. وبينما كنت متألماً بالغَ الألم ومستغرقاً في التفكير حول ما أصاب «رسائل النور» من أضرار، إذا بالعناية الربانية تأتي لإغاثتنا جميعاً حيث بدأ المسؤولون الذين هم في أمسّ الحاجة إلى قراءة تلك الرسائل المخبوءة القيمة،

بدأوا بدراستها بكل اهتمام ولهفة، فتحولت تلك المحافلُ الرسمية إلى ما يشبه المدارس النورية، إذ انقلب النقد والجرح عندهم إلى نظرة الإعجاب والتقدير. حتى إنه في «دنيزلي» قرأ الكثيرون سواء من المسؤولين أو غيرهم -دون علمنا- رسالةَ «الآية الكبرى» المطبوعة بسرية تامة فازدادوا إيماناً وأصبحوا سبباً لجعل مصيبتِنا كأن لم تكن.

ثم ساقونا إلى سجن «دنيزلي» وزجّوني في ردهة كبيرة ذات عفونة ورطوبة شديدتين فوق ما فيها من برد شديدة، فاعتراني حزنٌ وألم شديدان من جراء ابتلاء أصدقائي الأبرياء بسببي فضلاً عن الحزن النابع مما أصاب انتشار «النور» من عطل ومصادرة مع ما كنت أعانيه من الشيب والمرض.. كل ذلك جعلني أتقلب مضطرباً في ضجر وسأم.. حتى أغاثتني العنايةُ الربانية فحوّلت ذلك السجنَ الرهيب إلى مدرسة نورية، فحقاً إنَّ السجن مدرسة يوسفية، وبدأت «رسائل النور» بالانتشار والتوسع حيث بدأ أبطال «مدرسة الزهراء» بكتابة تلك الرسائل بأقلامهم الألماسية. حتى إن بطل النور[1] قد استنسخ أكثر من عشرين نسخة من رسالتي «الثمرة» و «الدفاع» خلال مدة لم تتجاوز أربعة أشهر، مع ضراوة تلك الظروف المحيطة، فكانت تلك النسخ سبباً للفتوحات في السجن وفي خارجه فحوّل ضررَنا في تلك المصيبة إلى منافعَ وبدّل ضجرنا وحزننا إلى أفراح، مبدياً مرة أخرى سراً من أسرار الآية الكريمة: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ ﴾ (البقرة: ٢١٦).

ثم وُزّع ضدَّنا بيانٌ شديد اللهجة بناء على التقرير السطحي الخاطئ المقدَّم من قبل «الخبراء الأوّلين» وشنّ وزير التربية هجوماً عنيفاً علينا، مما حدا بالبعض أن يطالب بإعدامنا بل قد سعوا في الأمر.

وفي هذا الوقت العصيب بالذات جاءتنا العنايةُ الربانية فأسعفتنا أيضاً، إذ بينا ننتظر انتقادات لاذعة عنيفة من «خبراء أنقرة» إذا بتقاريرهم المتضمنة للإعجاب والتقدير برسائل النور، وإذا بهم لم يجدوا من مجموع خمسة صناديق من «رسائل النور» إلّا بضعةُ أخطاء لا تتجاوز العشرة. وقد وضحّنا أمام المحكمة وأثبتنا كذلك أن هذه الأخطاء التي أوردوها ليست أخطاءً، بل الحقيقة بعينها، وأن الخبراء هم أنفسهم على خطأ فيما يدّعون، وبيّنا أن في تقريرهم المتكون من خمس أوراق حوالي عشرة أخطاء.

(١) المقصود الحافظ علي.

وبينما كنا ننتظر التهديد والأوامر المشدّدة من الدوائر الرسمية السبع التي أُرْسِلَتْ إليها رسالتا «الثمرة» و «الدفاع» كما أُرسلت إلى دائرة العدل جميع الرسائل، ولاسيما تلك الرسائل الخاصة المتضمنة للصفعات الشديدة والتعرض لأهل الضلالة.. أجل بينما كنا ننتظر التهديد العنيف منهم، إذا بتقاريرهم المسلّية وهي في منتهى اللين والرقة -الشبيهة بتلك الرسالة التي بعثها رئيس الوزراء إلينا- وكأنهم يبدون رغبتهم في المصالحة معنا. فأثبت -كل هذا- إثباتاً قاطعاً أنَّ حقائق «رسائل النور» بفضل العناية الإلهية وكرامتها قد غلبَتهم وانتصرت عليهم حتى جعلَتهم يقرأونها ويسترشدون بها، وحولت تلك الدوائر الرسمية الواسعة إلى ما يشبه المدارس النورية، وأنقذت كثيراً من الحيارى والمترددين وشدّت من إيمانهم، مما ملأنا بهجة وسروراً هو أضعاف أضعاف ما كنا نعانيه من ضيق وضجر.

ثم دسّ الأعداءُ المتسترون السُّم في طعامي، ونقل بطل النور الشهيد «الحافظ علي» على إثرها إلى المستشفى بدلاً عني، ومن ثم ارتحل إلى عالم البرزخ أيضاً عوضاً عني، مما جعلنا نحزن كثيراً ونبكي بكاءً حاراً عليه.

لقد قلت يوماً -قبل نـزول هذه المصيبة بنا- وأنا على جبل قسطموني. بل صرختُ مراراً: يا إخواني «لا تلقوا اللحمَ أمام الحصان ولا العشبَ أمام الأسد» بمعنى: لا تعطوا كل رسالة أياً كان حذراً من أن يتعرضوا لنا بسوء. وكأن الأخ «الحافظ علي» قد سمع بهاتفه المعنوي كلامي هذا (وهو على بعد مسيرة سبعة أيام). فكتب إليّ -في الوقت نفسه- يقول: «نعم يا أستاذي.. إنها من إحدى كرامات «رسائل النور» وخصائصها أنها لا تعطي اللحم الحصانَ ولا العشب الأسدَ، بل تعطى العشبَ الحصانَ واللحم الأسد!» حتى أعطى ذلك العالِمَ رسالة «الإخلاص»، وبعد سبعة أيام تسلّمنا رسالته هذه، وبدأنا بالعدّ والحساب فعلمنا أنه قد كتب تلك العبارة الغريبة نفسَها في الوقت الذي كنت أُرددها من فوق جبل «قسطموني».

فوفاة بطل معنوي مثل هذا البطل من أبطال النور، والمنافقون يسعون لإدانتنا وإنـزال العقوبة بنا، علاوة على قلقي المستمر من أخذهم إياي بأمر رسمي إلى المستشفى لمرضي الناشئ من التسميم.. في هذا الوقت وجميعُ هذه المضايقات تحيط بنا، إذا بالعناية الإلهية تأتي لإمدادنا؛ فلقد أزال الدعاء الخالص المرفوع من قبل إخواني الطيبين خطر التسميم. وهناك

أمارات قوية جداً تدل على أن ذلك البطل الشهيد منهمك في قبره برسائل النور، وأنه يجيب بها عن أسئلة الملائكة. وأن بطل دنيزلي «حسن فيضي» (تغمده الله برحمته) وأصدقاءه الأوفياء سيحلّون محلّه فيقومون بمهمته في خدمة النور سراً.. وأن أعداءنا قد انضموا إلى الرأي القائل بضرورة إخراجنا من السجن خوفاً من سعة انتشار الرسائل بين المساجين وسرعة استجابتهم لها ليحولوا بيننا وبين السجناء، وقد حوّل تلاميذ النور تلك الخلوة المزعجة إلى ما يشبه كهف أصحاب الكهف، أولئك الفتية المؤمنين، أو ما يشبه مغارات المنـزوين من الزهاد، وسعوا بكل اطمئنان وسكينة في كتابة الرسائل ونشرها.. كل ذلك أثبت أن العناية الإلهية كانت تمدّنا وتغيثنا.

ولقد خطر للقلب: ما دام الإمام الأعظم «أبو حنيفة النعمان» وأمثالُه من الأئمة المجتهدين قد أوذوا بالسجن وتحملوا عذابه، وأن الإمام «أحمد بن حنبل» وأمثالَه من المجاهدين العظام قد عُذّبوا كثيراً لأجل مسألة واحدة من مسائل القرآن الكريم. وقد ثبت الجميع أمام تلك المِحن القاسية وكانوا في قمة الصبر والجَلَد، فلم يُبدِ أحدُهم الضجر والشكوى، ولم يتراجع عن مسألته التي قالها. وكذا علماءٌ عظام كثيرون وأئمة عديدون لم يتزلزلوا قط أمام الآلام والأذى الذي نـزل بهم، بل صبروا شاكرين لله تعالى، مع أن البلاء الذي نـزل بهم كان أشدّ مما هو نازل بكم، فلابد أن في أعناقكم دَين الشكر لله تبارك وتعالى شكراً جزيلاً على ما تتحملونه من العذاب القليل والمشقة اليسيرة النازلة بكم في سبيل حقائق عديدة للقرآن الكريم مع الثواب الجزيل والأجر العميم.

وسأبين هنا باختصار إحدى تجليات العناية الربانية من خلال الظلم الذي يقترفه البشر:

كنت أُكرر وأقول في العشرين من عمري: سأنـزوي في أُخريات حياتي في مغارة، مبتعداً عن الحياة الاجتماعية كما كان ينـزوي الزهاد في الجبال، وكذلك قررت عندما كنت أسيراً في شمال شرقي روسيا في الحرب العالمية الأولى أن أقضي بقية أيام عمري في الكهوف والمغارات منسلاً عن الحياة الاجتماعية والسياسية. كفاني تدخلاً.. فتجلّت العناية الربانية وعدالةُ القدر -رحمةً بشيخوختي- وحوّلتا تلك المغارات التي كنت أتصورها إلى ما هو خيرٌ وأفضل منها، وبما يفوق كثيراً رغبتي وقراري.. حوّلتاها إلى سجون انـزواء وانفراد، ومنحتا لي «مدارس

يوسفية» بدلاً عن تلك المغارات في الجبال للمنـزوين وأهل الرياضة الروحية، لئلا تضيع أوقاتُنا سدىً، حيث إن في تلك المغارات فوائدَ أخرويةً زيادة عما فيها من أداء مهمة الجهاد لأجل القرآن والحقائق الإيمانية. حتى عزمت -بعد الإفراج عن إخواني وتبرئتهم- أن أُظهر شيئاً يدينني ويبقيني في زنـزانة السجن مع «خسرو وفيضي» وأمثالِهم من المجاهدين المخلصين المتفرغين للخدمة لأتخذها حُجةً تغنيني عن الاختلاط بالناس ولئلا أضيّع شيئاً من وقتي فيما لا يعني من الأمور وبالتصنع وحب الظهور، حيث البقاء في ردهات السجن أفضل، إلّا أن القدر الإلهي وما قسم الله لنا من رزق قد ساقني إلى محل انـزواء آخر. فحسب مضمون: (**الخير فيما اختاره الله**) وبسر الآية الكريمة: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ ﴾ (البقرة: ٢١٦) . ورحمةً بشيخوختي، ولأجل أن نسعى بشوق أكثر في الخدمة الإيمانية، فقد وُهبتْ لنا مهمةٌ، وأوكلت إلينا وظيفة، هي خارج إرادتنا وطوقنا في هذه «المدرسة اليوسفية الثالثة».

نعم، إنَّ في تحويل العناية الإلهية مغاراتِ عهد الشباب الذي لم يكن له أعداء شرسون، إلى ردهات السجن المنفرد، ثلاث حِكم وثلاث فوائد مهمة لخدمة النور:

الحكمة والفائدة الأولى

اجتماع طلاب النور في هذا الوقت دون أن يتضرر منهم أحد إنما يكون في «المدرسة اليوسفية». حيث إنَّ اللقاء فيما بينهم في الخارج قد يثير الشبهة ويحتاج إلى مصاريف، إذ كان بعضهم ينفق حوالي خمسين ليرة لأجل لقائي مدة لا تزيد عن عشرين دقيقة، أو كان يرجع دون أن يتمكن من مقابلتي. لذا فأنا أتحمل ضيق السجن بل أتقبله مسروراً لأجل اللقاء عن قرب مع بعض إخوتي الأوفياء، فالسجن بالنسبة لنا إذن نعمة ورحمة.

الحكمة والفائدة الثانية

إنه لابدّ من الإعلان والتبليغ في كل جهة في وقتنا هذا عن خدمة الإيمان برسائل النور، ولفت أنظار المحتاجين إليها في كل مكان. فدخولنا السجون يلفت الأنظار إلى الرسائل، فيكون إذن بمثابة إعلان عنها، فيجدها أعتى المعاندين والمحتاجين فتكسر بها شوكةَ عنادهم وينقذون بها إيمانهم، وينجون من المهالك، وتتوسع دائرة مدارس النور.

الحكمة والفائدة الثالثة

إنَّ طلاب النور الذين دخلوا السجن يتعرف كلٌّ منهم على أحوال الآخر، ويتعلم كل منهم من الآخر السجايا الحميدة والإخلاص والتضحية، فلا يبالون بعدئذٍ بالمنافع الدنيوية في الخدمة النورية.

نعم إنهم يوفقون بالظفر بالإخلاص الكامل لما يجدون ويرون من أمارات كثيرة تدل على أن كل ضيق ومشقة في «المدرسة اليوسفية» لها عشرةُ أضعافها من الفوائد المعنوية والمادية، ومن النتائج اللطيفة، ومن الخدمات الواسعة الخالصة للإيمان، بل قد تصل إلى مائة ضعف، وعندئذٍ لا يتنازلون لكسب المنافع الخاصة الجزئية.

وبالنسبة لي فإن لأماكن الانـزواء والمعتكفات هذه لطافةً حزينة إلّا أنها لذيذة وهي كما يأتي:

إني أجد هنا من الأوضاع والأحوال ما كنت أجده في أيام شبابي في بلدتي وفي مدرستي القديمة، حيث كان طعام قسم من طلاب المدارس -حسب عادة الولايات الشرقية- يأتيهم من خارج المدرسة وقسم آخر يطبخونه فيما بينهم في المدرسة، فكلما نظرت هنا -مع حالات أخرى متشابهة- تذكرت تلك الحالة أيام شبابي من خلال حسرة لذيذة فأذهب خيالاً إلى تلك الأيام، وأنسى حالات شيخوختي.

ذيل اللمعة السادسة والعشرين

هو المكتوب الحادي والعشرون، نشر ضمن «المكتوبات».

اللمعة السابعة والعشرون

هي دفاع الأستاذ النورسي أمام محكمة أسكي شهر، ينشر في مجموعة «سيرة ذاتية»

اللمعة الثامنة والعشرون

هذه اللمعة عبارة عن فقرات مختصرة كتبتُها لبعث السلوان إلى قلوب إخواني الذين كانوا معي، حينما كنت ممنوعاً عن التكلم والاختلاط مع الآخرين في سجن «أسكي شهر».

محاورة لطيفة

مع سليمان رشدي(*) الذي هو رمز الوفاء والإخلاص، المتميز بنقاء السريرة.

عندما يقترب زمن تسريح الذباب من مهمة الحياة وذلك في موسم الخريف، يستعمل بعض من يقصد نفعه بالذات مبيداً لمكافحة الذباب ليحولوا دون أن يمسهم شيء من الإزعاج. فمسَّ ذلك رقة قلبي وأثّر فيَّ كثيراً. علماً أن الذباب[1] قد تكاثر أكثر من قبل على الرغم من استعمال المبيد القاتل. وكان في غرفتي في السجن حبلٌ لنشر الملابس لأجل تنشيفها فكانت تلك الطويرات الصغيرة جداً تتراصف على ذلك الحبل مساءً تراصفاً جميلاً منتظماً. فقلت لرشدي: لا تتعرض لهذه الطويرات الصغيرة، انشر الملابس في مكان آخر. فردّ عليّ بجدّ: إننا بحاجة إلى هذا الحبل، فلتجد الذبان لها موضعاً آخر!

وعلى كل حال، ولمناسبة المحاورة اللطيفة التي جرت بيننا انفتح بابُ البحث عن الذباب والنحل وما شابههما من الحشرات الكثيرة، فدار الكلام حولها.

فقلت له:

---

(١) الذباب: يطلق على كل حشرة طائرة (ج) أذبة وذبان.

إنَّ مثل هذه الأنواع من الحيوانات التي تتكاثر نسَخُها بكثرة هائلة، لها وظائفُ مهمة. فالكتاب يُطبع طبعات كثيرة نظراً لقيمته. بمعنى أن جنس الذباب له وظيفةٌ مهمة وقيمة كبيرة حيث يُكثر الفاطرُ الحكيم من نسخ تلك الرسائل القَدَرية وكلمات القدرة الإلهية.

نعم، إنَّ هذه الطائفة من الذباب التي تنظّف وجهَها وعينَيها وجناحيها كل حين، وكأنها تتوضأ، تشكّل موضوعاً مهماً للآية الكريمة: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ (الحج:٧٣).

بمعنى أن الأسباب وما يدّعيه أهلُ الضلالة من ألوهية من دون الله لو اجتمعت على خلق ذبابة واحدة لعجَزت. أي إن خلقَ الذباب معجزةٌ ربانية وآيةٌ تكوينية عظيمة، بحيث لو اجتمعت الأسباب كلها لما خلقت مثلَ تلك الآية الربانية ولا استطاعت أن تعارضها ولا تقلدها قطعاً. فتلك المعجزة قهرت نمرود، ودافعتْ عن حكمة خلقها دفاعاً فاق ألفَ اعتراض، لمّا شكى موسى عليه السلام من ازعاجاتها قائلاً: يا رب لِمَ أكثرتَ من نسل هذه المخلوقات المزعجة.. أُجيب إلهاماً: لقد اعترضتَ مرة على الذبان، وهي كثيراً ما تسأل: يا رب إن هذا الإنسان الكبير ذا الرأس الضخم لا يذكرك إلّا بلسان واحد بل يغفل أحياناً عن ذكرك، فلو خلقتَ من رأسه فحسب مخلوقاتٍ من أمثالنا لكانت ألوفُ المخلوقات ذاكرةً لك.

وفضلاً عن هذا فإن الذباب يرعى النظافةَ أيمّا رعاية، إذ ينظف وجهَه وعينيه باستمرار ويمسح على أجنحته دوماً ويؤدي كل ذلك كمن يتوضأ. إذن لهذه الطائفة وظائفُ مهمة وجليلة بلا شك، إلّا أن نظرَ الحكمة البشرية وعلمَها قاصرٌ لم يحط بعدُ بتلك الوظائف.

نعم، إنَّ الله سبحانه وتعالى قد خلق قسماً من الحيوانات مفترسةً آكلة للحوم، وكأنها موظفات صحيّات ومأمورات للتنظيف تؤدي وظيفتها في غاية الإتقان، بتنظيفها وجهَ البحر وجمعِها لجثث ملايين الحيوانات البحرية يومياً، وإنقاذ وجه البحر من المناظر القذرة.[1] فإن لم

(١) نعم، إن سمكة واحدة تضع ألوفاً من البويضات، فتخرج منها ألوفاً من الصغار وأحياناً تخرج من مبيضها مليوناً من البويضات، فتكون مواليد الأسماك متناسبة مع وفياتها، كي يمكن أن تحافظ على التوازن في البحر. ومن ألطاف تجليات الرحمن الإلهية أن تتفاوت أجسام الوالدات تفاوتاً كبيراً مع أجسام صغارها، فلا تستطيع أن تقود صغارها أينما ذهبت، حيث لا يمكنها الدخول في أماكن تدخلها الصغار، فيولّد الحكيم الرحيم سبحانه قائداً صغيراً من بين الصغيرات ويسخّرها في وظيفة الوالدات .(المؤلف).

توف هذه الحيوانات بوظيفتها الصحية حق الوفاء وعلى أجمل وجه لما تلألأ وجهُ البحر كالمرآة الساطعة، ولكان البحر يورث الكآبة والحزن.

وكذا فإنه سبحانه قد خلق حيوانات مفترسة وطيوراً جارحة بمثابة مأمورات للنظافة والأمور الصحية، تقوم بتنظيف وجه الأرض يومياً من جثث مليارات من الحيوانات البرية والطيور وإنقاذها من التعفن، وإنقاذ ذوي الحياة من ذلك المنظر الكئيب الأليم. حيث تستطيع تلك الحيوانات أن تتحسس مواضعَ تلك الجثث الخفية والبعيدة من مسافة تبلغ حوالي ست ساعات، وذلك بسَوق من إلهام رباني، فتنطلق إلى تلك المواضع وتزيل الجثث. فلولا هذه الموظفات الصحيات البرية وهي تؤدي وظائفها على أفضل وجه لكان وجهُ الأرض في حالة يرثى لها.

نعم، إنَّ الرزق الحلال للحيوانات الوحشية المفترسة هو لحوم الحيوانات الميتة، وحرام عليها لحوم الحيوانات الحية، بل لها جزاء إن أكلت منها. فالحديث الشريف: **(حتى يقتصّ الجمّاءُ من القَرناء)**[1] يدل على أن الحيوانات التي تبقى أرواحُها رغم فناء أجسادِها لها جزاءٌ وثواب يناسبها في دار البقاء. فعلى هذا يصح القول: إن لحومَ الحيوانات الحية حرام على المفترسات.

وكذا النمل موظف بجمع شتات القطع الصغيرة للنعم الإلهية وصيانتها من التلف والامتهان لئلا تُداس تحت الأقدام، فضلاً عن جمعه جثث الحيوانات الصغيرة وكأنه موظف صحي.

وكذا الذبان لها وظائف -أهم مما ذكر- فهذه الحشرات مأمورة بتنظيف ما لا يراه الإنسان من جراثيم مرضية وتطهير المواد السامة. فهي ليست ناقلة للجراثيم، بل على العكس، هي تُهلك تلك الجراثيم المضرة وتمحيها بمصّها لها وأكلها، وتحيل تلك المواد السامة إلى مواد أخرى. فتحُول دون سريان كثير من الأمراض، وتُوقِفها عند حدّها.

والدليل على أن الذبان موظفات صحيات، ومأمورات تنظيف وكيمياويات حاذقات، وأن لوجودها حكمة إلهية واسعة.. هو كثرتها المتناهية، إذ المواد النافعة والثمينة يكثّر منها.

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لتؤدُّن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقادَ للشاة الجلحاء من الشاة القرناء» رواه مسلم برقم ٢٥٨٢ والترمذي ٢٥٣٥ (تحفة الأحوذي) (ومعنى الجلحاء: أي التي لا قرن لها).

أيها الإنسان الذي يقصد نفع ذاته وحده!

انظر إلى فائدة واحدة للذباب تعود إليك فحسب مما سوى فوائده ومنافعه للحياة. وتخلّ عن عدائك له. فكما أنه يورثك الأُنس والسلوان في الاغتراب والوحدة والانفراد، كذلك يوقظك من نوم الغفلة وغمرات تشتت الفكر، فيذكّرك بوظائف إنسانية كالحركة والنشاط والنظافة الدائمة بوضوئه وصلاته وتنظيفه وجهه وعيونه، كما هو مشاهد.

وكذا النحل -وهي صنف من الذباب- تُطعمك العسلَ الذي هو ألذّ غذاء وألطفه، وهي الملهمة بالوحي الإلهي كما نص عليه القرآن الكريم. فعليك أن توليها حبَّك.

إنَّ العداء للذباب لا معنى له، بل هو ظلم وإجحاف بحق تلك الحيوانات التي تعاون الإنسان وتسعى لصداقته وتتحمل أذاه. وإنما يجوز مكافحة المضرة منها فحسب، وذلك دفعاً لأضرارها، كدفع ضرر الذئاب عن الأغنام.

فيا ترى أليس من المحتمل أن يكون البعوضُ والبرغوث المسلطان علينا حجّامات فطرية، أي موظفات بمصّ الدم الفاسد الجاري في الأوردة وقت الحر وزيادة الدم أكثر من حاجة الجسم؟.. سبحان من تحيّر في صُنعه العقول..

كنت يوماً في جدال مع نفسي، إذ اغترّت بما أنعم الله عليها، وتوهمت أنها مالكةٌ لها، وبدأت بالفخر والمدح.

فقلت لها: إنكِ لا تملكين شيئاً بل هو أمانة. فتركت الغرورَ والفخر. ولكنها تكاسلت قائلة: لِمَ أرعى ما ليس لي؟ وماذا عليّ لو ضاع؟.

وفجأة رأيت ذبابةً وقفت على يدي وبدأت بتنظيف وجهها وعينها وجناحيها وهي أمانات لديها تنظيفاً على أجمل ما يكون، مثلما ينظف الجندي سلاحه وملابسه التي سلّمتها له الدولةُ، فقلت لنفسي: انظري إلى هذه الذبابة، فنظرتْ وتعلّمت منها درساً بليغاً. وهكذا أصبح الذبابُ أستاذاً لنفسي الكسلانة.

إنَّ فضلات الذباب لا ضرر لها من حيث الطب، بل قد تكون شراباً حلواً (وغذاءً لحشرات أخرى)[1] إذ ليس من المستبعد عن الحكمة الإلهية، بل من شأنها أن تجعل من الذباب

(١) كما في حشرة المن.

مكائن تصفية وأجهزة استحالة، نظراً لأكلها ألوفَ الأصناف من مواد هي منشأ الجراثيم والسموم.

نعم إنَّ من طوائف الذباب -مما سوى النحل- طائفةٌ تأكل المواد المتعفنة المختلفة[١] فتقطر دوماً قطرات من مواد حلوة بدلاً من فضلاتها -كنزول المنّ على أوراق الأشجار- فتثبت أنها مكائن استحالة.

وهكذا يتبين أمام الأنظار مدى عظمة أمة الذباب الصغير هذا، ومدى عظمة وظائفها. وكأنها تقول بلسان الحال: لا تنظروا إلى صغر أجسامنا بل إلى عِظَم وظائفنا. وقولوا: سبحان الله.

---

(١) إن طائفة صغيرة جداً من الذباب تُخلق على هيئة كتلة سوداء، على أغصان اللوز والمشمش، في أواخر الربيع، وتبقى ملتصقة بالغصن، وتسيل منها بدلاً من الفضلات، قطرات شبيهة بالعسل فتتجمع حولها أنواع الذباب الأخرى وتمصها. وطائفة أخرى من الذباب تستخدم في تلقيح بعض أزاهير النباتات والأشجار المثمرة، كالتين. وطائفة أخرى للذباب، هي اليراع، المتلمعة ليلاً، وهي أعجوبة تلفت الأنظار وتدعو الى التدبر والتأمل، كما أن قسماً منها تتلمع لمعان الذهب. و لا ينبغي أن ننسى البعوض والزنابير المجندات الحاملات للرماح. فلو لم تكن زمام هذه الذبان بيد الخالق الرحيم، وأغارت على الأحياء والإنسان لأفنت نوع الإنسان كما قتلت نمرود، ولفسّرت لنا المعنى الإشاري للآية الكريمة ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ . ولهذا فان جنس الذباب الذي يضم مائة من الطوائف المالكة للمزايا والخواص المذكورة، لها أهميتها التي أهّلتها لتكون موضوع الآية الكريمة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ﴾ ..(المؤلف).

«الحروف القرآنية» (١)

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (يس:٨٢)

يفهم من إشارة هذه الآية الكريمة: أنَّ الخلق يتم بالأمر ، وأن خزائن القدرة الإلهية بين الكاف والنون. ولهذا السر الدقيق وجوهٌ كثيرة، وقد ذُكر بعضُها في الرسائل.

أما الآن فنحاول أن نفهم هذا السر وفق مثالٍ مادي محسوس لأجل تقريب الأحاديث النبوية الواردة حول خواص الحروف القرآنية ومزاياها وتأثيراتها المادية -ولاسيما الحروف المقطّعة في أوائل السور- إلى نظر هذا العصر المادي، وذلك:

إنَّ للخالق الجليل ذي العرش العظيم سبحانه وتعالى أربعةَ عروشٍ إلهية، هي محاورُ لتدبير أمور المخلوقات الموجودة على كرة الأرض، التي هي بمثابة مركز معنوي للعالم وقلبِ الكائنات وقبلتِها.

أحدها: هو عرش الحفظ والحياة وهو التراب، المُظهِر لتجلي اسم الحفيظ والمحيي.

ثانيها: هو عرش الفضل والرحمة وهو عنصر الماء.

ثالثها: هو عرش العلم والحكمة وهو عنصر النور.

رابعها: هو عرش الأمر والإرادة وهو عنصر الهواء.

إننا نشاهد بأبصارنا ظهورَ المعادن التي تدور عليها حاجات غير محدودة حيوانية وإنسانية، وظهورَ ما لا يحد من النباتات المختلفة، من تراب بسيط. كما نشاهد ظهور ما لا يحد من معجزات الصنعة الإلهية ولاسيما من نطف الحيوانات التي هي سائلٌ شبيه بالماء، ظهورَها في الأحياء المختلفة من الماء .. أي ظهور تلك الكثرة الكاثرة والأنواع المختلفة من عنصر بسيط

(١) هذه العناوين الصغيرة وضعت من قبلنا.

(التراب، الماء)، وبانتظام تام وكتابتها على صحيفة بسيطة على صورة نقوش بديعة لا تحد، مما يدلنا على أن «النور والهواء» أيضاً -كهذين العرشين- مظاهر لمعجزات عجيبة لقلم عِلم المصوّر الأزلي العليم الجليل وقلمِ إرادته وأمره كالعرشين السابقين، رغم بساطتهما.

سندع حالياً عنصر النور. ولمناسبة مسألتنا نحاول كشف الحجاب عما يستر عجائبَ الأمر والإرادة وغرائبهما في عنصر الهواء الذي يمثّل عرش الأمر والإرادة بالنسبة إلى كرة الأرض. وذلك:

كما أننا نزرع الحروف والكلمات بالهواء الذي في أفواهنا، وإذا بها تتسنبل وتثمر، أي أن الكلمة تُصبح حبةً في آن واحد كأنها بلا زمان وتتسنبل في الهواء الخارجي، هواءً حاوياً على ما لا يحد من الكلمة نفسها، صغيرها وكبيرها. كذلك ننظر إلى عنصر الهواء فنرى أنه مطيعٌ ومنقاد لأمر ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ ومسخَّر له إلى حدّ عظيم حتى كأن كلَّ ذرة من ذراته جنديٌّ لجيش منظم متأهب لتلقي الأمر في كل آن، ويُظهر الطاعةَ والامتثال للإرادة المتجلية في أمر «كن» بلا زمان، سواءً في ذلك أبعدُ الذرات وأقربُها.

مثلاً: إنَّ الخطاب الذي يلقيه إنسان من الإذاعة يُسمَع في كل مكان في الأرض في الوقت نفسه وكأنه بلا زمان -بشرط وجود الراديوات- مما يبين مدى امتثال كل ذرة من ذرات الهواء لتجلي أمر ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ امتثالاً كاملاً.

فالأمر كذلك في الحروف التي هي غير مستقرة في الهواء، يمكن أن تصبح بكيفياتها القدسية مظاهرَ لتأثيرات خارجية ولخواصَّ مادية كثيرة حسب سر الامتثال هذا. فتشاهَد فيها خاصيةٌ، كأنها تقلب المعنويات إلى ماديات وتحوّل الغيبَ إلى شهادة.

وهكذا بمثل هذه الأمارة، فإن أمارات أخرى لا تحد تُظهِر لنا أن الحروفَ التي هي موجودات هوائية، ولاسيما الحروف المقدسة والحروف القرآنية وبخاصة حروف الشفرات الإلهية وهي المقطعات التي في أوائل السور، تسمع الأوامرَ وتمتثلها امتثالاً في غاية الانتظام والشعور التام والحساسية الكاملة وبلا حاجة إلى زمان. فلا شك أن هذا يحمل المرءَ على التسليم بالخواص المادية والمزايا الخارقة المرويّة للحروف التي في ذرات الهواء ومن حيث القدسية، والتي ينعكس فيها تجلي الإرادة الأزلية وجلوةٌ من أمر ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ .

وهكذا فإن تعابير القرآن الكريم التي تبين أحياناً أثرَ القدرة كأنها صادرةٌ من صفة الإرادة وصفة الكلام مبنيٌّ على هذا السر. فتلك التعابير القرآنية تدل على أن الموجودات تُخلَق في منتهى السرعة ومسخّرةٌ ومنقادة انقياداً تاماً للأوامر حتى لكأنَّ الأمرَ يُنفّذ حُكمَه كالقدرة. أي إن الحروف الآتية من الأمر التكويني تؤثر في وجود الأشياء وكأنها قوةٌ مادية، ويَظهر الأمر التكويني كأنه القدرةُ نفسها والإرادةُ نفسها. نعم، إنَّ هذه الموجودات الخفية التي وجودُها المادي هوائي وهي في غاية الخفاء، حتى كأنها موجودات نصف معنوية ونصف مادية، تشاهَد فيها آثارُ الأمر والإرادة بحيث يشبه الأمرُ التكويني القدرة بعينها، بل يصبح القدرةَ نفسَها.

وهكذا لأجل جلب الأنظار والحث على التدبّر في موجودات كأنها برزخ بين المعنويات والماديات يقول القرآن الكريم: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ . لذا فمن المعقول جداً أن تكون الحروف المقطّعة التي في أوائل السور أمثال: ﴿الٓمٓ﴾ ، ﴿طسٓ﴾ ، ﴿حمٓ﴾ ، وماشابهها من الشفرات الإلهية، عُقَداً وأزراراً حرفية تستطيع أن تهزّ أوتار العلاقات الدقيقة الخفية بين ذرات الهواء بلا زمان، بل من شأن تلك الحروف ومن وظائفها أن تؤدي مخابرات قدسية -كاللاسلكي المعنوي- من الأرض إلى العرش.

نعم، إنَّ كل ذرة بل كل ذرات الهواء المنتشرة في أقطار العالم تمتثل الأوامر وتنقلها عبر اللاسلكي والهاتف والبرقية، فضلاً عن نقلها سائر السيالات اللطيفة كالكهرباء. فلقد شاهدتُ بالحدس القطعي بل بالمشاهدة الحقة إحدى وظائفها -مما سوى المذكورة- في أزاهير اللوز، وهي: أن الأشجار المنتشرة في أقطار الأرض كأنها جيش منظم يستلم الأمر نفسه في آن واحد. فبمجرد هبوب نسيم رقيق تستلم الأمر من تلك الذرات، وتظهر وضعاً معيناً. مما أورثتني تلك الحالة يقيناً تاماً وقناعة كاملة. بأن قيام الهواء في سطح الأرض كخادم أمين نشط فعال، يخدم ضيوفَ الرحمن الرحيم الذين يسكنون سطح الأرض، يبلّغ في الوقت نفسه أوامر الرحمن بذراته الشبيهة باللاسلكي إلى النباتات والحيوانات، بحيث تكون ذراتُه كلُّها في حكم خدّام الأمر وشبيهة بلاقطات اللاسلكي والهاتف. وفي الوقت نفسه يؤدي بأمر «كن» مهمات جليلة ووظائف منتظمة كثيرة، من أمثال تشكيل الحروف في الفم بعد خروجه منه، وتهوية الأنفاس واسترواح النفوس، أي بعد أدائه وظيفة تنقية الدم الباعث على الحياة، وإشعال

الحرارة الغريزية التي هي وقود الحياة، ثم يخرج الهواء من الفم ويكون مبعثَ نطق الحروف وانطلاقها.. وهكذا تجري وظائفُ كثيرة بأمر ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ .

فبناءً على خاصية الهواء هذه، فإن الحروف التي هي موجودات هوائية كلما اكتسبت قداسةً، أي اتخذت أوضاعَ البث والالتقاط يصبح لها حظٌ وافر من تلك الخاصية.

لذا فلكون حروف القرآن، في حُكم العُقد، وحروف المقطعات في حكم المركز لرؤوس تلك المناسبات الخفية، وفي حكم عقَدها وأزرارها الحساسة، يكون وجودُها الهوائي مالكاً لهذه الخاصية، كما أن وجودَها الذهني، بل وجودُها النقشي أيضاً، لهما خاصية من تلك الخاصية.

أي يمكن بقراءة تلك الحروف وبكتابتها كسبُ الشفاء -كالدواء المادي- والحصول على مقاصد أخرى.

سعيد النورسي

«الكلمات الإلهية»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ (الكهف: ١٠٩)

إنَّ هذه الآية اللطيفة بحرٌ واسع رفيع زاخرٌ باللآلئ والدرر، ينبغي لكتابة جواهرها النفيسة كتابةَ مجلد ضخم، لذا نعلّقها إلى وقت آخر بمشيئة الله. ولقد تراءى لي من بعيد شعاعٌ صدر من نكتة من نكاتها الدقيقة، فلَفتَ نظر فكري إليه بعد أذكار الصلاة التي أعدّها أفضلَ وقت لخطور الحقائق. إلّا أنني لم أتمكن من تسجيل تلك النكتة في حينه، فتباعد ذلك الشعاعُ كلما مرّ الزمان، فنذكر هنا بضعَ كلماتٍ لتخط حوله دوائر لاقتناص جلوة منها قبل أن يغيب كلياً ويتوارى عن الأنظار.

الكلمة الأولى:

إنَّ الكلام الأزلي صفة إلهية، كالعلم والقدرة، لذا فهو غيرُ محدد وغير متناهٍ، والذي لا نهاية له لا ينفد ولو كان البحر مداداً له.

الكلمة الثانية:

إنَّ أَظهرَ شيء للإشعار بوجود شخص ما هو تكلُّمَه، فهو أَقوى أثرٍ للدلالة عليه؛ إذ سماعُ كلام صادر من شخص ما، يثبت وجودَه إثباتاً يفوق ألف دليل، بل بدرجة الشهود. لذا فإن هذه الآية تقول بمعناها الإشاري:

لو كان البحر مداداً لعدّ الكلام الإلهي الدالّ على وجوده سبحانه وتعالى وكانت الأشجار أقلاماً تكتب ذلك العدد، ما نفد كلامُ الله. بمعنى أن ما يدل على الأحد الصمد -دلالة الكلام على المتكلم- لا يعدّ ولا يحصى ولا حدّ له، حتى لو كانت البحار مداداً له.

الكلمة الثالثة:

لما كان القرآن الكريم يرشد جميع الطبقات البشرية إلى حقائق الإيمان، يكرر ظاهراً الحقيقة الواحدة بمقتضى تقريرها في القلوب وتثبيتها في أفكار العامة وإقناعهم.

لذا فهذه الآية الكريمة جوابٌ ضمني لأهل العلم وعلماء اليهود من أهل الكتاب في ذلك الوقت، على اعتراضهم المُجحف الظالم ظلماً بيّناً على أُمية الرسول العظيم ﷺ وعلى قلة علمه.

فالآية تقول: إنَّ تكرار المسائل الجليلة التي لكل منها قيمةُ ألف مسألة وتتضمن ألوفاً من الحقائق -كما هي في مسائل الأركان الإيمانية- تكراراً معجزاً وبأساليب شتى، وإن تكرار حقيقة واحدة وهي تتضمن كثيراً جداً من النتائج من حيث الفوائد المتنوعة، لإقرارها في قلوب الناس كافة ولاسيما العوام.. هذا التكرار الذي تقتضيه حِكمٌ كثيرة -كالتقرير والإقناع والتحقيق- لا يعدّ حصراً للكلام ولا هو نابع من قصور الذهن ولا من قلة البضاعة وقصر الباع، بل لو كانت البحارُ مداداً، وذوو الشعور كتّاباً والنباتات أقلاماً، بل حتى الذرات لو كانت رؤوسَ أقلام وقامت كلُّها بعدّ كلمات الكلام الإلهي الأزلي، ما نفدت أيضاً، لأنَّ كل ما ذُكِر من أمور هي متناهية، وكلماتُ الله غير متناهية، وهي منبع القرآن الكريم المتوجه إلى عالم الشهادة من عالم الغيب مخاطباً الجن والإنس والملائكة والروحانيين، فيرنّ في أسماع كل فرد منهم. ولا غرو فهو النازل من خزينة الكلام الإلهي الذي لا ينفد.

الكلمة الرابعة:

من المعلوم أنَّ صدور كلامٍ مما لا يُتوقع منه الكلام، يمنح الكلامَ أهمية ويدفع إلى سماعه، ولاسيما الأصداء الشبيهة بالكلام، الصادرة من الأجسام الضخمة كالسحاب وجوّ السماء، فإنها تحمل كلَّ أحدٍ على سماعها باهتمام بالغ، وبخاصة النغمات التي يطلقها جهازٌ ضخم ضخامةَ الجبل فإنها تجلب الأسماع إليها أكثر. ولاسيما الصدى السماوي القرآني الذي

يبث -بالراديو- فترنّ به السماوات العلى حتى تسمع هامة الكرة الأرضية برمّتها. فتصبح ذراتُ الهواء بمثابة لاقطات تلك الحروف القرآنية ومراكز بثّها. فتكون الذراتُ بمثابة المرايا العاكسة للأنوار والآذان الصاغية للأصداء، والألسنة الذاكرة لها، وكأنها نهايات إبر لجهاز حاكٍ عظيم تخرج الأصوات.

فالآية تبين رمزاً مدى أهمية الحروف القرآنية ومدى قيمتِها ومزاياها وكونها نابضةً بالحياة، فتقول بمعناها الإشاري: إنَّ القرآن الكريم الذي هو كلام الله، حيٌّ يتدفق بالحيوية، رفيعٌ سام إلى حدّ لا ينفد عدد الأسماع التي تنصت إليه ولا عدد الكلمات المقدسة التي تدخل تلك الأسماع.. لا تنفد تلك الأعداد حتى لو كانت البحار مداداً والملائكة كتّاباً لها والذرات نقاطاً والنباتات والشعور أقلاماً.

نعم، لا تنفد، لأنَّ الله سبحانه الذي يُكثر في الهواء عدد ما لا روحَ فيه ولا حياة من كلامٍ الإنسان الضعيف، إلى الملايين فكيف بعدد كل كلمة من كلام رب السماوات والأرض الذي لا شريك له والمتوجّه إلى جميع ذوي الشعور في السماوات والأرضين.

الكلمة الخامسة:

عبارة عن حرفين:

الحرف الأول: كما أن لصفة الكلام كلماتٍ، كذلك لصفة القدرة كلماتٍ مجسمة. ولصفة العلم كلماتَ قَدَرية حكيمة وهي الموجودات ولاسيما الأحياء ولاسيما المخلوقات الصغيرة، فكلٌّ منها كلمةٌ ربانية بحيث تشير إلى المتكلم الأزلي إشارةً أقوى من الكلام. فهذه الآية الكريمة تومئ إلى هذا المعنى: إنَّ إحصاء عدد تلك المخلوقات لا ينفد حتى لو كانت البحارُ مداداً له.

الحرف الثاني: إنَّ جميع أنواع الإلهام الآتي إلى الملائكة والإنسان وحتى إلى الحيوانات، نوعٌ من كلام إلهي. فلا شك أنَّ كلمات هذا الكلام غير متناهية. فإن الآية الكريمة تخبرنا عن مدى كثرةٍ ولا نهائية عدد كلمات الإلهام والأمر الإلهي الذي يستلهمه دوماً ما لا يعدّ ولا يحصى من جنود رب السماوات والأرض.

والعلم عند الله .. ولا يعلم الغيب إلّا الله

«إنزال الحديد»

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ (الحديد:٢٥)

جواب مهم جداً ومختصر عن سؤال يخصّ هذه الآية الكريمة، طرحَه رجل له أهميته وعلى علم واسع، وألزم به بعضَ العلماء.

سؤال:

يقال: إنَّ الحديد يخرج من الأرض ولا ينـزل من السماء حتى يقال: «أنزلنا». فلِمَ لم يقل القرآن الكريم: «أخرجنا» بدلاً عن «أنزلنا» الذي لا يوافق الواقع ظاهراً؟

الجواب: إنَّ القرآن الكريم قد قال كلمة «أنزلنا» لأجل التنبيه إلى جهة النعمة العظيمة التي ينطوي عليها الحديد والتي لها أهميتُها في الحياة. فالقرآن الكريم لا يلفت الأنظار إلى مادة الحديد نفسِها ليقول «أخرجنا» بل يقول «أنزلنا» للتنبيه إلى النعمة العظيمة التي في الحديد وإلى مدى حاجة البشر إليه. وحيث إنَّ جهةَ النعمة لا تخرج من الأسفل إلى الأعلى بل تأتي من خزينة الرحمة، وخزينةُ الرحمة بلا شك عاليةٌ وفي مرتبة رفيعة معنىً، فلابد أن النعمة تنـزل من الأعلى إلى الأسفل، وأن مرتبة البشر المحتاج إليها في الأسفل، وأن الإنعامَ هو فوق الحاجة. ولهذا فالتعبير الحق الصائب لورود النعمة من جهة الرحمة إسعافاً لحاجة البشر هو: «أنزلنا» وليس «أخرجنا».

ولما كان الإخراجُ التدريجي يتم بيد البشر، فإن كلمة «الإخراج» لا يُشعر جهة النعمة ولا يجعلها محسوسةً بأنظار الغافلين.

نعم لو كانت مادة الحديد هي المرادة، فالتعبير يكون «الإخراج» باعتبار المكان المادي. ولكن صفات الحديد، والنعمة التي هي المعنى المقصود هنا، معنويتان؛ لذا لا يتوجه هذا المعنى إلى المكان المادي، بل إلى المرتبة المعنوية.

فالنعمة الآتية من خزينة الرحمة التي هي إحدى تجليات مراتب سمو الرحمن ورفعته غير المتناهية تُرسل من أعلى مقام إلى أسفل مرتبة بلا شك؛ لذا فالتعبير الحق لهذا هو: «أنزلنا». والقرآن الكريم ينبّه البشر بهذا التعبير إلى أن الحديد نعمة إلهية عظيمة. نعم، إنَّ الحديد هو منشأُ جميع الصناعات البشرية ومنبعُ جميع رقيّها ومحور قوتها، فلأجل التذكير بهذه النعمة العظمى يذكر القرآن بكل عظمة وهيبة وفي مقام الامتنان والإنعام قائلاً: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ كما يعبّر عن أعظم معجزة لسيدنا داود عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ (سبأ:١٠). أي أنه يبين تليين الحديد معجزة عظيمة ونعمة عظيمة لنبي عظيم.

ثانياً: إن «الأعلى» و «الأسفل» تعبيران نسبيان، فيكون الأعلى والأسفل بالنسبة إلى مركز الكرة الأرضية. حتى إنَّ الذي هو أسفل بالنسبة إلينا هو الأعلى بالنسبة لقارة أمريكا. بمعنى أن المواد الآتية من المركز إلى سطح الأرض تتغير أوضاعُها بالنسبة إلى مَن هم على سطح الأرض.

فالقرآن المعجز البيان يقول بلسان الإعجاز: إنَّ للحديد منافعَ كثيرة وفوائد واسعة، بحيث إنه ليس مادة اعتيادية تخرج من مخزن الأرض التي هي مسكن الإنسان، وليس هو معدناً فطرياً يستعمل في الحاجات كيفما اتفق. بل هو نعمةٌ عظيمة أنزلَها خالق الكون بصفته المهيبة «رب السماوات والأرض» أنزلها من خزينة الرحمة وهيأها في المصنع العظيم للكون، ليكون مداراً لحاجات سكنة الأرض. فعبّر عنه بالإنزال قائلاً ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ لأجل بيان المنافع العامة التي ينطوي عليها الحديد وفوائده الشاملة، كما للحركة والحرارة والضياء الآتي من السماء فوائد. تلك التي ترسل من مصنع الكون. فالحديد لا يخرج من المخازن الضيقة لكرة الأرض، بل هو في خزينة الرحمة التي هي في قصر الكون العظيم ثم أُرسل إلى الأرض ووضع في مخزنها كيما يمكن استخراجه من ذلك المخزن حسب حاجة العصور تدريجياً.

فلا يريد القرآن الكريم أن يبين استخراج الحديد هذا تدريجياً من هذا المخزن الصغير، الأرض. بل يريد أن يبين أن تلك النعمة العظمى قد أنزلت من الخزينة الكبرى للكون مع كرة الأرض، وذلك لإظهار أن الحديد أكثر ضرورة لخزينة الأرض. بحيث إن الخالق الجليل عندما فصل الأرضَ عن الشمس أنزل معها الحديد ليحقق أكثر حاجات البشر ويضمنها.

فالقرآن الحكيم يقول بإعجاز، ما معناه: أنجزوا بهذا الحديد أعمالكم واسعوا للاستفادة منه بإخراجه من باطن الأرض.

وهذه الآية الجليلة تبين نوعين من النعم التي هي محور لدفع الأعداء وجلب المنافع. ولقد شوهد تحقق منافع الحديد المهمة للبشرية قبل نزول القرآن، إلّا أن القرآن يبين أن الحديد سيكون في المستقبل في صور تحيّر العقول سيراً في البحر والهواء والأرض حتى إنه يسخّر الأرض ويظهر قوة خارقة تهدد بالموت، وذلك بقوله تعالى: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ مُظهراً لمعة إعجاز في إخبار غيبي.

عندما تطرق البحث عن النكتة السابقة انفتح الكلامُ حول هدهد سليمان. فيسأل أحدُ إخواننا الذي يلح في السؤال:[1] إن الهدهد يصف الخالق الكريم سبحانه بقوله: ﴿يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (النمل:٢٥) فما سبب ذكره في هذا المقام الجليل هذا الوصف الرقيق بالنسبة إلى الأوصاف الجليلة؟.

الجواب: إنَّ إحدى مزايا الكلام البليغ هو أن يُشعر الكلامُ صنعةَ المتكلم التي ينشغل بها. فهدهد سليمان الذي يمثل عريف الطيور والحيوانات كالبدوي العارف الذي يكشف بالفراسة الشبيهة بالكرامة مواضع الماء الخفية في صحراء جزيرة العرب الشحيحة بالماء. فهو طيْر ميمون مأمور بإيجاد الماء ويعمل عمل المهندس لدى سيدنا سليمان عليه السلام، فلذلك يُثبت بمقياسِ صنعتِه الدقيقة، كونَ الله معبوداً ومسجوداً له، بإخراجه سبحانه ما خبئ في السماوات والأرض، فيعرّف إثباته هذا بصنعته الدقيقة.

ألا ما أحسنَ رؤيةَ الهدهد! إذ ليس من مقتضى فطرة ما تحت التراب من المعادن والنوى والبذور التي لا تحصى، أن تخرج من الأسفل إلى الأعلى. لأنَّ الأجسام الثقيلة التي لا روح لها ولا اختيار لا تصعد بنفسها إلى الأعلى، وإنما تسقط من الأعلى إلى الأسفل. فإخراج جسم مخفي تحت التراب، من الأسفل إلى الأعلى ونفض التراب الثقيل الجسيم من على كاهله الجامد لابد أن يكون بقدرة خارقة لا بذاته. فأدرك الهدهد أخفى براهين كون الله تعالى معبوداً ومسجوداً له وكشفَها بعارفيته ووجَد أهم تلك البراهين بصنعته، والقرآن الحكيم منح إعجازاً بالتعبير عنه.

(١) هو «رأفت»؛ الغيور في طرح الأسئلة والمتكاسل في كتابة الرسائل. (المؤلف).

«إنزال الأنعام»

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍۚ ﴾ (الزمر:٦)

إنَّ هذه الآية الكريمة تتضمن النكتة نفسها التي بينّاها في الآية الكريمة: ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ ﴾ فهي تؤيدها وتتأيد بها في الوقت نفسه.

نعم، إنَّ القرآن الكريم يقول في سورة الزمر: ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۚ ﴾ ولا يقول: «وخلق لكم من الأنعام ثمانية أزواج» وذلك للإفادة بأن ثمانية أزواج من الحيوانات المباركة قد أُنزلت لكم وأُرسلت إليكم من خزينة الرحمة الإلهية وكأنها مرسلةٌ من الجنة، لأن تلك الحيوانات المباركة نعمةٌ بجميع جهاتها للبشرية كافة. فمن أشعارها وأوبارها يستفيد البدو في حلّهم وترحالهم، ومنها تُنسج الملابس، ومن لحومها تهيأ ألذّ المأكولات، ومن ألبانها تستخرج أطيب الأطعمة، ومن جلودها تصنع الأحذية والنعال وغيرها من المواد النافعة، حتى إن روثَها يكون رزقاً للنباتات ووقوداً للإنسان. فكأن تلك الحيوانات المباركة قد تجسّمت وأصبحت النعمةَ بعينها والرحمة بنفسها. ولهذا أُطلق عليها اسم «الأنعام» مثلما أطلق على المطر اسم «الرحمة». فكأن الرحمةَ قد تجسمت مطراً والنعمةَ تجسدت في صور شتى من أشكال المعزى والضأن والبقر والجاموس والإبل. وعلى الرغم من أن موادها الجسمانية تُخلق في الأرض، فإن صفة النعمة ومعنى الرحمة قد غلبتا واستحوذتا على مادتها، فعبّر القرآن عنها بـ«أنزلنا» الذي يفيد: أن الخالق قد أنزل هذه الحيوانات المباركة من خزينة الرحمة مباشرة، أي أنَّ الخالق الرحيم قد أرسلها من مرتبة رحمته الرفيعة، ومن جنته المعنوية العالية، هديةً إلى وجه الأرض بلا وساطة.

نعم، تُدرج أحياناً صنعةٌ تقدّر بخمس ليرات في مادة لا تساوي خمسةَ قروش، فلا تؤخذ مادةُ الشيء بنظر الاعتبار، بل تُعطى الأهمية للصنعة الموجودة عليها، كالصنعة الربانية العظيمة الموجودة في الجرم الصغير للذباب. وأحياناً تكون صنعةٌ زهيدة في مادة ثمينة، فالحُكم عندئذٍ للمادة.

على غرار هذا المثال: فإن مادة جسمانية قد تحمل من معاني الرحمة ومعاني النعمة الكثيرة بحيث تفوق مائةَ مرة في الأهمية على مادتها. حتى لكأن مادةَ ذلك الشيء تختفي وتنـزوي أمامَ عِظَم أهمية النعمة والرحمة، لذا فالحُكم هنا يتوجه إلى حيث النعمة.

وكما تُخفي المنافعُ العظيمة للحديد وفوائدُه الكثيرة مادتَه المادية، فإن النعمة الموجودة في كل جزء من أجزاء هذه الحيوانات المباركة المذكورة كأنها قد قلبت مادتها الجسمانية إلى نعمة، فأُخذت صفاتها المعنوية بنظر الاعتبار دون مادتها الجسمانية. لذا عُبِّرَ عنها في الآية الكريمة «وأنزل ... وأنزلنا».

نعم، إن عبارة «وأنزل.. وأنزلنا» كما تفيد النكات السابقة من حيث الحقيقة فإنها تفيد أيضاً معنىً بلاغياً مهماً إفادة معجزة. وذلك: أنَّ منحَ الحديد خواصَّ مميزة، كوجوده في كل مكان، وسهولة تليينه كالعجين، نعمةٌ إلهية. حيث يمكن الحصول عليه واستعماله في كل عمل رغم صلابته واختفائه ووجوده في الأعماق فطرةً، لذا فإن التعبير بـ ﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ ﴾ إنما يبين هذا المعنى أي كأنَّ الحديد نعمةٌ من النعم الفطرية السماوية التي يمكن الحصول عليها بيُسر، وكأن مادة الحديد تنـزل من مصنع علوي رفيع وتسلَّم بيد الإنسان بسهولة.

وكذلك الحيوانات الضخمة كالبقر والجاموس والإبل وغيرها من المخلوقات الجسيمة، مسخّرةٌ وذليلة ومطيعة ومنقادة حتى لصبي صغير، إذ تسلّم قيادها له وتطيعه. لذا فالتعبير بـ ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ ﴾ يفيد أن هذه الحيوانات المباركة ليست حيوانات دنيوية يُستوحَش منها وتلحق بنا الضرر كالبعوض والحية والعقرب والذئب والسبع وما شابهها من الضواري المفترسة، بل كأنها حيوانات آتية من جنة معنوية، لها منافع جليلة، ولا يأتي منها ضرر، بل كأنها تنـزل من الأعلى ، أي من خزينة الرحمة.

ولعل المقصود من قول بعض المفسرين: إن هذه الحيوانات قد أُنزلت من الجنة ناشئ من هذا المعنى المذكور.[١]

إن كتابة صحيفة كاملة حول إيضاح ما في حرف واحد من القرآن الكريم من مسائل ونكات لا تعدّ إطناباً، فليس إذن من الإسراف في شيء كتابتنا ثلاث صفحات لبيان نكات العبارة القرآنية «أنزلنا». بل قد يكون أحياناً حرف واحد من القرآن الكريم مفتاحاً لخزينة معنوية عظيمة.

«دستور»

إنَّ طلاب النور لا يتحرَّون عن نورٍ خارج دائرة «رسائل النور»، وما ينبغي لهم. ولو تحرّى أحدٌ منهم فلا يجد إلّا مصباحاً بدلاً من شمس معنوية تضيء من نافذة «رسائل النور»، بل قد يفقد الشمس.

ثم إنَّ ما في دائرة «رسائل النور» من مشرب الخلة ومسلك الأخوة، هذا المشرب الخالص والمسلك القوي الذي يُكسب الفردَ الواحد أرواحاً كثيرة ويُظهر سراً من أسرار الأخوة التي ورثها الصحابةُ الكرام من نور النبوة، هذا المشرب لا يدع حاجةً إلى البحث عن المرشد الوالد في الخارج -مع إضرارٍ به بثلاث جهات- بل يوجِد له بدلاً من الوالد المرشد الواحد، إخواناً كباراً كثيرين. فلا شك أنَّ ما تسبغه أنواعُ الشفقة النابعة من قلوب إخوة كبار، يزيل شفقة الوالد الواحد.

نعم، إنَّ الذي اتخذ لنفسه شيخاً قبل دخوله الدائرة يمكنه أن يحافظ على رابطته بشيخه ومرشده ضمن الدائرة أيضاً، ولكن مَنْ لم يكن له شيخ بعد الدخول في الدائرة، ليس له أن يتخذ شيخاً إلّا ضمن الدائرة.

---

(١) لقد قال بعض المفسرين : إن مبادئ هذه الحيوانات قد أتت من السماوات. ومرادهم في ذلك: أن بقاء هذه الحيوانات المسماة بالأنعام، إنما هو بالرزق، وأن أرزاقها هي الأعشاب والنباتات، ورزق الأعشاب آت من المطر، والمطر باعث على الحياة ورحمة نازلة من السماء، فالرزق آت من السماوات. والآية الكريمة ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ (الذاريات:٢٢) تشير إلى هذا المعنى. إذ لما كانت إدامة أجسام الحيوانات المتجددة هي بالمطر النازل من السماوات، فإن التعبير بـ«أنزلنا» هو في موضعه اللائق (المؤلف).

ثم إنَّ ما في درس «رسائل النور» للحقائق من علم الحقيقة الذي يمنح فيضَ الولاية الكبرى النابعة من سر الوراثة النبوية، لا يدع حاجة إلى الانتماء إلى الطرق الصوفية خارجَ الدائرة، إلّا من فهم الطريقة على غير وجهها وكأنها رؤىً جميلة وخيالات وأنوار وأذواق، ويرغب في الحصول على أذواق الدنيا وهوساتها مما سوى فضائل الآخرة، ويطلب مقام المرجعية كعبَدة النفس. إنَّ هذه الدنيا دارُ حكمة. والأجر والثواب فيها على قدر المشقات والتكاليف، وهي ليست دارَ مكافأة وجزاء. ولهذا لا يهتم أهلُ الحقيقة بالأذواق والأنوار التي في الكشف والكرامات، بل قد يفرّون منها ويريدون سترها.

ثم إنَّ دائرة «رسائل النور» دائرةٌ واسعة جداً، وطلابها كثيرون جداً، فلا تعاقب الذين يهربون منها، ولا تهتم بهم. وربما لا تدخلهم ضمن دائرتها مرة أخرى. لأنَّ الإنسان يملك قلباً واحداً والقلب الواحد لا يمكن أن يكون في داخل الدائرة وخارجها معاً.

ثم إنَّ الراغبين في إرشاد الآخرين ممن هم خارج دائرة النور، عليهم ألّا ينشغلوا بطلاب النور لأن احتمال خسرانهم بثلاث جهات وارد. فالطلاب الذين هم في دائرة التقوى ليسوا بحاجة إلى الإرشاد، علماً أن في الخارج الكثيرين من تاركي الصلاة، فتركُ أولئك والانشغالُ بهؤلاء المتقين ليس من الإرشاد في شيء. فإن كان ممن يحب هؤلاء الطلاب فليدخل أولاً ضمن الدائرة، وليكن لهم أخاً، وإن كان ذا مزايا وفضائل فليكن لهم أخاً كبيراً.

ولقد تبيّن في هذه الحادثة أن للانتساب إلى «رسائل النور» أهميةً عظيمة وثمناً غالياً جداً، فالراشد الذي بذل هذه التضحيات وجاهد الإلحاد باسم العالم الإسلامي، لا يترك هذا المسلك الذي هو أثمنُ من الألماس ولا يستطيع أن يدخل مسالك أخرى غيره.

سعيد النورسي

«فقرة»

كتبت في سجن «أسكي شهر»

اخوتي!

لقد دافعتُ دفاعات عديدة عن طلاب النور بما يليق بهم من دفاع، وسأقولها بإذن الله في المحكمة وبأعلى صوتي، وسأُسمع صوتَ «رسائل النور» ومنـزلة طلابها إلى الدنيا بأسرها. إلّا أنني أنبهكم إلى ما يأتي:

إنَّ شرط الحفاظ على ما في دفاعي من قيمة، هو عدم هجر «رسائل النور» بمضايقات هذه الحادثة وأمثالِها، وعدم استياء الأخ من أستاذه، وعدم النفور من إخوانه مما يسببه الضيقُ والضجر، وعدم تتبع عورات الآخرين وتقصيراتهم.

إنكم تذكرون ما أثبتناه في رسالة القدر: إنَّ في الظلم النازل بالإنسان جهتين وحكمين.

الجهة الأولى: للإنسان.

والأخرى: للقدر الإلهي.

ففي الحادثة الواحدة يظلم الإنسانُ فيما يعدلُ القدَر وهو العادل.

فعلينا أن نفكر -في قضيتنا هذه- في عدالة القدر الإلهي والحكمة الإلهية أكثر مما نفكر في ظلم الإنسان.

نعم، إنَّ القدر قد دعا طلاب النور إلى هذا المجلس. وإن حكمة ظهور الجهاد المعنوي قد ساقتهم إلى هذه المدرسة اليوسفية التي هي حقاً ضجرة وخانقة، فصار ظلمُ الإنسان وسيلة لذلك.

ولهذا، إياكم أن يقول بعضكم لبعض: «لو لم أفعل كذا لما اعتقلت».

سعيد النورسي

«شرف الرسائل الرفيع»

إخواني !

لقد أُخطر إلى قلبي: كما أنَّ «المثنوي الرومي» قد أصبح مرآةً لحقيقة واحدة من الحقائق السبع المُفاضة من نور شمس القرآن الكريم، فاكتسب منزلةً سامية وشرفاً رفيعاً حتى أصبح مرشداً خالداً لكثير من أهل القلب فضلاً عن المولويين. كذلك «رسائل النور» ستنال بإذن الله شرفاً رفيعاً سامياً بسبع جهات، وستكون لدى أهل الحقيقة بمثل مرشدةٍ خالدة رائدة باقية بسبعة أضعاف «المثنوي الرومي». لأنها تمثّل الأنوار السبعة لنور شمس القرآن الكريم والألوان السبعة المتنوعة في ضيائها، تمثلها دفعةً واحدة في مرآتها.

سعيد النورسي

«لطمة رحمة»

إخوتي!

لقد أدركت أنَّ التي نزلت بنا -مع الأسف- هي لطمةُ رحمة. أدركتُها منذ حوالي ثلاثة أيام وبقناعة تامة. حتى إنني فهمت إشارةً من الإشارات الكثيرة للآية الكريمة الواردة بحق العاصين لله، فهمتُها كأنها متوجهةٌ إلينا. وتلك الآية الكريمة هي: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ... أَخَذۡنَٰهُم﴾ [1] أي لمّا نسيَ الذين ذُكّروا بالنصائح، ولم يعملوا بمقتضاها .. أخذناهم بالمصيبة والبلاء.

نعم، لقد كُتّبنا [2] مؤخراً رسالةَ تخصّ سرَّ الإخلاص، وكانت حقاً رسالة رفيعة سامية، ودستوراً أخوياً نورانياً، بحيث إن الحوادث والمصائب التي لا يمكن الصمودُ تجاهها إلّا بعشرة

(١) نص الآية الكريمة: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ﴾ (الأنعام:٤٤).

(٢) يقول «النورسي» كُتّبنا بالبناء للمجهول ولم يقل «كتبنا» للمعلوم وكأنه يشير بذلك إلى أن رسالة «الإخلاص» إنْ هي إلا فيوضات قرآنية أُمليتْ عليه، ومن هنا تأتي أهميتها.

آلاف شخص ، يمكن مقاومتُها -بسر ذلك الإخلاص- بعشرة أشخاص فقط. ولكن أقولها آسفاً: إننا لم نستطع وفي المقدمة أنا، أن نعملَ بموجب ذلك التنبيه المعنوي، فأخذتْنا هذه الآية الكريمة -بمعناها الإشاري- فابتليَ قسمٌ منا بلطمةِ تأديب ورحمة، بينما لم تكن لطمةُ تأديب لقسم آخر بل مدارَ سلوان لهم، وليكسبوا بها لأنفسهم الثواب.

نعم، إنني لكوني ممنوعاً عن الاختلاط منذ ثلاثة شهور لم أستطع أن أطلع على أحوال إخواني إلّا منذ ثلاثة أيام، فلقد صدر -ما لا يخطر ببالي قط- ممن كنتُ أحسبهم من أخلص إخواني أعمالٌ منافية لسر الإخلاص. ففهمتُ من ذلك أن معنىً إشارياً للآية الكريمة : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ... أَخَذْنَٰهُم ﴾ يتوجه إلينا من بعيد.

إنَّ هذه الآية الكريمة التي نزلت بحق أهل الضلال مبعثَ عذاب لهم، هي لطمةُ رحمة وتأديب لنا؛ لتربية النفوس وتكفير الذنوب وتزييد الدرجات. والدليل على أننا لم نقدر قيمةَ ما نملك من نعمة إلهية حقّ قدرِها هو: أننا لم نقنع بخدمتنا القدسية برسائل النور المتضمنة لأقدس جهاد معنوي، ونالت الولاية الكبرى بفيض الوراثة النبوية وهي مدار سرّ المشرب الذي تحلى به الصحابة الكرام. وأن الشغف بالطرق الصوفية التي نفعُها قليل لنا في الوقت الحاضر، واحتمال إلحاقها الضررَ بوضعنا الحالي ممكن، قد سُدّ أمامَه بتنبيهي الشديد عليه.. وإلّا لأفسدَ ذلك الهوى وحدتَنا، وأدّى إلى تشتت الأفكار الذي ينـزل قيمة الترابط والتساند من ألف ومائة وأحد عشر الناشئة من اتحاد أربعة آحاد، ينـزلها إلى قيمة أربعة فحسب، وأدّى إلى تنافر القلوب الذي يبدّد قوتنا إزاء هذه الحادثة الثقيلة ويجعلها أثراً بعد عين.

أورد الشيخ سعدي الشيرازي(*) صاحب كتاب «كلستان» ما مضمونه:

«لقد رأيت أحد المتقين من أهل القلب في زاوية «التكية» يزاول السير والسلوك، ولكن بعد مضي بضعة أيام شاهدتُه في المدرسة بين طلاب العلوم الشرعية، فسألته: لِمَ تركت الزاوية التي تفيض الأنوار وأتيت إلى هذه المدرسة؟ قال: هؤلاء النجباء ذوو الهمم العالية يسعون لإنقاذ الآخرين مع إنقاذهم لأنفسهم بينما أولئك يسعون لإنقاذ أنفسهم وحدَها إن وفّقوا لها. فالنجابة وعلو الهمة لدى هؤلاء والفضيلة والهمة عندهم، ولأجل هذا جئت إلى هنا». هكذا سجل الشيخ سعدي خلاصة هذه الحادثة في كتابه «كلستان».

فلئن رُجّحت المسائل البسيطة للنحو والصرف التي يقرؤها الطلاب مثل:« نَصَرَ نَصَرا، نصَرُوا..» على الأوراد التي تُذكر في الزوايا، فكيف برسائل النور الحاوية على الحقائق الإيمانية المقدسة في «آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر». ففي الوقت الذي ترشد «رسائل النور» إلى تلك الحقائق بأوضح صورة وأكثرِها قطعية وثبوتاً حتى لأعتى المعاندين المكابرين من الزنادقة وأشد الفلاسفة تمرداً، وتلزمهم الحجة، كم يكون على خطأ من يترك هذه السبيل أو يعطلها أو لا يقنع بها ويدخل الزوايا المغلقة دون استئذانٍ من الرسائل تبعاً لهواه! ويبين في الوقت نفسه مدى كوننا مستحقين لهذه الصفعة، صفعة الرحمة والتأديب.

سعيد النورسي

«تنبيه»

حكايتان صغيرتان

الحكاية الأولى: عندما كنت أسيراً في شمالي روسيا قبل خمسة أعوام[1] في قاعة مصنع كبير، مع تسعين من ضباطنا، كانت المناقشات تحتد والأصوات تتعالى نتيجة الضجر وضيق المكان. وكنت أهدّئهم حيث كانوا جميعاً يحترمونني. ثم عينتُ خمساً من الضباط لإقرار الهدوء وقلت لهم: إذا سمعتم الضوضاء في أية ناحية أسرعوا إليها، وعاونوا الجهة غير المحقة. وحقاً لقد انتهت الضوضاء نتيجة هذا العمل. فسألوني: لِمَ قلت: عاونوا غير المُحق؟ وقد أجبتهم حينها: إنَّ غير المحق، هو غير منصف، لا يدع درهماً من راحته لأربعين درهماً من راحة الجميع. أما المحق فيكون ذا أنصاف يضحي براحته التي تعدل درهماً، لراحة صديقه التي تعدل أربعين درهماً. وبتخلّيه عن راحته هذه، تسكن الضوضاءُ وينتهي الصخب ويعم الهدوء. فيرتاح الضباط التسعون الساكنون في هذه القاعة. ولكن إذا مدّ المحقّ بقوة يزداد الصخب أكثر. ففي مثل هذه الحياة الاجتماعية تؤخذ المصلحة العامة بنظر الاعتبار.

فيا إخوتي لا يستاء بعضُكم من بعض قائلاً: إن أخي هذا لم ينصفني أو أجحف بحقي..

(١) المقصود سنة ١٩١٦م.

فهذا خطأ جسيم في هذه الحياة وفي اجتماعنا هذا. فلئن أضرّك صاحبُك بدرهم من الضرر، فإنك باستيائك منه وهجرك إياه تلحق أربعين درهماً من الأضرار. بل يحتمل إلحاق أربعين ليرة من الأضرار برسائل النور. ولكن ولله الحمد فإن دفاعاتنا الحقة القوية والصائبة جداً قد حالت دون أخذ أصدقائنا إلى الاستجواب وأخذ إفادتهم المكررة، فانقطع دابرُ الفاسد. وإلّا لكان الاستياء الذي وقع بين الإخوة يلحق بنا أضراراً جسيمة. كسقوط قشة في العين أو سقوط شرارة في البارود.

الحكاية الثانية: كان لعجوز ثمانيةُ أبناء. أعطت لكل منهم رغيفاً دون أن تستبقي لها شيئاً. ثم ارجعَ كلٌّ منهم نصفَ رغيفه إليها. فأصبح لديها أربعة أرغفة، بينما لدى كل منهم نصف رغيف.

إخوتي إنني أشعر في نفسي بنصف ما يتألم به كلٌّ منكم من آلام معنوية وأنتم تبلغون الأربعين، إنني لا أبالي بآلامي الشخصية. ولكن اضطررت يوماً فقلت: «أهذا عقاب لخطئي وأُعاقب به»- فتحرّيت عن الحالات السابقة. فشاهدت أنه ليس لدي شيء من تهييج هذه المصيبة وإثارتها، بل كنت أتخذ منتهى الحذر لأتجنّبها.

بمعنى أن هذه المصيبة قضاءٌ إلهي نازل بنا.. فلقد دُبّرت ضدّنا منذ سنة من قبَل المفسدين فما كان بطوقنا تجنُّبُها، فلقد حمّلونا تبعاتها فلا مناص لنا مهما كنا نفعل. فلله الحمد والمنة أن هوّنَ من شدة المصيبة من المائة إلى الواحد.

بناءً على هذه الحقيقة: فلا تمنّوا عليّ بقولكم: إننا نعاقَب بهذه المصيبة من جرائك. بل سامحوني وادعوا لي. ولا ينتقدنّ بعضُكم بعضاً. ولا تقولوا: لو لم تفعل كذا لما حدث كذا.. فمثلاً إن اعتراف أحد إخواننا عن عدد من أصحاب التواقيع (على الرسائل) أنقذ الكثيرين. فهوّن من شأن الخطة المرسومة في أذهان المفسدين الذين يستعظمون القضية. فليس في هذا ضرر، بل فيه نفع عام عظيم. لأنها أصبحت وسيلة لإنقاذ الكثيرين من الأبرياء.

سعيد النورسي

«نكتتان»

الفقرات التالية عبارة عن نكتتين:

الأولى: تخص الأخلاق، كتبت لمناسبة ظهور حالات غير مريحة في سجن «أسكي شهر» من جراء انقباض النفوس.

الثانية: نكتة لطيفة لآية كريمة لطيفة مشهورة إلّا أنها ظلت مستورة.

النكتة الأولى:

إنَّ من كمال الله سبحانه وسعة رحمته وطلاقة عدالته أن أدرج ثواباً ضمن أعمال البر، وأخفى عقاباً معجلاً في أعمال الفساد والسيئات. فقد أدرج طي الحسنات لذائذَ وجدانية معنوية بما يذكّر بنعَم الآخرة، وأدرج في ثنايا السيئات أعذبةً معنوية بما يحسس بعذاب الآخرة الأليم.

فمثلاً: إن إفشاء المحبة والسلام في صفوف المؤمنين، إنما هو حسنةٌ كريمة للمؤمن، فله ضمن هذه الحسنة لذة معنوية وذوق وجداني وانشراح قلبي ممَّا يذكّر بثواب الآخرة المادي. ومن يتفقد قلبَه يشعر بهذا الذوق.

ومثلاً: إنَّ بث الخصومةَ والعداء بين المؤمنين إنما هو سيئةٌ قبيحة. فهذه السيئة تنطوي على عذاب وجداني وأيّ عذاب، بحيث يأخذ بخناق القلب والروح معاً، فكل من يملك روحاً حساسةً وهمة عالية يشعر بهذا العذاب.

ولقد مررتُ بنفسي -طوال حياتي- بأكثر من مائة تجربة على هذا النوع من السيئات. فكنت كلما حملتُ عداءً على أخ مؤمن تجرعتُ عذاب تلك العداوة، حتى لم يبق لي ريب من أن هذا العذاب إنما هو عقاب معجّل لسيئتي التي ارتكبتُها. فأُعاقب عليها وأُعذب بها.

ومثلاً: إن توقير الجديرين بالاحترام والتوقير وإبداء العطف والرحمة لمن يستحقهما عملٌ صالح وحسنة للمؤمن. ففي هذه الحسنة تكمن لذةٌ عظيمة ومتعة وجدانية إلى حدٍ قد تسوق صاحبَها إلى التضحية حتى بحياته. فإن شئت فانظر إلى اللذة التي تكسبها الوالدات من بذل شفقتهن لأولادهن، حتى إن الوالدة تمضي في سبيل تلك الرأفة والشفقة إلى الجود بنفسها. بل ترى هذه الحقيقة واضحة حتى في عالم الحيوان، فالدجاجة تهاجم الأسد دفاعاً عن فراخها.

إذن ففي الاحترام والرأفة أجرةٌ معجلة. يشعر بهذه اللذة أولئك الذين يملكون أرواحاً عالية ونفوساً أبيّة شهمة.

ومثلاً: إنَّ في الحرص والإسراف عقوبةً معنوية معجلة وجزاءً قلبياً، إذ يجعل صاحبه ثملاً من كثرة الشكوى والقلق، فترى العقوبةَ نفسها بل أشد منها في الحسد والتنافس والغيرة، حتى إن الحسد يحرق صاحبَه قبل غيره. وتنقلب الآية في التوكل والقناعة إذ فيهما ثواب وأيّ ثواب بحيث إنه يزيل آثار المصائب وأوضار الفاقة والحاجة.

ومثلاً: إنَّ الغرور والتكبر حملٌ ثقيل مقيت على كاهل الإنسان، حيث إنه يتعذب من رؤيته استثقال الآخرين له في الوقت الذي ينتظر منهم احترامَه.

نعم، إن الاحترام والطاعة توهب ولا تطلب.

ومثلاً: إنَّ في التواضع وترك الغرور والكبر لذةً عاجلة ومكافأة آنية يخلص المتواضعَ من عبء ثقيل وهو التصنع والرياء.

ومثلا: إنَّ في سوء الظن وسوء التأويل جزاءً معجلاً في هذه الدنيا. حتى غدت «مَن دقّ دُقّ» قاعدة مطّردة. فالذي يسيء الظَّنَّ بالناس يتعرض حتماً لسوء ظنهم. والذي يؤول تصرفات إخوانه المؤمنين تأويلاً سيئاً، لا محالة سيتعرض للجزاء نفسه في وقت قريب.

وهكذا فقس على هذا المنوال جميعَ الخصال الحسنة والذميمة.

نسأل الله الرحيم أن يرزق الذين يتذوقون طعوم الإعجاز القرآني المعنوي المنبعث من «رسائل النور» في زماننا هذا ذوقَ تلك اللذائذ المعنوية المذكورة، فلا تقرب إليهم بإذن الله الأخلاق الذميمة.

النكتة الثانية:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۞ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۞ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ (الذاريات: ٥٦-٥٨)

إنَّ ظاهر معنى هذه الآية الكريمة لا يبين الأسلوب الرفيع المنسجم مع بلاغة القرآن المعجزة، مثلما جاء في أغلب التفاسير. لذا كان يشغل فكري في كثير من الأحيان. فنبين ثلاثة أوجه إجمالاً، من بين المعاني الجميلة الرفيعة التي وردت من فيض القرآن الكريم.

الوجه الأول:

إنَّ الله سبحانه يسند أحياناً إلى نفسه ما يمكن أن يعود إلى رسوله الكريم ﷺ من حالات، وذلك تكريماً له وتشريفاً. فها هنا كذلك، إذ المعنى المراد من الآية الكريمة المتصدرة، لابد أن يكون الإطعام والإرزاق الذي يعود إلى الرسول ﷺ، أي إنَّ رسولي في أدائه مهمة الرسالة وتبليغه العبودية لله، لا يريد منكم أجراً ولا أجرة ولا جزاءً ولا إطعاماً.. وإلّا إن لم يكن المراد هذا المعنى لكان إعلاماً لمعلوم في منتهى البداهة، مما لا ينسجم وبلاغة القرآن المعجزة.

الوجه الثاني:

الإنسان مُغرمٌ بالرزق كثيراً، ويتوهم أن السعي إلى الرزق يمنعه عن العبودية، فلأجل دفع هذا التوهم، ولكي لا يُتخَذ ذريعةً لترك العبادة تقول الآية الكريمة: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ وتحصر الغاية من الخلق في العبودية لله، وأن السعي إلى الرزق -من حيث الأمر الإلهي- عبوديةٌ لله أيضاً.

أما إحضارُ الرزق لمخلوقاتي ولأنفسكم وأهليكم وحتى رزقُ حيواناتكم فأنا الكفيل به. فأنتم لم تُخلَقوا له، فكل ما يخص الرزق والإطعام يخصني أنا وأنا الرزاق ذو القوة المتين.. فلا تحتجّوا بهذا فتتركوا العبادة، فأنا الذي أُرسل رزقَ مَن يتعلق بكم من عبادي..

ولو لم يكن هذا المعنى هو المراد، لكان من قبيل إعلام المعلوم، لأن رزقَ الله سبحانه وتعالى وإطعامَه محال بديهي ومعلوم واضح. وهـناك قاعدة مقررة في علم البلاغة تفيد:

إن كان معنى الكلام معلوماً وبديهياً، فلا يكون هذا المعنى مراداً، بل المراد لازمهُ أو تابعٌ من توابعه.

فمثلاً: إن قلتَ لأحدهم وهو حافظ للقرآن الكريم: أنت حافظ. فهذا الكلام إعلامٌ بما هو معلوم لديه، فإذن المراد منه هو: إنني أعلم أنك حافظ للقرآن، أي أُعلِمُه بما لا يعلمه، وهو علمي أنه حافظ للقرآن.

فبناءً على هذه القاعدة يكون معنى الآية التي هي كنايةٌ عن نفي رزق الله وإطعامه هو:

إنكم لم تُخلَقوا لإيصال الرزق إلى مخلوقاتي التي تعهّدت أنا برزقهم. فالرزق أنا به زعيم. فواجبُكم الأساس هو العبودية، والسعي على وفق أوامري للحصول على الرزق، هو بذاته نوع من العبادة.

الوجه الثالث:

إنَّ المعنى الظاهري للآية الكريمة: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ في سورة الإخلاص، معلومٌ وبديهي. فيكون المقصود لازماً من لوازم ذلك المعنى. أي أن الذين لهم والدة وولد لا يكونون إلهاً قطعاً.

فيقضي سبحانه وتعالى بقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ الذي هو بديهي ومعلوم ويعني أنه أزلي وأبدي، لأجل نفي الألوهية عن سيدنا عيسى عليه السلام وعزير عليه السلام والملائكة والنجوم والمعبودات الباطلة.

فكما أن هذه الآية هكذا فهنا أيضاً يكون معنى الآية الكريمة: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ أنَّ كل ما يُرزَق ويُطعَم وله استعداد للرزق والإطعام لا يمكن أن يكون إلهاً. فلا تليق الألوهيةُ بمن هو محتاج إلى الرزق والإطعام.

سعيد النورسي

حول «القيلولة»

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾

لقد اهتم «رأفت» بمعنى كلمة «قائلون» الواردة في الآية الكريمة:

﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ﴾ (الأعراف: ٤)

فكُتب هذا البحث لمناسبة استفساره عنها، ولئلا يعطّل قلمَه الألماسي، بما يصيبه من انحلال في الجسم بسبب نومه بعد صلاة الفجر كالآخرين معه في السجن.

النوم على أنواع ثلاثة:

الأول: الغيلولة: وهي النوم بعد الفجر حتى انتهاء وقت الكراهة. هذا النوم مخالفٌ للسنة المطهرة؛ إذ يورث نقصان الرزق، وزوال بركته، كما هو وارد في الحديث الشريف. حيث إن أفضل وقت لتهيئة مقدمات السعي لكسب الرزق هو في الجو اللطيف، عقب الفجر، ولكن بعد مضيه يطرأ على الإنسان خمول وانحلال، مما يضرّ بسعيه في ذلك اليوم، وبدوره يضر بالرزق، كما يسبب زوال بركته، وقد ثبت هذا بتجارب كثيرة.

الثاني: الفيلولة: وهي النوم بعد صلاة العصر حتى المغرب، هذا النوم يسبب نقصانَ العمر، أي يتناقص عمر الإنسان مادياً في اليوم الذي يشوبه النوم المورث للغفلة؛ إذ يبدو ذلك اليوم قصيراً ناقصاً مثلما يكون قضاءُ وقت العصر بالنوم في حكم عدم رؤية نتائج معنوية لذلك اليوم، تلك النتائج التي تتظاهر على الأغلب في ذلك الوقت. فيكون الإنسان كأنه لم يعش ذلك اليوم.

الثالث: القيلولة: وهي سنة نبوية شريفة، ويبدأ وقتُها من الضحى إلى ما بعد الظهر بقليل. ومع كون هذا النوم من السنة المطهرة [1] فانه يُعين على قيام الليل، وقد رسّخ هذه السنة

(١) انظر: البخاري، الاستئذان ١٦، ٣٩، ٤١، الجمعة ٤٠، ٤١، الحرث ٢١، الأطعمة ١٧؛ مسلم، الفضائل ٨٤، الجمعة ٣٠؛ أبو داود، الجمعة ٢١٨.

النبوية ما اعتاد عليه أهلُ الجزيرة العربية من تعطيل نسبي للأعمال عند اشتداد الحر من الظهر حسب محيطهم. وهذا النوم يطيل العمرَ ويزيد الرزق؛ لأنَّ نصف ساعة من القيلولة يعادل ساعتين من نوم الليل، أي إنه يزيد عمرَ يومه ساعةً ونصفَ الساعة. وينقذ ساعةً ونصف الساعة أيضاً من النوم الذي هو صنو الموت، ويحييها بتزييد وقت عمله كسباً للرزق، فيطيل زمن السعي والعمل.

سعيد النورسي

وهذه خاطرة جميلة

حينما كنت اقرأ جملة «**ألفُ ألفِ صلاةٍ وألف ألف سلام عليك يا رسول الله**» عقب الصلاة، تراءت لي من بعيد خاطرةٌ لطيفة انكشفت من تلك الصلوات، إلّا أنني لم أتمكن من اقتناصها كاملة، ولكن سأشير إلى بعض جمَلها:

رأيت أن عالَم الليل شبيهٌ بمنـزل جديد يُفتح لدار الدنيا.. دخلت ذلك العالم في صلاة العشاء، ومن انبساط فوق العادة للخيال وبحكم ارتباط ماهية الإنسان مع الدنيا قاطبة رأيت أنَّ هذه الدنيا العظيمة قد أصبحت في ذلك الليل منـزلا صغيراً جداً حتى لا يكاد يرى ما فيه من بشر وذوي حياة. ورأيت -خيالاً- أن ليس هناك من ينوّر ذلك المنـزل إلّا الشخصية المعنوية للرسول ﷺ حتى امتلأت أرجاؤه بهجة وأنساً وسروراً.

وكما يبدأ الشخصُ بالسلام عند دخوله المنـزل، كذلك وجدت في نفسي شوقاً هائلاً ورغبة جياشة إلى القول: ألف ألف سلام عليك يا رسول الله ..[1] ومن هنا وجدت نفسي كأنني أُسلّم عليه بعدد الإنس والجن وأعبر بسلامي هذا عن تجديد البيعة له والرضى برسالته

(١) ذلك لان الرحمة النازلة على الرسول الكريم ﷺ هي متوجهة لحاجة الأمة قاطبة في زمن أبدي، لذا فالصلاة غير المتناهية التي تهدى إليه منسجمة جداً.

فلو دخل شخص بيتاً خالياً مظلماً موحشاً كالدنيا المظلمة الموحشة بالغفلة كم سيأخذه الرعب والدهشة والاضطراب؟ ولكن كم يسرّه ويؤنسه ويفرحه وينوره لو رأى أن شخصاً قد تصدر ذلك البيت يعرّفه بجميع ما فيه؟ فما بالك لو كان هذا الشخص هو الحبيب المحبوب والأنيس المأنوس وهو الرسول العظيم ﷺ، متصدر بيت العالم، يعرّف لنا المالكَ الرحيمَ الكريمَ بما فيه -أي بيت العالم- من أشياء.

قس هكذا لكي تقدر بنفسك قيمة الصلوات عليه ولذتها. (المؤلف).

وقبولها منه وإطاعة القوانين التي أتى بها، والتسليم لأوامره وسلامته من بلايانا. أي كأنني أقدم هذا السلام -ناطقاً بتلك المعاني- باسم كل فرد من أفراد عالمي وهم ذوو الشعور من جن وإنس، وجميع المخلوقات.

وكذا فإن ما جاء به من النور العظيم والهدية الغالية ينور عالمي الخاص هذا كما ينور العالم الخاص لكل أحد في هذه الدنيا، فيحوّل عالَمنا إلى عالم زاخر بالنعم. فقلت تجاه هذه النعمة الهائلة: «اللهم أنزل ألفَ صلاة عليه» علّها تكون شكراناً وعرفانا للجميل على ذلك النور الحبيب والهدية الغالية، إذ إننا لا نستطيع أن نردّ جميلَه وإحسانه إلينا أبداً، فأظهَرنا تضرُّعنا إلى الله جل وعلا بالدعاء والتوسل كي يُنـزل من خزائن رحمته رحمةً عليه بعدد أهل السماوات جميعاً.. هكذا أحسست خيالاً.

فهو ﷺ يطلب صلاةً بمعنى «الرحمة» من حيث إنه «عبد» ومتوجه من الخلق إلى الحق سبحانه. ويستحق «السلام» من حيث إنه «رسول» من الحق سبحانه إلى الخلق.

وكما أننا نرفع إليه سلاماً بعدد الإنس والجن، ونجدد له البيعة العامة بعددها أيضاً، فإنه ﷺ يستحق أيضاً صلاة من خزائن الرحمة الإلهية بعدد أهل السماوات، وباسم كل واحد منهم؛ ذلك لأن النور الذي جاء به هو الذي يظهر كمال كل شيء في الوجود، ويُبرز قيمةَ كل موجود، وتُشاهد به الوظيفة الربانية لكل مخلوق، وتتجلى به المقاصد الإلهية من كل مصنوع. لذلك لو كان لكل شيء لسانٌ لكان يردد قولاً كما يردد حالاً: الصلاة والسلام عليك يا رسول الله.. فنحن بدورنا نقول بدلاً عن المخلوقات كافة:

ألفُ ألف صلاة وألفُ ألف سلام عليك يا رسول الله بعدد الإنس والجن وبعدد الملك والنجوم.

فَيَكْفِيكَ أنَّ الله صَلّى بِنَفْسِهِ وَأمْلاكَهُ صَلَّتْ عَلَيْهِ وَسَلَّمَتْ

سعيد النورسي

حول «وحدة الوجود»

أخي العزيز:

تطلبون شيئاً من الإيضاح حول «وحدة الوجود» ففي إحدى لمعات «المكتوب الحادي والثلاثين» جوابٌ شاف وقوي واضح إزاء رأي «محي الدين بن عربي» في هذه المسألة.

أما هنا فنكتفي بهذا القدر ونقول: إنَّ تلقين مسألة «وحدة الوجود» في الوقت الحاضر للناس يضرّهم ضرراً بالغاً، إذ كما أن التشبيهات والتمثيلات [1]، إذا خرجت من أيدي الخواص ودخلت أيدي العوام وسرَت من يد العلم إلى يد الجهل تُتلقى حقائق؛ كذلك حقائقُ وحدة الوجود وأمثالُها من الحقائق العالية، إذا ما دخلت بين العوام الغافلين السارحين في تأثير الأسباب، يتلقونها «طبيعة» وتولد ثلاث مضار مهمة.

الضرر الأول:

إنَّ مشرب وحدة الوجود، مع أنه في حكم إنكار وجود الكائنات إزاء وجود الله سبحانه، إلا أنه كلما دخل بين العوام يمضي بهم إلى أن يصل في فكر الغافلين منهم ولاسيما الملوّثين بالماديات إلى إنكار الألوهية إزاء الكون والماديات.

الضرر الثاني:

إنَّ مشرب وحدة الوجود، يردّ رداً شديداً ربوبية ما سوى الله تعالى، حتى إنه ينكر ما سواه تعالى ويرفع الثنائية، فلا يرى وجوداً مستقلاً للنفس الأمارة ولا لأي شيء كان، ولكن في هذا الزمان، الذي استولت فيه مفاهيم الطبيعة وتفرعنت نفوسٌ أمارة وبخاصة من له استعداد ليتخذ نفسه معبودَه من دون الله، ونفخ الغرور والأنانية في أوداجه، فضلا عن نسيان الخالق والآخرة إلى حد ما. فتلقينُ هؤلاء بوحدة الوجود يطغي نفوسَهم حتى لا يسعها شيء، والعياذ بالله.

---

(١) كالملكين العظيمين المسميين بالثور والحوت، انقلبا بسر التشبيه عند العوام إلى صورة ثور ضخم وحوت كبير. (المؤلف).

الضرر الثالث:

إنه يورث أفكاراً وتصورات لا تليق بوجوب وجود الذات الجليلة، المنـزّهة المبرأة المتعالية المقدسة عن التغير والتبدل والتجزؤ والتحيز، ولا تلائم تنـزّهه وتقدسه سبحانه بحال، فيكون بذلك سبباً لتلقينات باطلة.

نعم، إنَّ من يتكلم عن وحدة الوجود عليه أن يعرج فكراً من الثرى إلى الثريا تاركاً الكائنات وراءه ظهرياً، محدقاً بنظره إلى العرش الأعلى، عادّاً الكائنات معدومة في حالة الاستغراق، فيمكنه أن يرى بقوة الإيمان أن كل شيء من الواحد الأحد سبحانه مباشرة. وإلّا فإن من يقف وراء الكائنات وينظر إليها ويرى الأسباب أمامه وينظر من الأرض، فإنه يحتمل أن يغرق في تأثير الأسباب ويقع في مستنقع الطبيعة، بينما الذي يعرج فكراً إلى العرش كجلال الدين الرومي[*] يستطيع أن يقول: «افتح سمعَك فإنك تستطيع أن تسمع من كل أحد -كأنه حاكٍ فطري- ما تسمعه من الحق تعالى». وإلّا فمن لا يستطيع العروجَ مثله إلى هذه المرتبة الرفيعة ولا يرى الموجودات من الفرش إلى العرش على صورة مرايا (لتجلياته) إن قلت له: «اصغ إلى كل أحد تسمع منه كلام الله» فإنه يبتلى بتصورات باطلة مخالفة للحقيقة كمن يهوي معنىً من العرش إلى الفرش.

﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (الأنعام: ٩١).

ما للتراب ولرب الأرباب.

سبحان من تقدس عن الأشباه ذاتُه وتنـزّهت عن مشابهة الأمثال صفاته وشَهِد على ربوبيته آياته جل جلاله ولا إله إلّا هو.

سعيد النورسي

«جواب عن سؤال»

لا يسعني الوقت الكافي لعقد موازنة بين أفكار كل من «مصطفى صبري»(*) و«موسى باكوف»(*) إلا أنني أكتفي بالقول الآتي:

إن أحدهما قد أفرط والآخر يفرط. فمع أن مصطفى صبري محقّ في دفاعاته بالنسبة إلى موسى باكوف إلّا أنه ليس له حق تزييف شخص محي الدين بن عربي الذي هو خارقةٌ من خوارق العلوم الإسلامية.

نعم، إن محي الدين بن عربي مهتدٍ ومقبولٌ ولكنه ليس بمرشدٍ ولا هادٍ وقدوةٍ في جميع كتاباته، إذ يمضي غالباً دون ميزان في الحقائق، فيخالف القواعد الثابتة لأهل السنة، ويفيد بعضُ أقواله -ظاهراً- الضلالةَ غير أنه بريء من الضلالة، إذ الكلام قد يبدو كفراً بظاهره، إلّا أن قائلَه لا يكون كافراً.

فمصطفى صبري لم يراع هذه النقاط بنظر الاعتبار ففرّط في بعض النقاط لتعصبه لقواعد أهل السنة. أما موسى باكوف فهو يخطئ كثيراً بأفكاره التي تماشي التمدن والمنحازة شديداً للتجدد. إذ يحرّف بعض الحقائق الإسلامية بتأويلات خاطئة ويتخذ شخصاً مردوداً كأبي العلاء المعري في مستوى أعلى من علماء الإسلام المحققين، وقد غالى كثيراً لانحيازه الشديد إلى تلك المسائل التي خالف فيها محي الدين أهلَ السنة والتي تنسجم مع أفكاره.

ولقد قال محي الدين: «تُحرم مطالعةُ كتبَنا على من ليس منا» أي على من لا يعرف مقامَنا. نعم إن قراءة كتب محي الدين ولاسيما مسائله التي تبحث في وحدة الوجود مضرة في هذا الزمان.

سعيد النورسي

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

عندما كنت أنظر من نافذة السجن، إلى ضحكات البشرية المبكية، في مهرجان الليل البهيج، أنظر إليها من خلال عدسة التفكر في المستقبل والقلق عليه، انكشف أمام نظر خيالي هذا الوضع، الذي أبينه:

مثلما تشاهَد في السينما أوضاعُ الحياة لمن هم الآن راقدون في القبر، فكأنني شاهدت أمامي الجنائز المتحركة لمن سيكونون في المستقبل القريب من أصحاب القبور.. بكيت على أولئك الضاحكين الآن، فانتابني شعورٌ بالوحشة والألم. راجعت عقلي، وسألت عن الحقيقة قائلاً: ما هذا الخيال؟ قالت الحقيقة: إن خمسةً من كل خمسين من هؤلاء البائسين الضاحكين الآن والذين يمرحون في نشوة وبهجة سيكونون كهولاً بعد خمسين عاماً، وقد انحنَت منهم الظهور وناهز العمر السبعين، والخمسةَ والأربعين الباقية يُرمّون في القبور. فتلك الوجوه الملاح، وتلك الضحكات البهيجة، تنقلب إلى أضدادها. وحسب قاعدة «كل آتٍ قريب»[1] فإن مشاهدة ما سيأتي كأنه آتٍ الآن تنطوي على حقيقة، فما شاهدته إذن ليس خيالاً.

فما دامت ضحكاتُ الدنيا المتسمة بالغفلة مؤقتة ومعرّضة إلى الزوال، وهي تستر مثل هذه الأحوال المؤلمة المبكية. فلابد أن ما يسرّ قلبَ الإنسان البائس العاشق للخلود، ويفرح روحَه الولهان بعشق البقاء، هو ذلك اللهو البريء والمتعة النـزيهة وأفراح ومسرات تخلد بثوابه، ضمن نطاق الشرع، مع أداء الشكر باطمئنان القلب وحضوره بعيداً عن الغفلة. ولئلا تقوى الغفلةُ في النفوس في الأعياد، وتدفع الإنسان إلى الخروج عن دائرة الشرع، ورد في الأحاديث الشريفة ترغيب قوي وكثير في الشكر وذكر الله في تلك الأيام. وذلك لتنقلب نعم الفرح والسرور إلى شكر يديم تلك النعمة ويزيدها، إذ الشكر يزيد النعم ويزيل الغفلة.

سعيد النورسي

(١) انظر: الدارمي، المقدمة ٢٣؛ ابن ماجه، المقدمة ٧.

«النفس الأمارة بالسوء»



نكتة من نكات الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ (يوسف: ٥٣) والحديث الشريف: **(أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك)**.[1]

نعم، إنَّ الذي يحب نفسَه الأمارة بالسوء -غير المزكّاة- ويعجب بها، هو في الحقيقة لا يحب أحداً غيرها، وحتى لو أبدى للغير حباً فلا يحبه من صميم قلبه، بل ربما يحبه لمنافعه، ولما يتوقع منه من متاع. فهو في محاولة دائمة لتحبيب نفسه للآخرين وفي سعي متواصل لإثارة إعجابهم به، يصرف كل قصورٍ عن نفسه فلا يحمّلها أي نقص كان، بل يدافع دفاعَ المحامي المخلص لإبراء ساحتها، ويمدحها بمبالغات بل بأكاذيب لينـزّهها عن كل عيب أو قصور، حتى يقربها إلى التقديس، بل يبلغ به الأمر أن يكون مصداق الآية الكريمة: ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ (الفرقان: ٤٣) عندها تتوالى عليه صفعاتُ هذه الآية الكريمة -حسب درجته- فينقلب مدحُه إلى إعراض الناس عنه، ويتحول تحبيب نفسه إليهم إلى استثقالهم له، فيجد عكس ما كان يروم، فضلاً عن أنه يضيّع الإخلاص، لما يخلط من رياء وتصنّع في أعماله الأخروية، فيكون مغلوباً على أمره أمام شهواته وهواه ومشاعره، تلك التي لا تبصر العقبى ولا تفكر في النتائج والمغرمة بالتلذذ الآني. بل قد تبرر له أهواؤه الضالة أموراً يرتكبها لأجل متعة لا تدوم ساعة يفضي به أن يلقى في السجن لسنة كاملة. وقد يقاسي عشر سنوات من الجزاء العادل لأجل تسكين روح الثأر لديه وشهوة الغرور التي لا تستغرق دقيقة واحدة. فيكون مثله كمثل ذلك الطفل الأبله الذي لا يقدر قيمة جزء المصحف الشريف الذي يتلوه ويدرسه فيبيعه بقطعة حلوى رخيصة، إذ يصرف حسناته التي هي أغلى من الألماس ويبدلّها بما يشبه في تفاهتها قطع الزجاج، تلك هي حسياته وهواه وغروره. فيخسر خسارة جسيمة فيما كان ينبغي له أن يربح ربحاً عظيماً.

اللّهم احفظنا من شر النفس والشيطان ومن شر الجن والإنس.

---

(١) «أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك»، البيهقي، الزهد ٢/ ١٥٦.. والمشهور على الألسنة: اعدى عدوك..إهـ (كشف الخفاء ١/ ١٤٣).

«سؤال»

كيف يكون البقاءُ في سجن جهنم بقاءاً خالداً جزاءً عادلاً لكفرٍ في زمن قصير؟

الجواب: إنَّ القتل الذي يحصل في دقيقة واحدة يعاقب عليه بسبع ملايين وثمانمائة وأربع وثمانين ألفاً من الدقائق -على اعتبار السنة ثلاثمائة وخمسة وستون يوماً- فإن كان هذا قانوناً عدلاً، فالذي يقضي عشرين سنة من عمره في أحضان الكفر ويموت عليه يستحق جزاءً بمقتضى هذا القانون العادل للبشر سجناً يدوم سبعة وخمسين ترليوناً وواحداً ومائتي مليارٍ ومائتي مليونٍ من السنين، باعتبار أن دقيقة من الكفر تعادل ألفَ قتل ويمكن أن يُفهَم من هذا وجهَ الانسجام مع عدالة قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ (البيّنة: ٦).

إنَّ سر العلاقة بين العددين المتباعدين جداً بعضهما عن بعض، هو أن الكفر والقتل تخريب وتعدّ على الآخرين، ولهما تأثير في الآخرين، فالقتلُ الذي يحصل في دقيقة واحدة يسلب خمس عشرة سنة في الأقل من حياة المقتول، حسب ظاهر الحال، لذا يسجن القاتل بدلاً منه، فدقيقة واحدة في الكفر الذي هو إنكارٌ لألف اسم واسم من الأسماء الحسنى وتزييف لنقوشها البديعة.. واعتداءٌ على حقوق الكائنات.. وإنكار لكمالاتها.. وتكذيب لدلائل الوحدانية التي لا تحد وردّ لشهاداتها.. تلقي بالكافر في أسفل سافلين لأكثر من ألف سنة، فتسجنه في قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ ...﴾

سعيد النورسي

«توافق لطيف ذو مغزى»

إن المادة (١٦٣) من القانون التي يُتهم بموجبها طلاب النور، ويُطالب بها إنزال العقوبة عليهم. هذا الرقم يتوافق مع عدد النواب الذين وافقوا على لائحة البرلمان الخاصة بمنح مائة وخمسين ألف ليرة لبناء مدرسة مؤلِّف رسائل النور، وقد كانوا (١٦٣) نائباً من بين (٢٠٠) نائباً في مجلس الأمة التركي.

هذا التوافق يقول معنىً: إن تواقيع (١٦٣) نائباً من نواب حكومة الجمهورية على وجه التقدير والإعجاب بخدمته يُبطل حكم المادة (١٦٣) بحقه.

وكذا من بين التوافقات اللطيفة ذات المغزى: أنه كان القبض على مؤلف رسائل النور وطلابه واعتقالهم في ٢٧/ نيسان/ ١٩٣٥ بينما كان قرار المحكمة بحقهم في ١٩/ آب/ ١٩٣٥ أي بعد (١١٥) يوماً. هذا الرقم يتوافق مع عدد كتب رسائل النور وهو (١١٥) كتاباً يضم (١٢٨) رسالة.

كما أنه يوافق عدد المتهمين المائة وخمسة عشر من طلاب النور الذين استُجوبوا واتهموا.

فهذا التوافق يدل على أن المصيبة التي ابتلي بها مؤلف رسائل النور وطلابها إنما تُنظّم بيدٍ من العناية (الإلهية).[1]

(١) إنه جدير بالملاحظة أنه بدأ القبض على قسم من طلاب النور واعتقلوا في ٢٥/ نيسان/ ١٩٣٥ وكان عدد الذين اتهموا بقرار المحكمة (١١٧) شخصاً حيث كرر اسم اثنين منهم. فيتوافق بهذا عدد الطلاب (١١٧) طالباً مع عدد أيام الاعتقال البالغ (١١٧) يوماً اعتباراً من اعتقال ذلك القسم من الطلاب إلى يوم قرار المحكمة. فيمزج هذا التوافق لطافة أخرى إلى لطافة التوافقات السابقة. (المؤلف).

النكتة الثامنة والعشرون من اللمعة الثامنة والعشرين

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۞ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۞ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ (الصافات: ٨-١٠)

﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ ﴾ (الملك: ٥)

سنبين نكتةً مهمة من نكات هذه الآيات الكريمة وأمثالها من الآيات لمناسبة اعتراض يرِد من أهل الضلالة على وجه النقد.

تفيد هذه الآيات الكريمة أنَّ جواسيسَ الجن والشياطين يسترقون السمعَ إلى إخبار السماوات ويجلبون منها الأخبار الغيبية إلى الكهان والماديين، والذين يعملون في تحضير الأرواح. فحيل بين هذه الأخبار وبين التجسس الدائمي لأولئك الجواسيس ورُجموا بالشهب أزيد مما كان في تلك الفترة من بداية الوحي، وذلك لئلا يلتبس شيء على الوحي.

نبين جواباً في غاية الاختصار عن سؤال في غاية الأهمية وهو ذو ثلاث شعب.

سؤال: يفهم من أمثال هذه الآيات الكريمة المتصدرة أنه لأجل استراق السمع وتلقي الخبر الغيبي حتى في الحوادث الجزئية بل أحياناً حوادث شخصية تقتحم جواسيس الشياطين مملكة السماوات التي هي في غاية البعد، لكأن تلك الحادثةَ الجزئية هي موضعُ بحث في كل جزء من أجزاء تلك المملكة الواسعة، ويمكن لأي شيطان كان، ومن أي مكان دخل إلى السماوات، التنصّت ولو بصورة مرقعة إلى ذلك الخبر وجلبه هكذا إلى الأرض. هذا المعنى الذي يُفهم من الآيات الكريمة لا يقبل به العقل والحكمة. ثم إنَّ قسماً من الأنبياء وهم أهل الرسالة، والأولياء وهم أهل الكرامة تسلموا ثمار الجنة التي هي فوق السماوات العلى -بنص الآية- وكأنهم يأخذونها من مكان قريب، وأحياناً

يشاهدون الجنة من قريب.[1] هذه المسألة تعني: نهاية البُعد في نهاية القُرب بحيث لا يسعها عقلُ هذا العصر.

ثم إن حالة من أحوال جزئية لشخص جزئي يكون موضع ذكر وكلام لدى الملأ الأعلى في السماوات العلى الواسعة جداً، هذه المسألة لا توافق إدارة الكون التي تسير في منتهى الحكمة.

علماً أن هذه المسائل الثلاث تعد من الحقائق الإسلامية.

الجواب: أولاً: إن الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ تفيد أن جواسيس الشياطين التي تحاول الصعود إلى السماوات للتجسس تُطرد بنجوم السماوات.

فقد بحثت هذه المسألة بحثاً جيداً في «الكلمة الخامسة عشرة»، وأُثبتت إثباتاً يقنع حتى أعتى الماديين، بل يلجؤهم إلى السكوت والقبول، وذلك بسبع مقدمات قاطعة هي بمثابة سبع مراتب للصعود إلى فهم الآية الكريمة.

ثانياً: نشير إلى هذه الحقائق الإسلامية الثلاث التي يُظن أنها بعيدة (عن العقل) بتمثيل وذلك لتقريبها إلى الأذهان القاصرة الضيقة.

هب أن الدائرةَ العسكرية لحكومةٍ تقع في شرقي البلاد، ودائرتَها العدلية في الغرب ودائرةَ المعارف في الشمال ودائرة الشؤون الدينية (المشيخة) في الجنوب، ودائرة الموظفين الإداريين في الوسط وهكذا. فعلى الرغم من البُعد بين دوائر هذه الحكومة، فإن كل دائرة لو استخبرت الأوضاع فيما بينها بالتلفون أو التلغراف ارتباطاً تاماً: عندها تكون البلادُ كلها كأنها دائرةٌ واحدة هي دائرة العدل، أو الدائرة العسكرية أو الدينية، أو الإدارية وهكذا.

مثال آخر: يحدث أحياناً أن دولاً متعددة ذات عواصم مختلفة، تشترك معاً في مملكة واحدة، بسلطات متباينة، من حيث مصالحها الاستعمارية فيها، أو لوجود امتيازات خاصة بها، أو من حيث المعاملات التجارية وغيرها. فكل حكومة عندئذ ترتبط بعلاقة مع تلك الرعية من حيث امتيازاتها، فعلى الرغم من أنها رعيةٌ واحدة وأمةٌ واحدة، فإن معاملات تلك الحكومات المتباينة -التي هي في غاية البعد- تتماسّ وتتقارب كلٌّ منها مع الأخرى في البيت

(١) انظر: البخاري، الكسوف ٩؛ مسلم، الصلاة ١١٢، الكسوف ١٧؛ أحمد بن حنبل، المسند ١/ ٣٥٨، ٢/ ١٦٨، ٢٢٣.

الواحد بل تشترك في كل إنسان. حتى تُشاهد مسائلُها الجزئية في الدوائر الجزئية وهي نقاط التّماس والتقارب، ولا تؤخذ كلُّ مسألة جزئية من الدائرة الكلية. ولكن عندما تُبحث تلك المسائل الجزئية، تُبحث كأنها أُخذت من الدائرة الكلية وذلك لارتباطها بالقوانين الكلية لتلك الدائرة. وتعطى لها صورة كأنها مسألة أصبحت موضع بحث في تلك الدائرة الكلية.

وهكذا ففي ضوء هذين المثالين:

إن مملكة السماوات التي هي في غاية البعد، من حيث العاصمة والمركز، فإن لها هواتفَ معنوية تمتد منها إلى قلوب الناس في مملكة الأرض. فضلاً عن أن عالَم السماوات لا يشرف على العالم الجسماني وحده بل يتضمن عالم الأرواح وعالم الملكوت؛ لذا فعالمُ السماوات يحيط بجهةٍ بعالم الشهادة تحت ستار.

وكذلك الجنة التي هي من العوالم الباقية، وهي دارُ البقاء، فمع أنها في غاية البعد، إلّا أن دائرة تصرفاتها تمتد امتداداً نورانياً وتنتشر إلى كل جهة تحت ستار عالم الشهادة.

فكما أن حواسَّ الإنسان التي أودعها الصانع الحكيم الجليل بحكمته وبقدرته في رأس الإنسان، فعلى الرغم من أن مراكزها مختلفة، فإن كلاً منها تسيطر على الجسم كله، وتأخذه ضمن دائرة تصرفها. كذلك الكون الذي هو إنسان أكبر يضم ألوف العوالم الشبيهة بالدوائر المتداخلة. فالأحوال الجارية في تلك العوالم والحوادث التي تقع فيها تكون موضع النظر من حيث جزئياتها وكلياتها، وخصوصياتها وعظمتها. بمعنى أن الجزئيات تُشاهَد في الأماكن الجزئية والقريبة، بينما الكليات والأمور العظيمة تُرى في المقامات الكلية والعظيمة.

ولكن قد تستولي حادثةٌ جزئية خصوصية على عالم عظيم فأينما يُلقى السمع تُسمع تلك الحادثة. وأحياناً تحشّد الجنود الهائلة إظهاراً للعظمة والهيئة وليس لقوة العدو. فمثلاً: إن حادثةَ الرسالة المحمدية، ونزول الوحي القرآني، لكونها حادثةٌ جليلة، فإن عالم السماوات كله، بل حتى كل زاوية من زواياه متأهب، وقد صفّت فيه الحراس، في تلك البروج العظيمة، من تلك السماوات العالية الرفيعة والبعيدة بعداً عظيماً. ويقذفون من النجوم المجانيق، طرداً لجواسيس الشياطين ودفعاً بهم عن السماوات. فالآية الكريمة عندما تُبرز المسألة هكذا برجم الشياطين بكثرة هائلة والقذف بالشهب ولاسيما في بداية الوحي في ذلك الوقت. تبين إشارةً

ربانيةً إلى الإعلان عن درجة عظمة الوحي القرآني وشعشعة سلطانه، وإلى درجة أحقيته وصوابه والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وهكذا يترجم القرآنُ الكريم ذلك الإعلان الكوني العظيم ويشير إلى تلك الإشارات السماوية.

نعم، إنَّ إظهار هذه الإشارات العظيمة السماوية، وإبراز مبارزة الشياطين للملائكة، مع إمكان طردِ جواسيس الشياطين بنفخٍ من مَلَك، إنما هو لإظهار عظمة الوحي القرآني وعلوه ورفعته. ثم إنَّ هذا البيان القرآني المهيب، وإظهار الحشود السماوية العظيمة، ليس تعبيراً عن أن للجن والشياطين قوةً واقتداراً بحيث تسوق أهلَ السماوات إلى المبارزة والمدافعة معهم، بل هي إشارةٌ إلى أنه لا دخل للشياطين والجن في أي موضع من مواضع هذا الطريق الطويل الممتد من قلب الرسول الأعظم ﷺ إلى عالم السماوات إلى العرش الأعظم.

وبهذا يعبّر القرآن الكريم عن أن الوحي القرآني حقيقةٌ جليلة حقيقٌ أن يكون موضع ذكر وبحث لدى الملأ الأعلى والملائكة كلهم في تلك السماوات الهائلة، بحيث يضطر الشياطين إلى الصعود إلى السماوات لينالوا شيئاً من إخبارها فيُرجَمون ولا ينالون شيئاً فيشير القرآن الكريم بهذا الرجم إلى أن الوحي القرآني النازل على قلب محمد ﷺ، وجبرائيل عليه السلام الذي نزل إلى مجلسه والحقائق الغيبية المشهودة لنظره، سليمة، صائبة، صحيحة، لا تدخل فيها شبهةٌ قط وفي أية جهة منها قط. وهكذا يعبّر القرآن الكريم عن هذه المسألة بإعجازه البليغ.

أما مشاهدة الجنة في أقرب الأماكن وقطف الثمار منها أحياناً، مع كونها بعيدة كل البعد عنا وكونها من عالم البقاء، فبدلالة التمثيلين السابقين يُفهم. أنَّ هذا العالمَ الفاني، عالم الشهادة، حجابٌ لعالم الغيب وعالم البقاء. إنه يمكن رؤية الجنة في كل جهة مع أن مركزها العظيم في مكان بعيد جداً، وذلك بوساطة مرآة عالم المثال. ويمكن أيضاً بوساطة الإيمان البالغ درجة حق اليقين أن تكون للجنّة دوائر ومستعمرات (لا مشاحة في الأمثال) في هذا العالم الفاني ويمكن أن تكون هناك مخابرات واتصالات معها بالأرواح الرفيعة وبهاتف القلب ويمكن أن ترد منها الثمار.

أما انشغال دائرة كلية بحادثة شخصية جزئية، أي ما ورد في التفاسير من أن الشياطين يصعدون إلى السماوات ويسترقون السمع هناك ويأتون بأخبار غيبية ملفقة للكهان، فينبغي

أن تكون حقيقته هكذا: إنه لا صعود إلى عاصمة عالم السماوات لتلقي ذلك الخبر الجزئي، بل هو صعود إلى بعض المواقع الجزئية في جو الهواء -الذي يشمله معنى السماوات- والذي فيه مواضعَ بمثابة مخافر (لا مشاحة في الأمثال) للسماوات، وتقع علاقاتٌ في هذه المواقع الجزئية مع مملكة الأرض. فالشياطين يسترقون السمعَ في تلك المواقع الجزئية لتلقي الأحداث الجزئية، حتى إن قلب الإنسان هو أحدُ تلك المقامات حيث يبارز فيه ملكُ الإلهام الشيطانَ الخاص.

أما حقائق القرآن والإيمان وحوادث الرسول ﷺ، فمهما كانت جزئية فهي بمثابة أعظم حادثة وأجلّها في دائرة السماوات وفي العرش الأعظم. حتى كأنها تنشر في الصحف المعنوية للمقدرات الإلهية الكونية (لا مشاحة في الأمثال) بحيث يذكر عنها ويبحث مسائلها في كل زاوية من زوايا السماوات، حيث إنه ابتداءً من قلب الرسول الكريم ﷺ وانتهاءً إلى دائرة العرش الأعظم مصونٌ من أي تدخل كان من الشياطين.

فإن القرآن مع بيانه لهذا إنما يعبّر بتلك الآيات الجليلة أنه: لا حيلة ولا وسيلة للشيطان لتلقى أخبار السماوات إلّا استراق السمع.

فيبين القرآن بهذا بياناً معجزاً بليغاً: ما أعظمَ الوحي القرآني وما أعظمَ قدرَه! وما أصدق نبوة محمد ﷺ وما أصوبَها! حتى لا يمكن الدنو إليهما بأية شبهة كانت وبأي شكل من الأشكال.

سعيد النورسي

اللمعة التاسعة والعشرون

رسالة التفكر الإيماني الرفيع
والمعرفة التوحيدية السامية [1]

بِاسْمِهِ سُبْحَانَهُ

اخوتي!

إنَّ رسالة التفكر هذه جليلة القدر، وإن إطلاق الإمام علي رضي الله عنه عليها -من جهة- اسمَ الآية الكبرى يبين قيمتَها الرفيعة تماماً.

فهي رسالةُ معرفةٍ إيمانية وردت إلى القلب بعين اليقين، في أثناء أذكار الصلاة. وأثمرت كثيراً من الرسائل. وأصبحت غذاءً للعقل والفكر وعلاجاً لهما طوال ثلاثين سنة. فمن الأنسب أن تُدرَج ضمن «اللمعات» وأن يُطبع منها أربعون أو خمسون نسخة مستقلة.

سعيد النورسي

هذه اللمعة كُتبت في التجريد المطلق في سجن «اسكي شهر» قبل عشرين سنة.

---

(١) كتب الأستاذ النورسي هذه الرسالة باللغة العربية، سوى المقدمات والهوامش التي كتبها بالتركية، واستنسخها المستنسخون مع ضبط الحروف ووضع الحركات تسهيلاً لقراءتها قراءة صحيحة، ولاسيما لغير قراء العربية. وقد احتفظنا بالنص كما هو مع ترجمة المقدمات والهوامش.



وبه نستعين

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد

وعلى آله وصحبه أجمعين.

إيضاح

لقد امتزج قلبي بعقلي منذ ثلاثة عشر عاماً ضمن انتهاج مسلك التفكر الذي يأمر به القرآنُ المعجز البيان كقوله تعالى ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (البقرة:٢١٩) ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الأعراف:١٧٦) ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ (الروم:٨) ﴿ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الروم:٢١) وأمثالها من الآيات التي تحث على التفكر مثلما يحث عليه حثاً عظيماً الحديث الشريف كقوله ﷺ **(تفكر ساعة خير من عبادة سنة)**(١).

ولقد تواردت في غضون هذه السنوات الثلاثين على عقلي وقلبي ضمن انتهاج مسلك التفكر، أنوارٌ عظيمة وحقائقُ متسلسلة طويلة. فوضعتُ بضعَ كلمات -من قبيل الإشارات- لا للدلالة على تلك الأنوار، بل للإشارة إلى وجودها ولتسهيل التفكر فيها وللمحافظة على انتظامها.

وكنت أُردّد بيني وبين نفسي تلك الكلمات لساناً بعبارات عربية في غاية الاختلاف. وعلى الرغم من تكراري لها آلاف المرات خلال هذه الفترة الطويلة وأنا انتهج هذا التفكر لم يطرأ عليّ السأمُ ولم يعتر تذوّقَها النقصُ، ولم تنتف حاجةُ الروح إليها. لأن ذلك التفكر لمعاتٌ تلمعت من آيات القرآن الكريم فتمثلت فيه جلوةٌ من خصائص الآيات، تلك هي عدمُ الاستشعار بالسأم والملل والحفاظ على حلاوتها وطراوتها.

(١) انظر: العجلوني، كشف الخفاء ١/ ٣٧١.

وقد رأيت في الآونة الأخيرة أن العقدة الحياتية القوية والأنوارَ الساطعة التي تحتويها أجزاء «رسائل النور» ما هي إلّا لمعاتُ سلسلةِ ذلك التفكر، فنويتُ كتابة مجموعها في أخريات أيام عمري، على أمل تأثيرها في غيري مثلما أثّرت فيّ. وستكون لمجموعها قوة وقيمة أخرى وإن أدرجت أهم أجزائها في الرسائل.

ولما كان آخر المطاف في رحلة العمر غير معيّن. وأن أوضاعي في سجن «اسكي شهر» قد بلغت حداً أشد من الموت بكثير، فقد كتبتُ تلك السلسلة من التفكر دون انتظار لآخر الحياة، ودون تغيير فيها، وبناءً على رغبة إخوة النور وإصرارهم بقصد استفادتهم. وجعلتُها في سبعة أبواب.

ولما كانت الأكثرية المطلقة من هذا النوع من الحقائق تخطر بالبال في أثناء أذكار الصلاة، وأن كل كلمة من كلمات الأذكار بمثابة منبع تلك الحقائق. كان ينبغي أن تُكتب على وفق ترتيبها وتسلسلها في أذكار الصلاة، أي (**سبحان الله والحمد لله والله أكبر ولا إله إلّا الله**) إلّا أن ظروف السجن الانفرادي المضطربة آنذاك قد أخلّت بذلك الترتيب.

أما الآن فستكون الأبواب على النحو الآتي:

الباب الأول: في (سبحان الله)

والباب الثاني: في (الحمد لله)

والباب الثالث: في (الله أكبر)

والباب الرابع: في (**لا اله إلّا الله**).

وذلك لأن معظم الشافعية يذكرون: (**لا إله إلّا الله**) ثلاثاً وثلاثين مرة بعد ذكرهم كلاً من **سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر** ثلاثاً وثلاثين مرة.

سعيد النورسي

الباب الأول

في «سبحان الله»

وهو ثلاثة فصول

الفصل الأول

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

فَسُبْحانَكَ يا مَنْ تُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ السَّماءُ بِكَلِمَاتِ نُجُومِهَا وَشُمُوسِهَا وَأقمَارِهَا، بِرُمُوزِ حِكَمِهَا.

وَيُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ الجَوُّ بِكَلِمَاتِ سَحاباتِهِ وَرُعُودِهَا وَبُرُوقِهَا وَأمطَارِهَا، بِإشاراتِ فَوائِدِهَا.

وَيُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ رَأسُ الأرض بِكَلِمَاتِ مَعَادِنِهَا وَنَبَاتَاتِهَا وَأشْجارِهَا وَحَيْوَانَاتِهَا، بِدَلالاتِ انْتِظَامَاتِهَا.

وَتُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ النَّبَاتَاتُ وَالأشْجَارُ بِكَلِمَاتِ أوْرَاقِهَا وَأزهَارِهَا وَثَمَرَاتِهَا، بَتَصْريحَاتِ مَنَافِعِهَا.

وَتُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ الأزهَارُ وَالأثْمَارُ بِكَلِمَاتِ بُذُورِهَا وَأجْنِحَتِها وَنَوَاتَاتِهَا، بِعَجَائِبِ صَنْعَتِهَا.

وَتُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ النَّوَاتَاتُ وَالبُذُورُ بَألسِنَةِ سَنَابِلِهَا وكَلِمَاتِ حَبَّاتِهَا بالمُشَاهَدةِ.

وَيُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ كُلُّ نَبَاتٍ بِغَايَةِ الوُضُوحِ وَالظُهُورِ عِنْدَ انْكِشافِ أكمَامِها وَتَبَسُّمِ بَنَاتِهَا بَأفْوَاهِ مُزَيَّنَاتِ أزاهيرِهَا وَمُنْتَظَمَاتِ سَنَابِلِهَا، بِكَلِمَاتِ مَوْزُونَاتِ بُذُورِهَا وَمَنْظُومَاتِ حَبّاتِهَا، بِلِسَانِ نِظَامِهَا في ميزانِهَا في تَنْظِيمِها في تَوْزِينِهَا في صَنْعَتِهَا في صِبغَتِها في زِينَتِهَا في نُقُوشِهَا في

رَوَائِحِهَا في طُعُومِهَا في ألوَانِهَا في أشْكَالِهَا،[١] كَمَا تَصِفُ تَجَلِّيَاتِ صِفَاتِكَ وتُعَرِّفُ جَلَواتِ أسمائِكَ وَتُفَسِّرُ تَوَدُّدَكَ وَتَعَرُّفَكَ بِمَا يَتَقَطَّرُ مِنْ ظَرَافَةِ عُيُونِ أزاهيرِهَا وَمِنْ طَرَاوَةِ أسْنَانِ سَنَابِلِهَا مِنْ رَشَحَاتِ لَمَعَاتِ جَلَوَاتِ تَوَدُّدِكَ وتَعَرُّفِكَ إلى عِبَادِكَ.

سُبْحانَكَ يَا وَدُودُ يا مَعْرُوفُ مَا أحسَنَ صُنْعَكَ وَمَا أزيَنَهُ وَمَا أبيَنَهُ وَمَا أتْقَنَهُ!

سُبْحَانَكَ يا مَن تُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ جَمِيعُ الأشجار بِكَمَالِ الصَّرَاحَةِ وَالبَيَانِ عِنْدَ انْفِتَاحِ أكمَامِهَا وَانْكِشافِ أزهَارِهَا وتَزَايُدِ أورَاقِهَا وَتكَامُلِ أثمَارِهَا وَرَقْصِ بَنَاتِهَا عَلى أيَادي أغْصَانِهَا حَامِدَةً بأفْوَاهِ أوراقِهَا الخَضِرَةِ بِكَرَمِكَ، وَأزهَارِهَا المُتَبَسِّمَةِ بِلُطْفِكَ، وَأثمَارِهَا الضَّاحِكَةِ بِرَحْمَتِكَ، بِألسِنَةِ نِظَامِهَا في ميزَانِهَا في تَنْظِيمِهَا في تَوْزينهَا في صَنْعَتِهَا في صِبْغَتِهَا في زِينَتِهَا في نُقُوشِهَا في طُعومِهَا في رَوَائحِهَا في ألوَانِهَا في أشكَالِهَا في اختِلافِ لُحُومِهَا في كَثْرَةِ تَنَوُّعِهَا في عَجَائبِ[٢] خِلقَتِهَا كَمَا تَصِفُ صِفَاتِكَ وَتُعَرِّفُ أسْمَاءَكَ وتُفَسِّرُ تَحَبُّبَكَ وَتعَهُّدَكَ لِمَصْنُوعَاتِكَ بِمَا يَتَرَشَّحُ مِنْ شِفَاهِ ثِمَارِهَا مِنْ قَطَراتِ رَشَحَاتِ لَمَعَاتِ جَلَوَاتِ تَحَبُّبِكَ وتَعَهُّدِكَ لِمَخْلُوقَاتِكَ.

حَتّى كَأنَّ الشَّجَرَةَ المُزَهَّرَةَ قَصِيدَةٌ مَنْظُومَةٌ مُحَرَّرَةٌ، لِتُنْشِدَ لِلصَّانعِ المَدَائحَ المُبَهَّرَةَ.

أو فَتَحتْ بِكَثْرَةٍ عُيُونُهَا المُبَصَّرَةُ لِتَنْظُرَ للفَاطِرِ العَجَائِبَ المُنَشَّرَةَ.

أوْ زَيَّنَتْ لِعيدِهَا أعْضاءهَا المُخَضَّرَةَ لِيَشْهَدَ سُلْطَانُهَا آثَارَهَا المُنَوَّرَة. وَتُشْهِرَ في المَشْهَرِ مُرَصَّعَاتِ الجَوْهَرِ. وَتُعْلِنَ لِلبَشَرِ حِكْمَةَ خَلْقِ الشَّجَرِ.

سُبْحَانَكَ مَا أحْسَنَ إحْسَانَكَ مَا أبْيَنَ تِبْيَانَكَ مَا أبْهَرَ بُرْهَانَكَ ومَا أظْهَرَهُ ومَا أنْوَرَهُ!. سُبْحَانَكَ مَا أعْجَبَ صَنْعَتَكَ!

تَلألُؤُ الضِّياءِ بدَلالَةِ حِكَمِهَا؛ مِنْ تَنْوِيرِكَ، تَشْهِيرِكَ.. تَمَوُّجُ الأعْصَارِ بِسِرّ وَظَائِفِهَا - خُصُوصاً في نَقْلِ الكَلِمَاتِ- مِنْ تَصْرِيفِكَ، تَوْظِيفِكَ.. تَفَجُّرُ الأنْهَارِ بإشَارَةِ فَوَائِدِهَا؛ مِنْ تَدْخِيرِكَ، تَسْخِيرِكَ.. تَزَيُّنُ الأحْجَارِ والحَدِيدِ بِرُمُوزِ خَوَاصِّهَا وَمَنَافِعِهَا - خُصُوصاً في

---

(١) إن اثنى عشر مشهداً وحجاباً، مشهداً فوق مشهد، برهاناً ضمن برهان، دليلاً خلال دليل؛ تنبعث كلها من زهرة واحدة بنغمات متنوعة ولمعات متباينة فترِي القلبَ المصورَ الأزلي، وتلفت عين العقل إليه. (المؤلف).

(٢) هذه الدلائل الخمسة عشر، الدليل ضمن الدليل، والبرهان داخل البرهان تشير إلى الصانع الجليل. (المؤلف).

نَقْلِ الأَصْواتِ والمُخَابَرَاتِ - مِن تَدْبِيرِكَ، تَصْوِيرِكَ.. تَبَسُّمُ الأزهَارِ بِعَجَائِبِ حِكَمِهَا؛ مِنْ تَحْسِينِكَ، تَزْيِينِكَ.. تَبَرُّجُ الأَثْمَارِ بِدَلالَةِ فَوَائِدِهَا؛ مِنْ إِنْعَامِكَ، إِكْرَامِكَ.. تَسَجُّعُ الأَطْيَارِ بِإِشَارَةِ انْتِظَامِ شَرائِطِ حَيَاتِهَا؛ مِنْ إِنطَاقِكَ إِرفَاقِكَ.. تَهَزُّجُ الأَمْطَارِ بِشَهَادَةِ فَوَائِدِهَا؛ مِنْ تَنـزِيلِكَ، تَفْضِيلِكَ.. تَحَرُّكُ الأَقْمَارِ بِشَهَادَةِ حِكَمِ حَرَكَاتِهَا؛ مِنْ تَقْدِيرِكَ، تَدْبِيرِكَ، تَدْوِيرِكَ، تَنْوِيرِكَ.

سُبْحانَكَ مَا أَنْوَرَ بُرهَانَكَ مَا أَبْهَرَ سُلطَانَكَ!

الفصل الثاني

سُبْحَانَكَ لا أُحصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أنت كَمَا أَثْنَيْتَ عَلى نَفْسِكَ فِي فُرْقَانِكَ. وَأَثنى عَلَيْكَ حَبِيبُكَ بِإِذْنِكَ. وَأَثنَتْ عَلَيْكَ جَمِيعُ مَصْنُوعَاتِكَ بِإِنْطَاقِكَ.

سُبْحَانَكَ مَا عَرَفْنَاكَ حَقَّ مَعْرِفَتِكَ يا مَعْرُوفُ بِمُعْجِزَاتِ جَميعِ مَصنوُعَاتِكَ وَبِتَوصِيفَاتِ جَمِيـعِ مَخْلُوقَاتِكَ وَبِتَعْرِيفَاتِ جَمِيـعِ مَوْجُودَاتِكَ.

سُبْحَانَكَ مَا ذَكَرْنَاكَ حَقَّ ذِكْرِكَ يَا مَذْكُورُ بِأَلسِنَةِ جَميعِ مَخلُوقَاتِكَ وَبِأَنفُسِ جَميعِ كَلِمَاتِ كِتَابِ كَائِنَاتِكَ وَبِتَحِيَّاتِ جَميعِ ذَوِي الحَيَاةِ مِنْ مَخْلُوقَاتِكَ لَكَ وَبِمَوْزُونَاتِ جَميعِ الأَورَاقِ المُهْتَزَّةِ الذّاكِرَةِ فِي جَميعِ أَشْجَارِكَ ونَبَاتَاتِكَ.

سُبْحَانَكَ مَا شَكَرْنَاكَ حَقَّ شُكْرِكَ يا مَشْكُورُ بِأَثنِيَةِ جَميعِ إِحْسَانَاتِكَ عَلى إِحْسَانِكَ عَلى رؤوسِ الأَشْهَادِ وَبِإِعْلانَاتِ جَميعِ نِعَمِكَ عَلى إِنْعَامِكَ فِي سُوقِ الكَائِنَاتِ وَبِمَنْظُومَاتِ جَميعِ ثَمَرَاتِ رَحْمَتِكَ وَنِعْمَتِكَ لَدى أَنْظَارِ المَخْلُوقَاتِ وبِتَحْمِيدَاتِ جَميعِ مَوْزُونَاتِ أزاهِيرِكَ وَعَنَاقِيدِكَ المُنَظَّمَةِ فِي خُيُوطِ الأشجار وَالنَّبَاتَاتِ.

سُبْحَانَكَ مَا أعظمَ شَأنَكَ وَمَا أَزيَنَ بُرْهَانَكَ وَمَا أَظْهَرَهُ وَمَا أَبْهَرَهُ!

سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ يَا مَعْبُودَ جَميعِ المَلائِكَةِ وجَميعِ ذَوِي الحَيَاةِ وجَميعِ العَنَاصِرِ والمَخْلُوقَاتِ، بِكَمَالِ الإِطَاعَةِ والامْتِثَالِ والانتِظَامِ والاتِّفَاقِ والاشْتِيَاقِ.

سُبْحَانَكَ مَا سَبَّحْنَاكَ حَقَّ تَسْبِيحِكَ يا مَنْ ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ (الإسراء:٤٤).

سُبحَانَكَ تُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ السَّماءُ وَالأرضُ بِجَميعِ تَسْبِيحاتِ جَميعِ مَصْنُوعَاتِكَ وَبِجَميعِ تَحْمِيدَاتِ جَميعِ مَخْلُوقَاتِكَ لَكَ.

سُبْحَانَكَ تُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ الأرضُ وَالسَّمَاءُ بِجَميعِ تَسْبِيحَاتِ جَميعِ أَنْبيَائِكَ وَأَوليَائِكَ وَمَلائِكَتِكَ عَلَيهِمْ صَلَوَاتُكَ وَتَسْلِيمَاتُكَ.

سُبْحَانَكَ تُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ الكَائِنَاتُ بِجَميعِ تَسْبِيحَاتِ حَبيبِكَ الأكرم ﷺ. وَبِجَميعِ تَحْمِيدَاتِ رَسُولِكَ الأعظم لَكَ، عَلَيهِ وَعَلى آلِهِ أَفْضَلُ صَلَوَاتِكَ وَأَتَمُّ تَسْليمَاتِكَ.

سُبْحَانَكَ يا مَنْ تُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ هذِهِ الكَائِناتُ بِأَصْدِيَةِ تَسْبيحَاتِ مُحَمَّدٍ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لَكَ؛ إذ هُوَ الَّذِي تتَمَوَّجُ أَصْدِيَةُ تَسْبيحَاتِهِ لَكَ عَلى أَمْوَاجِ الأَعْصَارِ وأَفْوَاجِ الأَجْيَالِ.

اللهمَّ فَأَبِّدْ عَلى صَفَحَاتِ الكَائِنَاتِ وَأَوْرَاق الأَوْقَاتِ إلى قِيَامِ العَرَصَاتِ أَصْدِيَةَ تَسْبيحَاتِ مُحَمَّدٍ عَلَيهِ الصَلاةُ والتَّسْليماتُ.

سُبْحَانَكَ يا مَنْ تُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ الدُنْيَا بِآثَارِ شَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ. اللّهمَّ فَزَيِّنِ الدُّنيَا بِآثارِ دِيَانَةِ مُحَمَّدٍ عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسّلامُ إلى يَوْمِ القِيَامِ.

سُبْحَانَكَ يا مَنْ تُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ الأَرضُ سَاجِدَةً تَحتَ عرْشِ عَظَمَةِ قُدْرَتِكَ بِلِسَانِ مُحَمَّدِهَا عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ.

اللّهمَّ فَأَنْطِقِ الأرض بِأَقْطَارِهَا بِلِسَانِ مُحَمَّدٍ عَلَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى يَوْم البَعْثِ والقِيَامِ.

سُبْحَانَكَ يَا مَنْ تُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ جَميعُ المُؤمِنينَ وَالمُؤْمِنَاتِ في جَميعِ الأَمْكِنَةِ وَالأَوْقَاتِ بِلِسانِ مُحَمَّدِهِمْ عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ.

اللهمَّ فَأَنْطِقِ المُؤْمِنِينَ وَالمُؤمِنَاتِ إلى يَومِ القِيَامِ بِأَصْدِيَةِ تَسْبيحَاتِ مُحَمَّدٍ لك عَلَيه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ.

الفصل الثالث

ذُو الجَلال سُبْحَانَ الله الوَاحِدِ الأحَدِ المُتَقَدِّسِ المُتَنـزِّهِ عَنِ الأضْدَادِ وَالأنْدَادِ وَالشُرَكَاءِ.

ذُو الجَلال سُبْحَانَ الله القَدِيرِ الأزَليّ المُتَقَدِّسِ المُتَنـزِّهِ عَنِ المُعِينِ وَالوُزَرَاءِ.

ذُو الجَلال سُبْحَانَ الله القَدِيمِ الأزَلِيِّ المُتَقَدِّسِ المُتَنـزِّهِ عَنْ مُشَابَهَةِ المُحْدَثَاتِ الزَّائِلاتِ.

ذُو الجَلال سُبْحَانَ الله الوَاجِبِ وُجُودُهُ المُمْتَنِعِ نَظِيرُهُ المُمكِنِ كُلُّ مَا سِوَاهُ المُتَقَدِّسِ المُتَنـزِّهِ عَنْ لَوَازِمِ ماهيَّاتِ المُمْكِنَاتِ.

ذُو الجَلال سُبْحَانَ الله الَّذي ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (الشورى:١١) المُتَقَدِّسُ المُتَنـزِّهُ عَمَّا تَتَصوَّرُهُ الأوْهَامُ القَاصِرَةُ الخَاطِئَةُ.

ذُو الجَلال سُبْحَانَ الله الَّذي ﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (الروم:٢٧) المُتَقَدِّسُ المُتَنـزِّهُ عَمَّا تَصِفُهُ العَقَائِدُ النَاقِصَةُ البَاطِلَةُ.

ذُو الجَلال سُبْحَانَ الله القَديرِ المُطْلَقِ الغَنيِّ المُتَقَدِّسِ المُتَنـزِّهِ عَنِ العَجْزِ والاحْتِياجِ.

ذُو الجَلال سُبْحَانَ الله الكامِلِ المُطْلَقِ في ذاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأفْعالِهِ المُتَقَدِّسِ المُتَنـزِّهِ عَنِ القُصُورِ والنُّقْصَانِ، بِشَهَادَاتِ كَمَالاتِ الكائِنَاتِ؛ إذ مَجْمُوعُ مَا في الكائِنَاتِ مِن الكَمالِ وَالجَمَالِ ظِلٌّ ضَعيفٌ بِالنِّسْبَةِ إلى كَمَالِهِ سُبْحَانَهُ، بالحَدْسِ الصَّادِقِ وَبِالبُرْهَانِ القَاطِعِ وبالدَّليل الوَاضِحِ. إذ التَّنْويرُ لا يَكُونُ إلّا مِنَ النُّورانِيِّ وبِدَوَامِ تَجَلّي الجَمَالِ وَالكَمَالِ مَعَ تَفَانِي المَرَايا وسَيَّالِيَّةِ المَظَاهِرِ ، وبِإجْمَاعِ وَاتِّفَاقِ جَمَاعَةٍ كَثيرَةٍ مِنَ الأعَاظِمِ المُخْتَلِفِينَ في المَشَارِبِ والكَشْفِيَّاتِ المُتَّفِقِينَ عَلى ظِلِّيَّةِ كَمَالاتِ الكَائِنَاتِ لأنْوَارِ كَمالِ الذَّاتِ الوَاجِبِ الوُجُودِ.

ذُو الجَلال سُبْحَانَ الله الأزَليِّ الأبدي السَّرْمَديِّ المُتَقَدِّسِ المُتَنـزِّهِ عَنِ التَّغيُّرِ والتَّبدُّلِ اللّازِمَيْنِ للمُحْدَثَاتِ المُتَجَدّدات المُتكامِلاتِ.

ذُو الجَلال سُبْحَانَ الله خَالِقِ الكَوْنِ وَالمَكَانِ المُتَقَدِّسِ المُتَنـزِّهِ عَنِ التَّحَيُّزِ وَالتَّجَزُّءِ اللَّازِمَيْنِ للمَادِّيَّاتِ وَالمُمْكِنَاتِ الكَثِيفَاتِ الكَثِيراتِ المُقَيَّدَاتِ المَحْدُودَاتِ.

ذُو الجَلال سُبْحَانَ الله القَدِيمِ الباقِي المُتَقَدِّسِ المُتَنـزِّهِ عَنِ الحُدُوثِ وَالزَّوَالِ.

ذُو الجَلال سُبْحَانَ الله الوَاجِبِ الوُجُودِ المُتَقَدِّسِ المُتَنـزِّهِ عَنِ الوَلَدِ وَالوَالِدِ وَعَنِ الحُلُول والاتّحَادِ وَعَنِ الحَصْرِ وَالتَّحْدِيدِ وَعَمَّا لا يَلِيقُ بِجَنَابِهِ وَمَا لا يُنَاسِبُ وُجوُبَ وُجُودِهِ وَعَمَّا لا يُوَافِقُ أزَلِيَّتَهُ وَأبَدِيَّتَهُ.

جَلَّ جَلالُهُ. وَلا إلهَ إلّا هُوَ.

الباب الثاني

في « الحَمْدُ لله.. »[1] في هذا الباب تسع نقاط..

النقطة الأولى:

الحَمْدُ لله عَلى نِعَمَةِ الإيمان المُزِيلِ عَنّا ظُلُمَاتِ الجِهَاتِ السِّتّ.

إذْ جِهةُ المَاضِي في حُكْمِ يَميننا مُظْلِمَةٌ وَمُوحِشَةٌ بِكَونِهَا مَزَاراً أكبَرَ. وبِنِعْمَةِ الإيمان تَزُولُ تِلكَ الظُّلْمَةُ وَيَنْكَشِفُ المَزَارُ الأكْبَرُ عَنْ مَجْلِسٍ مُنَوَّرٍ.

وَيَسَارُنَا الَّذي هُوَ الجِهَةُ المُسْتَقْبَلَةُ، مُظْلِمَةٌ وَمُوحِشَةٌ بِكَوْنِهَا قَبراً عَظيماً لَنَا. وبِنِعْمَةِ الإيمان تَنْكَشِفُ عَنْ جِنَانٍ مُزَيَّنَةٍ فيهَا ضِيافَاتٌ رَحْمَانيَّةٌ.

وَجِهَةُ الفَوقِ وَهُوَ عَالَمُ السَّمواتِ مُوحِشَةٌ مُدْهِشَةٌ بِنَظَر الفَلسَفَةِ. فَبِنِعْمَةِ الإيمان تتكَشَّفُ تِلكَ الجِهَةُ عَنْ مَصابيحَ مُتَبَسِّمَةٍ مُسَخَّرةٍ بِأمْرِ مَنْ زَيَّنَ وَجه السَّماءِ بِهَا يُسْتَأنَسُ بِهَا وَلا يُتَوَحَّشُ مِنْهَا.

وَجِهَةُ التَّحْتِ وَهيَ عَالَمُ الأرض مُوحِشَةٌ بِوَضْعيَّتِهَا في نَفْسِهَا بِنَظَرِ الفَلسَفَةِ الضَّالَّةِ. فَبنعْمَةِ الإيمان تَتكَشَّفُ عَنْ سَفينَةٍ رَبَّانيَةٍ مُسَخَّرَةٍ وَمَشْحُونَةٍ بِأنْوَاعِ اللَّذَائِذِ والمَطْعُومَاتِ؛ قَدْ أركَبَهَا صَانِعُهَا نَوعَ البَشَرِ وَجِنسَ الحَيَوَانِ للسِّياحَةِ في أطْرَافِ مَملَكَةِ الرَّحْمنِ.

وَجِهَةُ الأمَامِ الَّذي يَتَوَجَّهُ إلى تِلكَ الجِهَةِ كُلُّ ذَوي الحَيَاةِ مُسْرِعَةً قَافِلَةً خَلفَ قَافِلَةٍ، تَغيبُ تِلكَ القَوافِلُ في ظُلُمَاتِ العَدَمِ بِلا رُجُوعٍ. وَبِنِعْمَةِ الإيمان تَتكَشَّفُ تِلكَ السِياحَةُ عَنِ انتِقَالِ ذَوي الحيَاةِ مِنَ دَارِ الفَنَاءِ إلى دَارِ البَقاءِ، وَمِنْ مَكَانِ الخِدْمَةِ إلى مَوضِعِ أخْذِ الأُجْرَةِ، وَمِنْ مَحَلِّ الزَّحْمَةِ إلى مَقامِ الرَّحْمَةِ والاستِرَاحَةِ. وَأمَّا سُرعَةُ ذَوي الحَيَاةِ في أمْوَاجِ المَوتِ، فَلَيْسَتْ سُقُوطاً وَمُصيبَةً، بل هِيَ صُعُودٌ باشتِيَاقٍ وَتَسَارُعٌ إلى سَعادَاتِهِم.

---

(١) لما كان الشكر أهم أسس «رسائل النور» بعد التفكر، وأن أكثر مراتب الشكر والحمد وحقائقهما قد أُوضحت إيضاحاً كاملاً في أجزاء «رسائل النور»؛ لذا يذكر هنا بعض مراتب الحمد الذي يقابل نعمة الإيمان ذكراً مختصراً جداً، اكتفاءً بتلك المراتب المذكورة. فإن للحمد مراتب حسب مراتب نعمة الإيمان. (المؤلف).

وَجِهَةُ الخَلْفِ أيضاً مُظْلِمَةٌ مُوحِشَةٌ. فَكُلُّ ذي شُعُورٍ يَتحيَّرُ مُتَرَدِّداً ومُستَفسِراً بـ«مِنْ أينَ؟ إلى أينَ؟». فلأنَّ الغَفْلَةَ لا تُعْطي لهُ جَواباً، يَصيرُ التَرَدُّدُ والتَّحَيُّرُ ظُلُمَاتٍ في رُوحِهِ.. فَبِنِعْمَةِ الإيمان تَنْكَشِفُ تِلكَ الجِهَةُ عَنْ مَبْدَإِ الإنسان وَوَظيفَتِهِ، وَبِأنَّ السُّلطَانَ الأزَليَّ أرسَلَهُمْ مُوَظَفينَ إلى دَارِ الامْتِحَانِ..

فَمِنْ هذِه الحَقيقَةِ يَكونُ «الحَمْدُ» عَلى نِعْمَةِ الإيمان المُزيلِ لِلظُّلُمَاتِ عَنْ هذِه الجِهَاتِ السِّتِّ أيضاً نِعْمَةً عَظيمَةً تَسْتَلْزِمُ «الحَمْدَ». إذ بـ«الحَمْدِ» يُفْهَمُ دَرَجَةُ هذِهِ النِّعْمَةِ وَلَذَّتُهَا. فَالحَمْدُ لله عَلى «الحَمْدُ لله في تَسَلسُلٍ يَتَسَلسَلُ في دَوْرٍ دَائرٍ بِلا نِهَايَةٍ».

النقطة الثانية

الحَمْدُ لله عَلى نِعْمَةِ الإيمان المُنَوِّرِ لَنَا الجِهَاتِ السِّتَّ. فَكما أن الإيمان بإزَالَتِهِ لِظُلُمَاتِ الجِهَاتِ السِّتِّ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ جِهَةِ دَفْعِ البَلايا؛ كَذَلِكَ أنَّ الإيمان لِتَنْويرِهِ لِلجِهَاتِ السِّتِّ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ أخرى مِنْ جِهَةِ جَلْبِ المَنَافِعِ. فَالإنسَانُ لعلاقَتِهِ بِجَامِعيَّةِ فِطْرَتِهِ بِمَا في الجِهَاتِ السِّتِّ مِنَ المَوجُودَاتِ. وَبِنِعْمَةِ الإيمان يُمْكِنُ لِلإنسَانِ اسْتِفَادَةٌ مِنْ جَميعِ الجِهَاتِ السِّتِّ أينما يَتوَجَّهُ. فَبِسِرِّ ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ (البقرة:١١٥) تَتَنَوَّرُ لهُ تِلكَ الجِهَةُ بِمَسَافَتِهَا الطَّويلَةِ بِلَا حَدٍّ. حَتَّى كأَنَّ الإنسانَ المُؤمِنَ لَهُ عُمْرٌ مَعْنَوِيٌّ يَمْتَدُّ مِنْ أوَلِ الدُّنيَا إلى آخِرِهَا، يَسْتَمِدُّ ذَلِكَ العُمْرُ من نُور حَيَاةٍ مُمْتَدَّةٍ من الأزَلِ إلى الأبَدِ. وحتى إنَّ الإنسانَ بِسِرّ تَنْويرِ الإيمانِ لِجِهَاتِهِ يَخْرُجُ عَنْ مَضِيقِ الزَّمَانِ الحَاضِرِ وَالمَكَانِ الضَّيِّقِ إلى سَاحَةِ وُسْعَةِ العَالَمِ، وَيَصيرُ العَالَمُ كَبَيتِهِ، والمَاضِي وَالمُسْتَقْبَلُ زَمَانَاً حَاضِراً لِرُوحِهِ وَقَلْبِهِ. وَهَكَذا فَقِسْ...

النقطة الثالثة

الحَمْدُ لله عَلى الإيمان الحَاوي لِنُقطَتَي الاسْتِنَاد وَالاسْتِمْدَادِ.

نَعَمْ، بِسِرِّ غَايَةِ عَجْزِ البَشَرِ وَكَثرَةِ أعْدَائِهِ يَحتَاجُ البَشَرُ أَشَدَّ احتِيَاجٍ إلى نُقطَةِ اسْتِنَادٍ يَلْتَجِئُ إليها لِدَفْعِ أعْدائِهِ الغَيْرِ [1] المَحْدُودَةِ، وَبِغايَةِ فَقْرِ الإنسان مَعَ غَايَةِ كَثْرَةِ حاجَاتِهِ وَآمَالِهِ يَحْتَاجُ أشَدَّ احتِيَاجٍ إلى نُقطَةِ اسْتِمدَادٍ يَستَمِدُّ مِنْهَا، وَيَسْأَلُ حَاجَاتِهِ بِهَا.

---

(١) جاء في المصباح المنير للفيومي، في مادة (غير) ما نصّه: «... وقوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ إنما وصف بها المعرفةَ، لأنها أشبَهَتِ المعرفةَ بإضافتها إلى المعرفة، فعوملت معاملتها. ومن هنا اجترأ بعضُهم فادخل عليها الألف واللام، لأنها لمّا شابهت المعرفة، بإضافتها إلى المعرفة، جاز أن يدخُلها ما يعقب الإضافة، وهو الألف واللام...».

فَالإيمَانُ باللهِ هُوَ نُقطَةُ اسْتِنَادٍ لِفطرَةِ البَشَرِ. وَالإيمَانُ بِالآخِرَةِ هُوَ نُقطَةُ اِسْتِمدَادٍ لِوِجْدَانِهِ. فَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ هَاتَينِ النُّقطَتَينِ يَتَوَحَّشُ عَلَيهِ قَلبُهُ وَرُوحُهُ، وَيُعَذِّبُهُ وِجدَانُهُ دائِماً. وَمَنْ اسْتَنَدَ بالإيمَانِ إلى النُقطَةِ الأولى، وَاسْتَمَدَّ مِنَ النُقطَةِ الثَّانِيَة أحسَّ مِنْ أعماق رُوحِهِ لَذَائِذَ مَعْنَوِيَّةً وَأُنْسِيَةً مُسَلِّيَةً وَاعْتِمَاداً يَطْمَئِنُّ بِهَا وِجْدَانُهُ.

النقطة الرابعة

الحَمْدُ لله عَلى نُورِ الإيمان المُزِيلِ للآلامِ عَنِ اللَّذَائِذِ المَشْرُوعَةِ بِإراءَةِ دَوَرَانِ الأمْثَالِ، وَالمُدِيمِ للنِّعَمِ بِإراءَةِ شَجَرَةِ الإنْعَامِ، وَالمُزيلِ آلامِ الفِرَاقِ بإراءةِ لَذَّةِ تَجَدُّدِ الأمثَالِ. يَعْنِي أنَّ في كُلِّ لَذَّةٍ آلاماً تَنشأ مِنْ زَوَالِهَا. فَبِنُورِ الإيمان يَزُولُ الزَّوَالُ، وَيَنقَلِبُ إلى تَجَدُّدِ الأمثَالِ. وَفي التَّجَدُّدِ لَذَّةٌ أُخرى..

فَكمَا أَن الثَّمَرَةَ إذا لَمْ تُعْرَفْ شَجَرَتُهَا تَنْحَصِرُ النِّعْمَةُ في تِلكَ الثَّمَرَةِ. فَتَزُولُ بِأكْلِهَا. وَتُورِثُ تَأَسُّفاً عَلى فَقْدِهَا. وإذا عُرِفَتْ شَجَرَتُها وَشُوهِدَتْ، يَزُولُ الألَمُ في زَوَالِهَا لِبَقَاءِ شَجَرَتِهَا الحَاضِرَةِ، وَتَبْديلِ الثَّمَرَةِ الفَانِيَةِ بِأمْثَالِهَا. وَكَذَا إنَّ مِنْ أشَدِّ حَالاتِ رُوحِ البَشَرِ هِيَ التَّأَلُّمَاتُ النَّاشِئَةُ مِنَ الفِرَاقَاتِ. فَبِنُورِ الإيمان تَفترِقُ الفِرَاقَاتُ وَتَنْعَدِمُ. بَل تَنْقَلِبُ بِتَجَدُّدِ الأمثَالِ الَّذي فيهِ لَذَّةٌ أخرى إذ «كُلُّ جَدِيدٍ لَذِيذٌ»...

النقطة الخامسة

الحَمْدُ لله عَلى نُورِ الإيمان الَّذي يُصَوِّرُ مَا يُتَوَهَّمُ أعداء وَأجَانِبَ وَامْوَاتاً مُوحِشينَ، وَأيْتَاماً باكِين مِنَ المَوجُودَاتِ، أحْبَاباً وإخْوَاناً وَأحْيَاءً مُؤنِسِينَ، وَعِبَاداً مُسَبِّحِينَ ذَاكِرِينَ..

يَعْني أنَّ نَظَرَ الغَفلَةِ يَرى مَوجُودَاتِ العَالَمِ مُضِرِّينَ كَالأعْدَاءِ وَيَتَوَحَّشُ مِنْ كُلِّ شيءٍ، وَيَرَى الأشياء كَالأجانِبِ. إذ في نَظَرِ الضَّلالَةِ تَنْقَطِعُ عَلاقَةُ الأُخُوَّةِ في كُلِّ الأزمِنَةِ المَاضِيَةِ وَالاسْتِقْبَالِيَّةِ. وَمَا أُخُوَّتُهُ وَعَلاقَتُهُ إلّا في زَمَانٍ حَاضِرٍ صَغيرٍ قَلِيلٍ. فَأُخُوَّةُ أهلِ الضَّلالَة كَدَقيقَةٍ في أُلُوفِ سَنَةٍ مِنَ الأجْنَبِيَّةِ. وَأُخُوَّةُ أهلِ الإيمان تَمتَدُّ مِنْ مَبْدَإِ المَاضِي إلى مُنتَهى الاسْتِقبَالِ. وَإنَّ نظَرَ الضَّلالَةِ يَرى أجْرَامَ الكائِنَاتِ أمْوَاتاً مُوحِشينَ. وَنَظَرَ الإيمان يُشَاهِدُ أولئك الأجرامَ أحْياءً مُؤنِسينَ يَتكَلَّمُ كُلُّ جرْمٍ بِلِسَانِ حالِهِ بِتَسْبيحَاتِ فاطِرِهِ. فَلَها رُوحٌ وحَيَاةٌ مِنْ هذِهِ الجِهَةِ. فَلا تَكُونُ مُوحِشَةً مُدْهِشَةً، بلْ أنيسَةً مُؤنسةً. وَإنَّ نَظَرَ الضَّلالَةِ يَرى ذَوي الحَيَاةِ

العَاجِزينَ عَنْ مَطَالِبِهِمْ لَيسَ لَهُمْ حَامٍ مُتَوَدِّدٌ وَصَاحِبٌ مُتَعَهِّدٌ. كَأَنَّهُمْ أيتَامٌ يبكُونَ مِنْ عَجْزِهِمْ وَحُزْنِهِمْ وَيَأسِهِمْ. وَنَظَرُ الإيمان يَقُولُ: إنَّ ذَوي الحَيَاةِ لَيسُوا أيتَاماً بَاكينَ، بَل هُمْ عِبَادٌ مُكَلَّفُونَ وَمَأمُورونَ مُوَظَّفُونَ وَذَاكرونَ مُسَبِّحُونَ.

النقطة السادسة

الحَمْدُ لله عَلى نُورِ الإيمان المُصَوِّرِ للدَّارَينِ كَسُفرَتَينِ مَمْلُوءتَينِ مِنَ النِّعَمِ يَستَفِيدُ مِنْهُمَا المُؤمِنُ بيَدِ الإيمان بأنواعِ حَوَاسِّهِ الظَاهِرةِ وَالبَاطِنَةِ، وَأقسَامِ لَطَائِفِهِ المَعنَويَةِ وَالرُوحِيَةِ المُنْكَشِفَةِ بِضِيَاءِ الإيمَانِ.

نَعَمْ، إنَّ في نَظَرِ الضَّلالَةِ تتَصَاغَرُ دائِرَةُ اسْتِفَادَةِ ذَوي الحَيَاة إلى دائِرَةِ لَذَائِذِهِ الْمَادِّيَّةِ المُنَغَّصَةِ بزَوَالِهَا. وَبِنُورِ الإيمان تتَوَسَّعُ دَائِرَةُ الاسْتِفَادَةِ إلى دائِرَةٍ تُحيطُ بِالسَّمَاواتِ وَالأرضِ بَلْ بِالدُّنيَا وَالآخِرَةِ. فَالمُؤمِنُ يَرى الشَّمسَ كَسِراجٍ في بَيْتِهِ وَرَفيقاً في وَظيفَتِهِ وأنيساً في سَفَرِهِ؛ وَتَكُونُ الشَّمْسُ نِعْمَةً مِنْ نِعَمِهِ. وَمَنْ تَكُونُ الشَّمْسُ نِعْمَةً لَهُ؛ تَكُونُ دائِرَةُ استِفَادَتِهِ وَسُفرَةُ نِعْمَتِهِ أوسَعَ مِنَ السَّمَاواتِ.

فَالقُرآنُ المُعْجِزُ البَيَانِ بِأمثَالِ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ (إبراهيم:٣٣) و ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ (الحج:٦٥) يُشيرُ ببَلاغَتِهِ إلى هذِهِ الإحسانَاتِ الخَارِقَةِ النَاشِئَةِ مِنَ الإيمَانِ.

النقطة السابعة

الحَمْدُ لله عَلى الله. فَوُجُودُ الوَاجِبِ الوُجُودِ نِعْمَةٌ لَيسَتْ فَوقَهَا نِعْمَةٌ لِكُلِّ أحدٍ ولِكُلِّ مَوجُودٍ. وهذِهِ النِّعْمَةُ تَتَضَمَّنُ أنواعَ نِعَمٍ لا نِهَايَةَ لَهَا، وَأجْنَاسَ إحْسَانَاتٍ لا غَايَةَ لَهَا، وأصْنَافَ عَطيَّاتٍ لا حَدَّ لَهَا.

قد أُشير إلى قسم منها في أجزاء «رسائل النور» وبالخاصة «في الموقف الثالث من الرسالة الثانية والثلاثين». وكل الرسائل الباحثة عن الإيمان بالله من أجزاء «رسائل النور» تكشف الحجاب عن وجه هذه النعمة. فاكتفاءً بها نقتصر هنا.

الحَمْدُ لله عَلى رَحْمَانِيَّتِهِ تَعَالى التي تَتَضَمَّنُ نِعَماً بِعَدَدِ مَنْ تَعَلَّقَ بِهِ الرَّحْمَةُ مِنْ ذَوي

الحَياة. إذ في فِطرَةِ الإنسان بِسرٍّ جَامِعيَّتِهِ عَلاقَاتٌ بِكُلِّ ذَوي الحَيَاة تَحصُلُ لَهُ سَعَادَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ بِسَبَبِ سَعَادَاتِهِمْ. وَفِي فِطرَتِهِ تَأثُّرٌ بِآلامِهِمْ. فَالنِّعْمَةُ عَلَيهِم تَكُونُ نَوعَ نِعْمَةٍ لِذَلِكَ الإنسَانِ.

والحَمْدُ لله عَلى رَحِيمِيَّتِهِ تَعَالى بِعَدَدِ الأطفال المُنْعَمِ عَلَيهِمْ بِشَفَقاتِ والِدَاتِهِمْ. إذ كما أن كُلَّ مَنْ لَهُ فِطرَةٌ سَليمَةٌ يَتَأَلَّمُ وَيَتَوَجَّعُ مِنْ بُكَاءِ طِفلٍ جَائِع لا وَالِدَةَ لَهُ؛ كَذَلِكَ يَتَنَعَّمُ بِتَعَطُّفِ الوَالِداتِ عَلى أطفَالِهَا.

الحَمْدُ لله عَلى حَكِيمِيَّتِهِ تَعَالى بِعَدَدِ دقَائِقِ جَميعِ أنواعِ حِكمَته في الكائنَاتِ. إذ كَمَا تَتَنَعَّمُ نَفْسُ الإنسان بِجَلَوَاتِ رَحْمانِيَّتِهِ، وَيَتَنَعَّمُ قَلبُ الإنسان بِتَجَلِّيَاتِ رَحِيميَّتِهِ؛ كَذَلِكَ يَتَلَذَّذُ عَقلُ الإنسان بِلَطَائفِ حِكمَتِهِ.

الحَمْدُ لله عَلى حَفيظِيَّتِهِ تَعَالى بِعَدَدِ تَجَلِّيَاتِ اسمِهِ «الوَارِثِ»، وَبِعَدَدِ جَميعِ مَا بَقِيَ بَعدَ فَوَاتِ أُصُولِهَا وَآبَائهَا وَصَواحِبِهَا، وَبِعَدَدِ مَوجُودَاتِ دَارِ الآخِرَةِ، وبِعَدَدِ آمَالِ البَشَرِ المَحْفُوظَةِ لأجلِ المُكافأةِ الأُخرَوِيَّةِ. إذ دَوَامُ النِّعْمَةِ أعظَمُ نعمَةً مِنْ نَفسِ النِّعْمَةِ؛ وَبَقَاءُ اللَّذَّةِ لَذَّةٌ أعلى لَذَّةً مِنْ نَفسِ اللَّذَّةِ؛ والخُلودُ في الجَنَّةِ نِعْمَةٌ فَوْقَ نَفْسِ الْجَنَّةِ. وهَكَذا.

فَحَفِيظِيَّتُهُ تَعَالى تَتَضَمَّنُ نِعماً أكثر وَأزيَدَ وَأعلى مِنْ جَميعِ النِّعَمِ عَلى المَوجُوداتِ في جَميعِ الكائِنَاتِ.

وهكَذا، فَقِسْ عَلى اسمِ «الرَّحمن والرَّحيمِ وَالحَكِيمِ وَالحَفِيظِ» سائِرَ أسمائه الحُسْنى.

فالحَمْدُ لله عَلى كُلِّ اسمٍ مِنْ أسمائه تَعَالى حَمداً بِلا نِهايَةٍ.لِمَا أنَّ في كُلِّ اسمٍ منها نِعَمَاً بِلا نِهايَةٍ.

الحَمْدُ لله عَلى القُرآنِ الَّذي هُوَ تَرْجُمَانٌ لكُلِّ مَا مَضى مِنْ جَميعِ الإنْعَامَاتِ الَّتي لا نِهَايَةَ لَهَا حَمْداً بلا نِهايَةٍ.

الحَمْدُ لله عَلى مُحَمَّدٍ عَليهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ حَمْداً بِلا نِهايَة. إذ هُوَ الوَسيلَةُ للإيمَانِ الَّذي فيهِ جَميعُ المَفَاتِيحِ لِجَميعِ خَزَائِنِ النِّعَمِ التي أشَرْنَا إليها في هذَا البَابِ الثَّاني آنفاً.

الحَمْدُ لله عَلى نِعْمَةِ الإسلامية الَّتي هيَ مَرضيَّاتُ رَبِّ العَالَمينَ، وفِهرِسْتَةٌ لأنْواعِ نِعَمِهِ المَادِّيَّةِ وَالمَعْنَوِيَّةِ، حَمْداً بِلا نِهايَةٍ.

النقطة الثامنة

الحَمْدُ لله الَّذي يَحْمَدُ لَهُ وَيُثْنِي عَلَيهِ بِإظهَارِ أوصَافِ جَمَالِهِ وَكَمَالِهِ، هذَا الكِتَابُ الكَبيرُ المُسَمّى بـ«الكائِنَاتِ» بجَميعِ أبوَابِهِ وَفُصُولِهَا، وبِجَميع صَحائِفِهِ وَسُطُورِها، وَبِجَميع كَلِمَاتِهِ وَحُرُوفِها، كُلٌّ بِقَدَرِ نِسْبَتِهِ يَحْمَدُهُ تَعَالى وَيُسَبِّحُهُ بِإظهَارِ بَوارِقِ أوصَافِ جَلالِ نَقَّاشِهِ الأحَدِ الصَّمَدِ بِمَظهَرِيَّةِ كُلٍّ بِقَدَرِ نِسْبَتِهِ لأضْوَاءِ أوْصَافِ جَمَالِ كَاتِبِهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَبِمَظْهَرِيَّةِ كُلٍّ بِقَدَرِ نِسْبَتِهِ لأنوارِ أوْصَافِ كمالِ مُنْشِئها ومُنْشئها القَديرِ العَليمِ العَزيزِ الحَكِيمِ، وَبِمِرآتيَّةِ كلٍّ بِقَدَرِ نِسْبَتِهِ لأشِعَّةِ تَجَلِّيَاتِ أسْماءِ مَنْ لَهُ الأسماء الحُسنى. جَلَّ جَلالُهُ ولا إلهَ إلّا هُوَ.

النقطة التاسعة

الحَمْدُ -مِنَ الله بالله عَلى الله- لله بِعَدَدِ ضَرْبِ ذَرَّاتِ الكائِنَاتِ مِنْ أوَّلِ الدُّنيَا إلى آخِرِ الخِلقَةِ في عَاشِرَاتِ دَقائِقِ الأزمِنَةِ مِنَ الأزَلِ إلى الأبَدِ.

الحَمْدُ لله عَلى «الحَمْدُ لله» بِدَورٍ دائِرٍ في تَسَلسُلٍ[1] يَتَسَلسَلُ إلى مَا لا يَتَنَاهى.

الحَمْدُ لله عَلى نِعْمَةِ القُرآنِ وَالإيمَانِ عَلَيَّ وَعَلى إخواني بِعَدَدِ ضَرْبِ ذَرَّاتِ وُجودِي في عَاشِرَاتِ دَقَائِقِ عُمْري في الدُّنيَا، وَبَقَائِي وبَقَائِهِمْ في الآخِرَةِ.

﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾

اللّهمَّ صَلِّ عَلى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ بِعَدَدِ حَسَنَاتِ أُمَّتِهِ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ وسَلِّمْ آمينَ.

وَالحَمْدُ لله ربِّ العَالَمِين.

(١) الدور والتسلسل محالان في دائرة الممكنات. لأنهما يقتضيان عدم التناهي، ودائرة الممكنات متناهية فلا تسع غير المتناهي. أما الحمد المتعلق بدائرة الوجوب فهو غير متناهٍ. فيدخل بالدور والتسلسل في دائرة غير متناهية فيتمكن فيها وتسعه. (المؤلف).

الباب الثالث

في مراتب

«الله اكبر»

«سنذكر سبعاً من ثلاث وثلاثين مرتبة لهذا الباب، حيث قد ذُكر قسمٌ مهم من تلك المراتب في المقام الثاني من المكتوب العشرين، وفي نهاية الموقف الثاني من الكلمة الثانية والثلاثين، وفي بداية الموقف الثالث منها. فمن شاء أن يطلع على حقيقة هذه المراتب، فليراجع تلك الرسائل».

المرتبة الأولى

﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾ (الإسراء: ١١١). لَبَّيكَ وَسَعْدَيكَ..

جلَّ جلالُه الله أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شيءٍ قُدرَةً وَعِلماً، إذ هُوَ الخَالِقُ الباريُ المُصَوِّرُ الَّذي صَنَعَ الإنسانَ بقُدرَتِهِ كالكَائِنَاتِ، وَكَتَبَ الكَائِنَاتِ بقَلَمِ قَدَرِهِ كَمَا كَتَبَ الإنسانَ بذَلِكَ القَلَم. إذ ذاكَ العَالَمُ الكَبيرُ كَهَذَا العَالَمِ الصغيرِ مَصنُوعُ قُدرَتِهِ مَكتُوبُ قَدَرِهِ. إبدَاعُهُ لِذَاكَ صَيَّرَهُ مَسْجداً. إيجَادُهُ لهذَا صَيَّرَهُ سَاجِداً. إنْشَاؤُهُ لِذَاكَ صَيَّرَ ذاكَ مُلكاً. بِنَاؤُهُ لِهذا صَيَّرَهُ مَمْلُوكاً. صَنْعَتُهُ في ذاكَ تَظَاهَرَتْ كِتَاباً. صِبْغَتُهُ في هَذا تَزَاهَرَتْ خِطاباً. قُدرَتُهُ في ذاكَ تُظهِرُ حِشمَتَهُ. رَحْمَتُهُ في هَذا تَنظِمُ نِعْمَتَهُ. حِشمَتُهُ في ذاكَ تَشْهَدُ هُوَ الوَاحِدُ. نِعْمَتُهُ في هَذا تُعلِنُ هُوَ الأحَدُ. سِكَّتُهُ في ذَاكَ في الكُلِّ وَالأجْزَاءِ سُكوناً حَرَكَةً. خاتَمُهُ في هَذا في الجِسمِ وَالأعْضاءِ حُجَيْرَةً ذَرَّةً.

فَانْظُرْ إلى آثارِهِ المُتَّسِقَةِ كيفَ تَرى كَالفَلَقِ سَخَاوَةً مُطْلَقَةً مَعَ انْتِظَامٍ مُطْلَقٍ، في سُرْعَةٍ مُطْلَقَةٍ مَعَ اتِّزَانٍ مُطْلَقٍ، في سُهُولَةٍ مُطْلَقَةٍ مَعَ إتْقَانٍ مُطْلَقٍ ، في وُسْعَةٍ مُطْلَقَةٍ مَعَ حُسْنِ صُنْعٍ مُطْلَقٍ، في بُعْدَةٍ مُطْلَقَةٍ مَعَ اتِّفَاقٍ مُطْلَقٍ، في خِلْطَةٍ مُطْلَقَةٍ مَعَ امْتِيَازٍ مُطْلَقٍ، في رُخْصَةٍ مُطْلَقَةٍ مَعَ غُلُوٍّ مُطْلَقٍ. فَهَذِهِ الكَيْفِيَّةُ المَشْهُودَةُ شَاهِدَةٌ للعَاقِلِ المُحَقِّقِ، مُجْبِرَةٌ للأحْمَقِ المُنَافِقِ عَلى قَبُولِ الصَنْعَةِ وَالوَحْدَةِ للحَقِّ ذي القُدْرَةِ المُطْلَقَةِ، وَهُوَ العَلِيمُ المُطْلَقُ.

وَفي الوَحْدَةِ سُهُولَةٌ مُطْلَقَةٌ، وَفي الكَثْرَةِ وَالشِّرْكَةِ صُعُوبَةٌ مُنغَلِقَةٌ:

إنْ أُسْنِدَ كُلُّ الأشياء للِوَاحِدِ، فَالكَائِنَاتُ كَالنَّخْلَةِ، وَالنَّخْلَةُ كَالثَّمَرَةِ سُهُولَةً في الابْتِدَاعِ. وَإنْ أُسْنِدَ للِكَثْرَةِ فَالنَّخْلةُ كَالكَائِنَاتِ، وَالثَّمَرَةُ كَالشَّجَرَاتِ صُعُوبَةً في الامْتِنَاعِ. إذ الوَاحِدُ بالفِعْلِ الوَاحِدِ يُحَصِّلُ نَتِيجَةً ووَضْعِيةً للكَثيرِ بِلا كُلْفَةٍ ولا مُبَاشَرَةٍ؛ ولَوْ أُحِيلَتْ تِلْكَ الوَضْعيَّةُ وَالنَّتيجَةُ إلى الكَثْرَةِ لا يمكن أن تَصِلَ إليها إلّا بِتَكَلُّفَاتٍ وَمُبَاشَرَاتٍ وَمُشَاجَرَاتٍ كَالأَمِيرِ مَعَ النَّفَرَاتِ، وَالبَانِي مَعَ الحَجَرَاتِ، وَالأرضِ مَعَ السَّيَّارَاتِ، والفَوَّارَةِ مَعَ القَطَرَاتِ، وَنُقطَةِ المَرْكَزِ مَعَ النُّقَطِ في الدَّائِرَةِ.

بِسِرِّ أنَّ في الوَحْدَةِ يَقُومُ الإنتِسَابُ مَقَامَ قُدْرَةٍ غَيْرِ مَحْدُودَةٍ. وَلا يَضْطَرُّ السَّبَبُ لِحَمْلِ مَنَابعِ قُوَّتِهِ وَيَتَعَاظَمُ الأَثَرُ بالنِّسْبَةِ إلى المُسْنَدِ إلَيهِ. وَفي الشِّرْكَةِ يَضْطَرُّ كُلُّ سَبَبٍ لِحَمْلِ مَنَابعِ قُوَّتِهِ؛ فَيَتَصاغَرُ الأَثَرُ بِنِسْبَةِ جِرْمِهِ. وَمِنْ هُنَا غَلَبَتِ النَّمْلَةُ وَالذُّبَابَةُ عَلى الجَبابِرَةِ، وَحَمَلَتْ النُّوَاةُ الصَّغِيرَةُ شَجَرَةً عَظِيمةً.

وَبِسِرِّ أنَّ في إسْنادِ كُلِّ الأشياء إلى الوَاحِدِ لا يَكُونُ الإيجَادُ مِنَ العَدَمِ المُطْلَقِ. بَلْ يَكُونُ الإيجَادُ عَيْنَ نَقلِ المَوجُودِ العِلمِيِّ إلى الوُجُودِ الخَارِجِيِّ، كَنَقْلِ الصُّورَةِ المُتَمَثِّلَةِ في المِرآةِ إلى الصَّحِيفَةِ الفُوطُوغْرافِيَّةِ لِتَثْبِيتِ وُجُودٍ خَارِجِيٍّ لَهَا بِكَمالِ السُّهُولَةِ، أو إظهارِ الخَطِّ المَكتُوبِ بِمِدَادٍ لا يُرى، بِواسِطةِ مَادَّةٍ مُظهِرَةٍ لِلكِتَابَةِ المَسْتُورَةِ. وَفي إسْنَادِ الأشياء إلى الأسباب وَالكَثْرَةِ يَلْزَمُ الإيجَادُ مِنَ العَدَمِ المُطْلَقِ، وَهُوَ إنْ لَمْ يَكُنْ مُحَالاً يَكُونُ أَصْعَبَ الأَشْيَاءِ. فَالسُهُولَةُ في الوَحْدَةِ واصِلَةٌ إلى دَرَجَةِ الوُجوبِ، وَالصُعُوبَةُ في الكَثْرَةِ وَاصِلَةٌ إلى دَرَجَةِ الامتِنَاعِ. وَبِحِكْمَةِ أنَّ في الوَحدَةِ يُمْكِنُ الإبْدَاعُ وَإيجَادُ «الأيْسِ مِنَ اللَّيْسِ» يَعْني إبْدَاعَ المَوْجُودِ مِنَ العَدَمِ الصِّرْفِ بِلا مُدَّةٍ وَلا مَادَّةٍ، وَإفراغَ الذَّرَّاتِ في القَالَبِ العِلْمِيِّ بلا كُلْفَةٍ وَلا خِلْطَةٍ. وَفي الشِّرْكَةِ وَالكَثْرَةِ لا يُمْكِنُ الإبْدَاعُ مِنَ العَدَمِ بِاتِّفَاقِ كُلِّ أهل العَقْلِ. فَلا بُدَّ لِوُجودِ ذي حَيَاةٍ جَمْعُ ذَرَّاتٍ مُنْتَشِرَةٍ في الأرض وَالعَنَاصِرِ؛ وَبِعَدَمِ القَالَبِ العِلْميِّ يَلْزَمُ لِمُحَافَظَةِ الذَّرَاتِ في جِسْمِ ذي الحيَاةِ وُجُودُ عِلْمٍ كُلِّيٍّ، وَإرادَةٍ مُطْلَقَةٍ في كُلِّ ذَرَّةٍ. وَمَعَ ذلِكَ إنَّ الشُّرَكاءَ مُسْتَغْنيةٌ عَنْهَا وَممْتَنِعَةٌ بالذَّاتِ وَتَحَكُّمِيَّةٌ مَحْضَةٌ، لا أمارة عَلَيْها وَلا إشارة إليها في شَيءٍ مِنَ المَوْجُودَاتِ. إذ خِلْقَةُ السَّمَاوَاتِ وَالأرضِ تَسْتَلْزِمُ قُدْرَةً كَامِلَةً غَيْرَ مُتَناهِيَةٍ بالضَّرُورَةِ. فَاسْتُغْنِيَ عَنِ الشُّرَكَاءِ؛

وَإلّا لَزِمَ تَحْديدُ وَانْتِهاءُ قُدْرَةٍ كَامِلَةٍ غَيْرِ مُتَنَاهِيَةٍ فِي وَقْتِ عَدَمِ التَّنَاهِي بِقُوَّةٍ مُتَنَاهِيَةٍ بِلا ضَرُورَةٍ، مَعَ الضَّرُورَةِ فِي عَكْسِهِ ؛ وَهُوَ مُحَالٌ فِي خَمْسَةِ أَوْجُهٍ . فَامْتَنَعَتِ الشُّرَكَاءُ، مَعَ أَنَّ الشُّرَكَاءَ المُمتَنِعَةَ بِتِلكَ الوُجوُهِ لا إشارة إلى وُجودِها، وَلا أمارة عَلى تَحَقُّقِهَا في شيءٍ مِنَ المَوجُودَاتِ.

فقد استفسرنا عن هذه المسألة في «الموقف الأول من الكلمة الثانية والثلاثين» من الذرات إلى السيارات وفي «الموقف الثاني» من السماوات إلى التشخصات الوجهية فأعطت جميعها جواب رد الشرك بإراءة سكة التوحيد.

فَكَمَا لا شُرَكَاءَ لَهُ؛ كَذَلِكَ لا مُعِينَ وَلا وُزراءَ لَهُ. وَمَا الأسباب إلّا حِجَابٌ رَقِيقٌ عَلى تَصَرُّفِ القُدْرَةِ الأزَلِيَّةِ، لَيسَ لَهَا تَأثِيرٌ إيجادِيٌّ فِي نَفسِ الأمرِ. إذ أَشْرَفُ الأسباب وَأَوْسَعُهَا إختِيَاراً هُوَ الإنسَانُ؛ مَعَ أنَّهُ لَيسَ فِي يَدِهِ مِنْ أَظْهَرِ أفْعَالِهِ الإختِيَارِيَّةِ كَـ«الأكْلِ وَالكَلامِ وَالفِكْرِ» مِنْ مِئَاتِ أجْزاءٍ إلّا جُزْءٌ وَاحِدٌ مَشْكُوكٌ. فإذا كَانَ السَّبَبُ الأشْرَفُ وَالأوْسَعُ اختِيَاراً مَغْلُولَ الأيْدي عَنِ التَّصَرُّفِ الحَقِيقِيِّ كَمَا تَرى؛ فَكَيفَ يمكن أن تَكُونَ البَهِيماتُ والجَماداتُ شَرِيكةً فِي الإيجَادِ وَالرُّبُوبِيَّةِ لخَالِقِ الأرضِ وَالسَّماواتِ. فَكَمَا لا يمكن أن يَكُونَ الظَّرْفُ الَّذي وَضَعَ السُّلطَانُ فيهِ الهَدِيَّةَ، أو المَندِيلُ الَّذي لَفَّ فيهِ العَطِيَّةَ، أو النَّفَرُ الَّذي أرسَلَ عَلى يَدِهِ النِّعْمَةَ إليكَ، شُرَكَاءَ لِلسُّلْطَانِ فِي سَلْطَنَتِهِ؛ كَذَلِكَ لا يمكن أن يَكُونَ الأسبابُ المُرْسَلَةُ عَلى أيْدِيهم النِّعَمُ إلينَا، وَالظُّرُوفُ الَّتي هِيَ صَنَادِيقُ لِلنِّعَمِ المُدَّخَرَةِ لَنَا، والأسْبَابُ الَّتي الْتَفَّتْ عَلى عَطَايَا إلَهِيَّةٍ مُهْداةٍ إلَينَا، شُرَكَاءَ أعْواناً أو وَسَائِطَ مُؤَثِّرَةً.

المرتبة الثانية

جَلَّ جَلالُهُ الله أكبَرُ مِنْ كُلِّ شَيءٍ قُدْرَةً وَعِلْماً، إذ هُوَ الخَلّاقُ العَلِيمُ الصَّانِعُ الحَكِيمُ الرَّحمنُ الرَّحِيمُ الَّذي هذِهِ المَوجُودَاتُ الأرضِيَّةُ وَالأجْرامُ العُلويَّةُ فِي بُسْتَانِ الكَائِنَاتِ مُعجِزَاتُ قُدْرَةِ خَلّاقٍ عَلِيمٍ بِالبَدَاهَةِ، وَهَذهِ النبَاتَاتُ المُتَلَوِّنَة المُتَزَيِّنَةُ المَنْثُورَةُ، وَهَذِهِ الحَيْوَانَاتُ المُتَنَوِّعَةُ المُتَبَرِّجَةُ المَنْشُورَةُ فِي حَدِيقَةِ الأرض خَوارِقُ صَنْعَةِ صانِعٍ حَكِيمٍ بِالضَّرُورَةِ، وَهَذِهِ الأزْهَارُ المُتَبَسِّمَةُ وَالأثْمَارُ المُتَزَيِّنَةُ فِي جِنَانِ هذِهِ الحَدِيقَةِ هَدَايَا رَحْمَةِ رَحْمنٍ رَحِيمٍ بالمُشَاهَدَةِ. تَشْهَدُ هاتِيكَ وَتُنَادِي تَاكَ وتُعْلِنُ هذِهِ بِأَنَّ خَلَّاقَ هَاتِيكَ وَمُصَوِّرَ تَاكَ وَوَاهِبَ هذِهِ عَلى كُلِّ شيءٍ قَديرٌ وَبِكُلِّ شيءٍ عَليمٌ قَد وَسِعَ كُلَّ شَيءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً،

تتَسَاوَى بِالنِّسْبَةِ إلى قُدْرَتِهِ الذَّرَّاتُ وَالنُّجُومُ وَالقَلِيلُ وَالكَثيرُ والصَغيرُ وَالكَبيرُ وَالمُتَنَاهِي وَغَيرُ المُتَنَاهِي. وَكُلُّ الوُقُوعَاتِ المَاضِيَةِ وَغَرَائِبِها مُعْجِزَاتُ صَنْعَةِ صانِعٍ حَكيمٍ تَشْهَدُ على أن ذَلِكَ الصَّانِعَ قَديرٌ عَلى كُلِّ الإمْكَانَاتِ الإسْتِقْبَالِيَّةِ وَعَجائِبِها، إذ هُوَ الخَلّاقُ العَليمُ وَالعَزيزُ الحَكيمُ.

فَسُبْحانَ مَنْ جَعَلَ حَديقَةَ أرضِهِ مَشْهَرَ صَنْعَتِهِ. مَحْشَرَ فِطْرَتِهِ. مَظْهَرَ قُدرَتِهِ. مَدَارَ حِكْمَتِهِ. مَزْهَرَ رَحْمَتِهِ. مَزْرَعَ جَنَّتِهِ. مَمَرَّ المَخْلُوقَاتِ. مَسِيلَ المَوجُودَاتِ. مَكيلَ المَصْنُوعَاتِ.

فَمُزَيَّنُ الحَيْوانَاتِ مُنَقَّشُ الطُّيوراتِ مُثَمَّرُ الشَّجَراتِ مُزَهَّرُ النَباتاتِ مُعْجِزَاتُ عِلمِهِ. خَوَارِقُ صُنْعِهِ. هَدايَا جُودِهِ. بَراهِينُ لُطْفِهِ.

تَبَسُّمُ الأزهَارِ مِنْ زينَةِ الأثْمَارِ، تَسَجُّعُ الأطيَارِ في نَسْمَةِ الأسْحَارِ، تَهَزُّجُ الأمطارِ عَلى خُدُودِ الأزهَارِ، تَرَحُّمُ الوالِدَاتِ عَلى الأطفال الصِّغَارِ.. تَعَرُّفُ وَدُودٍ، تَوَدُّدُ رَحمنٍ، تَرَحُّمُ حَنَّانٍ، تَحَنُّنُ مَنَّانٍ لِلجِنِّ وَالإنسَانِ وَالرُّوحِ وَالحيَوانِ وَالمَلَكِ وَالجانِّ.

وَالبُذُورُ وَالأثْمَارُ، والحُبُوبُ وَالأزهَارُ، مُعجِزَاتُ الحِكمَةِ. خَوارِقُ الصَّنْعَةِ. هَدَايا الرَّحْمَةِ. بَرَاهينُ الوَحْدَةِ. شَوَاهِدُ لُطْفِهِ في دارِ الآخِرَةِ. شَوَاهِدُ صَادِقَةٌ بِأنَّ خَلَّاقَهَا عَلى كُلِّ شيءٍ قَديرٌ. وَبِكُلِّ شيءٍ عَليمٌ. قَدْ وَسِعَ كُلَّ شيءٍ بِالرَّحْمَةِ وَالعِلْمِ وَالخَلْقِ وَالتَّدْبيرِ وَالصُّنْعِ وَالتَّصْويرِ. فَالشَّمسُ كَالبَذرَةِ وَالنَّجمُ كَالزَّهْرَةِ وَالأرضُ كَالحَبَّةِ لا تَثْقُلُ عَلَيهِ بِالخَلْقِ وَالتَّدْبيرِ وَالصُّنعِ وَالتَّصْويرِ. فَالبُذُورُ وَالأثْمَارُ مَرَايا الوَحْدَةِ في أقطار الكَثْرَةِ. إشَاراتُ القَدَرِ. رُمُوزَاتُ القُدْرَةِ بِأنَّ تِلكَ الكَثْرَةَ مِنْ مَنْبَعِ الوَحْدَةِ، تَصْدُرُ شَاهِدَةً لِوَحْدَةِ الفَاطِرِ في الصُّنْعِ وَالتَصْويرِ. ثُمَّ إلى الوَحْدَةِ تَنْتَهي ذَاكِرَةً لِحِكمَةِ الصَّانِعِ في الخَلْقِ وَالتَّدْبِيرِ. وَتَلْوِيحاتُ الحِكْمَةِ بِأنَّ خَالِقَ الكُلِّ بِكُلِّيَّةِ النَّظَرِ إلى الجُزْئِيِّ يَنْظُرُ، ثَمَّ إلى جُزْئِهِ. إذْ إنْ كانَ ثَمَراً فَهُوَ المَقْصُودُ الأظهَرُ مِنْ خَلقِ هَذا الشَّجَرِ. فَالبَشَرُ ثَمَرٌ لِهَذِهِ الكَائِنَاتِ، فَهُوَ المَقْصُودُ الأظْهَرُ لِخَالِقِ المَوْجُودَاتِ. والقَلبُ كَالنُّوَاةِ، فَهُوَ المِرآةُ الأنْوَرُ لِصَانِعِ المَخْلُوقَاتِ. وَمِنْ هذِهِ الحِكْمَةِ فَالإنسانُ الأصْغَرُ في هذِهِ الكَائِناتِ هُوَ المَدَارُ الأظْهَرُ لِلنَّشْرِ وَالمَحشَرِ في هذِهِ المَوجُوداتِ، وَالتَّخْريبِ والتَّبْديلِ وَالتَّحويلِ وَالتَّجْديدِ لِهَذِهِ الكَائِناتِ.

اللهُ أكبَرُ يَا كَبِيرُ أنت الَّذي لا تَهدِي العُقُولُ لِكُنْهِ عَظَمَتِهِ.

كِه لا إلَهَ إلّا هُوَ بَرَابَرْمِي زَنَنْدْ هَرْشيء

دَمَادَمْجُو يَدَنْدْ: «ياحَقّ» سَرَاسَرْكُويَدَنْدْ: «يا حَيّ»

المرتبة الثالثة [١]

إيضاحها في رأس «الموقف الثالث» من «الرسالة الثانية والثلاثين».

اللهُ أكبَرُ مِنْ كُلِّ شيء قُدْرَة وَعِلماً إذ هُوَ القَديرُ المُقَدِّرُ العَلِيمُ الحَكِيمُ المُصَوِّرُ الكَرِيمُ اللَّطِيفُ المُزَيِّنُ المُنْعِمُ الوَدُودُ المُتَعَرِّفُ الرَّحمنُ الرَّحِيمُ المُتَحَنِّنُ الجَمِيلُ ذُو الجَمَالِ وَالكَمَالِ المُطْلَقِ النَّقَّاشُ الأزَليُّ الَّذي ما حَقَائِقُ هَذِهِ الكَائِنَاتِ كُلاً وَأجزَاءً وَصَحَائِفَ وَطَبَقاتٍ، وَما حَقَائِقُ هذِهِ المَوجُودَاتِ كُلِّياً وَجُزئِياً ووُجُوداً وَبَقاءً:

إلّا خُطُوطُ قَلَم قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ بِتَنْظِيمٍ وَتَقدِيرٍ وَعِلْمٍ وَحِكْمَةٍ.

وَإلّا نُقُوشُ بَركَارِ عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ بِصُنْعٍ وَتَصويرٍ.

وَإلّا تَزْيِيْناتُ يَدِ بَيْضاءِ صُنْعِهِ وَتَصويرِهِ وَتَزْيِينِهِ وَتَنْوِيرِهِ بِلُطْفٍ وَكَرَمٍ.

وَإلّا أزاهيرُ لَطائِفِ لُطْفِهِ وَكَرَمِهِ وتَعَرُّفِهِ وَتَوَدُّدِهِ بِرَحْمَةٍ وَنِعْمَةٍ.

وَإلّا ثَمَرَاتُ فَيَّاضِ عَيْنِ رَحْمَتِهِ وَنِعْمَتِهِ وَتَرَحُّمِهِ وَتَحَنُّنِهِ بِجَمَالٍ وَكَمالٍ.

وَإلّا لَمَعَاتُ جَمالٍ سَرْمَديٍّ وَكَمالٍ دَيْمُومِيٍّ بِشَهَادَةِ تَفانِيَّةِ المَرايا وَسَيَّالِيَّةِ المَظاهِرِ، مَعَ دوام تَجَلي الجَمَالِ عَلى مَرِّ الفُصُولِ وَالعُصُورِ وَالأدْوَارِ، وَمَعَ دَوَامِ الإنْعَامِ عَلى مَرِّ الأنَامِ وَالأيَّامِ وَالأعْوَامِ.

نَعَمْ تَفَاني المِرْآةِ زَوَالُ المَوجُودَاتِ مَعَ التَّجَلِّي الدَّائِم مَعَ الفَيضِ المُلازِمِ مِنْ أظْهَرِ الظَّوَاهِرِ مِنْ أبْهَرِ البَوَاهِرِ على أن الجَمالَ الظَّاهِرَ أنَّ الكَمالَ الزَّاهِرَ لَيسَا مُلْكَ المَظَاهِرِ مِنْ

---

(١) هذه المرتبة الثالثة تأخذ بعين الاعتبار زهرة جزئية وحسناء جميلة، فالربيع الزاهر كتلك الزهرة والجنة العظيمة مثلها؛ إذ هما مظهران من مظاهر تلك المرتبة، كما أن العالم إنسانٌ جميل وعظيم، وكذا الحور العين والروحانيات وجنس الحيوان وصنف الإنسان.. كل منها كأنه في هيئة إنسان جميل يعكس بصفحاته هذه الأسماء التي تعكسها هذه المرتبة. (المؤلف).

أفصَحِ تِبيانٍ مِنْ أوضَحِ بُرْهَانٍ لِلجَمَالِ المُجَرَّدِ للإحسانِ المُجَدَّدِ للواجِبِ الوُجُودِ لِلبَاقي الوَدُودِ.

نَعَمْ فَالأَثَرُ المُكَمَّلُ يَدُلُّ بالبَدَاهَةِ على الفِعْلِ المُكَمَّلِ. ثُمَّ الفِعْلُ المُكَمَّلُ يَدُلُّ بِالضَّرُورَةِ عَلى الاسمِ المُكَمَّلِ وَالفَاعِلِ المُكَمَّلِ ثم الإسمُ المُكمّلُ يَدُلُّ بِلا رَيبٍ عَلى الوَصْفِ المُكَمَّلِ. ثُمَّ الوَصفُ المُكَمَّلُ يَدُلُّ بِلا شَكٍ عَلى الشَّأنِ المُكَمَّلِ. ثُمَّ الشَّأنُ المُكَمَّلُ يَدُلُّ بِاليَقينِ عَلى كَمالِ الذَّاتِ بِمَا يَليقُ بِالذَّاتِ وَهُوَ الحَقُّ اليَقينُ.

المرتبة الرابعة

جَلَّ جَلالُهُ الله أكبَرُ إذ هُوَ العَدْلُ العَادِلُ الحَكَمُ الحَاكِمُ الحَكِيمُ الأزَليُّ الَّذي أسس بُنْيَانَ شَجَرَةِ هذِهِ الكَائِنَاتِ في سِتَةِ أيام بِأُصُولِ مَشِيئَتِهِ وَحِكْمَتِهِ. وَفَصَّلَها بِدَساتِيرِ قَضائِهِ وَقَدَرِهِ. وَنَظَّمَها بِقَوَانينِ عادَتِهِ وَسُنَّتِهِ. وَزَيَّنَها بِنَواميسِ عِنَايَتِهِ وَرَحْمَتِهِ. وَنَوَّرَهَا بِجَلَواتِ أسمائه وَصِفَاتِهِ بِشَهَادَاتِ انْتِظامَاتِ مَصنُوعَاتِهِ وَتَزَيُّنَاتِ مَوجُودَاتِهِ وَتَشابُهِها وَتَناسُبِها وَتَجاوُبِها وَتَعاوُنِها وَتَعانُقِها، وَإتْقانِ الصَّنعَةِ الشُّعُورِيَّةِ فِي كُلِّ شَيءٍ عَلى مِقْدَارِ قَامَةِ قابِلِيَّتِهِ المُقَدَّرَةِ بِتَقْدِيرِ القَدَرِ.

فَالحِكمَةُ العَامَّةُ في تَنْظيماتِها.. وَالعِنَايَةُ التَّامَّةُ في تَزيِيناتِها.. وَالرَّحمَةُ الوَاسِعَةُ في تَلطيفاتِها.. وَالأرزَاقُ وَالإعَاشَةُ الشَّامِلَةُ في تَربِيَتِها.. والحَيَاةُ العَجِيبَةُ الصَّنعَةِ بِمَظْهَرِيَّتِها لِلشُّؤونِ الذَّاتِيَّةِ لِفَاطِرِها.. وَالمَحَاسِنُ القَصْدِيَّةُ في تَحْسينَاتِهَا.. وَدَوَامُ تَجَلِّي الجَمَالِ المُنْعَكِسِ مَعَ زَوالِهَا.. وَالعِشْقُ الصَّادِقُ في قَلْبِها لِمَعبُودِهَا.. وَالإنْجِذَابُ الظَّاهِرُ في جَذْبَتِها.. وَاتِّفَاقُ كُلِّ كُمَّلِهَا عَلى وَحْدَةِ فاطِرِها.. وَالتَصَرُّفُ لِمَصالِحَ في أجزائِها.. وَالتَّدْبيرُ الحَكيمُ لِنَباتاتِها.. وَالتَّربِيَةُ الكَريمَةُ لِحَيواناتِهَا.. والاِنتِظامُ المُكَمَّلُ فِي تَغيُّراتِ أركَانِها.. وَالغاياتُ الجَسيمةُ في انتِظامِ كُلِّيَّتِها.. وَالحُدُوثُ دَفْعَةً مَعَ غايَةِ كَمالِ حُسنِ صَنْعَتِها بِلا احتِياجٍ إلى مُدَّةٍ ومَادَّةٍ.. وَالتَّشَخُّصاتُ الحَكِيمَةُ مَعَ عَدَمِ تَحْديدِ تَرَدُّدِ إمْكاناتِها.. وَقَضاءُ حاجاتِها عَلى غَايَةِ كَثْرَتِها وَتَنَوُّعِها في أوقَاتِها اللَّائِقَةِ المُنَاسِبَةِ، مِنْ حَيثُ لا يُحتَسَبُ وَمِنْ حَيثُ لا يُشْعَرُ مَعَ قِصَرِ أيْدِيها عنْ أصغَرِ مَطالِبِها.. وَالقُوَّةُ المُطلَقَةُ في مَعْدَنِ ضَعْفِهَا.. وَالقُدْرَةُ المُطلَقَةُ في مَنبَعِ عَجْزِها.. وَالحَياةُ الظَاهِرَةُ في جُمُودِها.. وَالشُّعُورُ المُحيطُ في جَهْلِها.. وَالانتِظامُ المُكَمَّلُ في

تَغيُّراتِها المُستَلزِمُ لِوُجُودِ المُغيِّرِ الغَيرِ المُتَغيِّر.. وَالاتِّفاقُ في تَسْبيحَاتِها كَالدوائِرِ المُتَداخِلَةِ المُتَّحِدَةِ المَرْكَز.. وَالمَقْبُولِيَّةُ في دَعَوَاتِها الثَّلاثِ «بلسانِ استِعدادها، وبِلسانِ احتِيَاجَاتِها الفِطرِيَّةِ، وبِلسانِ اضطِرارِها».. وَالمُناجاةُ وَالشُّهوداتُ وَالفُيُوضاتُ في عِبادَاتِهَا.. وَالإنتظامُ في قَدَرِيها.. وَالإطْمِئنَانُ بِذِكرِ فَاطِرِها.. وَكَونُ العِبَادَةِ فيها خَيْطَ الوُصْلَةِ بَينَ مُنْتَهاها وَمَبْدَئِها.. وسَببَ ظُهُورِ كَمَالِها وَلِتَحَقُّقِ مَقَاصِدِ صانِعِها..

وَهكَذا بِسائِرِ شُؤوناتِها وَأَحْوَالِها وَكَيفِيَّاتِها شاهِداتٌ بِأنَّها كُلَّها بِتَدبيرِ مُدَبِّرٍ حَكيم واحِدٍ.. وفي تَربِيَةِ مُرَبٍّ كَريم أحد صَمَدٍ.. وَكُلُّهَا خُدَّامُ سَيِّدٍ واحِدٍ.. وتَحتَ تَصَرُّف متصرِّفٍ واحِدٍ.. وَمَصدَرُهَا قُدْرَةُ واحِدٍ الَّذي تَظاهَرتْ وَتَكاثَرَتْ خَواتِيمُ وَحْدَتِهِ على كُلِّ مَكتُوبٍ مِنْ مَكتُوبَاتِهِ في كُلِّ صَفحَةٍ مِنْ صَفَحَاتِ مَوجُودَاتِهِ.

نَعَمْ: فَكُلُّ زَهرَةٍ وَثَمَرٍ، وَكُلُّ نَبَاتٍ وَشَجَرٍ، بَل كُلُّ حَيَوانٍ وَحَجَرٍ، بَل كُلُّ ذَرٍّ وَمَدَرٍ، في كُلِّ وادٍ وَجَبَلٍ، وكُلِّ بادٍ وَقَفْرٍ خاتَمٌ بَيِّنُ النَّقشِ وَالأثَر، يُظْهِرُ لِدِقَّةِ النَّظرِ بِأنَّ ذاكَ الأثر هُوَ كاتِبُ ذاكَ المَكانِ بِالعِبَرِ؛ فَهُوَ كاتِبُ ظَهْرِ البَرِّ وَبَطْنِ البَحْرِ؛ فَهُوَ نَقَّاشُ الشَّمْسِ وَالقَمَرِ في صَحيفَةِ السَّماوَاتِ ذاتِ العِبَرِ. جَلَّ جَلالُ نَقَّاشِها الله أكْبَرُ.

كِه لا إلهَ إلّا هُو. بَرابَرْ مِي زَنَدْ عالَمْ

المرتبة الخامسة [١]

الله أكبرُ إذ هُوَ الخَلّاقُ القَديرُ المُصَوِّرُ البَصيرُ الَّذي هذِهِ الأجرامُ العُلويَّةُ والكَواكِبُ الدُّرِّيَّةُ نَيِّراتُ بَراهينِ أُلُوهيَّتِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَشُعاعاتُ شَواهِدِ رُبُوبيَّتِهِ وَعِزَّتِهِ؛ تَشْهَدُ وَتُنادي عَلى شَعْشَعَةِ سَلْطَنَةِ رُبُوبِيَّتِهِ وَتُنَادي عَلى وُسْعَةِ حُكْمِهِ وَحِكْمَتِهِ، وعَلى حِشمَةِ عَظَمَةِ قُدْرَتِهِ. فَاسْتَمِعْ إلى آيَةِ:

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا ﴾ (ق: ٦).

ثُمَّ انظُرْ إلى وَجْهِ السَّماءِ كيفَ تَرى سُكُوتاً في سُكُونة، حَرَكَةً في حِكْمَةٍ، تَلَألُأً في حِشمَةٍ، تَبَسُّماً في زِينَةٍ مَعَ انتَظامِ الخِلقَةِ مَعَ اتِّزانِ الصَّنْعَةِ.

---

(١) لقد وضحت هذه المرتبة في ذيل الموقف الأول من «الكلمة الثانية والثلاثين»، وفي المقام الثاني من «المكتوب العشرين». (المؤلف).

تَشَعْشُعُ سِراجِها لِتَبديلِ المَوَاسِمِ، تَهَلهُلُ مِصْباحِها لِتَنوِيرِ المعَالِم، تَلألُؤُ نُجُومِها لِتَزيينِ العَوَالِمِ. تُعْلِنُ لأهلِ النُّهَى سَلْطَنَةً بلا انتِهَاءٍ لِتَدبيرِ هذَا العَالَمِ.

فَذَلِكَ الخَلّاقُ القَديرُ عَليمٌ بِكُلِّ شَيءٍ، وَمُريدٌ بإرادَةٍ شَامِلَةٍ ما شاءَ كانَ وَمَا لَم يَشأ لَم يَكُنْ. وَهُوَ قَدِيرٌ عَلى كُلِّ شَيءٍ بِقُدْرَةٍ مُطْلَقَةٍ مُحيطةٍ ذاتِيَّةٍ. وَكَما لا يُمكِنُ ولا يُتَصوَّرُ وُجودُ هذِه الشَّمسِ في هذا اليَومِ بِلا ضِياءٍ ولا حَرارةٍ؛ كذَلِكَ لا يُمْكِنُ ولا يُتَصوَّرُ وُجودُ إلهٍ خالِقٍ لِلسَّماواتِ بِلا عِلْمٍ مُحيطٍ، وبِلا قُدرَةٍ مُطلَقَةٍ. فَهُوَ بِالضَرورَةِ عَليمٌ بِكُلِّ شَيءٍ بِعلم مُحيطٍ لازِمٍ ذَاتيٍّ لِلذاتِ، يَلزَمُ تَعَلُّقُ ذلِكَ العِلمِ بِكُلِّ الأشياء لا يمكن أن يَنْفَكَّ عَنْهُ شَيءٌ بِسِرِّ الحُضُورِ وَالشُّهُودِ وَالنُّفُوذِ وَالإحَاطَةِ النُّورانِيَّةِ.

فَما يُشَاهَدُ في جَميعِ المَوجُودَاتِ مِنَ الانْتِظامَاتِ المَوزُونَةِ، وَالاتِّزَاناتِ المَنْظُومَةِ، وَالحِكَمِ العَامَّةِ، وَالعِنَايَاتِ التَّامَّةِ، وَالأقْدارِ المُنْـتَظَمَةِ، وَالأقْضِيَةِ المُثْمِرَةِ، وَالآجالِ المُعَيَّنَةِ، وَالأرزَاقِ المُقَنَّـنَةِ، وَالاتْقاناتِ المُفَنَّـنَةِ، وَالاهتِمَامَاتِ المُزَيَّنَةِ، وَغَايَةِ كَمَالِ الامتِيازِ وَالاتِّزانِ وَالانْتِظَامِ وَالاتْقانِ، وَالسُّهُولَةِ المُطلَقَةِ شَاهِدَاتٌ عَلى إحَاطَةِ عِلمِ عَلّامِ الغُيُوبِ بِكُلِّ شَيءٍ.

وَأنَّ آية ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (الملك: ١٤) تَدُلُّ على أن الوُجودَ في الشيء يَسْتَلزِمُ العِلمَ بِهِ. وَنُورَ الوُجودِ في الأشياء يَستَلزِمُ نُورَ العِلمِ فيها.

فَنِسبَةُ دَلالَةِ حُسنِ صَنْعَةِ الإنسان عَلى شُعُورِهِ، إلى نِسبَةِ دَلالَةِ خِلقَةِ الإنسان عَلى عِلمِ خالِقِهِ، كَنِسبَةِ لُمَيعَةِ نُجَيْمَةِ الذُّبَيْبَةِ في اللَّيلَةِ الدَّهمَاءِ إلى شَعشَعةِ الشَمْسِ في نِصفِ النَّهارِ عَلى وَجهِ الغَبْراءِ.

وَكَما أنَّهُ عَليمٌ بِكُلِّ شَيءٍ فهو مُريدٌ لكُلِّ شَيءٍ لا يمكن أن يَتَحَقَّقَ شَيءٌ بِدُونِ مَشِيئَتِهِ. وَكما أن القُدْرَةَ تُؤَثِّرُ، وَأنَّ العِلمَ يُمَيِّزُ؛ كَذَلكَ أنَّ الإرادةَ تُخَصِّصُ، ثُمَّ يَتَحَقَّقُ وُجودُ الأشيَاءِ.

فَالشَوَاهِدُ عَلى وُجودِ إرادَتِهِ تَعالى وَاختِيَارِهِ سُبحانَهُ بِعَدَدِ كَيفِيَّاتِ الأشياء وَأحْوالِهَا وَشُؤوناتِها.

نَعَمْ، فَتَنْظِيمُ المَوجودَاتِ وَتَخْصيصُها بِصِفاتِها مِنْ بينِ الإمْكَانَاتِ الغَيْرِ المَحْدُودَةِ، وَمِنْ بَينِ الطُّرُقِ العَقيمَةِ، وَمِنْ بَينِ الاحتِمَالاتِ المُشَوَّشَةِ، وَتَحتَ أيدي السُّيُولِ المُتَشاكِسَةِ،

بِهذا النِّظَامِ الأدَقِّ الأرَقِّ، وَتَوْزِينُهَا بِهذا المِيزانِ الحَسَّاسِ الجَسَّاسِ المَشْهُودَينِ؛ وَأنَّ خَلْقَ المَوجُوداتِ المُختَلِفَاتِ المُنتَظَماتِ الحَيَوِيَّةِ مِنَ البَسائِطِ الجَامِدَةِ - كَالإنسانِ بِجِهَازاتِهِ مِنَ النُّطفَةِ، وَالطَّيْرِ بِجوارِحِهِ مِنَ البَيضَةِ، وَالشَّجَرِ بأعْضَائِهِ المُتَنوعَةِ مِنَ النَّوَاةِ - تَدُلُّ على أن تَخَصُّصَ كُلِّ شَيءٍ وَتَعَيُّـنَهُ بإرادَتِهِ واختِيَارِهِ وَمَشِيئَتِهِ سُبْحَانَهُ. فَكما أن تَوافُقَ الأشياء مِنْ جِنْسٍ، وَالأفرَادِ مِنْ نَوعٍ في أَسَاساتِ الأعْضاءِ، يَدُلُّ بالضَّرُورَةِ على أن صانِعَها واحِدٌ أحدٌ؛ كَذلكَ أنَّ تمايُزَها في التَّشَخُّصاتِ الحَكِيمَةِ المُشتَمِلَةِ عَلى عَلاماتٍ فارِقَةٍ مُنْتَظَمَةٍ، تَدُلُّ على أن ذلكَ الصَّانِعَ الواحِدَ الأحدَ هُوَ فاعِلٌ مُختَارٌ مُرِيدٌ يَفعَلُ ما يَشاءُ وَيَحكُمُ ما يُرِيدُ جَلَّ جَلالُهُ.

وَكما أن ذلِكَ الخَلّاقَ العَليمَ المُريدَ عَليمٌ بِكُلِّ شَيء، وَمُرِيدٌ لِكُلِّ شَيء، لَهُ عِلمٌ مُحيطٌ، وَإرادةٌ شَامِلَةٌ، وَاختيَارٌ تَامٌّ؛ كَذلكَ لَهُ قُدرَةٌ كاملَةٌ ضَرُورِيَّةٌ ذَاتِيَّةٌ ناشِئَةٌ مِنَ الذَّاتِ وَلازِمَةٌ لِلذَّاتِ. فَمُحَالٌ تَداخُلُ ضِدِّها. وَإلّا لَزِمَ جَمْعُ الضِّدَّيْنِ المُحالُ بالاتِفَاقِ.

فَلا مرَاتِبَ في تِلكَ القُدرةِ. فَتَتَساوى بِالنِّسبَةِ إليها الذَّرَّاتُ وَالنجُومُ وَالقَليلُ وَالكثيرُ وَالصغيرُ والكَبيرُ وَالجُزئيُّ وَالكُلِّيُّ وَالجُزءُ وَالكُلُّ وَالإنسانُ وَالعالَمُ والنُّوَاةُ والشَّجَرُ:

بِسِرِّ النُّورَانيَّةِ وَالشَّفافِيَّةِ وَالمُقابَلَةِ وَالمُوازَنَةِ وَالانتِظامِ وَالامتِثالِ.

بِشَهادَةِ الانتِظامِ المُطلَقِ وَالاتِّزانِ المُطلَقِ وَالامتِيَازِ المُطلَقِ في السُّرعَةِ وَالسُّهُولَةِ وَالكَثرَةِ المُطلَقَاتِ.

بِسِرِّ إمدادِ الوَاحِديَّةِ ويُسرِ الوَحدَةِ وتَجَلِّي الأحَدِيَّةِ.

بِحِكمَةِ الوُجوبِ وَالتَجَرُّدِ وَمُبَايَنَةِ الماهيَّةِ.

بِسرِّ عَدَمِ التَّـقَيُّدِ وَعَدَمِ التَّحَيُّزِ وَعَدَمِ التَّجَزُّءِ.

بِحِكمَةِ انقِلابِ العَوائِقِ وَالمَوانِعِ إلى الوَسَائِلِ في التَسْهيلِ إنْ احْتِيجَ إلَيهِ. وَالحَالُ أنَّهُ لا احتِيَاجَ، كأعْصابِ الإنسانِ، وَالخُطُوطِ الحَديديَّةِ لنَقلِ السَّيَّالاتِ اللَّطيفَةِ.

بِحِكمَةِ أنَّ الذَّرَّةَ وَالجُزءَ وَالجُزئيَّ وَالقَليلَ وَالصَغيرَ وَالإنسانَ وَالنَّواةَ ليسَتْ بِأقَلَّ جَزَالَةً مِنَ النَّجْمِ وَالنَّوعِ وَالكُلِّ وَالكُلِّيِّ وَالكَثيرِ وَالكَبيرِ وَالعَالَمِ وَالشَّجَرِ.

فَمَنْ خَلَقَ هؤلاءِ لا يُسْتَبعَدُ مِنْهُ خَلقُ هذِهِ. إذ المُحاطاتُ كالأمثِلَةِ المَكتُوبَةِ المُصَغَّرَةِ،

أو كالنُّقَطِ المَحلُوبَةِ المُعَصَّرَةِ. فَلابُدَّ بالضَرُورَةِ أنْ يَكونَ المُحيطُ في قَبضَةِ تَصرُّفِ خالِقِ المُحَاطِ، لِيُدْرِجَ مِثالَ المُحيطِ في المُحَاطَاتِ بِدَسَاتيرِ عِلمِهِ، وَأنْ يَعْصُرَها مِنْهُ بِمَوازينِ حِكمَتِهِ. فَالقُدرَةُ الَّتي أبرَزَتْ هَاتيكَ الجُزئيَّاتِ لا يَتَعسَّرُ عَليها إبرَازُ تاكَ الكُلِّيَّاتِ.

فَكما أن نُسخَةَ قُرآنِ الحِكمَةِ المَكتُوبَةَ عَلى الجَوهَرِ الفَردِ بِذَرَّاتِ الأثيرِ لَيسَتْ بِأقَلَّ جَزَالَةً مِنْ نُسْخَةِ قُرآنِ العَظَمَةِ المَكتُوبَةِ عَلى صَحَائِفِ السَّماواتِ بِمِدادِ النُّجُومِ وَالشُّموسِ؛ كذَلِكَ لَيسَتْ خِلقَةُ نَحلَةٍ وَنَمْلَةٍ بِأَقَلَّ جَزَالَةً مِنْ خِلقَةِ النَّخلَةِ والفيلِ، وَلا صَنْعَةُ وَردِ الزَّهْرَةِ بِأقَلَّ جَزَالَةً مِنْ صَنْعَةِ دُرِّيِّ نَجمِ الزُّهْرَةِ. وَهكَذا فَقِسْ.

فَكما أن غايَةَ كَمالِ السُّهُولَةِ في إيجاد الأشياء أوقَعَتْ أهلَ الضَّلالَةِ في التِبَاسِ التَّشكيلِ بالتَّشكُّلِ المُستَلزِمِ لِلمُحَالاتِ الخُرَافيَّةِ الَّتي تَمُجُّها العُقُولُ، بَل تَتَنَفَّرُ عَنها الأوهَامُ؛ كذلِكَ أثْبَتَتْ بِالقَطعِ وَالضَرُورَةِ لأهلِ الحَقِّ وَالحَقيقَةِ تَساويَ السَّيَّاراتِ مَعَ الذَّرَّاتِ بالنِسبَةِ إلى قُدْرَةِ خالِـقِ الكائِناتِ.

جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ شأنُهُ وَلَا إِلهَ إلَّا هُوَ.

المرتبة السادسة [1]

جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ شأنُهُ الله أكبَرُ مِنْ كُلِّ شَيءٍ قُدْرَةً وَعلماً، إذ هُوَ العَادِلُ الحَكيمُ القَادِرُ العَليمُ الوَاحِدُ الأحَدُ السُّلطَانُ الأزَليُّ الَّذي هذِهِ العَوالِمُ كُلُّهَا في تَصرُّفِ قَبْضَتَيْ نِظامِهِ وَميزَانِهِ وَتَنْظيمِهِ وَتَوزِينِهِ وَعَدلِهِ وَحِكمَتِهِ وَعِلمِهِ وَقُدرَتِهِ، وَمَظهَرُ سِرِّ وَاحِدِيَّتِهِ وَأَحَدِيَّتِهِ بِالحَدْسِ الشُّهُوديِّ بَل بِالمُشَاهَدَةِ. إذ لا خَارِجَ في الكَونِ مِنْ دَائِرَةِ النِّظَامِ وَالميزَانِ وَالتَّنظيمِ وَالتَّوزينِ؛ وَهُمَا بابانِ مِنَ «الإمامِ المُبينِ» و«الكِتَابِ المُبينِ». وَهُما عُنوَانانِ لِعِلمِ العَليمِ الحَكيمِ وَأَمْرِهِ وَقُدْرَةِ العَزيزِ الرَّحيمِ وَإرادَتِهِ. فَذلكَ النِّظامُ مَعَ ذلكَ المِيزَانِ، في ذلكَ الكِتَابِ مَعَ ذلكَ الإمامِ بُرهَانانِ نَـيِّرانِ لِمَنْ لَهُ في رَأسِهِ إذعَانٌ، وفي وَجهِهِ العَينَانِ، أنْ لا شَيءَ مِنَ الأشياء في الكَونِ وَالزَّمانِ يَخْرُجُ منْ قَبضَةِ تَصرُّفِ رَحمنٍ، وَتَنْظيمِ حَنَّانٍ، وَتَزيينِ مَنَّانٍ، وَتَوزينِ دَيَّانٍ.

الحَاصِلُ: أنَّ تَجَلِّيَ الِاسمِ «الأوَّلِ وَالأخِرِ» في الخَلّاقِيَّةِ، النَّاظِرينِ إلى المَبدَأِ وَالمُنتَهى

(١) لو كتبت هذه المرتبة السادسة كسائر المراتب لطالت جداً، لأن «الإمام المبين» و«الكتاب المبين» لا يمكن بيانهما باختصار، وحيث إننا ذكرنا نبذة منها في «الكلمة الثلاثين» فقد أجملنا هنا، إلّا أننا أسردنا بعض الإيضاحات أثناء الدرس. (المؤلف).

وَالأصلِ وَالنَسلِ وَالمَاضي وَالمُستَقبلِ وَالأمرِ وَالعِلم، مُشيرانِ إلى «الإمامِ المُبينِ». وَتَجَلِّيَ الِاسمِ «الظَّاهِرِ وَالباطِنِ» عَلى الأشياء في ضِمنِ الخَلّاقِيَّةِ يُشيرانِ إلى «الكِتابِ المُبينِ».

فَالكَائِناتُ كَشَجَرَةٍ عَظيمَةٍ، وَكُلُّ عالَمٍ مِنها أيضاً كَالشَّجرةِ. فَنُمَثِّلُ شَجَرَةً جُزئِيَّةً لِخِلقَةِ الكائِناتِ وَأنواعِها وَعوالِمِها. وهَذِهِ الشَّجَرَةُ الجُزئِيَّةُ لها أصلٌ وَمَبدأٌ وَهُوَ النَّواةُ الَّتي تَنبُتُ عَليهَا، وَكَذا لها نَسلٌ يُديمُ وَظيفَتَها بَعدَ مَوتِها وَهُوَ النَّواةُ في ثَمَراتِها.

فَالمَبدَأُ وَالمُنتَهى مَظْهَرانِ لِتَجَلِّي الِاسمِ «الأوَّلِ وَالآخِرِ». فَكَأنَّ المَبدأ وَالنَّواةَ الأصليَّةَ بِالانتِظامِ وَالحِكمَةِ، فِهرِستَةٌ وَتَعرِفَةٌ مُرَكَّبَةٌ مِنْ مَجمُوعِ دَساتيرِ تَشكُّلِ الشَّجَرةِ. وَالنَّواتَاتُ في ثَمَراتِها الَّتي في نِهاياتِها مَظهَرٌ لِتَجَلِّي الِاسمِ الآخِرِ.

فَتِلكَ النَّواتاتُ في الثَّمَراتِ بِكَمالِ الحِكمَةِ، كأنَّها صُنَيدِيقَاتٌ صَغيرَةٌ أُودِعَتْ فيها فِهرِستَةٌ وَتَعرِفَةٌ لتَشَكُّلِ ما يُشابِهُ تِلكَ الشَجرَةَ. وَكأنَّها كُتِبَ فيها بِقَلَمِ القَدَرِ دَساتيرُ تَشكُّلِ شَجَراتٍ آتِيَةٍ.

وَظاهِرُ الشَّجَرَةِ مَظْهَرٌ لِتَجَلِّي الِاسمِ «الظَّاهِرِ». فَظَاهِرُها بِكَمالِ الِانتِظامِ وَالتَّزيينِ وَالحِكمَةِ، كأنَّها حُلَّةٌ مُنتَظَمَةٌ مُزَيَّنَةٌ مُرَصَّعَةٌ قَد قُدَّتْ عَلى مِقدارِ قَامَتِها بِكَمالِ الحِكمَةِ وَالعِنَايَةِ.

وَباطِنُ تِلكَ الشَّجَرَةِ مَظهَرٌ لِتَجَلِّي الِاسمِ «البَاطِنِ». فَبِكَمالِ الانتِظامِ وَالتَّدبيرِ المُحَيِّرِ لِلعُقُولِ، وَتَوزيعِ مَوادِّ الحَياةِ إلى الأعضاءِ المُختَلِفَةِ بِكَمالِ الانتِظامِ، كأنَّ باطِنَ تِلكَ الشَّجَرَةِ ماكِينَةٌ خَارِقَةٌ في غَايَةِ الِانتَظامِ وَالِاتِّزَانِ.

فَكما أن أوَّلَها تَعرِفَةٌ عَجيبَةٌ، وآخِرَها فِهرِستَةٌ خارِقَةٌ تُشيرانِ إلى «الإمامِ المُبينِ»؛ كَذَلكَ إنَّ ظَاهِرَها كحُلَّةٍ عَجيبَةِ الصَنْعَةِ، وَباطِنَها كَمَاكينَةٍ في غَايَةِ الِانتِظامِ، تُشيرَانِ إلى «الكِتَابِ المُبينِ».

فَكما أن القُوَّاتِ الحَافِظاتِ في الإنسان تُشيرُ إلى «اللَّوحِ المَحفُوظِ» وَتَدُلُّ عَلَيهِ؛ كَذلِكَ إنَّ النَّوَاتاتِ الأصليَّةَ وَالثَّمَراتِ تُشيرَانِ في كُلِّ شَجَرَةٍ إلى «الإمامِ المُبينِ». وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ يَرمُزَانِ إلى «الكِتَابِ المُبينِ». فَقِسْ عَلى هذِهِ الشَّجَرَةِ الجُزئِيَّةِ شَجَرَةَ الأرض بِمَاضِيها وَمُستَقبَلِها، وَشَجَرةَ الكَائِناتِ بِأوائِلِها وَآتِيها، وَشَجَرةَ الإنسان بِأجْدَادِها وَأنسَالِها. وَهكذا...

جَلَّ جَلالُ خالِقِها وَلا إِلَهَ إلّا هُوَ.

يا كَبيرُ أنت الَّذي لا تَهدِي العُقُولُ لِوَصفِ عَظَمَتِهِ وَلا تَصِلُ الأفْكَارُ إلى كُنْهِ جَبَرُوتِهِ.

المرتبة السابعة

جَلَّ جَلالُهُ الله أكبَرُ مِنْ كُلِّ شَيءٍ قُدرَةً وَعِلماً. إذ هُوَ (١) الخَلّاقُ الفَتّاحُ الفَعَّالُ العَلّامُ الوَهّابُ الفَيّاضُ شَمسُ الأزَلِ الَّذي هذِهِ الكَائِناتُ بِأنواعِها وَمَوجُوداتِها ظِلالُ أنوارِه، وَآثارُ أفعَالِهِ، وَألوانُ نُقوشِ أنواعِ تَجَلِّياتِ أسمائِهِ، وخُطُوطُ قَلَمِ قَضائِهِ وَقَدَرِهِ، وَمَرَايَا تَجَلِّياتِ صِفَاتِهِ وَجَمَالِهِ وَجَلالِهِ وَكَمالِهِ..

بِإجمَاعِ الشَّاهِدِ الأزَليِّ بِجَميعِ كُتُبِهِ وَصُحُفِهِ وآياتِهِ التكْوِينيَّةِ والقُرآنيَّةِ..

وبِإجمَاعِ الأرض مَعَ العَالَمِ بِافتِقَاراتِها وَاحتِيَاجاتِها في ذاتِها وَذَرَّاتِها مَعَ تَظاهُرِ الغِناءِ المُطلَقِ وَالثَّروَةِ المُطلَقَةِ عَلَيها..

وبإجمَاعِ كُلِّ أهل الشُّهُودِ مِنْ ذَوي الأرواحِ النَّيِّرَةِ وَالقُلوبِ المُنَوَّرَةِ وَالعُقُولِ النُّورانيَّةِ مِنَ الأنبياء وَالأولِيَاءِ والأصفِيَاءِ بِجَميعِ تَحقيقَاتِهِمْ وَكُشُوفَاتِهِمْ وَفُيُوضاتِهِمْ وَمُنَاجَاتِهِمْ..

قَدْ اتَّفَقَ الكُلُّ مِنهُمْ، وَمِنَ الأرض وَالأجرَامِ العُلويَّةِ وَالسُّفليَّةِ بِما لا يُحَدُّ مِنْ شَهادَاتِهِمُ القَطعيَّةِ وَتَصدِيقاتِهِمُ اليَقينيَّةِ بِقَبولِ شَهَادَاتِ الآياتِ التَّكْوينيَّةِ والقُرآنيَّةِ وَشَهَادَاتِ الصُّحُفِ وَالكُتُبِ السَّماويَّةِ الَّتي هيَ شَهَادَةُ الوَاجِبِ الوُجُودِ على أن هذِهِ المَوجُودَاتِ آثارُ قُدرَتِهِ ومَكْتُوباتُ قَدَرِهِ وَمَرايا أسمائِه وَتَمَثُّلاتُ أنوَارِهِ.

جَلَّ جَلالُهُ وَلا إِلَهَ إلّا هُوَ.

---

(١) يمكن الانتقال إلى المسمى ذي الجلال والإكرام إذا ما نظر بمنظار هذه الأسماء المباركة إلى مظاهر الأفعال والآثار الإلهية وراء هذه الموجودات. (المؤلف).

الباب الرابع

فصلان

الفصل الأول

هذا الفصل يشير إلى ثلاثٍ وستين مرتبةً من مراتب معرفة الله وتوحيده سبحانه متخذاً وِرداً مهماً ومشهوراً لسيدنا الخضر عليه السلام كمبدأ وأساس لهذا الورد. علماً أن كل مرتبة من المراتب الثلاث والستين عبارة عن جملتين.

فكلمة «لا اله إلّا الله» تثبت الوحدانية، كما أن الأسماء التي تبدأ بـ«هو» تثبت وجود واجب الوجود. فعندما تشير الجملة الأولى إلى الوحدانية، يخطر بالبال سؤال مقدَّر، كأن يقال: ومن هو الواحد؟ وكيف نعرفه؟ فيكون جوابه: هو الرحمن الرحيم.. مثلاً. أي أن آثار الشفقة والرحمة التي تملأ الكون كله تعرّف ذلك الرحمن وتدل عليه. وهكذا قس الباقي.

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

اَللّهمَّ إنّي أُقَدِّمُ إلَيكَ بَينَ يَدَي كُلِّ نِعْمَةٍ وَرَحمَةٍ وَحِكمَةٍ وَعِنايَةٍ، وبَينَ يَدَي كُلِّ حَيَاةٍ وَممَاتٍ وَحيوَانٍ وَنَبَاتٍ، وَبينَ يَدَي كُلِّ زَهرَةٍ وَثَمَرةٍ وَحَبَّةٍ وَبَذرَةٍ، وَبَينَ يَدَي كُلِّ صَنْعَةٍ وصِبغَةٍ ونِظام وَميزَانٍ، وبينَ يَدي كُلِّ تَنظيم وَتَوزِينٍ وتَمييزٍ في كُلِّ المَوجُودَاتِ وَذَرَّاتِها، شَهادَةً نَشهَدُ [١] أنْ:

(١) في هذه الشهادات حكمان: أحدهما يدل على الوحدانية، وهو قوله: (لا اله إلّا الله) والآخر، يثبت وجود ذلك الواحد، وهو الأسماء التي تبدأ بـ«هو». فكلما ورد ضمير «هو» فهو جواب لسؤال مقدّر. وكأنه يقال: كيف نعرف ذلك الإله الواحد؟ فيجيبه مثلاً بقول: «هو السميع البصير» فيقول في هذا: إن هناك مَن يرى ويسمع حاجات هذه الموجودات وادعيتها فيخلق ما تطلبه ويفعل ما تريده. وهكذا مثل هذه الآثار، تثبت الأفعال الإلهية، وتلك الأفعال تثبت أسماءً كالسميع والبصير، وتدل تلك الأسماء على وجود موصوفاتها. فجميع هذه الجمل تسير على هذا المنوال، فتثبت بالآثار الأفعال، وبالأفعال الأسماءَ، وبالأسماء وجودَ واجب الوجود. (المؤلف).

لآ إلهَ إلّا الله هُوَ الحيُّ القَيومُ — لآ إلهَ إلّا الله هُوَ الباقِي الدَّيمُومُ

لآ إلهَ إلّا الله وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ — لآ إلهَ إلّا الله هُوَ العَزيزُ الجَبَّارُ

لآ إلهَ إلّا الله هُوَ الحَكيم الغَفَّارُ — لآ إلهَ إلّا الله هُوَ الأول وَالآخِرُ

لآ إلهَ إلّا الله هُوَ الظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ — لآ إلهَ إلّا الله هُوَ السَّميعُ البَصيرُ

لآ إلهَ إلّا الله هُوَ اللَّطيفُ الخَبيرُ — لآ إلهَ إلّا الله هُوَ الغَفُورُ الشَّكورُ

لآ إلهَ إلّا الله هُوَ الخَلّاقُ القديرُ — لآ إلهَ إلّا الله هُوَ المُصَوِّرُ البَصيرُ

لآ إلهَ إلّا الله هُوَ الجَوَّادُ الكريمُ — لآ إلهَ إلّا الله هُوَ المُحيي العَليمُ

لآ إلهَ إلّا الله هُوَ المُغني الكَريمُ — لآ إلهَ إلّا الله هُوَ المُدَبِّرُ الحَكيمُ

لآ إلهَ إلّا الله هُوَ المُرَبِّي الرَّحيمُ — لآ إلهَ إلّا الله هُوَ العزيزُ الحَكيمُ

لآ إلهَ إلّا الله هُوَ العلِّيُّ القَويُّ — لآ إلهَ إلّا الله هُوَ الوَليُّ الغنيُّ

لآ إلهَ إلّا الله هُوَ الشَّهيدُ الرَّقيبُ — لآ إلهَ إلّا الله هُوَ القَريبُ المُجيبُ

لآ إلهَ إلّا الله هُوَ الفَتاحُ العَليمُ — لآ إلهَ إلّا الله هُوَ الخَلّاقُ الحَكيمُ

لآ إلهَ إلّا الله هُوَ الرَّزاقُ ذُو القُوَّةِ المَتينُ — لآ إلهَ إلّا الله هُوَ الأحَدُ الصَمَدُ

لآ إله إلّا الله هو الباقي الأمْجَدُ — لا الهَ إلّا الله هُوَ الوَدُودُ المَجيدُ

لآ إلهَ إلّا الله هُوَ الفَعَّالُ لِما يريدُ — لآ إلهَ إلّا الله هُوَ المَلِكُ الوَارِثُ

لآ إلهَ إلّا الله هُوَ البَاقي البَاعِثُ — لآ إلهَ إلّا الله هُوَ البَارِىءُ المُصَوِّرُ

لآ إلهَ إلّا الله هُوَ اللَّطيفُ المُدَبِّرُ — لآ إلهَ إلّا الله هُوَ السَّيدُ الدَّيَّانُ

لآ إلهَ إلّا الله هُوَ الحنَّانُ المَنَّانُ — لآ إلهَ إلّا الله هُوَ السُّبُّوحُ القُدُّوسُ

لآ إلهَ إلّا الله هُوَ العَدْلُ الحَكَمُ — لآ إلهَ إلّا الله هُوَ الفَرْدُ الصَّمَدُ

لآ إلهَ إلّا الله هُوَ النورُ الهادي..

لآ إلهَ إلّا الله هُوَ المَعرُوفُ لِكُلِّ العارِفيـنَ [١]

لآ إلهَ إلّا الله هُوَ المَعبُودُ الحَقُّ لِكُلِّ العابِدينَ..

لآ إلهَ إلّا الله هُوَ المَشكُورُ لِكُلِّ الشّاكِرينَ

لآ إلهَ إلّا الله هُوَ المَذْكُورُ لكُلِّ الذّاكِرينَ..

لآ إلهَ إلّا الله هُوَ المَحمُودُ لِكُلِّ الحَامدينَ

لآ إلهَ إلّا الله هُوَ المَوجُودُ لِكُلِّ الطّالبينَ..

لآ إلهَ إلّا الله هُوَ المَوصُوفُ لِكُلِّ المُوَحِّدينَ

لآ إلهَ إلّا الله هُوَ المَحبُوبُ الحقُّ لكُلِّ المُحِبِّينَ..

لآ إلهَ إلّا الله هُوَ المَرغُوبُ لِكُلِّ المريدينَ

لآ إلهَ إلّا الله هُوَ المَقصُودُ لكُلِّ المُنيبينَ ..

لآ إلهَ إلّا الله هُوَ المَقصُودُ لِكُلِّ الجَنانِ

لآ إلهَ إلّا الله هُوَ المُوجِدُ لِكُلِّ الأنامِ..

لآ إلهَ إلّا الله هُوَ المَوجُودُ فـي كُلِّ زَمانٍ

لآ إلهَ إلّا الله هُوَ المَعبُودُ في كُلِّ مَكانٍ..

لآ إلهَ إلّا الله هُوَ المَذكُورُ بِكُلِّ لِسانٍ

لآ إلهَ إلّا الله هُوَ المَشكُورُ بِكُلِّ إحسَانٍ..

لآ إلهَ إلّا الله هُوَ المُنْعِمُ بلا امتِنانٍ

---

(١) وفحوى هذه الفقرة والتي تليها من الفقرات، الآتي:

إن كنت تريد معرفة ذلك، فانظر! إن ما عرفه جميع العارفين الذين أتوا في نوع البشر، بدلائلهم المختلفة وطرقهم المتباينة هو «معروف» واحد. فذلك المعروف هو الإله الواحد، فيظهر، وجود من يعرفه أهل المعرفة الذين لا يحصيهم العدّ بوجوه لا تعد ولا تحصى، وضوحاً ظاهراً كالشمس: وكذا، إن العابدين الذين لا يحصرهم العدّ في نوع البشر لعبادتهم معبوداً واحداً وجنيهم الثمرات المعنوية إزاء تلك العبادات، وحظوتهم بالمناجاة والفيوضات، يدل على وجود ذلك المعبود بتواتر مضاعف. وهكذا فقس على سائر الفقرات. (المؤلف).

لآ إلهَ إلّا الله إيمـانـاً بالله	لآ إلهَ إلّا الله أمانًا مِنَ الله
لآ إلهَ إلّا الله أمـانَةً عِـنْدَ الله	لآ إلهَ إلّا الله حَقًّا حَقًّا
لآ إلهَ إلّا الله إذعَاناً وَصِدْقاً	لآ إلهَ إلّا الله تَعَبُّـداً وَرِقًّا

لآ إلهَ إلّا الله المَلِكُ الحَقُّ المُبينُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله الصَادِقُ الوَعدِ الأمينُ

الفصل الثاني

إنَّ هذه السطور الخمسة أو الستة من التمجيد والتعظيم التي تعتبر فاتحةَ أوراد الصباح لدى معظم الأقطاب. وعلى الأخص الشيخ الكيلاني، قد أصبحت كنواةٍ لسلسلة فكرية طويلة. وانبتت سنبلاً معنوياً من قبيل الإشارة إلى تسع وتسعين مرتبة من مراتب المعرفة والتوحيد.

وقد ذكرت هنا تسع وسبعون مرتبة من تلك المراتب التسع والتسعين، وهي تتوجه في كل فقرة من تلك الإشارات، إلى الذات الإلهية المقدسة بجهتين:

الأولى: إنها تشهد على الله سبحانه بالحال الحاضرة المشهودة، فيعبّر عن ذلك المعنى بعبارة «الله شهيد».

الثانية: إنها تدلّ بعبارة «على الله دليل» على إشارة السلسلة التي تظهر بتعاقب الأمثال بعضها وراء بعض.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَصْبَحنا [١] وَأَصبَحَ المُلكُ لله شَهيدٌ. وَالكبرِيَاءُ عَلى الله دَليلٌ

وَالعَظَمَةُ لله شَهيدٌ. وَالهَيبَةُ عَلى الله دَليلٌ

وَالقُوَةُ لله شَهيدٌ. وَالقُدرَةُ عَلى الله دَليلٌ

وَالآلاءُ لله شَهيدٌ [٢] وَالإنعامُ الدَّائِمُ عَلى الله دَليلٌ

وَالبَهَاءُ لله شَهيدٌ. وَالجَمَالُ السَّرمَدُ عَلى الله دَليلٌ

وَالجَلالُ لله شَهيدٌ. وَالكَمالُ عَلى الله دَليلٌ

وَالعَظَمُوتُ لله شَهيدٌ. وَالجَبَروتُ عَلى الله دَليلٌ

وَالرُّبُوبيَّةُ لله شَهيدٌ. وَالأُلُوهيَّةُ المُطلَقَةُ عَلى الله دَليلٌ

وَالسَّلْطَنَةُ لله شَهيدٌ. وَجُنُودُ السَّماواتِ وَالأرضِ عَلى الله دَليلٌ

---

(١) أصبحنا: أي دخلنا الصباح (صباحاً) ومُلك هذا الصباح شاهد لله أيضاً.

وفي الباب نكتتان:

النكتة الأولى: إن كل شيء بوجوده الحاضر يشهد على وجود الله ووحدانيته كما أن تبدّله المنظم وذهابه كي يفسح المجال لمن يأتي بعده من أمثاله، وإبرازه سلسلة عظيمة تحت صورة التجدّد.. كل ذلك دليل على وجوده تعالى وعلى وحدانيته.

والحاصل: يدل بفقرة «شهيد» على الحالة الراهنة. وبجملة «دليل» يدل على السلسلة المتشكلة نتيجة تركّب أمثالها المتعاقبة.

النكتة الثانية: من المعلوم حسب القاعدة النحوية أن يقال: «الآلاء على الله شهيدة» ولكن عدل عن ذلك إلى اللفظ المذكر «شهيد» ليدل على أن كل فرد يشهد بذلك. ولو قيل: «شهيدة» لأفاد معنى الجماعة. ويقال: «الربوبية على الله شهيد» مثلاً: لأن المراد من الربوبية هو: أن أنواع التربية والتدبير التي أوجدها الله بربوبيته، تشهد بذلك، إذ الربوبية نفسها لا تشاهَد، بينما تشاهَد أنواع التربية والتدبير التي هي آثارها. فقيل: «شهيد» ليجعل كل شيء مشهود شاهداً. فلو قيل «شهيدة» لكان راجعاً إلى الربوبية نفسها.

وكذلك النكتة في الآية الكريمة ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (الأعراف:٥٦) فمع أن الرحمة مؤنثة لم يُعبَّر عنها بـ«قريبة» وانما عُبّر بـ«قريب» لأن المراد: ليس إفادة قرب تلك الرحمة العالية الكلية التي هي كالشمس فحسب، بل إفادة قرب الإحسانات الخاصة أيضاً والتي هي بمثابة أشعة تلك الشمس. فيُرى لكل محسنٍ إحساناً قريباً. ولفظ «الإحسان» مذكر. فمن حقه إذن أن يُخبَر عنه بـ«قريب». كما أنَّ الآية لم تقلْ قريبة بل قالت قريب لكي تفيد أنَّ الله قريب من المحسنين برحمته. (المؤلف).

(٢) في أمثال هذا كان ينبغي أن يقال «شهيدة» غير أنه استعمل اللفظ المذكر للنكتة المذكورة في كلمة «قريب» بدل «قريبة» في قوله تعالى ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ . ولئن جاء في بعض الأماكن جمعاً، إلّا انه ورد بلفظ «شهيد» المذكر لأن المراد كل واحد. (المؤلف).

وَالأقضِيَةُ [١] لله شَهيدٌ. وَالتَقديرُ عَلى الله دَليلٌ

وَالتَّربيةُ لله شَهيدٌ. وَالتَّدبيرُ عَلى الله دَليلٌ

وَالتَّصويرُ لله شَهيدٌ. وَالتَّنظيمُ عَلى الله دَليلٌ

وَالتَّزيينُ لله شَهيدٌ. وَالتَّوزينُ عَلى الله دَليلٌ

وَالإتْقانُ [٢] لله شَهيدٌ. وَالجُودُ عَلى الله دَليلٌ

وَالخَلقُ لله شَهيدٌ. وَالإيجادُ الدَّائِمُ عَلى الله دَليلٌ

وَالحكْمُ لله شَهيدٌ. وَالأمرُ عَلى الله دَليلٌ

وَالمَحاسِنُ لله شَهيدٌ. وَاللَّطائِفُ عَلى الله دَليلٌ

وَالمَحامِدُ لله شَهيدٌ. وَالمَدائِحُ عَلى الله دَليلٌ

وَالعِبادَاتُ لله شَهيدٌ. وَالكَمالاتُ عَلى الله دَليلٌ

وَالتَّحيَّاتُ [٣] لله شَهيدٌ. وَالبَركاتُ عَلى الله دليلٌ

---

(١) الأقضية: كما أن الحالة الحاضرة والمقادير المخصوصة والمنتظمة للجزئيات تشهد على وجود الفاطر الحكيم، فإن زوال الأمور الكلية وزوال الجزئيات الذي يتم بتقدير وبمقدار منتظم -والذي عبّر عنه بـ«التقدير»- يدل كذلك على وجود ذلك الفاطر الحكيم. وكأن الانتظامات المقتضية تشهد على أن مناوبة الحياة والموت وتجلي القدر والتقدير المنتظم في مناوبة الإحياء والإماتة، كلها تدل على وجوده سبحانه. فمثلاً «التربية» تعني إدارة وجود الشيء ضمن شرائطه. و«التدبير» يعني تغيير ذلك. فلكل منهما دلالة مختلفة. وتستطيع ان تقيس سائر الفقرات على هذا. (المؤلف).

(٢) الإتقان: هو الصنع باهتمام وجودة.

واللطائف: اريد بها صور المحاسن المعنوية والمثالية بزوال صورها المشهودة. أو المراد بها: محاسن تلك السلسلة المتعاقبة.

المحامد: المراد أنواع الحمد الحاضرة.

والمدائح: هي الأثنية الثابتة الدائمة، وكأنها اثنية منبعثة من سلسلة الأمثال المحيطة بالمحامد الماضية والمستقبلة.

الكمالات: تعني الكمالات التي تستلزم المعبودية. أي حتى إذا ذهب العابدون بعباداتهم فإن الكمالات التي تقتضي المعبودية باقية. وهي -أي الكمالات- تسوق إلى العبادة بدلاً عن السلاسل الماضية. (المؤلف).

(٣) التحيات: أي أن جميع ذوي الحياة من حيث اظهارها آثار حياتها ضمن دائرة المراد الإلهي إظهاراً منتظماً، ترحّب وتهنئ صنعة صانعها الجليل. بمثل ما اذا صنع شخص ماكنة خارقةً بديعة ركّب على رأسها أجهزة لتسجيل الصوت والتصوير، وتعمل بنفسها، فتتحدث وتكتب وتخابر بصورة ذاتية، وعملت تلك الماكنة على الوجه الذي يريده صانعها وأعطت نتائجها الحسنة. فكما ان الناظر إلى تلك الماكنة يبارك ويهنئ ذلك الرجل قائلاً: ما شاء الله! بارك الله! ويمنحه هدايا معنوية. كذلك أجهزة تلك الماكنة بإظهارها النتائج المقصودة منها وإظهار آثارها على أكمل وجه، إنما تشكر وتقدر وتحيي صانعها بلسان حالها، وتقدّم التهاني والتبريك بقولها.. ما شاء الله معنىً.

وهكذا ففي رأس كل ذي حياة آلات وأجهزة كبيرة ومختلفة كأجهزة تسجيل الأصوات والتقاط الصور والبرقيات والهواتف. وهي بإظهارها ما في خلقها من مقاصد ونتائج على أكمل وجه وأتمه، إنما تعلن عن تسبيحاتٍ لصانعها

وَالصَّلَواتُ لله شَهيدٌ. وَالطَّـيِّـبَاتُ عَلى الله دليلٌ

وَالمَخلُوقَاتُ لله شَهيدٌ. وَالخَوارِقُ الماضِيَةُ عَلى الله دَليلٌ

وَالمَوجُودَاتُ لله شَهيدٌ. وَالمُعجِزاتُ الآتِيَةُ عَلى الله دليلٌ

وَالسَّماواتُ لله شَهيدٌ. وَالعَرشُ عَلى الله دَليلٌ

وَالشُّموسُ لله شَهيدٌ. وَالأقمَارُ عَلى الله دَليلٌ

وَالنُّجُومُ لله شَهيدٌ. وَالسَيَّاراتُ عَلى الله دليلٌ

وَالجَوُّ بِتَصرُّفاتِهِ وَأمطارِهِ لله شَهيدٌ. وَالأرضُ عَلى الله دليلٌ

يعني:

(وَالقُدرَةُ الظَّاهِرَةُ في الأرضِ، وَالحِكمَةُ الباهِرَةُ فيها، وَالصَنعَةُ المُكَمَّلَةُ فيها، وَالصِّبغَةُ المُتَزَيِّنَةُ فيها، وَالنِّعمَةُ المُتَنَوِّعَةُ فيها، وَالرَّحمَةُ الوَاسِعَةُ فيها عَلى الله دليلٌ).

وَالقُرآنُ بأُلُوفِ آياتِهِ لله شَهيدٌ. وَمُحَمَّدٌ بآلافِ مُعجِزَاتِهِ عَلى الله دَليلٌ

وَالبِحَارُ بِعَجائِبِها وَغَرائِبِها لله شَهيدٌ. وَالنبَاتاتُ بأوراقِها بأزهارِها بِأثمَارِها عَلى الله دليلٌ

يعني:

(فالدَّلائِلُ المُتَزَيِّناتُ المُتَزَهِّراتُ المُثمِراتُ المُسَبِّحاتُ بِأوراقِها، وَالحامِداتُ بِأزهارِها، وَالمُكَبِّراتُ بِأثْمَارِها، عَلى الله دليلٌ)

وَالأشجَارُ بِأوراقِها المُسبِّحاتِ وَأزهارِها الحامِداتِ وَأثْمارِها المُكَبِّراتِ لله شَهيدٌ. وَالحَيواناتُ المُكبِّراتُ، والحُوينَاتُ المُسبِّحَاتُ، وَالطُويراتُ الحامِداتُ، وَالطُّويراتُ الصَّافَّةُ المُهَلِّلاتُ عَلى الله دليلٌ.

والإنس وَالجِنُّ بِعِبَاداتِهِم وَصَلَواتِهِمْ في مَسجِدِ الكَائِناتِ لله شَهيدٌ. وَالمَلَكُ وَالرُّوحُ في مَسجِدِ العَالَمِ بِتَسبيحاتِهِمْ وَعِباداتِهِمْ عَلى الله دليلٌ.

= وعن كمال صنعته التي تعبّر عنها بـ«التحيات» باستحساناتها وتهليلاتها وتكبيراتها وهداياها المعنوية.

أما نحن فبقولنا «التحيات» إنما نتذكر تلك التحيات ونقدمها إلى الحضرة الإلهية تعبيراً عن أنفسنا، واللسان بحد ذاته جهاز من تلك الأجهزة فأولى النتائج المطلوبة منها أن يكون مترجماً لهذه التحيات. (المؤلف).

وَالصَّنْعَةُ لله فَالمَدحُ لله..   وَالصِّبْغَةُ لله فَالثَّنَاءُ لله..

وَالنِّعْمَةُ لله فَالشُّكرُ لله..   وَالرَّحمَةُ لله..

فَالحَمدُ لله ربِّ العَالَمينَ.

الباب الخامس

في مراتب ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾.[1] وَهُوَ خَمسُ نكت..

النكتة الأولى

فهذا الكلام دواء مجرَّب لمرض العجز البشري وسقم الفقر الإنساني

﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[2] (آل عمران:١٧٣) إِذْ هُوَ الْمُوجِدُ الْمَوْجُودُ الْبَاقِي فَلا بَأْسَ بِزَوَالِ الْمَوْجُودَاتِ لِدَوَامِ الْوُجُودِ الْمَحْبُوبِ بِبَقَاءِ مُوجِدِهِ الْوَاجِبِ الْوُجُودِ.

وَهُوَ الصَّانِعُ الْفَاطِرُ الْبَاقِي فَلا حُزْنَ عَلَى زَوَالِ الْمَصْنُوعِ لِبَقَاءِ مَدَارِ الْمَحَبَّةِ فِي صَانِعِهِ.

وَهُوَ الْمَلِكُ الْمَالِكُ الْبَاقِي فَلا تَأَسُّفَ عَلَى زَوَالِ الْمُلْكِ الْمُتَجَدِّدِ فِي زَوَالٍ وَذَهَابٍ.

وَهُوَ الشَّاهِدُ الْعَالِمُ الْبَاقِي فَلا تَحَسُّرَ عَلَى غَيْبُوبَةِ الْمَحْبُوبَاتِ مِنَ الدُّنْيَا لِبَقَائِهَا فِي دَائِرَةِ عِلْمِ شَاهِدِهَا وَفِي نَظَرِهِ.

---

(١) قبل ثلاثة عشر عاماً ألقيت نظرة على الدنيا من علي قمة تل (يوشع) الشاهق.. وكنت كسائر الناس مفتوناً بطبقات الموجودات المتداخلة ومحاسنها. كما كنت مشدوداً إليها بحب شديد؛ مع أنني شاهدت بعقلي انحدارها إلى الفناء والزوال بشكل ظاهر وواضح جداً. فأحسست ألماً وفراقاً؛ بل أحسست ظلمة آتية من فراقات لا حد لها. فأغاثتني فجأة آية ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ بمراتبها الثلاثة والثلاثين. فبدأت أقرأها بشكل رمزيّ على نحو ما سيذكر.

ان كل جملة من الجمل السبع المباركة التي كنت أواظب عليها بين المغرب والعشاء ستكون لمعة ضمن لمعات «المكتوب الحادي والثلاثين». وقد دخلتْ خمسُ جمل منها وبقيت هاتان الجملتان. لذا بقي مكانُ اللمعة الرابعة واللمعة الخامسة فارغاً. وستكون إحدى الجمل حول مراتب ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ . أما الأخرى فحول مراتب (لا حول ولاقوّة الّا بالله العليّ العظيم). ولما كانت مراتب هاتين الجملتين المباركتين عبارة عن الذكر والفكر أكثر من كونها علماً، فقد ذُكرت في الباب الخامس بالعربية. (المؤلف).

(٢) لقد رأيت في وقت ما أنواراً ومقامات كثيرة لهذه الجملة المباركة. فأنقذتني من ورطات وظلمات رهيبة. وكنت قد وضعت إشارات على تلك الأحوال والمقامات: فتارة في صورة فقرة مختصرة جداً، وأخرى بكلمات معدودات لأجل تذكير نفسي. أما تلك الفقرة الأولى، فكنت كلما فكرت في موت ذوي الحياة بموت وفناء الدنيا الضخمة التي هي محبوبتي كما هي محبوبة للآخرين، وجدت أن ضماد آلامي وهمومي العميقة هو: حَسبُنا الله وَنِعْمَ الوَكيلُ. والجمل التي في البداية تسير حسب هذا السرّ. (المؤلف).

وَهُوَ الصَّاحِبُ الْفَاطِرُ الْبَاقِي فَلا كَدَرَ عَلَى زَوَالِ الْمُسْتَحْسَنَاتِ لِدَوَامِ مَنْشَأِ مَحَاسِنِهَا فِي أَسْمَآءِ فَاطِرِهَا.

وَهُوَ الْوَارِثُ الْبَاعِثُ الْبَاقِي فَلا تَلَهُّفَ عَلَى فِرَاقِ الأحباب لِبَقَاءِ مَنْ يَرِثُهُمْ وَيَبْعَثُهُمْ.

وَهُوَ الْجَمِيلُ الْجَلِيلُ الْبَاقِي فَلا تَحَزُّنَ عَلَى زَوَالِ الْجَمِيلاتِ الَّتِي هِيَ مَرَايَا لِلأَسْمَآءِ الْجَمِيلَاتِ لِبَـقَاءِ الأسماءِ بِجَمَالِهَا بَعْدَ زَوَالِ الْمَرَايَا.

وَهُوَ الْمَعْبُودُ الْمَحْبُوبُ الْبَاقِي فَلا تَأَلُّمَ مِنْ زَوَالِ الْمَحْبُوبَاتِ الْمَجَازِيَّةِ لِبَقَاءِ الْمَحْبُوبِ الْحَقِيقي.

وَهُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ الْوَدُودُ الرَّؤُفُ الْبَاقِي فَلا غَمَّ وَلا مَأْيُوسِيَّةَ وَلا أهمية مِنْ زَوَالِ الْمُنْعِمِينَ الْمُشْفِقِينَ الظَّاهِرِينَ لِبَقَاءِ مَنْ وَسِعَتْ رَحْمَتُهُ وَشَفَقَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ.

وَهُوَ الْجَمِيلُ اللَّطِيفُ الْعَطُوفُ الْبَاقِي فَلا حِرْقَةَ وَلا عِبْرَةَ بِزَوَالِ اللَّطِيفَاتِ الْمُشْفِقَاتِ لِبَقَاءِ مَنْ يَقُومُ مَقَامَ كُلِّهَا، وَلا يَقُومُ الْكُلُّ مَقَامَ تَجَلٍّ وَاحِدٍ مِنْ تَجَلِّيَاتِهِ؛ فَبَقَاؤهُ بِهَذِهِ الأَوْصَافِ يَقُومُ مَقَامَ كُلِّ مَا فَنِيَ وَزَالَ مِنْ أنواع مَحْبُوبَاتِ كُلِّ أحد مِنَ الدُّنْيَا. ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ نَعَمْ حَسْبِي مِنْ بَقَاءِ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا بَقَاءُ مَالِكِهَا وَصَانِعِهَا وَفَاطِرِهَا.

النكتة الثانية

حَسْبِي [١] مِنْ بَقَائِي أَنَّ الله هُوَ اِلَهِيَ الْبَاقِي، وَخَالِقِيَ [٢] الْبَاقِي، وَمُوجِدِيَ الْبَاقِي، وَفَاطِرِيَ الْبَاقِي، وَمَالِكِيَ الْبَاقِي، وَشَاهِدِيَ الْبَاقِي، وَمَعْبُودِيَ الْبَاقِي وبَاعِثِيَ الْبَاقِي، فَلا بَأْسَ وَلا حُزْنَ وَلا تَأَسُّفَ وَلا تَحَسُّرَ عَلَى زَوَالِ وَجُودِي لِبَقَاءِ مُوجِدِي، وَإِيجَادِهِ بِأَسْمَائِهِ. وَمَا فِي

(١) مثلما رأيت جلوات الأسماء الباقية للباقي ذي الجلال وراء فناء الدنيا وزوال الآفاق، فشعرت بسلوان تام، كذلك نظرت إلى شخصي. فإذا بمختلف طبقات الموجودات النفسية العديدة والصفات الشخصية وحقائقها التي افتتنت بها في شخصي تجري بسرعة نحو الزوال والفناء، فبحثت في تلك الفانيات عن البقاء بسرّ ما غرز في فطرة الإنسان من عشق البقاء، فوجدت جلوة أسماء خالقي الباقي، ورأيت في زوال كلّ صفة من صفاتي جلوةً باقية من جلوات اسم من الأسماء المتمثلة فيها. عند ذلك أدركت إدراكاً قاطعاً أن عشق البقاء الكامن في فطرة الإنسان محبة متشعبة عن المحبة الآلهية.

بيد أن الإنسان يتحرّى محبوبه بشكل خطأ؛ فبينما يلزم عليه حب المتمثّل في المرآة والبحث عنه، يبدأ بحب المرآة أو حب كيفية التمثل فيها والتي تعد بمثابة الزينة لها. فيعبد «أنا» بدلاً من أن يعبد «هو». ولكن يدرك خطأه بعد زواله.

إنّ القلب وماهية الإنسان مرآة ذات شعور، تحس ما يتمثل فيها بشعور، وتحبه بعشق البقاء. (المؤلف).

(٢) إن حرف «الياء» التي تتكرر في الكلمات الثمانية، ضمير متكلم تبين نفسَها. (المؤلف).

شَخْصِي مِنْ صِفَةٍ إلّا وَهِيَ مِنْ شُعَاعِ اِسْمٍ مِنْ أسمائه الْبَاقِيَةِ؛ فَزَوَالُ تِلْكَ الصِّفَةِ وَفَنَاؤهَا لَيْسَ إعْداماً لَهَا، لأنها مَوْجُودَةٌ فِي دَائِرَةِ الْعِلْمِ وَبَاقِيَةٌ وَمَشْهُودَةٌ لِخَالِقِهَا.

وَكَذَا حَسْبِي مِنَ الْبَقَاءِ وَلَذَّتِهِ عِلْمِي وَإذْعَانِي وَشُعُورِي وَإيمَانِي بِأنَّهُ اِلَهِيَ الْبَاقِي الْمُتَمَثِّلُ شُعَاعُ اِسْمِهِ الْبَاقِي فِي مِرْآةِ مَاهِيَّتِي؛ وَمَا حَقِيقَةُ ماهِيَّتِي إلّا ظِلٌّ لِذلِكَ الِاسْمِ. فَبِسِرِّ تَمَثُّلِهِ فِي مِرْآةِ حَقِيقَتِي صَارَتْ نَفْسُ حَقِيقَتِي مَحْبُوبَةً، لا لِذاتِهَا بَلْ بِسِرِّ مَا فِيهَا وَبَقَاءُ مَا تَمَثَّلَ فِيهَا أنواع بَقَاءٍ لَهَا.

النكتة الثالثة [١]

﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ إذ هُوَ الْوَاجِبُ الْوُجُودِ الَّذِي مَا هذِهِ الْمَوْجُودَاتُ السَّيَّالاتُ إلّا مَظَاهِرُ لِتَجَدُّدِ تَجَلِّيَاتِ إيجَادِهِ وَوُجُودِهِ؛ بِهِ وَبِالِانْتِسَابِ إليه وَبِمَعْرِفَتِهِ أنوار الْوُجُودِ بِلا حَدٍّ. وَبِدُونِهِ ظُلُمَاتُ الْعَدَمَاتِ وَآلامُ الْفِرَاقاتِ الْغَيْرِ الْمَحْدُودَاتِ.

وَمَا هذِهِ الْمَوْجُودَاتُ السَّيَّالَةُ إلّا وَهِيَ مَرَايَا وَهِيَ مُتَجَدِّدَةٌ بِتَبَدُّلِ التَّعَيُّنَاتِ الِاعْتِبَارِيَّةِ فِي فَنَائِهَا وَزَوَالِهَا وَبَقَائِهَا بِسِتَّةِ وَجُوهٍ:

الأَوَّلُ: بَقَاءُ مَعَانِيهَا الْجَمِيلَةِ وَهُوِيَّاتِهَا الْمِثَالِيَّةِ.

وَالثَّانِي: بَقَاءُ صُوَرِهَا فِي الألْوَاحِ الْمِثَالِيَّةِ.

والثَّالثُ: بَقَاءُ ثَمَراتِها الأخْرَوِيَّةِ.

وَالرّابِعُ: بَقَاءُ تَسْبِيحَاتِهَا الرَّبَّانِيَّةِ الْمُتَمَثِّلَةِ لَهَا الَّتِي هِيَ نَوْعُ وَجُودٍ لَهَا.

وَالْخَامِسُ: بَقَاؤهَا فِي الْمَشَاهِدِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْمَنَاظِرِ السَّرْمَدِيَّةِ.

والسَّادِسُ: بَقَاءُ أرْوَاحِهَا اِنْ كَانَتْ مِنْ ذَوِي الأرواح.[٢] وَمَا وَظِيفَتُهَا فِي كَيْفِيَّاتِهَا

(١) كنت أفكر منذ أمد بعيد أن أشير إشارة عابرة مجملة إلى مراتب حقيقة هامةٍ؛ تمّ إيضاحها بخمسة رموز وخمس إشارات في «المكتوب الرابع والعشرين» الذي يكشف عن طلسم الفعّالية الدائمة التي هي من أهم معميات الكون والتي تجري بصفة دائمة في خضم الموت والحياة والفناء والزوال. أما الفناء والزوال والعدم فمسائل تعبّر عن عناوين لأنواع مختلفة من الوجود، وتثمر كثيراً من أنماطها، وأن الشيء الآيل إلى الزوال يترك وراءه اضراباً كثيرة من الوجود. وإن موت ذي حياة وزواله يثمر وجودات كثيرة، يتركها وراءه ثم يذهب. نعم إن الشيء الفاني يظل باقياً من جهات متعددة. فالحبة تموت بالبِلىَ والتعفن، ولكنها تترك مكانها سنبلة جامعة لمائة حبة. وهكذا، وبناء على هذا السر فالخوف من الموت والعدم، والتأسف على الزوال ليس أمراً في موضعه. (المؤلف).

(٢) كما برهن على بقائها بالقطع والضرورة ببراهين باهرة في «الكلمة التاسعة والعشرين». وإن لم يكن من ذوي الأرواح، تبقى قوانينُ حقيقتها وخلقتها ونواميسُ ماهيتها ودساتير تشكلها. فإن ذلك القانون والناموس والدستور روح

الْمُتَخَالِفَةِ فِي مَوْتِهَا وَفَنَائِهَا وَزَوَالِهَا وَعَدَمِهَا وَظُهُورِهَا وَانْطِفَائِهَا: إلّا إظْهَارُ الْمُقْتَضِيَاتِ للأسْمَاءِ الإلَهِيَّةِ، فَمِنْ سِرِّ هذِهِ الْوَظِيفَةِ صَارَتِ الْمَوْجُودَاتُ كَسَيْلٍ فِي غَايَةِ السُّرْعَةِ تَتَمَوَّجُ مَوْتاً وَحَيَاةً وَوُجُوداً وَعَدَماً. وَمِنْ هذِهِ الْوَظِيفَةِ تَتَظَاهَرُ الْفَعَّالِيَّةُ الدَّائِمَةُ وَالْخَلّاقِيَّةُ الْمُسْتَمِرَّةُ. فَلا بُدَّ لِي وَلِكُلِّ أحد أنْ يَقُولَ: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ يَعْنِي؛ حَسْبِي مِنَ الْوُجُودِ أنِّي أثَرٌ مِنْ آثَارِ وَاجِبِ الْوُجُودِ. كَفَانِي آنٌ سَيَّالٌ مِنْ هذا الْوُجُودِ الْمُنَوَّرِ الْمَظهَرِ مِنْ مَلايينَ سَنَةٍ مِنَ الْوُجُودِ الْمُزَوَّرِ الأبْتَرِ.

نَعَمْ بِسِرِّ الإنْتِسَابِ الإيماني تَقُومُ دَقِيقَةٌ مِنَ الْوُجُودِ؛ مَقَامَ أُلُوفِ سَنَةٍ بِلا انْتِسَابٍ إيمَانِيٍ، بَلْ تِلْكَ الدَّقِيقَةُ أتَمُّ وَأوْسَعُ بِمَرَاتِبَ مِنْ تِلْكَ الآلافِ سَنَةٍ.

وَكَذا حَسْبِي مِنَ الْوُجُودِ وَقِيمَتِهِ أنِّي صَنْعَةُ مَنْ هُوَ فِي السَّمَاءِ عَظَمَتُهُ، وَفِي الأَرْضِ آيَاتُهُ، وَخَلَقَ السَّمَاواتِ وَالأرْضَ فِي سِتَّةِ أيَّامٍ.

وَكَذا حَسْبِيَ مِنَ الْوُجُودِ وَكَمالِهِ أنِّي مَصْنُوعُ مَنْ زَيَّنَ وَنَوَّرَ السَّمَاءَ بِمَصَابِيحَ، وَزَيَّنَ وَبهَّر الأَرضَ بأزاهيرَ.

وَكَذا حَسْبِي مِنَ الْفَخْرِ وَالشَّرَفِ أنِّي مَخْلُوقٌ وَمَمْلُوكٌ وَعَبْدٌ لِمَنْ هذِهِ الْكَائِنَاتُ بِجَمِيعِ كَمَالاتِهَا وَمَحَاسِنِهَا ظِلٌّ ضَعِيفٌ بِالنِّسْبَةِ إلى كَمَالِهِ وَجَمَالِهِ، وَمِنْ آيَاتِ كَمَالِهِ وَإشَارَاتِ جَمَالِهِ.

وَكَذا حَسْبِي مِنْ كُلِّ شيء مَنْ يَدَّخِرُ مَا لا يُعَدُّ وَلا يُحصَى مِنْ نِعَمِهِ فِي صُنَيْدِقَاتٍ لَطِيفَةٍ هِيَ بَيْنَ «الْكَافِ وَالنُّونِ» فَيَدَّخِرُ بِقُدْرَتِهِ مَلايينَ قِنْطَاراً فِي قَبْضَةٍ وَاحِدَةٍ فِيهَا صُنَيْدِقَاتٌ لَطِيفَةٌ تُسَمَّى بُذُوراً وَنَوايَا.

وَكَذا حَسْبِي مِنْ كُلِّ ذِي جَمَالٍ وَذِي إحْسَانٍ؛ الْجَمِيلُ الرَّحِيمُ الَّذِي مَا هذِهِ الْمَصْنُوعَاتُ الْجَمِيلاتُ إلّا مَرايَا مُتَفَانِيَةٌ لِتَجَدُّدِ أنوار جَمَالِهِ بِمَرِّ الْفُصُولِ وَالْعُصُورِ وَالدُّهُورِ. وَهذِهِ النِّعَمُ الْمُتَوَاتِرَةُ وَالأثْمَارُ الْمُتَعَاقِبَةُ فِي الرَّبِيعِ وَالصَّيْفِ مَظَاهِرُ لِتَجَدُّدِ مَرَاتِبِ إنْعَامِهِ الدَّائِم عَلَى مَرِّ الأنَامِ وَالأيَّامِ وَالأعْوَامِ.

= أمريّ لذلك الفرد ولنوعه. كما أن شجرة التينة تموت وتنعدم ويبقى روحها الأمري الذي هو قوانين تشكله ويدوم في نويته الصغيرة؛ فذلك الروح الأمري لا يموت بل يتجدد عليه الصور، بل تدوم ماهيته للحياة. إذ ماهيتها ظل لاسم من الأسماء الحسنى الباقية، فتبقى تلك الماهية تحت شعاع الاسم الباقي، وتبقى هويته أيضا في كثير من الألواح المثالية. فلا يكون العدم إلّا عنواناً لانتقال وجود زائل إلى أنواع من وجود دائم. (المؤلف).

وَكَذا حَسْبِي مِنَ الْحَيَاةِ وَمَاهِيَّتِهَا أَنِّي خَرِيطَةٌ وَفِهْرِسْتَةٌ وَفَذْلَكَةٌ وَمِيزَانٌ وَمِقْيَاسٌ لِجَلَوَاتِ أَسْمَاءِ خَالِقِ الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ.

وَكَذا حَسْبِي مِنَ الْحَيَاةِ وَوَظِيفَتِهَا كَوْنِي كَكَلِمَةٍ مَكْتُوبَةٍ بِقَلَمِ الْقُدْرَةِ، وَمُفْهِمَةٍ دَالَّةٍ عَلَى أَسْمَاءِ الْقَدِيرِ الْمُطْلَقِ الْحَيِّ الْقَيُّومِ بِمَظْهَرِيَّةِ حَيَاتِي لِلشُّئُونِ الذَّاتِيَّةِ لِفَاطِرِيَ الَّذِي لَهُ الأسماء الْحُسْنى.

وَكَذا حَسْبِي مِنَ الْحَيَاةِ وَحُقُوقِهَا إعْلانِي وَتَشْهِيرِي بَيْنَ إخواني الْمَخْلُوقَاتِ وَإعْلانِي وإظْهَارِي لِنَظَرِ شُهُودِ خَالِقِ الْكَائِنَاتِ بِتَزَيُّنِي بِجَلَواتِ أَسْماءِ خَالِقِيَ الَّذِي زَيَّنَنِي بِمُرَصَّعَاتِ حُلَّةِ وُجُودِي وَخِلْعَةِ فِطْرَتِي وَقِلادَةِ حَيَاتِي الْمُنْتَظَمَةِ الَّتِي فِيهَا مُزَيَّنَاتُ هَدَايَا رَحْمَتِهِ.

وَكَذا حَسْبِي مِنْ حُقُوقِ حَيَاتِي فَهْمِي لِتَحِيَّاتِ ذَوِي الْحَيَاةِ لِوَاهِبِ الْحَيَاةِ وَشُهُودِي لَهَا وَشَهَادَاتُ عَلَيْهَا.

وَكَذا حَسْبِي مِنَ حُقُوقِ حَيَاتِى تَبَرُّجِي وَتَزَيُّنِي بِمُرَصَّعَاتِ جَوَاهِرِ إحْسَانِهِ بِشُعُورٍ إيمَانِيٍّ لِلعَرْضِ لِنَظَرِ شُهُودِ سُلْطَانِيَ الأَزَلِيِّ.

وَكَذا حَسْبِي مِنَ الْحَيَاةِ وَلَذَّتِهَا عِلْمِي وَإِذْعَانِي وَشُعُورِي وَإِيمَانِي، بِأَنِّي عَبْدُهُ وَمَصْنوعُهُ وَمَخْلُوقُهُ وَفَقِيرُهُ وَمُحْتَاجٌ إلَيْهِ؛ وَهُوَ خَالِقِي رَحِيمٌ بِي كَرِيمٌ لَطِيفٌ مُنْعِمٌ عَلَيَّ، يُرَبِّينِي كَما يَلِيقُ بِحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ.

وَكَذا حَسْبِي مِنَ الْحَيَاةِ وَقِيمَتِهَا مِقْيَاسِيَّتِي بِأَمْثَالِ عَجْزِيَ الْمُطْلَقِ وَفَقْرِيَ الْمُطْلَقِ وَضَعْفِيَ الْمُطْلَقِ لِمَرَاتِبِ قُدْرَةِ الْقَدِيرِ الْمُطْلَقِ، وَدَرَجَاتِ رَحْمَةِ الرَّحِيمِ الْمُطْلَقِ، وَطَبَقَاتِ قُوَّةِ الْقَوِيِّ الْمُطْلَقِ.

وَكَذا حَسْبِي بِمَعْكَسِيَّتِي بِجُزْئِيَّاتِ صِفَاتِي مِنَ الْعِلْمِ والإرادة وَالْقُدْرَةِ الْجُزْئِيَّةِ لِفَهْمِ الصِّفَاتِ الْمُحِيطَةِ لِخَالِقِي. فَأَفْهَمُ عِلْمَهُ الْمُحِيطَ بِمِيزَانِ عِلْمِي الْجُزْئِيِّ.

وَهَكَذا حَسْبِي مِنَ الْكَمَالِ؛ عِلْمِي بِأَنَّ إلَهِي هُوَ الْكَامِلُ الْمُطْلَقُ. فَكُلُّ مَا فِي الْكَوْنِ مِنَ الْكَمَالِ مِنْ آيَاتِ كَمَالِهِ، وَإشَارَاتٌ إلى كَمَالِهِ.

وَكَذا حَسْبِي مِنَ الْكَمَالِ فِي نَفسِي، الإيمان بِالله. إذ الإيمان لِلْبَشَرِ مَنْبَعٌ لِكُلِّ كَمالاتِهِ.

وَكَذا حَسْبِي مِنْ كُلِّ شيء لأنْوَاعِ حَاجَاتِيَ الْمَطْلُوبَةِ بِأَنْوَاعِ أَلْسِنَةِ جِهَازاتِيَ الْمُخْتَلِفَةِ، اِلَهِي وَرَبِّي وَخَالِقِي وَمُصَوِّرِيَ الَّذِي لَهُ الأسماء الْحُسْنَى الَّذِي هوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي وَيُرَبِّينِي وَيُدَبِّرُنِي وَيُكَمِّلُنِي، جَلَّ جَلالُهُ وَعَمَّ نَوَالُهُ.

النكتة الرابعة

حَسْبِي لِكُلِّ مَطَالِبِي مَنْ فَتَحَ صُورَتِي وَصُورَةَ أَمْثَالِي مِنْ ذَوِي الْحَيَاةِ فِي الْمَاءِ بِلَطِيفِ صُنْعِهِ وَلَطِيفِ قُدْرَتِهِ وَلَطِيفِ حِكْمَتِهِ وَلَطِيفِ رُبُوبِيَّتِهِ.

وَكَذا حَسْبِي لِكُلِّ مَقَاصِدِي مَنْ أَنْشَأَنِي وَشَقَّ سَمْعِي وَبَصَرِي، وَأَدْرَجَ فِي جِسْمِي لِسَاناً وَجَناناً، وَأَوْدَعَ فِيهَا وَفِي جِهَازاتِي؛ مَوَازِينَ حَسَّاسَةً لا تُعَدُّ لِوَزْنِ مُدَّخَرَاتِ أنواع خَزَائِنِ رَحْمَتِهِ. وَكَذا أَدْمَجَ فِي لِسَانِي وَجَنَانِي وَفِطْرَتِي آلاتٍ جَسَّاسَةً لا تُحْصَى لِفَهْمِ أنواع كُنُوزِ أَسْمَائِهِ.

وَكَذا حَسْبِي مَنْ أَدْرَجَ فِي شَخْصِيَ الصَّغِيرِ الْحَقِيرِ، وَأَدْمَجَ فِي وُجُودِيَ الضَّعِيفِ الْفَقِيرِ هذِهِ الأَعْضَاءَ وَالآلاتِ وَهذِهِ الْجَوَارِحَ وَالْجِهَازاتِ وَهذِهِ الْحَوَاسَّ وَالْحِسِّياتِ وَهذِهِ اللَّطَائِفَ وَالْمَعْنَوِياتِ؛ لإِحْسَاسِ جَمِيعِ أنواع نِعَمِهِ، وَلإذاقَةِ أكثر تَجَلِّيَّاتِ أسمائه بِجَلِيلِ أُلُوهِيَّتِهِ وَجَمِيلِ رَحْمَتِهِ وَبِكَبِيرِ رُبُوبِيَّتِهِ وَكَرِيمِ رَأْفَتِهِ وَبِعَظِيمِ قُدْرَتِهِ وَلَطِيفِ حِكْمَتِهِ.

النكتة الخامسة

لابُدَّ لِي وَلِكُلِّ أحد أَنْ يَقُولَ حَالاً وَقَالاً وَمُتَشَكِّراً وَمُفْتَخِراً: حَسْبِي مَنْ خَلَقَنِي، وَأَخْرَجَنِي مِنْ ظُلْمَةِ الْعَدَمِ، وَأَنْعَمَ عَلَيَّ بِنُورِ الْوُجُودِ.

وَكَذا حَسْبِي مَنْ جَعَلَنِي حَيًّا فَأَنْعَمَ عَلَيَّ نِعْمَةَ الْحَيَاةِ الَّتِي تُعْطِي لِصَاحِبِهَا كُلَّ شيء وَتُمِدُّ يَدَ صَاحِبِهَا إلى كُلِّ شَيْءٍ.

وَكَذا حَسْبِي مَنْ جَعَلَنِي إِنْسَاناً فَأَنْعَمَ عَلَيَّ بِنِعْمَةِ الإنسانية الَّتِي صَيَّرَتِ الإنسان عَالَماً صَغِيراً أَكْبَر مَعْنىً مِنَ الْعَالَمِ الْكَبِيرِ.

وَكَذا حَسْبِي مَنْ جَعَلَنِي مُؤْمِناً فَأَنْعَمَ عَلَيَّ نِعْمَةَ الإيمان الَّذِي يُصَيِّرُ الدُّنْيا وَالآخِرَةَ كَسُفْرَتَيْنِ مَمْلُوئَتَيْنِ مِنَ النِّعَمِ يُقَدِّمُهُمَا إلى الْمُؤْمِنِ بِيَدِ الإيمَانِ.

وَكَذا حَسْبِي مَنْ جَعَلَنِي مِنْ أُمَّةِ حَبِيبِهِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ، فَأَنْعَمَ عَلَيَّ بِمَا فِي الإيمان مِنَ الْمَحَبَّةِ وَالْمَحْبُوبِيَّةِ الإِلَهِيَّةِ، الَّتِي هِيَ مِنْ أَعْلَى مَرَاتِبِ الْكَمَالاتِ الْبَشَرِيَّةِ.. وَبِتِلْكَ الْمَحَبَّةِ الإيمانية تَمْتَدُّ أَيَادِي اِسْتِفَادَةِ الْمُؤْمِنِ إلى مَا لا يَتَنَاهى مِنْ مُشْتَمَلاتِ دَائِرَةِ الإمكان وَالْوُجُوبِ.

وَكَذا حَسْبِي مَنْ فَضَّلَنِي جِنْساً وَنَوْعاً وَدِيناً وَإِيمَاناً عَلَى كَثِيرٍ مِنْ مَخْلُوقاتِهِ، فَلَمْ يَجْعَلِنِي جَامِداً وَلا حَيَواناً وَلا ضَالاً . فَلَهُ الْحَمْدُ وَلَهُ الشُّكْرُ.

وَكَذا حَسْبِي مَنْ جَعَلَنِي مَظْهَراً جَامِعاً لِتَجَلِّيَاتِ أَسْمَائِهِ، وَأَنْعَمَ عَلَيَّ بِنِعْمَةٍ لا تَسَعُهَا الْكَائِنَاتُ بِسِرِّ حَدِيثِ (**لا يَسَعُنِي أَرْضِي وَلا سَمَائِي وَيَسَعُنِي قَلْبُ عَبْدِيَ الْمُؤْمِنِ**)[1] يَعْنِي أَنَّ الْمَاهِيَّةَ الإنسانية مَظْهَرٌ جَامِعٌ لِجَمِيعِ تَجَلِّيَاتِ الأسماء الْمُتَجَلِّيَةِ فِي جَمِيعِ الْكَائِنَاتِ.

وَكَذا حَسْبِي مَنِ اشْتَرى مُلْكَهُ الَّذِي عِنْدِي مِنِّي لِيَحْفَظَهُ لِي، ثُمَّ يُعِيدَهُ إِلَيَّ، وَأَعْطانا ثَمَنَهُ الْجَنَّةَ. فَلَهُ الشُّكْرُ وَلَهُ الْحَمْدُ بِعَدَدِ ضَرْبِ ذَرَّاتِ وُجُودِي فِي ذَرَّاتِ الْكَائِنَاتِ.

حَسْبِي رَبِّي جَلَّ الله   نُورْ مُحَمَّدْ صَلَّى الله

لا اِلَهَ إلّا الله

حَسْبِي رَبِّي جَلَّ الله   سِرُّ قَلْبِي ذِكْرُ الله

ذِكْرُ أَحْمَدْ صَلَّى الله

لا اِلَهَ إلّا الله

(١) انظر: أحمد بن حنبل، الزهد ٨١؛ الغزالي، إحياء علوم الدين ٣/ ١٥؛ الديلمي، المسند ٣/ ١٧٤؛ الزركشي، التذكرة في الأحاديث المشتهرة ١٣٥؛ السخاوي، المقاصد الحسنة ٩٩٠؛ العجلوني، كشف الخفاء ٢/ ٢٥٥.. قال ابن حجر الهيتمي في الفتاوى الحديثية: وذكرُ جماعةٍ له من الصوفية لا يريدون حقيقة ظاهره من الاتحاد والحلول لأن كلاً منهما كفر، وصالحو الصوفية أعرف الناس بالله وما يجب له وما يستحيل عليه، وإنما يريدون بذلك أن قلب المؤمن يسع الإيمان بالله ومحبته ومعرفته. أ هـ .

الباب السادس

في «لا حَولَ ولا قُوَّةَ إلّا بالله العَلِيِّ العَظيم» [(١)]

وهذه الكلمة الطيبة المباركة خامسة من الخمس الباقيات الصالحات المشهورات التي هي: «**سبحان الله. والحمد لله، ولا إله إلّا الله، والله اكبر، ولا حول ولا قوة إلّا بالله العليّ العظيم**».

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

إلهي وَسَيِّدي وَمَالِكي! لِي فَقرٌ بِلا نِهايَةٍ، مَعَ أنَّ حاجَاتي وَمَطالِبي لا تُعَدُّ وَلا تُحصى، وَتَقصُرُ يَدي عَنْ أدنى مَطالِبي. فَلا حَولَ وَلا قُوَّةَ إلّا بِكَ يا رَبِّيَ الرَّحيمِ! وَيا خالِقي الكَريم! يا حَسيبُ يا وَكيلُ يا كافي.

إلَهي! اختيَاري كَشَعرَةٍ ضَعيفَةٍ، وَآمالي لا تُحصَى. فَأعْجَزُ دائِماً عَمَّا لا أستَغني عَنه أبَداً. فَلا حَولَ وَلا قُوَّةَ إلّا بِكَ يا غَنيُّ يا كَريمُ يا كَفيلُ يا وَكيلُ يا حَسيبُ يا كَافي.

إلهَي وَسَيِّدي وَمَالِكي! اقتِداري كَذَرَّةٍ ضَعيفَةٍ، مَعَ أنَّ الأعداء وَالعِلَلَ وَالأوهامَ وَالأهوالَ والآلامَ وَالأسقَامَ وَالظُّلُماتِ وَالضَّلالَ وَالأسفَارَ الطِّوالَ ما لا تُحصى. فَلا حَولَ عَنها، وَلا قُوَّةَ عَلى مُقابَلَتِها إلّا بِكَ يا قَوِيُّ يا قَديرُ يا قَريبُ يا مُجيبُ يا حَفيظُ يا وَكيلُ.

(١) لقد أوضحنا في رسائل كثيرة؛ بأن في فطرة الإنسان عجزاً بلا حدود وفقراً بلا نهاية، مع أن له أعداءً لا حد لهم ومطالب لا تنتهي. والإنسان من أجل هذا العجز والفقر محتاج فطرةً إلى الالتجاء إلى قدير رحيم. فكما أن الجملة الأولى من آية: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ ترشد إلى مرهم للعجز وملجأً تجاه كل أعدائه؛ وأن الجملة الثانية (نعم الوكيل)، دواء لفقره ووسيلة إلى تحقيق جميع مطالبه؛ وكذلك جملة (لا حول ولا قوة الّا بالله العلي العظيم) دواء للعجز والفقر البشريين كجملة (حسبنا الله) تماماً، ولكنه في صورة أخرى، فكلمة «لا حول» تفيد أن نقطة استناده تجاه أعدائه، بتبرؤه من قوته ملتجأً إلى القدرة الإلهية وتفيد كلمة (لا قوة) ان الوسيلة لقضاء مطالبه وحاجاته هي التوكل مع الاعتماد على القدرة الإلهية.

ولقد أحسست بمراتب كثيرة لجملة (لا حول ولا قوة..) هذه في نفسي بتجارب كثيرة. فوضعت كلمات مختصرة إشارة إلى تلك المراتب فألاحظ تلك المراتب بوساطة تلك الإشارات. وسوف يذكر في هذا الباب من الكلمات التي ترمز إلى قسم من تلك المراتب بعينها. (المؤلف).

إلَهي! حَياتِي كَشُعلَةٍ تَنطَفِئُ كَأمثَالِي. وَآمالي لا تُحصَى. فَلا حَولَ عَنْ طَلَبِ تِلكَ الآمَالِ، وَلا قُوَّةَ عَلى تَحصِيلِها إلّا بِكَ يا حَيُّ يا قَيُّومُ يا حَسيبُ يا كافِي يا وَكيلُ يَا وافي.

إلَهي! عُمري كَدَقيقَةٍ تَنقَضي كَأقرانِي؛ مَعَ أنَّ مَقَاصِدي وَمَطَالِبِي لا تُعَدُّ وَلا تُحصَى. فَلا حَولَ عَنها وَلا قُوَّةَ عَليها إلّا بِكَ يا أزَليُّ يا أبَدِيُّ يا حَسيبُ يا كافي يا وَكيلُ يا وَافي.

إلَهي! شُعُوري كَلَمْعَةٍ تَزُولُ؛ مَعَ أنَّ ما يَلزَمُ مُحافَظَـتُهُ مِنْ أنوار مَعرِفَتِكَ، وَما يَلزَمُ التَّحَفُّظُ مِنْهُ مِنَ الظُّلُماتِ وَالضَّلالاتِ لا تُعَدُّ وَلا تُحصَى. فَلا حَولَ عَنْ تِلكَ الظُّلُماتِ وَالضَّلالاتِ وَلا قُوَّةَ عَلى هاتِيكَ الأنوار وَالهِداياتِ إلّا بِكَ يا عَليمٌ يا خَبيرُ يا حَسيبُ يا كافي يا حَفيظُ يا وَكيلُ.

إلَهي! لِي نَفسٌ هَلُوعٌ وَقَلبٌ جَزُوعٌ وَصَبرٌ ضَعيفٌ وَجِسمٌ نَحيفٌ وَبَدَنٌ عَليلٌ ذَليلٌ، مَعَ أنَّ المَحمُولَ عَلَيَّ مِنَ الأحمَالِ المَادِّيَةِ والمَعْنَوِيَّةِ ثَقيلٌ ثَقيلٌ. فَلا حَولَ عَنْ تِلكَ الأحمَالِ وَلا قُوَّةَ عَلى حَملها إلّا بِكَ يا رَبِّي الرَّحيمُ يا خالِقِي الكَريمُ يا حَسيبُ يا كَافي يا وَكِيلُ يا وَافي.

إلَهي! لِي مِنَ الزَّمَانِ آنٌ يَسيلُ فِي سَيْلٍ وَاسِعٍ سَريع الجَرَيانِ؛ وَلِيَ مِنَ المَكانِ مِقدارُ القَبرِ مَعَ عَلاقَتي بِسائِرِ الأمكِنَةِ وَالأزمِنَةِ. فَلا حَولَ عَنِ العَلاقَةِ بِهَا، وَلا قُوَّةَ عَلى الوُصُولِ إلى ما فيها إلّا بِكَ يا رَبَّ الأمْكِنَةِ وَالأكوَانِ، وَيا رَبَّ الدُّهُورِ وَالأزمَانِ يا حَسيبُ يا كَافي يا كَفيلُ يا وَافي.

إلَهي! لِي عَجْزٌ بِلا نِهايَةٍ وَضَعفٌ بِلا غَايَةٍ، مَعَ أنَّ أعدَائي وَما يُؤلِمُني وَما أخَافُ مِنهُ وَما يُهَدِّدُني مِنَ البَلايَا وَالآفاتِ ما لا تُحصَى. فَلا حَولَ عَنْ هَجَماتِها وَلا قُوَّةَ عَلى دَفعِها إلّا بِكَ يا قَوِيُّ يا قَديرُ يا قَريبُ يا رَقيبُ يا كَفيلُ يا وَكيلُ يا حَفيظُ يا كَافي.

إلَهي! لِي فَقْرٌ بِلا غايَةٍ وَفَاقَةٌ بِلا نِهايَةٍ؛ مَعَ أنَّ حاجاتِي وَمَطالِبِي وَوَظائِفي ما لا تُحصَى. فَلا حَولَ عنها وَلا قُوَّةَ عَليها إلّا بِكَ يا غَنيُّ يا كَريمُ يا مُغني يا رَحيمُ.

إلَهي تَـبَرَّأتُ إلَيكَ مِنْ حَولي وَقُوَّتِي، وَالتَجأتُ إلى حَولِكَ وَقُوَّتِكَ فَلا تَكِلني إلى حَولي وَقُوَّتي. وَارحَمْ عَجزي وَضَعفي وَفَقري وَفَاقَتي. فَقَد ضاقَ صَدري، وَضاعَ عُمري، وَفَني صَبري، وَتَاهَ فِكري، وَأنتَ العَالِمُ بِسِرِّي وَجَهري، وَأنتَ المَالِكُ لِنَفعي وَضَرِّي، وَأنتَ القَادِرُ عَلى تَفريجِ كَربي وَتَيسِيرِ عُسري. فَفَرِّجْ كُلَّ كَربَتي وَيَسِّرْ عَلَيَّ وَعَلى إخواني كُلَّ عَسيرٍ.

إلَهي! لا حَولَ عَنِ الزَّمانِ الآتي، وَعَنِ أهوالِهِ مَعَ سَوقٍ إلَيهِ؛ وَلا قُوَّةَ عَلى الماضي وَلَذائِذِهِ مَعَ عَلاقَةٍ بِهِ إلّا بِكَ يا أزَلِيُّ يا أبَدِيُّ.

إلَهي! لا حَولَ عَنِ الزَّوالِ الَّذي أخافُ وَلا أخلَصُ مِنهُ؛ وَلا قُوَّةَ عَلى إعادَةِ ما فَاتَ مِنْ حَياتيَ الَّتي أتَحَسَّرُها، وَلا أصِلُ إليها إلّا بِكَ يا سَرمَدِيُّ يا باقي.

إلَهي! لا حَولَ عَنْ ظُلمَةِ العَدَمِ؛ وَلا قُوَّةَ عَلى نُورِ الوُجوُدِ إلّا بِكَ يا مُوجِدُ يا مَوجُودُ يا قَديمُ.

إلَهي! لا حَولَ عَنِ المَضارِّ اللّاحِقَةِ بِالحَياةِ؛ وَلا قُوَّةَ عَلى المَسارِّ اللّازِمَةِ لِلحَياةِ إلّا بِكَ يا مُدَبِّرُ يا حَكيمُ.

إلَهي! لا حَولَ عَنِ الآلامِ الهَاجِمَةِ عَلى ذي الشُّعُورِ؛ وَلا قُوَّةَ عَلى اللَّذائِذِ المَطلُوبَةِ لِذي الحِسِّ إلّا بِكَ يا مُرَبِّي يا كَريمُ.

إلَهي! لا حَولَ عَنِ المَساوي العَارِضَةِ لِذَوي العُقُولِ؛ وَلا قُوَّةَ عَلى المَحَاسِنِ المُزَيِّنَةِ لِذَوي الهِمَمِ إلّا بِكَ يا مُحسِنُ يا كَريمُ.

إلَهي! لا حَولَ عَنِ النِّـقَمِ لأهلِ العِصيَانِ؛ وَلا قُوَّةَ عَلى النِّعَمِ لأهلِ الطَّاعَاتِ إلّا بِكَ يا غَفُورُ يا مُنْعِمُ.

إلَهي! لا حَولَ عَنِ الأحزانِ؛ وَلا قُوَّةَ عَلى الأفراحِ إلّا بِكَ. فَإنَّكَ أنت الَّذي أضْحَكَ وَأبْكى يا جَميلُ يا جَليلُ.

إلَهي! لا حَولَ عَنِ العِلَلِ، وَلا قُوَّةَ عَلى العَافِيَةِ إلّا بِكَ يا شافي يا مُعَافي.

إلَهي! لا حَولَ عَنِ الآلامِ؛ وَلا قُوَّةَ عَلى الآمالِ إلّا بِكَ يا مُنجي يا مُغيثُ.

إلَهي! لا حَولَ عَنِ الظُّلُماتِ؛ وَلا قُوَّةَ عَلى الأنوارِ إلّا بِكَ يا نُورُ يا هادي.

إلَهي لا حَولَ عَنِ الشُّرورِ مُطلَقاً؛ وَلا قُوَّةَ عَلى الخَيراتِ أصلاً إلّا بِكَ يا مَنْ بيَدِهِ الخَيرُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قديرٌ، وَبِعِبَادِهِ بَصيرٌ، وَبِحَوايِجِ مَخلُوقَاتِهِ خَبيرٌ.

إلَهي! لا حَولَ عَنِ المَعاصي إلّا بِعِصمَتِكَ؛ وَلا قُوَّةَ عَلى الطَّاعَةِ إلّا بِتَوفيقِكَ يا مُوَفِّقُ يا مُعينُ.

إلَهي! لِي عَلاقَاتٌ شَديدَةٌ مَعَ نَوعيَ الإنسانيِّ، مَعَ أنَّ آية ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ (آل عمران:١٨٥) تُهَدِّدُني وَتُطفِئُ آمالي المُتَعَلِّقَةِ بِنَوعي وَجِنسي، وَتَنْعِي عَلَيَّ بِمَوتِها. فَلا حَولَ عَنْ ذاكَ الحُزنِ الأليمِ النَّاشِئِ مِنْ ذلكَ المَوتِ وَالنَّعيِ، وَلا قُوَّةَ عَلى تَسَلٍّ يَملأُ مَحَلَّ مازالَ عَنْ قَلبي وَروحي إلّا بِكَ. فَأنتَ الَّذي تَكفي عَنْ كُلِّ شَيءٍ، وَلا يَكفي عَنكَ كُلُّ شَيء.

إلَهي! لِي عَلاقاتٌ شَدِيدَةٌ مَعَ دُنيَايَ الَّتي كَبيْتِي وَمَنـزِلي؛ مَعَ أنَّ آية ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۞ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ (الرحمن: ٢٦-٢٧) تُعلِنُ خَرابِيَّةَ بَيتي هذَا، وَزَوَالَ مَحبُوبَاتي الَّلاتي ساكَنْتُهُمْ في ذلكَ البَيتِ المُنهَدِمِ؛ وَلا حَولَ عَنْ هذِهِ المُصيبَةِ الهائِلَةِ، وَعَنْ الفِراقَاتِ مِنَ الأحبابِ الآفِلَةِ؛ وَلا قُوَّةَ عَلى ما يُسَلِّيني عَنها، وَيَقُومُ مَقَامَها إلّا بِكَ يا مَنْ يَقُومُ جلوَةٌ مِنْ تَجَلِّياتِ رَحمَتِهِ مَقَامَ كُلِّ ما فارَقَني.

إلَهي لِي عَلاقَاتٌ[1] بِجامِعيَّةِ ماهِيَّتي، وَغايَةِ كَثرَةِ جِهازاتي الَّتي أنْعَمْتَها عَلَيَّ، وَاحتياجاتٌ شَديدَةٌ إلى الكائِناتِ وَانواعِها؛ مَعَ أنَّ آية ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (القصص: ٨٨) تُهَدِّدُني وَتَقطَعُ عَلاقَاتي الكَثيرَةَ مِنَ الأشياءِ. وَبِانقِطاعِ كُلِّ عَلاقَةٍ يَتَولَّدُ جَرْحٌ وَألَمٌ مَعنَويٌّ في رُوحي. وَلا حَولَ عَنْ تِلكَ الجُرُوحاتِ الغَيرِ المَحدُودَةِ؛ وَلا قُوَّةَ عَلى أدوِيَتِها إلّا بِكَ يا مَنْ يكفي لِكُلِّ شَيءٍ، وَلا يَكفي عَنْ شَيءٍ واحِدٍ مِنْ تَوَجُّهِ رَحمَتِهِ كُلُّ الأشيَاءِ، وَيا مَنْ إذا كَانَ لشيء كَانَ لَهُ كُلُّ شيء ومَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ لا يَكُونُ لَهُ شَيءٌ مِنَ الأشيَاءِ.

إلَهي! لِي عَلاقاتٌ شَديدَةٌ وَابتِلاءٌ وَمَفتُونِيَّةٌ مَعَ شَخصيَّتي الجِسمانيَّةِ، حَتَّى كَأنَّ جسمي عَمُودٌ في نَظَري الظَّاهِرِيِّ لِسَقفِ جَميعِ آمالي وَمَطَالِبي؛ وَفِيَّ عِشقٌ شَديدٌ لِلبَقاءِ؛ مَعَ أنَّ جِسمي لَيسَ مِنْ حَديدٍ وَلا حَجَر لِيَدُومَ في الجُملَةِ، بل مِنْ لَحمٍ وَدَمٍ وَعَظمٍ عَلى جَناحِ التَّفَرُّقِ في كُلِّ آنٍ؛ وَمَعَ أنَّ حَياتي كَجِسمي مَحدودةُ الطَّرَفَينِ، سَتُختَمُ بِخَاتَمِ المَوتِ عَنْ قَريبٍ؛ مَعَ أنِّي قَد اشتَعَلَ الرَّأسُ شَيباً مِنِّي، وَقد ضَرَبَ السَّقَمُ ظَهري وَصَدري، فَأنا في قَلَقٍ وَضَجَرٍ وَاضطِرابٍ

---

[1] (١) لقد أشيرت إلى مراتب (لا حول ولا قوة..) هذه وإلى حقائقها، بإشارات فقط. أما البراهين والدلائل فلم تذكر، لأن المئات بل الآلاف من براهين الوحدانية ودلائل الربوبية المذكورة في الأبواب السابقة هي دلائل على حقائق (لا حول ولا قوة...) بصفة عامة. فلذلك لم تذكر أدلة مستقلة أخرى. (المؤلف).

وَتَأَلُّمٍ وَتَحَزُّنٍ شَديدٍ مِنْ هذِهِ الكَيفيَّةِ. فَلا حَولَ عَنْ هذِهِ الحَالَةِ الهَائِلَةِ؛ وَلا قُوَّةَ عَلى ما يُسَلِّيني عَمَّا يَحزُنُني، وَعَلى ما يُعَوِّضُني ما يَضيعُ مِنِّي، وَعَلى ما يَقُومُ مَقَامَ ما يَفُوتُ مِنِّي إلّا بِكَ يا رَبِّيَ الباقي، وَالباقي ببَقَائِهِ وَإبقائِهِ مَنْ تَمَسَّكَ بِاسمٍ مِنْ أسمائه الباقِيَةِ.

إلَهي! لِي وَلِكُلِّ ذي حَياةٍ خَوفٌ شَديدٌ مِنَ المَوتِ وَالزَّوالِ اللَّذَينِ لا مَفَرَّ مِنهُما؛ وَلِي مَحَبَّةٌ شَديدةٌ لِلحَياةِ وَالعُمْرِ اللَّذينِ لا دَوامَ لَهُما؛ مَعَ أنَّ تَسارُعَ المَوتِ إلى أجسامِنا بِهُجُومِ الآجالِ لا يُبقي لِي وَلا لأحَدٍ أمَلاً مِنَ الآمالِ الدُّنيَويَّةِ إلّا وَيَقطَعُها، وَلا لَذَّةً إلّا وَيَهْدِمُها. فَلا حَولَ عَنْ تِلكَ البَلِيَّةِ الهائِلَةِ وَلا قُوَّةَ عَلى ما يُسَلِّينَا عَنها إلّا بِكَ يا خَالِقَ المَوتِ وَالحَياةِ! وَيا مَنْ لَهُ الحَياةُ السَّرمَدِيَّةُ، الَّذي مَنْ تَمَسَّكَ بِهِ وَتَوجَّهَ إليه وَيَعرِفُهُ وَيُحِبُّهُ؛ تَدُومُ حَياتُهُ وَيَكُونُ المَوتُ لَهُ تَجَدُّدَ حَياةٍ وَتَبديلَ مَكانٍ. فإذًا فَلا حُزنَ لَهُ وَلا أَلَمَ عَليهِ بِسِرِّ ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (يونس: ٦٢).

إلَهي! لِي لأجل نَوعي وَجِنسي عَلاقَاتٌ بِتَألُّماتٍ وَتَمَنِّياتٍ بِالسَّماوَاتِ وَالأرضِ وَبِأحوَالِها. فَلا قُوَّةَ لي بِوَجهٍ مِنَ الوُجُوهِ عَلى إسماعِ أمري لَهُما، وَتَبليغِ أمَلي لِتِلكَ الأجرامِ، وَلا حَولَ عَنْ هذا الإبتِلاءِ وَالعَلاقَةِ إلّا بِكَ يا رَبَّ السَّماوَاتِ وَالأرضِ! وَيا مَنْ سَخَّرَهُما لِعِبادِهِ الصَّالِحينَ.

إلَهي! لِي وَلِكُلِّ ذي عَقلٍ عَلاقَاتٌ مَعَ الأزمِنَةِ الماضِيَةِ وَالأوقاتِ الاستِقبالِيَّةِ؛ مَعَ أنَّنا قَدِ انْحَبَسْنَا في زَمانٍ حاضِرٍ ضَيِّقٍ لا تَصلُ أيدِينا إلى أدنى زَمانٍ ماضٍ وَمُستَقبَلٍ لِجَلبٍ مِنْ ذاكَ ما يُفرِّحُنا، أو لِدَفْعٍ مِنْ هذا ما يُحزِنُنا. فَلا حَولَ عَنْ هذِهِ الحالَةِ، وَلا قُوَّةَ عَلى تَحويلِها إلى أحسَنِ الحالِ إلّا بِكَ يا رَبَّ الدُّهُورِ وَالأزمَانِ.

إلَهي! لِي في فِطرَتي وَلِكُلِّ أحد في فِطرَتِهِمْ آمالٌ أبدية وَمَطالِبُ سَرمَدِيَّةٌ تَمْتَدُّ إلى أبَدِ الآبادِ. إذ قَد أَوْدَعْتَ في فِطرَتِنَا استِعداداً عَجيباً جامِعاً، فيهِ احتياجٌ وَمَحَبَّةٌ لا يُشبِعُهُما الدُنيا وَما فيها، وَلا يَرضى ذلِكَ الإحتِياجُ وَتِلكَ المَحَبَّةُ إلّا بِالجَنَّةِ الباقِيَةِ؛ ولا يَطمَئِنُّ ذلِكَ الإستِعدادُ إلّا بِدارِ السَّعادَةِ الأبدِيَّةِ. يا رَبَّ الدُّنيا وَالآخِرَةِ وَيا رَبَّ الجَنَّةِ وَدَارِ القَرارِ.[1]

---

(١) كان من المقرر أن تكتب عشرون مرتبة من مراتب (لا حول ولا قوة..) في البداية. وقد أخرتها على أمل كتابتها في الختام. ولما بلغنا الختام تأخرت حالياً. لأن هذه الأدلة لو وضّحت لطالت كثيراً، وان كتبت بإشارات تخصني فحسب لكانت الاستفادة منها قليلة. لذا أرجئت إلى وقت آخر. (المؤلف).

الباب السابع

في شهادة: نَشهَدُ أَنْ لآ إِلَهَ إلّا الله وَأنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله

المقام الأول

اللهمَّ يا رَبَّ مُحَمَّدٍ المُختَارِ. ويا ربَّ الجَنَّةِ وَالنَّارِ. وَيا ربَّ النَبيّينَ وَالأخْيارِ، يَا ربَّ الصِّدِّيقينَ وَالأبرَارِ. يا ربَّ الصِغَارِ وَالكِبَارِ. يا رَبَّ الحُبُوبِ وَالأثمَارِ. يا ربَّ الأنْهَارِ وَالأشجَارِ. يَا ربَّ الصَّحارَى وَالقِفارِ. يا ربَّ العَبيدِ وَالأحرارِ. يا ربَّ اللَّيلِ وَالنَّهارِ.

أمسَينَا وَأصبَحنا نُشهِدُكَ وَنُشهِدُ جَميعَ صِفَاتِكَ المُتَقَدِّسَةِ.. وَنُشهِدُ جَميعَ أسمَائِكَ الحُسنى.. وَنُشهِدُ جَميعَ مَلئِكَتِكَ العُليَا.. ونُشْهِدُ جميعَ مَخْلوقَاتِكَ الشَّتَّى.. وَنُشهِدُ جَميعَ أنبيَائِكَ العُظمى. وَجَميعَ أولِيَائِكَ الكُبرى. وَجَميعَ أصْفِيائِكَ العُليَا.. وَنُشهِدُ جَميعَ آياتِكَ التَّكوينيَّةِ الَّتي لا تُعَدُّ وَلا تُحصى.. وَنُشهِدُ جَميعَ مَصنُوعَاتِكَ المُزيَّناتِ المُوزونَاتِ المَنْظُومَاتِ المُتَمَاثِلاتِ.. وَنُشهِدُ جَميعَ ذَرَّاتِ الكائِناتِ العاجِزاتِ. الجَامِداتِ الجَاهِلاتِ والحَامِلَةِ بِحولِكَ وَطَولِكَ وَأمرِكَ وَإذنِكَ عَجائِبَ الوَظَائِفِ المُنتَظَمَاتِ.. ونُشهِدُ جَميعَ مُركباتِ الذَّراتِ الغَيرِ المَحدودَاتِ المُتَنوعاتِ المُنتَظَمَاتِ المُتقَنَاتِ المَصنُوعاتِ مِن البسائِطِ الجَامِداتِ.. وَنُشهِدُ جَميعَ تَرَكُّباتِ الموجُوداتِ النَّاميَاتِ المُختَلِطَةِ مَوَادُّ حَيَاتِها في غَايَةِ الاختِلاطِ وَالمُتَمَيِّـزَةِ دَفعَةً في غَايةِ الامتيَازِ.. وَنُشهِدُ حَبيبَكَ الأكرمَ سُلطَانَ الأنبياء وَالأولِيَاءِ أفضَلَ المَخلُوقَاتِ ذا المُعجِزَاتِ الباهِرَةِ عَليهِ وعَلى آلِهِ أفضلُ الصَّلَواتِ وَالتَّسليمَاتِ.. وَنُشهِدُ فُرقانَكَ الحَكيمَ ذَا الآيات البَيِّنَاتِ وَالبَـراهينِ النَّيِّراتِ وَالدَّلائِلِ الوَاضِحَاتِ وَالأنوارِ السَّاطِعاتِ: بِأنَّا كُلَّنا نَشهَدُ بِأنَّكَ أنتَ الله الوَاجِبُ الوُجودِ الوَاحِدُ الأحَدُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ الحيُّ القَيُّومُ العَليمُ الحَكيمُ القَديرُ المُريدُ السَّميعُ البَصيرُ الرَّحمنُ الرَّحيمُ العَدلُ الحَكَمُ المُقتَدِرُ المُتَكَلِّمُ، لَكَ الأسماء الحُسنى.. وَكَذا نَشهَدُ أنْ لا إلهَ إلّا أنت وَحدَكَ لا شَريكَ لَكَ وَأنَّكَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ وَبِكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ.. وَكَذا نَشهَدُ بِكُلِّ ما مَرَّ وَمَعَ كُلِّ مَا مَرَّ بِأنَّ مُحَمَّداً

عَبدُكَ وَنبيُّكَ وَصَفِيُّكَ وَخَليلُكَ. وَجَمَالُ مُلكِكَ. وَمَليكُ صُنْعِكَ. وَعَينُ عِنَايَتِكَ. وَشَمسُ هِدَايَـتِكَ. وَلِسانُ مَحَبَّتِكَ. وَمِثَالُ رَحمَتِكَ. وَنُورُ خَلقِكَ. وَشَرَفُ مَوجُودَاتِكَ.[1] وَكَشَّافُ طِلسِمِ كائِنَاتِكَ. وَدلّالُ سَلطَنَةِ رُبُوبِيَتِكَ. وَمُعَرِّفُ كُنُوزِ أسمَائِكَ. وَمُعَلِّمُ أوامِرِكَ لِعِبادِكَ وَمُفَسِرُ آياتِ كِتابِ كَائِنَاتِكَ. ومَدَارُ شُهودِكَ وَاشهَادِكَ. وَمِرآةُ مُحَبَّتِكَ لِجَمَالِكَ وَأسمائِكَ، وَمَحَبَّتِكَ لِصنعَتِكَ وَمَصنُوعَاتِكَ، وَلِمحَاسِنِ مَخلُوقَاتِكَ. وَحَبِيبُكَ وَرَسُولُكَ الَّذي أرسَلتَهُ رَحْمَةً لِلعالَمينَ. وَلِبَيانِ مَحَاسِنِ كَمالاتِ سَلطَنَةِ رُبُوبِيَّتِكَ بِحِكمَةِ صَنعَةِ صِبغَةِ نُقُوشِ قَصرِ العَالَمينَ. وَلِتَعريفِ كُنُوزِ أسمائِكَ بِإشاراتِ حِكَمِيَّاتِ كَلمَاتِ آياتِ سُطُورِ كِتَابِ العالَمينَ. وَلِبَيَانِ مَرضِيَّاتِكَ يا رَبَّ السَّماواتِ وَالأرضينَ. عَلَيهِ وَعَلى آلِهِ وَأصحَابِهِ وَإخوانِهِ ألف ألفِ صَلاةٍ وَسَلامٍ في كُلِّ آنٍ وَزَمانٍ.

اللهمَّ يا حَفيظُ يا حَافِظُ يا خَيرَ الحافظينَ نَستَودِعُ حِفظَكَ وَحِمَايَتكَ وَرَحمَتَكَ هذِهِ الشَّهاداتِ الَّتي أنعمتَها عَلينا. فَاحفَظهَا إلى يَومِ الحَشرِ وَالميزَانِ آمين. وَالحَمدُ لله رَبِّ العَالَمينَ.

المقام الثاني

الحَمْدُ لله الَّذي [2] دَلَّ عَلى وُجوبِ وُجُودِهِ، وَدَلَّ النَّاسَ عَلى أوصَافِ جَلالِهِ وَجَمَالِهِ وكَمالِهِ، وشَهِدَ على أنَّهُ وَاحِدٌ فَردٌ صَمَدٌ: الشَّاهِدُ الصَّادِقُ والبُرْهانُ المُصَدَّقُ النَّاطِقُ المُحَقِقُ سَيِّدُ الأنبياء وَالمُرسَلينَ. الحَاوي لِسِرِّ إجمَاعِهِمْ وَتَصديقِهِمْ وَمُعجِزاتِهِمْ. وَإمامُ الأولياء وَالصِدّيقينَ. الحَاوي لِسِرِّ اتِفَاقِهِمْ وَتَحقيقِهِمْ وَكَرامَاتِهِمْ. ذُو الإرهاصَاتِ الخَارِقَةِ وَالمُعجِزاتِ البَاهِرةِ وَالبَراهينِ القاطِعَةِ الواضِحَةِ. ذُو الأخلاق العَاليَةِ في ذاتِهِ. وَالخِصالِ

(١) إن كل كلمة في هذه الشهادة الثانية تومئ إلى برهان صادق حق من البراهين الحقة للنبوة الأحمدية، كما تشير إلى وظيفة من وظائف النبوة، وإلى مقام من المقامات المحمدية، مثلما كل فقرة في الشهادة الأولى تدل على كثير من براهين الوحدانية، فكأن كلاً من تلك الكلمات والفقرات شاهدة لي، وتشهد معي، وأنا بنيتي أقلب شهاداتها التي هي بلسان الحال إلى لسان المقال، فنشهد معاً. (المؤلف).

(٢) إن إيضاح هذا المقام هو في آخر «المكتوب التاسع عشر» وهو رسالة المعجزات الأحمدية، وإن كل قيد وكل كلمة فيه يشير إلى دليل من دلائل الرسالة الأحمدية كما انه يومئ إلى البراهين الدّالة على أن القرآن الحكيم هو كلام الله.

ولقد ذكر النبي ﷺ والقرآن الكريم هنا، على أن كل واحد منهما دليل سامٍ للغاية على وحدانية الله سبحانه وتعالى. (المؤلف).

الغَالِيَةِ في وَظيفَتِهِ. وَالسَّجَايا السَّامِيَةِ في شَريعَتِهِ. مَهبَطُ الوَحيِ الرَّبَاني بإجماعِ المُنـزِلِ بتَوفيقِ لَهُ. وَالمُنـزَلِ بإعجَازِهِ. وَالمُنـزَلِ عَلَيهِ بقُوَّةِ إيمَانِهِ. وَالمُنـزَلِ إليهم بكُشُوفِهِمْ وَتَحقيقَاتِهِمْ. سَيَّارُ عَالَمِ الغَيبِ وَالمَلَكوتِ. مُشاهِدُ الأرواحِ وَمُصَاحِبُ المَلائِكَةِ مُرشِدُ الجِنِّ وَالإنسِ. وَأَنْوَرُ ثَمَراتِ شَجَرَةِ الخِلقَةِ. سِراجُ الحقِّ. بُرهَانُ الحَقيقَةِ. لِسانُ المحَبَّةِ. مِثالُ الرَّحمَةِ. كاشِفُ طِلسِمِ الكائِنَاتِ. حَلّالُ مُعَمَّى الخِلقَةِ. دَلّالُ سَلطَنَةِ الرُّبُوبيَّةِ. مَدارُ ظُهورِ مَقَاصِدِ خالِقِ الكائِناتِ في خَلقِ المَوجُوداتِ. ووَاسِطَةُ تَظاهُرِ كَمالاتِ الكائِناتِ، المُرمِزُ بشَخصيَّتِهِ المَعنَويَّةِ إلى أنهُ نُصبُ عَينِ فَاطِرِ الكَونِ في خَلقِ الكائِناتِ «يَعني أنَّ الصَّانِعَ نَظَرَ إليه وَخَلَقَ لأجلِهِ وَلأمثالِهِ هَذا العَالَمَ» ذُو الدِّينِ والشَّريعَةِ وَالإسلاميَةِ الَّتي هي بِدَساتيرِها أنمُوذَجُ دَساتيرِ السَّعادَةِ في الدَّارَينِ. كَأنَّ ذلِكَ الدِّينَ فِهرِستةٌ أُخرِجَتْ مِنْ كِتَابِ الكائِناتِ. فَكأنَّ القُرآنَ المُنـزَلِ عَليهِ قِراءَةٌ لآياتِ الكائِناتِ. المُشيرُ دِينُهُ الحَقُّ إلى أنَّهُ نِظامُ نَاظِمِ الكونِ. فَنَاظِمُ هذِهِ الكائِناتِ بِهذا النِّظامِ الأتَمِّ الأكمَلِ هُوَ نَاظِمُ ذلكَ الدِّينِ الجَامِعِ بِهذا النَّظمِ الأحسَنِ الأجمَلِ، سَيِّدُنا نَحنُ مَعَاشِرَ بَني آدَمَ، وَمُهدينَا إلى الإيمانِ نَحنُ مَعَاشِرَ المُؤمِنينَ مُحَمَّدٌ عَليهِ وَعَلى آلِهِ أفضَلُ الصَّلَواتِ وَأَتَمُّ التَّسْليماتِ ما دَامَتِ الأرض وَالسَّماواتُ. فإن ذلِكَ الشَّاهِدَ يَشهَدُ عَنِ الغَيبِ في عالَمِ الشَّهادَةِ عَلى رُؤوسِ الأشهَادِ بِطَورِ المُشَاهِدِ.

نَعَمْ؛ يُشَاهَدُ أنَّهُ يُشاهِدُ ثُمَّ يَشهَدُ مُنادِياً لأجيَالِ البَشَرِ خَلفَ الأعصَارِ وَالأقطارِ بِأعلى صَوتِهِ.

نَعَمْ؛ فَهذا صَدى صَوتِهِ يُسمَعُ مِنْ أعماقِ الماضي إلى شَواهِقِ الاستِقبَالِ وبِجميعِ قُوَّتِهِ.

نَعَمْ؛ فَقَد استَولى عَلى نِصفِ الأرضِ. وَانصَبَغَ بِصبغِهِ السَّماويّ خُمُسُ بَني آدَمَ. وَدَامَتْ سَلطَنَتُهُ المَعنَويَّةُ ألفاً وَثَلَثمائة وَخَمسينَ سَنَةً في كُلِّ زَمانٍ، يَحكُمُ ظَاهِراً وَباطِناً عَلى ثَلثمائة وَخَمسينَ مِليُوناً مِنْ رَعِيَّتِهِ الصَّادِقَةِ المُطيعَةِ بِانقيَادِ نُفوسِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ وَأروَاحِهِمْ وَعُقُولِهِمْ لأوَامِرِ سَيِّدِهِمْ وَسُلطَانِهِمْ. وَبِغايَةِ جِدِّيَّتِهِ بِشَهاداتِ قُوَّةِ دَساتيرِهِ المُسَمَّرَةِ عَلى صُخُورِ الدُّهُورِ وَعَلى جِبَاهِ الأقطَارِ. وَبِغَايَةِ وُثُوقِهِ بِشَهادَةِ زُهدِهِ واستِغنائِهِ عَنِ الدُّنيَا. وبغاية اطمئنانه ووُثُوقِه بشهادَةِ سَيرِهِ وبِغايَةِ قُوَّةِ إيمَانِهِ بِشَهادَةِ أنَّـهُ أعْبَدُ وَاتقى مِنَ الكُلِّ بِاتِّفاقِ الكُلِّ، شَهادَةً جازِمَةً مُكَرَّرَةً بـ:

﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ الَّذي دَلَّ عَلى وُجُوبِ وُجودِهِ، وَصَرَّحَ بِأوصَافِ جَلالِهِ وَجَمالِهِ وَكَمالِهِ، وَشَهِدَ أنَّهُ واحِدٌ أحد فَردٌ صَمَدٌ، الفُرقانُ الحَكيمُ الحَاوي لِسِرِّ إجماعِ كُلِّ كُتُبِ الأنبياء وَالأولِيَاءِ وَالمُوَحِّدِينَ المُختَلِفينَ في المَشَارِبِ والمَسَالِكِ المُتَّفِقَةِ قُلُوبُ هَؤُلاءِ وَعُقولُ أولئك بِحَقائق كُتُبِهِمْ عَلى تَصديقِ أساساتِ القُرآنِ المُنَوَّرِ جِهاتُهُ السِّتُّ. إذ عَلى ظَهرِهِ سِكَّةُ الإعجَازِ. وَفي بَطنِهِ حَقائِقُ الإيمَانِ. وَتَحتَهُ بَرَاهينُ الإذعَانِ. وَهَدَفُهُ سَعَادَةُ الدَّارَينِ. وَنُقطَةُ استِنَادِهِ مَحضُ الوَحيِ الرَّبَّانيِّ بِإجمَاعِ المُنـزِلِ بِآياتِهِ. وَالمُنـزَلِ بِإعجَازِهِ. وَالمُنـزَلِ عَليهِ بِقُوَّةِ إيمَانِهِ وَأمَنيَّتِهِ. وَكَمالِ تَسليمِيَّتِهِ وَصَفوَتِهِ. وَوضعِيَّتِهِ المعلُومَةِ عِندَ نـزولِهِ. مَجمَعُ الحَقائِقِ بِاليَقِينِ. وَمَنبَعُ أنوار الإيمان بِالبَداهَةِ. المُوصِلُ إلى السَّعادَاتِ بِاليَقِينِ. ذُو الأثمَارِ الكَامِلينِ بِالمُشَاهَدَةِ. مَقبُولُ المَلَكِ والإنس وَالجَانّ بِالحَدسِ الصَّادِقِ مِنْ تَفاريقِ الأمارَاتِ. المُؤيَّدُ بِالدَلائِلِ العَقليَّةِ بِاتِّفاقِ العُقَلاءِ الكاملينَ. وَالمُصَدَّقُ بالفِطرَةِ السَّليمَةِ بِشَهادَةِ اطمِئنانِ الوِجدَانِ بِهِ. المُعجِزَةُ الأبدية بالمُشَاهَدَةِ. ذُو البَصَرِ المُطلَقِ يَرى الأشياء بِكَمالِ الوُضُوحِ، يَرى الغَائِبَ البَعيدَ كَالحَاضِرِ القَريبِ. ذُو الاِنبِساطِ المُطلَقِ يُعَلِّمُ المَلأَ الأعلى مِنَ المُقَرَّبينَ بِدَرسٍ، وَيُعَلِّمُ أطفَالَ البَشَرِ بِعينِ ذَلِكَ الدَّرسِ، وَيَشمِلُ تَعليمُهُ وتَعليمَاتُهُ طَبَقاتِ ذَوي الشُّعُورِ مِنْ أعلى الأعَالي إلى أبسَطِ البَسائِطِ. لِسانُ الغَيبِ في عَالَمِ الشَّهادَةِ، شَهادَةً جَازِمَةً مُكَرَّرَةً بـ«لآ إلَهَ إلّا هُوَ» و ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ .

اللمعة الثلاثون

من المكتوب الحادي والثلاثين، وثمرة من ثمار سجن «أسكي شهر» وذيل الذيل للكلمة الثلاثين. وهي عبارة عن ست نكات.

هذا الدرس القيّم ثمرةٌ من ثمار «سجن أسكي» شهر وحصيلةُ مدرستها اليوسفية، مثلما كانت «رسالة الثمرة» ثمرةً أينعَها «سجنُ دنيزلي» وكما كانت «رسالة الحجة الزهراء» درساً بليغاً أزهر في سجن آفيون.

تضم هذه الرسالة -وهي اللمعة الثلاثون- نكاتٍ دقيقة لستةٍ من الأسماء الحسنى التي هي في القسم الذي يخص اسم الله «الحي» و«القيوم» من الاسم الأعظم مسائل عميقة وواسعة جداً قد لا يستطيع كلُّ أحد أن يستوعبها كلَّها ويتذوقها جميعاً، إلّا أنه لا يبقى أحدٌ دون نصيب منها وفائدة يغنمها.

النكتة الأولى

تخص إحدى نكات اسم الله

القدوس



﴿ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴾ (الذاريات:٤٨)

لقد تجلت لي نكتةٌ من نكات هذه الآية الكريمة وتجلّ من تجليات اسم الله «القدوس» وهو الاسم الأعظم أو أحدُ أنوراه الستة، وأنا نزيل سجن «أسكي شهر» أواخر شهر شعبان المبارك. فبيّن لي: الوجودَ الإلهي بوضوح تام، وكشف لي: الوحدانيةَ الربانية بجلاء، كما يأتي:

لقد تراءى لي هذا الكونُ وهذه الكرةُ الأرضية كمعمل عظيم دائبِ الحركة، وشبيهةً بفندق واسع، أو دارِ ضيافة تُملأ وتُخلى بلا انقطاع، علماً أن دار ضيافةٍ بهذه السعة وبهذه الكثرة الكاثرة من الغادين والرائحين، تمتلئ بالنفايات والأنقاض، ويصاب كل شيء بالتلوث، وتضيق فيها أسبابُ الحياة. فإن لم تعمل يدُ التنظيف والتنسيق فيها عملاً دائماً أدّت تلك الأوساخ إلى اختناق الإنسان واستحالة عيشه.

بيد أننا لا نكاد نرى في معمل الكون العظيم هذا، وفي دار ضيافة الكرة الأرضية هذه أثراً للنفايات، كما انه لا توجد في أية زاوية من زواياهما مادة غير نافعة، أو غير ضرورية، أو أُلقِيَتْ عبثاً، حتى إن ظهرت مادةٌ كهذه فسرعان ما تُرمى في مكائن تحويل بمجرد ظهورها، تُحيلها إلى مادة نظيفة.

فهذا الأمرُ الدائب يدلنا على: أن الذي يراقب هذا المعمل إنما يراقبه بكل عناية وإتقان، وأن مالكه يأمر بتنظيفه وتنسيقه وتزيينه على الدوام حتى لا يُرى فيه -رغم ضخامته- أثرٌ

للقاذورات والنفايات التي تكون متناسِبةً مع كبر المعمل وضخامته. فالمراعاةُ بالتطهير إذن مستمرة، والعناية بالتنظيف دائمة ومتناسبة مع ضخامة المعمل وسعته، لأنَّ الإنسان الفرد إن لم يستَحم ولم يقم بتنظيف غرفته خلال شهر، لضاقت عليه الحياة.. فكيف بنظافة قصر العالم العظيم؟!

إذن فالطُهر والنقاء والصفاء والبهاء المشاهَد في قصر العالم البديع هذا ما هو إلّا نابعٌ من تنظيف حكيمٍ مستمر، ومن تطهير دقيق دائم.. فلولا هذه المراقبةُ المستديمة للنظافة، والعنايةُ المستمرة بالطهر، لكانت تختنق على سطح الأرض -بأجوائها الموبوءة- مئاتُ الآلاف من الأحياء خلال سنة.. ولولا تلك المراقبةُ الدقيقة والعناية الفائقة في أرجاء الفضاء الزاخرة بالكواكب والنجوم والتوابع المعرَّضة للموت والاندثار، لكانت أنقاضُها المتطايرة في الفضاء تحطّم رؤوسَنا ورؤوس الأحياء الأخرى، بل رأسَ الدنيا! ولكانت تُمطِر علينا كتلاً هائلة بحجم الجبال، وتُرغمُنا على الفرار من وطننا الدنيوي! بينما لم تسقط منذ دهور سحيقة من الفضاء الخارجي -نتيجة الاندثار- سوى بضعةِ نيازك، ولم تُصب أحداً من الناس، بل كانت عبرةً لمن يعتبر! ولولا التنظيفُ الدائب والتطهير الدائم في سطح الأرض، لكانت الأنقاض والأوساخ والأشلاء الناتجة من تعاقب الموت والحياة اللذين يصيبان مئات الألوف من أمم الأحياء، تملأ البر والبحر معاً، ولكانت القذارةُ تصل إلى حد ينفر كلُّ من له شعور أن ينظر إلى وجه الأرض الدميم، بل كان يسوقه إلى الفرار منها إلى الموت والعدم ناهيك عن حبِّه وعشقه.

نعم، مثلما ينظّف الطيرُ أجنحته بسهولة تامة أو يطهِّر الكاتبُ صحائف كتابه بيُسر كامل، فإن أجنحة هذه الأرض الطائرة -مع الطيور السماوية في الفضاء- وصحائف هذا الكتاب العظيم -أعني الكون- ينظّفان ويطهّران ويجمّلان ويزيّنان بمثل تلك السهولة واليسر، بل إن تطهير سطح الأرض هذا وتنظيفه وتنسيقه وتزيينه هو من كمال الإتقان بحيث يجعل الذين لا يرون -بإيمانهم- جمالَ الآخرة يعشقون هذا الجمال وهذه النظافة لهذا العالم الدنيوي بل قد يعبدونه!

إذن فقصر العالم الباذخ هذا، ومعمل الكون الهائل هذا، قد حَظِيا بتجلٍ من تجليات اسم الله القدوس عليهما، حتى إنه عندما تصدر الأوامر الإلهية المقدسة الخاصة بالتطهير

والتنظيف لا تصدر للحيوانات البحرية الكبيرة المفترسة، المؤدية وظيفة التنظيف والصقور البرية الجارحة وحدها، بل يستمع لها أيضاً أنواعُ الديدان والنمل التي تجمع الجنائز وتقوم بمهمة موظفي الصحة العامة الراعين لها في هذا العالم، بل تستمع لهذه الأوامر التنظيفية حتى الكرياتُ الحمر والبيض الجارية في الدم فتقوم بمهمة التنظيف والتنقية في حجيرات البدن كما يقوم التنفس بتصفية الدم، بل حتى الأجفان الرقيقة تستمع لها فتطهر العين باستمرار، بل حتى الذباب يستمع لها فيقوم بتنظيف أجنحته دائماً..

ومثلما يستمع كل ما ذكرناه لتلك الأوامر القدسية بالتنظيف، تستمع لها أيضاً الرياحُ الهوج والسحب الثقال، فتلك تطهِّر وجهَ الأرض من النفايات، والأخرى ترشّ روضَتها بالماء الطاهر فتسكّن الغبار والتراب، ثم تنسحب بسرعة ونظام حاملةً أدواتها ليعود الجمالُ الساطع إلى وجه السماء صافياً متلألئاً.

ومثلما تستمع لتلك الأوامر الصادرة بالتطهير والتنظيف النجومُ، والعناصر، والمعادن، والنباتات بأشكالها وأنواعها، تستمع لها الذراتُ جميعاً، حتى إنها تراعي النقاوة والصفاء في دوامات تحولاتها المحيرة للألباب، فلا تجتمع في زاوية دون فائدة، ولا تزدحم في ركن دون نفع، بل إن تلوثت تُنظَّف فوراً وتُساق سوقاً من لدن قدرة حكيمة إلى أخذ أطهر الأوضاع وأنظفِها وأسطعها وأصفاها، وأخذِ أجمل الصور وأنقاها وألطفها.

وهكذا فإن فعلَ التطهير هذا الذي هو فعلٌ واحد، ويعبّر عن حقيقةٍ واحدة هو تجلٍّ أعظم من تجليات اسم «القدوس» الأعظم، يُرى ذلك التجلي الأعظم حتى في أعظم دوائر الكون وأوسعها، بحيث يبين الوجود الرباني، ويُظهر الوحدانية الإلهية مع أسمائها الحسنى ظهوراً جلياً كالشمس المنيرة، فتبصره العيونُ النافذة النظر.

وقد ثبت ببراهين دامغة في أغلب أجزاء «رسائل النور»: أن فعلَ التنظيم والنظام الذي هو تجلٍّ من تجليات اسم «الحَكَم والحكيم»، وأن فعل الوزن والميزان الذي هو تجلٍّ من تجليات اسم «العدل والعادل»، وأن فعل التزيين والإحسان الذي هو تجلٍّ من تجليات اسم «الجميل والكريم»، وأن فعل التربية والإنعام الذي هو تجلٍّ من تجليات اسم «الرب الرحيم».. كلُّ فعل من هذه الأفعال، هو فعلٌ واحد، وحقيقة واحدة، تشاهَد بوضوح في آفاق

الكون كله، فكلٌّ منها يشير إلى وجوب وجودِ واحدٍ أحدٍ، ويبين وحدانيته بجلاء. كذلك فعلُ التنظيف والتطهير الذي هو تجلٍ من تجليات اسم «القدوس» يدل على وجود ذلك الواجب، كالشمس، ويبين وحدانيته كالنهار.. وكما أن الأفعال المذكورة من تنظيم وتقدير وتزيين وتنظيف وأمثالِها من الأفعال الحكيمة تبين خالقاً واحداً أحداً، بوحدتها النوعية، وبظهورها في أوسع الآفاق الكونية، كذلك أكثر الأسماء الحسنى، بل كل اسم من ألف اسم واسم من الأسماء الحسنى له تجلٍ أعظم في أوسع دائرة من دوائر الكون كهذا. فيُظهر الفعلُ الناتج من ذلك التجلي الواحد الأحد ظهوراً جلياً يناسب سعة ذلك الفعل ووضوحه.

نعم، إن الحكمةَ العامة التي تُخضع كل شيء لقانونها ونظامها، والعنايةَ الشاملة التي تجمّل كل شيء وتزيّنه، والرحمةَ الواسعة التي تُدخل السرورَ والبهجة على كل شيء وتجعله في حمدٍ دائم، والرزقَ العام الذي يعتاش عليه كلُّ ذي حياة ويتمتع بلذائذه، والحياةَ والإحياء التي تربط كل شيء بالأشياء الأخرى، وتجعل الشيء ينتفع من كل شيء كأنه مالكٌ للأشياء.. هذه الحقائق وأمثالُها، المشهودة بالبداهة، والمتّسمة بالوحدة، والجاعلةُ وجهَ الكون يشرق بهاءً، ويستهلّ بِشراً وسروراً، تدل بداهةً على: «الحكيم، الكريم، الرحيم، الرزاق، الحي المحيي»، كما يدل الضوءُ على الشمس. ولله المثل الأعلى. فكلُّ فعل من هذه الأفعال الواسعة التي تربو على المئات، دليل باهر الوضوح على الوحدانية، إن لم يُسنَد إلى «الواحد الأحد» سبحانه لنتجت إذن مئاتُ المحالات بمئاتٍ من الأوجه.

فمثلاً: إنه ليست الأفعالُ كلُّها كالحكمة والعناية والرحمة والإعاشة والإحياء والإماتة التي هي من الحقائق البديهية ومن دلائل التوحيد، بل حتى فعلٌ واحد فقط منها وهو فعلُ التطهير لو لم يُسند إلى رب العالمين للزم -في طريق الكفر والضلالة- أن يكون كلُّ شيء له علاقةٌ بالتنظيف ابتداء من الذرات، إلى الحشرات، إلى العناصر، إلى النجوم، على علمٍ ومعرفةٍ بتنظيف هذا الكون العظيم وتزيينهِ وتجميله وموازنة ما فيه!! وأن يلاحظ الأمور وفقها، ويقدِر على التحرك.. أو يلزم أن يتصف كلٌّ منها بالصفات القدسية الجليلة لرب العالمين!!. أو يلزم أن يكون هناك مجلس شورى واسع سعة الكون كله لتنظيم جميع تزيينات الكون وتطهيره وتقدير كل ما يلج فيه وما يخرج منه وموازنته، وأن يشكّل هذا المجلسَ ما لا يحد من الذرات والحشرات والنجوم!!..

وهكذا يصل سالكُ طريق الكفر إلى مئاتٍ من أمثال هذه الخرافات السخيفة والمحالات السوفسطائية كي يظهَر التزيينُ المحيط والتنظيف الشامل الظاهر في الأرجاء كافة. أي لا ينشأ محالٌ واحد بل مئات الألوف من المحالات.

نعم، إن لم يُسند ضوءُ النهار والشُميسات المتألقة المثالية في كل شيء على سطح الأرض، إلى الشمس الواحدة، ولم تُفسَّر على أنها انعكاساتٌ لتجلي تلك الشمس الواحدة، للزم وجودُ شمسٍ حقيقية في كل قطرة ماء لماعة، وفي كل قطعة زجاج شفافة، وفي كل بلورة ثلج مشعة، حتى في كل ذرة من ذرات الهواء، كي يظهر ذلك الضوءُ الذي يعم الوجود!!

وهكذا؛ فالحكمةُ ضياءٌ، والرحمةُ الواسعة ضياء، والتزيين والموازنة والتنظيم والتنظيف كلٌّ منها ضياء شامل محيط وشعاعٌ من أشعة ذلك النور الأزلي سبحانه.

فانظر الآن بنور هذا الإيمان لترى كيف يسقط أهلُ الكفر والضلالة في مستنقع آسن لا يمكنهم الخروج منه. وشاهد مدى حماقةِ أهل الضلالة وجهالتهم! واحمد الله قائلاً: «الحمد لله على دين الإسلام وكمال الإيمان».

نعم، إنَّ هذا التنظيف السامي الشامل المشاهَد الذي يجعل قصرَ العالم طاهراً نقياً نظيفاً لهو تجلٍّ من تجليات اسم «القدوس» ومقتضىً من مقتضياته. وكما تتوجه تسبيحات المخلوقات جميعِها إلى اسم «القدوس» وترنو إليه، كذلك يستدعي اسمُ «القدوس» نظافةَ تلك المخلوقات وطهارتها [1] حتى عدّ الحديث الشريف: «النظافة من الإيمان» الطهورَ نوراً من أنواره [2] لارتباطه القدسي هذا، وأظهرت الآية الكريمة أن الطُهر مدعاةٌ إلى المحبة الإلهية ومدار لها، في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (البقرة: ٢٢٢).

---

(١) يجب ألّا ننسى أن الخصال القبيحة، والاعتقادات الباطلة، والذنوب والآثام، والبدع، كلها من الأوساخ المعنوية. (المؤلف).

(٢) وردت في هذا المعنى أحاديث كثيرة انظر: مسلم، الطهارة ١؛ الترمذي، الدعوات ٨٦؛ الدارمي، الوضوء ٢؛ ابن حبان، الصحيح ١٢/ ٢٩٤؛ احمد بن حنبل، المسند ٥/ ٣٤٢، ٣٤٤؛ الطبراني، المعجم الكبير ٣/ ٢٨٤؛ البيهقي، شعب الايمان ١/ ٤٥.

النكتة الثانية

تخص إحدى نكات اسم الله

العدل

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ (الحجر: ٢١)

لقد تراءت لي نكتةٌ لطيفةٌ من لطائف هذه الآية الكريمة، ونورٌ من أنوار تجليات اسم الله: «العدل» الذي هو اسم الله الأعظم، أو هو نور من أنواره الستة.

تراءى لي ذلك النور من بعيد -كما هو الحال في النكتة الأولى- وأنا نزيل سجن «أسكي شهر» ولأجل تقريبه إلى الأفهام نسلك أيضاً طريقَ ضرب الأمثال. فنقول:

هذا الكون قصر بديع يضم مدينةً واسعة تتداولها عواملُ التخريب والتعمير، وفي تلك المدينة مملكةٌ واسعة تغلي باستمرار من شدة مظاهر الحرب والهجرة، وبين جوانح تلك المملكة عالمٌ عظيم يسبَح كل حين في خضم الموت والحياة.. ولكن على الرغم من كل مظاهر الاضطراب، فإن موازنةً عامة وميزاناً حساساً، وعملية وزنٍ دقيق تسيطر في كل جوانب القصر ونواحي المدينة وتسود في كل أرجاء المملكة وأطراف العالم، وتهيمن عليها هيمنةً، بحيث تدل بداهة على: أن ما يحدث ضمن هذه الموجودات التي لا يحصرها العدّ من تحولات، وما يلجُ فيها وما يخرج منها لا يمكن أن يكون إلّا بعملية وزنٍ وكَيْلٍ، وميزان مَن يرى أنحاءَ الوجودِ كلَّها في آن واحد، ومن تجري الموجوداتُ جميعُها أمامَ نظر مراقبته في كل حين... ذلكم الواحد الأحد سبحانه. وإلّا فلو كانت الأسباب الساعية إلى اختلال التوازن، سائبةً أو مفوضة إلى المصادفة العشواء أو القوة العمياء أو الطبيعة المظلمة البلهاء، لكانت بويضات سمكةٍ واحدة التي تزيد على الألوف تخل بتلك الموازنة، بل بذيرات زهرةٍ واحدة -كالخشخاش- التي تزيد على عشرين ألف تخل بها، ناهيك عن تدفق العناصر الجارية كالسيل، والانقلابات الهائلة والتحولات الضخمة التي تحدث في أرجاء الكون.. كل منها لو كان سائباً لكان قميناً أن يخل

بتلك الموازنة الدقيقة المنصوبة بين الموجودات، ويفسد التوازن الكامل بين أجزاء الكائنات خلال سنة واحدة، بل خلال يوم واحد. ولكنتَ ترى العالم وقد حلّ فيه الهرجُ والمرج.. وتعرّض للاضطرابات والفساد.. فالبحار تمتلئ بالأنقاض والجثث، وتتعفن.. والهواء يتسمم بالغازات المضرة الخانقة، ويفسد. والأرض تصبح مزبلة ومسلخة، وتغدو مستنقعاً آسناً لا تطاق فيه الحياة.

فإن شئت فأَنعم النظر، في الموجودات كلِّها، ابتداء من حجيرات الجسم إلى الكريات الحمر والبيض في الدم، ومن تحولات الذرات إلى التناسب والانسجام بين أجهزة الجسم، ومن واردات البحار ومصاريفها إلى موارد المياه الجوفية وصرفياتها، ومن تولدات الحيوانات والنباتات ووفياتها إلى تخريبات الخريف وتعميرات الربيع، ومن وظائف العناصر وحركات النجوم إلى تبدل الموت والحياة، ومن تصادم النور والظلام إلى تعارض الحرارة والبرودة.. وما شابهها من أمور، كي ترى أن الكل: يوزَن ويُقدَّر بميزان خارق الحساسية، وأن الجميع يُكتال بمكيال غايةً في الدقة، بحيث يعجز عقلُ الإنسان أن يرى إسرافاً حقيقياً في مكان وعبثاً في جزء.. بل يلمس علمُ الإنسان ويشاهِد أكملَ نظامٍ وأتقنَه في كل شيء فيحاول أن يُريَه، ويرى أروَع توازنٍ وأبدعَه في كل موجود فيسعى لإبرازه. فما العلوم التي توصَّل إليها الإنسان إلّا ترجمة لذلك النظام البديع وتعبير عن ذلك التوازن الرائع.

فتأمل في الموازنة الرائعة بين الشمس والكواكب السيارة الإثنتى عشرة التي كل منها مختلفة عن الأخرى، ألا تدل هذه الموازنة دلالة واضحة وضوح الشمس نفسها على الله سبحانه الذي هو «العدل القدير»؟

ثم تأمل في الأرض -وهي إحدى الكواكب السيارة- هذه السفينة الجارية السابحة في الفضاء التي تجول في سنة واحدة مسافة يقدَّر طولُها بأربع وعشرين ألف سنة. ومع هذه السرعة المذهلة لا تبعثر المواد المنسقة على سطحها ولا تضطرب بها ولا تطلقها إلى الفضاء.. فلو زيد شيءٌ قليل في سرعتها أو أُنقص منها لكانت تقذف بقاطنيها إلى الفضاء، ولو أخلّت بموازنتها لدقيقة -بل لثانية واحدة- لتعثرت في سيرها واضطربت، ولربما اصطدمت بغيرها من السيارات ولقامت القيامة.

ثم تأمل في تولدات ووفيات النباتات والحيوانات وإعاشتها وحياتها على الأرض والتي يزيد عدد أنواعها على الأربعمائة ألف نوع، ترى موازنةً رائعة ذات رحمة، تدلك دلالة قاطعة على الخالق العادل الرحيم جلّ جلالُه، كدلالة الضياء على الشمس.

ثم تأمل في أعضاء كائن حي من الأحياء التي لا تعد ولا تحصى، ودقق في أجهزته وفي حواسه.. تَرَ فيها من الانسجام التام والتناسق الكامل والموازنة الدقيقة ما يدلّك بداهة على الصانع الذي هو «العدل الحكيم».

ثم تأمل في حجيرات جسم كائن حي وفي أوعية الدم، وفي الكريات السابحة في الدم، وفي ذرات تلك الكريات، تجد من الموازنة الخارقة البديعة ما يثبت لك إثباتاً قاطعاً أنه لا تحصل هذه الموازنةُ الرائعة ولا إدارتُها الشاملة، ولا تربيتُها الحكيمة إلّا بميزان حساسٍ وبقانونٍ نافذ وبنظام صارم للخالق الواحد الأحد «العدل الحكيم» الذي بيده ناصية كل شيء، وعنده مفاتيح كل شيء، لا يحجب عنه شيء ولا يعزب، ويدير كل شيء بسهولة إدارةَ شيء واحد.

إنَّ الذي لا يعتقد أن أعمال الجن والإنس يوم الحشر الأكبر توزن بميزان العدل الإلهي، ويستغرب منها ويستبعدها ولا يؤمن بها، أقول لو تمكّن أن يتأمل فيما هو ظاهر مشاهدَ من أنواع الموازنة الكبرى أمامه في هذه الدنيا لزال استبعادُه واستنكاره حتماً.

أيها الإنسان المسرف الظالم الوسخ.!

اعلم، أن «الاقتصاد والطهر والعدالة» سنن إلهية جارية في الكون، ودساتيرُ إلهية شاملة تدور رحى الموجودات عليها لا يفلت منها شيء إلّا أنت أيها الشقي، وأنت بمخالفتك الموجودات كلها في سيرها وفق هذه السنن الشاملة تلقى النفرة منها والغضب عليك وأنت تستحقها.. فعلامَ تستند وتثير غضبَ الموجودات كلها عليك فتقترف الظلم والإسراف ولا تكترث للموازنة والنظافة؟

نعم، إن الحكمة العامة المهيمنة في الكون والتي هي تجلٍ أعظم لاسم «الحكيم» إنما تدور حول محور الاقتصاد وعدم الإسراف، بل تأمر بالاقتصاد.

وإن العدالة العامة الجارية في الكون النابعة من التجلي الأعظم لاسم «العدل» إنما

تدير موازنةَ عموم الأشياء، وتأمر البشرية بإقامة العدل. وإن ذكر الميزان أربع مرات في سورة الرحمن إشارة إلى أربعة أنواع من الموازين في أربع مراتب وبيان لأهمية الميزان البالغة ولقيمته العظمى في الكون. وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْاْ فِي ٱلْمِيزَانِ * وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ﴾ (الرحمن: ٧-٩).

نعم، فكما لا إسراف في شيء، فلا ظلمَ كذلك ظلماً حقيقياً في شيء، ولا بخسَ في الميزان قط، بل إن التطهير والطهر الصادر من التجلي الأعظم لاسم «القدوس» يعرض الموجودات بأبهى صورتها وأبدع زينتها، فلا ترى ثمة قذارة في موجود، ولا تجد قبحاً أصيلاً في شيء ما لم تمسّه يدُ البشر الوسخة.

فاعلم من هذا أن «العدالة والاقتصاد والطهر» التي هي من حقائق القرآن ودساتير الإسلام، ما أشدَّها إيغالاً في أعماق الحياة الاجتماعية، وما أشدَّها عراقة وأصالة. وأدرك من هذا مدى قوةِ ارتباط أحكام القرآن بالكون، وكيف أنها مدّت جذوراً عميقة في أغوار الكون فأحاطته بعرىً وثيقة لا انفصام لها. ثم افهم منها أن إفساد تلك الحقائق ممتنعٌ كامتناع إفساد نظام الكون والإخلال به وتشويه صورته.

ومثلما تستلزم هذه الحقائق المحيطة بالكون، وهذه الأنوار العظيمة الثلاثة «العدالة والاقتصاد والطهر» الحشرَ والآخرة، فإن حقائق محيطة معها: كالرحمة والعناية والرقابة، وأمثالِها من مئات الحقائق المحيطة والأنوار العظيمة تستلزم الحشرَ وتقتضي الحياة الآخرة، إذ هل يمكن أن تنقلب مثل هذه الحقائق المهيمنة على الموجودات والمحيطة بالكون إلى أضدادها بعدم مجيء الحشر وبعدم إقامة الآخرة، أي أن تنقلب الرحمةُ إلى ضدها وهو الظلم، وتنقلب الحكمةُ أو الاقتصاد إلى ضدهما وهو العبث والإسراف، وينقلب الطُهر إلى ضده وهو العبث والفساد. حاشَ لله..

إنَّ الرحمة الإلهية، والحكمة الربانية اللتين تحافظان على حقّ حياةٍ بعوضةٍ ضعيفة محافظةً تتسم بالرحمة الواسعة، لا يمكن أن تضيّعا -بعدم إقامة الحشر- حقوقَ جميع ذوي الشعور غير المحدودين وتهضما حقوقاً غير متناهية لموجودات غير محصورة..

وإن عظمة الربوبية التي تُظهر دقة متناهية وحساسية فائقة -إذا جاز التعبير- في الرحمة

والشفقة والعدالة والحكمة، وكذا الألوهية الباسطة سلطانَها على الوجود كله والتي تريد إظهار كمالاتها وتعريف نفسها وتحبيبها بتزييناتها الكائنات ببدائع صنائعها وبها أسبغت عليها من نِعَمٍ هل يمكن أن تسمح -هذه الربوبية العظيمة والألوهية الجليلة- بعدم إقامة الحشر الذي يسبب الحطّ من قيمة جميع كمالاتها ومن قيمة مخلوقاتها قاطبة؟. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

فمثل هذا الجمال المطلق لا يرضى -بالبداهة- بمثل هذا القبح المطلق.

فالذي يريد أن ينكر الآخرة عليه أن ينكر وجود هذا الكون أولاً بجميع ما فيه من حقائق. وإلّا فالكائنات مع حقائقها المتأصلة فيها تكذّبه بألوفٍ من الألسنة، وتثبت له أنه الكذّاب الأشر. وقد أثبتت «رسالة الحشر» بدلائل قاطعة: أن وجود الآخرة ثابت وقاطع لا ريب فيه كوجود هذه الدنيا.

النكتة الثالثة

تشير إلى النور الثالث من الأنوار الستة للاسم الأعظم:

الحكَم

﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ ﴾ (النحل: ١٢٥)

لقد تراءت لي نكتةٌ من النكات الدقيقة لهذه الآية الكريمة، ونور من أنوار تجليات اسم الله «الحَكَم» الذي هو اسم الله الأعظم، أو أحد أنواره. في شهر رمضان المبارك. فكُتبت هذه النكتة المشتملة على خمس نقاط على عجلٍ، فأثبتُّها على حالها في المسودة دون تنقيح أو تغيير.

النقطة الأولى:

مثلما ذكرنا في «الكلمة العاشرة» أن التجلي الأعظم لاسم «الحَكَم» جعل هذا الكون بمثابة كتاب عظيم كُتبتْ في كل صحيفة من صحائفه مئاتُ الكتب، وأُدرجت في كل سطر منه مئاتُ الصفحات، وخُطَّتْ في كل كلمة منه مئاتُ الأسطر، وتُقرأ تحت كل حرف فيه مئاتُ الكلمات، وحُفِظَ في كل نقطة من نقاطه فهرسٌ مختصر صغير يلخص محتويات الكتاب كله.. فهذا الكتاب بصفحاته وأسطره بل بنقاطه يدل دلالة واضحة ساطعة -بمئات الأوجه- على مصوِّرِه وكاتبه، حتى إن مشاهدة الكتاب الكوني العظيم هذا وحدَها كافيةٌ للدلالة على وجود كاتبه، بل تسوقنا إلى معرفة وجوده ووحدانيته بما يفوق دلالة الكتاب على نفسه أضعافاً مضاعفة. إذ بينما يدل الحرفُ الواحد على وجوده ويعبّر عن نفسه بمقدار حرف فإنه يعبّر عن أوصاف كاتبه بمقدار سطر..

نعم، إنَّ سطح الأرض «صحيفة» من هذا الكتاب الكبير، هذه الصحيفة تضم كتباً بعدد طوائف النباتات والحيوانات، وهي تُكتب أمام أنظارنا في موسم الربيع في غاية الكمال والإتقان من دون خطأٍ، كتابةً متداخلة، جنباً إلى جنب، في آن واحد.

والبستان «سطر» من هذه الصحيفة، نشاهد فيه قصائد منظومة وهي تُكتب أمام أعيننا بعدد الأزهار والأشجار والنباتات، كتابةً متداخلة، جنباً إلى جنب، من دون خطأ.

والشجرة النامية الزاهية أوراقُها، المفتحة أزهارُها، وقد أوشكت أن تخرج أثمارُها من أكمامها، هذه الشجرة «كلمةٌ» من ذلك السطر، فهذه الكلمة تمثل فقرةً كاملة ذات مغزى تعبّر تعبيراً بليغاً عن ثنائها وحمدها ودلالتها على «الحكم» ذي الجمال، بعدد أوراقها المنتظمة وأزهارها المزينة وأثمارها الموزونة، حتى لكأن تلك الشجرة المفتحة الأزهار قصيدةٌ عصماء تتغنى بالمدح والثناء على آلاء بارئها المصور الجليل.

وكأن «الحكيم» ذا الجلال يريد أن ينظر عبادُه إلى ما عَرَضه من بدائع آثاره وعجائبِ مخلوقاته في معرض الأرض البديع بألوف من العيون. وكأن تلك الهدايا الثمينة والأوسمة الغالية والشارات اللطيفة التي منحها الله تعالى لتلك الشجرة قد أعطتها من الشكل الجميل المزيَّن، والهيأة الموزونة المنتظمة، والإبانة الحكيمة البليغة ما يهيؤها للعرض أمام أنظار الملِك العظيم في يوم عيده البهيج وعرضه العام للمخلوقات.. في الربيع الزاهي.. فتنطلق بالشهادة على وجود البارئ المصور، والدلالة على أسمائه الحسنى ألسنةٌ عديدة ووجوهٌ كثيرة متداخلة؛ من كل زهرة من أزهار الشجرة، ومن كل ثمرة من ثمارها.

فمثلاً: إنَّ كل ما في الزهرة والثمرة موزونٌ بميزان دقيق، وذلك الميزان مقدَّر وفق تناسق بديع، وذلك التناسق يسير منسجماً مع تنظيمٍ وموازنةٍ يتجددان، وذلك التنظيم والموازنة يجريان في ثنايا زينة فاخرة وصنعة متقنة، وتلك الزينة والإتقان يظهران بروائح ذات مغزى وبمذاقات ذات حكمة.. وهكذا تشير كل زهرة إلى الحكم ذي الجلال إشارات، وتدل عليه دلالات، بعدد أزهار تلك الشجرة. والشجرة التي هي بمثابة كلمة، وثمارُها التي هي بحكم حروف تلك الكلمة، وبذور الثمر كأنها نقاط تلك الحروف التي تضم فهرس الشجرة كاملاً وتحمل خطة أعمالها. هذه الشجرة إذا أخذناها مثالاً وقسنا عليها كتاب الكون الكبير، نرى سطورَه وصحائفه قد صارت بتجلى أنوار اسم «الحكيم الحَكَم» معجزة باهرة، بل غدت كل صحيفة منه، وكل سطر منه، وكل كلمة، وكل حرف، وكل نقطة معجزةٌ تبلغ من العظمة ما لو اجتمعت الأسبابُ المادية كلها على أن تأتي بمثل تلك

النقطة -أي البذرة- أو بنظيرها لا تأتي بمثلها. بل تعجز الأسباب جميعُها عجزاً مطلقاً عن معارضتها.

نعم، إن كل آية كونية من آيات قرآن الكون العظيم المنظور تَعرِض للأنظار معجزاتٍ نيّرات هي بعدد نقاطها وحروفها، فلا جرم أن المصادفة العشواء والقوة العمياء، والطبيعة الصماء البلهاء التي لا هدف لها ولا ميزان، لا يمكنها أن تتدخل -في أية جهة كانت- في هذا الميزان المتقن الخاص، وفي هذا الانتظام الدقيق البديع المتّسمين بالحكمة والبصيرة. فلو افتُرض تدخلها -جدلاً- لظهر أثر التدخل، بينما لا يشاهَد في أي مكان تفاوتاً ولا خللاً قط.

النقطة الثانية: وهي مسألتان:

المسألة الأولى: مثلما وُضّح في «الكلمة العاشرة» أنه من القواعد الأساسية الرصينة: أن الجمال الذي هو في منتهى الكمال لابد أن يَشهَد ويُشهِدَ جمالَه. وأن الكمال الذي هو في منتهى الجمال لابد أن يَشهَد ويُشهِد كمالَه. فبناء على هذا الدستور العام فإن البارئ المصور سبحانه الذي أبدع كتاب الكون العظيم هذا يعرِّف جمالَ كمالِه ويحبّبه بألسنةِ مخلوقاته -ابتداء من أصغر جزئي إلى أكبر كلي- فيعرِّف سبحانه ذاتَه المقدَّسة، ويفهّم كمالَه السامي، ويُظهر جمالَه البديع: بهذا الكون الرائع، وبكل صحيفة فيه، وبكل سطر فيه، وبكل كلمة فيه، بل حتى بكل حرف وبكل نقطة من كتابه العظيم هذا.

فيا أيها الغافل! إن هذا «الحكيم الحَكَمَ الحاكم» ذا الجلال والجمال، إذ يعرّف نفسَه لك ويحبّبها إليك بكل مخلوقٍ من مخلوقاته، وبهذه الصورة الرائعة وبهذه الكثرة الكاثرة من الوسائل البديعة، إن لم تقابِل تعريفَه هذا بالإيمان به ولم تعرِفه، وإن لم تقابِل تحبيبه هذا بالعبادة له ولم تحبّب نفسَك إليه، فما أعظمَ جهلَك إذن، وما أفدح خسارتك!. احذر!. انتبه!.. وأفِق من غفلتك!.

المسألة الثانية: إنه لا مكان للشرك قط في هذا الكون الشاسع العظيم الذي أبدعه الصانع القدير الحكيم بقدرته وحكمته؛ لأن وجود منتهى النظام في كل شيء لن يسمح بالشرك أبداً، فلو تدخلت أيدٍ متعددة في خلق شيءٍ ما لبان التفاوتُ والاختلال في ذلك الشيء، مثلما تختلط

الأمور إذا ما وجد سلطانان في بلد، ومسؤولان في مدينة، ومديران في قصبة، ومثلما يرفض أبسط موظف تدخل أحد في شأن من شؤونه التي تخص وظيفته..

كل ذلك دلالة على أن الخاصة الأساسية للحاكمية إنما هي: «الاستقلال» و«الانفراد» فالانتظام يقتضي الوحدة كما أن الحاكمية تقتضي الانفراد. فإذا كان ظلٌّ باهت زائل للحاكمية لدى هذا الإنسان العاجز الفقير يردّ المداخلة بقوة، فكيف بالحاكمية الحقيقية التي هي في مرتبة الربوبية المطلقة لدى القدير المطلق سبحانه؟ ألا تردّ الشرك وترفضه رفضاً باتاً؟.

فلو أُفترض التدخل -ولو بمقدار ذرة- لاختلط الانتظام والتناسق واختلّ النظام والميزان!. مع العلم أن هذا الكون قد أُبدع إبداعاً رائعاً إلى حد يلزم لِخَلْق بذرة واحدة قدرةٌ قادرة على خلق شجرة كاملة، ويلزم لخلق شجرة واحدة قدرة قادرة لإبداع الكون كله. وإذا ما افتُرض وجود شريك في الكون كله وَجَب أن يظهر نصيبهُ في التدخل لخلقِ أصغر بذرة مثلاً -إذ البذرة نموذج الكائنات- وعندئذ يلزم استقرار ربوبيتين -لا يسَعهما الكونُ العظيم- في بذرة صغيرة، بل في ذرة!! وهذا من أسخف المحالات والخيالات الباطلة وأبعدِها عن المنطق والعقل.

فاعلم من هذا، ما أتفهَ الشرك والكفر من خرافة! وما أكذبَهما من كلمة! وما أفظعهما من افتراء! إذ يقتضيان عجز القدير المطلق الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا، والذي بيده مقاليد السماوات والأرض يديرهما بميزان عدله ونظام حكمته.. يقتضيان عجزَه سبحانه حتى في بذرة صغيرة!! واعلم! أن أصوبَ التوحيد من حق وحقيقة! وما أعدلَه من صدق وصواب! أدرك هذا وذاك وقل: الحمد لله على الإيمان.

النقطة الثالثة:

إنَّ الصانع القدير باسمه «الحَكَم والحكيم» قد أدرج في هذا العالم ألوفَ العوالم المنتظمة البديعة، وبوّأ الإنسان -الذي هو أكثرُ من يمثل الحِكَم المقصودة في الكون وأفضل مَن يظهرها- موقعَ الصدارة، وجعله بمثابة مركز تلك العوالم ومحورِها؛ إذ يتطلع ما فيها من حِكَم ومصالح إلى الإنسان. وجعل الرزق بمثابة المركز في دائرة حياة الإنسان؛ فتجد أن معظمَ الحِكَم والغايات وأغلبَ المصالح والفوائد -ضمن عالم الإنسان- تتوجه إلى ذلك الرزق

وتتضح به؛ لذا فإن تجليات اسم «الحكيم» تبدو واضحةً بأبهر صورها وأسطعها من خلال مشاعر الإنسان، ومن تضاعيف مذاقات الرزق، حتى غدا كل علم -من مئات العلوم التي توصّل الإنسان إلى كشفها بما يملك من شعور- يُعرِّف تجلياً واحداً من تجليات اسم «الحَكَم» في نوع من الأنواع.

فمثلا: لو سُئل علم الطب: ما هذه الكائنات؟. لأجاب: بأنها صيدلية كبرى أُحضرت فيها بإتقان جميعُ الأدوية وادُّخرَت.

وإذا ما سُئل علم الكيمياء: ما هذه الكرة الأرضية؟. لأجاب: بأنها مختبر كيمياء منتظم بديع كامل.

على حين يجيب علم المكائن: بأنها معمل منسَّق كاملٌ لا ترى فيه نقصاً.

كما يجيب علم الزراعة: بأنها حديقة غنَّاء ومزرعة معطاء، تُستنبت فيها أنواعُ المحاصيل، كلٌّ في أوانه.

ولأجاب علم التجارة: بأنها معرض تجاري فخم، وسوق في غاية الروعة والنظام، ومحل تجاري يحوي أنفس البضائع المصنوعة وأجودَها.

ولأجاب علم الإعاشة: بأنها مستودع ضخم يضم الأرزاق كلها بأنواعها وأصنافها.

ولأجاب علم التغذية: إنها مطبخٌ رباني تُطبخ فيه مئات الألوف من الأطعمة الشهيَّة اللذيذة جنباً إلى جنب بنظام في غاية الإتقان والكمال.

ولو سئل علم العسكرية عن الأرض!. لأجاب: بأنها معسكر مهيب يُساق إليه في كل ربيع جنودٌ مسلحون جُدد يؤلّفون أمماً مختلفة من النباتات والحيوانات يبلغ تعدادها أكثرَ من أربعمائة ألف أمة، فتُنصَب خِيَمُهم في أرجاء سطح الأرض. وعلى الرغم من أن أرزاقَ كلِّ أمَّة تختلف عن الأخرى، وملابسَها متغايرةٌ وأسلحتَها متباينةٌ، وتعليماتِها مختلفةٌ، ورُخَصها متفاوتة، إلّا أن أمورَ الجميع تسير بانتظام رائع، ولوازمَ الجميع تُهيّأ دون نسيان ولا التباس، وذلك بأمر من الله تعالى وبفضل رحمته السابغة صادراً من خزينته الواسعة.

وإذا ما سئل علم الكهرباء! لأجاب: بأن سقف قصر الكون البديع هذا قد زُيِّن بمصابيح

متلألئة لا حدَّ لكثرتها ولا منتهى لروعتها وتناسقها، حتى إن النظام البديع والتناسق الرائع الذي فيه يحولان دون انفجار تلك المصابيح السماوية المتوهجة دوماً -وهي تكبر الأرضَ ألف مرة وفي مقدمتها الشمس- ودون انتقاص توازنها أو نشوب حريق فيما بينها..

تُرى من أي مصدرٍ تُغذّى تلك المصابيح التي لا يحد ولا ينفد استهلاكُها؟. ولِمَ لا يختل توازن الاحتراق؟ علماً أن مصباحاً زيتياً صغيراً إن لم يُراعَ ويُعتنَ به باستمرار ينطفئ نورُه ويخبُ.. فسبحانه من قدير حكيم ذي جلال كيف أوقد الشمس التي هي أضخم من الأرض بمليون مرة ومضى على عمرها أكثر من مليون سنة -حسب ما توصل إليه علم الفلك- دون أن تنطفئ ومن دون وقود أو زيت..[1] تأمل في هذا وسبّح باسم ربك العظيم وقل: «ما شاء الله، تبارك الله، لا إله إلّا الله».. قُلها بعدد الثواني التي مرت على عمر الشمس.. فلا شك أن نظاماً بديعاً صارماً هو الذي يهيمن على هذه المصابيح السماوية المتلألئة ولابد أن رعايتها، ومراقبتَها دقيقة، حتى كأن مصدرَ الحرارة -والمرجل البخاري- لتلك الكتل النارية التي هي في منتهى الضخامة وفي غاية الكثرة، إنما هي جهنمُ لا تنفد حرارتُها وترسلها إلى الكل مظلمة قاتمة بلا نور. وكأن ماكنة تلك المصابيح المنورة والقناديل المضيئة التي لا تعد ولا تحصى هي جنةٌ دائمة يرسل إليها النور والضياء فيستمر اشتعالها المنتظم بالتجلي الأعظم لاسم «الحكم والحكيم».

وهكذا قياساً على هذه الأمثلة، فإن كل علمٍ من مئات العلوم يشهد قطعاً: أن هذا الكون قد زُيِّن بحِكَمٍ ومصالحَ شتى ضمن انتظام كامل لا نقص فيه، وأن تلك الأنظمة البديعة والحِكَم السامية النابعة من تلك الحكمة المعجزة المحيطة بالكون قد أُدرجت بمقياس أصغر، حتى في أصغر كائن حي وفي أصغر بذرة..

ومن المعلوم بداهة أن تتبعَ الغاياتِ وإردافَ الحِكَم والفوائد بانتظام لا يحصل إلّا بالإرادة والاختيار والقصد والمشيئة، وإلّا فلا. فكما أن هذا العمل البديع ليس هو من شأن

(١) إذا ما حُسب ما يلزم مدفأة قصر الكون ومصباحه وهو الشمس كم تحتاج يومياً من الوقود ومن الزيت للإضاءة، نرى أنها بحساب الفلكيين بحاجة إلى مليون ضعف حجم الكرة الأرضية من الوقود و ألوف الأضعاف من حجم البحار من الزيوت. فتأمل في عظمة الخالق القدير ذي الجلال الذي يوقد تلك المدفأة ويشعل ذلك السراج الوهاج من دون وقود ولا زيت، ويشعلها بلا انقطاع. تدبّر في سعة حكمته وطلاقة قدرته، وقل: سبحان الله.. ما شاء الله.. تبارك الله.. بعدد ذرات الشمس. (المؤلف).

الأسباب والطبيعة -اللتين لا تملكان إرادةً ولا اختياراً ولا قصداً ولا شعوراً- فلن يكون لهما تدخلٌ فيه كذلك؛ لذا فما أجهلَ مَن لا يعرف أو لا يؤمن بالفاعل المختار وبالصانع الحكيم الذي تدل عليه هذه الأنظمةُ البديعة والحِكَم الرفيعة التي لا حدَّ لها وهي مبثوثة في موجودات الكون قاطبة.

نعم، إنْ كان هناك شيء يُستَغرب منه ويُثير عند الإنسان العَجب في هذه الدنيا فإنما هو: إنكارُ وجوده سبحانه؛ لأن الانتظام بأنواعه البديعة التي لا تعد والحِكَم بأشكالها السامية التي لا تحصى والمندرجة في كل موجود في الكون شواهدُ صادقة على وجوب وجوده سبحانه وعلى وحدانيته.. فبُعداً لعمىً ما بعده عمى! وسُحقاً لجهلٍ ما بعده جهل لمن لا يرى هذا الرب الحكيم سبحانه! حتى يمكنني القول: إن السوفسطائيين الذين يُعَدّون حمقى لإنكارهم وجود الكون، هم أعقلُ أهلِ الكفر؛ لأن الاعتقاد بوجود الكون ومن بعده إنكارُ خالقه -وهو الله سبحانه- غير ممكن قطعاً، ولا يُقبل أصلاً، لذا بدأوا بإنكار الكون وأنكروا وجودهم أيضاً، وقالوا: لا شيء موجود على الإطلاق. فأبطلوا عقولهم، وأنقذوا أنفسهم باقترابهم شيئاً إلى العقل من متاهة الحماقة غير المتناهية للمنكرين الجاحدين الحمقى المتسترين تحت ستار العقل!

النقطة الرابعة:

مثلما أُشير في «الكلمة العاشرة» إلى أنه: إذا ما شيَّد معماريٌ بارع حكيم قصراً منيفاً، وأودع في كل حجر من أحجاره مئات الحِكَم والمصالح والفوائد، فلا يتصور مَن له شعور أن لا يبني له سقفاً يحفظه من البلى والفساد؛ لأن هذا يعني تعريض البناء للعدم والتلف وضياع تلك الفوائد والحكم التي كان يرعاها ويتولاها، وهذا ما لا يرضى به ذو شعور. أو أن حكيماً مطلقاً يُنشئ من درهم من البذور مئات الأطنان من الفوائد والحكم والغايات، ويتعقبها ويديرها، لا يمكن أن يَتَصور مَن له عقل صدور العبث والإسراف المنافيين كلياً للحكمة المطلقة من ذلك الحكيم المطلق فيقلّد الشجرة الضخمة فائدة جزئية، وغاية تافهة وثمرة قليلة، علماً أنه ينفق لإنشائها وإثمارها الكثير!..

نعم، فكما لا يمكن أن يتصور هذا أو ذاك عاقلٌ قط، كذلك لا يمكن أن يتصور مَن له مسكةُ عقل أن يصدُر من الصانع الحكيم العبثُ والإسراف بعدم إتيان الآخرة وبعدم إقامته

الحشر والقيامة بعد أن قلّد كل موجود في قصر الكون هذا مئاتٍ من الحكم والمصالح وجهّزه بمئاتِ الوظائف -حتى إنه قلّد كل شجرة حِكماً بعدد ثمارها ووظائفَ بعدد أزهارها- فلا يمكن أن يتوارد على خاطر عاقل أن يضيّع هذا الحكيمُ الجليل جميعَ هذه الحِكم والمقاصد وجميعَ هذه الوظائف بعدم إقامته القيامة والآخرة. إذ يعني هذا إسنادَ العجز التام إلى قدرة القدير المطلق، وتنسيبَ العبث والضياع إلى الحكمة البالغة للحكيم المطلق، وإرجاعَ القبح المطلق إلى جمال رحمة الرحيم المطلق، وإسنادَ الظلم المطلق إلى العدالة التامة للعادل المطلق، أي إنكارَ كل من الحكمة والرحمة والعدالة الظاهرة المشاهدة، إنكارَها كلياً من الوجود! وهذا من أعجب المحالات وأشدها سخفاً وأكثرها بطلاناً!.

فليأتِ أهل الضلالة، ولينظروا إلى ضلالتهم كيف أنها مظلمةٌ مليئة بالعقارب والحيات كقبورهم التي سيصيرون إليها! وليدركوا أن طريق الإيمان بالآخرة منوَّرٌ جميل كالجنة فليسلكوه ولينعَموا بالإيمان.

النقطة الخامسة: وهي مسألتان:

المسألة الأولى: إنَّ تعقبَ الصانع الجليل - بمقتضى اسم «الحكيم» لألطف صورة في كل شيء وأقصر طريق، وأسهل طراز، وأنفع شكل.. يدل دلالة واضحة على أن الفطرة لا إسراف فيها قط ولا عبث، فما من شيء إلّا وفيه نفعَه وجدواه، وإن الإسراف مثلما ينافي اسم «الحكيم» فالاقتصاد لازمُه ومقتضاه ودستوره الأساس.

فيا أيها المسرف المبذّر! اعلم مدى مجانبتك الحقيقةَ بقعودك عن تطبيق أعظم دستور للكون المبني على الاقتصاد. وتدبّر الآية الكريمة: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ﴾ (الأعراف: ٣١) لتعلم مدى رسوخ الدستور الواسع الشامل الذي ترشد إليه.

المسألة الثانية: يصح أن يقال: إنَّ اسم الله «الحكم والحكيم» يقتضيان بداهة نبوة محمد ﷺ ورسالته، ويدلان عليها ويستلزمانها.

نعم، مادام الكتابُ البليغ بمعانيه ومراميه، يقتضي بالضرورة معلماً بارعاً لتدريسه.. والجمالُ الفائق يقتضي مرآةً يتراءى فيها، ويُري بها جمالَه وحُسنه.. والصنعةُ البديعة

تستدعي منادياً داعياً إليها.. فلابد أن يوجد بين بني البشر الذي هو موضع خطاب كتاب الكون الكبير المتضمن مئات المعاني البليغة والحِكَم الدقيقة في كل حرف من حروفه، أقول: لابد أن يوجد رائدٌ أكمل، ومعلمٌ أكبر، ليرشدَ الناس إلى ما في ذلك الكتاب الكبير من حِكم مقدّسة حقيقية.. وليعلّمَ وجود الحِكَم المبثوثة في أرجائه ويدل عليها.. وليكون مبعث ظهور المقاصد الربانية في خلق الكون، بل السبب في حصولها.. وليرشدَ إلى ما يريد الخالق إظهارَه من كمال صنعته البديعة، وجمال أسمائه الحسنى، فيكون كالمرآة الصافية لذلك الكمال البديع والجمال الفائق.. ولينهضَ بعبودية واسعة -باسم المخلوقات قاطبة- تجاه مظاهر الربوبية الواسعة، مثيراً الشوقَ وناثراً الوجدَ في الآفاق براً وبحراً ملفتاً أنظار الجميع إلى الصانع الجليل بدعوةٍ ودعاء، وتهليل وتسبيح وتقديس، ترنّ به أرجاء السماوات والأرض.. وليقرع أسماعَ جميع أرباب العقول بما يلقّنه من دروس مقدسة سامية وإرشادات حكيمة من القرآن الحكيم.. وليبيّن بأجمل صورة وأجلاها بالقرآن العظيم المقاصد الإلهية لذلك الصانع الحكم الحكيم.. وليستقبل بأكمل مقابلة وأتمّها مظاهرَ الحكمة البالغة والجمال والجلال المتجلية في الآفاق. فإنسانٌ هذه مهمتُه، إنسان ضروري وجودُه، بل يستلزمه هذا الكون، كضرورة الشمس ولزومها له.

فالذي يؤدي هذه المهمات، وينجز هذه الوظائف على أتم صورة ليس إلّا الرسول الأكرم ﷺ كما هو مشاهَد؛ لذا فكما تستلزم الشمسُ الضوءَ، ويستلزم الضوءُ النهارَ، فالحِكَم المبثوثة في آفاق الكون وجنباته تستلزم نبوةَ محمد ﷺ ورسالته.

نعم، مثلما يقتضي التجلي الأعظم لاسم «الحَكم والحكيم» -في أوسع مداه- الرسالة الأحمدية، فإن أغلب الأسماء الحسنى؛ «الله، الرحمن، الرحيم، الودود، المنعم، الكريم، الجميل، الرب» وأمثالَها، تستلزم الرسالة الأحمدية في أعظم تجلياتها وإحاطتها بالكون كله، استلزاماً قاطعاً لا ريب فيه.

فمثلاً: إنَّ الرحمة الواسعة التي هي تجلي اسم «الرحيم» تظهر بوضوح بمَن هو رحمة للعالمين.. وإن التحبب الإلهي، والتعرف الرباني -اللذين هما من تجليات اسم «الودود»- يفضيان إلى نتيجتهما ويجدان المقابلة بحبيب رب العالمين.. وإن جميع أنواع الجمال: من جمال

الذات إلى جمال الأسماء، وجمال الصنعة والإتقان، وجمال المصنوعات والمخلوقات، كل أنواع الجمال -التي هي تجلٍ من تجليات اسم الجميل- تشاهَد في تلك المرآة الأحمدية، وتُشهد بها.. بل حتى تجليات عظمة الربوبية، وهيمنة سلطنة الألوهية إنما تُعرف برسالة هذا الداعية العظيم إلى سلطان الربوبية وتتبين بها، وتُفهم عنها، وتؤخذ منها وتُصدّق بها.. وهكذا فأغلب الأسماء الحسنى إنما هي برهان باهر على الرسالة الأحمدية كما مر آنفاً..

نحصل مما سبق: أنه ما دام الكون موجوداً بالفعل ولا يمكن إنكاره، فلا يمكن أن يُنكَر كذلك ما هو بمثابة ألوانِه وزينته، وضيائه وإتقانه، وأنواع حياته، وأشكال روابطه من الحقائق المشهودة، كالحكمة، والعناية، والرحمة، والجمال، والنظام، والميزان، والزينة، وأمثالها من الحقائق.. فمادام لا يمكن إنكار هذه الصفات والأفعال، فلا يمكن إنكار موصوف تلك الصفات، ولا يمكن إنكار فاعل تلك الأفعال ونور شمس تلك الأضواء، أعني ذات الله الأقدس جلّ جلالُه الواجب الوجود، الذي هو «الحكيم، الرحيم، الجميل، الحكم، العدل».. وكذا لا يمكن إنكارُ مَن هو مدارٌ لظهور تلك الصفات والأفعال، بل مَن هو مدارٌ لعرض كمالاتها، بل تحقق تجلياتها، ذلكم الرسول الكريم محمد ﷺ، الرائد الأكبر، والمعلم الأكمل، والداعية الأعظم، وكشاف طلسم الكائنات، والمرآة الصمدانية، وحبيب الرحمن.. فلا يمكن إنكار رسالته قطعاً، لأنها أسطع نور في هذا الكون كسطوع ضياء عالم الحقيقة ونور حقيقة الكائنات.

عليه وعلى آله وصحبه الصلاة والسلام بعدد عاشرات الأيام وذرات الأنام.

﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾

النكتة الرابعة
تخص اسم الله
الفرد



﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (الإخلاص:١)

بينما أنا نزيل سجن «أسكي شهر» في شهر شوال إذ تراءت لي نكتة دقيقة من النكات اللطيفة لهذه الآية الجليلة، ولاح لي قبسٌ من أنوار اسم الله الأعظم: «الفرد» -أو هو أحد أنواره الستة- الذي يتضمن اسمَي «الواحد والأحد» من الأسماء الإلهية الحسنى.

سنبين هنا باختصار شديد التوحيد الحقيقي الذي يُظهره ذلك التجلي الأعظم. وذلك في سبع إشارات موجزة.

الإشارة الأولى:

لقد وضع اسمُ الله الأعظم «الفرد» بتجليه الأعظم على الكون كلِّه بصماتِ التوحيد المميز، وأختامَ الوحدانية الواضحة، على مجموع الكون، وعلى كل نوعٍ فيه، وعلى كل فردٍ فيه. ولما كانت «الكلمة الثانية والعشرون» و«المكتوب الثالث والثلاثون» قد تناولا بيان ذلك التجلي بشيء من التفصيل، نكتفي بالإشارة فقط إلى ثلاث بصماتٍ وأختام منها دالّة على التوحيد:

الختم الأول: إن التجلي الأعظم للفردية قد طبع على وجه «الكون» كلِّه طابعاً مميزاً للتوحيد، وختماً واضحاً للوحدانية وضوحاً حوّل الكون كلَّه بحُكم «الكل» الذي لا يقبل التجزئة مطلقاً بحيث إن مَن لا يقْدِر على أن يتصرف في الكون كلِّه لا يمكن أن يكون مالكاً مُلكاً حقيقياً لأي جزء منه. ولنوضح هذا الختم المميز:

إنَّ موجودات الكون، بأنواعها المختلفة، تتعاون فيما بينها تعاوناً وثيقاً، ويسعى كلّ جزء منها لتكملة مهمةِ الآخر وكأنها تمثل بمجموعها وأجزائها تروسَ معمل بديع ودواليبَه -الذي يشاهد فيه هذا التعاون بوضوح- فهذا التساند، وهذا التعاون بين الأجزاء، وهذه الاستجابة في إسعاف كلٍّ منها لطلب الآخر، وإمداد كلٍّ جزء للجزء الآخر، بل هذا التعانق والاندماج بين الأجزاء، يجعل من أجزاء الكون كله وحدةً متحدة تستعصي على الانقسام والانفكاك. يشبه في هذا وحدةَ أجزاء جسم الإنسان الذي لا يمكن فكّ بعضها عن البعض الآخر.

نفهم من هذا أن الذي يمسك زمام عنصر واحد في الوجود، إنْ لم يكن زمام جميع العناصر بيده لا يستطيع أن يسيطر على ذلك العنصر الواحد أيضاً. إذن فـ«التعاون» و«التساند» و«التجاوب» و«التعانق» الواضحة على وجه الكون، إنما هي أختامٌ كبرى وبصمات ساطعة للتوحيد.

الختم الثاني: إنَّ التجلي الباهر لاسم الله «الفرد» يجعلنا نُشاهد -على وجه الأرض ولاسيما في الربيع- ختماً لامعاً للأحدية، وآيةً جلية للوحدانية بحيث إن من لا يدير جميع الأحياء على وجه الأرض كلها بأفرادها وأحوالها وشؤونها كافة، والذي لا يرى ولا يخلق ولا يعلم جميعها معاً، لا يمكن أن يكون له تدخل في أي شيء من حيث الإيجاد. فلنوضح هذا الختم:

تأمل في هذه البُسُط المفروشة على الأرض التي لُحمتُها وسَداها مائتا ألف طائفة ونوع من أنواع الحيوانات وطوائف النباتات بأفرادها المتنوعة التي لا تعد ولا تحصى والتي تضفي الزينة وتنثر البهجة على نسيج الحياة على سطح الأرض -وبخاصة في الربيع- تأمّلها جيداً وأدِم النظر فيها، فإنها مع اختلاف أشكالها، وتباين وظائفها، واختلاف أرزاقها وتنوع أجهزتها، وامتزاجها بعضها مع البعض الآخر تشاهِد: إنَّ رزق كل ذي حياة يأتيه رغداً من كل مكان ومن حيث لا يحتسب، بلا سهو ولا نسيان، بلا انشغال ولا ارتباك، بلا خطأ ولا التباس.. فيعُطى بميزان دقيق حساس كل ما يحتاجه الفرد، في وقته المناسب، من دون تكلف ولا تكليف، مع تمييز لكلٍ منها، وهو يموج في هذا الامتزاج الهائل وفي هذا الخضم من

الموجودات المتداخلة، فضلاً عما يُخْبِئ باطنُ الأرض من آيات التوحيد الرائعة المتلمعة من انتظام المعادن والعناصر الجامدة.

لذا فإن هذا «التدبير والإدارة» المشاهد في هذا الأمر الدائب على وجه الأرض وباطنها إنما هو آية ساطعة للأحدية، وختمٌ واضح للوحدانية، بحيث إن مَن لم يكن خالقاً لجميع تلك الموجودات من العدم، ومدبّراً لجميع شؤونها في آن واحد، لا يقدر على التدخل -من حيث الربوبية والإيجاد- في شيء منها، لأنه لو تدخل لأفسد تلك الإدارة المتوازنة الواسعة. إلّا ما يؤديه الإنسان من وظيفة ظاهرية -بإذن إلهي أيضاً- لكشف تلك القوانين الربانية وحُسن سيرها.

الختم الثالث: في وجه الإنسان

إنَّ شعار التوحيد وختمَه واضح وضوحاً بيناً لكل مَن يتأمل وجهَ أي إنسان كان، وذلك: أنَّ لكل إنسان علامةً فارقة في وجهه تُميِّزه عن غيره. فالذي لا يستطيع أن يضع تلك العلامات في كل وجه، ولا يكون مطّلعاً على جميع الوجوه السابقة واللاحقة منذ آدم عليه السلام إلى يوم القيامة، لا يمكنه أن يمدّ يدَه من حيث الخلق والإيجاد ليضع تلك الفوارق المميّزة الهائلة في ذلك الوجه الصغير لإنسان واحد.

نعم، إنَّ الذي وضع في وجهِ الإنسان ذلك الطابع المميز وتلك الآية الجلية بتلك العلامات الفارقة، لا بد أن أفراد البشر كافة هم تحت نظره وشهوده، وضمنَ دائرة علمه حتى يضع ذلك الختمَ للتوحيد في ذلك الوجه. بحيث إنه مع التشابه الظاهر بين الأعضاء الأساس -كالعيون والأنوف وغيرها من الأعضاء- لا تتشابه تشابهاً تاماً، بسبب علامات فارقة في كلٍ منها. وكما أن تشابه الأعضاء -من عيون وأنوف- في وجوه البشر كافة دليل قاطع على وحدانية خالق البشر سبحانه وتعالى، كذلك فإن العلامات الفارقة الموضوعة على كل وجهٍ -لصيانة حقوق كل فرد في المجتمع، ولمنع الالتباس، وللتمييز، ولحِكَم أخرى كثيرة- هي الأخرى دليلٌ واضح على الإرادة المطلقة والمشيئة الكاملة لذلك الخالق الواحد سبحانه وتعالى، وآيةٌ بديعة جلية أيضاً للأحدية، بحيث إن من لا يَقدر على خلق جميع البشر والحيوانات والنباتات بل جميع الكون لا يمكنه أن يضع تلك السمة المميزة في أحد.

الإشارة الثانية:

إنَّ عوالم الكائنات المختلفة وأنواعها المتنوعة وعناصرها المتباينة قد اندمجت اندماجاً كلياً وتداخل بعضُها مع البعض الآخر، بحيث إنَّ مَن لم يكن مالكاً لجميع الكون لا يمكنه أن يتصرف بنوعٍ منه أو عنصر فيه تصرفاً حقيقياً، لأن تجلي نورِ التوحيد لاسم الله «الفرد» قد أضاء أرجاء الكون كله، فضمّ أجزاءها كافة في وحدة متحدة، وجعل كل جزء منه يعلن تلك الوحدانية.

فمثلاً: كما أن كون الشمس مصباحاً واحداً لهذه الكائنات يشير إلى أن الكائنات بأجمعها ملكٌ لواحد، فإن كونَ الهواء هواءً واحداً يسعى لخدمة الأحياء كلها.. وكونَ النار ناراً واحدة توقد بها الحاجات كلها.. وكون السحاب واحداً يسقي الأرض.. وكون الأمطار واحدة تأتي لإغاثة الأحياء كافة.. وانتشار أغلب الأحياء من نباتات وحيوانات انتشاراً طليقاً في أرجاء الأرض كافة مع وحدة نوعيتها، ووحدة مسكنها.. كل ذلك إشارات قاطعة وشهادات صادقة على أن تلك الموجوداتِ ومساكنَها ومواضعَها إنما هي ملكٌ لمالك واحدٍ أحد.

ففي ضوء هذا وقياساً عليه نرى: أن تداخل الأنواع المختلفة للكائنات واندماجها الشديد ببعضها قد جعل مجموعَها بمثابة كلٍ واحد لا يقبل التجزئة قطعاً من حيث الإيجاد. فالذي لا يستطيع أن يُنفّذ حكمَه على جميع الكون لا يمكنه -من حيث الخلق والربوبية- أن يُخضِع لربوبيته أيَّ شيء فيه، حتى لو كان ذلك الشيء ذرةً أو أصغر منها.

الإشارة الثالثة:

لقد تحوّل الكون كلُّه بالتجلي الأعظم لاسم الله «الفرد» إلى ما يشبه رسائل صمدانية ومكاتيب ربانية متداخلة بعضها في البعض الآخر، تزخر كلُّ رسالة منها بآيات الوحدانية وأختام التوحيد، وتحمل كل رسالة بصماتِ الأحدية بعدد كلماتها، بل إن كل كلمة فيها تُفصح عن وحدانية كاتبها؛ إذ كما يدل الختمُ أو التوقيع في الرسالة على كاتبها، فإن كل زهرة وكل ثمرة، وكل عشب، وكل حيوان، وكل شجر، إنما يمثل ختمَ الأحدية وطغراء الصمدانية وكأنها أختام لمواضعها التي تتخذ هيئة الرسائل فتبين كاتبَها. فزهرةٌ صفراء -مثلاً- في حديقةٍ ما. هذه الزهرة هي بمثابة ختمٍ يدل بوضوح على مصوِّر الحديقة، فمَنْ كان مالكاً لذلك الختم

-الزهرة- فهو مالكٌ لجميع أنواع تلك الزهرة ومثيلاتها المبثوثة على الأرض كافة، ويدل أيضاً على أن تلك الحديقة كتابتُه. أي إن كل شيء يَسْنِدُ جميع الأشياء إلى خالقها ويشير إلى تجلٍ باهر عظيم لوحدانيته سبحانه.

الإشارة الرابعة:

لقد أوضحت «رسائل النور» في أجزائها الكثيرة ببراهين متعددة أن التجلي الأعظم لاسم الله الفرد مع أنه واضحٌ وضوح الشمس، فهو مقبول في الأعماق إلى حد السهولة المطلقة، وهو مستساغ عقلاً ومنطقاً إلى حد الوجوب والبداهة. وبعكسه الشرك المنافي لذلك التجلي، فهو معقّد إلى أقصى حدود التعقيد، وغير منطقي إطلاقاً، وهو بعيد جداً عن المعقول إلى حد المحال والامتناع. سنبين هنا ثلاث نقاط من تلك الأدلة فقط، ونحيل تفاصيلها إلى الرسائل الأخرى.

النقطة الأولى: لقد أثبتنا ببراهين قاطعة في ختام «الكلمة العاشرة» وفي «الكلمة التاسعة والعشرين» إثباتاً مجملاً، وفي ختام «المكتوب العشرين» مفصلاً أنه: من السهولة واليسر على قدرة «الأحد الفرد» سبحانه، خَلقُ أعظم جِرم، وخلقُ أصغرِ شيء على حدّ سواء، فهو سبحانه يخلق الربيعَ الشاسع بيُسرِ خلقِ زهرةٍ واحدة، ويُحدِث في كل ربيع بسهولة بالغة آلافاً من نماذج الحشر والنشور -كما هو مشاهَد- ويُراعي شجرة ضخمة باسقة بيُسر مراعاته فاكهةً صغيرة. فلو أُسنِد أيٌ من ذلك إلى الأسباب المتعددة، لأصبح خلقُ كلِّ زهرةٍ فيه من المشكلات ما للربيع الشاسع، وفي خَلقِ كل ثمرةٍ فيه من الصعوبات ما للشجرة الباسقة.

نعم، إن كان تجهيزُ الجيش بأكمله بالمؤَن والعتاد بأمر صادر من قائد واحد، من مصدر واحد، سهلاً وبسيطاً كتجهيز جندي واحد، يكون صعباً بل ممتنعاً أن يكون كل جندي يتجهز من معامل متفرقة ويتلقى الأوامر من إدارات متعددة كثيرة، إذ عندئذٍ يحتاج كل جندي إلى معامل بقدر أفراد الجيش بأكمله!!

فكما أن الأمرَ يسهل بالوحدة ويصعب بالكثرة هكذا، كذلك إذا أُسنِد الخلقُ والإيجاد إلى «الفرد الأحد» جل وعلا، فإن خلقَ أفراد غير محدودة لنوعٍ واحد يكون سهلاً كخلق فرد

واحد، بينما لو أُسنِد إلى الأسباب، فإن خلقَ كلَّ فردٍ يكون مُعضلاً وصعباً كخلق النوع الواسع الكثير.

أجل، إن الوحدانية والتفرد تجعل كلَّ شيء منتسباً ومستنداً إلى الذات الإلهية الواحدة، ويصبح هذا الانتساب والاستناد قوةً لا حدّ لها لذلك الشيء، حتى يمكنه أن يُنجز من الأعمال الجسيمة، ويولّد من النتائج العظيمة ما يفوق قوتَه الذاتية ألوفَ المرات معتمداً على سر ذلك الاستناد والانتساب. أما الذي لا يستند ولا ينتسب إلى صاحب تلك القوة العظمى ومالكِها «الفرد الأحد» فسينجز من الأعمال ما تتحمله قوتُه الذاتية المحدودة جداً، وتنحسر نتائجُها تبعاً لذلك.

فمثلاً: إن الذي انتسب إلى قائد عظيم واستند إليه بصفة الجندية، يصبح له هذا الانتساب والاستناد بمثابة قوةٍ ممدّة لا تنفد، فلا يضطر إلى حمل ذخيرته وعتاده معه، لذا قد يُقدِم على أسر قائد جيش العدو المغلوب مع آلافٍ ممن معه، بينما السائب الذي لم ينخرط في الجندية، مضطرٌ إلى حمل ذخيرته وعتاده معه، ومهما بلغ من الشجاعة فلا يستطيع أن يقاوم بتلك القوة إلّا بضعةَ أفراد من العدو، وقد لا يثبت أمامهم إلّا لفترة قليلة.

ومن هنا نرى أن قوة الاستناد والانتساب -التي في الفردية والوحدانية- تجعل النملة الصغيرة تقدم على إهلاك فرعون عنيد، وتجعل البعوضة الرقيقة تجهز على نمرود طاغية، وتجعل الميكروب البسيط يدمر باغياً أثيماً.. كما تمدّ البذرة الصغيرة لتحمِل على ظهرها شجرة صنوبر باسقة شاهقة.. كل ذلك باسم ذلك الانتساب وبسر ذلك الاستناد.

نعم، إن قائداً عظيماً شهماً يستطيع أن يستنفر جميعَ جنوده ويحشّدهم لإنقاذ جندي واحد وإمداده، والجندي بدوره يستشعر كأن جيشاً جراراً يسنده ويمدّه بقوة معنوية عالية حتى تمكّنه من أن ينهض بأعمال جسام باسم القائد. فالله سبحانه وتعالى (وله المثل الأعلى) لأنه فرد واحد أحد، فلا حاجة في أية جهة إلى أحد غيره، وإذا افترضت الحاجة في جهة ما، فإنه يستنفر الموجودات كلها لإمداد ذلك الشيء وإسناده، فيحشر سبحانه الكون كله لأجله.

وهكذا يستند كلُّ شيء إلى قوة عظيمة هائلة تملك مقاليد الكون بأسره.. وهكذا يستمد

كلُّ شيء في الوجود قوتَه من تلك القوة الإلهية العظيمة المطلقة.. من ذلك «الفرد الأحد» جلّ وعلا.

فلولا «الفردية».. لفقَد كل شيء هذه القوة الجبارة، ولسقط إلى العدم وتلاشت نتائجُه. فما تراه من ظهور نتائج عظيمة هائلة من أشياء بسيطة تافهة، ترشدنا بالبداهة إلى الفردية والأحدية. ولولاها لبقيت نتائجُ كلِّ شيء وثمارُه منحصرةً في قوته ومادته الضئيلة، وتصغر عندئذٍ النتائجُ بل تزول. ألا ترى الأشياء الثمينة النفيسة كالفواكه والخضر وغيرها مبذولة ومتوافرة أمامنا. ما ذلك إلّا بسر الوحدانية والانتساب وحشر جميع القوى، فلولا «الفردية» لما كنا نحصل بآلاف الدراهم ما نحصله اليوم من بطيخ أو رمان بدراهم معدودة. فكل ما نشاهده من بساطة الأمور والأشياء وسهولتها ورخصها وتوفرها إنما هي من نتائج الوحدانية وتشهد بالفردية.

النقطة الثانية: إن الموجودات تُخلَق وتظهر إلى الوجود بوجهين:

الأول: الخلق من العدم، وهو ما يعبَّر عنه بـ«الإبداع والاختراع».

الثاني: إنشاؤها من عناصر موجودة، وتركيبُها ومنحُ الوجود لها من أشياء حاضرة، أي بـ«التركيب والإنشاء».

فإذا نظرنا إلى الموجودات من زاوية سر الأحدية وتجلي الفردية، نرى أن خلقَها وإيجادَها يكون سهلاً وهيّناً إلى حد الوجوب والبداهة، بينما إن لم يُفوَّض أمرُ الخلق والإيجاد إلى الفردية والوحدانية، فستتعقد الأمور وتتشابك، وتظهر أمورٌ غير معقولة وغير منطقية إلى حد المحال والامتناع. وحيث إننا نرى الموجودات قاطبة تظهر إلى الوجود من دون صعوبة وتكلف، ومن غير عناء، وعلى أتم صورة وكيفية، يثبت لنا بداهة إذن تجلي الفردية، ويتبين لنا: أن كل شيء في الوجود إنما هو من إبداع «الأحد الفرد» ذي الجلال والإكرام.

نعم، إن أُسند أمرُ الخلق إلى «الفرد الواحد الأحد» يخلق كل شيء من العدم في لمح البصر وبكل سهولة ويسر، وبقدرته المطلقة العظيمة بآثارها المشهودة. ويقدّر لكل شيء بعلمِه المحيط المطلق ما يشبه قوالب معنوية وتصاميم غيبية.. فكل شيء عنده بمقدار.

فكما أن الجنود المطيعين في الجيش المنظم يُساقون لأخذ مواضعهم بأمر من القائد وحسب خطته الموضوعة في علمه، كذلك الذراتُ المطيعة للأوامر الربانية فإنها تساق بالقدرة الربانية -بكل سهولة ويسر- لتأخذ مواقعها وتحافظ عليها حسب تصميمٍ موجود، وصورةٍ موجودة، في مرآة العلم الإلهي الأزلي. حتى لو لزم جمعُ الذرات من الأنحاء المختلفة، فإن جميع الذرات المرتبطة بقانون العلم الإلهي المحيط، والموثوقة الصلة بدساتير القدرة الإلهية، تصبح بمثابة الجنود المنقادين في الجيش المنظم، فتأتي مسرعة بذلك القانون وبسَوق القدرة لأخذ مواقعها في ذلك القالب العلمي والمقدار القدري المحيطين بوجود ذلك الشيء. بل كما تظهر الصورةُ المثالية المتمثلة في المرآة على الورقة الحساسة في آله التصوير وتلبس وجوداً محسوساً خارجياً، وكما تظهر وتشاهَد الكتابة المخفية السرية بإمرار مادة كيماوية عليها. كذلك الأمر في صورة جميع الموجودات، وماهية جميع الأشياء الموجودة في مرآة العلم الإلهي الفرد الأحد، فإن القدرة الإلهية المطلقة تُلبسها -بكل سهولة ويسر- وجوداً خارجياً محسوساً، فتظهر للعيان في عالم الشهادة، بعد أن كانت في عالم المعنى والغيب.

ولكن إن لم يُسند أمر الخلق إلى الفرد الأحد فعندئذٍ يلزم لخلق ذبابة واحدة مسحُ سطح الأرض وتفتيشها وغربلة عناصرها جميعاً وذراتِها المعينة لوجودٍ معيّن ثم وزنها بميزان دقيق حساس، لوضع كل ذرة في موضعها المخصص لها، حسب قوالب مادية بعدد أجهزتها وأعضائها المتقنة، وذلك لكي يأخذ كل شيء مكانه اللائق به، فضلاً عن جلب المشاعر والأحاسيس الروحية الدقيقة واللطائف المعنوية من العوالم المعنوية والروحية بعد وزنها أيضاً بميزان دقيق حسب حاجة الذبابة!!

ألا يكون -بهذا الاعتبار- خلقُ ذبابة واحدة صعباً ممتنعاً كإيجاد جميع الكائنات؟! أليس فيه الصعوبات تلو الصعوبات والمحالات ضمن المحالات؟! لذا اتفق جميعُ أهل الإيمان والعلم: أنه لا يخلق من العدم إلّا الخالقُ الفرد سبحانه وتعالى. ولهذا لو فُوّض الأمر إلى الأسباب والطبيعة استلزم لوجود شيء واحد الجمعُ من أكثر الأشياء.

النقطة الثالثة: لقد أوردنا أمثلة كثيرة في رسائل شتى تشير إلى: أن إسناد الخلق إلى «الفرد الواحد الأحد» يجعل خلق جميع الأشياء سهلاً كالشيء الواحد، وبعكسه إذا أُسنِد إلى الطبيعة والأسباب فخلقُ الشيء الواحد يكون صعباً ممتنعاً كخلق جميع الأشياء.

نقتصر منها هنا على ثلاثة أمثلة فقط:

المثال الأول: إذا أُحيلت إدارة ألف جندي إلى ضابط واحد، وأُحيلت إدارةُ جندي واحد إلى عشرة ضباط، فإن إدارةَ هذا الجندي تكون ذات مشكلات وصعوبات بمقدار عشرة أضعاف إدارة تلك الفرقة من الجنود. وذلك: لأن الأمراء العديدين سيعادي بعضُهم بعضاً، وستتعارض أوامرُهم حتماً، فلا يجد ذلك الجندي راحةً بين منازعة أمرائه. بعكسه تماماً ذلك الضابط الذي يدير بأوامره فرقة كاملة من الجنود وكأنه يدير جندياً واحداً، وينفّذ خطته وما يريده من الفرقة بتدبيره كل شيء بسهولة ويسر، علماً أنه يتعذر الوصول إلى هذه النتيجة إذا تُرك الأمر إلى جنود سائبين.

المثال الثاني: إذا سُلّم أمر بناء قبة جامع أيا صوفيا إلى بنّاء ماهر، فإنه يقوم به بكل سهولة ويسر، بينما إذا سُلّم بناؤها إلى أحجارها، لزم أن يكون كلُّ حجرٍ حاكماً مطلقاً على سائر الأحجار، ومحكوماً لها في الوقت نفسه كي تأخذ القبةُ المعلقة الشامخة شكلَها! فبينما كان البنّاء الماهر يصرف جهداً قليلاً -لسهولة الأمر لديه- تصرف الآن مئات من البنّائين -الأحجار- أضعاف أضعاف ذلك الجهد من دون الحصول على نتيجة!!.

المثال الثالث: إنَّ الكرة الأرضية مأمورةٌ وموظفة من لدن «الفرد الواحد» سبحانه، وهي كالجندي المطيع لله الواحد الأحد، فحينما تستلم الأمر الواحد، الصادر من آمرها الأحد، تهبّ منتشية بأمر مولاها وتنغمر في جذبات وظيفتها في شوق عارم، وتدور كالمريد المولوي العاشق -عند قيامه للسماع- فتكون وسيلةً لحصول المواسم الأربعة، واختلاف الليل والنهار وظهور الحركات الرفيعة العظيمة، والكشف عن مناظر خلابة لقبة السماء المهيبة وتبديلها باستمرار كتبدل المشاهد السينمائية.. ويكون سبباً لحصول أمثال هذه النتائج الجليلة، حتى لكأنَّ الأرضَ هي القائد لتلك المناورة العسكرية المهيبة بين نجوم الكون.

ولكن إنْ لم يُسند الأمرُ إلى «الفرد الأحد» الذي أحاط بحاكمية ألوهيته وسلطان ربوبيته الكون كله، والذي ينفذ حكمُه وأمره في كل صغيرة وكبيرة في الوجود، فعندئذٍ يلزم وجودُ ملايين النجوم التي تكبر الأرض بألوف المرات، ولابد من أن تسير هذه النجومُ في مدار أكبر

وأوسع بملايين المرات من مدار الأرض كي تظهر تلك المناورة السماوية والأرضية وتلك النتائج نفسها التي تتولد من حركتي الأرض السنوية واليومية بكل سهولة ويسر.

وهكذا فإنَّ حصول هذه النتائج الجليلة الناشئة من حركتي الأرض حول محورها ومدارها -حركة تشبه حركات المولوي العاشق- يظهر لنا مدى السهولة والفطرية والبساطة في «الأحدية والفردية»، ويبين لنا في الوقت نفسه كم هي مملوءةٌ طريقُ الشرك والكفر بالمحالات التي لا حدَّ لها وبالأمور الباطلة غير المعقولة.

وبعد.. فلاحظ الآن بمنظار هذا المثال الآتي جهلَ المتشدقين بالطبيعة وعبّاد الأسباب، لتعلم في أي دَرَكٍ من وحل الحماقة يتمرغون وفي أي بيداءٍ وهمٍ يتيهون، وقِسْ عليه مدى بُعدِهم كل البعد عن ميدان المنطق والعقل السليم:

معمل عظيم.. كتاب رائع.. قصر مشيد.. ساعة دقيقة.. لا شك أن الذي صنع كلاً من هذه قد نظّمه ونسّقه بدقة وعناية، ويجيد إدارته ويرعاه، ولا شك أنه أراد في صنع كل منها إظهارَ محاسن صنعته وإبراز بدائع عمله. فإن أحال أحدُهم إدارة المعمل العظيم إلى دواليب المعمل نفسه، وفوّض بناءَ القصر المنيف إلى أحجار القصر نفسه، وأسند معاني الكتاب الجميلة إلى الحروف نفسها، فكأنه قد جعل كل جزء من أجزاء المعمل ذا قدرة عظيمة لتنظيم نفسه وغيره! وجعل كلَّ حرف من حروف الكتاب بل الورق والقلم شيئاً خارقاً يبدع الكتاب نفسه! أي إنه يحيل روعةَ الانتظام في المعمل إلى دواليب المعمل، ويسند جمالَ المعنى في الكتاب إلى توافق الحروف من تلقاء نفسها!!

أيّ هذرٍ هذا! وأيّ وَهْم! أليس الذي يتفوّه به بعيداً كل البُعد عن سلامة العقل؟ فالذين يحيلون أمر الخلق والإيجاد في هذا الكون البديع إلى الأسباب وإلى الطبيعة يهوون في جهل مركّب سحيق كهذا. وذلك لأن مظاهرَ الإبداع واضحة على الأسباب والطبيعة نفسها، فهي مخلوقةٌ كسائر المخلوقات. فالذي خلقها -على هذه الصورة البديعة- هو الذي يخلق آثارَها ونتائجها أيضاً، ويظهرها معاً.. فالذي خلق البذرة هو الذي أنشأ عليها شجرتَها، وهو الذي يخرج أثمارَها وأزهارها من أكمامها.. بينما إن لم يُسنَد خلقُ الأسباب والطبيعة مع آثارهما إلى «الواحد الأحد»، يلزم لوجود أنواع الأسباب وأنماط الطبيعة المختلفة، أنواعٌ من الأسباب

والطبيعة المنتظمة المنسقة المختلفة . وهكذا تستمر سلسلةٌ موهومة ممتنعة لا معنى لها ولا نهاية! وهذا من أعجب عجائب الجهل وأتعسه!!

الإشارة الخامسة:

لقد أثبتنا في مواضع متعددة من الرسائل وببراهين دامغة: أن الاستقلال والانفراد من أخص خصائص الحاكمية، حتى إن هذا الإنسانَ الذي هو عاجزٌ عجزاً شديداً، ولا يملك من الحاكمية سوى ظل باهت، نراه يردّ بكل قوة أيَّ فضول كان من الآخرين، ويرفض بكل شدة أي تدخل كان منهم في شؤونه، صوناً منه لاستقلاله وانفراده في الأمر. بل ذُكِر في التاريخ أن كثيراً من السلاطين قد سفكوا دماءً زكية لأبنائهم الأبرياء وإخوانهم الطيبين حينما شعروا بتدخلٍ منهم في شؤونهم.

إذن فالاستقلال والانفراد ورفضُ مداخلة الآخرين هو من أخصّ خصائص الحاكمية الحقة، لا فكاك لها عنه. بل هو لازمها ومقتضاها الدائم. فالحاكمية الإلهية التي هي في ربوبية مطلقة تردّ بكل شدة الشرك والاشتراك مهما كان نوعه، ولا تقبل تدخلاً ما من سواها قط. ومن هنا نرى القرآن الكريم يفيض في بيان التوحيد الخالص ويردّ الشرك والمشاركة بأسلوب شديد وبتهديد مروّع.. فكما اقتضت الحاكمية الإلهية -التي هي في الربوبية المطلقة- التوحيدَ والوحدانية بقطعية تامة، وأظهرت مقتضىً شديداً وداعياً قوياً لها، كذلك النظامُ المتقن والانسجامُ البديع المشاهَدان في الكون -ابتداءً من النجوم والنباتات والحيوانات والأرض والمعادن وانتهاء بالجزئيات والأفراد والذرات- كلٌّ منهما شاهدُ عدلٍ، وبرهان باهر على تلك الوحدانية والفردية، فلا يسمح قط لريبة أو لشبهة، إذ لو كان هناك تدخل مما سوى الواحد الأحد، لفسد هذا النظام البديع الرصين، واختل هذا التوازن المحكم المشاهَد في جميع أجزاء الكون، فصدق الله العظيم الذي قال: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (الأنبياء: ٢٢)

نعم، لو كان هناك أي تدخل مهما كان لظهرت آثارُه باديةً، إلّا أن الدعوة الصريحة في الآية الكريمة: ﴿ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ (الملك: ٣) تريك هذا النظام البديع بكل وضوح وجلاء حتى لا ترى ثغرةً ولا لبساً ولا نقصاً في جهة من الجهات ابتداءً من الذرات إلى المجرات.

إذن فالنظامُ الرصين في الكون، والانتظام الرائع في المخلوقات كافة، والموازنة الدقيقة بين الموجودات.. يظهر لنا التجليَ الأعظم لاسم الفرد ويشهد شهادةً واضحة على الوحدانية.

ثم إن أي مخلوق مهما كان صغيراً، إنما هو مثالٌ مصغر للكون كله ونموذجُه، وفهرسُه المختصر، بمقتضى تجلي الأحدية. فلا يكون مالكاً لذلك المخلوق الحي الصغير إلّا مَن كان بيده زمام الكون كله وله الأمر جميعاً. وحيث إن كل بذرة متناهية في الصغر ليست بأقلَّ إبداعاً في الخلق من شجرة ضخمة، وأن كل شجرة باسقة تضاهي في خلقها خلقَ الكائنات، وكل كائن حي صغير إنما هو بحكم عالَمٍ مصغّر وكونٍ صغير، فإن تجلي الأحدية هذا يجعل الشرك والاشتراك محالاً ممتنعاً.

ثم إن هذا الكون في ضوء هذا السر -سر الأحدية- ليس كلاً يستعصي على التجزئة وحدها، بل أيضاً هو كلّيٌّ من حيث الماهية، لا يقبل الانقسام والاشتراك والتجزئة وتدخّل الأيدي المتعددة قط. فإن كل جزء فيه بحكم جزئيٍّ وفردٍ منه، وكلُّ الكون هو بحكم الكلّي، فليس فيه موضع للاشتراك في أية جهة كانت.

فهذا التجلي الأعظم لاسم الفرد يثبت حقيقة التوحيد بهذا السر للأحدية، بدرجة البداهة.

نعم، كما أنَّ اندماجَ أنواعِ الكائنات واندغامَها فيما بينها، وتوجّهَ وظيفة كلٍّ منها إلى عموم الكائنات مثلما يجعل الكونَ كلًّا واحداً يستعصي على التجزئة قطعاً، من حيث الخلق والربوبية. كذلك الأفعال العمومية المحيطة بالكائنات والتي تظهر أثارُها وفعالياتُها في الكائنات عموماً تجعل الكونَ أيضاً كلاً واحداً -من حيث تداخلها ببعضها- حتى يرفض التجزئةَ ويردّها ردّاً قوياً. ولتوضيح ذلك نسوق المثال الآتي:

حالما تُوهب الحياةُ للكائن يظهر فعلُ الإعاشة والإرزاق فيه مباشرة. وضمن أفعال الإعاشة والإحياء هذه، يشاهَد مباشرةً فعلُ تنظيمِ جسدِ ذلك الكائن وتنسيق أعضائه، وتجهيزه بما يحتاج ويلزم. وحينما تظهر أفعالُ الإعاشةِ والإحياء والتنظيم والتجهيز يفعل التصويرُ والتربية والتدبير فعلَه في الوقت نفسه.. وهكذا.

فتداخلُ أمثال هذه الأفعال المحيطة العامة بعضِها بالبعض الآخر، وإتحادُها ببعضها،

وامتزاجُها كامتزاج الألوان السبعة في الطيف الشمسي، ثم إحاطةُ كل فعل من تلك الأفعال وشمولُه -مع وحدته من حيث الماهية- للموجودات كلها في وحدة واحدة، وكونُ كل فعلٍ منها فعلاً وحدانياً.. يدل دلالة واضحة على أن فاعلَه واحدٌ أحد فرد..

وكما أن استيلاءَ كل فعل -من تلك الأفعال- وهيمنتَه على الكائنات قاطبة، واتحادَه مع سائر الأفعال في تعاون وثيق، يجعل الكون كلاً غير قابل للتجزئة.. كذلك فإن كل مخلوق حي من حيث كونه بمثابة بذرةِ الكون وفهرسِه ونموذجِه يجعل الكون كلياً غير قابل للانقسام والتجزئة -من حيث الربوبية- بل يجعل انقسامه محالاً وخارجاً عن الإمكان، أي أن الكون بهذا هو كلٌّ لا يتجزأ، فلا يكون إذن ربُّ الجزء إلّا من كان ربّاً للكل. وهو كليٌّ أيضاً بحيث يكون كلُّ جزء منه بحكم فرد، فلا يكون ربّاً للفرد الواحد إلّا من كان زمام ذلك الكلي بيده.

الإشارة السادسة:

كما أن انفراد الله سبحانه وتعالى بالربوبية، وتوحيدَه بالألوهية هو أساس جميع الكمالات[1] ومنشأ المقاصد السامية، ومنبع الحِكَم المودَعة في خلق الكون، كذلك هو الغايةُ القصوى، والبلسمُ الشافي، لتطمين رغبات كل ذي شعور وذي عقل ولاسيما الإنسان، فلولا «الفردية» لانطفأت شعلةُ رغباته ومطالبه كلِّها وانمحت جميعُ الحِكَم المودَعة في خلق الكون، وتلاشت أكثرُ الكمالات الموجودة والثابتة وانعدمت.

فمثلا: إنَّ رغبة حبِّ البقاء بل عشقه، عميقةٌ في الإنسان.. هذه الرغبة العريقة لا يحققها ولا يسكّنها ويُطمئنُها إلّا مَن هو مالك لمقاليد الكون، الذي يفتح باب البقاء السرمدي أمام الإنسان بالآخرة، بعد أن يُنهي هذه الدنيا الفانية ويغلق أبوابَها كسهولة غلق غرفة وفتح أخرى.

وهناك رغبات أخرى كثيرة جداً للإنسان أمثال هذه الرغبة، كلُّها ممتدة إلى غير نهاية معلومة ومتشعبة في ثنايا الكائنات جميعاً.. فهذه الرغبات جميعُها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً

(١) حتى إن التوحيد هو نفسه أوضح برهان، وأسطع دليل على الكمال والجمال الإلهي، لأنه إذا عُرف أن صانع الكون واحد أحد، فسيُعرف جميع أنواع الكمال والجمال المشاهدة في الوجود، بأنها ظلال وتجليات وعلامات لأنواع الكمال المقدس وأنماط الجمال المنزّه لذلك الصانع الواحد الأحد لذلك الكمال المقدس والجمال المنزه، بينما إذا لم يُعرف الصانعُ الواحد، فستحال تلك الكمالات وأنواع الجمال إلى الأسباب التي لا شعور لها وإلى مخلوقات عاجزة، وعندها يحار العقل البشري أمام خزائن الكمال والجمال السرمديين، لأنه فقد مفتاح تلك الكنوز الخالدة. (المؤلف).

بحقيقة التوحيد، ومشدودة مع سر «الفردية». فلولا ذلك السرّ لبقيت هذه الرغبات عقيمةً دون نتائج، قاصرةً عن بلوغ مداها، مبتورة منكمشة. ولولا تصرف الواحد الأحد في الكون كله لما اطمأنّت ولا حصلت تلك الرغبات، ولو حصلت حصلت مبتورة.

فالإيمان بالوحدانية، وبقدرة «الفرد الواحد الأحد» المطلقة إذن هو وحدَه الكفيل بإحلال الطمأنينة والسكون في تلك الرغبات المتأججة لدى الإنسان. من أجل هذا السر العظيم نرى القرآن الكريم يذكر التوحيد والوحدانية بكل حرارة وشوق، ويكررها بكل حلاوة وذوق، وأن الأنبياء -عليهم السلام- والأصفياء والعلماء والأولياء الصالحين يجدون بغيتهم وذوقهم السامي، بل منتهى سعادتهم في أفضل ما قالوه: «لا إله إلّا هو».

الإشارة السابعة:

إنَّ هذا التوحيد الحقيقي، بجميع مراتبه، وبأتمّ صورته الكاملة، قد أثبته وأعلنه وفهّمه وبلّغه محمدﷺ، فلابد أن رسالته ثابتةٌ وقاطعة كقطعية ثبوت التوحيد نفسه؛ لأنه: لما كان التوحيدُ هو أعظم حقيقة في عالم الوجود، وأن الرسول الأعظم ﷺ هو الذي تولى تبليغَه وتعليمه بجميع حقائقه، فلابد أن جميع البراهين التي تثبت التوحيد، تكون بدورها براهينَ لإثبات رسالته وأدلةً على صدق نبوته وأحقّية دعوته ﷺ، فرسالةٌ كهذه الرسالة العظمى التي تضم أُلوفاً من أمثال هذه الحقائق السامية وتكشف عن حقيقة التوحيد وترشد إليه وتلقنه، لا شك أنها رسالة يقتضيها ذلك التوحيد وتلك الفردية. فمَن ذا غيرُ محمد ﷺ الذي أدّى الأمانة على أفضل وجه وبلّغ الرسالة على أجمل صورة؟.

سنذكر ثلاثة نماذج، مثالاً لتلك الأدلة الكثيرة والأسباب العديدة التي تشهد بعظمة الشخصية المعنوية لهذا النبي الكريم ﷺ وتدل على علوّ منـزلته الرفيعة، وتبيّن أنه السراج المنير لهذه الكائنات وشمسها الساطعة.

الدليل الأول: إنَّ ثواب جميع الحسنات التي ينالها جميعُ أفراد الأمة، وعلى مدى جميع العصور، مكتوبٌ مثلُه في صحيفة حسناته ﷺ، إذ هو السبب في نيل كل ثواب تناله أمتُه إلى يوم القيامة، حيث «السبب كالفاعل».. تأمل في هذا ثم فكّر في المقام المعظم اللائق الذي يقتضيه مجموعُ الأدعية غير المحدودة من الصلوات المقبولة المرفوعة يومياً من الأمة كافة..

تدرك عندئذٍ، درجته العالية الرفيعة وتفهم أن شخصيته المعنوية شمسُ الكائنات والسراج المنير للخلق أجمعين.

الدليل الثاني: إنَّ بذرة الشجرة الوارفة للإسلام، ومنشأها، وحياتَها، ومنبعها إنما هي حقيقة الماهية المحمدية، بما تملك من فطرة سامية، وخلقة كاملة. فتذكّر هذا ثم فكّر في الرقي الروحي لهذا الرسول الحبيب ﷺ النابع من استشعاره الكامل الأتم لجميع معاني عبادته، وأذكاره، وكلماته الشريفة ومراتبها، والذي يمثل بمجموعه روحَ الإسلام وحقيقتَه. لتعلم مدى علو مرتبة ولاية عبوديته ﷺ إلى الدرجة الرفيعة، درجة الحبيبية. وافهم مبلغَ سموّها.

ولقد فتح الله عليّ يوماً في سجدةٍ في صلاةٍ، بعض المعاني والأنوار المشعة من كلمة (سبحان ربي الأعلى) بما يقرب من فهم الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين من هذه الكلمة المقدسة. فتبين لي يقيناً أنها خيرٌ من عبادة شهر، فأدركتُ بها المنـزلة العظيمة والدرجة العالية التي يحظى بها الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين.

نعم، إنَّ الأنوار التي تشعها الكلماتُ المقدسة، وفيوضاتُها في بدء الإسلام لها مزايا خاصة، وذلك لجدّتها، ولها من اللطافة والطراوة واللذة ما تتناقص بمرور الزمن وتستتر تحت ستار الغفلة.

والآن، وفي ضوء ما سبق تأمل مكانة الرسول الكريم ﷺ الذي تناول الكلام المقدس، ورَشَفَه من المنبع الأقدس، واستوعب أنواره بالوحي الإلهي بكامل جدّتِه وطراوته ولطافته. مع ما فُطر عليه من استعداد كامل.. فالأنوار والفيوضات الكامنة في تسبيحةٍ واحدة منه ﷺ هي خيرٌ وأعمّ من جميع الأنوار التي تملأ أرجاء عبادة سنة كاملة عند غيره.!.

قِس على هذا المنوال، كي تعلم كم بلغ رسولُنا الحبيب ﷺ من درجات الكمال التي لا حد لها ولا نهاية.

الدليل الثالث: إنَّ الإنسان يمثل أعظم مقصد من المقاصد الإلهية في الكون، وهو المؤهَّل لإدراك الخطاب الرباني. وقد اختاره سبحانه من بين مخلوقاته، واصطفى من بين الإنسان المكرّم مَن هو أكملُ وأفضل وأعظم إنسان بأعماله وآثاره الكاملة، ليكون موضعَ خطابه الجليل باسم النوع الإنساني كافة، بل باسم الكائنات جميعاً. فلا ريب أن الله سبحانه

الفرد الجليل الذي هيأ رسوله الحبيب ﷺ لهذه المرتبة اللائقة به قد منحه من الأنوار والكمالات ما لا يحد بحدود.

وهكذا وبمثل هذه الدلائل الثلاثة ودلائل أخرى كثيرة يَثبت لدينا يقيناً: إن الشخصية المعنوية للرسول الكريم ﷺ، شمس معنوية ساطعة للكائنات. وسراج منير لامع لها، كما أنها الآية العظمى من قرآن الكون، والاسم الأعظم للفرقان الأعظم، ومرآة صافية للتجلي الأعظم لأنوار اسم «الفرد» عزّ وجل.

فاللّهم يا أحدُ، يا فردُ، يا صمدُ، أنزِل من بركات خزينة رحمتك التي لا تنفد صلواتٍ وسلاماً على تلك الذات النبوية الشريفة، بعدد ذرات الكون مضروباً بعدد عاشرات جميع أزمنة الكون.

﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾

النكتة الخامسة

اسم الله الأعظم

الحي

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الروم: ٥٠)

﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ (البقرة: ٢٥٥)

لقد تراءت في أفق عقلي نكتةٌ من النكات الدقيقة للآيتين المذكورتين، وتجلٍ من تجليات نور الاسم الأعظم «الحي» أو أحد نورَيه، أو أحد أنواره الستة، وذلك في شهر شوال عندما كنت في سجن أسكي شهر. فلم أتمكن من أن أثبّتها في حينه، ولم استطع أن أقتنص ذلك الطائر السامي، ولكن بعدما تباعد ذلك القَبسُ الوضيء اضطررت إلى الإشارة إليه بوضع رموزٍ ترمز إلى أشعةِ تلك الحقيقة الكبرى، وذلك النور الأعظم.

وسأشير إليها هنا باختصار:

الرمز الأول:

ما الحياة التي هي تجلٍ أعظم لاسم الله الحي المحيي؟ وما ماهيتها؟ وما مهمتها؟

جواب هذا السؤال نُدرجه على صورة فهرس، على النحو الآتي:

الحياة هي لهذه الكائنات:

أهم غاية..

وأعظمُ نتيجة..

وأسطع نور..

وألطفُ خميرة..

وأصفى خلاصة..

وأكملُ ثمرة..

وأسمى كمال..

وأزهى جمال..

وأبهى زينة..

وهي سرُّ وحدتها..

ورابطةُ اتحادها..

ومنشأ كمالاتها..

وهي أبدعُ ذاتِ روحٍ فيها، من حيث الإتقان والماهية..

وهي حقيقتُها المعجزة؛ تُصيِّر أصغرَ مخلوقٍ عالَماً بحدّ ذاته..

وهي أروعُ معجزات القدرة الإلهية؛ بجعلها الكائن الحي بمثابة كونٍ مصغر، فكأنها -أي الحياة- وسيلةٌ لانطواء الكائنات في ذلك الكائن الحي الصغير؛ بما تُظهر فيه ما يشبه فهرسَ الكون العظيم، كما تجعله في رباطٍ وثيق مع معظم الموجودات..

وهي صنعةٌ إلهية خارقة؛ تكبِّر الجزءَ الضئيل إلى أكبر كلٍّ، حتى إنها تجعل الفردَ بحكم العالَم وكأنه كلّي. وتَعرض الكونَ -من حيث الربوبية- في حكم الكلّ والكلّي الذي لا يقبل التجزئة والاشتراك والانقسام..

وهي أسطعُ برهانٍ ضمن ماهيات الكائنات، وأثبتُه وأكملُه، يشهد على وجوب وجوده سبحانه، وعلى أنه «الحي القيوم» ويدل على وحدته وأحديته جل وعلا..

وهي أبلغُ صورة لصنعة ربانية حكيمة -ضمن المصنوعات الإلهية- وأخفاها وأظهرُها وأثمنُها وأزهدها وأنزهُها وألمعها..

وهي ألطفُ تجلٍ للرحمة الإلهية وأرقُّها وأدقها؛ تجعل الموجودات خادمة لها..

وهي أجمعُ مرآةٍ تعكس الشؤون الإلهية للأنظار..

وهي أعجوبةُ الخلقة الربانية؛ إذ تجمع تجليات اسم «الرحمن، الرزاق، الرحيم، الكريم، الحكيم وأمثالِها من الأسماء الحسنى» وتجعل الحقائق الكثيرة والمشاهَدة كالرزق والحكمة والعناية والرحمة تابعةً لها، فتقودها، مثلما هي منشأ جميع المشاعر ومعدن الحواس العامة كالبصر والسمع والشعور..

وهي ماكنةُ تنظيفٍ عظيمة، وجهازُ استحالةٍ عجيبة في مصنع الكائنات حيث تقوم بالتصفية والتطهير في كل نواحيه؛ فتطهِّر الشيء وتمنحُه الرقيَ وتنوّره، وكأن الجسدَ الذي هو عشّ الحياة – دارُ ضيافةٍ لقوافل الذرات ومدرستُها ومعسكرُها؛ تتعلم فيه وظائفَها، وتتدرب على أعمالها، فتتنور وتضيء..

وهي وسيلة ينوّر بها «الحيُّ المحيي» سبحانه عالَم الدنيا المظلم الفاني السافل ويمنحه نوعاً من البقاء، ويجعله بماكنة الحياة لطيفاً مهيئاً للمضي إلى العالم الباقي..

ثم إن وجهَي الحياة، أي المُلك والملكوت، صافيان طاهران لا نقص فيهما، ساميان، وهي مخلوق خاص متميز عن كل خلق آخر لم توضَع لها الأسبابُ الظاهرة حُجباً لتصرفات القدرة الإلهية -كما هي في سائر الأشياء- وذلك ليكون أمرُ صدورها من يد القدرة الربانية مباشرة دون حُجب أو وسائط..

وحقيقة الحياة نورانية تتطلع إلى الأركان الإيمانية الستة وتثبتها معنىً ورمزاً، أي إنها تثبت وجودَ واجب الوجود سبحانه وحياته السرمدية.. والدارَ الآخرة وحياتها الدائمة.. ووجودَ الملائكة.. وتتوجه توجهاً كاملاً إلى إثبات سائر الأركان الإيمانية وتقتضيها..

وهي أصفى خلاصة مترشحة من الكائنات كلِّها كما أنها أعظم سِرّ يولّد الشكر والعبادة والحمد والمحبة التي هي أهم المقاصد الإلهية في الكون وأهم نتيجة لخلق العالم هذا.

تأمل هذه الخصائص المهمة القيّمة للحياة والبالغة تسعاً وعشرين خاصية، ودقق النظر في مهماتها السامية الشاملة، ثم انظر من وراء اسم «المحيي» إلى عظمة اسم «الحي» وأدرك كيف أن اسم «الحي» هو اسم الله الأعظم من حيث هذه الخصائص العظيمة للحياة، ومن حيث ثمارها ونتائجها، وافهم أيضاً أن للحياة غايةً كبرى كبرَ الكون ونتيجةً عظمى بعظمته ما دامت هي أعظم نتيجة لهذه الكائنات وأعظم غاية وأثمن ثمرة؟ لأن الثمرة مثلما هي نتيجة الشجرة، فنتيجة الثمرة شجرة قادمة بوساطة بذرتها.

نعم، إن غاية هذه الحياة ونتيجتَها هي الحياة الأبدية، كما أن ثمرة من ثمارها هي الشكر والعبادة والحمد والمحبة تجاه واهب الحياة «الحي المحيي» وإن هذا الشكر والمحبة والحمد والعبادة هي ثمرة الحياة كما أنها غاية الكائنات.

فاعلم من هذا: أن الذين يحصرون غاية هذه الحياة في: «عيشٍ برفاه، وتمتّع بغفلة، وتنعّم بهوى» إنما يستخفّون -بجهل مستهجَن قبيح- بهذه النعمة الغالية الكبرى، نعمة الحياة، وهدية الشعور، وإحسان العقل، ويحقرونها وينكرونها بل يكفرون بها فيرتكبون كفراناً عظيماً وإثماً مبيناً.

الرمز الثاني:

الحياة التي هي أعظمُ تجلٍّ لاسم الله «الحي» وألطفُ تجلٍ لاسم الله «المحيي» يحتاج في بيان مراتبها وصفاتها ووظائفها -المذكور فهرستُها في الرمز الأول- إلى كتابة رسائل عدة بعدد تلك المزايا والخصائص. لذا سنشير إشارة مختصرة إلى بضعٍ منها محيلين تفاصيلها إلى أجزاء «رسائل النور»، حيث بَيّنت قسماً من تلك الخصائص والمراتب والمهمات. فلقد ذكر في الخاصية الثالثة والعشرين من الخصائص التسعة والعشرين للحياة: أن وجْهَي الحياة صافيان، شفافان، رائقان. فلم تضع القدرةُ الربانية أسباباً ظاهرية لتصرفاتها فيها. وسرّ هذه الخاصية هو ما يأتي:

«إنَّ كل شيء في الكون ينطوي على خير، وفيه جمالٌ وحُسن، أما الشر والقبح فهما جزئيان جداً، وهما بحُكم وحدتين قياسيتين، أي إنهما وُجدا لإظهار ما في الخير وما في الجمال من مراتب كثيرة وحقائق عديدة؛ لذا يُعَدُّ الشرُّ خيراً والقبحُ حُسناً من هذه الزاوية. أي من زاوية كونهما

وسائل لإبراز المراتب والحقائق. ولكن ما يبدو لذوي الشعور من مظاهر القبح والشر والبلاء والمصائب قد تدفعهم إلى السخط والشكوى والامتعاض. فوُضعَت الأسبابُ الظاهرية ستاراً لتصرف القدرة الإلهية، لئلا تتوجه تلك الشكاوى الظالمة والسخط الباطل إلى «الحي القيوم» جلّ وعلا. زد على ذلك فإن العقل أيضاً بنظره الظاهري القاصر، قد يرى منافاةً بين أمور يراها خسيسةً، خبيثةً، قبيحة، وبين مباشرةِ يد القدرة المنـزّهة المقدسة لها. فوُضِعَت الأسبابُ الظاهرية ستاراً لتصرف القدرة الربانية لتُنَـزِّه عزةَ القدرة الإلهية عن تلك المنافاة الظاهرية».

هذا علماً أن الأسباب نفسهَا لا يمكنها أن توجِد شيئاً بحد ذاتها قط. بل هي موضوعةٌ لصيانة عزة القدرة الإلهية وتنـزيهها، ولتظل هي هدفاً مباشراً للشكاوى الظالمة والاعتراضات الباطلة.

ولقد ذكرنا في مقدمة المقام الثاني من «الكلمة الثانية والعشرين» أن مَلَك الموت «عزرائيل» عليه السلام وجد أن مهمة قبض الأرواح التي أوكلَتْ إليه مهمةٌ بغيضة لبني آدم، وسيكون من جرائها موضعَ سخطهم ومثار امتعاضهم، فناجى ربَّ العزة بشأن مهمته قائلاً:

- يا رب إن عبادَك سيسخطون عليّ!

وجاءه الجواب:

- سأضع ستار الأمراض وحجابَ المصائب بين مهمتك وبينهم، فلا تُصوَّب سهام الشكاوى والاعتراضات إليك، بل إلى الحُجُب.

فحسب مضمون هذه المناجاة نقول:

إن الذين لا يرون الوجه الصبوح الحقيقي للموت -المطل على أهل الإيمان- ولا يدركون ما فيه من رحمةٍ مدّخرة، يبدون اعتراضات وشكاوى، فتبرز أمامَهم مهمةُ عزرائيل عليه السلام حجاباً وستاراً، فلا تتوجه تلك الشكاوى الباطلة والاعتراضات المجحفة إلى الذات المقدسة للحي القيوم. ومثلما أن مهمة عزرائيل عليه السلام ستارٌ، فإن الأسباب الظاهرية الأخرى هي أيضاً حُجُب وأستار.

نعم، إنَّ العزة والعظمة تقتضيان أن تكون الأسبابُ حُجُباً بين يدي القدرة الإلهية أمام

نظر العقل، إلّا أن الجلال والوحدانية يقتضيان أن تسحب الأسبابُ أيديها وترفعها عن التأثير الحقيقي.

أما وجها الحياة الظاهر والباطن، المُلك والملكوت، فهما صافيان كاملان مبرّءان من النقص والتقصير، فمثلما لا يوجد فيهما ما يستدعي الشكوى أو الاعتراض، فليس فيهما كذلك ما ينافي عزة القدرة ونزاهتها من دَنَس مستهجَن أو قبح ظاهر؛ لذا فقد سُلِّم وجهاها مباشرةً إلى اسم «المحيي» لذات الله «الحي القيوم» من دون إسدال أستار الأسباب وحُجُبها.

ومِثل الحياة؛ النورُ، وكذلك الوجودُ والإيجاد.. وعليه نرى أن الإيجاد والخَلق يتوجهان مباشرةً من دون حُجُب وأستار إلى قدرة الخالق سبحانه، بل حتى المطر -وهو نوع من الحياة ورحمة مهداة منه سبحانه- فلا يحكُمه قانون مطّرَد يحدد وقتَ نزوله؛ وذلك لئلا تُحرَم أكفُّ الضراعة أمام باب الرحمة من الرجاء والاسترحام وقت الحاجة؛ إذ لو كان المطر ينـزل حسب قانون مطّرد -بمثل شروق الشمس وغروبها- لَمَا كان الخلقُ يتوسلون ويستغيثون كل حين استنـزالاً لنعمة الحياة تلك.

الرمز الثالث:

لقد ذكر في الخاصية التاسعة والعشرين أن: الحياة هي نتيجة الكائنات مثلما أن نتيجة الحياة هي: الشكر والعبادة، فهما سببُ خلق الكائنات وعلةُ غايتها، ونتيجتُها المقصودة.

نعم، إن خالق الكون سبحانه «الحي القيوم» إذ يعرِّف نفسَه لذوي الحياة ويحبّبها إليهم بنِعَمه التي لا تعد ولا تحصى، يطلب منهم شكرَهم تجاه تلك النعم، ومحبَّتهم إزاء تلك المحبة، وثناءهم واستحسانهم مقابل بدائع صُنعه، وطاعتَهم وعبوديتَهم تجاه أوامره الربانية. فيكون الشكر والعبادة -حسب سرّ الربوبية هذا- أعظمَ غاية لجميع أنواع الحياة، وبدورها يكون غاية الكون بأسره.. ومن هنا نرى أن القرآن الكريم يحث بحرارة ويسوق برفق وعذوبة إلى الشكر والعبادة؛ فيكرر كثيراً ويبيّن ويوضح أن العبادة خاصّة لله وحده، وأن الشكر والحمد لا يليقان حقاً إلّا به سبحانه، وأن ما في الحياة من شؤون وأمور هي في قبضة تصرفه وحده، فينفي بهذا وبصراحة تامة الوسائطَ والأسباب، مسلِّماً الحياة بما فيها إلى يد القدرة للحي القيوم فيقول مثلاً:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ (المؤمنون: ٨٠)

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ (غافر: ٦٨)

﴿ فَيُحۡىِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ ﴾ (الروم: ٢٤)

نعم، إن الذي يدعو إلى الشكر والحمد والامتنان، والذي يثير الشعور إلى المحبة والثناء -بعد نعمة الحياة- إنما هو الرزق والشفاء والغيث، وأمثالُها من دواعي الشكر والحمد.

وهذه الوسائل أيضاً محصورةٌ كلياً بيد الرزاق الشافي سبحانه، فليست الأسباب إلّا أستار وحُجب ووسائط فحسب؛ إذ إن علامة الحصر والتخصيص -حسب قواعد اللغة العربية- «هو الرزاق»، «هو الذي»، واضحة في الآيات الكريمة الآتية:

﴿ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴾ (الذاريات: ٥٨)

﴿ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴾ (الشعراء: ٨٠)

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ ﴾ (الشورى: ٢٨)

فهذه الآيات الكريمة وأمثالها تبين: أنَّ الرزق والشفاء والغيث خاصةٌ به سبحانه وتعالى، وتنحصر كلياً بيد قدرة الحي القيوم. فالذي وهب خواصَّ الأدوية والعلاج هو ذلك الشافي الحقيقي سبحانه الذي خلقها وليس غيره.

الرمز الرابع:

لقد بُيّنت في الخاصة الثامنة والعشرين من الحياة:

أنَّ الحياة تثبت أركان الأيمان الستة وتنظر إليها وتتوجه نحوها، وتشير إلى تحقيقها.

نعم، فما دامت «الحياة» هي حكمة خلق الكائنات، وأهمُ نتيجتها وخميرتها، فلا تنحصر تلك الحقيقة السامية في هذه الحياة الدنيا الفانية القصيرة الناقصة المؤلمة، بل إنَّ غاية شجرة الحياة ونتيجتَها وثمرتها -والتي فُهِم عظمتُها وماهيتها بالخواص التسع والعشرين- ما هي إلّا الحياة الأبدية والآخرة والحياة الحية بحجرها وترابها وشجرها في دار السعادة الخالدة. وإلّا يلزم أن تظل شجرةُ الحياة المجهّزة بهذه الأجهزة الغزيرة المتنوعة في ذوي الشعور -ولاسيما

الإنسان- دون ثمر ولا فائدة، ولا حقيقة. ولظل الإنسانُ تعساً وشقياً وذليلاً وأحطّ من العصفور بعشرين درجة -بالنسبة لسعادة الحياة- مع أنه أسمى مخلوق، وأكرمُ ذوي الحياة وأرفع من العصفور بعشرين درجة، من حيث الأجهزة ورأس مال الحياة.

بل يصبح العقل الذي هو أثمنُ نعمةٍ بلاءً ومصيبة على الإنسان بتفكره في أحزان الزمان الغابر ومخاوف المستقبل فيعذّب قلبَ الإنسان دائماً معكراً صفو لذةٍ واحدة بتسعة آلام!. ولا شك أن هذا باطل مائة في المائة. فهذه الحياة الدنيا إذن تثبت ركن الإيمان بالآخرة إثباتاً قاطعاً بما تظهر لنا في كل ربيع أكثرَ من ثلاثمائة ألف نموذج من نماذج الحشر.

فيا ترى هل يمكن لربٍّ قدير، يهيئ ما يلزم حياتَك من الحاجات المتعلقة بها جميعاً ويوفّر لك أجهزتَها كلها سواءً في جسمك أو في حديقتك، أو في بلدك، ويرسله في وقته المناسب بحكمة وعناية ورحمة، حتى إنه يعلم رغبةَ معدتك فيما يكفُل لك العيش والبقاء، ويسمع ما تهتف به من الدعاء الخاص الجزئي للرزق مُبدياً قبولَه لذلك الدعاء بما بثّ من الأطعمة اللذيذة غير المحدودة ليُطمئِن تلك المعدة! فهل يمكن لهذا المتصرف القدير أنْ لا يعرفك؟ ولا يراك؟ ولا يهيئ الأسبابَ الضرورية لأعظم غاية للإنسان وهي الحياة الأبدية؟؟ ولا يستجيبَ لأعظمِ دعاءٍ وأهمِّه وأعمّه، وهو دعاءُ البقاء والخلود؟ ولا يقبلَه بعدم إنشائه الحياة الآخرة وإيجاد الجنة؟ ولا يسمعَ دعاء هذا الإنسان -وهو أسمى مخلوق في الكون بل هو سلطان الأرض ونتيجتُها- ذلك الدعاء العام القوي الصادر من الأعماق، والذي يهزّ العرش والفرش! فهل يمكن أن لا يهتم به اهتمامَه بدعاء المعدة الصغيرة ولا يُرضي هذا الإنسان؟ ويعرّض حكمتَه الكاملة ورحمته المطلقة للإنكار؟؟ كلا.. ثم كلا ألف ألف مرة كلا.

وهل يعقل أن يسمع أخفتَ صوتٍ لأدنى جزءٍ من الحياة فيستمع لشكواه ويسعفه، ويحلم عليه ويربيه بعناية كاملة ورعاية تامة وباهتمام بالغ مسخِّراً له أكبر مخلوقاته في الكون، ثم لا يسمع صوتاً عالياً كهزيم الرعد لأعظم حياة واسماها وألطفها وأدومها؟ وهل يعقل: ألّا يهتم بدعائه المهم جداً -وهو دعاء البقاء- وألّا ينظر إلى تضرعه ورجائه وتوسله؟ ويكون كَمَن يجـهّز -بعنـاية كاملة- جندياً واحداً بالعتاد، ولا يرعى الجيش الجرار الموالي له!! وكمَن يـرى الذرة ولا يرى الشمس! أو كمن يسمع طنين البعوضة ولا يسمع رعود السماء! حاشَ لله مائة ألف مرة حاشَ لله.

وهل يقبل العقل -بوجه من الأوجه- أنَّ القدير الحكيم ذا الرحمة الواسعة وذا المحبة الفائقة وذا الرأفة الشاملة والذي يحب صنعتَه كثيراً، ويحبّب نفسَه بها إلى مخلوقاته وهو أشدّ حباً لمن يحبونه، فهل يعقل أن يُفْني حياة مَن هو أكثرُ حباً له، وهو المحبوب، وأهلٌ للحب، والذي يعبد خالقَه فِطرةً؟ ويُفني كذلك لبَّ الحياة وجوهرها وهو الروح، بالموت الأبدي!! ويسبب جفوةً بينه وبين محبِّه ومحبوبه ويؤلمه أشدَّ الإيلام! فيجعل سر رحمته ونور محبته معرّضاً للإنكار! حاشَ لله ألف مرة حاشَ لله...

فالجمالُ المطلق الذي زيّن بتجلّيه هذا الكون وجمّله، والرحمةُ المطلقة التي أبهجت المخلوقاتِ قاطبةً وزيّنتها، لابد أنهما منزّهتان ومقدستان بلا نهاية ولا حدّ، عن هذه القساوة وعن هذا القبح المطلق والظلم المطلق.

النتيجة: مادامت في الدنيا حياةٌ، فلابد أن الذين يفهمون سر الحياة من البشر، ولا يسيؤون استعمال حياتهم، يكونون أهلاً لحياة باقية، في دار باقية وفي جنة باقية.. آمنا.

ثم، إن تلألؤَ المواد اللماعة على سطح الأرض بانعكاسات ضوء الشمس، وتلمّعَ الفقاعات والحَباب والزَبَد على سطح البحر، ثم انطفاء ذلك التلألؤ والبريق بزوالها ولمعان الفقاعات التي تعقبها -كأنها مرايا لشُمَيساتٍ خيالية- يُظهر لنا بداهة أن تلك اللمعات ما هي إلّا تجلي انعكاس شمسٍ واحدة عالية. وتذكُر بمختلف الألسنة وجود الشمس، وتشير إليها بأصابع من نور... وكذلك الأمر في تلألؤ ذوي الحياة على سطح الأرض، وفي البحر، بالقدرة الإلهية وبالتجلي الأعظم لاسم «المحيي» للحي القيوم جلّ جلاله، واختفائها وراء ستار الغيب لفسح المجال للذي يخلفها -بعد أن ردّدت يا حي- ما هي إلّا شهاداتٌ وإشارات للحياة السرمدية ولوجوب وجود «الحي القيوم» سبحانه وتعالى.

وكذا، فإن جميعَ الدلائل التي تشهد على العلم الإلهي الذي تُشاهَد آثارُه من تنظيم الموجودات، وجميعَ البراهين التي تثبت القدرة المصرّفة في الكون، وجميعَ الحجج التي تثبت الإرادة والمشيئة المهيمنة على إدارة الكون وتنظيمه، وجميعَ العلامات والمعجزات التي تثبت الرسالات التي هي مدار الكلام الرباني والوحي الإلهي.. وهكذا جميعُ الدلائل التي تشهد وتدلّ على الصفات الإلهية السبع الجليلة، تدل -وتشهد أيضاً- بالاتفاق على حياة «الحي

القيوم» سبحانه، لأنه: لو وُجدت الرؤيةُ في شيء فلابد أن له حياة أيضاً، ولو كان له سمعٌ فذلك علامة الحياة، ولو وجد الكلامُ فهو إشارة على وجود الحياة، ولو كان هناك الاختيار والإرادة فتلك مظاهرُ الحياة، كذلك فإن جميعَ دلائل الصفات الجليلة التي تشاهَد آثارُها ويُعلَم بداهة وجودُها الحقيقي، أمثال القدرة المطلقة، والإرادة الشاملة، والعلم المحيط، تدل على حياة «الحي القيوم» ووجوب وجوده، وتشهد على حياته السرمدية التي نوّرَتْ -بشعاعٍ منها- جميعَ الكون وأحيَت -بتجلٍ منها- الدار الآخرة كلها بذراتها معاً.

والحياة كذلك تنظر إلى الركن الإيماني «الإيمان بالملائكة» وتدل عليه وتثبته رمزاً. لأن: الحياة ما دامت هي أهمُّ نتيجةٍ للكون، وأن ذوي الحياة -لنفاستهم- هم أكثر انتشاراً وتكاثراً، وهم الذين يتتابعون إلى دار ضيافة الأرض قافلةً إثر قافلة، فتعمَّر بهم وتبتهج.. وما دامت الكرة الأرضية هي محط هذا السيل من أنواع ذوي الحياة، فتُملأ وتُخلى بحكمة التجديد والتكاثر باستمرار، ويُخلق في أخس الأشياء والعفونات ذوو حياةٍ بغزارة، حتى أصبحت الكرة الأرضية معرضاً عاماً للأحياء.. وما دام يُخلق بكثرة هائلة على الأرض أصفى خلاصة لترشح الحياة وهو الشعور والعقل والروح اللطيفة ذات الجوهر الثابت، فكأن الأرض تحيا وتتجمل بالحياة والعقل والشعور والأرواح.. فلا يمكن أن تكون الأجرام السماوية التي هي أكثر لطافةً وأكثر نوراً وأعظمُ أهميةً من الأرض جامدةً ودون حياة وبلا شعور.

إذن فالذين سيعمِّرون السماوات ويبهجون الشموس والنجوم، ويهبون لها الحيوية، ويمثلون نتيجة خلق السماوات وثمرتها، والذين سيتشرفون بالخطابات السبحانية، هم ذوو شعورٍ وذوو حياة من سكان السماوات وأهاليها المتلائمين معها حيث يوجدون هناك بسرّ الحياة.. وهم الملائكة.

وكذلك ينظر سرُّ ماهية الحياة ويتوجه إلى «الإيمان بالرسل» ويثبته رمزاً.

نعم، فما دام الكون قد خُلق لأجل الحياة وأن الحياة هي أعظمُ تجلٍ وأكمل نقش وأجمل صنعة للحي القيوم جلّ جلاله، وما دامت حياتُه السرمدية الخالدة تظهر وتكشف

عن نفسها بإرسال الرسل وإنزال الكتب. إذ لو لم يكن هناك رسل ولا كتب لما عُرفت تلك الحياة الأزلية، فكما أن تكلّم الفرد يبين حيويته وحياته كذلك الأنبياء والرسل عليهم السلام والكتب المنـزَلة عليهم، يبيّنون ويدلّون على ذلك المتكلم «الحي» الذي يأمر وينهى بكلماته وخطـاباته من وراء الغيب المحجوب وراء ستار الكون. فلابد أن الحياة التي في الكون كما أنها تدل -بصورة قاطعة- على «الحي» الأزلي سبحانه وتعالى وعلى وجوب وجوده، تدل كذلك على شعاعات تلك الحياة الأزلية وتجلياتها وارتباطاتها وعلاقاتها بأركان الإيمان مثل «إرسال الرسل» و «إنزال الكتب» وتثبتها رمزاً، ولاسيما الرسالة المحمدية و الوحي القرآني. إذ يصح القول، أنهما ثابتان قاطعان كقطعية ثبوت تلك الحياة، حيث إنهما بمثابة روح الحياة وعقلها.

نعم، كما أن الحياة هي خلاصة مترشحة من هذا الكون، والشعور والحس مترشحان من الحياة، فهما خلاصتها، والعقل مترشح من الشعور والحس، فهو خلاصة الشعور، والروح هي الجوهر الخالص الصافي للحياة، فهي ذاتُها الثابتة المستقلة.. كذلك الحياة المحمدية -المادية والمعنوية- مترشحةٌ من الحياة ومن روح الكون فهي خلاصة زبدتها، والرسالة المحمدية كذلك مترشحة من حسّ الكون وشعورِه وعقله، فهي أصفى خلاصته، بل إن حياة محمد ﷺ -المادية والمعنوية- بشهادة آثارها حياةٌ لحياة الكون، والرسالة المحمدية شعور لشعور الكون ونور له. والوحي القرآني -بشهادة حقائقه الحيوية- روح لحياة الكون وعقل لشعوره.. أجل.. أجل.. أجل.

فإذا ما فارق نورُ الرسالة المحمدية الكونَ وغادره مات الكون وتوفيت الكائنات، وإذا ما غاب القرآن وفارق الكون، جَنّ جنونه وفَقَدت الكرة الأرضية صوابَها، وزال عقلُها، وظلت دون شعور، واصطدمت بإحدى سيارات الفضاء، وقامت القيامة.

والحياة -كذلك- تنظر إلى الركن الإيماني «القدر» وتدل عليه وتثبتُه رمزاً، إذ ما دامت الحياةُ ضياءً لعالم الشهادة وقد استولت عليه وأحاطت به، وهي نتيجةُ الوجود وغايته، وأوسعُ مرآةٍ لتجليات خالق الكون، وأتمُّ فهرسٍ ونموذج للفعالية الربانية حتى كأنها بمثابة نوعٍ من خطتها ومنهجها -إذا جاز التشبيه- فلابد أن سر الحياة يقتضي أن يكون عالم الغيب

أيضاً -وهو بمعنى الماضي والمستقبل- أي المخلوقات الماضية والقابلة، في حياة معنوية، أي في نظام وانتظام، وأن يكون معلوماً ومشهوداً ومتعيّناً ومتهيأً لامتثال الأوامر التكوينية. مَثَلُها كمثل تلك البذرة الأصلية للشجرة وأصولها، والنوى والأثمار التي في منتهاها، التي تتميز بمزايا نوعٍ من الحياة كالشجرة نفسها، بل قد تحمل تلك البذور قوانينَ حياتية أدق من قوانين حياة الشجرة.

وكما أن البذور والأصول التي خلفها الخريفُ الماضي، وما سيخلفه هذا الربيع -بعد إدباره- من البذور والأصول، تحمل نور الحياة، وتسير وفق قوانين حياتية، مثل ما يحمله هذا الربيع من الحياة، فكذلك شجرة الكائنات، وكلُّ غصن منها وكلُّ فرعٍ، له ماضيه ومستقبله، وله سلسلة مؤلفة من الأطوار والأوضاع، القابلة والماضية، ولكل نوعٍ ولكلّ جزء منه وجودٌ متعدد بأطوار مختلفة في العلم الإلهي، مشكّلاً بذلك سلسلة وجود علمي. والوجود العلمي هذا، الشبيه بالوجود الخارجي هو مظهرٌ لتجلٍ معنوي للحياة العامة، حيث تُؤخذُ المقدَّرات الحياتية من تلك الألواح القَدَرية الحية ذات المغزى العظيم.

نعم، إن امتلاء عالم الأرواح -الذي هو نوع من عالم الغيب- بالأرواح التي هي عينُ الحياة، ومادتها، وجوهرها، وذواتها، يستلزم أن يكون الماضي والمستقبل -اللذان هما نوع من عالم الغيب وقسم ثان منه- متجلية فيهما الحياة. وكذا فإن الانتظام التام والتناسق الكامل في الوجود العلمي الإلهي لأوضاع ذات معانٍ لطيفة لشيء ما ونتائجَه وأطوارَه الحيوية ليبين أن له أهلية لنوع من الحياة المعنوية.

نعم، إن مثل هذا التجلي -تجلي الحياة- الذي هو ضياء شمس الحياة الأزلية لن ينحصر في عالم الشهادة هذا فقط، ولا في هذا الزمان الحاضر، وفي هذا الوجود الخارجي، بل لابد أن لكلِّ عالَمٍ من العوالم مظهراً من مظاهر تجلّي ذلك الضياء حسب قابليته.

فالكونُ إذن -بجميع عوالمه- حيٌ ومشعٌ مضيئ بذلك التجلي وإلّا لأصبح كلٌّ من العوالم -كما تراه عينُ الضلالة- جنازةً هائلة مخيفة تحت هذه الحياة الموقتة الظاهرة، وعالَماً خرباً مظلماً.

وهكذا يُفهم وجهٌ واسع من أوجه الإيمان بالقضاء والقدر من سر الحياة ويثبت به

ويتضح. أي كما تَظهر حيويةُ عالمِ الشهادة والموجودات الحاضرة بانتظامها وبنتائجها، كذلك المخلوقات الماضية والآتية التي تعدّ من عالم الغيب لها وجودٌ معنوي، ذو حياة معنىً، ولها ثبوتٌ علمي ذو روح، بحيث يظهر -باسم المقدرات- أثر تلك الحياة المعنوية بوساطة لوح القضاء والقدر.

الرمز الخامس:

لقد ذُكر في الخاصية السادسة عشرة من خصائص الحياة أنه ما إن تنفذ الحياةُ في شيء حتى تصيّره عالَماً بحدّ ذاته؛ إذ تمنحه من الجامعية ما يجعله كلاًّ إن كان جزءاً، وما يجعله كلياً إنْ كان جزئياً؛ فالحياة لها من الجامعية بحيث تعرض في نفسها أغلبَ الأسماء الحسنى المتجلية على الكائنات كلها، وكأنها مرآة جامعة تعكس تجليات الأحدية. فحالما تدخل الحياةُ في جسم تعمل على تحويله إلى عالم مصغّر، لكأنها تحيله بمثابة بذرة حاملة لفهرس شجرة الكائنات، وكما لا يمكن أن تكون البذرةُ إلّا أثر قدرةِ خالقِ شجرتها، كذلك الذي خلق أصغرَ كائن حي لابد أنه هو خالق الكون كله.

فهذه الحياة بجامعيتها هذه تُظهر في نفسها أخفى أسرار الأحدية وأدقّها. أي كما أن الشمس العظيمة توجد بضيائها وألوانها السبعة وانعكاساتها في ما يقابلها من قطرة ماء أو قطعة زجاج، كذلك الأمر في كل ذي حياة الذي تتجلى فيه جميعُ تجليات الأسماء الحسنى وأنوارُ الصفات الإلهية المحيطة بالكون. فالحياة -من هذه الزاوية- تجعل الكون من حيث الربوبية والإيجاد بحكم الكلّ الذي لا يقبل الانقسام والتجزئة، وتجعله بحكم الكلّي الذي تمتنع عليه التجزئة والاشتراك.

نعم، إن الختم الذي وَضَعه الخالقُ سبحانه على وجهك يدل بالبداهة على أن الذي خلقك هو خالقُ بني جنسك كلهم؛ ذلك لأن الماهية الإنسانية واحدة، فانقسامها غير ممكن. وكذلك الأمر في أجزاء الكائنات! إذ تتحول بوساطة الحياة كأنها أفراد الكائنات، والكائنات كأنها نوع لتلك الأفراد.

فكما تُظهر الحياةُ ختمَ الأحدية على مجموع الكون فإنها تردّ الشرك والاشتراك وترفضه رفضاً باتاً بإظهارها ختم الأحدية نفسِه وختم الصمدية على كل جزء من أجزاء الكون.

ثم إن في الحياة من خوارق الصنعة الربانية ومعجزات الإبداع الباهر بحيث إنه مَن لم يكن قادراً على خلق الكون يعجز كلياً عن خلق أصغر كائن حي فيه.

نعم، إن القلم الذي كتب فهرس شجرة الصنوبر الضخمة ومقدّراتها في بذرتها الصغيرة -ككتابة القرآن مثلاً على حبة حمص- هو ذلك القلم نفسُه الذي رصّع صفحات السماء بلآلئ النجوم. وأن الذي أدرج في رأس النحل الصغير استعداداً يمكّنها من معرفة أزهار حدائق العالم كله، وتقدِر على الارتباط مع أغلبها بوشائج، ويجعلها قادرة على تقديم ألذّ هدية من هدايا الرحمة الإلهية -وهي العسل- ويدفعها إلى معرفة شرائط حياتها منذ أول قدومها إلى الحياة لا شك أنه هو خالق الكون كله وهو الذي أودع هذا الاستعداد الواسع والقابلية العظيمة والأجهزة الدقيقة فيها .

الخلاصة: إنَّ الحياة آيةُ توحيد ساطعة تسطع على وجه الكائنات، وأن كل ذي روح -من جهة حياته- آية للأحدية، وإن الصنعة المتقنة الموجودة على كل فرد من الأحياء ختمٌ للصمدية، وبهذا فجميعُ ذوي الحياة يصدّقون ببصمات حياتهم رسالةَ الكون هذه ويعلنون أنها من «الحي القيوم الواحد الأحد».. فكل منها ختمٌ للوحدانية في تلك الرسالة فضلاً عن أنها ختمٌ للأحدية وعلامة الصمدية. فكما أن الأمر هكذا في الحياة، فكل كائن حي أيضاً ختم للوحدانية في كتاب الكون؛ كما قد وُضع على وجهه وسيماه ختمَ الأحدية.

نعم، إن الحياة بعدد جزئياتها وبعدد أفرادها الحية أختامٌ وبصماتٌ حية تشهد على وحدانية «الحي القيوم» مثلما أن فعل البعث -الإحياء- أيضاً يختم بأختام التصديق على التوحيد بعدد الأفراد من الأحياء. فإحياءُ الأرض الذي هو مثال واحد على البعث هو شاهدُ صدقٍ ساطع على التوحيد كالشمس، لأن بعث الأرض في الربيع وإحياءها يعني بعث أفراد لا تعد ولا تحصى لأنواع الأحياء التي تربو على ثلاثمائة ألف نوع، فتُبعث جميعاً معاً من دون نقص ولا قصور بعثاً متداخلاً متكاملاً منتظماً. فالذي يفعل بهذا الفعل أفعالاً منتظمة لا حدود لها فإنه هو خالق المخلوقات جميعها، وأنه «الحي القيوم» الذي يحيي ذوي الحياة قاطبة، وأنه الواحد الأحد الذي لا شريك له في ربوبيته قط.

اكتفينا بهذا القدر القليل المختصر من بسط خواص الحياة محيلين بيان الخواص الأخرى وتفصيلاتها إلى أجزاء «رسائل النور» وفي وقت آخر.

الخاتمة

إن الاسم الأعظم ليس واحداً لكل أحد، بل يختلف ويتباين، فمثلاً: لدى الإمام علي رضي الله عنه هو ستة أسماء حسنى هي: «فردٌ، حيٌّ، قيومٌ، حكمٌ، عدلٌ، قدوسٌ».. ولدى أبي حنيفة النعمان رضي الله عنه اسمان هما: «حَكَمٌ عدلٌ».. ولدى الشيخ الكيلاني قُدس سره هو اسم واحد: «يا حيّ».. ولدى الإمام الرباني (احمد الفاروقي السرهندي) رضي الله عنه هو: «القيومُ».. وهكذا، فلدى الكثيرين من العظماء الأفذاذ أسماء أخرى هي الاسم الأعظم عندهم.

ولما كانت هذه النكتة الخامسة تخص اسم الله «الحي» وقد أظهر الرسول الأعظم ﷺ في مناجاته الرفيعة المسماة بـ«الجوشن الكبير» معرفَته الجامعة السامية لله إظهاراً يليق به وحده؛ لذا نذكر من تلك المناجاة شاهداً ودليلاً وحجةً وتبركاً ودعاء مقبولاً وخاتمة حسنةً لهذه الرسالة، فنذهب خيالاً إلى ذلك الزمان ونقول: آمين.. آمين على ما يقوله الرسول الكريم ﷺ، فنردد المناجاة نفسها على أصداء ذلك القول النبوي الكريم:

يَا حَيُّ قَبْلَ كُلِّ حَيّ * يَا حَيُّ بَعدَ كُلِّ حَيّ

يَا حَيُّ الَذي لا يُشْبِهُهُ شَيءٌ * يَا حَيُّ الَذي لَيسَ كَمِثلِهِ حَيٌّ

يَا حَيُّ الَذي لا يُشَارِكُهُ حَيٌّ * يَا حَيُّ الَذي لا يَحتَاجُ إلى حَيٍّ

يَا حَيُّ الَذي يمُيتُ كُلَّ حَيٍّ * يَا حَيُّ الَذي يَرْزُقُ كُلَّ حَيٍّ

يَا حَيُّ الَذِي يُحْيِي المَوتَى * يَا حَيُّ الَذي لا يمَوتُ

سُبْحَانَكَ يَا لَا إلهَ إلّا أَنْتَ الأمَانَ الأمَانَ نَجِّنَا مِنَ النَّارِ

آمين.

﴿سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾

النكتة السادسة

تتطلع إلى اسم الله الأعظم

القيوم

لقد أصبحت الخلاصة المقتضبة لاسم الله «الحي» ذيلاً لمنبع النور، كما ارتُئِيَ أن تكون هذه النكتة التي تخص اسم الله «القيوم» ذيلاً للكلمة الثلاثين.

اعتذار:

إنَّ هذه المسائل البالغة الخطورة والأهمية، والتجلي الأعظم لاسم الله «القيوم» الطافح على وجه الحياة والغاص في أعماق الوجود، لم تتوارد إلى القلب توارداً متعاقباً منتظماً، الواحدة تلوَ الأخرى. بل سَطَعت دفعةً واحدة في سماء القلب كالبروق الخاطفة، وانقدح زنادُ القلب، فاستنار الوجدانُ بها فدوّنتُها كما خطرتْ لي ولم أجرِ عليها أي تعديل أو تغيير أو تشذيب. فلا جرم أن يعتورَها شيء من الخلل في الأداء البياني، والسَبك البلاغي. فأرجو أن تتكرموا بالصفح عما تشاهدونه من قصور في الشكل لأجل جمال المضمون وحُسن محتواه.

تنبيه:

إنَّ المسائل اللطيفة والنكات الدقيقة التي تخص الاسم الأعظم هي عظيمة السعة، عميقة الأغوار، ولاسيما المسائل التي تخص اسم «الحي القيوم». وبخاصة الشعاع الأول منها، الذي ورد وروداً أعمق من غيره لتوجهه مباشرة إلى الماديين.[1] لذا فليس الجميعُ سواءً في إدراكهم لمسائله كلها، وربما صَعُب على البعض الإحاطةُ ببعضٍ منها، وفاته إدراك جزءٍ هنا، وجزء هناك، إلّا أننا مطمئنون إلى أن أحداً لن يخرُجَ من النظر فيها، من غير أن يستفيد شيئاً، بل سينال -بلا شك- حظَّه المقسوم له من كل مسألة منها، «فما لا يُدرَك كلُّه، لا يُترك كلُّه» كما

(١) إن لم يكن قارئ هذه الرسالة على اطلاع واسع على العلوم، فعليه ألّا يقرأ هذا الشعاع، أو يقرأه في الختام، وليشرع من الشعاع الثاني.(المؤلف).

تقول القاعدة السارية؛ فليس صواباً أن يدع أحد هذه الروضة المعنوية المليئة بالثمرات بحجة عَجزه عن جَني جميع ثمراتها! وما قطفَه منها وحصل عليه فهو كسبٌ ومغنم.

ومثلما أن من المسائل التي تخص الاسم الأعظم ما هو واسع جداً لدرجة تتعذر معها الإحاطة الكلية به، فإن فيها أيضاً مسائل لها من الدقة ما تندُّ بها عن بصر العقل؛ ولا سيما رموز الحياة الشاملة لأركان الإيمان التي هي في اسم الله «الحي»، وإشارات الحياة فيه إلى الإيمان بالقضاء والقدر، والشعاع الأول لاسم الله «القيوم». ولكن مع هذا لا يبقى أحدٌ دون الأخذ بحظٍ منها. بل تشدّ إيمانَه وتَزيده سعةً ومدىً على أقل تقدير، ولا غرو فإن زيادة الإيمان الذي هو مفتاح السعادة الأبدية إنما هو على جانب عظيم من الأهمية، فزيادتُه ولو بمقدار ذرة كنـزٌ عظيم، كما يقول الأمام الرباني أحمد الفاروقي السرهندي:

«إن انكشاف مسألة صغيرة من مسائل الإيمان لهو أفضل في نظري من مئاتٍ من الأذواق والكرامات».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (يس: ٨٣)

﴿ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (الزمر: ٦٣)

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ ﴾ (الحجر: ٢١)

﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ (هود: ٥٦)

لقد تراءى لعقلي في شهر ذي القعدة وأنا نزيل سجن «أسكي شهر» تجلٍ عظيمٌ من أنوار اسم الله الأعظم «القيوم» الذي هو الاسم الأعظم، أو السادس من الأنوار الستة للاسم الأعظم. كما تراءت نكتة من نكات هذه الآيات الكريمة المشيرة إلى القيومية الإلهية.

بيد أن ظروف السجن المحيطة بي تحُول دون أن أُوفي حقَّ هذه الأنوار من البيان. وحيث إن الأمام علياً رضي الله عنه قد أبرز الاسم الأعظم في قصيدته المسماة بـأرجوزة «السكينة»

لدى بيانه لسائر الأسماء الجليلة من قصيدته «البديعية». يولي أهمية خاصة لتلك الأسماء الستة، فضلاً عما يمنحه لنا -بكرامة من الله- السلوان والعزاء أثناء بحثه لتلك الأسماء، لذا سنشير بإشارات مختصرة إلى بيان هذا النور الأعظم لاسم الله «القيوم» -كما فعلنا مع الأسماء الخمسة الأخرى- وسنجعل تلك الإشارات في خمسة أشعة.

الشعاع الأول:

إنَّ خالق هذا الكون ذا الجلال قيومٌ. أي إنه قائمٌ بذاته، دائم بذاته، باقٍ بذاته، وجميعُ الأشياء والموجودات قائمة به، تدوم به، تبقى في الوجود به، وتجد البقاء به. فلو انقطع هذا الانتسابُ للقيومية من الكون بأقل من طرفةِ عينٍ يُمحى الكونُ كله.

ثم إن ذلك الجليل مع قيوميته ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٌ﴾ كما وصفه القرآن الكريم. أي لا نظير له ولا مثيل ولا شبيه ولا شريك: في ذاته.. في صفاته.. وفي أفعاله.

نعم، إنَّ الذي يمسك الكون كلَّه أن يزول في قبضة ربوبيته ويدير جميع شؤونه ويدبّر جميع أحواله وكيفياته بكمال الانتظام ومنتهى التدبير وغاية الرعاية، وفي سهولة مطلقة كإدارة قصر أو بيت محالٌ أن يكون له مثلٌ أو مَثيلٌ أو شريك أو شبيه.

نعم، إنَّ مَن كان خلقُ النجوم سهلاً عليه وهيناً كخلق الذرات.. ويسخّر أعظم شيء في الوجود كأصغره ضمن قدرته المطلقة.. ولا يمنع شيءٌ شيئاً عنه، ولا فعلٌ فعلاً، فالأفراد غير المحدودين نصبَ نظره كالفرد الواحد، والأصوات جميعُها يسمعها معاً، ويوفي حاجات الكل في آنٍ واحد ودفعةٍ واحدة، ولا يخرج شيء مهما كان، ولا حالةٌ مهما كانت من دائرة مشيئته ونطاق إرادته - بشهادة الأنظمة والموازين الجارية في الكون - وكما أنه لا يحدّه مكانٌ فهو بقدرته وبعلمِه حاضرٌ في كل مكان، وكما أن كل شيء بعيدٌ عنه بُعداً مطلقاً، فهو أقرب إليه من أيّ شيء.. فهذا «الحي القيوم» ذو الجلال، لابد أنه ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٌ﴾ فلا نظير له ولا شريك ولا وزير ولا ضد ولا ندّ. بل محال في حقه كل ذلك. أما شؤونُه المنزّهة الحكيمة، فيمكن أن يُنظَر إليها بمنظار المَثَل والتمثيل (وجميع أنواع الأمثال والتمثيلات والتشبيهات الواردة في «رسائل النور» إنما هي من هذا النوع من المثل والتمثيل).

فهذا الذات الأقدس الذي لا مثيل له، وهو الواجب الوجود، والمجرّد عن المادة

المنـزّه عن المكان، المحالُ عليه التجزؤ والانقسام، والممتنعُ عليه التغيّر والتبدل، والذي لا يمكن أن يُتصورَ عجزه واحتياجه أبداً.. هذا الذات الأقدس قد أعطى قسمٌ من أهل الضلالة أحكامَ ألوهيته العظيمة إلى بعضِ مخلوقاته، وذلك بتوهمهم أن تجلياته سبحانه المتجلية في صفحات الكون وطبقات الموجودات هي الذات الأقدس نفسه، ففوّض قسمٌ من هؤلاء بعض آثار تجلياته سبحانه إلى الطبيعة والأسباب، والحال أنه قد ثبت ببراهين متعددة ناصعة وفي عديد من «رسائل النور» أن الطبيعة ما هي إلّا صنعة إلهية ولا تكون صانعاً، وهي كتاب رباني ولا تكون كاتباً، وهي نقشٌ بديع ومحالٌ أن تكون نقّاشاً مُبدعاً، وهي كراسٌ ولا تكون واضعةَ القوانين وصاحبة الكراس، وهي قانونٌ ولا تكون قدرةً، وهي مِسطرٌ ولا تكون مصدراً للوجود، وهي شيء منفعل ولا تكون الفاعل، وهي نظام ومحال أن تكون ناظماً، وهي شريعة فطرية وممتنعٌ أن تكون شارعاً مشرّعاً.

ولو افترض محالاً وأحيل خلقُ أصغر كائن حي إلى الطبيعة، وقيل لها فرضاً : هيا أوجدي هذا الكائن -مثلاً- فينبغي للطبيعة عندئذٍ أن تهيّيء قوالبَ مادية ومكائن - بعدد أعضاء ذلك الكائن لكي تستطيع أن تؤدي ذلك العمل!! وقد أثبتنا محالية هذا الفرض في مواضع كثيرة من «رسائل النور».

ثم إن قسماً من أهل الضلالة الذين يُطلق عليهم «الماديون» يشعرون بالتجلي الأعظم للخلاقية الإلهية والقدرة الربانية في تحولات الذرات المنتظمة، ولكنهم يجهلون مصدر ذلك التجلي، ويعجزون عن أن يدركوا من أين تُدار تلك القوة العامة النابعة من تجلي القدرة الصمدانية.. فلأنهم يجهلون كل ذلك فقد شرعوا بإسناد آثار الألوهية إلى الذرات نفسها وإلى حركاتها عينها، فتوهموا أزلية المادة والقوة. فسبحان الله!! أ فيمكن لإنسانٍ أن يتردى إلى هذا الدرك السحيق من الجهالة والخرافة المحضة، فيسند الآثار البديعة للخالق البديع والأفعال الحكيمة للعليم البصير -وهو المتعال عن المكان والزمان- إلى ذراتٍ مضطربة بتيارات المصادفات، جامدةٍ عمياء غير شاعرة، لا حول لها ولا قوة، وإلى حركاتها!.. أ فيمكن أن يقرّ بهذا أحد؟. فمَنْ كان له مسكةٌ من عقل لابد أن يحكم بأن هذا جهلٌ ما بعده جهل، وخرافة ما بعدها خرافة. إنَّ هؤلاء التعساء قد وقعوا في عبادة آلهة كثيرة لأنهم أعرضوا عن الوحدانية المطلقة. أي لأنهم لم يؤمنوا بإلهٍ واحد، أصبحوا مضطرين إلى قبول ما لا نهاية له من الآلهة!..

أي لأنهم لم يستوعبوا بعقولهم القاصرة أزلية الذات الأقدس وخلّاقيته -وهما صفتان لازمتان ذاتيتان له سبحانه- فقد أصبحوا -بحكم مسلكهم الضال- مضطرين إلى قبول أزلية ذرات جامدة لا حدّ لها ولا نهاية، بل إلى قبول ألوهية الذرات! فتأمل مبلغ الحضيض الذي سقطوا فيه، وسحيقِ الدرك الأسفل من الجهل الذي تردّوا فيه!

نعم، إنَّ التجلي الظاهر «للحي القيوم» في الذرات قد حوّلها إلى ما يشبه الجيش المهيب المنظم بحول الله وقوته وأمره، فلو سُحب أمر القائد الأعظم لأقل من طرفة عين من تلك التي لا تحد من الذرات الجامدة والتي لا شعور لها ولا عقل، لظلت سائبة، بل محيت نهائياً من الوجود.

ثم إن هناك من يتظاهرون ببُعد النظر، فيسوقون فكراً أجهلَ من السابق وأوغل في الخرافة منه حيث يتوهمون أن مادة الأثير هي المصدر وهي الفاعل، لقيامها بمهمة المرآة العاكسة لتجليات ربوبية الخالق سبحانه! علماً أنها ألطفُ وأرقُّ وأطوع صحيفةٍ من صحائف إجراءات الصانع الجليل وأكثرُها تسخيراً وانقياداً، وهي وسيلة لنقل أوامره الجليلة. وهي المداد اللطيف لكتاباته، والحلّة القشيبة الشفيفة لايجاداته، والخميرة الأساس لمصنوعاته، والأرض الخصبة لحبّاته.

فلا شك أن هذا الجهل العجيب المرعب يستلزم محالات لا حد لها ولا نهاية، وذلك لأن مادة الأثير هي ألطفُ من مادة الذرات التي غرق بها الماديون في مستنقع الضلالة، وهي أكثفُ من الهيولى [1] التي ضلّ فيها الفلاسفة القدماء وتاهوا. وهي مادة جامدة لا إرادة لها ولا اختيار ولا شعور، فإسناد الأفعال والآثار إلى هذه المادة القابلة للانقسام والتجزؤ والمجهّزة للقيام بوظيفة النقل وخاصة الانفعال، وإلى ذراتها التي هي أصغر من الذرات لاشك أنه جريمة وخطأ فاحش بعدد ذرات الأثير؛ لأن تلك الأفعال والآثار الربانية لا يمكن أن تحدث إلّا بإرادة مَن يقدِر على رؤية كل شيء في أي شيء كان ومَن يملك علماً محيطاً بكل شيء.

نعم، إن فعل الإيجاد المشهود في الموجودات يتّسم بكيفية معينة وأسلوب منفرد بحيث يدل دلالة واضحة على أن الموجِد هو صاحبُ قدرةٍ قادرة واختيار طليق، يرى أكثر الأشياء،

(١) الهيولى: لفظ يوناني معناه عند الفلاسفة: المادة الأولى المجردة عن الصورة من حجم وامتداد ولون وما أشبه ذلك.

بل الكون كله لدى إيجاده أيَّ شيء كان، ولاسيما الكائن الحي ويعلم كلَّ ما يرتبط به من الأشياء، ثم يضع ذلك الشيء في موضعه الملائم له، ويضمن له البقاء في ذلك الموقع، أي إن الأسباب المادية الجاهلة لا يمكن أن تكون بحال من الأحوال فاعلاً لها.

نعم، إنَّ فعلاً إيجادياً -مهما كان جزئياً- يدل دلالة عظيمة -بسر القيومية- على أنه فعلُ خالِق الكون فعلاً مباشراً. فالفعل المتوجّه إلى إيجاد نحلة -مثلاً- يدلنا بجهتين على أنه يخص خالق الكون ورب العالمين.

الجهة الأولى: أنَّ قيام تلك النحلة مع مثيلاتها في جميع الأرض بالفعل نفسِه في الوقت نفسه يدلنا على أن هذا الفعل الجزئي الذي نشاهده في نحلة واحدة إنما هو طرفٌ لفعلٍ يحيط بسطح الأرض كله. أي أن من كان فاعلاً لذلك الفعل العظيم الواسع ومالكاً له فهو صاحب ذلك الفعل الجزئي.

الجهة الثانية: لأجل أن يكون أحد فاعلاً لهذا الفعل الجزئي المتوجه إلى خلقِ هذه النحلة الماثلة أمامنا، ينبغي أن يكون -الفاعل- عالماً بشروط حياة تلك النحلة وأجهزتها وعلاقاتها مع الكائنات الأخرى وكيفية ضمان حياتها ومعيشتها، فيلزم إذن أن يكون ذا حكم نافذٍ على الكون كله ليجعل ذلك الفعل كاملاً. أي إن أصغر فعلٍ جزئي يدل من جهتين على أنه يخصّ خالقَ كل شيء. ولكن أكثر ما يحيّر الإنسان ويجلب انتباهه هو: أن الأزلية والسرمدية التي هي من أخصّ خصائص الألوهية وألزمِ صفةٍ للذات الأقدس المالك لأقوى مرتبة في الوجود وهو الوجوب وأثبتُ درجة في الوجود وهو التجرّد من المادة وأبعد طوراً عن الزوال وهو التنـزّه عن المكان وأسلمُ صفة من صفات الوجود وأقدسُها عن التغير والعدم وهو الوحدة... أقول: إن الذي يحير الإنسان ويثير قلقه، ويجلب انتباهه إنما هو اسناد صفة الأزلية والسرمدية إلى الأثير والذرات وما شابهها من المواد المادية التي لها أضعفُ مرتبة من مراتب الوجود، وأدقُّ درجة فيه، وأكثر أطواره تغيراً وتحولاً، وأعمُّها انتشاراً في المكان، ولها الكثرة التي لا تحد.. فإسناد الأزلية إلى هذه المواد وتصورها أزليةً، وتوهّم نشوءَ قسم من الآثار الإلهية منها، ما هو إلّا مجافاةٌ وأي مجافاة للحقيقة وأمرٌ منافٍ أي منافاة للواقع، وبعيدٌ كل البعد عن منطق العقل وباطل واضح البطلان. وقد أثبتنا هذا في كثير من الرسائل ببراهين رصينة.

الشعاع الثاني: وهو مسألتان:

المسألة الأولى:

قال تعالى: ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ (البقرة: ٢٥٥) ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ (هود: ٥٦) ﴿ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (الزمر: ٦٣) وأمثالُها من الآيات التي تتضمن حقيقة عظمى تشير إلى التجلي الأعظم لاسم الله «القيوم».. سنورد وجهاً واحداً من تلك الحقيقة، وهو الآتي:

إنَّ قيام الأجرام السماوية في هذا الكون ودوامَها وبقاءها إنما هو مشدود بسر القيومية، فلو صَرف سرُّ القيومية وتجلّيه وجهَه -ولو لأقلَّ من دقيقة- لتبعثرت تلك الأجرام التي تفوق ضخامة بعضها ضخامة الكرة الأرضية بألوف المرات ولانتثرت ملايينُ الأجرام في فضاء غير متناهٍ ولاصطدم بعضُها ببعض ولَهَوت إلى سحيق العدم. لنوضح ذلك بمثال:

إننا مثلما نفهم قدرة قيومية مَن يُسيّر ألوف قصور ضخمة في السماء بدل الطائرات بمقدار ثباتِ تلك الكتل الهائلة التي في السماء ودوامِها، وبمدى انتظام دورانها وانقيادِها في جريها. نفهم أيضاً: تجليَ الاسم الأعظم: «القيوم» من منح القيوم ذي الجلال قياماً وبقاءاً ودواماً -بسر القيومية- لأجرامٍ سماوية لا حدّ لها في أثير الفضاء الواسع، وجريانِها في منتهى الانقياد والنظام والتقدير، وإسنادِها وإدامتها وإبقائها دون عمد ولا سند، مع أن قسماً منها أكبرُ من الأرض ألوفَ المرات وقسماً منها ملايين المرات، فضلاً عن تسخير كل منها وتوظيفها في مهمة خاصة، وجعلها جميعاً كالجيش المهيب، منقادةً خاضعة خضوعاً تاماً للأوامر الصادرة ممن يملك أمر كن فيكون. فكما أن ذلك يمكن أن يكون مثالاً قياسياً للتجلي الأعظم لاسم «القيوم» كذلك ذراتُ كل موجود -التي هي كالنجوم السابحة في الفضاء- فإنها قائمةٌ أيضاً بسر القيومية، وتجد دوامَها وبقاءها بذلك السر.

نعم، إن بقاء ذرات جسم كل كائن حي دون أن تتبعثر وتجمّعَها على هيئة معينة وتركيب معين وشكل معين حسب ما يناسب كلَّ عضو من أعضائه، علاوةً على احتفاظها بكيانها وهيئتها أمام سيل العناصر الجارفة دون أن تتشتت، واستمرارها على نظامها المتقن.. كل ذلك لا ينشأ -كما هو معلوم بداهة- من الذرات نفسها، بل هو من سر القيومية الإلهية التي ينقاد

لها كلُّ فردٍ حي انقيادَ الطابور في الجيش، ويخضع لها كلُّ نوعٍ من أنواع الأحياء خضوعَ الجيش المنظم. فمثلما يُعلن بقاءُ الأحياء والمركبات ودوامُها على سطح الأرض وسياحةُ النجوم وتجوالُها في الفضاء سرَّ القيومية تعلنُه هذه الذرات أيضاً بألسنة غير معدودة.

المسألة الثانية:

هذا المقام يقتضي الإشارة إلى قسم من فوائد الأشياء وحِكَمها المرتبطة بسر القيومية:

إن حكمة وجود كل شيء، وغايةَ فطرته، وفائدةَ خلقه، ونتيجة حياته -كلاً منها- إنما هي على أنواع ثلاثة.

النوع الأول: وهو المتوجه إلى نفسه وإلى الإنسان ومصالحه.

النوع الثاني: (وهو الأهم من الأول): هو أن كل شيء في الوجود بمثابة آيةٍ جليلة، ومكتوبٍ رباني، وكتاب بليغ، وقصيدة رائعة، يستطيع كلُّ ذي شعور أن يطالعَها ويتعرّف من خلالها على تجلّى أسماء الفاطر الجليل. أي إن كل شيء يعبّر عن معانيه الغزيرة لقرائه الذين لا يحصيهم العد.

أما النوع الثالث: فهو يخص الصانَع الجليل، وهو المتوجه إليه سبحانه، فلو كانت فائدةُ خلقِ الشيء في نفسه واحدةً فالتي يتطلع منها إلى الباري الجليل هي مئات من الفوائد، حيث إنه سبحانه يجعله موضعَ نظره إلى بدائع صنعه، ومحطّ مشاهدة تجلي أسمائه الحسنى فيه. فضمن هذا النوع الثالث العظيم من حكمة الوجود يكفي العيشُ لثانية واحدة. هذا وسيوضَّح في الشعاع الثالث سرٌّ من أسرار القيومية الذي يقتضي وجود كل شيء.

تأملتُ ذات يوم في فوائد الموجودات وحِكَمها من زاوية انكشاف طلسم الكائنات ولغز الخلق، فقلت في نفسي: لماذا يا تُرى، تَعرضُ هذه الأشياء نَفسَها وتُظهِرُها ثم لا تلبث أن تختفي وترحل مسرعةً؟.. انظر إلى أجسامها وشخوصها فإذا كل منها منظّم منسق قد أُلبس وجوداً على قدِّه وقدره بحكمةٍ واضحة وزُيّن بأجمل زينة وألطفها، وأُرسل بشخصية ذات حكمة وجسم منسق ليُعرَض أمام المشاهدين في هذا المعرض الواسع.. ولكن ما أن تمر بضعة أيام -أو بضع دقائق- إلّا وتراه يتلاشى ويختفي من دون أن يترك فائدة أو نفعاً.!! فقلت:

تُرى ما الحكمة من وراء هذا الظهور لنا لفترة قصيرة كهذه؟..كنت في لهفة شديدة للوصول إلى معرفة السر.. فأدركني لطفُ الرب الجليل سبحانه.. فوجدت -في ذلك الوقت- حكمةً مهمة من حِكَم مجيء الموجودات -ولاسيما الأحياء- إلى مدرسة الأرض، والحكمة هي: أن كل شيء -ولاسيما الأحياء- إنما هي كلمة إلهية ورسالة ربانية وقصيدةٌ عصماء، وإعلانٌ صريح في منتهى البلاغة والحكمة. فبعد أن يصبح ذلك الشيء موضعَ مطالعة جميع ذوي الشعور، ويفي بجميع معانيه لهم ويستنفد أغراضَه، تتلاشى صورتُه الجسدية وتختفي مادتُه تلك التي هي: بحكم لفظ الكلمة وحروفها، تاركة معانيها في الوجود. لقد كفتني معرفة هذه الحكمة طوال سنة.. ولكن بعد مضيها انكشفت أمامي المعجزاتُ الدقيقة في المصنوعات والإتقان البديع فيها ولاسيما الأحياء. فتبيّن لي: أنَّ هذا الإتقان البديع جداً والدقيق جداً في جميع المصنوعات ليس لمجرد إفادة المعنى أمام أنظار ذوي الشعور؛ إذ رغم أن ما لا يحد من ذوي الشعور يطالعون كلَّ موجود إلّا أن مطالعتهم -مهما كانت- فهي محدودة، فضلاً عن أنه لا يستطيع كلُّ ذي شعور أن ينفذ إلى دقائق الصنعة وإبداعها في الكائن الحي ولا يقدر على اكتناه جميع أسرارها.

فأهمُّ نتيجة إذن في خلق الأحياء وأعظمُ غاية لفطرتها إنما هي: عرضُ بدائع صنع القيوم الأزلي أمامَ نظره سبحانه، وإبرازُ هدايا رحمته وآلائه العميمة التي وهبها للأحياء، أمام شهوده جل وعلا.. لقد منحتني هذه الغاية اطمئناناً كافياً وقناعة تامة لزمن مديد. وأدركتُ منها: أن وجود دقائق الصنع وبدائع الخلق في كل موجود -ولاسيما الأحياء- بما يفوق الحد، إنما هو لعرضها أمام القيوم الأزلي. أي أن حكمة الخلق هي: مشاهدةُ القيوم الأزلي لبدائع خلقه بنفسه.. وهذه المشاهدة تستحق هذا البذل العميم وهذه الوفرة الهائلة في المخلوقات.

ولكن بعد مضي مدة.. رأيت أن دقائق الصنع والإتقان البديع في شخوص الموجودات وفي صورتها الظاهرة لا تدوم ولا تبقى، بل تتجدد بسرعة مذهلة، وتتبدل آنا بعد آن، وتتحول ضمن خلق مستمر متجدد وفعالية مطلقة.. فأخذتُ أوغل في التفكير مدة من الزمن. وقلت: لابد أن حكمة هذه الخلاقية والفعالية عظيمةٌ عظمَ تلك الفعالية نفسها.. وعندها بدت الحكمتان السابقتان ناقصتين وقاصرتين عن الإيفاء بالغرض. وبدأت أتحرّى حكمةً أخرى بلهفة عارمة، وأبحث عنها باهتمام بالغ..

وبعد مدة -ولله الحمد والمنة- تراءت لي حكمةٌ عظيمة لا حد لعظمتها وغاية جليلة لا منتهى لجلالها، تراءت لي من خلال فيض نور القرآن الكريم ونبعت من سر القيومية.. فأدركت بها سراً إلهياً عظيماً في الخلق، ذلك الذي يطلق عليه طلسم الكائنات و لغز المخلوقات!

سنذكر في الشعاع الثالث هنا بضعَ نقاط من هذا السر ذكراً مجملاً حيث إنه قد فصل تفصيلاً كافياً في «المكتوب الرابع والعشرين» من «المكتوبات».

نعم، انظروا إلى تجلي سر القيومية من هذه الزاوية وهي : أن الله أخرج الموجوداتِ من ظلمات العدم ووهب لها الوجودَ، ومنحها القيام والبقاء في هذا الفضاء الواسع، وبوّأ الموجودات موقعاً لائقاً لتنال تجلياً من تجليات سر القيومية كما بينته الآيةُ الكريمة: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَا ﴾ (الرعد: ٢). فلولا هذه الركيزة العظيمة وهذا المستند الرصين للموجودات، فلا بقاء لشيء بل لتدحرج كلُّ شيء في خضم فراغ لا حدّ له، ولهوى إلى العدم.

وكما تستند جميعُ الموجودات إلى القيوم الأزلي ذي الجلال في وجودها وفي قيامها وبقائها، وأن قيام كل شيء به سبحانه.. كذلك جميعُ أحوال الموجودات قاطبة وأوضاعها كافة وكيفياتها المتسلسلة كلها مرتبطةٌ بداياتُها ارتباطاً مباشراً بسر القيومية، كما توضحها الآية الكريمة ﴿ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ ﴾ (هود: ١٢٣) إذ لولا استنادُ كل شيء إلى تلك النقطة النورانية، لنتج ما هو محال لدى أرباب العقل من ألوف الدور والتسلسل، بل بعدد الموجودات. ولنوضح ذلك بمثال:

إن الحفظ، أو النور، أو الوجود، أو الرزق أو ما شابهه من أي شيء كان، إنما يستند -من جهة- إلى شيء آخر، وهذا يستند إلى آخر، وهذا إلى آخر وهكذا.. فلابد من نهاية له، إذ لا يعقل ألّا ينتهي بشيء. فمنتهى أمثال هذه السلاسل كلها إنما هو في سر القيومية. وبعد إدراك هذا السر سر القيومية لا يبقى معنىً لاستناد أفراد تلك السلاسل الموهومة بعضها بالبعض الآخر، بل تُرفع نهائياً وتُزال. فيكون كل شيء متوجهاً توجهاً مباشراً إلى سر القيومية.

الشعاع الثالث:

سنشير في مقدمة أو مقدمتين إلى طرفٍ من انكشاف سر القيومية الذي تتضمنه الخلاقية الإلهية والفعالية الربانية كما تشير إليها أمثال هذه الآيات الكريمة:

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (الرحمن: ٢٩) ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ (البروج:١٦) ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ (الروم:٥٤) ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (يس:٨٣) ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ (الروم:٥٠).

حينما ننظر إلى الكائنات بعين التأمل، نرى: أن المخلوقات تضطرب في خضم سيل الزمان وتتعاقب قافلةً إثر قافلة. فقسمٌ منها لا يلبث ثانية ثم يغيب، وطائفةٌ منها تأتي لدقيقة واحدة ثم تمضي إلى شأنها. ونوع منها يمر إلى عالم الشهادة مرّ الكرام ثم يلج في عالم الغيب بعد ساعة. وقسم منها يحط رحلَه في يومٍ ثم يغادر، وقسم منها يمكث سنة ثم يمضي، وقسم يمضي عصراً ثم يرحل، وآخر يقضي عصوراً ثم يترك هذا العالم.. وهكذا فكلٌّ يأتي ثم يغادر بعد أداء مهمته الموكولة إليه. فهذه السياحة المذهلة للعقول، وذلك السيل الجاري للموجودات والسفر الدائب للمخلوقات، إنما تتم بنظام متقن وميزان دقيق وحكمة تامة، والذي يقود هذه الرحلة المستمرة ويمسك بزمامها، يقودها ببصيرة ويسيّرها بحكمة، ويسوقها بتدبير بحيث لو اتحدت جميع العقول وأصبحت عقلاً واحداً لما بلغ معرفةَ كنه هذه الرحلة ولا يصل إلى إدراك حكمتها، ناهيك عن أن يجد فيها نقصاً أو قصوراً.

وهكذا ضمن هذه الخلاقية الربانية يسوق الخالقُ تلك المصنوعات اللطيفة المحبوبة إليه -ولاسيما الأحياء- إلى عالم الغيب دون أن يمهلها لتتفسح في هذا العالم. ويعفيها من مهماتها في حياتها الدنيوية دون أن يدعها تنشرح وتنبسط، فيملأ دار ضيافته هذه بالضيوف ويخلّيها منهم باستمرار دون رضاهم، جاعلاً من الكرة الأرضية ما يشبه لوحة كتابة -كالسبورة- يكتب فيها باستمرار قلم القضاء والقدر كتاباته ويجددها، ويبدلها، بتجليات مَن ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ (البقرة:٢٥٨).

وهكذا، فإن سراً من أسرار هذه الفعالية الربانية وهذه الخلّاقية الإلهية، ومقتضياً

أساساً من مقتضياتها وسبباً من الأسباب الداعية لها إنما هو حكمةٌ عظيمة لا حدّ لها ولانهاية، هذه الحكمة تتشعب إلى ثلاث شعب مهمة:

فالشعبة الأولى من تلك الحكمة:

هي أن كلَّ نوع من أنواع الفعالية -جزئياً كان أم كلياً- يورث لذةً، بل إنَّ في كل فعالية لذةً، بل الفعالية نفسها هي عينُ اللذة، بل الفعالية هي تظاهر الوجود الذي هو عينُ اللذة، وهو انتفاضةٌ بالتباعد عن العدم الذي هو عينُ الألم.

وحيث إنَّ صاحبَ كلِّ قابلية يرقُب بلهفة ولذة ما ينكشف عن قابلياته بفعالية ما، وإن تظاهر كل استعداد بفعالية إنما هو ناشئٌ من لذةٍ مثلما يولّد لذةً، وإن صاحب كل كمال أيضاً يتابع بلهفة ولذةٍ تظاهرَ كمالاته بالفعالية، فإذا كان في كل فعالية لذةٌ كامنة مطلوبةٌ كهذه وكمالٌ محبوب كهذا، والفعالية نفسُها كمال، وتشاهَد في عالم الأحياء تجلياتُ أزليةٍ لرحمةٍ واسعة ومحبة لا نهاية لها نابعة من حياة سرمدية.. فلا شك أن تلك التجليات تدل على: أن الذي يحبّب نفسَه إلى مخلوقاته، ويحبّهم ويرحمهم بإسباغ نِعَمه وألطافه عليهم على هذه الصورة المطلقة، تقتضي حياتُه السرمدية عشقاً مطلقاً (لاهوتياً إذا جاز التعبير) ومحبةً مقدسة مطلقة، ولذةً -منه- منـزّهة سامية.. وأمثالها من الشؤون الإلهية المقدسة اللائقة بقدسيته والمناسبة لوجوب وجوده. فتلك الشؤون الإلهية بمثل هذه الفعالية التي لا حد لها، وبمثل هذه الخلاقية التي لا نهاية لها، تجدِّد العالَم وتبدِّله وتخضّه خضاً.

الشعبة الثانية من حكمة الفعالية الإلهية المطلقة المتوجهة إلى سر القيومية:

هذه الحكمة تطل على الأسماء الإلهية الحسنى.

من المعلوم أن صاحب كلِّ جمال يرغب أن يرى جمالَه ويُريَه الآخرين، ويودّ صاحبُ المهارة أن يلفت الأنظار إليه بعرض مهاراته وإعلانه عنها. فالحقيقة الجميلة الكامنة، والمعنى الجميل المخبوء يتطلعان إذن إلى الانطلاق واستقطاب الأنظار.

ولما كانت هذه القواعد الرصينة ساريةٌ في كل شيء، كلٌّ حسب درجته. فلابد أن كل مرتبة من مراتب كل اسم من ألف اسم واسم من الأسماء الحسنى للجميل المطلق وللقيوم

ذي الجلال، ينطوي على حُسنٍ حقيقي، وكمالٍ حقيقي، وجمال حقيقي، وحقيقة جميلة باهرة بشهادة الكائنات كلها، وتجليات تلك الأسماء الظاهرة عليها، وإشارات نقوشها البديعة فيها، بل إن كلَّ مرتبة من مراتب كل اسم من الأسماء الحسنى فيها من الحسن والجمال والحقائق الجميلة ما لا يحصره حدّ.

وحيث إن هذه الموجودات وهذه الكائنات هي مرايا عاكسة لتجليات جمال هذه الأسماء المقدسة.. وهي لوحاتٌ بديعة تُعرَض فيها نقوشُ تلك الأسماء الجميلة.. وهي صحائفُها التي تعبّر عن حقائقها الجميلة. فلابد أن تلك الأسماء الدائمة الخالدة ستَعرض تجلياتِها غير المحدودة، وتبرز نقوشَها الحكيمة غير المعدودة، وتُشهر صحائفَ كتُبها أمامَ نظر مسمّاها الحق وهو «القيوم» ذو الجلال، فضلاً عن عرضها أمامَ أنظار ما لا يعد من ذوي الأرواح وذوي الشعور لمطالعتها والتأمل فيها. ولا بد أنها تجدّد الكائنات عامة وعلى الدوام بتجلياتها وتُبدِّلُها استناداً إلى ذلك العشق الإلهي المقدس، وبناءً على سر القيومية الإلهية، وذلك لأجل إبراز لوحاتٍ لا نهاية لها من شيء محدود، وعرض شخوصٍ لا حدّ لها من شخص واحد، وإظهار حقائق كثيرة جداً من حقيقة واحدة.

الشعاع الرابع:

الشعبة الثالثة من حكمة الفعالية الدائمة المحيّرة في الكون:

هي أن كلَّ ذي رحمة يُسرُّ بإرضاء الآخرين، وكل ذي رأفة ينشرح إذا ما أدخل السرورَ إلى قلوب الآخرين، وهكذا يبتهج ذو المحبة بإبهاج مخلوقاته الجديرة بالبهجة، كما يسعد كلُّ ذي همة عالية وصاحب غيرة وشهامة بإسعاده الآخرين، ومثلما يفرح كلُّ عادل بجعل أصحاب الحقوق ينالون حقَّهم ويشكرونه لوضع الحق في نصابه وإنزال العقاب على المقصّرين، يزهو كلُّ صنّاع ماهر ويفتخر بعرض صنعته وإشهار مهارته لدى قيام مصنوعاته بإنتاج ما كان يتوقعه على أتم وجه يتصوره.

فكلٌّ من هذه الدساتير المذكورة آنفاً، قاعدةٌ أساسية عميقة راسخة جارية في الكون كله مثلما تجري في عالم الإنسان.

ولقد وضّحنا في «الموقف الثاني من الكلمة الثانية والثلاثين» أمثلة ثلاثة تبين جريان هذه القواعد الأساسية في تجليات الأسماء الحسنى، نرى من المناسب اختصارها هنا فنقول:

إنَّ الذي يملك رحمة فائقة وهمة عالية مع منتهى الكرم والسخاء، يسعده جداً أن يغدق على فقراء مدقعين ومحاويج مضطرين ويتفضل عليهم بكرمه وجوده، فيُعدّ لهم موائدَ ولائم فاخرة ومأكولات نفيسة على متن سفينة عامرة تجري بهم في بحار الأرض ليُدخل البهجةَ والسرور في قلوبهم ضمن سياحة جميلة ونزهة لطيفة.. فهذا الشخص يستمتع من مظاهر الشكر المنبعثة من أولئك الفقراء، وينشرح صدرُه انشراحاً عظيماً وهو يشاهد تمتعهم بمباهج النعم والآلاء، ويفتخر بسرورهم ويزهو بفرحهم.. كل ذلك بمقتضى ما أودع الله في فطرته من سجايا سامية وصفات رفيعة.

فإذا كان الإنسان الذي هو بمثابة أمينٍ على ودائع الخالق الكريم وموظفٍ للتوزيع ليس إلّا ، إذا كان يستمتع وينشرح ويتلذذ إلى هذا القدر لدى إكرامه الآخرين في ضيافة جزئية، فكيف إذن يا ترى بـ«الحي القيوم» - ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ - الذي تنطلق إليه آياتُ الحمد والشكر وتُرفع إليه أكفُّ الثناء والرضى بالدعاء والتضرع من مخلوقاتٍ لا حدّ لهم من الأحياء إلى الإنسان والملائكة والجن والأرواح، الذين حملهم في سفينة الرحمن -الأرض- وأسبغ عليهم نِعَمه ظاهرةً وباطنة بأنواع مطعوماته المنسجمة تماماً مع ما غرز فيهم من أذواق وأرزاق، وتفضَّل عليهم بهذه السياحة الربانية في أرجاء الكون. فضلاً عن جعله كلَّ جنةٍ من جنانه في دار الخلود، دار ضيافة دائمة مُعدَّة فيها كل ما تشتهيه الأنفسُ وتلذ الأعين... فجميعُ آيات الشكر والحمد والرضى المنطلقة من جميع المخلوقات قاطبة والمنبعثة من سرورهم وفرحهم وابتهاجهم بالنعم والآلاء العميمة عليهم والمتوجهة كلها إلى «الحي القيوم» تولِّد من الشؤون الإلهية، المقدسة التي تقتضي هذه الفعالية الدائمة والخلاقية المستمرة، تلك الشؤون التي يَعجز التعبيرُ عنها ولم يؤذَن لنا بالإفصاح عنها، بل ربما يُشار إليها بأسماء: الرضى المقدس والافتخار المقدس و اللذة المقدسة وما شابهها من الأسماء التي نُعبّر بها -نحن البشر- عن معاني الربوبية المنـزّهة.

ومثال آخر:

إذا قام صنّاع ماهر، بصنع حاكٍ -بلا اسطوانة- يعبّر عما يريده منه ويعمل على أفضل صورة يرغبها هو، كم يكون ذلك الصناع مفتخراً، وكم يكون متلذذاً من رؤية صنعته على هذه الصورة وكم يكون مسروراً حتى يردد في نفسه: «ما شاء الله»..

فإذا كانت صنعةٌ صغيرة صورية -من دون إيجاد حقيقي- تثير في روح صانعِها إلى هذه الدرجة من مشاعر الافتخار والرضى. فكيف بالصانع الحكيم الذي أوجد هذه الموجودات كلَّها وجعلها موسيقى إلهية تعبّر عن شكرها وتسبيحها وتقديسها بأنواعٍ من النغمات وأنواع من الكلام، كما جعلها مصنعاً عجيباً فضلاً عما أسبغ على كل نوع من أنواع الكائنات، وكلِّ عالَم من عوالم الكون من صنعةٍ متقنة بديعة متباينة معجزة بخوارقها، أضف إلى ذلك المكائن الكثيرة التي أودعها في رؤوس ذوي الحياة الشبيهة بالحاكي وآلات التصوير وأجهزة البث والاستقبال، بل أودع أعجب من هذه الأجهزة المعجزة حتى في رأس أصغر حيوان! بل لم يودع في رأس الإنسان مجرد حاكٍ بلا اسطوانة، ولا آلة تصوير بلا عدسة، ولا هاتفاً بلا سلك بل مكائن أعجب بكثير وخوارق أعظم وأعظم مما ذكر بكثير.

فما يُنشئه عمل هذه المكائن العاملة وفق إرادته والمودَعة في رأس الإنسان المخلوق في أحسن تقويم من معاني الافتخار المقدس والرضى المقدس، وأمثالها من المعاني الجليلة والشؤون المقدسة للربوبية -التي هي من هذا النوع- يستلزم حتماً هذه الفعالية الدائمة المشاهدة.

ومثلاً: إن الحاكم العادل يجد لذةً ومتعة ورضىً عندما يأخذ حقَّ المظلوم من الظالم ويجعل الحق يأخذ نصابَه، ويفتخر لدى صيانته الضعفاءَ من شرور الأقوياء، ويسرّ لدى منحه كل فرد ما يستحقه من حقوق.. كل ذلك من مقتضيات الحاكمية والعدالة وقواعدهما الأساس. فلابد أن الحاكم الحكيم العادل الذي هو «الحي القيوم» بمنحِه شرائطَ الحياة في صورة حقوق الحياة للمخلوقات كافة ولاسيما الأحياء.. وبإحسانه إليهم بأجهزة تحافظ على حياتهم.. وبحمايته الضعفاء من شرور الأقوياء بكل رحمة ورأفة.. وبتوليه إظهار سر العدالة في الكون بإعطاء كلِّ ذي حق من الأحياء حقَّه كاملاً.. وبإنزال شيء من العقوبة بالظالمين -في هذه الدنيا- وبخاصة ما يحصل من التجلي الكامل للعدالة العظمى في المحكمة الكبرى ليوم

الحشر الأعظم.. يحصل من كل هذا ما نعجز عن التعبير عنه من شؤون ربانية ومعانٍ قدسية جليلة هي التي تقتضي هذه الفعالية الدائمة في الكون.

وهكذا في ضوء هذه الأمثلة الثلاثة:

فإن الأسماء الإلهية عامة، وكلّ اسم منها خاصة، يقتضي هذه الخلّاقية الدائمة، حيث يكون محوراً لقسم من هذه الشؤون الإلهية المقدسة وأمثالها ضمن هذه الفعالية الدائمة.

وحيث إن كل قابليةٍ وكل استعداد يورث فرحاً وانشراحاً ولذةً، بمنحها الثمارُ والفوائد لدى انبساطها وانكشافها.. وإن كل موظف يشعر -عند إتمام الوظيفة وإنهائها على الوجه المطلوب- براحة وأيّ راحة.. وإن جني ثمرات كثيرة من بذرة واحدة، واغتنامَ ربحِ مئات الدراهم من درهم واحد، هي حالات مفرحة جداً لأصحابها وتعدّ تجارة رابحة لهم..

فلابد أن يفهم مدى أهمية المعاني المقدسة وشؤون الربوبية الإلهية الناشئة من الفعالية الدائمة والخلاقية الربانية التي تكشف عن جميع الاستعدادات التي لا تحد، وجميع القابليات التي لا تعد، لجميع المخلوقات غير المحدودة.. والتي تُنهي وظيفةَ جميع المخلوقات بعد أن تستخدمها في وظائف جسيمة وترقّيها بهذا التسريح إلى مراتب أسمى وأعلى -كَأَنْ ترقى العناصرَ إلى مرتبة المعادن، والمعادنِ إلى حياة النباتات، والنباتات إلى درجة حياة الحيوانات بما تمدّها من رزق، والحيوانات إلى مرتبة الإنسان الشاعرة والعالية بالشكر والحمد- والتي تجعل كل كائن يخلُف أنواعاً من الوجود كروحه وماهيته وهويته وصورته بعد زوال ظاهر وجوده لتؤدي المهمة نفسها كما وضح في «المكتوب الرابع والعشرين».

جواب قاطع عن سؤال مهم

يقول قسم من أهل الضلالة: إنَّ الذي يغيّر الكائنات بفعالية دائمة ويبدّلها، يلزم أن يكون هو متغيراً ومتحولاً أيضاً.

الجواب: كلا ثم كلا. حاشَ لله ألف ألف مرة حاشَ لله!

إن تغيّرَ أوجه المرايا في الأرض، لا يدل على تغيّر الشمس في السماء، بل يدل على إظهار تجدد تجليات الشمس. فكيف بالذي هو أزلي وأبدي وسرمدي وفي كمال مطلق وفي استغناء

مطلق (عن الخلق) وهو الكبير المتعال المقدس عن المادة والمكان والحدود، والمنـزّه عن الإمكان والحدوث، فتغيّر هذا الذات الأقدس محالٌ بالمرة.

ثم إن تغير الكائنات، ليس دليلاً على تغيّره هو، بل هو دليل على عدم تغيره، وعدم تحوّله سبحانه وتعالى. لأنَّ الذي يحرّك أشياءً عديدة بانتظام دقيق ويغيّرها، لابد ألّا يكون متغيراً وألّا يتحرك..

مثال ذلك: أنك إذا كنت تحرك كراتٍ كبيرة وصغيرة مرتبطة بعدة خيوط؛ حركة منتظمة ودائمة، وتضعها في أوضاع منتظمة، ينبغي أن تكون أنت ثابتاً في مكانك دون أن تتحول عنه وإلّا اختل الانتظام.

ومن القواعد المشهورة: «إن الذي يحرّك بانتظام لا ينبغي أن يتحرك، والذي يغيّر باستمرار لا ينبغي أن يكون متغيراً». كي يستمر ذلك العمل في انتظامه.

ثانياً: إن التغير والتبدل ناشئ من الحدوث، ومن التجدد بقصد الوصول إلى الكمال، ومن الحاجة، ومن المادية، ومن الإمكان. أما الذات الأقدس؛ فهو قديم أزلي، وفي كمال مطلق، وفي استغناء مطلق، منزّه عن المادة، وهو الواجب الوجود، فلابد أن التبدل والتغير محال في حقه وغير ممكن أصلاً.

الشعاع الخامس:

المسألة الأولى: إذا أردنا أن نرى التجلي الأعظم لاسم الله «القيوم» فما علينا إلّا أن نجعل خيالَنا واسعاً جداً بحيث يمكنه أن يشاهد الكون بأسره، فنجعل منه نظارتين إحداهما ترى أبعدَ المسافات كالمرصد والأخرى تشاهد أصغرَ الذرات. فإذا ما نظرنا بالمنظار الأول نرى: أن ملايين الكرات الضخمة والكتل الهائلة التي منها ما هو أكبرُ من الأرض بألوف المرات، قد رُفعت بتجلي اسم «القيوم» بغير عمَد نراها، وهي تجري ضمن أثير لطيف ألطفَ من الهواء، وتسخَّر لأجل القيام بمهام عظيمة في حركاتها وفي ثباتها الظاهر.

لنرجع الآن إلى المنظار الآخر.. لنرى أصغرَ الأشياء، فإذا بنا أمام ذرات متناهية في الصغر تشكل أجسام الأحياء -بسرّ القيومية- وهي تأخذ أوضاعاً منتظمة جداً كالنجوم، وتتحرك

وفق نظام معين وتناسق مخصص منجزة بها وظائف جمة، فإن شئت فانظر إلى الكريات الحمر والبيض تراهما تتحركان حركاتٍ خاصة شبيهة بحركات المولوية لإنجاز مهمات جسيمة في الجسم وهما تجريان في السيل الدافق للدم.

خلاصة الخلاصة [1]

لقد ارتأينا أن ندرج هنا خلاصة تبين الضياءَ المقدس الحاصل من امتزاج أنوار الأسماء الستة للاسم الأعظم، كامتزاج الألوان السبعة لضوء الشمس - ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ - ولأجل مشاهدة هذا النور المقدس نسوق هذه الخلاصة:

تأمل في موجودات الكون كله وانظر إليها من وراء هذا التجلي الأعظم لاسم «القيوم» الذي منحَ البقاء والدوام والقيام لها ترَ: أن التجلي الأعظم لاسم «الحي» قد جعل تلك الموجودات الحية ساطعةً منورة بتجليه الباهر، وجعل الكائناتِ كلَّها منورة بنوره الزاهر، حتى يمكن مشاهدة لمعان نور الحياة على الأحياء كافة.

والآن انظر؛ إلى التجلي الأعظم لاسم «الفرد» من وراء اسم «الحي» ترَه قد ضمّ جميع الكائنات بأنواعها وأجزائها واستوعبها ضمن وحدة واحدة، فهو يطبع على جبهة كل شيء ختم الوحدانية، ويضع على وجه كل شيء ختمَ الأحدية، فيجعل كل شيء يعلن تجلّيه بألسنة لا حد لها ولا نهاية.

ثم انظر من خلف اسم «الفرد» إلى التجلي الأعظم لاسم «الحكم» ترَ: أنه قد ضم الموجودات كلها من أعظم دائرة فيها إلى أصغرها كلياً كان أم جزئياً -ابتداء من النجوم وانتهاء إلى الذرات- منح كل موجود ما يستحق من نظام مثمر وما يلائمه من انتظام حكيم وما يوافقه من انسجام مفيد. فلقد زيّن اسم «الحكم» الأعظم الموجودات كلها ورصّعها بتجليه الساطع.

ثم انظر من خلف التجلي الأعظم لاسم «الحكم» إلى التجلي الأعظم لاسم «العدل» -كما أوضحناه في النكتة الثانية- ترَه يدير جميعَ الكائنات بموجوداتها ضمن فعالية دائمة بموازينه الدقيقة ومقاييسه الحساسة ومكاييله العادلة بحيث يجعل العقولَ في حيرة وإعجاب،

(١) هذه الخلاصة هي الأساس الذي تستند إليها الرسائل الصغيرة للّمعة الثلاثين، وهي زبدة موضوعاتها التي تحمل أسرار الأسماء الستة الحسنى للاسم الأعظم. (المؤلف).

فلو فقد نجمٌ من الأجرام السماوية توازنَه لثانية واحدة. أي إذا انفلت من تجلي اسم «العدل» لحلَّ الهرجُ والمرج في النجوم كلِّها ولأدّى -لا محالة- إلى حدوث القيامة.

وهكذا فكل دائرة من دوائر الوجود وكلُّ موجود من موجوداتها ابتداء من الدوائر العظيمة -المسماة بدرب التبانة- إلى حركاتِ أصغرِ الموجودات في الجسم من كريات حمر وبيض، كلٌّ منها قد فُصّل تفصيلاً خاصاً وقُدّر تقديراً دقيقاً وقيس بمقاييس حساسة، ومُنح شكلاً معيناً ووضعاً مخصوصاً بحيث يُظهر -كلٌّ منها- الطاعة التامة والانقياد المطلق ودينونةً كاملة للأوامر الصادرة من الذي يملك أمر «كن فيكون» ابتداء من جيوش النجوم الهائلة المتلألئة في الفضاء إلى جيوش الذرات المتناهية في الصغر.

فانظر الآن من خلف التجلي الأعظم لاسم الله « العدل» ومن خلاله، وشاهد التجلي الأعظم لاسم الله «القدوس» -الذي وضّحناه في النكتة الأولى- تَرَ : أن هذا التجلي الأعظم لاسم «القدوس» قد جعل موجوداتِ الكائنات نظيفةً، نقية طاهرة، براقة، صافية، زكية، مزينة، وجميلة وحوّلها إلى ما يشبه مرايا جميلة مجلوة لائقة لإظهار الجمال البديع المطلق، وتناسب عرض تجليات أسمائه الحسنى.

نحصل مما تقدم: أنَّ هذه الأسماء والأنوار الستة للاسم الأعظم، قد عمّت الكون كله وغطت الموجودات قاطبة ولَفَعَتْها بأستار مزركشة ملونة بأزهى الألوان المتنوعة وأبدع النقوش المختلفة وأروع الزينات المتباينة.

المسألة الثانية من الشعاع الخامس:

إنَّ جلوة من تجليات القيومية على الكون، وشعاعاً من نورها مثلما يعمّ الكون بمظاهر الواحدية والجلال، فإنه يبرز على هذا الإنسان -الذي يمثل محور الكون وقطبه وثمرته الشاعرة- مظاهر الأحدية والجمال. وهذا يعني: أنَّ الكائنات التي هي قائمةٌ بسر القيومية فهي تقوم أيضاً -من جهة- بالإنسان؛ الذي يمثل أكمل مظهر من مظاهر تجلي اسم «القيوم». أي إن القيومية تتجلى في الإنسان تجلياً يجعل منه عموداً سانداً للكائنات جميعاً، بمعنى أن معظم الحِكَم الظاهرة في الكائنات وأغلب مصالحها وغاياتها تتوجه إلى الإنسان.

نعم، يصح أن يقال: إن «الحي القيوم» سبحانه قد أراد وجود الإنسان في هذا الكون، فخلق الكون لأجله، وذلك لأن الإنسان يمكنه أن يدرك جميع الأسماء الإلهية الحسنى ويتذوقها

بما أودع الله فيه من مزايا وخصائص جامعة. فهو يدرك -مثلاً- كثيراً من معاني تلك الأسماء بها يتذوق من لذائذ الأرزاق المنهمرة عليه، بينما لا يبلغ الملائكة إلى إدراك تلك الأسماء بتلك الأذواق الرزقية.

فلأجل جامعية الإنسان المهمة يُشعِر «الحي القيوم» الإنسانَ بجميع أسمائه الحسنى، ويعرّفه بجميع أنواعَ إحسانه، ويذوّقه طعومَ آلائه، فمَنحَه معدةً ماديةً يستطيع بها أن يتذوق ما أغدق عليه من نِعمٍ لذيذة قد بسطها في سُفرة واسعة سعة الأرض. ثم وهب له حياة، وجعل هذه الحياة كتلك المعدة المادية تستطيع أن تتنعم بأنواع من النعم المُعَدّة على سُفرة واسعة مفروشة أمامها وتتلذذ بها بما زودها -سبحانه- من مشاعر وحواس لها القدرة أن تمتد -كالأيدي- إلى كلِّ نعمة من تلك النعم، فتؤدي عند ذلك حقَّها من أنواع الشكر والحمد. ثم وهب له -فوق معدة الحياة هذه- معدة الإنسانية، وهذه المعدة تطلب رزقاً ونعَماً أيضاً. فجعل العقلَ والفكر والخيال بمثابة أيدي تلك المعدة، لها القدرة على بلوغ آفاق أوسع من ميادين الحياة المشهودة، وعندها تستطيع الحياة الإنسانية أن تؤدي ما عليها من شكر وحمد تجاه بارئها حيث تمتد أمامَها سُفرةُ النِعَم العامرة التي تسع السماوات والأرض. ثم لأجل أن يمدّ أمام الإنسان سفرةَ نعمٍ أخرى عظيمة جعل عقائد الإسلام والإيمان بمثابة معدة معنوية تطلب أرزاقاً معنوية كثيرة فمدّ سفرةً مليئة بالرزق المعنوي لهذه المعدة الإيمانية وبَسَطها خارج الممكنات المشاهدة. فضمّ الأسماءَ الإلهية في تلك السفرة العظيمة.. ولهذا يستشعر الإنسان -بتلك المعدة المعنوية- ويتمتع بأذواق رفيعةٍ لا منتهى لها، نابعةٍ من تجليات اسم «الرحمن» واسم «الحكيم» حتى يردد: (الحمد لله على واسع رحمته وجليل حكمته)..

وهكذا -مكّن الخالقُ المنعِم الإنسانَ- بهذه المعدة المعنوية العظمى -ليستفيد ويغنم نعماً إلهية لا حد لها، ولاسيما أذواقُ محبته الإلهية، في تلك المعدة فإن لها آفاقاً لا تحدّ وميادين لا تحصر.

وهكذا جعل «الحي القيوم» سبحانه الإنسان مركزاً للكون، ومحوراً له، بل سخّر الكونَ له فمدّ أمامه سفرة عظيمة عِظم الكون لتتلذذ أنواعُ معداته المادية والمعنوية.

أما حكمة قيام الكون بسر القيومية على الإنسان -من جهة- فهي للوظائف المهمة الثلاث التي أنيطت بالإنسان:

الأولى: تنظيم جميع أنواع النعم المبثوثة في الكائنات بالإنسان وربطها بأواصر المنافع التي تخص الإنسان، كما تنظَّم خرز المسبحة بالخيط، فتُربط رؤوسُ خيوط النعم بالإنسان ومصالحه ومنافعه. فيكون الإنسان بما يشبه فهرساً لأنواع ما في خزائن الرحمة الإلهية ونموذجاً لمحتوياتها.

الوظيفة الثانية: كونُ الإنسان موضعَ خطابه سبحانه بما أودع فيه من خصائص جامعة أهّلته ليكون موضعَ خطابه سبحانه وتعالى، ومقدّراً لبدائع صنائعه ومُعجباً بها، ونهوضُه بتقديم آلاء الشكر والثناء والحمد الشعوري التام. على ما بُسط أمامَه من أنواع النعم والآلاء العميمة.

الوظيفة الثالثة: قيامُ الإنسان بحياته بمهمة مرآة عاكسة لشؤون «الحي القيوم» ولصفاته الجليلة المحيطة، وذلك بثلاثة وجوه:

الوجه الأول: هو شعور الإنسان بقدرة خالقِه سبحانه المطلقة ودرجاتها غير المحدودة بما هو عليه من عجز مطلق. فيدرك مراتبَ تلك القدرة المطلقة بما يحمل من درجات العجز. ويدرك كذلك رحمة خالقه الواسعة ودرجاتِها بما لديه من فقر، ويفهم أيضاً قوة خالقه العظيمة بما يكمن فيه من ضعف... وهكذا.

وبذلك يكون الإنسان مؤدياً مهمةَ مرآةٍ قياسية صغيرة لإدراك صفات خالقه الكاملة، وذلك بما يملك من صفاتٍ قاصرةٍ ناقصة؛ إذ كما أن الظلام كلما اشتدّ سطع النور أكثر، فيؤدي هذا الظلام مهمة إراءة المصابيح، فالإنسان أيضاً يؤدي مهمة إراءة كمالات صفات بارئه سبحانه بما لديه من صفات ناقصة مظلمة.

الوجه الثاني: إنَّ ما لدى الإنسان من إرادة جزئية وعلمٍ قليل وقدرةٍ ضئيلة وتملّكٍ في ظاهر الحال وقابليةٍ على إعمار بيته بنفسه، يجعله يدرك بهذه الصفات الجزئية خالقَ الكون العظيم ويفهم مدى مالكيتِه الواسعة وعظيم إتقانه وسعة إرادته وهيمنة قدرته وإحاطة علمه. فيدرك أن كلاً من تلك الصفات إنما هي صفات مطلقة وعظيمة لا حدّ لها ولا نهاية. وبهذا يكون الإنسان مؤدياً مهمة مرآة صغيرة لإظهار تلك الصفات وإدراكها.

أما الوجه الثالث: من قيام الإنسان بمهمة مرآة عاكسة لكمالات الصفات الإلهية فله وجهان:

إظهارُه بدائعَ الأسماء الإلهية الحسنى المتنوعة وتجلياتها المختلفة في ذاته. لأن الإنسان بمثابة فهرس مصغر للكون كله -بما يملك من صفات جامعة- وكأنه مثالُه المصغر، لذا فتجليات الأسماء الإلهية في الكون عامةً نراها تتجلى في الإنسان بمقياس مصغر.

الوجه الثاني: أداؤه مهمةَ المرآة العاكسة للشؤون الإلهية، أي إن الإنسان كما يشير بحياته إلى حياة «الحي القيوم» فإنه بوساطة ما ينكشف في حياته الذاتية من حواسَّ كالسمع والبصر وأمثالِها يفهم -ويبيّن للآخرين- صفاتِ السمع والبصر وغيرها من الصفات الجليلة المطلقة «للحي القيوم».

ثم إن الإنسان الذي يملك مشاعر دقيقة جداً وكثيرة جداً -وقد لا تنكشف ضمن حياته وإنما عندما يحفَّز أو يُثار- فتظهر تلك المشاعر بأشكالٍ متنوعة وانفعالات مختلفة، فإنه بوساطة هذه المشاعر الدقيقة والمعاني العميقة يؤدي مهمةَ عرض الشؤون الذاتية «للحي القيوم». فمثلاً: الحب والافتخار والرضى والانشراح والسرور وما شابهها من المعاني التي تتفجّر لدى الإنسان في ظروف خاصة، يؤدي الإنسان بها مهمةَ الإشارة إلى هذه الأنواع من الشؤون الإلهية بما يناسب قدسية الذات الإلهية وغناه المطلق وبما يليق به سبحانه وتعالى.

وكما أن الإنسان وحدةُ قياس -بما يملك من جامعية حياته- لمعرفة صفات الله الجليلة، وشؤونه الحكيمة، وفهرسٌ لتجلي أسمائه الحسنى، ومرآةٌ ذات شعور بجهات عدة لذات «الحي القيوم».. كذلك الإنسان هو وحدةُ قياس أيضاً لمعرفة حقائق الكون هذا، وفهرسٌ له ومقياسٌ وميزان. فمثلاً: إن الدليل القاطع على وجود اللوح المحفوظ في الكون يتمثل في نموذجه المصغر وهو القوة الحافظة لدى الإنسان. والدليل القاطع على وجود عالَم المثال نلمسه في نموذجه المصغر وهو قوة الخيال لدى الإنسان،[1] والدليل القاطع على وجود الروحانيات في

---

(١) نعم! إن عناصر الإنسان مثلما تشير إلى عناصر الكون وعظامه تنبئ عن أحجاره وصخوره، وأشعاره توحي إلى نباتاته وأشجاره، والدم الجاري في جسمه والسوائل المختلفة المترشحة من عيونه وأنفه وفمه تخبر عن عيون الأرض وينابيعها ومياهها المعدنية، كذلك تخبر روحُ الإنسان عن عالم الأرواح وحافظته عن اللوح المحفوظ وقوة خياله عن عالم المثال. وهكذا يخبر كل جهاز عن عالم ويشهد على وجوده شهادة قاطعة. (المؤلف).

الكون ندركه ضمن نموذجها المصغر وهو لطائفُ الإنسان وقواه.. وهكذا يكون الإنسان مقياساً مصغراً يُظهر عياناً الحقائقَ الإيمانية في الكون بدرجة الشهود.

وهناك مهماتٌ ووظائف وخدمات كثيرة أخرى للإنسان فضلاً عمّا ذكرناه؛ إذ هو: مرآةٌ لتجلي الجمال الباقي، وداعٍ إلى الكمال السرمدي ودالّ عليه، ومحتاجٌ شاكر لأنعم الرحمة الواسعة الأبدية.

فما دام الجمالُ باقياً والكمال سرمدياً والرحمة أبدية، فلابد أن الإنسان الذي هو المرآة المشتاقة لذلك الجمال الباقي والداعي العاشق لذلك الكمال السرمدي والمحتاج الشاكر لتلك الرحمة الأبدية سيُبعث إلى دار بقاء أبدية ليخلد فيها دائماً، ولابد أنه سيذهب إلى الأبد ليرافق الباقين الخالدين هناك ويرافق ذلك الجمال الباقي وذلك الكمال السرمدي وتلك الرحمة الأبدية في أبد الآباد. بل يلزم ذلك قطعاً لأن: الجمال الأبدي لا يرضى بمشتاق فانٍ ومحبٍ زائلٍ. إذ الجمال يطلب محبةً تجاهه مثلما يحب نفسَه. بينما الزوال والفناءُ يحولان دون تلك المحبة ويبدلانها إلى عداء.

فلو لم يرحل الإنسانُ إلى الأبد، ولم يبقَ هناك خالداً مخلداً فسيجد في فطرته عداءً شديداً لما يحمل من سر مغروز فيه وهو المحبة العميقة نحو الجمال السرمدي. مثلما بينّا ذلك في حاشيةٍ في «الكلمة العاشرة» (رسالة الحشر): أن حسناء بارعةَ الجمال عندما طردت -ذات يوم- أحدَ عشاقها من مجلسها، انقلب عشقُ الجمال لدى العاشق المطرود قبحاً وكرهاً حتى بدأ يسلّي نفسه بقوله: تباً لها ما أقبحَها! فأنكر الجمالَ وسخط عليه.

نعم فكما أن الإنسان يعادي ما يجهله، فإنه يتحرى النقصَ والقصور فيما تقصر يدُه عنه، ويعجز عن الاحتفاظ به ومسكه.. بل تراه يتحرى فيه عن القصور بشيء من عداء وحقد يضمره، بل يتخذ ما يشبه العداء له.

فما دام الكونُ يشهد بأن المحبوب الحقيقي والجميل المطلق سبحانه يحبّب نفسَه إلى الإنسان بجميع أسمائه الحسنى، ويطلب منه مقابل ذلك حباً عظيماً له، فلابد أنه سبحانه لا يدع هذا الإنسان الذي هو محبوبُه وحبيبُه يسخط عليه، فلا يودع في فطرته ما يثير عداءً نحوه -أي بعدم إحداث الآخرة- ولا يغرز في فطرة هذا المخلوق المكرّم الممتاز، المحبوب

لدى الرب الرحيم والمخلوق أصلاً للقيام بعبادته، ما هو منافٍ كلياً لفطرته من عداء خفي، ولا يمكن أن يحمّل روحَه سخطاً عليه سبحانه قط؛ لأن الإنسان لا يمكنه أن يداوي جرحه الغائر الناشئ من فراقه الأبدي عن جمال مطلق يحبّه ويقدّره إلّا بالعداء نحوه، أو السخط عليه، أو إنكاره. وكون الكفار أعداءَ الله نابع من هذه الزاوية.. لأجل هذا فسيجعل ذلك الجمال الأزلي حتماً هذا الإنسان الذي هو مرآةٌ مشتاقة إليه مبعوثاً إلى طريق أبد الآباد، ليرافق ذلك الجمال المطلق والبقاء والخلود، ولا ريب أن سيجعله ينال حياة باقية في دار باقية خالدة.

وما دام الإنسان مشتاقاً فطرةً لجمال باقٍ وقد خُلقَ محباً لذلك الجمال.. وأن الجمال الباقي لا يرضى بمشتاق زائل.. وأن الإنسان يسكّن آلامَه وأحزانه الناجمة عما لا تصل إليه يدُه أو يعجز عن الاحتفاظ به أو يجهله، بتحري القصورَ فيه بل يسكّنها بعداء خفي نحوه، مسلياً نفسه بهذا العداء.. وما دام الكون قد خُلق لأجل هذا الإنسان، والإنسان مخلوق للمعرفة الإلهية ولمحبته سبحانه وتعالى.. وخالق الكون سرمديٌ بأسمائه الحسنى وتجلياته باقية دائمة.. فلابد أن هذا الإنسان سيُبعَث إلى دار البقاء والخلود، ولا بد أن ينال حياة باقية دائمة.

هذا وإن الرسول الأكرم ﷺ وهو الإنسان الأكمل والدليل الأعظم على الله قد أظهر جميع ما بيّناه من كمالات الإنسان وقيمتِه ومهمته ومثله، فأظهر تلك الكمالات في نفسه، وفي دينه، بأوضح صورةٍ وأكملها، مما يدلنا على: أن الكائنات مثلما خُلقت لأجل الإنسان، أي أنه المقصود الأعظم من خلقها والمنتخب منها، فإن أجلّ مقصودٍ من خلق الإنسان أيضاً وأفضل مصطفى منه، بل أروع وأسطع مرآة للأحد الصمد إنما هو محمد عليه وعلى آله وأصحابه الصلاة والسلام بعدد حسنات أمته...

فيا الله يا رحمن يا رحيم يا فرد يا حيُّ ياقيومُ يا حكم يا عدل يا قدوس.

نسألك بحق فرقانك الحكيم وبحُرمة حبيبك الأكرم ﷺ

وبحق أسمائك الحسنى وبحرمة اسمك الأعظم

أن تحفظنا من شر النفس والشيطان ومن شر الجن والإنسان. آمين

﴿سُبۡحَـٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

اللمعة الحادية والثلاثون

انقسمت هذه اللمعة إلى «الشعاعات» وستنشر في مجلد مستقل إن شاء الله.

اللمعة الثانية والثلاثون

وهي «اللوامع» التي هي آخر ما ألّفه «سعيد القديم» في غضون عشرين يوماً من شهر رمضان وجاءت منظومة نظماً عفوياً. نشرت ملحقةً بمجموعة «الكلمات».

اللمعة الثالثة والثلاثون

هي الحقائق التي ظهرت على قلب «سعيد الجديد» بدرجة الشهود، وسطرها باللغة العربية في رسائل موسومة بـ(«قطرة من بحر التوحيد»، «حبة من جنان القرآن»، «شمة من نسيم هداية القرآن»، «ذرة من شعاعات هداية القرآن»، «حباب من عمان القرآن»، «زهرة من رياض القرآن»،«شعلة من أنوار القرآن») مع ذيول هذه الرسائل وقد ضمت كلّها تحت عنوان «المثنوي العربي النوري» سينشر في مجلد مستقل إن شاء الله.



يَا اَللّٰه، يَا رَحْمٰنُ، يَا رَحِيمُ، يَا فَرْدُ، يَا حَيُّ، يَا قَيُّومُ، يَا حَكَمُ،
يَا عَدْلُ، يَا قُدُّوسُ

بحق الاسم الأعظم وبحرمة القرآن المعجِز البيان وبكرامة الرسول الأعظم ﷺ، أدخل الذين قاموا بطبع هذه المجموعة ومعاونيهم الميامين جنةَ الفردوس والسعادة الأبدية.. آمين. ووفّقهم في خدمة الإيمان والقرآن دوما وأبدا.. آمين. واكتب في صحيفة حسناتهم ألفَ حسنة لكل حرف من حروف كتاب «اللمعات».. آمين. وأحسِن إليهم الثبات والدوام والإخلاص في نشر رسائل النور.. آمين

يا أرحم الراحمين! آت جميع طلاب النور في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة.. آمين. واحفظهم من شر شياطين الجن والإنس.. آمين. واعف عن ذنوب هذا العبد العاجز الضعيف سعيد.. آمين

باسم جميع طلاب النور

سعيد النورسي

نبذة عن بعض الأعلام

أحمد المهاجر (الحافظ): هو أحد أشراف التجار في بارلا ومن أوائل طلاب النور لازم الأستاذ النورسي طوال بقائه في بارلا . توفي سنة ١٩٤٨م رحمة الله عليه.

أحمد غالب (المعلم): من أوائل طلاب النور، خطاط وشاعر، له ديوان شعر مخطوط، ولد في (يالواج) سنة ١٩٠٠، وتوفي في شباط ١٩٤٠م رحمه الله رحمة واسعة.

الإمام الرباني: هو أحمد بن عبد الأحد السرهندي الفاروقي (٩٧١-١٠٣٤ هـ) الملقب بحق «مجدد الألف الثاني» برع في علوم عصره، وجمع معها تربية الروح وتهذيب النفس والإخلاص لله وحضور القلب، رفض المناصب التي عرضت عليه، قاوم فتنة «الملك أكبر» التي كادت تمحق الإسلام. وفَّقَه المولى العزيز إلى صرف الدولة المغولية القوية من الإلحاد والبرهمية إلى إحتضان الإسلام بما بث من نظام البيعة والاخوة والإرشاد بين الناس، طهر معين التصوف من الأكدار، تنامت دعوته في القارة الهندية حتى ظهر من ثمارها الملك الصالح «اورنك زيب» فانتصر المسلمون في زمانه، وهان الكفار. إنتشرت طريقته «النقشبندية» في أرجاء العالم الإسلامي بوساطة العلامة خالد الشهرزوري المشهور بمولانا خالد (١١٩٢-١٢٤٣هـ). له مؤلفات عديدة أشهرها «مكتوبات» ترجمها إلى العربية محمد مراد في مجلدين.

الرفاعي: (٥١٢-٥٧٨ هـ) احمد بن علي بن يحيى الرفاعي، أبو العباس، الإمام الزاهد مؤسس الطريقة الرفاعية. ولد في قرية حسن في واسط بالعراق سنة ٥١٢ هـ وتفقه وتأدب في واسط. وكان يسكن قرية أم عبيدة بالبطائح (بين واسط والبصرة) وتوفي بها سنة ٥٧٨ هـ.

السيد البدوي: ٥٩٦-٦٧٥هـ/ ١٢٠٠-١٢٧٦م أحمد بن علي بن إبراهيم الحسيني، أبو العباس البدوي. المتصوف، صاحب الشهرة في الديار المصرية. أصله من المغرب، ولد بفاس، وطاف البلاد وأقام بمكة والمدينة، ودخل مصر في أيام الملك الظاهر بيبرس، فخرج لاستقباله هو وعسكره، وأنـزله في دار ضيافته، وزار سورية والعراق سنة ٦٣٤هـ وعظم شأنه في بلاد مصر فانتسب إلى طريقته جمهور كبير بينهم الملك الظاهر. وتوفي ودفن في طنطا حيث تقام في كل سنة سوق عظيمة يفد إليها الناس من جميع أنحاء القطر المصري احتفاءاً بمولده، لم يذكر له مترجموه تصنيفاً غير «حزب-مخطوط» و«وصايا» و«صلوات». وقد افرد بعضهم سيرته في كتب، منها كتاب «السيد البدوي» لمحمد فهمي عبد اللطيف.

بكر أفندي: من أوائل طلاب النور، ولد سنة ١٨٩٨م في بارلا وتوفي في سنة ١٩٥٤م في استانبول تغمده الله برحمته.

توفيق (الحافظ): (١٨٨٧-١٩٦٥م) من أوائل طلاب النور وكتابها، لقب بالحافظ لحفظه القرآن الكريم وبالشامي لطول بقائه بالشام بصحبة والده الذي كان ضابطاً هناك، وهو المشهود له بالصلاح والعلم والتقوى، لازمَ الأستاذ في بارلا وفي سجون أسكي شهر ودنيزلي. تغمده الله برحمته.

جعفر الصادق (٨٠-١٤٨هـ) جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط، الهاشمي القرشي، أبو عبد الله ، الملقب بالصادق: سادس الأئمة الاثني عشر. كان من أجلاء التابعين. وله منزلة رفيعة في العلم. ولقب بالصادق لأنه لم يعرف عنه الكذب قط. له أخبار مع الخلفاء من بني العباس وكان جريئا عليهم صداعا بالحق. له (رسائل) مجموعة في كتاب. مولده ووفاته بالمدينة المنورة.

حاتم الطائي: (٠٠٠-٤٦ ق هـ) حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي القحطاني، أبو عدي : شاعر جاهلي، فارس جواد، جاهلي. يضرب المثل بجوده. كان من أهل نجد، وزار الشام فتزوج ماوية بنت حجر الغسانية، ومات في عوارض (جبل في بلاد طيئ) قال ياقوت : وقبر حاتم عليه. شعره كثير، ضاع معظمه، وبقي منه (ديوان -ط) صغير. وأخباره كثيرة متفرقة في كتب الأدب والتاريخ. وأرخوا وفاته في السنة الثامنة بعد مولد النبي ﷺ.

خالد (الحافظ): هو خالد عمر لطفي أفندي. من أوائل طلاب النور وكتاب الرسائل. ولد سنة ١٨٩١ في بارلا توفي سنة ١٩٤٦ في استانبول -رحمه الله-. اشتغل في التعليم ثم تركه واصبح إماماً في أحد مساجد بارلا، أرسل له الأستاذ رسالة عزى فيها طفله (أنور) الذي توفي سنة ١٩٣٠ اثر إصابته بمرض السعال الديكي عن عمر يناهز الثامنة ودخلت هذه الرسالة ضمن المكتوبات - المكتوب السابع عشر.

خسرو: كان في مقدمة الذين استنسخوا المئات من الرسائل ونشروها في أحلك الظروف، وقضى معظم حياته مع أستاذه في سجون أسكي شهر ودنيزلي وآفيون وهو الذي كتب مصحفاً بتوجيه من الأستاذ النورسي لإظهار الإعجاز في التوافقات اللطيفة لاسم الجلالة في الصفحة الواحدة. ولد في إسبارطة سنة ١٨٩٩ وتوفي في استانبول سنة ١٩٧٧م رحمه الله رحمة واسعة.

خلوصي يحياكيل: من السابقين الذين تتلمذوا على الأستاذ النورسي في «بارلا» وكان حينئذٍ ضابطاً برتبة نقيب، كان يبعث إلى أستاذه أسئلته وما يُستفسر منه من أمور إيمانية. جمّعت هذه الأجوبة بتوجيه الأستاذ نفسه وسمّيت بـ(المكتوبات). توفي سنة ١٩٨٦ عن ٩١ سنة من العمر، رحمه الله رحمة واسعة.

خوارزم شاه: هو الحاكم السابع والأخير لإمبراطورية خوارزم، تصدى لأول مرة لجيش جنكيزخان، وشتت جيش أحد قواده، وفي سنة ١٢٢١ شتت أيضاً جيشاً كبيراً للمغول، ولكن اضطر إلى الانسحاب إلى الهند لتوالى هجوم المغول. وفي سنة ١٢٢٤ أحيا إمبراطورية خوارزم في إيران أدت انتصاراته إلى توجس السلاجقة والدولة الأيوبية منه. فلم يجد منها عوناً. وفي سنة ١٢٣١ اضطر إلى الانسحاب أمام المغول إلى جبال طوروس واغتيل هناك.

رأفت بارودجي: (١٨٨٦-١٩٧٥) عسكري متقاعد من أوائل الذين تتلمذوا على الأستاذ النورسي ولازمه في سجن اسكي شهر ودنزلي. تولى الإمامة في استانبول، كان حاذقاً في تعليم القرآن.

الرومي (مولانا جلال الدين): (٦٠٤-٦٧٢هـ) (١٢٠٧-١٢٧٣م) عالم بفقه الحنفية والخلاف وأنواع العلوم، ثم متصوف صاحب (المثنوي) المشهور بالفارسية المستغني عن التعريف في ستة وعشرين ألف بيت، وصاحب الطريقة المولوية. ولد في بلخ (بفارس) استقر في (قونية) سنة ٦٢٣هـ عرف بالبراعة في الفقه وغيره من العلوم الإسلامية، فتولى التدريس بقونية في أربع مدارس بعد وفاة أبيه سنة ٦٢٨ هـ، من مؤلفاته: ديوان كبير، فيه ما فيه، مكتوبات.

زين العابدين: (٣٨-٩٤ هـ) علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، الهاشمي القرشي، أبو الحسن، الملقب بزين العابدين: رابع الأئمة الاثني عشر، وأحد من كان يضرب بهم المثل في الحلم والورع. مولده ووفاته بالمدينة المنورة . أحصي بعد موته عدد من كان يقوتهم سرا، فكانوا نحو مئة بيت.

السعدي: «شيخ مصلح الدين» من شعراء الصوفية الكبار، ومن أرقهم تعبيراً، ولد في مدينة «شيراز»، قدم بغداد استكمالاً لدراساته في علوم الدين في المدرسة النظامية، كان من مريدي الشيخ عبدالقادر الكيلاني، قضى ثلاثين سنة من عمره في الأسفار ونظم الشعر، وكتابه «كلستان» مشهور.

«سعيد القديم»: هو اللقب الذي يطلقه الأستاذ النورسي على نفسه، قبل قيامه بتأليف رسائل النور (١٩٢٦) وقبل أن يأخذ «سعيد الجديد» على عاتقه مهمة إنقاذ الإيمان، ويستلهم من فيض القرآن الكريم رسائل النور.

الشيخ سعيد: المشهور بـ«بيران» كردي من شيوخ الطريقة النقشبندية، كان جده من خلفاء مولانا خالد الشهرزوري، قاد ثورة في الأقاليم الشرقية في تركيا ضد السلطة الحاكمة لاتجاهها المعادي للدين. نشبت ثورته في ١/ ٢/ ١٩٢٥ وتم القضاء عليها في ١٥/ ٤/ ١٩٢٥ وقُدم الشيخ إلى محكمة الثورة فأصدرت عليه وعلى سبعة وأربعين من مقربيه حكم الإعدام وتم تنفيذه عليهم في «دياربكر» في ٢٩/ ٦/ ١٩٢٥.

سليمان رشدي: (١٨٩٩-١٩٧٤م) من تلاميذ الأستاذ النورسي الأوائل في اسبارطة، سجن معه في كل من اسكي شهر ودنيزلي.

سليمان (السيد): وهو الذي خدم الأستاذ النورسي في منفاه «بارلا» طوال ثماني سنوات، كان مثالاً للصدق والوفاء والإخلاص. توفي في سنة ١٩٦٥ رحمه الله رحمة واسعة.

الشاذلي: (٥٩١-٦٥٦ هـ) هو علي بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلي، والشاذلة قرية من أفريقيا، الضرير الزاهد نـزيل الإسكندرية وشيخ الطائفة الشاذلية، صاحب الأوراد المسماة «حزب الشاذلي».

صبري آرسيون: ولد في سنة ١٨٩٣ وتوفي في ٢/ ٢/ ١٩٥٤ .إمام مسجد في «بدرة» التابعة لناحية «اكريدير». تتلمذ على الاستاذ النورسي وسجن معه في سجن دنيزلي ١٩٤٣ وكان يطلق عليه «سنترال» لنشاطه الواسع في نشر الرسائل الى القرى المحيطةلـ«بارلا».

صدر الدين القونوي: هو محمد بن إسحاق بن محمد بن يوسف القونوي الرومي، صدر الدين: من كبار تلاميذ محي الدين بن عربي تزوج ابن العربي أمه، وربّاه، من كتبه (النصوص في تحقيق الطور المخصوص) في التصوف، وتفسير سورة الفاتحة سمّاه (إعجاز البيان في تفسير أم القرآن).

طاووس بن كيسان: (٣٣-١٠٦ ه) طاووس بن كيسان الخولاني الهمداني: من أكابر التابعين، تفقهاً في الدين ورواية للحديث، وتقشفا في العيش، وجرأة على وعظ الخلفاء والملوك. أصله من الفرس، ومولده ومنشأه في اليمن. توفي حاجا بالمزدلفة أو بمنى، وكان هشام بن عبد الملك حاجا تلك السنة، فصلى عليه. وكان يأبى القرب من الملوك والأمراء.

عبد المجيد: هو أصغر اخوة الأستاذ النورسي. ترجم كثيراً من رسائله إلى اللغة العربية إلا أنها نشرت في وقتها في نطاق ضيق وترجم إلى التركية رسائله العربية (إشارات الإعجاز) و(المثنوي العربي). كان مدرساً للغة العربية ثم مفتياً ثم مدرساً للعلوم الإسلامية في معهد الأئمة والخطباء والمعهد الإسلامي في قونيا. توفي سنة ١٩٦٧م عن ثلاث وثمانين سنة من العمر رحمه الله رحمة واسعة.

عبد الرحمن بن عبدالله: ابن شقيق الأستاذ النورسي ولد سنة ١٩٠٣ في نورس وتوفي سنة ١٩٢٨ ودفن في قرية (ذو الفضل) في أنقرة. كتب تاريخ حياة الأستاذ حتى عام١٩١٨ ونشره بكتاب طبع في إسطنبول.

فضولي البغدادي: شاعر عاش في القرن السادس عشر الميلادي وهو مؤسس الأدب العثماني الآذري، له أشعار ودواوين في اللغات التركية والعربية والفارسية توفي سنة ١٥٥٥م، من أعماله المشهورة «ليلى ومجنون» اسمه الحقيقي: محمد.

الكيلاني (عبد القادر): هو ابن أبي صالح أبو محمد الجيلي. ولد بجيلان جنوب غرب بحر الخزر سنة ٤٧٠ هـ، ينتهي نسبه إلى سيدنا الحسن رضي الله عنه، دخل بغداد فسمع الحديث وتفقه على أبي سعيد المخرمي الحنبلي، وهو أحد الأقطاب المعروفين لدى أهل السنة والجماعة، ومجدد عظيم استقام على يديه كثير من المسلمين واسلم كثير من اليهود والنصارى. من مصنفاته؛ كتاب الغنية وفتوح الغيب والفتح الرباني، توفي ببغداد سنة ٥٦١ هـ .

محي الدين بن عربي: (٥٦٠-٦٣٨ هـ/ ١١٦٥-١٢٤٠م) هو محمد بن علي بن محمد ابن عربي، أبو بكر الحاتمي الطائي الأندلسي، المعروف بمحي الدين بن عربي، الملقب بالشيخ الأكبر: فيلسوف، من أئمة المتكلمين في كل علم. ولد في مرسيه (بالأندلس) وانتقل إلى اشبيلية. وقام برحلة فزار الشام وبلاد الروم والعراق والحجاز. وأنكر عليه أهل الديار المصرية «شطحات» صدرت عنه، فعمل بعضهم على إراقة دمه. وحبس، فسعى في خلاصه علي بن فتح البجائي فنجا. واستقر في دمشق، فتوفي فيها له نحو أربعمائة كتاب ورسالة، منها (الفتوحات المكية) في التصوف وعلم النفس و(فصوص الحكم).

مصطفى جاويش: اسمه الحقيقي خلوصي مصطفى ولد سنة ١٨٨٢، خدم الأستاذ النورسي في بارلا وتوفي في شباط سنة ١٩٣٩ عن سبعة وخمسين سنة من العمر تغمده الله برحمته.

مصطفى صبري: (١٨٦٩-١٩٥٤م) تولى مشيخة الإسلام في الدولة العثمانية، قاوم الحركة الكمالية، هاجر إلى مصر، ألف كتباً أهمها (موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين).

موسى جارالله: (باكوف) تركستاني، قازاني، شيخ الإسلام في روسيا قبل الثورة البلشفية، ألف ما يقارب (١٢٠) كتاباً في مختلف موضوعات الإسلام آراؤه تنحو منحى التجدد والتحرر، أيد الثورة مدة من الزمن تخلصاً من القيصرية ثم تبين له الأمر، فسجن عدة مرات. سافر إلى بلدان كثيرة، وأهم مؤلفاته: الوشيعة في نقد عقائد الشيعة توفي في ملجأ العجزة بالقاهرة.

نيازي المصري: شاعر تركي صوفي (١٦١٨-١٦٩٤م)، ولد في قرية قريبة لولاية «ملاطية». أكمل دراسته في الأزهر الشريف فلقّب بـ«المصري»، له ديوان شعر ومؤلفات منها: «رسالة الحسنين»، «موائد العرفان وعوائد الإحسان»، «هداية الإخوان». تولّى الإرشاد في مدارس استانبول العلمية.


الفهارس

فهرس الآيات

فهرس الأحاديث الشريفة

فهرس تحليلي

أ

خ

د

ن

فهرس الأسماء

فهرس الأشعار والأمثال والحكم

فهرس الأماكن

فهرس الحيوانات

فهرس النباتات

فهرس عام للموضوعات